الأطفال والطفولة

بين الأدب والثقافة

رؤية إسلامية نفسية

تأليف

الدكتور أحمد خليل جمعة

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف : ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

الأطفال والطفولة

بين الأدب والثقافة

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٢٢٤٥

بيروت - ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ - تلفاكس ٠١ ٤٧٥٨٥٧ - جوال ٠٣ ٨٥٣٥٨٦

Http://www.dar-alyamama.com

e-mail: alyamama@scs-net.org

١٥٥ / ٢٢٢

الأطفال والطفولة

بين الأدب والثقافة

رؤية إسلامية نفسية

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم: (٧١)

تأليف

الدكتور أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أولادي الأحباء

نورا * نور الدين * سلوى

أهدي هذا الكتاب

وأرجو الله أن يوفقكم لما يحبه ويرضاه

أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

نال المؤلف بهذا البحث درجة

الدكتوراه

في اللغة العربية

بتقدير ممتاز

المقدمة وعرض الكتاب

* الحمدُ للهِ الذي أحكمَ الأشياء كلَّها صُنْعاً ، وتصرَّفَ كما شاءَ إعطاءً ومنْعاً ، أنشأَ الإنسانَ فإذا هو يسعى ، وخلقَ له عينَيْنِ لِيُبصرَ المَسْعى ، ووَالى لديه النّعم وتْراً وشفْعاً.

* وأشهدُ أنَّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله خاتم الأنبياء ، صلّى الله عليه وسلم صلواتٍ دائمةَ البقاء ، وعلى أصحابهِ السَّادةِ النّجباء ، الذين كانوا معه على الكُفَّار أشدّاء ، وفيما بينهم رُحَماء. وبعد:

* ليسَتِ الكتابةُ في أدبِ الأَطْفَال وثقافتِهم أَمْراً سَهْلَ المنَال ، بل هي بحرٌ ليسَ له قرارٌ ، وخصوصاً الكتابةُ من خلالِ الأدبِ المُعَاصرِ ، إذ اتّسَعتِ المساحةُ الأدبيةُ ، وتنوَّعَتِ الأساليبُ ، وتعدّدتِ الموضوعاتُ ، وكثُرتِ الآراءُ والنّظريّاتُ.

* ولمّا شَرعْتُ في اختيار هذا الموضوع وكتابتِهِ ، ظنَنْتُ أنَّ بساتينَ الأدبِ مفتّحة الأَبْوابِ أمامي ، وما عَليَّ إلاّ الدُّخولُ ، واقتطافُ جنَى الرَّيْحانِ وأزاهِرَ الطُّرَفِ لِريَاحينِ القُلُوب؛ أكبادِنا التي تمشي على الأرض.

* لكنّي وجدْتُ أنَّ الأمْرَ ليسَ سَهْلاً ، وأنَّ الشَّاهِدَ ليسَ كالغائبِ ، فالدُّخُولُ إلى عَالَمِ أدبِ الأطفالِ وثقافتهم عالَمٌ مثيرٌ يحتاجُ إلى الوقوفِ والتّأَمُّلِ والاختيار ، فليس منَ السَّهْلِ أنْ يلمَّ الباحِثُ أشتاتَ موضوعهِ بِيُسْرٍ ، ثُمَّ يجعَلَهُ منسَّقاً مُتَناسِقاً في كتابٍ يصْلُحُ لأطفالِنا في هذا الوطَنِ العَربيّ الجميل.

* إنَّ الأَدَبَ ممتعٌ ومفيدٌ في آنٍ واحدٍ ؛ والأدبُ فنٌّ ، وشَأْنُ الفنِّ أنْ يمتعَ ، والمُتْعَةُ هي تلكَ النّشوةُ الحاصِلةُ من معايشةِ نصٍّ أدبيٍ قراءةً ، أو سَمَاعاً ، أو مشَاهدةً في بعض الأحيان.

* ويستطيعُ العَملُ الأدبي الهَادفُ أنْ يدعمَ الخُلُقَ والتّربيةَ والتّعليمَ ، كما أنَّ فضيلةَ النَّصِّ الأدبيّ الجيّدِ تكْمنُ في قدرتِه على السّموِ بنفسِ مَنْ يتأمّله ، ولذا ينبغي أنْ يبدأَ العَملُ الأدبيُ بالإمتاعِ والمُؤَانَسةِ ، وينتهي بالمعرفةِ والحكْمةِ.

* من هذا المُنْطَلقِ حرصْتُ على تحقيقِ ذلك لينْشَأَ ناشىءُ الفتْيان فِيْنا على الفضيلةِ والعاداتِ النبيلةِ وكَرَم الأخلاقِ ومحاسنِ الفَضَائلِ. فنحنُ نَعْلَمُ أنَّ الأخلاقيَّاتِ والتّربويّاتِ والإشادةِ بمكارمِ الآدابِ أقربُ إلى النّاسِ بكُلّ المقاييس ، لأنَّ عالمَ الفضيلةِ عالمٌ يحبُّه النَّاسُ جميعهم على اختلاف أجناسِهم وطبقاتِهم ، ولأنَّ الأخلاقَ هي الباقيةُ :

فَمَــنْ تخلَّــقَ بــالآدابِ ظَــلَّ بهــا   رئيــس قــومٍ إذا مــا فَــارَقَ الــرُّؤسَــا

* سمّيتُ هذا البحث : «الأطفَال والطّفُولة بين الأدبِ والثَّقافةِ» أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ ينفعَ بهِ عمومَ الأمّةِ ، وخصوصاً المربّين منَ النِّساءِ والرِّجال؛ ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود: ٨٨] ، وتقدَّمْتُ به إلى جامعةِ الدّراساتِ الإسلاميّةِ ، قسم اللغةِ العربيةِ ، لِنَيل درجةِ «الدّكتوراه».

أولاً ـ أسبابُ اختيار الموضوع : يمكنُ أنْ نلخّصَها في نقاطٍ أهمُّها :

١ ـ قِلّةُ المصَادرِ والموضوعاتِ التي تحدّثَتْ عن أدبِ الأطفَالِ وثقافتِهم من منظورٍ إسلاميّ تربويّ يشْمَلُ العُصورَ كافّةً ولا سيما العصرُ الحديثُ.

٢ ـ مُحاولةُ الوقوفِ على الفوائدِ والعظاتِ التي تُؤخذُ من الأدبيّاتِ المنوّعةِ الجميلة ، وإفادةِ الأطفالِ والنَّاشئةِ من خلالها إفادة نبيلة.

٣ ـ تقويةُ الرّابطِ اللغويّ لدى الأطفالِ ؛ وغرس حبّ العربيّةِ في نفوسِهم من خلالِ فُصُولِ الكتابِ الماتعة وأبوابهِ اليانعة.

ثانياً ـ أهمّيّتُهُ: لهذا الموضوعِ أهميَّةٌ واضحة المعالم نوجزُهَا في النّقاطِ الآتية:

١ ـ عَلاقَةُ هذا الموضوع بقديمِ الأدبِ وحديثِهِ في المجالاتِ التَّربوية والنّفسيّة والثّقافية.

٢ ـ يبرزُ هذا الموضوع طُرقَ تعليمِ الأطفَال وتثقيفِهم وتأديبهم بما ينسجمُ مع مستواهم وفطرتِهم، ونفسيّاتهم وحياتهم.

٣ ـ تنميةُ التّذوّق الأدبيّ لدى الأطفالِ وإثارةُ الحسِّ الجمالي والفَنّيّ وصقْلُه عندهم ووضع أيديهم على مفاتيح الثّقافة المفيدة النّافعة.

ثالثاً: خطةُ البحثِ:

* يشتَمِلُ هذا البحث على: مقدّمةٍ، وثلاثةِ أبوابٍ وخاتمةٍ وفهارسَ عامّة.

* البابُ الأوّلُ بعنوان: «الأطفالُ والطّفولةُ في مرآةِ الأدَبِ»، وفيه ثمانيةُ فصولٍ شملتِ اللغةَ والتّربيةَ ونجابةَ الأطفَالِ، والتّذوُّقَ الأدبيَّ عندهم من خلالِ ثراءِ حروفِ اللغةِ العربيّةِ وجماليّتها، ثمّ حشدْتُ طاقاتٍ أدبيةً هامِسَةً عنِ الأطفالِ والطُّفولةِ من خلالِ قُلُوبِ الآباءِ والأمّهاتِ والأدباء ومشاعرهم ووجدانهم.

* وأمّا البابُ الثّاني فقد حَمَلَ عنوان: «روافدُ ثقافية للأطفالِ والطّفولةِ»، وجعلْتُه في سَبْعَة فصُولٍ متناسقةٍ بدأتُها بفوائدَ مونقةٍ من القُرآنِ والسُّنَّةِ، ثمّ العباداتِ فمكارمِ الأخلاقِ فقصصٍ وأحجياتٍ هادفةٍ مع شيءٍ عن المسرحِ الأدبيّ الأخلاقي الذي ينمّي الجانبَ الاجتماعيَ والنّفسيّ والعِلْميّ عند الأطفال، ثم ختمتُه بنماذجَ من القصصِ الهادفِ الذي يثْري ثقافَةَ الأطفال ويوسِّع آفاقهم.

* وأمّا البابُ الثّالثُ فكان عنوانُه: «عواملُ في ارتقاءِ ثقافَةِ الأطفالِ وأدبهم»، وجعلتُهُ في سبْعةِ فصُولٍ، جرى الحديثُ من خلالِها عن الأثرِ الفعَّال في بناءِ ثقافةِ الأطفالِ وفي المقدمةِ: الأبوَان، المساجدُ، المدرسةُ، المعلّمُ... ثم تحدثتُ عن وسائلِ الإعلامِ المختلفةِ وأثرها في ارتقاءِ ثقافةِ

الأطفال وإغنائها ، وكذلك أثر القراءةِ الهادفةِ والكتبِ والصّحافةِ والمجلاّتِ . وعقدتُ فصْلاً عن أهميّةِ الرّسمِ في صقْلِ ثقافةِ الأطفالِ وتحديدِ ميولهم واكتشافِ مواهِبهم وإبداعِهم ونفسيّاتِهم ، كما أنشأتُ فَصْلاً مهمّاً عن التّلفزيون وأثرِهِ الإيجابي والسَّلبي في ثقافةِ الأطفالِ والنّاشئة وأدبهم . وكان فَصْلا ماتعاً غنياً بالحقائق والمعارف المفيدةِ ختمتُ بهِ البحْثَ . لأنَّ النّاسَ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى هذا الموضوعِ المهمّ في هذا الزّمن الرهيب الذي اختلَسَ التّلفزيونُ أطفالَنا من بين أيدينا ونحنُ ننظرُ إليهِ وإليهم دون أنْ نحرّكَ سَاكِناً ، أو نغيّر شيئاً ، أو أنْ نعرف أنَّ هذا الجهاز العجيبَ داء أم دواء؟! .

* ثمّ الخاتمةُ التي ذكرتُ فيها نتائجَ البحثِ والتّوصيات ويليها الفهارس .

* رجعتُ في صِيَاغةِ هذا البحثِ وإعدادهِ إلى مئاتٍ من المصَادرِ والمراجعِ العربيّةِ والأجنبيّةِ ، وإلى عددٍ كبيرٍ به من المجلاّت المختلفةِ قديمها وحديثها ووسائلِ الإعلامِ المتنوعةِ . وإلى مِئَاتٍ من دواوينِ الشُّعراء القُدماءِ والمحدثين لكي أنتخبَ منها ما يتناسَبُ مع موضوعِ البحثِ وخطّتِهِ وهدفِهِ.

* جاءَ في مقدّمةِ المصَادر: القُرآنُ الكريمُ وعلومُه وكذلك كتبُ التّفسيرِ القديمةِ والحديثةِ ، فالقديمةُ مثل: تفسير الطّبريّ والقُرطبيّ وابن كثير وغيرها ، والحديثة كتفسيرِ المراغي والتّفسير المنير ، والوجيز وغيرها .

* وتأتي المصادرُ الحديثيّةُ في المرتبةِ الثّانيةِ ، وفي أوّلها: الصّحيحان ، والسُّننُ ، والمسانيدُ مع شروحِها وعلومِها وتاريخها .

* ثم عرَّجْتُ على كتُبِ السّيرةِ النّبويّةِ والدّراساتِ عنها ، وكذلك كتبِ الطّبقاتِ والتّراجمِ والتّواريخِ . وأُمّاتِ المصادرِ الأدبيةِ لأنّها تحتوي على ينابيعَ أدبيةٍ وثقافيةٍ غزيرةٍ.

* وكان لدواوينِ الشّعر القديمِ منها ـ وبعض الحديث النّادر ـ النَّصيب الوافر . إذِ اسْتَقَيْتُ منها شطْرَ هذا البحثِ . ثمَّ بعض المجلاّتِ النّادرةِ مثل مجلّة «أبولو» وغيرها . بالإضافةِ إلى عشراتِ الكتُبِ التي اهتمَّتْ بالدّراساتِ الأدبيّةِ والتّربويّةِ والنّفسيّة ، وكذلك إلى المراجع العربيةِ والمُعرَّبةِ . وإلى كثيرٍ

من المقالاتِ المنثورةِ في ثنايا المجلاتِ والدّوريات.

* وكنتُ من خلالِ البحثِ والاستقراء أرجّحُ النَّظرةَ الإسلاميّةَ فيما أذهبُ إليه منْ رأي ، إذْ إنَّ الإسلامَ فيهِ من الكُنوزِ الأدبيةِ والثّقافية والأخلاقيّةِ والمعرفيّةِ ما يصلحُ لكلّ زمانٍ ومكانٍ ولكل جيل ذكوراً وإناثاً صغاراً وكباراً.

* وأودُّ أن أذكر قُبيل الخاتمة بأنَّ من خصائص هذه الدِّراسَةِ أنّها عامرةٌ بالنّماذجِ والأمثلةِ التَّطبيقيَّةِ من نثرٍ وشعْرٍ لتكونَ مفْتَاحاً لِمَنْ يأتيَ فيما بعدُ ، ويشاركَ في هذا المجالِ الجميلِ ، ويخدمَ أكبادَنَا التي تمشي على الأرضِ.

* اللّهمَّ وفّقْنا إلى ما فيهِ الخير لحياتنا ومعادنا ، وما فيه الخير لأطفالِنا وأبنائِنا.

* اللّهمَّ وفّقْنا إلى ما تحبُّ وترضىٰ ، واجعلْ أعمالَنا خالصةً لوجِهكَ الكريمِ.

* اللهمَّ علّمْنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتَنا ، وزدنا علماً ، إنّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ.

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب

الدكتور أحمد خليل جمعة

دمشق ـ حرستا

حيّ الشّيخ موسى

٢٥/ ٦/ ٢٠٠٢م

الباب الأوّل

الأطفال والطفولة في مرآة الأدب

الفصل الأول : الأطفال في اللّغة وعلم النّفس

الفصل الثاني : الاهتمام بالأطفال تربيةً وسلوكاً

الفصل الثالث : علوّ همّةِ الأطفال وأدبُهم

الفصل الرابع : الأطفال والتّذوّق الأدبيّ

الفصل الخامس : حُروف اللّغةِ العربيّة ثراءٌ أدبيّ

الفصل السادس : همساتُ القلوب إلى حبّات القلوب

الفصل السابع : الأطفال في أدب الوالدين

الفصل الثامن : من أدبيّاتِ رثاءِ الأطفال

الفصل الأول

الأطفالُ في اللّغَةِ وعلم النَّفس

* إنَّ في معرفة معنى الطِّفلِ في دواوينِ اللغةِ ومَظَانِّها ، يقرّبُ إلىٰ الأذهانِ التّصوُّرَ الصَّحيحَ لِمفْهُومِ الطُّفولةِ وأطوارها.

* في «الصِّحاحِ» يتحدَّثُ أبو نَصْر الجوهريّ ـ رحمه الله ـ عن مادّةِ الطِّفْلِ فيقولُ ما مفادُهُ ومحصّلُه: «الطِّفْلُ: المولودُ . وولَدُ كلِّ وحشيّة أيضاً طِفْلٌ ، والجمعُ أطْفَالٌ؛ وقد يكونُ الطِّفْلُ واحداً وجَمْعاً ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ . .﴾ [النّور: ٣١]. والطَّفل بالفَتْح: النّاعم ، يُقَال: جاريةٌ طَفْلة ، أي ناعمَةٌ. . .»[١].

* وقال الزَّمخشريُّ في «الأساس»: «طِفْل: بَيِّنُ الطُّفُولةِ ، وفعلِ ذلك في طفولتِه. . وامرأةٌ طَفْلَةٌ: ناعِمةٌ ، وبنانٌ طَفْلٌ: نَاعِمةٌ. وقد طَفُلَ طُفولةً وطَفَالةً ، وطَفَّلَتِ الشَّمس: دنَتْ للغروب ، وطفّلَ الليلُ: أقبلَ وأظَلَّ. ومن المجازِ قولُهم؛ أتيتُه والليلُ طِفْل: وذلك في أوّلِه. وقولُهم: ريحٌ طِفْل: ليّنة. وقولُهم: تطايرتْ أطفالُ النَّار: شَررُها. وقولُهم: هو يسعى لي في أطفالِ الحوائج: في صِغَارِها. . .»[٢].

*وتعرّضَ الفيوميُّ في «المصْبَاحِ المُنيرِ» إلى هذهِ المادَّةِ فقالَ: «الطِّفْلُ: الولَدُ الصَّغيرُ مِنَ الإنْسَانِ والدَّوابِ ، قال ابنُ الأنباريّ: ويكونُ الطِّفْلُ بلَفْظِ

---

(١) انظر: الصحاح للجوهري (٢/ ١٣٠٧ و١٣٠٨) طبعة دار الفكر الأولى ـ ١٩٩٨م.

(٢) انظر: أساس البلاغة للزمخشري (ص٣٩٢) بتصرف. طبعة دار الفكر ـ ١٩٩٤م.

واحدِ للْمذكَّرِ والمؤنَّثِ والجمع. ويجوزُ المُطَابقةُ في التَّثْنِيَةِ والجمعِ والتّأنيثِ ، فيُقَال: طفْلةٌ ، وأطفَالٌ ، وطفْلاتٌ. وأطْفَلتْ كلُّ أنثى إذا ولدَتْ فهي مُطْفِل. قال بعضُهم: ويبقى هذا الاسمُ للولَدِ حتّى يميِّز ، ثمّ لا يُقالُ له بعد ذلك طِفْل ، بل صَبِيٌ ، وحزَوَّرٌ ، ويافعٌ ، ومراهقٌ ، وبالغٌ؛ وفي التّهذيب: يُقالُ له طفلٌ إلى أنْ يحتَلِمَ. . »[١].

* وقبل هؤلاء قال ابنُ فارس المتوفّىٰ سنة (٣٩٥ هـ) عن مادَّةِ طفْلٍ في «المُجْمَل» ما مفادُه: «الطِّفْلُ: المولودُ؛ والمولودةُ: طفلةٌ. والطَّفْلَةُ: الجاريةُ النَّاعمةُ. . والمُطْفِلُ: الظّبيةُ ومعها ولدُهَا ، وهي قريبةُ عَهْدٍ بالنّتاج. . »[٢].

* أمّا مادّةُ الطِّفلِ عندَ ابنِ منظورٍ في «اللسان» ، فقد استوفَتْ بضْعَ صفحاتٍ ، نقتطفُ منها هذه الأزاهرَ المفيدةَ حيثُ قال: «الطَّفْلُ: البنَانُ الرَّخْصُ النَّاعمُ ، والجمعُ طِفَالٌ وطفُولٌ؛ والأنثى: طفْلةٌ؛ وقد طَفُلَ طفَالةً وطُفولةً. ويُقَالُ: جاريةٌ طَفْلةٌ: إذا كانت رخْصَةً. والطِّفْلُ والطِّفْلةُ: الصَّغيران. والطِّفْلُ: الصَّغيرُ منْ كُلِّ شيءٍ بَيِّن الطَّفَلِ والطَّفَالةِ والطُّفُولةِ والطُّفُوليّةِ ، ولا فِعْلَ له. وقال أبو الهيثَم: الصَّبيُّ يُدعىٰ طِفْلاً حين يسقُطُ من بَطْنِ أُمّه إلى أنْ يحتلِمَ. والعربُ تقولُ: جاريةٌ طفْلةٌ وطِفْلٌ ، وجاريتان طفْلٌ ، وجوارٍ طفْلٌ ، وغلامٌ طفْل ، وغلمان طفْل ، ويُقالُ: طِفلٌ ، وطِفلةٌ وطفلان ، وأطفالٌ ، وطفلتان ، وطفْلاتٌ في القياس.

والطِّفلُ: المولودُ ، ويكونُ الطِّفلُ واحداً وجمعاً. وغلامٌ طَفْل: إذا كان رخْصَ القَدمَيْن واليدَيْن. وامرأةٌ طَفْلةُ البَنان: رخْصَتُها في بَيَاضٍ ، بَيِّنة الطُّفُولة.

والمُطْفِلُ: ذاتُ الطِّفْل منَ الإنسانِ والوحْشِ معها طفْلُها ، وهي قريبةُ عَهْدٍ بالنِّتاج.

وليلةٌ مُطْفِلٌ: تَقْتُلُ الأطفالَ ببردِها. وأطفالُ الحوائجِ: صغارُهَا.

---

(١) المصباح المنير (ص٣٧٤) طبعة مصورة دون ذكر التاريخ أو اسم الدار.

(٢) انظر: مجمل اللغة (ص٤٤٨ و٤٤٩) باختصار وتصرف طبعة دار الفكر ١٩٩٤م.

وجاريةٌ طِفْلةٌ: إذا كانتْ صغيرة ، وجاريةٌ طَفْلةٌ: إذا كانت رقيقةَ البشرةِ ناعمةٌ. والطِّفْلةُ: الحديثةُ السِّنّ ، والذّكر طِفل»(١).

* بعد أنْ عرفْنَا شيئاً عن معنىٰ الطِّفْلِ والطُّفُولةِ عند العربِ ، يتبيّنُ لنا أنَّ مرحلةَ الطُّفُولةِ تبدأُ منذُ الولادةِ ، وتستمرُّ إلى أن يغدوَ الطِّفْلُ بالغاً ، ومعنى ذلك أنَّ هذهِ المرحلةَ هي مرحلةُ الصِّغَرِ واللينِ والرقّةِ والبراءةِ ، وعلينا الاهتمامُ بهذهِ المرحلةِ المهمّةِ التي تعتبرُ من أهمّ مراحلِ حياةِ الإنسانِ ، بل هيَ أساسُ المراحلِ جميعها ، وروحُها وريحانُها إذا استطاعَ المربيّ أنْ يوجّهَهَا التّوجيهَ السَّليمَ المستقيمَ الذي يخدمُ الطِّفْلَ ، ويجعله من النَّافعين لِديْنِهِ ودنياه في جميعِ أمورِ حياتهِ وأطوارِها.

* ومعلومٌ أنَّ الإنسان يمرُّ في حياته بمراحلَ عِدَّة ؛ ويتحوّلُ من حَالٍ إلىٰ حالٍ ، وقد أشارَ الله عزَّ وجلَّ إلى هذه المراحلِ بقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤]؛ وقد أوردَ القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ في تفسيرهِ آثاراً وأقوالاً عديدةً في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿أَطْوَارًا﴾ ومنها ما وردَ عن ابن عبّاسٍ وغيرهِ إذ قالوا ما محصّلُه: «أطواراً: يعني نُطْفَة ثمّ عَلَقَة ثمّ مُضْغة؛

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٠١ ـ ٤٠٤) بشيء من الاختصار والتصرف.
ومن الجدير بالذّكرِ ، أنّهُ لم يَرِدْ اللفظ «الطِّفل» في القرآنِ الكريمِ مفرداً في الدّلالةِ المُتَعارفِ عليها للمفردِ الواحدِ من هذا اللفظ: «طِفْل» وإنّما جاء اللفظ بعينهِ جمعاً بصيغةِ المفردِ الواحدِ المعروف: «الطِّفل ـ طِفلاً» يقصدُ الجمع ، وذلك ثلاث مرّات:
الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].
الثانية: قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].
الثالثة: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].
وجاء جمعاً بصيغةِ: «الأطفال» مرةً واحدةً بقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ...﴾ [النور: ٥٩].
والأطفال: جمعُ طِفْلٍ ، وهو المولود حتّى البلوغ ، يقال: هو طفْلٌ وهي طفلة ، وهما طفلان ، أو طفلتان ، وهم أطفال.
ويقال: هي ، وهما ، وهم ، وهنّ «طِفْلٌ».
وقيل: الطّفْلُ يكون واحداً وجمعاً. والطِّفْلُ يُطلق على الصَّبي من حين يُولَدُ إلى حين يحتلم.

أي طَوْراً بعد طورٍ إلى تمام الخلْقِ. وقيل: أطواراً: صِبْياناً، ثمّ شَباباً، ثم شُيوخاً، وضُعفَاء. وقيل: أطواراً أي أنواعاً: صحيحاً وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنياً وفقيراً..»[1].

* ويشرحُ القرآنُ الكريمُ مراحلَ نموِ الإنسانِ مع تبيانِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كُلِّ مرحلةٍ. اقرأْ قولَه تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

* ونظرةُ تفكيرٍ دقيقةٍ في هذهِ الآيةِ الكريمةِ نجدها تصوّرُ مشْهداً جميلاً هادفاً في ذواتِ النّفوس، وفي أطوارِ نشأتِها على هذه الأرضِ، فيرى الإنسانُ بدايةَ حياتهِ، ويرى أواخرهَا في مشاهِدَ مؤثّرة كأنّها ماثلةٌ أمامَهُ دائماً، وفي هذه المشاهدِ صُورٌ مُوحيةٌ بجلالِ الخالِقِ العظيمِ، لمن كان له قَلْبٌ أو ألقىٰ السَّمْعَ وهو شهيدٌ.

* فالضّعفُ المُشَارُ إليهِ في الآيةِ الكريمةِ ذو معان تنبىءُ بمراحلِ النّمو الإنسانيّ. والضَّعْفُ هو ضَعْفُ البنيةِ الجسديّةِ في المرحلةِ الجنينيّة للطّفْلِ التي تترجمُ أطوارَه وهو في تلك المرحلةِ التي فيها، والتي كُلُّ ما فيها واهنٌ، ثمّ نجدُ الضَّعْفَ في الطِّفلِ والصَّبي، إلى أنْ يستقبلَ سنَّ الفتوّةِ وريعانَ الشَّبابِ، حيث القوّةُ في الجسَدِ والبناءِ الإنسانيّ، والعقليّ والنّفسيّ. وبعدها تبدأُ مرحلةُ الضَّعفِ كما بدأت، إذ إنَّ الشَّيخوخةَ ما هي إلاّ انحدارٌ إلى الطُّفولةِ بأغلبِ ظواهِرِها، فقد يهفو الشَّيخُ أحياناً كما يهفو الطِّفْلُ، ومع الشَّيخوخةِ يكون اشتعالُ الشَّيْبِ، ووهْنُ العظمِ، وفتور الجسم.

* ومن العَدالَةِ الإلهيّةِ أنَّ هذه الأطوارَ تشْمَلُ النّاسَ جميعاً، فلا ينفلتُ منها أحدٌ ممّن امتدَّ به العمرُ، أَوْ مَنْ وصلَ مِنهم إلى أرذَلِهِ، وهذه الأطوارُ بِيَدِ الخالِقِ الذي يخلقُ ما يشاءُ، ويقدّرُ ما يشاءُ، فيقدِّرُ لِكُلِّ مخلوقٍ زَمَنَهُ وأحوالَه وأطوارَهُ..

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٦) بشيء من التصرف.

* فحياةُ الإنسانِ إذاً سلْسِلَةٌ واحدةٌ متواصلةٌ في التّغيّراتِ والأحداثِ ، على أنَّ مرحلةَ الطُّفولةِ من أهمِّ مراحلِ نموّ الإنسان ، فهي مرحلةُ البناءِ ومرحلةُ التّكوين ، ويمكنُ تقسيمُ هذه المرحلةِ إلى بضْعِ مراحلَ هي: مرحلةُ الرّضاعةِ ، والحضَانةِ ، والتّمييزِ ، فالمراهقةِ؛ ولكلّ مرحلةٍ مدّةٌ معينةٌ لها أهميتُها ، وخصائصُ تتعلّقُ بها ، وتدلُّ عليها . .

* ومن المعلومِ أنَّ الطُّفولةَ (Chilhood) هي مرحلةٌ من الحياةِ تمتدُّ من الولادةِ إلى المراهقةِ ، أي حتى الرّابعة عشرة من العمر تقريباً .

* ومن منظور علْم النّفسِ يعتبرُ أنَّ الطُّفولةَ هي المرحلةُ الضّروريةُ لتحويلِ الوليد راشداً .

* كما أنَّ الطّفولةَ هي خلاصةٌ ومقدّمةٌ في وقتٍ واحدٍ .

* وقد قسَّمَ علماءُ النَّفْسِ الطّفولةَ إلى ثلاثِ مراحلَ:

الطُّفولةُ الأولى: من الولادةِ إلى السَّنَةِ الثّانية أو الثّالثة .

الطُّفولةُ الثّانية: من السَّنة الثَّانية أو الثّالثة حتّى السَّادسة أو السَّابعة .

الطُّفولةُ الثّالثة: تنتهي بمرحلةِ البلُوغ .

* ويتمُّ نموُّ الطّفلِ وفقَ سَيْرورةٍ من التّمايزِ الاجتماعيِّ والأُسريّ . فالفِطامُ أحدُ الوقائعِ النّفسيّة الأولى التي تتيحُ للطفلِ أن يتمايزَ من أُمّهِ ، ويشعرَ بواقعهِ ، ويتوسَّعَ عالَمه ، مع تحسُّنٍ في عددٍ من المجالاتِ النّفسيّةِ الحركيّةِ من مثل: «استعمال اليد ، اكتساب وضعِ الوقوف والسَّير» واللفظيّة من مثل: «حروف ، كلمات ، جُمَل» . وتزدادُ اهتماماته ، وتتوطّدُ أفكاره . ويكتشفُ في السَّنة الثّالثةِ شخصيّتَه التي يؤكّدُها مستخدماً كلمة: «أنا» ومعارضاً غيره دون باعث؛ وانطلاقاً من هذه الفترةِ الزّمنيةِ المهمّة والحرجة تجري اكتساباته بإيقاعٍ يزدادُ سرعة حسب نموّه[1] .

* * *

---

(١) انظر: المعجم الموسوعي في علم النفس (٣/ ١٥٦٠ و١٥٦١) بشيء من التّصرّف .

الفصل الثّاني
الاهتمامُ بالأطفالِ تربيةً وسلوكاً

* لم تكنِ الطُّفولةُ نسْياً منسِيّاً في العَصْرِ القديمِ ، ولا في العَصْرِ الحاضِرِ ، بل نجدُ الاهتمامَ بالأطفالِ والطُّفولةِ يأخذُ مساحاتٍ واسعةً من اهتمامِ التّربويين في مختلفِ بلدانِ العالَم.

* فمن البَدهي أنَّ الطِّفْلَ (Child) لا يستطيعُ الاعتمادَ على نفسهِ في بدايةِ حَياتهِ ، وإنّما هو مخلوقٌ لطيفٌ ضعيفٌ لا قوّة له ولا حول ، يحتاجُ إلى مَنْ حولَه ممّن يرعون أحوالَه ، ويبصرون أمورَه؛ ومن المُتعَارفِ عليه أنَّ نسْبَةَ الأطفالِ تشكِّلُ أكثرَ من ثُلُثِ عددِ السُّكّانِ ، خصوصاً في البلادِ الإسلاميّةِ ، وهذا يعني أهميّة كُبرىٰ لهذهِ الشَّريحةِ من هذه المُجتَمعاتِ. .

* ولعلَّ الاهتمامَ بالأطفالِ ومراحل طفولتِهم قد أخذَ شطراً كبيراً من اهتمامِ الدَّارسين ، ومن أوقاتِ المربّين ، وخصوصاً الأَبوَيْن ، ذلك أنَّ مرحلةَ طفولةِ بني البشَر أطْوَلُ من غيرِها عند جميعِ الكائناتِ الحيّةِ على سطْحِ الأرض.

* إنَّ طولَ هذه المرحلةِ تحتاجُ إلى عنايةٍ ورعايةٍ خاصّةٍ بها ، فمراحلُ الأطفال في عَطَاء متواصلٍ ومتكاملٍ ومتناسبٍ مع تكوينه ، فالأطْفَالُ يحتاجون ـ كي تنمو طفولتُهم ـ إلى عنايةٍ واهتمامٍ من المُحيطين بهم ، وذلك لِتَحديدِ سلوكهم في المُستقْبَلِ ، فالأطفالُ كائناتٌ حيّةٌ تعتمدُ على غيرِها ، ولا يمكنُ أنْ يستمرَّ نشاطُها أكثرَ من بضْعِ سَاعاتٍ ما لمْ تلحظْهمْ عنايةُ الكبارِ ، وتسوِّي أمورهم ، وتوجّه حياتَهم وتبنيْها بناءً صحيّاً وجسمياً ونفسيّاً وعقليّاً.

* ومن هنا نُدرِكُ أنَّ مستقبلَ الإنسانِ مبنيٌّ على مرحلةِ طفولَتهِ إيجاباً كان

أمْ سلْباً ، لذا فعلينا أنْ ندركَ أيضاً أنَّ مستقبلَ المجتمعاتِ مرتبطٌ ـ ارتباطَ الرّوح بالجَسدِ ـ بالعنايةِ بالأطفال ؛ إذ هم رجالُه ، ونساؤُه مستقبلاً ، وهم همو صانعُو حضارتِهِ ، وثروتِهِ؛ وهم همو عنوانُ أملِهِ وتطلُّعِهِ لكلّ ما هو نافعٌ ومفيدٌ ، فالعنايةُ بأطْفَالِ المجتمعِ هي ثمرةُ المستقبلِ اليانعة ، خصوصاً إذا تعاملَ المجتمعُ الواعي مع الأساليبِ التّربويةِ الصَّحيحةِ والصَّالحةِ في بناءِ الأطفالِ ، وإذا ما عُوملَ الأطفالُ بالتربيةِ المنحرفةِ والمشتّتةِ ، فإنّهم يصبحون مُجتمعاً لا تَحسُنُ الحياةُ معه ، إذ سيكونُ ضررُهُم أكبرَ من نفعِهم لأنفسِهم ولمن حولَهم.

* وممَّا لا شكَّ فيهِ ، أنَّ أَمْرَ التّربية[1] أمْرٌ مهمٌّ ، قد تقصُرُ عنه عقولُ كثيرٍ من الآباءِ والأمّهاتِ في عَصْرِنا الحاضرِ ، إذْ يعتبرُ بعضُهم أنَّ التَّربيةَ القويمةَ للأطفالِ تبدأُ عندما يدركُ الأطفالُ سِنَّ التّمييز.

* وهذا التَّصوُّرُ منهم غيرُ صحيح ، إذْ يقصّرون في تربيةِ أطفالِهم وهم صغارٌ ، وعندها ينشأُ هؤلاءِ الأطفالُ على عِوَجٍ ، ومِنْ ثمّ يعجزُ الآباءُ والأمّهاتُ عن تقويمِ العِوَجِ ، ويفوتُهم وَقْتُ التّأديبِ وزمنُه ، وينشأُ الأطفالُ نشأةً هزيلةً حافلةً بألوانِ السُّوءِ والفَشَل.

■ وبعد هذا يأتي الأبوان لِيُقوِّما اعوجاجَ الأطفالِ ، وهما ينهالان عليهم باللائمةِ والتّأنيبِ ، خصوصاً إذا ما بَدرَ منهم بعضُ الهفَواتِ التي تخلُّ

---

(١) معنى التّربية في اللغةِ: يُقال: ربّاه تربيةً: أحْسَنَ القيامَ عليه وَوَليَهُ حتّى يفارقَ الطُّفوليّة ، سواء كان ابنه أو لم يكُنْ. (لسان العرب ١/ ٣٨٦).
ويُقال ربَّ الولد ربّاً: وليَهُ وتعهّده بما يغذّيه ويؤدّبه. ويُقال: ربَّ الشَّيءَ: أي أصلَحَهُ ومتَّنَهُ (المعجم الوسيط ١/ ٣٢١) فتربيةُ الأولادِ في اللغةِ تعني حُسْنَ القيامِ بشؤون الأولادِ عل نحوٍ يؤدّي إلى أدبهم وصلاحهم.
أمّا المرادُ بتربيةِ الأولادِ في الاصطلاح الفقهي ، فإنّه يقومُ على معناها اللغوي ، وهو القيامُ على الأولادِ بما يؤدّبُهم ويصْلِحُهم ، ويتحقّقُ ذلك بتعليمهم ما يلزمهم من أمور الدّين والدّنيا ، وتأديبهم بآدابِ الإسلامِ وأخلاقهِ ، وتكوين شخصيّتهم الإسلامية. وهذه المعاني الثّلاثة في الواقع تقومُ على المعنى اللغوي (للتَّربية) ، إذ بهذهِ المعاني وتحصيلها يتحقّقُ القيامُ الحسَنُ بأمورِ الأولادِ ، ويحصلُ المقصودُ من تربيتهم.

بالأخلاقِ والعَاداتِ الاجتماعيّةِ. وهنا نستطيعُ أنْ نجزمَ بأنَّ اللومَ علىٰ الآباءِ والأُمَّهاتِ، لأنَّهم أهملُوا أطفالَهم دونَ تربيةٍ ودونَ توجيهٍ مفيدٍ، ونسُوا أنَّ هؤلاءِ الأطفالَ أمانةٌ عندهم، وعليهم أنْ يصونوا هذهِ الأمانةَ الجسيْمةَ.

* وقد تنبَّه الإمامُ أبو حامدٍ الغزاليّ ـ رحمهُ اللهُ ـ قديماً إلى تربيةِ الأطفالِ، وتحدَّثَ عن مسؤوليّةِ الوالدَيْن عن التَّربيةِ فقال: «اعلمْ أنَّ الطَّريقَ في رياضةِ الصِّبيانِ من أهمِ الأمورِ وأوكَدِها، والصَّبيُ أمانةٌ عند والديهِ، وقَلْبُهُ الطَّاهرُ جوهرةٌ نفيسةٌ ساذجةٌ، خاليةٌ مِنْ كلّ نَقْشٍ وصورةٍ، وهو قابلٌ لكُلّ ما يُنْقَشُ فيه، ومائلٌ إلى كلِّ ما يُمالُ بهِ إليه، فإنْ عُوِّدَ الخيرَ وعُلّمَه نشأَ عليهِ، وسَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، وشاركَهُ في ثوابهِ أبواه، وكلّ معلّمٍ له ومؤدِّبٍ؛ وإنْ عُوِّدَ الشَّرَّ، وأُهمِلَ إهمالَ البهائِم، شقيَ وهلَكَ، وكان الوِزْرُ في رقَبَةِ مُربّيهِ والقيّمِ عليه؛ وقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. ومهما كان الأبُ يصونُه عن نَارِ الدُّنيا، فَبِأَنْ يصونَه عن نارِ الآخرةِ أوْلىٰ، وصيانتُهُ بأنْ يؤدّبَه ويهذّبَه، ويعلّمَه محاسنَ الأخلاقِ، ويحفظَه من قرناءِ السُّوء، ولا يعوّدَهُ النَّعيمَ، ولا يحبّبَ إليهِ الزّينةَ والرّفاهيَةَ، فيضيعَ عُمرَهُ في طلبِها إذا كَبُرَ، فيهلكَ هلاكَ الأبد»(١).

* وفي وجوبِ تعليم الأطفال أمور الدّين من الوالدَيْن يذكُر القُرطبيُّ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] فيقول: «قال بعضُ العُلماء: لمّا قال اللهُ تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ دخلَ فيه الأولاد، لأنَّ الولدَ بعضٌ منه، فيعلّمه الحلال والحرام، ويجنّبه المعاصي والآثام إلى غير ذلك من الأحكام. وذكر القشيري أنَّ عمر رضي الله عنه قال ـ لمّا نزلت هذه الآية ـ: يا رسولُ اللهِ نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «تنهونَهم عمّا نهاكم اللهُ وتأمرونهم بما أمر الله». وقال بعضُ أهلِ العِلْمِ: فعلينا تعليمُ أولادنا وأهلينا الدِّين والخَيْر، وما لا يُسْتَغْنى عنه من الأدب»(٢).

---

(١) انظر: المهذّب من إحياءِ علومِ الدّين (٢/ ٥٠) بتصرّف يسير.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٥ و١٩٦).

* وجاء عند الآلوسي في تفسيره لهذه الآية قوله: «وقايةُ النَّفْسِ عن النّار بتركِ المعاصي وفعلِ الطّاعات، ووقايةُ الأهلِ بِحَمْلِهم على ذلك بالنُّصح والتّأديب. وأخرجَ ابنُ المنذر والحاكم وصحّحه عن عليّ رضي الله عنه أنَّه قال في هذه الآية: «علّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدّبوهم».

* والمرادُ بالأهل على أنّه يجبُ على الزّوجة والولد والعبد والأمة؛ واستدلّ بهذه الآيةِ على أنّه يجبُ على الرّجل تعلّم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء. وأدخل بعضُهم الأولاد في الأنفسِ - أي في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ - لأنَّ الولدَ بعضٌ من أبيه»[1].

إذاً ينبغي على الأبِ المربّي أن يراعيَ في أمْرِ التَّربيةِ أموراً مهمّةً منها:

أوّلاً - أنْ يتخيَّرَ الرَّجُلُ الزَّوجةَ العاقلةَ التَّقيّةَ النَّقيّةَ الصَّالحةَ الحَصَانَ الرَّزَانَ، حيثُ إنَّ الولدَ فرعٌ لها، وللفَرْعِ حُكْمُ الأَصْلِ، والفرعُ يطيبُ ويحسُنُ ويزكو بأصْلِهِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

وقال أحدهم مُخاطباً أولادَهُ:

وَأَوّلُ إحْسَـانـي إلَيْكُـم تَخَيُّـري ... لِمَـاجِـدةِ الأَعْـرَاقِ بَـادٍ عَفَـافُهَـا

* ومنذُ القديم تنَبّه الشّاعرُ إلى عكْسِ ذلك فقال:

هَـذي العَصَـا مِـنْ هَـذهِ العُصَيّـة ... لا تَلِـدُ الحيَّـةُ إلاّ الحيَّـة

* فاختيارُ المرأةِ إذاً هو أهمُّ الأمورِ في طريقِ بناءِ شخصيّةِ الأطفالِ، بل بناءِ الأسرةِ المُسْلمةِ السَّعيدة، فزوجُ الرّجُلِ هي رفيقةُ عمرِه، وأمينةُ سرِّه، وأمُّ ولدِه، وألصقُ شيءٍ بنفسِهِ وقلبِهِ، ولذا فإنَّ سعادةَ المرءِ أو شَقَاوَتَهُ تكونُ رهْنَ هذا الاختيارِ الحصيفِ الذي يعتمدُ على الحكمةِ والعقلِ والرّويةِ. فالأمُّ الصَّالحةُ المهذّبةُ هي التي تربّي أطفالاً على سُنَنِ الهدىٰ القويمةِ، وتأخذُ

(١) تفسير الآلوسي (٢٨/ ١٥٦). ويُستَفادُ من هذه النُّصوص والأقوال لعلماء الصحابة، وكبار التّابعين، وأعيان المفسّرين وجوب تعليم الأطفال ما يلزمهم معرفته من أمور الدّين، وأنّ الوالدين هما اللذان يقومان بهذا الواجب.

بأيديهم الغضّةِ وقلوبهم النّقيّةِ إلى ينابيعِ الفضائلِ وعيونِ المكارِم؛ ولله درُّ الشّاعر محمّد حافظ إبراهيم حيثُ شَدا في قافيتهِ الشَّهيرةِ عن الأُمِّ[1] الفاضلةِ النَّاجحةِ ، فكان ممّا قالَ:

الأمُّ مـدرسـةٌ إذا أعـددْتَهـا ... أعـددْتَ شَعْبـاً طيِّـبَ الأَعْـراقِ
الأمُّ رَوْضٌ إنْ تعهَّـدَهُ الحَيـا ... بـالـرّيّ أورقَ أيّمـا إيْـراقِ
الأمُّ أستـاذُ الأسـاتـذةِ الأُلىٰ ... شَغَلَـتْ مـآثرهُـم مَـدىٰ الآفـاقِ[2]

* ويرى بعضُ شعراءِ تونُس أنَّ المرأةَ المهذَّبةَ قد تُغني عن المدرسَةِ إنْ هي أحسنتْ تقويمَ أخلاقِ الأطفالِ ، وإن هي هذّبَتْ أرواحَهم ، وصقلَتْ نفوسَهم بنفيسِ التّربيةِ ، وجليلِ الأخلاقِ ، يكونُ بيتُها منبعَ التّهذيب ، اسمعْ إلى سعيد أبي بكر التُّونسيّ حيثُ يقولُ:

معَاملُ الرُّوحِ لَيَسَتْ في مَدارسِنا ... آلاتُهـا بيـنَ أُسْتَـاذٍ وأَوْلَادِ
لا تَفْتحـوهَـا إذا كَـانَـتْ لِمـرأَتِنـا ... فـي بَيْتِهـا رُوحُ تهـذيـبٍ وإرْشَـادِ

* وقال غيرهُ مُشيداً ومشيراً إلىٰ الأمِّ الفاضلةِ التي ترعىٰ الأطفالَ وتربّيهم أفْضَل تربّية:

أَهَـمُّ مَـدْرسـةٍ للطّفْـلِ وَالِـدَةٌ ... مِنهَـا الفَضَـائِـلُ والآدَابُ تُلتَقَـمُ
ربّـوا النِّسـاءَ يُـدبّـرنَ البُيـوتَ علىٰ ... أَبْهـىٰ نظـامٍ بـه الأَحْـوالُ تنتظـمُ
أمُّ البنيـن إذا كـانـتْ مُهـذّبـة ... تعـوِّدُ الصِّـدقَ والتّقـوىٰ نفـوسَهُـمُ
المرأةُ الأصْلُ والأَخْلاقُ في يدِهَا ... وإنّمـا الأمـمُ الأَخْـلاقُ والشِّيَـمُ

* وقال آخرُ منبّهاً إلىٰ رقيّ الأُمّهاتِ في ميدانِ التّربيةِ القويمةِ للأطفال والنَّاشِئَة:

---

(١) للأم وظيفة مهمّة في التربيةِ بالنّسبةِ للأطفال الصّغار ، إذ إنّ بناءها الجسمي والنّفسي مهيأٌ لتحمّل أعباء التّربيةِ والحضانةِ والاعتناء بالأطفال ، فلا يستطيع الرّجل أنْ يسدَّ مكان الأم ودورها في التّربية، وقد قدّمتِ الشَّريعة الإسلامية النّساء على الرّجال في رعاية الأطفال ، لأنهنّ أخبر بأمور الحضانة والتربية منهم (زاد المعاد ٥/ ٤٣٨) بتصرف.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم (١/ ٢٨٢) مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٧ م وهي من قصيدة تعدُّ (٤٦ بيتاً) أنشدها في بورسعيد عام ١٩١٠ م.

حبَّـذَا النَّـشْءُ الجـديـد سَيِّـدَاتٌ مُـرشِـدَات
إنَّمـا العَيْـشُ السَّعيـد بِـرُقِـيِّ الأُمَّهـات

ثانياً ـ من الأمورِ المُهمّةِ في مجالِ تربيةِ الأطفالِ تربيةً قويمةً أنْ يرغَبَ الرّجلُ في الاقترانِ بامرأةٍ ذات خُلُقٍ حميدٍ ودِيْنٍ قويم ، فلا يكون اهتمامُهُ منْصَبّاً علىٰ الزَّواجِ من امرأةٍ ذات جَمالٍ ودَلالٍ ومَالٍ ، وذاتِ تَمَدُّنٍ وحضارةٍ مجلوبةٍ لا تُغني في التَّربيةِ شيئاً بل تفسِدُهَا وتميّعُها .

* وقد حضَّ سيّدنا وحبيبُنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على التَّزوّجِ من المرأةِ الحَصَان ذات الدِّين ، ورغَّبَ فيها ، فقال: «تُنْكحُ المرأةُ لأربعٍ : لمالها ، ولحسبِها ، ولجمالِها ، ولدينها ، فاظفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَدَاكَ»[1] .

* وأشارَ صلى اللهُ عليه وسلم أيضاً ناصِحاً وموضّحاً لمنْ أرادَ أنْ يتزوّجَ بأنْ يتخيَّرَ المرأةَ الخيّرةَ الدَّيِّنَةَ الصَّيِّنَةَ ، لا الجميلة الثَّرِيَّةَ التي قد يغرّها المالُ والجَمالُ فتطغىٰ فقال: «لا تزوّجوا النِّساء لِحُسنهنَّ ، فعسىٰ حُسنهنَّ أنْ يُردِيَهنَّ ، ولا تزوَّجوهُنَّ لأِمْوالِهِنَّ ، فعسىٰ أموالُهنَّ أنْ تطغيهنَّ ، ولكنْ

---

(1) أخرجه البخاري برقم (٥٠٩٠) ، ومسلم برقم (١٤٦٦) . ومعنى «تربتْ يداك»: يُقال للرجلِ إذا قلَّ مالُه: قد تَرِبَ ، أي افتقرَ حتّى لَصِقَ بالتّراب؛ وأتربَ: إذا استغنى وكثُرَ مالُه؛ وهذه الكلمةُ «تربَتْ يداك» جاءَتْ على ألسنةِ العرب ، لا يريدون بها الدُّعاء علىٰ المخاطب ، ولا وقوع الأمْرِ به ، وهذا كما يقولون: قاتَلَهُ اللهُ ، وكثيراً تَرِدُ للعربِ ألفاظٌ ظاهِرُهَا الذَّمُّ؛ وإنما يريدون بها المدحَ ، كقولهم: لا أبَ لك ، ولا أُمَّ لك ، ونحو ذلك؛ ففي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «لمْ يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ سبّاباً ولا فحّاشاً ، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة: تَرِبَ جبينُه ، يريدُ بذلك الدّعاءَ لهُ بكثرةِ السّجود» ، والمراد إذن بذات الدِّين: المرأة التي صقَلها الدِّينُ وهذَّبَها ، وكسَاهَا الحياء حُللاً ميمونة ، وأدبها الخُلقُ الطّاهرُ الكريمُ ، ورفَعها ستارُ العفّةِ والأدبِ .
ـ قال الإمام الغزالي في «الإحياء»: «وليس أمْرُه ﷺ بمراعاةِ الدِّين نهياً عن مراعاةِ الجَمال ، ولا أمْراً بالإضرابِ عنه ، وإنّما هو نَهْيٌ عن مراعاته مجرداً عن الدّين ، فإنَّ الجمالَ في غالبِ الأمْر يرغِّبُ الجاهلَ في النّكاحِ دون الالتفاتِ إلى الدّينِ ولا نَظَرٍ إليه ، فوقعَ النّهيُ عن هذا ، وأمرَ ألّا نُغفِلَ النّظر فيه . . » .
ـ وحبذا الجمالُ والمالُ إذا كان معهما الدّينُ والحسَبُ الزّاكي؛ فهاهنا ينتظمُ عقْد الرّجل ويبلغ مناه ، ويتمُّ أمرهُ .

تزوّجوهُنَّ على الدِّين ، ولأَمَةٌ سَوداءُ ذاتُ دِيْن أفْضَلُ»[١].

* ومنَ الواضحِ أنَّ سيِّدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد نصحَ لنا بأنْ نؤثِرَ التَّقيَّةَ العفيفةَ ذات الدِّين علىٰ مَنْ لا دِيْنَ ولا صيانةَ لها وإن كانت قد اكتسَتْ منَ الجمالِ سِرْبالاً ، أو أصابتْ من الدُّنيا أموالاً ، وليس معنى ذلك أنْ نُسْقِطَ المالَ والجَمالَ من الدِّينِ ، فَمَا أحسنَ ذاتَ الدِّين إذا وهبَها الله مالاً وجَمالاً! أمَّا إذا كان المالُ والجَمالُ وحيدَيْن في الميدانِ ، ولا يزينَهُما دِيْنٌ وعَقْلٌ وخلُقٌ قويمٌ ، فإنَّهما يصبحان مصدرَ بلاءٍ وشقاءٍ ومحنةٍ ، ولا سيّما الجمالُ والحُسنُ الفائقُ ، والمالُ الكثيرُ الوفيرُ.

ثالثاً ـ من الأمورِ المهمّةِ المستحسنةِ في طريقِ التّربيةِ القويمةِ ، أن يجتهدَ الآباءُ عند تزويجِ بناتِهم في اختيارِ الرّجُلِ الصّالحِ الذي يتحلّىٰ بالأخلاقِ والشَّرف والفَضيلةِ ، ويتمتَّعَ بالدِّينِ ، فإذا اجتمعتْ هذه الخَصَائلُ في الرَّجلِ ، بادرَ الأبُ إلى تزويجهِ ، وقد وجَّهَ سيّدُنا وحبيبُنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الآباءَ والمربّينَ إلى الرُّجلِ الكُفْءِ ذي الدِّين فقال: «إذا جَاءَكم مَنْ ترضَوْنَ دِيْنَه وخُلقَه فزوّجوه. . »[٢].

* فالزّوجُ الذي يستنيرُ بالخُلقِ الحميدِ ، ويكون عملُهُ متوّجاً بالتّقوىٰ ، هو الذي يحملُ الأمانةَ التَّربويةَ ، ويصونُ المرأةَ ، ويفي بكلّ حقوقها ، ويُكَوِّنُ أسرةً مثاليةً ، ويربّي أطفالاً نجباءَ يفيدون أُمّتهم ومجتمعَهم.

* وننطلقُ إلى دورٍ مهمٍّ في العنايةِ بالأطفالِ والطُّفولةِ من حيثُ السّلوك ، وهو دورُ اللعبِ الموجّه المدروس في التّربيةِ الطّفوليةِ ، وما مدى اهتمام الأبوين والمجتمعِ بهذهِ النّاحيةِ التي لم تكنْ تأخذُ مَسْلكاً تربوياً في بعض المجتمعات. فقد كان النَّاسُ في الجيلِ السَّالفِ يعتبرون الطِّفلَ الذي يركَنُ إلىٰ السّكونِ والهدوءِ ويلوذُ بالصَّمتِ ، ولا يسألُ عن شيءٍ يقعُ في محيطهِ مما تراه عينهُ وتسمعُه أُذُنه وتلمسهُ يدهُ ويذوقُه لسانه ولا يتكلَّم إلاّ إذا طُلبَ منه الكلام ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٥٩) ، ومعنى «يرديهن»: يهلكهنّ؛ و« تطغيهن»: توقعهن في المعاصي.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٠٨٤) ، وابن ماجه برقم (١٩٦٧).

كانوا يعتبرونَ هذا الطِّفلَ يجري على غرارِ الأدبِ ، ويسيرُ علىٰ نَهجِ التَّربيةِ الحسنةِ والسُّلوكِ المحمودِ ، وكانوا يعمدونَ إلى رَدِّ الطِّفلِ المتحرِّكِ إلى السّكون ، والثَّرثارِ إلى الصَّمتِ ، واللاّعبِ إلى الجدِّ ، والضّاحكِ إلى العبوسِ حتى يأخذوه ـ في رأيهم ـ على نهجِ التَّربيةِ القويمِ وينشئوهُ ـ في زعمِهم ـ على حسنِ السّلوكِ .

* وكانتِ المدرسةُ بدورها تعينُ على هذه التَّنشئةِ وتُظاهِرُ الآباءَ والأمهاتِ عليها ، وربما أوقعتِ العقابَ الشَّديدَ بالأطفالِ الذين يميلونَ إلى اللعبِ ، أو ينشطون إلى الحركةِ ، أو يضحكون ويصخبون ، وكان المعلّمُ الذي لا تسمعُ بين أطفالهِ في الفصل صوتاً ولا ترى منهم حركةً يُعَدُّ من المعلمينَ الممتازين والمتميّزين ، أما الحركةُ فحركةُ المُعلِّم وحدَه تبعثُ الخوفَ في قلوبهم ، والصَّوتُ صَوتُه منصبّاً في آذانهم فيثيرُ الرُّعْبَ في نفوسهم ، والأمرُ أمْرُه يتلقَّونه بالسَّمعِ والطَّاعةِ وهم صاغرون .

* ومنذ عقود مضت تغيَّر فهمُ المدرسةِ لطبيعةِ الطِّفلِ ـ وإن ظلَّتِ الأُسرةُ إلى عهدٍ ليس ببعيدٍ باقية على رأيها القديم ـ فَعُرِفَ أنَّ الطِّفلَ الصَّغيرَ إذ يتحرَّكُ ويلعبُ ويصخبُ ويعبثُ ويلمسُ ويُثرْثِرُ إنّما يمضي مَعَ إرادةِ الطبيعةِ منه ويستجيبُ لغرائزَ أَصيلَةٍ في نفسهِ ويؤدِّي عَملاً هو في تربيته ونموه وإعداده للحياةِ أَجْدى وأقومُ ممّا تؤدّيه له الأُسرةُ من رعايةٍ وما تقدِّمه له المدرسة من تعليمٍ وإرشادٍ ، فأقرَّتِ المدرسةُ بحقّ الطِّفل في اللعب ، وأفردتْ له جانباً من يومِها يطلقُ فيه حركاتِهِ في الفضاءِ ، ويلعبُ كيف شاءَ ، ويرسِلُ أصواته في الهواءِ كيْفما أراد ، كما جعلتْ قسماً من برامجِها للألعاب والأمورِ الفنيَّةِ وأولَتها اهتماماً في نشاطِها واعْتدَّت بها في أسباب نجاحها(١) .

---

(١) عندما أصدر «جون ديوي» كتابه «الخبرة والتَّربية» تحدَّثَ عن التَّربيةِ القديمةِ والتَّربيةِ الحديثة ، وانتقدَ القديمةَ فقال : «إنَّ الخبراتِ التي اكتسبَها التّلاميذُ والمدرّسون كانت من نوع خاطىء ، فكم منَ الطُّلاب مثلاً صاروا جامدين إزاء الأفكار ، وكم فقَدُوا الدَّافعَ إلى التَّعلُّمِ بسببِ الطَّريقةِ التي جرّبوا تعلّمهم بها . . . وكم عددُ مَنْ وجدوا أنَّ ما قد تعلّموه غريب عن المواقفِ الحياةِ خارجَ المدرسةِ غرابةً شديدةً ، ثم كم عدد الذين ربطوا الكتبَ بالاستعبادِ=

* يؤدّي اللعبُ في حياةِ الطِّفل وتوجيهِ سلوكهِ وظيفةً على جانبٍ كبيرٍ من الأهمّيّةِ في حاضرِ حياتهِ ومستقبلها ولربما فعلتِ الألعابُ في حياةِ الأطفالِ أكثر مما يفعلُه الغذاءُ الجيدُ والهواءُ الطيبُ والنومُ المريحُ والرعايةُ الحسنةُ ، ولربما يرجعُ الفضلُ لِلَّعب فيما يتمتعُ به كثيرٌ من النَّاس من صحّةٍ جيدةٍ وأعصابٍ قويّةٍ هادئةٍ وحياةٍ سعيدةٍ ساميةٍ ونجاحٍ مرموقٍ.

* ومنَ المُلاحَظِ أنَّ الطِّفلَ كلّما ارتقتْ أَلعابُه وأَعمالُه استحالَ اللعبُ عنده عملاً والعملُ لعباً.

* والتَّربيةُ النَّاجحةُ هي التي تعتمدُ على أَلعابِ الأطفالِ في توجيهِ السُّلوكِ وفي التَّدريبِ على العملِ واكتسابِ المهاراتِ في نواحي الحياةِ ، ومن المشاهَدِ أنَّ نشاطَ الطِّفْل يبدأُ باللعبِ ثم يتّجه شيئاً فشيئاً نحو العملِ حتّى يكونَه أو يكونَ مُفْضِياً إليهِ أَو مُعيناً عليه.

* والتَّعليمُ في الطُّفولةِ لا يؤتي أُكُلَه ولا يحتملُه الأَطفالُ أو يُسيغونَهُ إلاّ إذا جارىٰ نشاطَهم الطَّبيعيَّ واتَّجه في طريقِ ميولهم فَصُبغَ بِصبْغَةِ اللعب.

* ولقد ذهبَ المربّون في بيانِ الوظيفةِ التّربويّةِ للَّعبِ مذاهبَ شتّى ، لكنّهم جميعاً مهما اختلفتْ آراؤهم في بيانِ وظيفةِ اللعب مجمعون على أَنَّ للَّعبِ وظيفةً كبيرةً في التَّربية وأثراً كبيراً في حياةِ الصِّغارِ وأهميَّةً عُظْمى في حياةِ الكبار.

* وممّا قيلَ في وظيفةِ اللَّعِب: «إنَّها تريحُ الأَعصابَ والعضَلات من عناءِ العملِ لأنَّ اللاعبَ يستخدمُ في أَلعابهِ طاقاتٍ عصبيةً وعضليّةً غيرَ الطَّاقاتِ التي أَرهقها العملُ ، وبذلك يدعُ للمراكزِ المرهقةِ فرصةً للرّاحةِ والتَخلّصِ ممَّا نالهَا مِنَ الإجهادِ».

* وليس من شكٍّ في أنَّ في هذا القولِ كثيراً من الصِّحَّة إذ تُحقِّق بعضُ

= الكئيبِ ، لأنّهم تعرّضوا لظروف لا تشمل إلاّ على مادّةِ قراءةٍ خاطفة . . . » .
(الخبرةُ والتّربيةُ ص ٢٢ بتصرف) ، ترجمة محمود البسيوني ويوسف الحمادي ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٥٤ م .

الألعابِ التي يقومُ بها الكبارُ أحياناً شيئاً من الرَّاحةِ الجسميَّةِ والعقليَّةِ ، وقد يلجؤون إليها لهذه الغايةِ نفسها وإن كان اللعبُ ـ كما سبق القول ـ ميلاً أصيلاً في الأطفالِ يلجؤون إليه وقتَ الرَّاحةِ ووقتَ التَّعب ، كما أنَّ بعضَ العمّال قد يستخدمون في ألعابِهم طاقاتِ العَضَلاتِ والأعصابِ التي أرهقَها العملُ.

* ويمكننا أنْ نقول الآن: إنَّ وظيفةَ اللعبِ هي القيامُ بتفريغِ ما لدى الأطفالِ من النَّشاطِ والطاقةِ الزَّائدةِ على الحاجةِ».

* لكنَّ بعضَ الأطفالِ يلعبونَ وهم في حالاتٍ لا تكونُ فيها طاقتُهم الحَيويَّةُ زائدةً على الحاجةِ ، إنَّهم يلعبونَ وهم في أشدِّ حالاتِ التَّعَبِ حتّى يغشَاهم النُّعاسُ والدُّمىٰ في أيديهم والمزاميرُ في أفواهِهم.

* وقد قيلَ أيضاً في وظيفةِ اللَّعب: «إنَّه يعدُّ الطِّفلَ للحَياةِ المستقبلةِ ويساعدُ على النُّموِّ الجسميِّ ويغذِّي بعضَ الغَرائزِ والميولِ التي لا تتسعُ الحياةُ الجدِّيَّةُ لِتَغْذِيَتِها وينقذُ الإنسانَ من المللِ والضَّجَرِ وضيقِ الصَّدْرِ وما إلى ذلك مِنَ الإحساساتِ الأليمةِ ، ويفلُّ من حدَّة الغرائزِ الاجتماعيةِ ويُشْعِرُ الطِّفلَ بِالحاجةِ إلى الجماعةِ ويعوِّدُه الخضوعَ إلى القوانين واحترام الرُّؤساء وإيثارِ المصلحةِ العامَّةِ والتَّضحيَةِ فِي سَبيلِ الفريقِ الذي ينْتَمي إليهِ والمنافسةِ البريئةِ واحتِمالِ الغَلَبَةِ والرِّفْقِ بالمغلوب».

* والألعابُ مختلفةُ الأنواعِ فمنها ألعابُ الحركةِ التي من شأنِها تدريبُ العَضَلاتِ الحَركيةِ على القِيام بوظائِفها العامَّةِ ، وهي أوَّلُ أنواعِ الألعابِ التي يستقبلُ بها الأطفالُ حياتَهم ويقومون بِها وهم في المهْدِ.

* ومنها ألعابُ الحَواسِّ[1] وتظهرُ في أوَّل أدوارِ الطفولَةِ.

* ومنها الألعابُ الإدْراكيَّةُ وَيكْلَفُ بها الأطفالُ الكَلَفَ كُلَّه ، ويقفون عليها

---

(١) تتضمَّنُ الحواس: النَّظر ، واللمس ، والذَّوق ، والشَّم ، والسَّمْع ، وهذه الحواس تلعبُ دوراً كبيراً في العمليةِ التَّربويةِ للأطفال ، إذ هي المدخلُ لتعليم القراءة ، والكتابة ، والحساب ، والخط ، والرّسم ، فالتّعليم المبني على المشاهدةِ الحسيّة تعليمٌ ناجحٌ ، خصوصاً إذا استطاعَ المربّي استغلال ذلك في العَمليّةِ التّربويةِ.

قِسْطاً كبيراً من نشاطِهم اللعبي في بعضِ أَدْوارِ طفولتِهم ، ويحفزُ الطِّفلَ عليها ميْلُه الغريزيُّ إلى الاطلاعِ على ما يجهله كالأَسْئلةِ التي يلقيها الصِّغارُ على الكِبارِ لمعرفةِ ما يُحيطُ بهم .

* ومنها أَلعابُ التَّحطيمِ والتَّركيبِ ، وهي الأَلعابُ التي يقومُ في أثنائِها الطِّفلُ بتحليلِ الأَشياءِ إلى أَجزائِها ، والوقوفِ على ما بداخلِها أَو بِضَمِّ الأَشياءِ المتفَرِّقَة بعضها إلى بعضٍ . والأَلعابُ الإراديَّةُ التي تتطلَّبُ مجْهوداً إراديّاً لوقوفِ حركةٍ من حَركاتِ الجسم أَو التَّغَلُّبِ على عملِ غريزةٍ مِنَ الغَرائزِ التي يختبرُ فيها اللاّعبون بعضَهم بعْضاً لِيَنْظُروا أيُّهم أَقْدَر عَلى كتْمان ضحكهِ عند وجودِ ما يثيرُ الضَّحكَ ، أو على إغماضِ جَفْنَيْهِ عند تقديمِ يدٍ أَو شيءٍ نحو عينيْه .

* وليس مِن شِك في أَنَّ هذه الأَلعابَ كلَّها إذا أُحْسِنَ تَوْجيهُ الأَطْفَالِ إليْها وأُثيرتْ رغباتُهم فيها كانَ لَها الأَثَرُ الفَعَّال في مُستقْبلِ حياتِهم ، بل كانت خيرَ مِعْوانٍ للمدْرَسَةِ على التَّربيَةِ السَّليمةِ والتَّنْشِئَةِ الصَّحيحَةِ[١] .

* وينْبغي أن تعملَ المدْرَسَةُ على أنْ تثيرَ في الطِّفلِ الميْلَ إلى اللَّعبِ بتَهْيئَةِ الوَسَطِ الذي يلعَبُ فيه وإيجادِ رِفاقٍ يتَعرَّفُ إليهم ويلعبُ معهم ممَّن هم في مثْل سِنِّهِ . وأَنْ يَدخُلَ الكبارُ مع الصِّغارِ أحياناً في أَلعابِهم حتّى يذكروهم ـ دون أَن يشعِروهم بتدخُّلِهم ـ بما يغيبُ عن أَذْهانِهم من الأَلعابِ الَّتي يعرفونَها أَو بأن يعلِّموهم أَلعاباً لا يعرفونَها على شرطِ ألاّ يكونَ تدَخُّلُهم ظاهِراً أَو مُباشِراً؛ وذلك لأَنَّ الأَطفالَ عادةً ينفرون من اشْتراك الكبارِ مَعَهم في أَلعابِهم .

* وعلى المدْرَسَةِ أَن تُهَيِّءَ للأَطفالِ وسائلَ اللَّعب وأَدواتِه كلَّها ، ولا يُسْتَحْسَن أَن يُعطى الطِّفلُ أَنواعاً كَثيرةً من اللعبِ في وقتٍ واحدٍ ، فَإِنَّ كثرتَها بين يديْه تجعله يَملُّها كلَّها في أَمَد قصير .

---

(١) في توجيه الأطفال إلى اللعب توجيهاً مدروساً؛ تغيبُ فكرة المنافسة والمزاحمة والخصومة عند أغلبهم . كما تقلُّ العدوانية عندهم. وقد اهتمَّ علماء النّفس بهذه الظّاهرة ، وأخذوا يولونها جُلّ اهتمامهم ويصدِّرون دراساتهم حول تفعيل هذا الموضوع .

* وبعد فهل لكم أيها المربّون أَن تَسْتَغلُّوا مَيْلَ الأطفالِ للألعابِ فتعتَمِدوا عليها في تربيَتهم وتصبغوا باللعبِ مَظاهرَ حَياتِهم المدرَسِيَّة وأَنواع النَّشاط فيها؟ إِنَّكُم لو فَعَلْتم لاسْتَزَدْتم من رغبتهم في المدرَسةِ وَحَبَّبْتم إِليهم التَّعلُّم.

* • •

الفصْلُ الثَّالثُ

علوُّ همّةِ الأطفالِ وأدبُهم

* إنَّ الهمَّةَ العاليةَ هي طليعةُ الأعمالِ وغُرّتُها؛ فَمَنْ صلُحَتْ همّتُه وصدقَ اللهَ فيها ، صلُحَ له ما وراءَ ذلكَ من جميعِ الأعمالِ.

* وقد أشارَ ابنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ في رسالةِ «لَفْتَة الكَبِد إلى نصيحةِ الولَد» إلىٰ أنَّه: «قد عَرَفْتَ بالدّليلِ أنَّ الهمَّةَ مولودةٌ مع الآدميّ ، وإنّما تقصرُ بعضُ الهممِ في بعضِ الأوقاتِ ، فإذا حُثَّتْ سادت ، ومتى رأيتَ في نفسِكَ عَجزاً فَسَلِ المُنْعِمَ، أو كسَلاً فالجأْ إلىٰ الموفقِ، فلَنْ تنالَ خيراً إلاّ بطاعتهِ. . »[1].

* ونقلَ ابنُ قتيبةَ ـ رحمه الله ـ عن بعضِ كُتُبِ الحكْمةِ الهنديّةِ قولها: «ذو الهمّةِ إنْ حُطَّ فنفْسُه تأبىٰ إلاّ علوّاً ، كالشُّعلةِ من النَّارِ يُصَوِّبُها صاحبُها وتأبىٰ إلاّ ارتفاعاً»[2].

* وبما أنَّ الأطفالَ هم مستقبلُ الأملِ الزّاهر ، وأملُ المستقبلِ العامر ، فلا بدّ للمربّي أنْ يصرفَ قَدْراً كبيراً من الجهدِ في توجيهِ الأطفال وتربيتهم تربيةً صحيحةً نقيّةً ، كي يغدوا مُصْلحين صالحين لأنفسِهم وأمّتِهم وأوطانِهم. وإلاّ إذا أهملَ الآباءُ والمربّونَ أطفالَهم فإنَّ الخسائرَ فادحةٌ وآتيةٌ لا ريبَ في ذلك. وعن هذهِ النَّاحيةِ يقولُ ابنُ قيّمِ الجوزيّةِ ـ رحمه الله ـ: «وإذا اعتبرتَ الفَسَادَ في

---

(١) انظر: صيد الخاطر (ص ٥١٦).

(٢) انظر: عيون الأخبار (١/ ٢٣١).

الأولادِ، رأيتَ عامَّتَهُ من قِبَلِ الآباء». ويقولُ ابنُ خلدون في مقدمّته الشَّهيرة: «التَّعليمُ في الصِّغرِ أشدُّ رسُوخاً، وهو أصْلٌ لِما بَعْدهُ»[1].

* ولله درُّ القائِل:

قَـدْ ينْفَـعُ الأَدَبُ الأَولادَ فـي صِغَـرٍ ... وليـس ينْفَعُهُـم مِـنْ بَعْـدِهِ أَدَبُ
إنَّ الغُصُـونَ إذَا قَـوَّمْتَهـا اعْتَـدلَـتْ ... ولا يَليـنُ ولَـو لَيَّنْتَـهُ الخَشَـبُ

* وكان الشَّاشيُّ الفقيهُ الشَّافعيُّ ينشدُ:

تَعَلَّـمْ يـا فَتـى والعُـودُ رَطْـبٌ ... وَطينُـك لَيِّـنٌ وَالطَّبـعُ قَـابِـلْ
كفَـىٰ بِـكَ يـا فَتـى شَـرفـاً وفخـراً ... سُكوتُ الجالسِيْنَ وأنتَ قائِلْ[2]

* وقد روي أنَّ عمروَ بنَ العاصِ ـ رضي الله عنه ـ قد طافَ مرَّة بالكعبةِ، فلمّا فرغَ من طوافهِ جلسَ إلى حلقةٍ من الرّجال وقد أَبْعَدوا الفتيانَ عن مجلسِهم، فقال لهم: «لا تفعلُوا، أوسعُوا لهم، وأَدْنُوهم، وأَلْهِمُوهم، فإنّهم اليومَ صغارُ قوم يوشكُ أنْ يكونُوا كبارَ قومٍ آخرين وقد كُنَّا صِغَارَ قومٍ أصبحنا كبارَ آخرين»[3].

* ومن المُتَعالَم بين العُقَلاءِ والنُّبهاءِ، أنَّ علائمَ النَّجابةِ وسِمَاتِ النُّبوغِ والهمَّةِ العاليةِ تظهرُ على الأطفالِ منذُ الصِّغرِ المبكّرِ، وذوو الفِراسةِ الذين ينظرون بنورِ الإيمانِ يعرفون ذلك، ويتوقّعُون المعالي لمثلِ هؤلاء الأطفال ذوي الهمّةِ والنَّجابةِ.

* وقد اهتمَّ العُلماءُ الأقدمون، ومربُّو المسلمين في معرفةِ ذوي النَّباهةِ والهمّةِ من الأطفالِ، ومن ثمَّ أَوْلَوُا الأطفالَ النّجباءَ عنايةً فائِقَةً، ودرايةً كبيرةً، لما تفرّسُوا فيهم من النَّباهةِ وعلوّ الهمّةِ، وحبِّ معالي الأمور.

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٣٤).
(٢) الآدابُ الشّرعيةُ لابن مفلح (١/ ٢٣٦) طبعة مؤسسة الرّسالة الثانية ببيروت.
(٣) انظر: الآداب الشّرعية (١/ ٢٤٤)؛ وعلّق ابنُ مفلح على هذا الخبر فقال: «وهذا صحيحٌ لا شكَّ فيه، والعِلْمُ في الصّغر أَثبَتُ، فينبغي الاعتناءُ بصغار الطّلبةِ، لا سيما الأذكياء المتيقِّظين الحريصين على أخذِ العِلْم، فلا ينبغي أن يجعلَ على ذلك صِغَرهم أو فقرهم وضعفهم مانعاً منْ مراعاتهم، والاعتناء بهم». (الآداب الشرعية ١/ ٢٤٤).

* ومن العلماءِ المربّين الذين أشارُوا إلىٰ هذهِ النَّاحيةِ أبو الفرج بنُ الجوزيّ حيثُ قالَ ما نصُّهُ: «تأمّلتُ الذين يختارُهم الحقُّ عزَّ وجلَّ لولايتهِ والقربِ منه؛ فوجدتُهُ سبحانه لا يختارُ إلاّ شخصاً كامل الصُّورة؛ لا عيبَ في صورتهِ، ولا نقْصَ في خِلْقَتِهِ، فتراه حَسَنَ الوجْهِ، معتدلَ القامةِ، سليماً من آفةٍ في بدنهِ. ثمّ يكونُ كاملاً في باطنِهِ، سخيّاً، جواداً، عاقلاً غيرَ خِبٍّ، ولا خادعٍ، ولا حقُودٍ، ولا حسُودٍ، ولا فيهِ عيبٌ من عيوبِ ا لباطنِ؛ فذاكَ الذي يربّيه من صغَرِهِ، فتراهُ في الطُّفولةِ مُعْتَزِلاً عن الصِّبيان، كأنَّه في الصِّبا شيخٌ ينبو عن الرَّذائلِ، ويفزعُ من النَّقائض، ثمَّ لا تزالُ شجرةُ همّتِهِ تنمو حتّى يُرىٰ ثمرُهَا متهدّلاً على أغصانِ الشَّبابِ، فهو حريصٌ على العِلْم، منكمشٌ على العَملِ، محافظٌ للزّمانِ، مراعٍ للأوقاتِ، ساعٍ في طلبِ الفضائلِ، خائفٌ من النَّقائضِ، ولو رأيتَ التَّوفيقَ والإلهامَ الرَّبانّيّ كيف يأخذُ بيده إنْ عثرَ، ويمنعُه من الخطأ إنْ همَّ، ويستخدمُه في الفضائل، ويَسْتُر عملَه عنه حتى لا يراهُ منه»[١].

* سَجَّلَتْ كتبُ الأدبِ والأسمارِ والأخبارِ والتَّراجمِ أنَّ العربَ قد عرفُوا بفراستِهم النُّبغاءَ والنُّبهاءَ وأعلياءَ الهمّةِ من الأطفالِ، من ذلكَ ما رُوي أنَّ الحُطيئةَ الشَّاعرَ المخضرمَ المشهورَ قد نَظَرَ إلى عبدِ الله بنِ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: «مَنْ هذا الذي نزلَ عن النَّاسِ في سِنِّه، وعلاهم في قَولهِ؟!»[٢].

* وقال عبدُ الله بنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن ابنِ عبّاسٍ: «لو بلغَ أسنَانَنا ما عشَرَهُ مِنّا رجُلٌ»[٢].

* وقد امتدحَ الشُّعراءُ قديماً الأطفالَ ذوي النَّباهةِ والهمَّةِ العاليةِ، وممّا اختزنَتْهُ كتُبُ الأدبِ في ذاكرتها ما جاء أنَّ بُكيرَ بنَ الأخنَسِ قد رأىٰ المهلَّبَ بنَ أبي صُفرةَ الأزْديّ، وهو غلامٌ صغيرٌ في عمرِ الزَّهْر، فاستشفَّ بفراستِهِ أنَّ هذا الغُلامَ سيكونُ من ذوي الشَّأنِ، وأنشدَ في ذلك:

---

(١) صيد الخاطر (ص ٣٨٩) طبعة دار اليمامة بدمشق.

(٢) عيون الأخبار (١/ ٢٢٩).

خُذُوني بِهِ إِنْ لَمْ يَسُدْ سَرَواتِهِم ... ويَبْرَع حتّى لا يَكُونَ لَهُ مِثْلُ[1]

* وقال حمزةُ بنُ بيض لمخلدِ بنِ يزيدَ بنِ المُهلّب ـ وقد رأى مخايلَ علوّ الهمّةِ تلوحُ عليهِ وتشهدُ له بالنَّجابة ـ:

بَلَغْتَ لِعَشْرٍ مَضْتْ مِنْ سِنِيـ ... ـكَ مَا يَبْلُغُ السَّيِّدُ الأَشْيَبُ

فَهَمُّكَ فيها جِسَامُ الأُمورِ ... وهَمُّ لِدَاتِكَ أَنْ يلعَبُوا[2]

* حملتْ كتبُ التَّراجمِ والطَّبقاتِ في أردانِها كثيراً من الأخبارِ المُطربةِ والثَّريّة التي تشيرُ إلى علوِّ الهمَّةِ عند الأطفالِ، ومن ذلكَ ما قالَهُ ابنُ مهدي في سفيانَ الثّوريّ الكوفيّ الإمامِ الجامعِ لأنواعِ المحاسنِ وهو من تابعي التّابعين: «رأىٰ أبو إسحاقَ السّبيعيّ سفيانَ الثّوريَّ مَقْبِلاً فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]».

* وقالَ الوليدُ بنُ مسلم: «رأيتُ الثّوريَّ يُسْتفتىٰ بمكّةَ ولم يختطَّ وجْهُهُ»[3].

* وقال الإمامُ الذَّهبيّ: «كان يُنَوَّهُ بذكْرِه في صغرِهِ من أجلِ فرطِ ذكائهِ وحفظِهِ، وحدَّثَ وهو شَابٌّ».

* أمّا علو همّةِ الإمامِ البخاريّ ـ رحمه الله ـ فإنّها أشهرُ منَ الثُّريا، وكان يقطرُ ذكاءً وهمّةً وهو لا يزالُ في مرحلةِ الطُّفولةِ المبكّرة، وقد رأىٰ علماءُ عصرهِ بفراستِهم أنّه سيغدو رجُلاً مذكوراً بَعِيْدَ الصِّيتِ في العلْم والحفظِ والمكانةِ، وقد ذكر البُخاريّ نفسُهُ قصّةً طريفةً عن ذلك فَقال: «كنتُ عند أبي حفْصٍ أحمدَ بنِ حفص، أسمعُ كتابَ الجامعِ لِسُفيانَ الثّوري، من كتابِ والدي، فمرَّ أبو حفصٍ على حرفٍ؛ ولم يكن عندي ما ذكَرَ، فراجعتُه، فقال الثّانية والثّالثة، فراجعتُه فسكَتَ، ثمَّ قال: مَنْ هذا؟

قالوا: ابنُ إسماعيلَ.

---

(١) المصدر السّابق عينه (١/ ٢٣٠).

(٢) انظر: عيون الأخبار (١/ ٢٢٨).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٥) ترجمة رقم (٢١٤) طبعة دار الفكر.

فقال: هو كما قالَ ، واحفظُوا أنَّ هذا يصيرُ يوماً رجُلاً».

* بلغَ من علوّ همّةِ البخاري وهو غلامٌ صغيرٌ لمْ ينبتْ شعرُ وجهِهِ ، أنَّ أهلَ البصرةِ كانُوا يَعْدُون خلْفَهُ في طلبِ الحديثِ حتّى يغلبوهُ على نفسهِ ، ويجلسوهُ في الطَّريقِ ، ومن ثمّ يجتمعُ عليه ألوفٌ أكثرهُم ممّن يكتبُ عنه. وقال أبو بكر الأعْرُ: «كتبْنَا عن محمّد بنِ إسماعيل ـ البخاري ـ على بابِ محمّد بنِ يوسفَ الفريانيّ وما في وجههِ شَعْرةٌ»(١).

* وقد أجمعَ المشايخُ قاطبةً ، والأعلامُ المبرّزون ، والحذّاقُ المتّقون ، وقدّموهُ على أنفسِهم وهو لا يزالُ نَضِرَ العُوْدِ في مقتبل حياته ، وكان آيةً في علوِّ الهمَّةِ ، وسرعةِ الحفْظِ ، والاهتمامِ بالحديثِ ومجالس العُلَماء؛ فقد رووا أنَّه حفظَ قرابةَ سبعين ألفَ حديثٍ وهو صغيرٌ لم يشبَّ عن الطَّوقِ(٢).

* واشتُهرَ الأئمةُ الأربعةُ بعلوّ همّتهم وهُمْ في مرحلَةِ الطُّفولَةِ؛ وهم: أبو حنيفةَ ، مالكٌ ، الشّافعيُّ ، وأحمدُ بنُ حنبلَ ـ رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم ـ.

* روىٰ الشّافعيُّ طَرفاً عن حياتهِ وهمّتهِ العاليةِ وهو في مرحلةِ الطُّفولةِ فقال: «كنتُ يتيماً في حجر أمّي ، فدفعتْني إلى الكُتَّاب ، ولم يكنْ عندها ما تعطي المُعلّمَ ، وكان المعلّم قد رضي منّي أنْ أخلفَه إذا قام ، فلمّا جمعتُ القُرآنَ دخلتُ المسجدَ ، فكنتُ أجالِسُ العُلماءَ ، وكنتُ أسمعُ الحديثَ والمسألةَ فأحفظُها ، فلم يكنْ عند أمّي ما تعطيني أشتري به القَراطيسَ ، فكنتُ أنظرُ إلى العظمِ فآخذُهُ فأكتبُ فيه ، فإذا امتلأ طرحتُه في جرّةٍ ، فاجتمعَ عندي حُبّان ـ جرّتان ـ».

* أمّا الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل ـ رحمه الله ـ فلم يكنْ أقلّ همّةً من أستاذهِ

---

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٨٨) ترجمة رقم (٣).

(٢) وعن همّتهِ العاليةِ يتحدثُ البخاريُّ نفسُه عن نفسِهِ فيقول: «أُلهمتُ حفظَ الحديثِ وأنا في الكُتّاب ، قيلَ له: كم أتىٰ عليكَ إذْ ذاكَ؟ قال عشر سنين أو أقلّ».

الشّافعيّ . فقد كان أحمدُ من خواصّ أصحاب الشّافعيّ ، وكان الشّافعيّ يزورُه في منزلهِ ، فعُوتبَ في ذلك فأنشدَ:

قَالُوا يَزُورُكَ أَحمدٌ وتزورُهُ   قُلْتُ الفَضَائِلُ لا تفارِقُ منزلَهْ
إنْ زَارني فَبِفَضْلهِ أو زُرْتُهُ   فَلِفَضْلهِ فَالفَضْلُ في الحَالَيْن لَهْ[1]

* حفظَ الإمامُ أحمدُ القرآنَ في زمنِ الطُّفولةِ ، وتعلّمَ القراءةَ والكتابةَ ، وكانتْ علائمُ علوِّ الهمّةِ تشهدُ له ، لما كان فيهِ من الوَرعِ والنَّجابةِ على الرّغم من أنَّه نشأَ يتيماً ، ولذلك قالَ عنه الهيثمُ بنُ جميل: «إنْ عاشَ هذا الفتى فسيكون حجّةً على أهْلِ زمانهِ»[2]. ولشدّةِ إعجابِ الهيثمِ بنِ جميل بالإمامِ أحمد قال لأصحابه: «وددت أنّهُ نقصَ من عمري وَزِيْدَ في عمرِ أحمدَ بنِ حنبل»[2].

* وكما كانتْ علائمُ النَّجابةِ وعلوّ الهمّةِ باديةً على سِيْمَا أولئك الأطفالِ ، كانت لهم أيضاً كلماتٌ سائراتٌ تدلُّ على همّتِهم وحكمتِهم ، وما آتاهم اللهُ عزَّ وجلَّ من فضلهِ.

* ففي تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] روى مَعْمَر أنَّ الصِّبيانَ قالوا ليحيىٰ بنِ زكريا ـ عليهما السَّلام ـ: «اذهبْ بنا نلعبُ».

فقال: «مَا لِلَّعبِ خُلقْتُ»[3].

* ذكَرَ قتَادةُ هذا فقال: «كان يحيىٰ ابنُ سنتَيْن أو ثلاث سنين»[3]. وقال مقاتل: «كان ابنُ ثلاث سنين»[3].

* وقال ابنُ عبّاسٍ: «مَنْ قَرأَ القُرآنَ قبلَ أنْ يحتلمَ فهو ممّن أوتيَ الحكْمَ صبيّاً»[3].

* وممَّنْ آتاهم اللهُ عزَّ وجلَّ كلاماً وبَياناً وفطْنةً وهم في مرحَلةِ الطُّفولةِ الإمامُ النّوويُّ ، وهو شيخُ الإسلامِ ، وأستاذُ المتأخّرين ، وحجّةُ اللهِ على

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٣/ ١٨٨) طبعة دار ابن كثير المحققة.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٣) ترجمة رقم (٤٥) طبعة دار الفكر.
(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٥٩) طبعة دار الكتب العلمية عام ٢٠٠٠م.

اللاحقين ، والدّاعي إلى سبيلِ السّالفين. وكان لهذا العَالمِ العَيْلَم كلماتٌ تدلُّ علىٰ نباهةٍ وذكاءٍ وهو لا يزالُ طفلاً لم يتجاوزْ ربيعَهُ السَّابع.

* ولنستمعْ إلى شيءٍ من كلامهِ وأحوالهِ وطفولتهِ ، كما أوردَهَا الإمامُ تاجُ الدّين السّبكيّ في «طبقاتِهِ» حيثُ قال: «ولدَ النّوويُّ في المحرّم سنة ٦٣١ هـ بِنَوَىٰ ، وكان أبوهُ من أهلِها المستوطنين بها ، وذكرَ أبوهُ أنَّ الشَّيخَ ـ أي النَّووي ـ كان نائماً إلى جنْبِهِ ، وقد بلغَ من العمرِ سبع سنين ، ليلةَ السَّابعِ والعشرين من شَهْرِ رمضانَ ـ أي سنة ٦٣٨ هـ ـ فانتبهَ! نحو نصفِ الليلِ ، وقال: يا أبتِ ، ما هذا الضَّوءُ الذي ملأَ الدّار؟ فاستيقظَ الأهلُ جميعاً ، قال: فلم نَرَ كلُّنا شيئاً. قال والده: فعرفتُ أنّها ليلةُ القدرِ».

* قال شيخُه في الطَّريقةِ ، الشّيخُ ياسينُ بنُ يوسُفَ الزّركَشِيّ: «رأيتُ الشّيخَ مُحيي الدّين ـ النَّوويّ ـ وهو ابنُ عشرِ سنين بِنَوى ، والصِّبيانُ يُكرِهُونَه على اللعبِ معهم ، وهو يَهْرُبُ منهم ويبكي ، لإكراهِهم ، ويقرأُ القُرآنَ في تلكَ الحالِ ، فوقعَ في قلبي حُبُّه ، وجعلَهُ أبوهُ في دكّانٍ ، فجعلَ لا يشتغلُ بالبيعِ والشّراء عنِ القُرآن ؛ فأتيتُ الذي يقرئهُ القُرآنَ ، فوصَّيتُهُ به ، وقلتُ له: هذا الصَّبيُّ يُرجَىٰ أنْ يكونَ أعْلَم أهلِ زمانه وأزهدهم ، ينتفعُ النّاس به ، فقال لي: مُنَجِّمٌ أنتَ؟ فقلتُ: لا ؛ وإنّما أنطقني اللهُ بذلك ، فذكرَ ذلك لوالدهِ ، فحرصَ عليه إلى أنْ ختمَ القرآن ، وقد ناهزَ الاحتلام»[1].

* وممّا يُسْتَحلىٰ فَيُستجلىٰ من بدائعِ بدائهِ الأطفالِ وسرعةِ جوابهم ، ما ذكَرَهُ أبو الفرجِ بنُ الجوزي ـ رحمه الله ـ قال: «ركبَ المعتصمُ إلى خاقانَ يعودهُ ، والفَتْحُ ـ ابن خاقان ـ صبيٌّ يومئذٍ ، فقال له المعتصمُ: أيّما أحسن: دارُ أميرِ المؤمنين أو دارُ أبيك؟

قال: إذا كانَ أميرُ المؤمنين في دارِ أبي ، فَدَارُ أبي أَحْسَنُ. فأراه فصّاً في يدهِ ، فقال: هل رأيتَ يا فتحُ أحسنَ من هذا الفصّ؟

قال: نعم ، اليَدَ التي هو فيها».

---

(١) انظر: طبقات الشّافعية الكبرىٰ (٨/ ٣٩٦ و٣٩٧) طبعة البابي الحلبي الأولى بمصر.

* إنَّ الإنسانَ لا يُولَدُ عالماً ، ولكنّما هو تربيةٌ وتوجيهٌ وتثقيفٌ ، وبيئةٌ صالحةٌ تتعهّدهُ بالرِّعايةِ والعنايةِ والتَّعليم ، حتى يرتقي ذروةَ العِلْم ولو كان طفْلاً لم يشبّ عن الطَّوقِ .

* وممّا ينبغي أنْ نعرفه أنَّ النَّباهةَ والموهبةَ تكون فطريّةً في الإنسان ، ولكنّها قد لا تؤدّي إلى النُّبوغ ، أو تُكتَبُ لها الحياة ، إذا صادفتْهَا ظروفٌ سقيمةٌ متلاشيةٌ ، أمّا إذا توفّرت لها البيئةُ المناسبةُ فسوفَ تظهرُ وتحيا .

* والأمّةُ النَّاجحةُ هي الأمّةُ التي تُولي أطفالَها النُّجباءَ كلَّ رعايةٍ ، وتصنعُ بهم المستقبلَ النَّاجحَ والمفيدَ ، لأنَّ أطفالَ اليومِ هم رجالُ الغَدِ ، وهم الذين يسْهِمون في رقيّها ونجاحِها .

* كما أنَّ الأسرةَ الواعيةَ هي التي تزرعُ الهمّةَ العاليةَ في نفوسِ الأطفالِ منذ صِغَرهم ، وعلى الأبِ والأمِّ المسؤوليةُ الأولى والكبرىٰ في استنهاضِ هِمَمِ الأطفال ، ومن ثمّ شَحْذِ هذه الهِمم لتكونَ مبدعةً فيما بعد .

* فكم من راعٍ عاقلٍ ، أثّرَ في نفوسِ أبنائِهِ ، فجعلَهم سادةَ السَّادات في العِلْم كالإمامِ أحمدَ بنِ حنبل الذي أحْسَنَ تربية ابنه عبد الله فكان إماماً عالماً .

* وكم من امرأةٍ متّزنةٍ عاقلةٍ رسمتْ طريقَ النَّجاحِ لأبنائِها ، فكانوا من أعلياءِ السَّادةِ ومن السَّادة الأعلياء؛ وتاريخُنا الوضيءُ يزهو بأسماءِ كثيراتٍ كُنَّ نجيباتٍ عاقلاتٍ ، فخلّفْنَ أبناء عقلاء ، خذْ مثلاً : صفيّة عمّة النبيّ ﷺ التي خلَّفَتْ بطَلاً وحواريّاً هو الزُّبيرُ بن العوّام ، وأسماءُ بنتُ عُميس أمُّ الجوادِ بنِ الجوادِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرَ ، وهندُ بنتُ عتبة[1] أمُّ معاوية بن أبي سفيان ، وغيرهنّ كثيرات ممّن نفخر بهنَّ على طولِ المدى ، ونعطّرُ الأسماعَ بسيرهنّ في المجالسِ والندوات .

* وممّا يزيدُ من علو همّةِ الأطفالِ : التّشجيعُ الهادفُ نحو الفضائلِ ومحاسنِ الخصَائلِ وكريم الشمائل؛ وقد تنبّه السَّلَفُ الصَّالحُ من الصَّحابةِ

(١) اقرأ سيرة السّيّدة النجيبة عقيلة قريش هند بنت عتبة رضي الله عنها في كتابنا «بيعة النّساء في القرآن والسّيرة» ففي سيرتها نفحات تربوية مهمة ، ووقفات تستحق التأمّل .

والتَّابعين وأكابرِ العُلَماءِ إلى شأنِ التّشجيع ، وتسابقوا في شتّى العُصُور في ميدان تشجيعِ الأطفالِ ذوي الموهبةِ والهمّةِ العاليةِ ، وأنفقُوا كثيراً من الأوقاتِ والأموالِ في رعايةِ النّابهين من الأطفالِ ، كيما ينشغلُوا بالعِلْم ، ولا ينشَغِلُوا بطلَبِ المعاشِ وأمورِ الحياة.

* وكان عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضوان الله عليه ـ يرى أنّ تشجيعَ الأطفالِ يزيدُ من رصيدهم العِلْميّ وزادهم المعرفيّ ، فقد كان يشجّعُ فتى العُلَماءِ وعالِمَ الفتيانِ عبدَ الله بنَ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ ، جاء في الصَّحيح وغيرِهِ عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان عمرُ يدخلني مع أشياخِ بدرٍ ، فكأنَّ بعضَهم وجدَ في نفسِهِ ، فقال: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ولنا أبناءُ مثله؟

فقال عمر: إنّه مَنْ حيثُ علمتُم. فدَعَا ذات يومٍ فأدخلَه معهم ، فما رأيتُ أنّه دعاني يومئذٍ إلاّ ليُريهم.

قال: ما تقولون في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النّصر: ١]؟

فقال بعضُهم: أمرَنا نحمدُ اللهَ ونستغفرُهُ إذا نصرَنَا وفتحَ علينا ، وسكَتَ بعضُهم ، فلمْ يقُلْ شيئاً.

فقال لي: أكذاكَ تقولُ يا بنَ عبّاس؟

فقلت: لا.

قال: فمَا تقول؟

قلتُ: هو أَجَلُ رسولِ اللهِ ﷺ أعْلَمَهُ له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ، وذلك علامةُ أجلِكَ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

فقال عمر: ما أعلمُ منها إلاّ ما تقولُ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه ، أخرجه في المناقب ، والمغازي ، والتفسير ، وأخرجه أحمد (١/ ٣٣٧ و٣٣٨) ، والترمذي برقم (٣٣٦٢) ، والحاكم (٣/ ٥٣٩)؛ وانظر=

* في هذهِ القصّةِ فوائدُ كثيرةٌ من أهمّها أنَّ سيّدنا عمرَ قد زرعَ الثّقةَ في نفْسِ ابنِ عبّاس ، وغذّى همَّتَه ، وشدَّ أَزْرَهُ ، وجعلَه يشعرُ بمكانِهِ ومكانتِهِ بين كبراءِ الصَّحابة.

* ولعلَّ هذه الحادثةَ وأمثالَها قد جعلت من ابنِ عبّاس رجلاً ذا همّةٍ عاليةٍ في طلبِ العلْم وتحصيلهِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ ، حتّى غدا حَبْرَ الأمّةِ وبَحْرَها في العِلْم والتّأويل ، فأكرِمْ به!.

* وكان كثيرٌ من عُلماءِ التّابعين وفقهائهم يتبعون أثرَ عمرَ بنِ الخطّاب في تشجيعِ المواهبِ لدىٰ الأطفالِ ، فهذا محمدُ بنُ شهابٍ الزّهريّ ـ رحمه الله ـ كان يشجّعُ الأطفالَ ويكبرهُم ويغرسُ في نفوسِهم الصّغيرةِ الهمةَ العاليةَ ، وكان يخاطبُهم بقوله: «لا تحتقروا أنفسَكم لحداثةِ أسنانِكم ، فإنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه كان إذا نَزَلَ بهِ الأمرُ المُعْضِلُ ، دعا الفِتْيانَ ، فاستشَارهم يتبعُ حدَّةَ عقولهم»[1].

* ومن المُطْرِبِ في أخبارِ أعلياءِ العُلماءِ ما ذكروا عن أثيرِ الدِّين محمّدِ بنِ يوسفَ بنِ عليّ بن يوسفَ بن حيّان الغَرْنَاطيّ ، الذي كانَ فريدَ عَصْرِه ، وشيخَ أوانِهِ ، وإمامَ النُّحاة ، وله اليدُ الطُّولىٰ في التّفسيرِ والحديثِ والشُّروطِ والفُروع ، وتراجم النّاس وطبقاتِهم وتواريخهم وحوادثِهم ، هذا العالمُ العَيْلَمُ الذي ملأ الدّنيا بعلمِهِ وشغَلَ العُلماءَ بمسائِلهِ الجميلةِ ، كان يعظّمُ الأطفالَ النُّبهاء ويحترمُهم ، وعنه وفي وصفِهِ يقولُ صلاحُ الدِّين الصَّفديّ ـ رحمه الله ـ: «. . اجتهدَ وطَلَبَ وحصّلَ وكتبَ وقيّدَ؛ ولم أَرَ في أشياخي أكثرَ اشتغالاً منه لأنّي لم أَرَهُ إلاّ يُسْمِعُ أو يشتغلُ ، أو يكتبُ ، ولم أَرَهُ على غيرِ ذلك ، وله إقبالٌ على الطَّلبةِ الأذكياءِ ، وعنده تعظيمٌ لهم. . »[2].

* أرأيتُم مثلَ هذا العلاّمةِ الكريمِ؟! لقد كانَ العُلَماءُ والمعلّمون والأئمةُ إذا

= كتابنا «علماء الصحابة»؛ ففيه خيرٌ كثير عن هؤلاء الأخيار بإذن الله.

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٨٥).

(٢) انظر: الوافي بالوفيات (٥/ ٢٦٧).

لَمسُوا في طفلٍ ممّنْ يجلسُ في حلقتِهم تبدو عليه الهمّةُ والنّجابةُ ، أخذوا بيدِهِ إلى هذا المنهلِ الصَّافي والموردِ الكافي ، وربّما زوّدوه بالمالِ والنّصائح ، فغدا من مشَاهيرِ رجالِ الدّنيا ، ومن أكابرِ العُلماءِ ، أو من أعاظمِ الأدباء ، أو من مشاهير النّبغاء.

* وكمْ منْ طفْلٍ كان في خَبايا زوايا النِّسيانِ انتشلَتْهُ يدٌ حانيةٌ ورَعاهُ عقْلٌ منيرٌ فغدا من مشاهيرِ الدّنيا في الفضْلِ والعلْمِ والمكرمةِ.

* وفي تراثنا الكبيرِ الواسع آثارٌ وضيئةٌ تدلُّ على نباهةِ الأطفالِ وعلوِّ همّتِهم ونجابتِهم ، يمكنُ أنْ تكونَ زاداً عظيماً لأبنائِنا وبناتنا وكذلك للمربّين يتّخذونها أساساً لبناءِ الأطفالِ ثقافةً وعلْماً وسُلوكاً.

* وهذا ليسَ بغريبٍ أو مستحيلٍ ، فنحنُ نعلمُ علْمَ اليقين أنَّ للهِ عزَّ وجلَّ في خَلْقِهِ شؤون ، فكم منْ طفْلٍ قد علَتْ همّتهُ ، فكان قرّة عَيْنٍ لأبويهِ ، ودرّة زَيْنٍ لأمّته.

* وقصصُ الأطفالِ النُّجباءِ ومواقفُهم الصَّافيةُ تصقلُ نفوسَ النّاشئةِ ، وتجعلُهم يقلّدونَ مَنْ سبقَهم من النّجباءِ.

* وفي السُّطورِ الآتياتِ؛ سنتوقّفُ عند قَصَصٍ جميلةٍ تحكي نجابة الأطفالِ في مختلفِ العُصورِ ، ومن مختلفِ الطَّبَقات ، لعلَّ همّةَ الأطفالِ تتلقّحُ بذلك ، فيصبحون من النُّجباءِ ، ويشتدُّ بهم أزْرُ ذويهم ، ويشيّدون بمآثرِهم قُصوراً من المحامدِ والمحاسنِ.

* وفي آياتِ القُرآنِ الكريم آياتٌ للعالمين ، إذْ قصَّ علينا عدداً من نَجابةِ وطفولةِ بعض الأنبياءِ الكرامِ ، ومنهم: إبراهيمُ ، وابنُه إسماعيل ، ويوسُف ، وموسىٰ ، ويحيىٰ ، وعيسىٰ ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام[(١)] ـ؛ وقد تكفّلتِ المصادرُ التي تحدّثتْ عن قَصَصِ الأنبياءِ بذكْرِ أشياء من أخبارِهم مستضيئةً بذلكَ من القرآنِ الكريم وكتبِ التّفسير.

---

(١) اقرأ بتوسع سير هؤلاء الأنبياء مع آبائهم وأمّهاتهم في كتابنا «أمّهات وأبناء وآباء من التّاريخ والسّيرة».

* أمّا كتبُ السِّيرةِ النّبويةِ والشّمائلِ المحمديّة والتّراجم ، فقد أفاضتْ في الحديث عن طُفولةِ سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ ونجابتِهِ ، وهي مشهورةٌ متعالمَةٌ بين أوساطِ النّاسِ.

* وأمّا المصادرُ الموثوقةُ من كتُبِ الحديثِ والطّبقاتِ والتّراجمِ والتّاريخ ، فقد رسمتْ كثيراً من نجابةِ الأطفالِ ، ممّن نبغُوا في سماءِ الإسلامِ ، وكانت لهم مواقفُ مشهورةٌ ، وآثارٌ محمودةٌ في دنيا الفضائل.

* ومن هؤلاءِ الأطفالِ النُّجباءِ ، عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وعليٌّ يعرفُه الحاضِرُ والبادي ، والرّائح والغادي ، وهو كالصُّبح المُسْفرِ لا يُحجَبُ نورُ ضيائِهِ ، ولو تقوّلَ المتقوّلون:

وهَبْنــي قُلْــتُ هــذا الصُّبْـحُ لَيْـلٌ أيَعْمــىٰ العَــالِمُــونَ عــنِ الضِّيــاءِ

* ومن المُسَلَّمِ بهِ أنَّ عليّاً هو أوّلُ مَنْ أسلمَ منَ الأطفالِ من ذوي قربىٰ النَّبيّ ﷺ.

* قال ابنُ إسحاق: «ثمّ كانَ أوّلَ ذكَرٍ منَ النَّاسِ آمَنَ برسولِ اللهِ ﷺ ، وصلّىٰ معه ، وصدّقَ بما جاءَهُ من اللهِ تباركَ وتعالىٰ عليُّ بنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ـ رضوان الله عليه ـ وهو يومئذٍ ابنُ عشْر سنين».

* وكان ممّا أنعمَ اللهُ بهِ علىٰ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنّه كانَ في حِجْرِ رسولِ اللهِ ﷺ قبلَ الإسلام.

* فقد كانَ مِنْ نعمةِ اللهِ على عليّ بن أبي طالب ، وممّا صنعَ اللهُ له ، وأرادَهُ به من الخيرِ ، أنَّ قريشاً أصابتهم أزمةٌ شديدةٌ ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثيرٍ ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ للعبّاس عمه ـ وكان من أيْسَرِ بني هاشم ـ: «يا عبّاسُ ، إنَّ أخاكَ أبا طالبٍ كثيرُ العيالِ ، وقد أصابَ النّاسَ ما ترىٰ من هذه الأزمةِ ـ الشِّـدَّة ـ ، فانْطَلِقْ بنا إليه فلنخففْ عنه من عيالهِ ، آخذُ من بنيهِ رجُلاً ، وتأخذُ أنتَ رجُلاً ، فنكلهُمَا عنه». فقال العبّاس: نعم. فانطلقَا حتّى أتيا أبا طالبٍ فقالا له: إنّا نريدُ أنْ نخفّفَ عنكَ من عيالك حتى ينكشفَ عن النّاس ما هُمْ فيه؛ فقال لهما أبو طالب: إذا تركتُما لي عقيلاً فاصنَعَا ما شِئْتُما. فأخذَ

رسولُ اللهِ ﷺ علياً فضمَّهُ إليهِ ، وأخذَ العبّاسُ جَعْفَراً فضمّهُ إليه ، فلم يزلْ عليٌّ مع رسولِ الله ﷺ حتّى بعثَهُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ نبيّاً ، فاتّبعهُ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ ، وآمنَ به وصدَّقَهُ»[1].

* ومن الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّ سيّدنا عليّاً كان أصغرُ ولدِ أبيهِ ، فقد كان جعفرُ أكبرَ منه بعشْرِ سنين ، وعقيلٌ أكبرُ من جعفر بعشرِ سنين ، وطالبٌ أكبرُ من عقيل بعشر سنين . .

* ويضافُ إلى مكارمِ عليّ أنّ سيّدنا ومولانا رسولَ اللهِ ﷺ قد بعثَهُ إلى اليمنِ وهو في مقتبلِ عُمْرِ الشَّبابِ في عُمرِ الوَرْدِ ليقضيَ بينهم ، ودعا له الحبيبُ المُصطَفى ﷺ يومها وقال: «اللهمّ اهْدِ قَلْبَهُ ، وسدّدْ لِسَانَه»[2]. واستجابَ اللهُ هذا الدُّعاء فلم يشكَّ عليٌّ بعد ذلك في قضاءٍ بين اثنَيْن .

* وممّا تُشَنَّفُ الآذانُ بذكْرِهِ ، ما ذكرهُ جابرٌ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ عليّاً أوّل مَنْ صلّى منَ الأطفالِ في معيّةِ النّبي ﷺ ، قال جابرٌ: «بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ يومَ الاثنين ، وصلّى عليٌّ يومَ الثُّلاثَاءِ»[3].

* ذكرَ ابنُ إسحاق بأنَّ عليّاً كانَ يخرجُ إلى الصَّلاةِ مع رسولِ اللهِ ﷺ ، فيصلّيانِ في بعضِ شعابِ مكّةَ ، وأنَّ أبا طالب قد عثَرَ عليهما يوماً وهما يصلّيان؛ وذكروا أنَّه قال لابنه عليّ: «أيْ بُنَيّ ، ما هذا الدِّينُ الذي أنتَ عليهِ»؟. فقال عليّ: «يا أبتِ ، آمنت باللهِ ، وبرسولِ اللهِ ، وصدّقتهُ بما جاء به ، وصلَّيتُ معه لله ، واتّبعتُه . .»[4].

* هذا تاريخُ هذا الطِّفلِ النَّضِرِالنَّاضرِ ، الذي نشأَ في مَهْدِ النُّبوة ، وغُذّي بلبنِها الصَّافي ، وعاشَ في رعايةِ أمينِ النّبوةِ رسولِ اللهِ ﷺ حتّى فاقَ أطفالَ الدُّنيا في سبْقِهِ الميمون إلى مواردِ الهدايةِ والإنْعَامِ الإلهيّ ، فرضي اللهُ عن

---

(١) انظر: السّيرة النّبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني (١/ ٣١٢ و٣١٣) طبعة مكتبة المنار الأولى ١٩٨٨م.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات (٢١/ ١٧٩) طبعة إحياء دار التراث العربي الأولى عام ٢٠٠٠م.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٥).

(٤) السّيرة النبوية لابن هشام بشرح أبي ذر الخشني (١/ ٣١٤) بتصرف يسير.

الطّفلِ السَّابقِ الذي قضىٰ زهْرَ حياتهِ وبواكيرَ طفولتهِ في رحابِ البيتِ المحمديّ ، يسمعُ القُرآن غضّاً نديّاً ولم يُلهه رسْمٌ ولا لهوُ الأطفالِ من أترابهِ ، وإنّما كانتْ حياتُه عطاءً في عطاءٍ ، ونقاءً في نقاءٍ في نقاءٍ ، حتى غدت سيرتُه إمتاعاً للأسماع ، وتهذيباً للنّفوس والطِّباع .

* ومنَ الأطفالِ ذوي النَّجابةِ ، الذين دخلَ الإيمانُ قلوبَهم النَّقيةَ ، فصقلَها وجعلَها مُحِبّةً للهِ ورسولهِ؛ البطلُ المُعلَمُ الزّبيرُ بنُ العوّام بن خُويلد ، حواري الحبيبِ الأعظمِ حبيبنا محمّد ﷺ ، وابنُ عمّته سيّدتنا صفيّة بنت عبد المطّلب - رضي الله عنها وأرضاها وحشَرنا في معيّتها ومعيّة ابنها الزُّبير - .

* أسلمَ الزُّبيرُ وهو حَدَثٌ لم يشتدَّ عودُهُ ، وهاجر الهجرتَيْن ، وصلّى إلى القبلتَين ، وهو أوّلُ مَنْ سَلَّ سيْفَهُ في سبيلِ الله تعالى ، وبذلك سجَّلَ مفخرةً للأطفالِ الأبطالِ ممّن رُبُّوا على يد معلّمِ النّاسِ الخيرَ سيّدنا رسول الله ﷺ .

* أوردَ الإمامُ الذَّهبيُّ - رحمه الله - في «أعلام نُبلائه» عن عروةَ بنِ الزّبير أنّه قال : «أسلمَ الزُّبيرُ ابن ثمان سنين ، ونُفِحتْ نفحةٌ من الشَّيطان أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ بأعلى مكّة ، فخرجَ الزُّبيرُ وهو غلامٌ ابن اثنتي عشْرةَ سنةٍ ، بيده السَّيف فمن رآه عجِبَ ، وقال : الغلامُ معه السَّيف!!! حتّى أتىٰ النّبيَّ ﷺ ، فقال : مالكَ يا زُبيرُ؟ فأخبره وقال : أتيتُ أضربُ بسيفي مَنْ أخذك»[1] .

* كان سيّدنا الزُّبيرُ بنُ العوّامِ - رضي الله عنه - ركْناً من أركانِ الدِّين ، وعموداً من عُمُدِ الإسلامِ ، وكان ثابتَ القَلْبِ ، رابطَ الجأْشِ ، نجيباً ، أريباً ، لبيباً ، امتزجتْ روحُهُ الصَّغيرةُ بالإسلامِ ، وأحبتِ الإيمانَ ، وأحبَّتْ رسولَ الله ﷺ ، فثبتَ ثباتَ الرَّواسي في وجهِ عمّه الذي أرادَهُ أنْ يَكْفُرَ؛ فقد كان عمُّهُ يعلّقُهُ في حصيرٍ ، ويدخّنُ عليه بالنَّار ، ويقولُ له : «يا زبيرُ ارجعْ للكُفْرِ ودينِ الآباءِ والأجدادِ» ، فيقولُ الزّبير : «لا أكفرُ أبداً ، لا أرجعُ إلى الكفْرِ أبداً بعد أنْ هداني الله عزَّ وجلَّ» . وثبتَ على دِينهِ ولمْ تستطعْ غِلْظةُ عمّهِ وشدّتُهُ أنْ تثنيَهُ عن عَزْمهِ ، وعن إيمانهِ باللهِ .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (١/ ٤١ و٤٢) . وفي بعض المصادر : أنَّ النّبيّ ﷺ قد دعا له ولسيفِهِ .

* وقد شهدَ للزُّبيرِ بالثَّباتِ والبطولةِ فارسٌ من أعظمِ فرسانِ الصَّحابةِ وأقواهم وأشدّهم ، سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، فقد قالَ رجلٌ لعليٍّ: «مَنْ أشجعُ النَّاسِ»؟

فقالَ عليٌّ: «ذاكَ الذي يغضبُ غَضَبَ النّمِرِ ، وَيثِبُ وثُوبَ الأسَدِ» وأشارَ إلىٰ الزُّبيرِ بنِ العوَّام[1] ـ رضي الله عنه ـ:

فكَمْ كُربةٍ ذبَّ الزّبيرُ بسَيْفهِ عَنِ المُصْطَفىٰ وَاللهُ يُعطي فيجزلُ

* هذه بطولةُ الزّبيرِ وهو طفلٌ غريرٌ ، فكيفَ به وهو في أوجِ الرُّجولة أسدٌ هصورٌ؟!

* وهذا طفلٌ آخرُ من نجباءِ المدرسةِ المحمديّةِ وأصفيائها ، وهو أحدُ متقدّمي الإسلام ، وأوّلُ مَنْ رمَى بسَهمٍ في سبيلِ اللهِ تعالى ، وهو فارسُ الإسلامِ ، حمَى أصحابَه بنبالِهِ يوم سريّة رَابغ ، وكان أوّل قتالٍ في الإسلامِ ، وأنشدَ هذا البطلُ أبياتاً منها:

أَلا هَلْ أتى رسولَ الله أنّي حَميتُ صَحَابتي بصدورِ نَبْلي

فَما يَعْتدُّ رَامٍ في عَدوٍّ بِسَهْمٍ يا رسولَ اللهِ قَبْلي

* هلْ عرفْتُمْ هذا السَّبّاقَ الأوّلَ في ميدانِ الرّمْي؟! إنّه سعدُ بنُ أبي وقّاص الزُّهريّ ، أحدُ العشرةِ المبشّرين بالجنّةِ ، وأحدُ السّابقين الأوّلين ، وأحدُ مَنْ شهدَ بدراً والحديبيةَ؛ وعن شهودهِ غزاة بدرٍ وهو حدثٌ صغيرٌ يقولُ سعدٌ عن نفسِهِ: «ولقد شهدتُ بدراً وما في وجْهِي شَعْرةٌ واحدةٌ أمسحُها بيدي»[2].

* وعن سبقِهِ إلى يَنْبوعِ المعينِ المحمديّ يقولُ سعدٌ: «ما أسلمَ أحدٌ في

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (١٤/ ١٢٢) طبعة دار إحياء التراث العربي الأولى ببيروت عام ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٩٧).

اليومِ الذي أسلمتُ ، ولقد مكثتُ سبْعَ ليالٍ وإنّي لثلثُ الإسلام»[1].

* أسلمَ سعدٌ وهو يافعٌ صغيرٌ ، ووقفَ موقفَ الأبْطَالِ الثَّابتينَ إزاءَ عقيدته ، فلمْ يُرَعْ للتّصرُّفاتِ الطّائشةِ التي افتعلَتْها أمُّهُ حمنةُ بنتُ سفيانَ بن أمية بن عبد شمس التي كان بارّاً بها ، والتي لم ترضَ عن إسلامهِ وساءَها ما ساءَها أنْ يُقَالَ لها : «إنَّ ابنَكِ سَعْداً قد أسْلَم ، وسارَ في دربِ الإيمان ، وغدا من نبغاء المدرسة المحمديّة وأعلامها» .

* والحقيقةُ فهذهِ فتْنةٌ واسعةُ الأطرافِ لهذا الفتىٰ اللطيفِ سعد ، الذي داعبتْ نَسَماتُ الإسلامِ قلبَه الخالي ، ورسمتْ على حناياهُ شهادةَ التَّوحيدِ ، فجعلتْهُ منْ أسيادِ أهلِ التَّوحيد .

* كانتِ الفتنةُ قاسيةً على سعْدٍ ، نشبتْ بنفسهِ براثنُها ، ولكنَّه فَصَلَ الموقفَ الدّقيقَ بالقولِ الفَصْلِ ، ولم يكن فيهِ إفراطٌ ولا تفريطٌ ، ونجحَ في امتحانِ فتنةِ الأهلِ والأحبّاءِ والوالدةِ . . . وخرجَ من الامتحانِ بشهادةِ تفوّقٍ موقّعةٍ من ربِّ العالَمين ، لا تزالُ تُتلىٰ في المحاريبِ إلى يومِ الدِّين .

* أخرج أبو يعلى الموصليّ في مسندهِ بسندٍ رفعَهُ إلىٰ مصعب بنِ سعد عن أبيهِ سعدِ بنِ أبي وقاص أنّه نزلتْ فيهِ آياتٌ من القرآنِ ، قال : «حَلَفَتْ أمُّ سعدٍ لا تكلّمه أبداً حتى يكفرَ بدينه ، ولا تأكلَ ، ولا تشربَ ، قالت : زعمتَ أنَّ الله أوصاكَ بوالديك ، وأنا أمُّكَ ، وأنا آمرك بهذا!! . ومكثتْ ثلاثاً حتى غُشيَ عليها منَ الجُهْدِ ، فقامَ ابنٌ لها يُقال له عمارة ، فسَقَاها ، فجعلتْ تدعو على سَعْدٍ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ، ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ ، ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾»[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل برقم (٣٧٢٦ و٣٧٢٧) ، وفي مناقب الأنصار برقم (٣٨٥٨) ، وابن ماجه في المقدمة برقم (١٣٢) ، وانظر : حلية الأولياء (١/ ٩٢).
وعلّقَ ابنُ حجر على كلام سعْدٍ فقال : «قال ذلك بحسب إطلاعه . والسّبب فيه أنَّ مَنْ كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه» . (فتح الباري ٧/ ٨٤).
وقال ابنتُه عائشة بنت سعد : «مكث أبي يوماً إلى الليل ، وإنّه لثلث الإسلام» .

(٢) انظر : مسند أبي يعلى الموصلي (٢/ ١١٦ و١١٧) برقم (٧٨٢).

* إنَّ الوالدَيْن لأقربُ الأقرباءِ ، وألصقُ النَّاسِ بالابنِ ، وإنَّ لهما فضْلاً عظيماً ورحماً كريماً وواجباً مفروضاً ، وحبّاً وكرامةً ، واحتراماً ، ولكنْ ليسَ لهما سبيلٌ وطاعةٌ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذْ إنَّ الصِّلَةَ في اللهِ عزَّ وجلَّ هي الصِّلةُ الأُولىٰ والأَوْلىٰ ، والرّابطةُ في اللهِ عزَّ وجلَّ هي العروةُ الوثقىٰ لا انفصامَ لها ، فإذا ما كان الوالدان مشركَيْن ، فواجبُ الابنِ نُحوهُمَا الإحسانُ إليهما ، والرّعايةُ لهما ، وليس الطَّاعةُ والمطاوعةُ لما يبغيان من اتّباع الابن لهما. وهكذا صَنَع سعدٌ الذي تربّى على الإسلام وهو غضُّ العودِ ، طرَيّ القوامِ ، لم يتجاوزْ مرحلةَ عمرِ الزَّهْرِ والوردِ.

* جاء في الصَّحيحِ وغيرِه أنَّ سعدَ بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ قالَ: «نزلتْ هذه الآيةُ فيَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨] قال: كنتُ برّاً بأمّي ، فلمّا أَسْلَمْتُ ، قالتْ: يا سعْدُ ، ما هذا الدِّينُ الذي قد أحدثتَ؟! لتدعنَّ دينَكَ هذا ، أو لا آكلُ ، ولا أشربُ حتّى أموتَ ، فتُعيَّر بي ، فيقال: يا قاتلَ أُمِّهِ؛ قلتُ: لا تفْعَلِي يا أمّه ، إنّي لا أدعُ دِيْني هذا لشيءٍ ، فمكثَتْ يوماً لا تأكلُ ولا تشربُ وليلةً ، وأصبحتْ وقد جُهِدَتْ ، فلما رأيتُ ذلك ، قلتُ: يا أمّه ، تعلمينَ واللهِ لو كان لكِ مئةُ نفسٍ ، فخرجَتْ نَفْساً نفْساً ، ما تركتُ ديني ، إنْ شئْتِ فكُلِي أو لا تأْكُلي. فلمّا رأتْ ذلك ، أكلَتْ»(١).

* وبهذا التّصرُّف الحصيفِ انتصرَ إيمانُ سعدِ الفتىٰ الصَّادقِ النّجيبِ على فتْنَةِ الرّحم والقرابةِ والقُربىٰ ، ولم تهزُّهُ العواطفُ المبتورةُ المصطنعةُ والبعيدةُ عن الإيمانِ باللهِ؛ انتصرَ سعدٌ انتصارَ الفائزين ، ووهنتْ أمُّه أمامَ ثباتهِ ، فَلَمْ تَفِ

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٠٩ و١١٠) ، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢١٧ و٢١٨) طبعة دار الكتب العلمية ، والدر المنثور للسيوطي (٥/ ١٤١) ، والحديث أخرجه مسلم في الجهاد برقم (١٧٤٨) ، والترمذي برقم (٣١٨٨) و(٣٠٨٠) ، كما أخرجه أحمد في المسند(١/ ١٨١ و١٨٢). أقول: «إن هذه القصة دليل ساطع على نبل الإسلام ، وعدله السّامي ، وتقديره للمعروف ، حيث إن الأبوين تعبا من أجل ابنهما الذي هداه الله إلى الإيمان ، فالواجب عليه أن يحسن إليهما في الدنيا ولو بقيا على شركهما».

نَذْرَها وأكلَتْ وشربت ، وبقيَ سعْدٌ يحملُ رايةَ النَّجاةِ ، ولواء طاعةِ الله ورسوله ؛ وعلَّمه الإسلامُ ألّا يطيعَها في شِرْكٍ أو معصيةٍ ، ولكنّه يحسنُ إليها فيما عدا ذلكَ .

* * *

الفصل الرابع
الأطفالُ والتّذوّقُ الأدبيُّ

* يظنُّ بعضُ الكُتّابِ والمُؤلّفينَ الذين يكتبونَ للأطفالِ أنَّ أطفالنَا لا يكَادُونَ يفْقَهون حَديثاً ، ومن ثمَّ بدأَ بعضُ مَنْ يتعاملُ مع ثَقَافةِ أطفالِنا بتقديم الغَثّ والهَزيلِ ، والسَّمينِ والمنفوخِ أحياناً ، ونسُوا ـ أو تَنَاسُوا ـ أنّهم يبنونَ أفكارَ هؤلاءِ الأَزَاهيرِ على جُرفٍ هَارٍ ، وعلى الثَّقافةِ الباهتِةِ ، التي لا تُسْمِنُ ولا تُغْني منْ جوعٍ.

* مُخْطىءٌ مَنْ ظنَّ أنَّ أطفالَنا غيرُ قادرينَ علىٰ تَذوُّقِ الجمالِ الأدبيّ في نصوصِ القُدماءِ ، وما نجدُهُ في نُصوصِ المُحدثين؛ نعم مخطىءٌ مَنْ ظنَّ أنَّ أطفالَنا لا يدركون إلاّ أدبَ البَسَاطةِ والسُّهولةِ والابتذالِ . .

* إنَّ أطفالَنا يدركون فنَّ عمالقةِ الأدبِ والشِّعر ، إذا استطعْنَا أنْ نقدّمَ هذا الأَدَبَ الفنّي ضمْنَ وجباتٍ ثقافيّةٍ شهيّةٍ؛ نغذّي بها عقولَهم الصَّافيةَ؛ ونُندّي بها نفوسَهم الطَّيّبةَ التي تستقبلُ ما يُقدَّمُ لها بشكل مدروس موزون ، وضمن تربية جمالية (Aesthetic education) تدعمُها خبرةٌ جماليةٌ (Aesthetic experience) متمرسةٌ في فنِّ التّذوّقِ الأدبي والفنّي والتّربويّ.

* ودعونا نسأل: «هل عقولُ الأطفالِ ـ على امتدادِ الوطنِ العربي ـ مقْتَصِرةٌ علىٰ حفْظِ وتعلُّمِ ما هو سَهْلُ الألفاظِ ، ركيكُ المعَاني؟!!».

* وللإجابة عن هذا السّؤال نقول: «لا؛ إنَّ مَجْدَ الأدبِ لا يزالُ قائماً على

سُوقهِ يُعجب الأطفال في كُلِّ عَصْرٍ ومصْرٍ؛ وإنَّ حُسْنَ التَّعبيرِ ، وروعةَ الخَيالِ تُسْهِمُ في ارتقاءِ تفكيرِ أطفالِنا ، ونَقْلِهِم إلى عَالَمِ التَذوُّقِ الفَنّي والجمالي لأدبِ الكلماتِ وكلماتِ الأدبِ الهامِسَات ، وتاريخُنَا يزهو مدىٰ الأزمانِ بِسِيَرِ أطفالٍ كانُوا أعجوبةً في الحِفْظِ والفَهْمِ والتّذوُّقِ الأدبيّ والجمالي».

* نعم ؛ إنَّ الأطفالَ يفتحون أعينَهم علىٰ ما يعوّدهُم أهلوهُم؛ فمنَ المعلومِ أنَّ أطفالَنا يُولَدون وهم مجرّدونَ من معرفةِ الأشياءِ ، فارغو السَّرائرِ ، عَارُونَ عن الوظائفِ العقليّةِ ، لا يرونَ إلاّ ما تقعُ عليهِ أبصارهُم ، ولا يشعرون إلاّ بما يؤثّرُ في أجسامِهِم ، ولا يسمعون ضوضاءَ العالَم ، وهم حينئذٍ محاطُون من أهليْهِم بحنانِ الشَّفَقةِ ، وشَفَقَةِ الحنَان ، لو هبَّتِ الريحُ على بعضِهم ، لامتنعتْ أعينُ أهلِهم منَ الغُمْضِ ، فهؤلاء الأحباب الصِّغار هم أكبادهم التي تمشي على الأرض .

* فإذا وجَّهَ الأهلُ جهودهُمْ نحوَ أطفالِهم منذ أوّلِ حياتِهم ونشأتِهم ، وعوّدوهُمُ الأعمالَ النَّافعةَ ، وعلموهُم العِلْمَ الصَّحيحَ ، وربّوهم على تقديرِ العلْمِ والعُلَماءِ ، لَغَدوا مُولَعين بما تربّوا عليهِ من الثَّقافةِ الدّسمةِ والنّصوصِ القويّةِ في مَبْنَاها ومعْنَاهَا .

* فأطفالُنا يكبرونَ على الشَّكل الذي أُفْرِغَ في قالَبهم ، وعلى الصُّورة التي منَحها لهم أهلوهم من عاداتٍ وآدابٍ وثقافاتٍ :

لِكُلِّ امْرِىءٍ في الخَيرِ وَالشّرِّ عَادَةٌ   وكُلُّ امْـرِىءٍ جَارٍ عَلَـىٰ مَـا تَعـوَّدَا

* ولذا فإنّه لا مانعَ منْ أنْ يحفظَ أطفالُنا عيونَ الشِّعْرِ العربيّ الأصيلِ ، لِتنبثقَ شاعريةُ مَنْ عندَهُ استعدادٌ منهم لذلكَ ، وبالتَّالي يجبُ تأديبُهم[1] بأدبِ

---

(١) ينبغي أنْ نعرفَ معنى الأدبِ والتّأديب في اللغة لتتوضّح الصورة بشكل أفضل ، فالأدب في اللغة : «رياضة النّفس بالتّعليم والتّهذيب على ما ينبغي . ويقال : أَدَبَ فلاناً : أي راضَه على محاسنِ الأخلاقِ والعادات . وأَدُبَ فلانٌ أدباً : أي راضَ نفسه على المحاسنِ . وأدَّبَهُ : أي راضه على محاسنِ الأخلاق . والتأديب يعني التهذيب» . (المعجم الوسيط ١/ ١٠ و١١) .
وقال ابن حجر في الفتح : «الأدبُ استعمالُ ما يُحْمَدُ قولاً وفعلاً . وعبّر بعضُهم بأنّه الأخذُ بمكارم الأخلاق» . (فتح الباري ١/ ٤٠٠) .
والمرادُ بتأديبِ الأطفالِ في هذا البحث هو المعنى اللغويُّ للأدبِ والتّأديب . أي تهذيبهم ، =

القُرآنِ الكريم ، إذْ إنَّ في هذَيْن المصدرَيْن ما يشفي العلّة ويبلُّ الغلّة.

* ولا يحسبنَّ ظانٌّ أنّنا نُجَابهُ عَصْرَ المعرفةِ ، وعَصْرَ الحاسبِ الآلي والعَولَمةِ والتّعلُّم السَّريع؛ لا وألفُ لا ، إنَّ أطفالَنا أمانةٌ ، ومنَ الأمانةِ أنْ نؤسِّسَ ثقافتَهم تأسيساً متيناً صحيحاً يتوافقُ مع مصلحتِهم ومستواهم ، ومع ما نعوِّدهم عليهِ ، وما نقدّمُ لهم منْ ثقافةٍ أصيْلةٍ ، ولغةٍ رصينةٍ ، وأدبٍ هادفٍ ، فإذا فعلْنَا ذلك أخذنا بأيْدي أطفالِنا إلى شاطىءِ الأمانِ ، وينبوعَ السَّعادةِ الحقيقيّةِ المتمثّلَةِ بالعِلْمِ والمعرفةِ ، وكلّ ما يدعو إلى الثّقافةِ المفيدةَ لهم ، لأنَّ أهمَّ مرحلةٍ في بناءِ الإنسانِ هي مرحلةُ الطُّفُولةِ ، ومرحلةُ النَّشْأةِ قُبَيلَ المراهقةِ وخلالَها.

* وقد غدتِ الطُّفولةُ في وقتِنا المُعَاصر شيئاً مذكُوراً ، فأصبحتْ مهمّةً غايةَ الأهميّةِ في ذاتِها ، إذ لمْ يعُدْ أطفالُنا مجرّدَ مراهقينَ صِغَاراً؛ بل كلُّ خبرةٍ (Experience) في هذهِ الحياةِ لها بهم اتّصالٌ وثيقٌ وعلاقـةٌ متينةٌ. لذا فالأدبُ الذي يُـقـدَّمُ لأطفالِنَا منْ أهمِّ العَنـاصِرِ التي تُـكَوِّنُ ميولَهم وتَـبْني ثقافتَـهم وتعـزِّزُها.

* فالأطفالُ بعامّةٍ خلالَ نموّهم وتفتّحِ عقولهم ، يأخذونَ في التَّعرُّفِ بما حولَهم من خبْراتِ الحياةِ بماضيها وحاضرِها ، وبالتّالي ربّما تكونُ «الوَجَبات

= ورياضة نفوسِهم على محاسنِ الأخلاقِ والعاداتِ ، وحملها على مكارمِ الأخلاقِ وفقاً لمعاني الشَّرعِ الإسلاميّ وموازينه.
فيستحسنُ تأديبُ الأطفال على سماع الألفاظ الإسلامية ذات المعاني الشَّرعية ، من مثل: لفظ الجلالة وأسماء الله الحسنى ، وكلمة الشَّهادتَيْن ، والقرآن الكريم ، والكعبة المشرّفة ، ورسول الله ﷺ ، والصّحابة الكرام؛ ونحو ذلك من الألفاظ الإسلامية المونقة المباركة ليتعوّد عليها الأطفال ويتذوقونها ، وتتعلّق بأذهانهم معانيها ، ويحفظونها ، ويرددونها ، وتختلط في نفوسهم وضمائرهم.
وينبغي على الأم عندما تريد تنويم طفلها أو تهدئته باغناء له ، أنْ تستعملَ الألفاظَ الإسلامية ، وأنْ تنشدَ له الأبيات الشِّعْرِيّة البسيطة ذات الألفاظ والمعاني الإسلامية التي فيها اسم الله ورحمته وقدرته وحفظه ، واسم نبيّه ، وكتابه المجيد ونحو ذلك ، ليعتادها سماعاً ويتذوّقها ويتعلّمها نطقاً ، ويردّدها مع نفسِه أو مع أترابه.

الأدبيّةُ الهادفةُ» من أوضحِ السُّبُلِ وأقواها ، إذ يتعرّفُ أطفالُنا من خلالِها الحياةَ في الأبعادِ القديمةِ والمُعَاصرةِ ، وربّما المُسْتَقْبلَة. ولكي نقوّي هذهِ النّاحيةَ المهمّةَ لا بدّ أنْ نقدّمَ لهم الأجنَاسَ الأدبيّةَ المختلفةَ حتى تغذّيَ جوانبَ تفكيرِهم ، وتهذِّبَ نواحي الخيالِ فيه. وتكونَ كذلكَ وسيلةً مجديةً من وسائلِ التَّعليم والتَّقويم والتَّثقيف بشيءٍ منَ التَّسليةِ ، والمشاركةِ في الخبرةِ ، وطريقاً جميلاً مُزْهِراً لتكوينِ العواطفِ السَّليمةِ الصَّادقةِ للنَّاشئةِ ، وأسلوباً يقفونَ من خلاله على حقيقةِ الإسلامِ دِيْنِ الحنيفيّةِ ، ويكتشفون كذلك مواطنَ الصَّوابِ والخَطَأ في المجتمع ، ويتعرّفُون طرقَ الخيرِ والشَّرِّ في الحياةِ؛ أفلا يستحقُّ أنْ يكونَ ما نقدّمُهُ لأطفالِنا أدباً رفيعَ المُسْتوىٰ عظيمَ البَيانِ؟!.

* أَجَل ، يستحقُّ أكثر وأكثر ، لأنَّ الأدبَ بعامّةٍ ليسَ منْفَصِلاً عن حَيَاةِ أطفالِنا ، ومتخصّصاً بحياةِ الكبارِ ، غير أنّه يستمدُّ مادَّتَه من خيالِ الكبارِ وعبقريّتهم الأدبيّةِ ، وفي خلالِ الخمسين سنةً الماضية غدا أدبُ الأطفالِ فنّاً من فُنُونِ الأدبِ الهادفِ ، غير أن السُّهولةَ اللفظيةَ هي التي تسيطرُ على جسْمِ هذا الأدبِ وروحهِ ، ظنّاً من الكبارِ أنَّ الصِّغَار عاجزون عَن استيعابِ الجزَالةِ اللفظيّةِ والرَّصانةِ والخيالِ الأدبي ، يُضَافُ إلىٰ ذلكَ كُلِّه: «أنَّ الهيئاتِ العلميّةَ ، والتّربويةَ ، والثّقافيةَ في البلاد العربيّةِ لم تُسْهِمْ في دراسةِ أدبِ الأطفال دراسةً علميّةً تتحدّدُ بها قواعدهُ ومناهجهُ ، وتبيِّنُ أجناسَهُ الأدبيَّةَ ومقاييسها النّقديةَ ، وتظهرُ تطوره ومدى إسهامِهِ في صنعِ الإنسان وبنائِه؛ وعلى الرّغمِ من الشّكوىٰ الدّائمةِ والمتزايدةِ من مشكلات الشّباب فإنَّ جامعاتِنا العربيّة ، ومعاهدنا التّربوية لم تهتمّ بأدبِ الأطفال مع أنّه أقوىٰ أسَاسٍ يقومُ عليهِ التّكوينُ العقْليُّ والنّفسيُّ والعاطفيُّ لهؤلاءِ الشَّباب ، وخيرُ سبيلٍ ينمّي الخيالَ والإحساسَ بالجمالِ عندَ الأطْفَالِ ، وأجدىٰ أسلوبٍ تتَأصّلُ بهِ القِيَمُ الاجتماعيّةُ والسِّياسيةُ ، وتتأكّدُ العواطفُ الدِّينيةُ والقوميّةُ عند النّاشئةِ ، وأقومُ طريقٍ تتحدّدُ بهِ المُثُلُ والسُّلوكُ الإنسانيُ المحمودُ لأطفالِ اليومِ ، وشبابِ الغدِ ، وصانعي الأُمّةِ في المستقبلِ القريبِ. ولعلَّ الوقتَ قد حانَ فتبدأُ البحوثُ والدِّراساتُ في هذا الميدانِ ، وتتضمّنُ المناهجَ الدِّراسيّةَ في جامعاتِنا ومعاهدنا التّربويةِ دراسة

هذا الفَنّ الأدبي ، فنّ أدبِ الأَطْفَالِ»[1] .

* ومن الجدير بِالذكرِ أنَّ بعضَ المعاهِدِ والجامعاتِ قد أخذتْ على عاتِقها حَمْلَ هذهِ النَّاحيةِ ، وفتحتْ أبوابَها لِفَنِّ أدبِ الأطفالِ وثقافتِهم ، وتسابقَ الدَّارسونَ من كُلِّ صوبٍ ، وأدلوا دلاءهم في هذا الفَنّ ، وحالَفَ معظمهم التّوفيق ، وما نراهُ في المكتباتِ اليومَ في هذا المضمار يثلجُ الصّدور ، ويثري السُّطور.

* وتستوقفني الآن فكرةٌ مفادُهَا : «هلْ يفهمُ الأطفالُ الشّعْرَ ويتذوّقونه؟» .

* أقول : «منَ الخطأ أنْ نجبرَ الأطفالَ علىٰ قراءةِ أشعارٍ معيّنَةٍ ، أو قصائدَ ذاتِ طابعٍ خاصٍّ ، أو نقْصِرَ محيطَهم على ما يُسمَّى بروائعِ الشِّعْر القَديمِ ، لأنَّ في الشِّعْرِ الحديثِ الهادفِ ما يؤدي الغَرَضَ اللغويَّ والتُّراثيَّ ، ويجعلُ أطْفَالَنا يفهمونَ الأدبَ فَهْماً صحيحاً ، ومن الأفْضَلِ أنْ نتركَ الأطفالَ وحدهم يكتشفونَ مواطنَ الفائدةِ ، وسرَّ الحياةِ في أدبِ الشِّعْرِ في القديمِ والجديدِ والمعاصرِ ، إذْ إنَّ الإبداعَ ليسَ مقصوراً على زمَنٍ مُعيّنٍ أو شُعَراءَ معروفين» .

* وهناكَ سؤالٌ آخر يقفزُ إلى ساحةِ الفِكْرِ ومفادُه : «ما الشِّعرُ الذي نقدّمُه للأطْفَالِ؟ وما الشِّعرُ الذي نؤلِّفُه لهم؟! وكيف نجعلُهم يحفظونَ ويستظهرون روائعَهُ؟! ويتذوّقون بدائعَهُ؟!» .

* والإجابةُ عن هذا السُّؤالِ سَهْلَةٌ ، ويمكنُ أنْ نقولَ : «ليس ضرورياً أنْ نقدّمَ للأطفالِ شِعْراً ذا وزنٍ وقافيةٍ ومعنىً ومغنىً ومبنىً؛ بل المهمُّ أنْ نَغْرِسَ في نفوسِهم الإحساسَ والجمالَ الأسلوبيَّ، فنجعلَهم يحسّون بالشِّعر ويتذوّقُونه[2]، ويشعرون وهم يقرؤونَه أو يسمعونه أنَّهم يطالِعُونَ ويسمعُونَ

---

(١) انظر : الأدب وبناء الإنسان (ص٩) للدكتور علي الحديدي؛ منشورات الجامعة الليبية ، كلية التربية ، عام ١٩٧٣م.

(٢) معنى الذّوق أو التّذوق الأدبي : الاستجابةُ الوجدانيةُ لمؤثّرات الجمال ، واهتزاز الشّعور إذا كان الجمالُ الأدبيُ على مستوى رفيع ، وإذ ذاك يتحرّكُ وجدانُ الإنسان ويشعرُ بالمتعةِ والارتياح ، وفي الوقتِ ذاته يعني الذّوق استهجان القبح ولفظه. فالذّوق الأدبي يتضمّن القبول والنّفور ، والارتياح وعدم الارتياح. ونستطيعُ أنْ نقولَ الآن : «إن نمو التذوق الأدبي ـ أو الجمالي بعامة ـ يخضعُ للتّربيةِ الواعيةِ الصَّحيحة ، ويتشرّبُهُ الأطفالُ من الأجواءِ بهم؛ =

شِعْراً ذا إيقاعٍ يحرِّكُ سَواكنَ النُّفوسِ ، ويسْكُنُ حنَايا القُلوب . فالشِّعرُ الجميلُ هو الخلاصةُ الإبداعيّةُ المناسبةُ للتّجرِبةِ التي يمرُّ بها الشَّاعرُ والتي يريدُهَا لِتكُونَ جوهرَ الموضوعِ الذي يطرقُهُ ، والعاطفةَ التي يكنُّها ، والكلماتُ التي يختارُهَا في درجةٍ أعلىٰ وأرقىٰ من النَّثْر ، فكلُّ كلمةٍ يجبُ أنْ يختارَهَا بحرصٍ لمعناهَا ، وفي دقّةٍ لموسيقاها ، لأنَّ الشِّعرَ هو اللغةُ في مضمونها ، وصيغتِها المُركَّزة» .

* إنَّ الشِّعْرَ الهادفَ الجادَّ ، والشّعْرَ الجميلَ المعبّرَ يمكنُ أنْ يُغْنِيَ خبْراتِ أطفالِنا ويثريها ، وأنْ يزيدَ من تجاربِهم البسيطةِ ويغنيها ، ويمدَّها بالنَّافعِ منَ اللغةِ؛ كما أنَّ الشِّعْرَ بأبعادِهِ الخلاّقَةِ يمكنُ له أنْ يلقيَ الضَّوءَ على الأحداثِ اليوميّةِ ، فيعمّقَها أو يتناولَها بطريقةٍ جديدةٍ لم يفكّرْ فيها مستمعُ الشِّعرِ من قبلُ . وذلك لأنَّ الشِّعْرَ لا يعكسُ الحياةَ فحسبْ ، بلْ إنَّهُ لا يقتصرُ على متعةِ الموسيقىٰ والعاطفةِ ، وينتقلُ منها إلى الحكمةِ ، ومع أنَّه يدخلُ البهجةَ والفرحةَ علىٰ الأطفالِ ينبغي أنْ يساعدهُم على تنميةِ مدركاتِهم ونفاذِ بصيرتِهم ، ويكشفَ لهم عن طريقٍ جديدٍ للتّعرّفِ علىٰ عالمِهم والإحساسِ بهِ .

* ومن المتوقّع «أنَّ الشِّعْرَ السَّائرَ هو الذي يمزجُ الخِبْراتِ والتّجاربَ فَيَصِلُ بين تجربةِ الشَّاعرِ ذي الإحساسِ المُرهَفِ وقارىء شِعْره ، أو حتّى المستمع إليهِ ينبغي أنْ يتفاعلَ معه ، وهو لذلكَ كُلِّه يُرضي عواطفَ ومشاعرَ القارىءِ أو السَّامعِ وفكْره ووجدانه ، وربّما يثيرُ فيهِ بقوّتهِ وتأثيرِهِ ما يتضمَّنُهُ من صُورٍ حسيّةٍ وانطباعاتٍ فنيةٍ ، واستجاباتٍ عاطفيةٍ وروحيةٍ ووجدانيّة»[1] .

* وقد لا يختلفُ شِعْرُ الأطفالِ كثيراً عن شعْرالكِبارِ ـ اللهمَّ إلاّ في مضمونهِ ومحتواهُ ـ ولذا فإنَّه مِنَ الطَّبيعيّ أنْ يستحوذَ على إعجابِ الأطفالِ مباشرةً ودونَ أيّةِ واسطةٍ مرغّبةٍ أو مثيرة .

= في البيتِ ، أو المدرسةِ ، أو المجتمع ، ولا ريب في أنَّ للمدرسةِ والتّعليم أكبرَ الأثرِ في تنميةِ الذّوقِ والجمالِ عند النّاشئة ، فالتّربيةُ الجماليةُ تسهمُ في تنميةِ الفضيلةِ الأخلاقيةِ عند الأطفال ، وتزوّدهم بعادات جميلةٍ» .

(١) انظر : الأدب وبناء الإنسان (ص ١٩٧) بتصرف .

* فالشّعرُ الهادفُ الذي يُصاغُ لجماعةِ الأطفالِ والنَّاشئةِ يتحتَّمُ ـ ليكونَ عَملاً ناجحاً ومقبولاً ـ أنْ تكونَ لغتُهُ شاعريّةً؛ ومن ثم ينبغي أنْ تكونَ موضوعاتُهُ ذاتَ أهدافٍ مفيدةٍ، ومغزىً نافعٍ للأطفالِ والصِّغارِ. فالتَّجارِبُ الشُّعوريّةُ والحالاتُ العاطفيّةُ لدىٰ الأطفالِ مماثلةٌ لِتجاربِ الكبارِ، ولا تختلفُ عنها إلّا في مُثيراتِها وحوافزِها «والأطفالُ يتوقُونَ إلىٰ إدراكِ هذهِ التَّجاربَ، والشِّعرُ يحقّقُ لهُمْ ذلكَ، فَمَجالُهُ يَشْمَلُ الأحاسيسَ والعَواطفَ والتَّجارِبَ، ويقوّي منها ويعمّقُها. غيرَ أنَّهُ لا مكانَ في شِعْرِ الأطفالِ للمُثيراتِ الحادّةِ: كالهوىٰ المشْبُوبِ، والرّثاءِ، أو شعْرِ المرارةِ والهجاءِ، أو الأسىٰ الحزينِ، والكراهيةِ المقيتةِ، أو القَسْوةِ المُفرطةِ، أو الحنينِ إلى الوطَنِ البعيدِ أو إلى الشَّيءِ المفقودِ. والمجازاتُ والكناياتُ والإشاراتُ الضّمنيّةُ في شِعْر الأطفَالِ يجبُ أنْ تكونَ محدودةً وقليلةً، وحتّى هذا القليلُ المحدودُ منها يتحتَّمُ أن يكونَ متعلّقاً بالموضوعاتِ التي تدخلُ في نطاقِ تجارِبِ الصِّغار، لأنَّها إذا لمْ تكنْ تشيرُ إلى موضوعاتٍ معروفةٍ لديهم، أحدثتْ عندهم الارتباكَ والاضطرابَ وعدمَ الفَهْمِ»[1].

* ومن هذا المنطلقِ انبثقتْ في الأوساطِ الأدبيّةِ، ـ وخصوصاً المراكزِ الثّقافية وبعض دورِ النَّشْر التي يملكُها أدباءُ أو شعراءُ ـ اتّجاهاتٌ متلوّنةٌ ومتعددةٌ حولَ تَقْعيدِ الشِّعْرِ الذي يناسبُ الأطفالَ وتحديدِ مساراتهِ، ولكنْ هناك اتّجاهانِ بارِزانِ حولَ الموضوعِ يتلخَّصانِ فيما يلي:

* الأوّلُ: أنْ يُحَدَّدَ الشِّعْرُ الذي يُقَدّمُ للأطفالِ بما ينظمُه الشُّعراءُ ابتداءً للأطفالِ، وهو ما يُسَمّى بشعرِ الأطفالِ من مثلِ شِعْر: محمد الهَرَّاوي، ومحمود أبو الوفا، وأحمد شَوقي فيما ترجمه عن الفَرَنْسيّة وحاكىٰ به الشَّاعر الفرنسيّ «لافونتين» (Lafontine) «١٦٢٠ ـ ١٦٩٦ م» الذي عاشَ في القرن السَّابع عشَر. فقد قدّم شوقي نحواً من عشْر مقطوعاتٍ شعريّة، ونحواً من

---

(١) الأدب وبناء الإنسان (ص ١٩٧).

ثلاثين قصّةً شعريّةً على ألسِنةِ الحيَوانات[١].

* الثّاني: أنْ يُرفَضَ الشِّعْرُ الذي يكتبُهُ مَنْ يسمّون: شعراء الأطفالِ، خُصوصاً إذا اقتصرَ نظمُهم علىٰ شعرِ الأطفالِ الصِّغار، وتوقّفَتْ مواهبُهم عند هذا الحدِّ. وأصحابُ هذا الاتّجاهِ يدَّعُونَ أنْ يُقدَّمَ إلى الأطفال: ما كان سَهْلَ المعنىٰ، خفيفَ الموسيقىٰ، مناسبَ الموضوعِ، ويكونُ من نتاجِ مشاهيرِ الشُّعراءِ مثل: البارودي، وشوقي، وحافظ، والرّصافي، والمازنيّ، وغيرهم، حيث تُنْخَلُ أعمالُهم ويُستخرَجُ منها ما يصلحُ اقتباسُهُ للأطفالِ[٢].

* ونحنُ لسنا بحاجةٍ إلى تحديدِ اتّجاهٍ معيّنٍ واتّباعِهِ؛ فعندما نختارُ للأطفالِ عَملاً أدبيّاً، نختارُ الذي يتحدّثُ إليهم بلغةٍ تَصِلُ إلى أعماقِهم، وربّما لا يستطيعُ شاعر أو كاتب مشهورٌ أن يوصلَ ما بنفسهِ للأطفالِ، في حين أنَّ شاعراً أو كاتباً مغمُوراً يتمكّنُ من ذلك. وعلينا إزاءَ هذا أنْ نُحسِنَ ونُفْلحَ في تربيةِ التّذوّقِ الأدبي وتنميتهِ لدىٰ الأطفالِ، حتى نعقِدَ جسْرَ محبَّةٍ بينَهم وبين الأدبِ المُمتازِ ـ شعراً كان أو نثراً ـ مهما كانتْ بواعثُه ما دام يحملُ هدفاً نبيلاً، وفضائلَ تصقُل نفوسَهم، فَهَلْ نستطيعُ أنْ نفعلَ ذلكَ، ونربطَ الأطفالَ بموضوعاتٍ منَ الشّعرِ؟

---

(١) قالَ أحمد شَوقي عن قَصصهِ الشّعريّة ومحاولاته في نظْمِ شعْرِ الأطفال، في مقدمة «الشّوقيات» وذلك في عام (١٨٩٨ م): «جرّبْتُ خاطري في نَظْمِ الحكاياتِ على أسلوبِ حكاياتِ لافونتين الشّهيرة؛ وفي هذه المجموعةِ شيءٌ من ذلك، فكنتُ إذا فرغْتُ من وضْعِ اسطورتَيْن أو ثلاث أجتمعُ بأحداثِ المصريين، وأقرأُ عليهم شيئاً منها، فيفهمونَه لأوّلِ وهْلَة، ويأنَسُون إليه ويضحكون منَ الكثرة؛ وأنا أستبشرُ لذلك، وأتمنّى لو وفّقني اللهُ لأجعلَ للأطفالِ المصريّين مثلما جعلَ الشّعراء للأطفالِ في البلادِ المستحدثة منظومات قريبة المُتناول، يأخذون الحكمةَ والأدبَ من خلالها على قَدْرِ عقولهم.
والخلاصةُ أنّني كنتُ ولا أَزَالُ ألوي في الشّعر عن كل مطلب، وأذهبُ من فضائه الواسعِ في كلّ مذهب، وهنا لا يسعني إلا الثّناء على صديقي خليل مطران صاحب المِنن على الأدبِ، والمؤلّف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشِّعر وبين نهجِ العَرب، والمأمول أنّنا نتعاونُ على إيجادِ شعرٍ للأطفال والنّساء، وأنْ يساعدَنا الأدباءُ والشُّعراء على إدراكِ هذه الأُمْنيةِ».

(٢) انظر: أدب الطفل لهادي الهيتي (ص ٢١١)، والأدب وبناء الإنسان (ص ١٩٧ و١٩٨)، مع الجمع والتصرف.

* في ظلالِ رحلتِنا اللطيفةِ في رحابِ الأطفالِ وأدبِهم وثقافتِهم نستطيعُ أنْ نقولَ: «هل موضوعاتُ شعْرِ الأطفالِ في عَصْرِ المعلوماتِ، وعصْرِ التّقُّدمِ والتَّقنيةِ تجدي الأطفالَ معرفةً وتنفعُهم؟».

* في الحقيقةِ إنَّ موضوعاتِ شعرِ الأطفالِ كثيرةٌ ومتنوعةٌ، منها الشّعرُ القديمُ، ومنها الحديثُ، غير أنَّه يجبُ أنْ تكونَ موضوعاتُ الشعْرِ ملائمةً، لا أنْ تتحوّلَ إلى نظمٍ لا روحَ فيهِ ولا حياةَ، أو يعتمدَ على تقديمِ معلوماتٍ وأرقامٍ فقط.

* ومنَ المهمِّ في موضوعاتِ شعْرِ الأطفالِ أنْ يأخذَ الشُّعراءُ عند اختيارِ موضوعاتِهم ما يحتاجُهُ الأطفالُ والنَّاشئةُ وما يهتمّونَ بهِ ويميلونَ إليهِ، وأنْ يكونَ الشِّعْرُ مناسباً لهم مِنْ حيثُ الموضوعُ أوّلاً، ثمّ المزاجُ والأسلوبُ والعاطفةُ، وممّا له صِلَةٌ بتراثِهم الإسلاميّ الأدبيّ، وقيمهم العربيّةِ الأصيلةِ، بحيث يؤدّي دوره في تربيتهم تربيةً قويمةً في الأخلاقِ والسّلوكِ والفكْرِ، ومن ثمَّ يفتحُ أذهانَهم على ما حولَهم، فيرون عظمةَ الخالقِ في الكون، ويرونَ الحياةَ والعلاقاتِ الاجتماعيّةَ؛ والبيئيّةَ بما فيها من حيواناتٍ ونباتاتٍ وجماداتٍ ومخلوقاتٍ سخّرها اللهُ للإنسانِ ليكونَ سعيداً.

* وينبغي أنْ يحتويَ هذا الشِّعرُ في مضمونهِ أهدافاً محددةً لتربيةِ الأطفالِ حسبَ مراحلِ حياتِهم، وخصوصاً في بدايةِ تلقّيه فنونَ القراءةِ والكتابةِ، لأنَّ هذه السِّنَّ هي سنُّ تربيةٍ وتنشِئَةٍ وبناءٍ، فكلُّ كلمَةٍ تتركُ في نفْسِ الطِّفْل أثراً وكلُّ كلمةٍ ترتسمُ في ذهنهِ وذوقهِ وربّما سلوكه.

* كما ينبغي أيضاً أنْ يلائمَ هذا الشّعر لذهنِ الأطفالِ من السَّبْكِ والأسلوبِ وبناءِ الكلمة، وأنْ تتناسقَ الكلماتُ الشّعريّةُ مع ما يحسُّهُ ويتذوّقُهُ ويألفُهُ هؤلاءِ البراعم؛ كما ينبغي أنْ يتيحَ لهم أنْ يتفاعلُوا معه بوجدانِهم وذهنِهم معاً، وأنْ يزوِّدهم بفائدةٍ جديدةٍ بما يحتويهِ من معَانٍ وقيمٍ، وأنْ ينميَ مداركَهُم ويحسّنَ مفرداتِهم ولغتَهم، ويزيدَ من قدراتِهم على تلمُّسِ محاسنِ اللغةِ وتذوّقِها ومحبّتها، مع إدراكِهم لجمالِ النّظمِ الصَّحيحِ، والعبارةِ الموحيةِ، والموسيقىٰ المُنْسَابةِ منَ القوافي والمفردات.

* وينبغي أيضاً أنْ يلتزمَ هذا الشّعْرُ الهادفُ بالفُصْحىٰ ، مهما كانتْ موضوعاتُه ومضمونُه ، بشرطِ مراعاةِ مرحلةِ الطُّفولةِ التي يُنْظَمُ لها هذا الشِّعْرُ ، لأنَّ ذلكَ يربطُ الأطفالَ باللغةِ العربيةِ الجميلة ، ويزيدُ من تعلّقِهم بها.

* وهناك نقاطٌ مهمّةٌ جداً يجبُ علىٰ الشَّاعرِ أنْ يدركَها لكي ينجحَ في مهمّتهِ بين عالَمِ الأطفالِ؛ ويمكنُ لنا أنْ نوجزَ هذه النّقاطَ بما يأتي :

أ ـ الشَّاعرُ ـ قبلَ كل شيءٍ ـ مُكَلَّفٌ بِفَهْمِ عالَمِ الأطفالِ إذ هي النّافذةُ التي يرسلُ منها الضَّوءَ إلى قلوبِهم ونفوسِهم.

ب ـ الشَّاعرُ ذو الخبرةِ يتعرّفُ اهتماماتِ الأطفالِ ومدركاتِهم ، فلا يخرجُ عن هذا المنهجِ لئلا يجعلَهم يتعثّرون في فَهمِ الشّعر وتذوّقِهِ.

ج ـ على الشَّاعرِ أن يختارَ الفكرةَ الملائمةَ لِصَوغِ موضوعهِ ، ومن ثمَّ يختارُ لها الألفاظَ المناسبةَ والعباراتِ المنسجمةَ مع الفكْرةِ والألفاظِ والإيقاعِ.

د ـ الشّاعرُ المُجيدُ هو الذي يوظّفُ الصّورةَ الجميلةَ لشعْرِهِ الذي يتّصلُ بعالَمِ الأطفالِ ، ويخلّصُ شِعْرهُ منَ الرّؤيةِ المعقّدةِ ، وتكونُ فكرته وصورتُه وكلماتُه بسيطةً وقريبةً منَ الأطفالِ ، ويعمدُ أنْ تكونَ أعمالُه محسوسةً وتجربته الشّعرية[1] كافية وغنية ، وبالتَّالي تظلُّ أكثر قُرباً إلى عالَمِ الأطفالِ ، وأكثرُ قدرةً على التّأثيرِ فيهم.

* والآن ، فقد حاولتُ ـ في هذهِ الدّراسةِ المتأنيةِ ـ أنْ أقدّمَ شيئاً للأطفالِ يقوّي لغتَهم ، ويربطُهم بتراثِهم قديمهِ وحديثهِ ، ويجعلُهم يتفاعلُون بأرواحِهم

---

(١) المقصودُ بالتّجربةِ الشّعرية (Poetic experience) الحالةُ التي تتشبّعُ فيها نفسُ الشّاعر بموضوع من الموضوعات ، أومشاهدة من المشاهدات ، أو فكرة من الفِكَرِ ، أو مرأى من المرائي ، يمتلىءُ بها وجدانه ، متحفزة إلى التّأمّل والتفكير ، والاستغراق بل الاندماج فيها ، ثم يتهيأ بعدها للإعراب عن مشاهدته أو رؤيته ، وهنا يأتي دور الصّياغة ، فإذا كانت الصّياغةُ صادقةً موفقةً ، مؤتلفةً مع التجربة فقد بلغ الشّاعر غايته ، وأبدع القصيد الفنّي ، وهذا القصيد يتفاوت في منزلته بتفاوتِ طاقة الشّاعر ، وأصالته موضوعية كانت أو أسلوبية». (الشّعرُ المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٣) لمصطفى لسحرتي. تهامة ـ جدة ـ ط٢ ـ ١٩٨٤ م.

مع الأنماطِ الأدبيةِ والنُّصوصِ المتنوّعةِ التي اخترتُ معظمَها ، وشاركتُ في رسْمِ بَعضِهَا. وسيلاحظُ أحبابي القُراءُ أنّي تجشمْتُ كثيراً منَ المصاعبِ في اختيارِ المادّةِ الأدبيةِ الشّعريّةِ للأطفالِ ، وذلكَ وفْقَ ما يحقّقُ لهمْ الفائدةَ المرجوّةَ ، والقيمةَ النّافعةَ في القولِ والسُّلوكِ وتوسيع الأفق (The horizon) .

* وإنّني أرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ أكونَ قد وفّقتُ في وضْعِ هذا البابِ المفيدِ ، الذي حرصتُ من خلالهِ أنْ أقدّمَ للأطفالِ طاقَاتٍ من زَهْرِ الكلمات المندّاةِ برحيقِ الأدبِ ، كي ترتويَ أنفسُهم من نَميرِهِ العَذب ، وتلذَّ أعينُهم بما يطّلعون عليه ، وتتغذى عقولُهم بما فيهِ من معلوماتٍ قيّمةٍ معطّرةٍ بالقرآنِ الكريمِ وعلومهِ ، والسُّنّةِ المطهرةِ ، والتّاريخِ وغيرِ ذلكَ منْ معارفَ أخرى .

* * *

الفصلُ الخامسُ

حروفُ اللغةِ العربيّةِ ثراءٌ أدبيّ

* لا شكَّ في أنَّ الحرفَ العربيَّ (The Arabic letter) يتّسعُ في دلالتِهِ حتّى يشملَ معانٍ متعدّدةٍ في آنٍ واحدٍ ، والحرفُ في الجملةِ يؤدي دوراً لا يقدرُ على أدائهِ حرفٌ آخر.

* واللّغةُ العربيةُ لغةٌ غنيةٌ ، قدّمتْ للبشريّةِ تُراثاً عظيماً من العِلْمِ والفكْرِ والمعرفةِ ، ويرجعُ الفَضْلُ بذلكَ إلىٰ القُرآنِ الكريمِ الذي هذّبَها ، وأسْلَسَ قيادَها ، وجعَلَها لغةً فاتحةً ولغةً سيّدةً سائدةً ، لها وقْعُها وجمالُها في النُّفوسِ والأسماعِ.

* وللحرفِ العربيّ جماليةٌ في الشَّكْلِ ، بل إنَّ الحرفَ العربيَّ بأنواعِهِ جَميْعِها هو أجملُ خطوطِ العَالَمِ على وجْهِ الأرضِ ، إذ إنَّ له منْ حُسْنِ شكْلِهِ ، وجمالِ هندستهِ ، وبديعِ نسقِهِ ، وجاذبيّةِ صورتِهِ ما جعلَهُ محبوباً ومُحترماً في مشَارقِ الأرضِ ومغاربها حتّى عند الغَربيين.

* كما أنَّ للحرفِ العربيّ ميْزَاتٌ جمَاليّةٌ بديعةٌ أخرىٰ منها: أنَّه يقْبَلُ أنْ يتشكَّلَ بأيّ شَكْلٍ هندسيّ أو فنّي ، ويتمشّىٰ على أيّ صورة ، بحيثُ لا تختلفُ ماهيّتُه ، ولا يطرأُ على جوهرِهِ تغييرٌ أو تبديلٌ ، ولذا فإنّنا نلحظُ أنَّه قد مرَّ عليه منذ صدرِ الإسلامِ إلى الآن أكثرُ من خمسينَ شَكْلاً في الفرقِ بين صُورتهِ الأصليّةِ الأولىٰ ، وبين ما هو عليهِ الآن ، ولا يزالُ إلىٰ الآن يقبلُ ما يُدْخلُهُ عليه أربابُ الفَنِّ من أهلِ الذَّوقِ والتّذوُّقِ السَّليمِ من التّحسيناتِ والزّخارفِ والتّفنُّنِ بِشَكْلهِ ، فهو في حقيقةِ الأمْرِ عبارةٌ عن نقوشٍ منظّمةٍ وأشكالٍ هندسيّةٍ ، ورسومٍ

فنّيةٍ . ودوائر هذه الأشياء واسعة لا حدَّ لها ولا حَصْر . ولا مجالَ لذكْرِها في هذا المجال.

* إنَّ مَنْ يمعنُ النَّظَرَ في الحرفِ العربيِّ الذي هو مادّةُ الكلامِ يجدُ بينَهُ وبينَ سائرِ الأشياءِ تشابُهاً وتقارُباً نسبيّاً يميّزُ ذلكَ مَنْ نبغَ ومَهرَ في فنِّ الخَطّ ، وصار عالماً خبيراً في خفاياهُ وأسرارِهِ[1].

* ومن ألطفِ الأدلّةِ ، وأجملِ البراهين على ما للحرفِ العربيِّ من الجماليّةِ والمنزلةِ الرّفيعةِ أنَّ الأدباءَ والشُّعراءَ ـ قديماً وحديثاً ـ قد شُغِفُوا بمحاسنِهِ وكانوا كثيراً ما يشبّهون مَنْ يحبّونَ بأنواعِ الحروفِ ، فشبّهوا الحاجِبَ بالنّونِ؛ والعينَ بالعَيْنِ؛ والصُّدْغَ بالواوِ؛ والفمَ بالميم والصّادِ ، والثّنايا بالسّين؛ فشبَّه بعضُ الأدباء والشّعراء الحرفَ العربيَ ببعضِ أعضاءِ مَنْ يحبّون؛ قال أحدُ شُعراءِ القرنِ الخامسِ الهجريّ في حرفَيْ اللامِ والألفِ:

إنّي لأَحْسُدُ لا في أسْطُرِ الصُّحُفِ ... إذا رَأَيتُ اعتِنَاقَ اللامِ للأَلفِ
ومَا أَظُنُّهما طَالَ اعتناقُهما ... إلاّ بِمَا لَقِيا مِنْ شدَّةِ الشَّغَفِ

* وقد امتدحَ الشّعراءُ مَنْ أجادُوا كتابةَ الحرفِ العربيّ ، وتباروا في تجويدِ

---

(١) فنُّ الخط أو علْمُ الخطوطِ (Graphology) علمٌ جميلٌ جمالي يمكنُ أنْ نصفَ شخصيّةَ الأفراد من خلاله.
وقد لاحظَ عددٌ من الخبراء وعلماء النَّفس قديماً وحديثاً علاقة الخط والكتابة بالطَّبع. وينطلقُ علم الخطوط من المبدأ الذي مفادهُ أنَّ حركة الكتابةِ وشكلَها يعكسان الحالةَ الذّهنيةَ لمن يكتُبُ واستعداده الداخلي. وفِعْلُ الكتابةِ هو في الواقع تصرّفٌ تعبيري ليس تابعاً للعوامل الاجتماعية الثّقافية (تعلّم) فحسب . ولكنه تابعٌ لمكوّنات وجدانية. وإذا كان يتعذّرُ من النّاحيةِ العَمَليّة أنْ نجدَ كتابتَين متطابقتين.
ويبدو علمُ الخطوطِ موضعَ ثقةٍ لدى كثيرٍ من الجهاتِ الرّسميّة في كثيرٍ من دولِ العالَم ، وبوسْعِ عالِمِ الخطوطِ أنْ يحدِّدَ سماتٍ من الشَّخصيّةِ انطلاقاً من الكتابةِ. وعلْمُ الخطوطِ مستَخْدَمٌ على وجْهِ الخُصوص استخداماً شائعاً في علْمِ الجريمةِ. بل إنَّ كثيراً من الخطوطِ دلّتْ على أصحابها.
وقد اتّصفَ عددٌ من خبراءِ الخطّ بجودةِ حصافتِهم في هذا المجال . وكشَفُوا عن مبهماتٍ صَعُبَتْ على رجالِ الأمنِ ، ولكنّهم عرفوها من خلالِ الآثارِ والبصَمات والخُطوط.

وتحسينِ كتابةِ القرآنِ الكريمِ ، فقالَ أحدهُم يمدحُ خطَّاطاً أجادَ كتابةَ الحرفِ العَربيّ إجادةً عاليةً :

بـرْسـمِ الحـرفِ مثلُـكَ لا يُبَـارىٰ — فيفصـحُ عـن هـويتـهِ جهَـارا
تُـوشِّي الحـرفَ تـرسُمُـه عَـروسـاً — وتكسبُهـا القَـلائِـدَ والسِّـوارا
وذَا القـرآنُ يـرفـعُ مَـنْ تَـلاه — بمـا يُـولـي المَهـابـةَ والـوقَـارا
فَـواعَجبـاً تُـرَتِّلُـهُ بِصَمـتٍ — ويعلـنُ أنْ أجَـدْتَ فـلا تُجـارىٰ
فَـذَا الحـرفُ الجَميـلُ لَـهُ امتيـازٌ — كَـذَاكَ البـدرُ إنْ طَلَـعَ ابتِـدارا

* وهذا أحدهُم يمتدحُ خطَّاطاً أجادَ رسْم الحروفِ رسماً مُلفتاً للأنظار ، وجوَّدَ فيها أيّما تجويد؛ ونمّقَها بشكلٍ يجعلُها تنطقُ عن نفسِها ، فقالَ :

فكـلُّ حـروفـهِ فَـنٌّ رفيـعٌ — وإتْقَـانٌ وذَوقٌ فـي العِبـاره
يكَـادُ الحـرفُ ينطـقُ فـي شمـوخٍ — وقَـدْ ضَـمَّ التّـألُّـقَ والنَّضَـاره
وقـد ملَـكَ الـزِّمـامَ لِكُـلِّ خـطٍّ — فَصَـارتْ فـي الخُطُـوطِ لـه المَهـاره
فَفِـي كُـلِّ الخُطـوطِ هـو المُجلّـي — وفـي كُـلِّ الحُـروفِ لـه الجَـداره
لِفَـنِّ الخَـطِّ قـد أسـدىٰ جميـلاً — أعـادَ شَبَـابَـه وحمَـى ازْدهَـاره

* منْ هذا المنطلقِ اهتمَّ أسلافُنا ـ رحمهم اللهُ ـ بأهميّةِ الحرفِ العربيِّ والخطّ ، وراحُوا يحثُّونَ المتعلّمينَ وخصوصاً الأطفال على المُبالغةِ في تحسينِ كتابةِ الحروفِ وتجويد الخطّ ، لأنَّ الخطَّ الحسَنَ يزيدُ الحقّ وضوحاً ، وكانوا يرونَ أنَّ جَوْدَةَ الخطِّ إحدىٰ الحُسنَيَيْن[1] ، ولا يرضون برداءةِ الخطّ مهما كان السَّببُ ، وقد وصَفَ أحدهُم جمَالَ الحروفِ في خطٍّ رآهُ فقال :

خــطٌّ مليــحٌ كــأَنَّ اللهَ أنْشَــأهُ — لـم يَحْكِـهِ كـاتـبٌ يـومـاً ولا قَلَـمُ
سُطُـورُهُ زُهـر طُـلاَّبٍ علـى شَجَـرٍ — حُـروفُـهُ دُررٌ فـي السِّمْـطِ تَنْتظِـمُ[1]

* وقد أحبَّ كثير من العُلَماء أنْ يكتُبَ الأطفالُ الحرفَ كبيراً واضحاً ، وأنْ

---

(١) انظر كتاب : أدب الإملاء والاستملاء للسّمعاني (ص ١٦٦) ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨١ م . وقلتُ مرّةً في وصف خط أحدَ أصدقائي «محمد رُطيل» من مدينة الإسكندرية :

خَـطَّـتْ أنـاملُـهُ بدائـعَ لفظنـا — فكأنَّمـا مِـنْ حسنِهـا تتكلَّـمُ
وأجادَ في مَشْقِ الخطوطِ جميعها — فَقُـدودُهـا ميّـاسَـةٌ تتـرنَّـمُ

يجتنبَ الدَّقيقَ والصَّغيرَ منه؛ ذكرَ عبدُ الكريم السَّمعَاني في كتابهِ «أدب الإملاء والاستملاء» أنَّ بعضَ الكُتَّابِ قد كَتَبَ إلى صديقٍ له كتاباً بقَلَمٍ دقيقٍ، فكتبَ إليهِ صديقُه: «ما كَاتبتَنِي؛ ولكنْ عَوَّذْتَنِي»، يريدُ كتَبْتَ إليَّ بتعويذٍ لأنَّه خطٌّ صغيرٌ دقيقٌ يشبهُ التَّميمة والتَّعويذة[1].

* ومن لطَائفِ ما أنشُدوا في هذا قولُ بعضِهم:

بيِّـنْ وغلِّـظْ فـي الكتـابـةِ خطَّهَـا ... فـالخـطُّ أجـودُهُ الجليـلُ الموضَـحُ
واتْـرُكْ دقيـقَ الخَـطِّ في تَشْـويشِـهِ ... فَـدقيقُـهُ فـي حَـاجَـةٍ لا ينْجَـحُ

* وقالَ غيرهُ ناصحاً لمن يَودُّ الكتابةَ:

إذا كَتَبْـتَ كِتَـابـاً غَلِّـظِ القَلَمَـا ... مُحبِّـراً فـي ذُرَاهُ الخَـطَّ والكَلِمَـا
حتّـى يَهُـونَ علـىٰ الـرَّائـي تـأمُّلُـهُ ... فَلا يُقَـاسـي لَـهُ التَّحـديـقَ والأَلَمـا

* كان كبارُ السَّلَفِ الصَّالحِ يهتمُّون بأمْرِ الكتابةِ وأمرِ الحروفِ وطريقةِ تعليمها للأطفالِ، وكانوا يحرصون على الأدبِ في ذلكَ، وخصوصاً فيما يتعلَّقُ بكتابةِ شيءٍ منَ القُرآن الكريم، فكانوا يعلِّمونَ الأطفالَ ألاّ يكتبوا في السَّطرِ الذي كُتِبَ فيه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ سوى ذلك، ورفعُوا ذلكَ إلى ابنِ عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لا تكتبُوا في سَطْرِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ شيئاً غيرَهُ»[2].

* وممّا يدخل السُّرور إلى النَّفس أنَّ علماءَ اللغةِ وعلماءَ الخطِّ العربيِّ، والمصنِّفون قد أدركُوا أهميّةَ تعليمِ الحرفِ العربيِّ للأطفالِ وللمتعلّمين بعامّة، فراحُوا يذلّلونَ قطوفَ هذا العِلْمِ وهذا الفنِّ ليكونَ دانياً من عقولِ النَّاشئةِ، محبّباً إلى نفوسِهم، سَهْلاً في التَّعليمِ، فمثَلاً قالوا عن حرفِ الرّاء: أنْ تَصِلَ بها إلى مثلِها فتصيرَ نصفَ دائرةٍ؛ والنّون: أنْ تَصِلَ بها مثلها فتصيرَ دائرةً؛ والباء: أنْ تزيدَ ألفاً على سِنّها فتصيرَ لاماً؛ اللام: أنْ يخرجَ منْ أوّلها إلىٰ آخرِها خطٌّ يماسُّ الطَّرفين فتصيرُ مُثلّثاً قائم الزّاويةِ؛ والدّال: أنْ تصلَ بين طرفيها بخطّ

(١) المصدر السابق (ص ١٦٧) بتصرف يسير.
(٢) المصدر السابق نفسه.

فتجده مُثَلّثاً متساوي الأضلاع[1] . . وهكذا قرّبوا الحروفَ وشبّهوها بالدّائرةِ والمُثَلّثِ وما شابه ذلك ليسهُلَ تعلّمها ، وتُتْقَنَ كتابتُها ورسْمُها بشكلٍ صحيحٍ.

* ولم يتوقفِ العُلماءُ واللغويّون والأدباءُ عند هذا ، بل أسهبُوا في ذكْرِ معاني الحروفِ ، فقالوا عن الألفِ: هو الرّجُلُ الفردُ في الفضائلِ. والتّاء: البقرةُ التي تحلبُ دائماً ، قال المهلهل:

وإنّـي لَفِـي الهِيْجَـاءِ فـارسُ حَـومةٍ　　　وجَـدُّكَ عَبْـدٌ يحلـبُ التّـاء دائمـا

* والثّاء: العينُ منْ كُلّ شيءٍ ، أو اللين منْ كلّ شيءٍ ، والجيم: الجملُ القويُّ. والدّالُ: المرأةُ السّمينةُ. والسّينُ: الرّجلُ الكثيرُ اللحمِ والشّحمِ. والكاف: الرّجلُ المُصلحُ والعفيفُ. واللام: الشَّجرُ المثمرُ. . . وهكذا جاؤوا لكلِّ معنىً حرفٍ شاهداً ودليلاً من أشعارِ العرب ، وكلُّ هذا فعلوهُ من أجلِ تقريب ماهيّةِ الحرفِ العربيّ وجماليّتِهِ إلى أذهانِ الأطفالِ والمتعلّمين.

* ونتساءَلُ الآن: «هل نستطيعُ أنْ نثريَ أدبَ الأطفالِ والطّفولةِ من خلالِ حروفِ اللغةِ العربيّةِ في رسمها ومضمونها؟!».

* لا ريبَ في أنَّ لغتَنا العربيةَ هي لغةُ العِلْمِ والتّعليمِ والعبادةِ ، ولهذهِ اللغة العظيمة خصائصُ قد تفرَّدتْ بها عَنْ سائرِ اللغاتِ في الدُّنيا. فالحروفُ التي تحتويها اللغةُ العربيةُ لها معانٍ كبيرةٌ كما أسلَفْنا ، كما أنَّ لها خصائصَ مهمّة في اللفظِ والمعنىٰ ، فقد يؤدّي الحرفُ أحياناً معنى جملةٍ كاملةٍ ، وقد يؤدّي لفظةً إلى عملٍ فِعْلٍ ما.

* من الواضحِ أنَّ الكلامَ الذي نتحدّثُ به عبارةٌ عن حروفٍ ، والحروفُ مع بعضِها تتكوّنُ منها الكَلِماتُ؛ فالحرفُ العربيُّ ذو أهميةٍ كبيرةٍ ومكانةٍ عظيمةٍ ، وقد سمّىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ بعضَ السُّور باسمِ بعضِ الحروف وهي: «سورة ﴿صٓ﴾ ، و﴿قٓ﴾»؛ وبعض السّور بدأت بحرفٍ مثل سورة القَلَم إذ بُدِئَتْ بقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

* تسابقَ العلماءُ والمفسِّرون قديماً لإحصاءِ عددِ حروفِ القُرآنِ ، فقد ذَكَرَ

---

(١) انظر كتاب: صبح الأعشى للقلقشندي (٣/ ٢٨ ـ ٣٦) بتصرف وانتقاء واختصار.

الفيروز أبادي أنَّ عددَ حروفِ القُرآنِ الكريمِ حَسَب كتابتها تبلغُ (٣٢٣٠٧١ حرفاً)[1] ، وعددَ حروفهِ حسب لفظِها تبلغُ (٣٣٢٥٨٨ حرفاً) ، ومن الواضح أنَّ الفرقَ بين عدد حروفِ القرآنِ المكتوبةِ والملفوظةِ هو (٩٥١٧ حرفاً) وهذا الفرقُ ناتج بلا شكّ عن الحروفِ المشدّدةِ التي تحسبُ حرفَيْن. أمّا عددُ كلماتِ القرآنِ الكريمِ فقد بلغَ (٧٧٤٧٣ كلمة). وبلغ عددُ النُّقطِ في القرآنِ الكريمِ أيضاً (١٥٦٠٨١ نقطة)[1].

* ومن المفيدِ والممتعِ ها هنا أنْ نكملَ هذه الفقرة ببعضِ الفوائدِ القرآنيةِ عن الحروفِ العربيّةِ؛ فمن المُتَعالَمِ والمتعارَفِ عليهِ أنَّ عددَ سُوَرِ القرآنِ العظيمِ يبلغُ (١١٤ سورة) ما بينِ مكّيّ ومدنيّ؛ وهناك أكثرُ من ثُلُثَيْها تبدأُ بالحروفِ حيث إنّ (٤٤ سورة) تبدأُ بالحروفِ.

* من اللطيفِ أنَّ بعضَها يبدأُ بحرفٍ واحدٍ ، ومنها ما يبدأُ بحرفَيْن اثنَيْن ، ومنها ما يبدأ بثلاثةٍ أو أربعةٍ أو خمسةٍ حروف. وهذه السُّور هي: «سورةُ البقرة ، آل عمران ، يونُس ، هود ، يُوسُف ، الرّعد ، إبراهيم ، الحِجْر ، الأعراف ، مريم ، طه ، الشُّعراء ، القَصَص ، العنكبوت ، الرّوم ، لقمان ، السَّجدة ، يس ، النّمل ، الصّافّات ، ص ، غافر ، فُصّلَت ، الشُّورى ، الزّخرف ، الدّخان ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، الذّاريات ، الطّور ، النّجم ، القلم ، المرسلات ، النّازعات ، البروج ، الطّارق ، الفجر ، الشّمس ، الليل ، الضّحى ، التّين ، العاديات ، العَصْر».

* وهذه السُّورُ الآنفةُ الذِّكْرِ ، يوجدُ منها (١٥ سورة) تبدأُ بواو القسم وهي: «سورةُ الصّافات ، الذّاريات ، الطّور ، النّجم ، المرسلات ، النّازعات ، البروج ، الطّارق ، الفجر ، الشّمس ، الليل ، الضّحى ، التّين ، العاديات ، العصر».

* وهناك (٢٩ سورة) تبدأُ بحروفٍ مقطّعة وهي: «سورةُ البقرة ، آل عمران ، الأعراف ، يونُس ، هود ، يوسُف ، الرّعد ، إبراهيم ، الحجر ، مريم ، طه ، الشّعراء ، القَصَص ، العنكبوت ، الرّوم ، لقمان ، السّجدة ،

---

(١) بصائر ذوي التمييز (١/ ٥٦١ و٥٦٢) بتصرف يسير.

يس ، ص ، غافر ، فصّلت ، الشّورى ، الزّخرف ، الدّخان ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، النّمل ، القلم».

* فالسّورُ التي تبدأُ بالحروفِ ﴿الٓمٓ﴾ هي: «سورة البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الرّوم ، لقمان ، السّجدة». وهناك سورةٌ واحدةٌ تبدأَ بـ ﴿الٓمٓرۚ﴾ هي «سورة الرَّعْد». وهناك خمسُ سُوَرٍ تبدأُ بـ ﴿الٓرۚ﴾ وهي: «سورةُ يونُس ، هود ، يوسُف ، إبراهيم ، الحجر» ، وتوجدُ سبع سورٍ تبدأُ بـ ﴿حمٓ﴾ وهي: «سورة غافر ، فُصّلت ، الشُّورى ، الزُّخرف ، الدُّخان ، الجاثية ، الأحقاف». وسورتان تبدأُ كلّ واحدةٍ منهما بـ ﴿طسٓمٓ﴾ وهما: «سورة الشُّعراء والقصص».

* وهناك سورٌ تبدأ بأحرفٍ لم تتكرَّرْ في غيرِها من السّور وهي: «سورةُ الأعراف تبدأ بـ ﴿الٓمٓصٓ﴾؛ وسورةُ مريم تبدأ بـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وسورةُ طه تبدأُ بـ ﴿طه﴾ ، وسورةُ النّمل تبدأ بـ ﴿طسٓۚ﴾ ، وسورةُ يس تبدأُ بـ ﴿يسٓ﴾ ، وسورةُ ص تبدأ بـ ﴿صٓۚ﴾ ، وسورةُ ق تبدأ بـ ﴿قٓۚ﴾ ، وسورةُ القلم تبدأ بـ ﴿نٓۚ﴾»[1].

* وقد تبارىٰ شعراءُ الأطفالِ في نَسْجِ قصائدَ وأهازيجَ تحبّبُ الأطفالَ والنَّاشئةَ بالقُرآنِ الكريمِ واللغةِ العربيّةِ ، وقد نظمُوا بعضَ الحروفِ بشكلٍ مُحبّبٍ إلى نفوسِ الأطفالِ ، من مثلِ ما وردَ في سلْسلَةِ «دوحة النَّشيدِ» بعنوان: القرآن ، حيث قالَ النّاظم:

ألــــفٌ لَامٌ مِيْـــــم	القُـــرآنُ كَـــريـــم
يتْلـــوهُ الأطْفَـــال	فــي حــبٍّ وجَمــال
مـــا أحلــىٰ الكَلِمــات	فــي تلــكَ الآيــات
تَشْهـــدُ أنَّ الله	أنـــزلَـــهُ وحمَـــاه

* وبعنوانِ «صديقان» حفلتْ سلسلةُ «دوحة النّشيدِ» بمنظومةٍ لطيفةٍ تحبّبُ أطفالَنا وأحبابَنا الصّغارَ بالقرآنِ الكريمِ ، وتجعلُهم يكثرونَ من تلاوتهِ

---

(١) انظر: موسوعة الأعداد في القرآن الكريم (ص ٥٦ ـ ٥٩) بتصرف.

وحفظهِ ، فَلْنَقْرأ هذه الأهزوجة لأكبادنا التي تمشي على الأرض :

القُــرآنُ صَـــديقـــي الأوّل والأغْلَــى عنــدي والأجْمَــل
أحْيَـــا معَـــهُ لا أنْسَـــاه مَـنْ يَنْسَـى صاحِبَـه الأفضـل؟!
يــأخــذُنــي فــي أجمـلِ رحْلـة ويضــيءُ لــي العــالَـم كُلّــه
بـــاللهِ عليكــمْ أعــرفْتُــم لـــلإنســانِ صــديقــاً مثْلَــه
لَـــولاهُ لـــم أعـــرفْ ربّـــي لـــولاهُ لـــم يـــزهـــرْ دربـــي
لـــولاهُ لـــم ينبــضْ قَلْبــي للعَــالَـم يــومــاً بـــالحـــبِّ

■ ولهمسِ الحروفِ العربيةِ صدىً عند أحدِ مُحبّيها ، فإذا به يقرّبُها للأطْفَالِ بطريقةٍ جميلةٍ خلاّبةٍ ، فلنستمعْ إلى «بديع عمر الخطيب» يرسمُ حروفَنا العربيّة بهذهِ الصُّورةِ الجميلةِ المرتبةِ التي تسهِّل فَهْمَ الحروفِ وحفظَها لأبنائِنا في كلّ أرجاءِ بلادِ الإسلامِ من محبّي العربيّة لغةِ القُرآن وأهلِ القُرآن :

أَلِـــفٌ بـــاءٌ تَـــاءٌ ثَـــاءْ ربّـــي خـــالِقُنَـــا مِـــنْ مَـــاء
جيـــمٌ حـــاءٌ خَـــاءٌ دَالْ هيّـــا نحفَـــظ يـــا أطْفـــال
ذَالٌ راءٌ زايٌ سيـــــــن إنّـــا نحـــنُ المُجتَهـــديْـــن
شِيـــنٌ صَـــادٌ ضَـــادٌ طَــاء أَوصَـــانـــا وحـــيُ السَّمَـــاء
ظَــاءٌ عَيــنٌ غَيــنٌ فَــاء بِـــالقَـــراءَةِ والـــدُّعَـــاء
قـــافٌ كَـــافٌ لامٌ مِيـــم ربُّنَـــا ربٌّ كَـــريـــم
نـــونٌ هَـــاءٌ وَاوٌ يَـــاء إخـــوانٌ وأصْـــدِقَـــاء
أوصَـــانـــا وحـــيُ السَّمـــاء بَـــدْءاً مـــنْ غـــارِ حِـــراء
بـــالقـــراءَةِ والـــدُّعـــاء بـــالقـــراءَةِ والـــدّعـــاء

* ومنَ الشُّعراءِ المُعَاصرين الذينَ سَعِدَ الأطفالُ بأهازيجهم ، وهمساتِهم للحرفِ العربيّ الشّاعر «محمّد الهَرّاوي» المولود عام (١٨٨٦) والمتوفىٰ عام (١٩٣٩ م)؛ فقد تحدَّثَ الهَرّاويُ بلسانِ الطُّفولةِ ونظمَ حروفَ الهجاءِ للأطفالِ بطريقةٍ لطيفةٍ تناسبُ سِنَّ الطُّفولةِ الصَّغيرةِ ، فقد نظمَ على عددِ حروفِ الهجاءِ ما يجعلُ الأطفالَ منسجمين معه ، إذ حرصَ أنْ يكونَ أوّلُ الحرفِ لاسْمِ شيء ، فمثلاً حرف «أ» ذكرَ «أرنب» و«ب» ذكرَ «بقرة» وهكذا ، وقد نوّهَ لذلكَ

في ديوانهِ «ألفٌ ياء ، شعر سَهْل في حروف الهجاء» فقال:

وَأَحْـــــرفُ الهِجَـــــاءِ ... مــــنْ ألـــفٍ لِيَـــاءِ
عِنْـــدي لَهـــا أمثـــالُ ... يفْهمُهـــا الأطفـــالُ
وكُـــلُّ حـــرفٍ آتِ ... فـــي أوّلِ الكَلمـــاتِ

* والآن سنبدأُ مع حروفهِ الجميلةِ حيث قال:

ألـف ـ فـألـفٌ فـي «أرنَـبِ» ... قـد اشتَـراهـا لـي أبـي
بـاء ـ والبـاءُ مثـلُ «بَقَـرة» ... تـأكـلُ تحـتَ الشَّجـرة
تـاء ـ والتَّـاءُ مثـلُ «تَـاجِ» ... مـنْ ذَهَـبٍ وهَّـاجِ
ثـاء ـ والثَّـاءُ مثـل «ثَعْلَـبِ» ... فـي المكْـر والتّقلُّـب
جيـم ـ والجيـمُ مثـلُ «جَمَـلْ» ... أركبُـهُ فـي الـرَّحَـلْ
حـاء ـ والحـاءُ فـي «حِصَـانِ» ... لِفَـارسِ المَيْـدَانِ
خـاء ـ والخـاءُ فـي «خـزَّانِ» ... للنّيـل فـي أَسْـوَانِ
دال ـ والّـدالُ مثْـلُ «دَلْـوِ» ... تـأْتـي بمـاءٍ حُلْـوِ
ذال ـ والـذّالُ مثـلُ «ذئْـبِ» ... يخْشَـى هجـومَ الكَلْـبِ
راء ـ والـرّاءُ مثـلُ «رفّ» ... علَيْـه كـلُّ صَنْـفِ
زاي ـ والـزَّاي فـي «زرْزُور» ... نَـوْعٌ مـنَ العُصْفُـور
سيـن ـ والسِّيـنُ مثْـلُ «سـاقيَـه» ... ذاتِ ميـاهٍ جَـاريَـهْ
شيـن ـ والشِّيـن مثـلُ «شَجَـرهْ» ... غُصُـونُهـا منْتَشِـرهْ
صـاد ـ والصَّـادُ مثـلُ «صُـوف» ... مـنْ فَـروةِ الخَـرُوف
ضـاد ـ والضَّـادُ مثـلُ «ضِفْـدعِ» ... يقفـزُ فَـوقَ أَرْبَـعِ
طـاء ـ والطَّـاءُ فـي «طَـاووس» ... يختـالُ كـالعَـروس
ظـاء ـ والظَّـاء مثـلُ «ظَبْـي» ... يسـرعُ عنْـدَ الجَـرْي
عيـن ـ والعيـنُ مثـلُ «عَلَـمِ» ... شعَـارنـا فـي الأُمَـمِ
غيـن ـ والغيـنُ مثْـلُ «غُـرابِ» ... يحجـلُ فـي التُّـرابِ
فـاء ـ والفـاءُ مثـلُ «فَـأْرَهْ» ... تخـافُ بطْـشَ الهِـرَّهْ
قـاف ـ والقـافُ مثـلُ «قطّـه» ... جَـرَتْ وَرَاءَ بَطَّـهْ

كـــاف ـ والكـــافُ مثـــلُ «كَلْـــب» | للصَّيـــــــــدِ أوْ للْحَـــــــربِ
لام ـ والّـــــلامُ مثـــــلُ «لُعَـــبِ» | مـــرصُـــوصَـــةٍ فـــي عُلَـــبِ
ميـم ـ والميـــمُ مثـلُ «مكْتَـب» | منَظَّـــــم مـــــرتَّـــــبِ
نـــون ـ والنّـــون فـــي «نَـــاقُـــوس» | يـــــــدقُّ لِلْـــــــدُّروسِ
هـــاء ـ والهـــاءُ مثـــلُ «هَـــرَم» | فـــي مصـــرَ منـــذُ القِـــدَم
واو ـ والـــــوَاوُ مثـــــلُ «وَزّ» | يلقـــــطُ حَـــــبَّ الـــــرُّزِّ
يـــاء ـ واليـــاءُ فـــي «يَمَـــامـــهْ» | ولكُـــــم السَّـــــلامـــــهْ

* وللهرَّاوي أشياءُ جميلةٌ في هذا المضمارِ ، تخدمُ الأطفالَ والطُّفولةَ ، وتعينُ الآباءَ والأمّهاتِ والمربّينَ على المُضيِ قُدماً في هذا المَجالِ؛ ومنْ قصائدِهِ التّعليميةِ الجميلةِ قصيدة عن الكتابِ إذْ يحبّبهُ إلى نفوسِ الأطفالِ بهذه الأغرودةِ العذْبةِ :

أَنَـــــا فَتـــــىً ذو أَدَبِ | أقـــرأُ خَيْـــرَ الكُتُـــبِ
إنْ غـــابـــتِ الأصْحَـــابُ | فَصَـــاحِبـــي الكتـــابُ
فيـــهِ حـــديـــثُ السَّمَـــر | مُـــزيّنـــاً بـــالصُّـــوَرِ
كـــمْ قَـــصَّ لـــي حكـــايَـــةً | لطيفـــةً للْغـــايـــة
يَـــروي لـــيَ الأشْعـــارا | والأدبَ المُخْتَـــــارا
فـــالعِلْـــمُ فـــي السُّطُـــور | يَسْـــري إلـــى الصُّـــدور

* ويستمرُّ حُبُّ الحرفِ العربيّ ، وحُبُّ اللغةِ العربيّةِ إلىٰ ما يشَاءُ اللهُ ، فالقرآنُ الكريمُ عربيٌّ مبين ، بهِ حُفِظَتِ العربيةُ ، إذْ نزلَ بها ، وخاطبَ العربَ بها ، فارتقُوا سدّةَ الفَضْلِ من خلالهِ ، وهذه البائية تجمعُ حُبَّ الفصحىٰ وهي بعنوان «لُغتي الفُصحى» لمحمد عبد السَّلام الباشا :

لُغتـــي الفُصحـــى لغـــةُ الأدبِ | صنَعَـــتْ أمجـــاداً لِلْعـــربِ
عِلْـــمٌ فـــي الأصـــلِ بـــدأنـــاهُ | أمســـى فـــي طيّـــاتِ الكتـــبِ
ورســـولُ اللهِ بنـــا عـــربـــي | أرســـى هَـــدْيـــاً رغـــمَ النُّـــوبِ
وكتـــابُ اللهِ بنـــا عـــربـــي | كشَـــفَ المستـــورَ مـــن الحُجُـــبِ
فـــأضـــاءَ الـــدّنيـــا عطّـــرهَـــا | ونهـــانَـــا عـــن طبـــعِ الغضـــبِ

وسقـــانَـــا عـــدلاً فـــي صـــدقٍ   يبقـــى ذُخـــراً عبـــرَ الحقـــبِ[1]

* أمَّا د. محمد مُنير فقد نظَمَ للأطفَالِ حُروفَ اللُّغةِ العربيّةِ الثّمانية والعشرين بطريقةٍ لطيفةٍ محبّبةٍ إلى النُّفوسِ، وقريبةٍ من قلوبِ الأطفالِ وعقولهم، وقد قمت بتهذيبها وتشذيبها حتى تتوافق مع فكرة هذا البحث. ويستطيعُ المربّون والآباءُ أنْ يكتبُوا هذه الأهازيجَ الخفيفةَ للأطفالِ، ويلوّنُوا الحرفَ الذي تدورُ حولَه القصيدةُ، حيثُ استعملَه الشَّاعرُ في جميعِ أحوالِهِ، في أوّل الكلمةِ، وفي وسْطِها، وفي آخرها.

* ومن الجديرِ بالذّكرِ أنّني سأوردُ في هذا الفَصْلِ الجميلِ عددَ كلّ حرفٍ من الحروفِ وردَ في القرآنِ الكريمِ، وفي أوّلها حرف الألفِ إذْ وردَ (٢٨٧١٨ مرَّة).

* وهناك بعضُ السُّور التي بدأتْ بحرفِ الألفِ ومنها: «الأنْعَامُ، الأعْرافُ، الأنْفالُ، الأنْبياءُ، الانشِقاقُ، الأعْلىٰ، الإخلاصُ»؛ كما أنَّ حرفَ الألفِ الجميلِ قد بدأَ بأسماءِ بعضِ الأنبياءِ والرُّسلِ المذكورين في القرآنِ الكريمِ وهم: «إدريسُ، إلياسُ، إبراهيمُ، إسماعيلُ، إسحاقُ، أيّوبُ».

* وقد وفِّقَ د. محمد مُنير إلى طريقةٍ جميلةٍ في رسمِ الحروفِ شِعْراً، واستطاعَ أنْ يدخلَ بِهِ إلى قلوبِ الأطفالِ دون استئذان، فمع «حرفِ الألف» وهمَسَات بريئة:

رُمْحـــيْ هَـــذا مِثْـــلُ الأَلِـــفِ   أَرْمـــي رُمْحـــي نَحـــو الهَـــدَفِ
حَـــرفٌ هَـــذا مـــا أَجْملَـــه   فـــأنـــا أكتبُـــهُ فـــي شَغَـــفِ
وَأخـــي أحمـــدُ لا يتْقِنُـــهُ   يـــرســـمُ أشجـــاراً بـــالخَـــزفِ
فَـــاذكُـــرْ أَسْمـــاء تكتُبهـــا   بـــدأَتْ شـــامخـــةً بـــالألـــفِ
إحْسَـــانٌ يملـــكُ ألعـــابـــاً   رائعـــةً تبـــدو فـــي الصُّحـــفِ
أَرْوىٰ أَحـــلامٌ أَزهَـــارٌ   يَسْعـــدْن كَثيـــراً بـــالأَلِـــفِ

---

(١) انظر: مجلة رسالة المعارف (ص ٣٢) بتصرّف العدد (٣٣) ذو الحجة (١٤٢١ هـ) ـ آذار (٢٠٠١ م).

* أمّا حرفُ الباءِ فقدْ وردَ في القُرآنِ الكريمِ (١١٤٩٠ مرة) ووردتْ أكبرُ سورةٍ في القُرآنِ باسمهِ ، وهي سورةُ «البَقرة»؛ ومن السُّورِ التي بدأتْ بحرفِ الباءِ سورة «البُروج والبَلد».

* ومن مشاهير الصَّحابةِ الذين بُدِئَ اسمُهم بحرفِ الباءِ: سيّدنا بلالُ مؤذّنُ الرّسولِ ﷺ ، ومنهم أيضاً: البَراءُ بنُ عازبٍ ، والبراءُ بنُ مالكٍ ، رضي الله عنهم أجمعين.

* وقد رسم د. محمد منيرحرفَ الباءِ رسماً جميلاً يدلُّ على براعتِهِ ، وخفّةِ ظِلّهِ ، فذكرَ أسماء كثيرةً تبدأُ بحرفِ الباءِ وتلفِتُ أنظارَ الأطفالِ ، وذكرَ شيئاً جميلاً تربوياً وهو كتابةُ بِسم الله ، وهي تبدأُ بحرفِ الباءِ ، فتعالوا نستطلع ماذا خبّأَ لنا «حرف الباء» في هذه الأهزوجةِ:

البَدرُ تَلألأَ بِسَمائي ... والبَسْمةُ حبّي ولقائي
وبشيرٌ جَاءَ لِيخبِرَني ... عن فَوزِ بَراءٍ وبَهاءِ
بشّارٌ قال يذكِّرُني ... مُدُنناً فيها حرفُ الباء
بيروتُ بَيْسَانٌ بَنْهَا ... بنْغَازِي وأَبْها بَغْدادُ
أحببْتُ البَاءَ بأسْمَاءِ ... بَرٌّ بَحْرٌ حَبٌّ بَلَدُ
مَا أجملها إذْ نكتبُها ... في بسمِ اللهِ هي السّعدُ

* وحرف التّاء حرفٌ تكرَّرَ كثيراً في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقد بلغتِ الحروفُ المكررةُ للتّاء (١٢٨٦٤ مرة) ، وبُدئتْ به سورٌ عديدةٌ هي «التّوبةُ ، التَّغابنُ ، التّحريمُ ، التكويرُ ، التّينُ ، التّكاثرُ» ، وحرفُ التّاء حرفٌ شمْسيّ.

* ومن الصَّحابةِ الكرامِ الذين بَدأَ اسمُهم بحرفِ التّاءِ الصَّحابي الجليل: تَميمُ بنُ أوسٍ الدّاريّ ، ومناقبُه مشهورةٌ في كتُبِ التّراجم.

* أمّا د.محمد منير فقد أحبَّ أنْ يتحفَ الأطفالَ ببعضِ أسماءِ الفاكهةِ المبدوءةِ بحرفِ التّاءِ ، بالإضافةِ إلى معلوماتٍ مهمّة عن الحيواناتِ يحتاجها الأطفالُ عن «حرفِ التّاء»:

هَذَا التُّوتُ أَحَبَّ التَّاءْ ... فَاسْتَعْمَلَها دونَ عَنَاءْ

كُـــلُّ ثمـــارِ الأَرضِ شَهيّـــة إذْ تحـــوي تَـــاءً أَصْليّـــة
تفّـــاحٌ تَمْـــرٌ أو تيْـــن تـــوتٌ يُجْنَـــىٰ فـــي تشـــريـــن
لكِـــنْ لـــو تَـــدري يـــا تَـــامِـــر حَيـــوانـــات التّـــاء مَخَـــاطِـــر
تمسَـــــاحٌ تِنّيـــــنٌ تَيْـــــس حُـــوتٌ تحـــتَ البَحْـــرِ يُغَـــامِـــر
فـــاشَـــربْ مـــن تُـــوتـــي بِهَنَـــاءْ فَتَحيّـــاتـــي لحـــرفِ التَّـــاءْ

* ولحرفِ الثَّاءِ ترتيبٌ خاصّ بين حروفِ القرآنِ الكريمِ ، فهو من الحروفِ قليلةِ العدد ورد (١٤١٤ مرّة) ، ولم تردْ باسمهِ سورةٌ تبدأُ به ، لكن وردتْ سورٌ فيها حرف الثّاء كسورة «الجاثية ، والتّكاثر ، والكوثر» ؛ ولم يردْ أيضاً اسم نبيّ بُديءَ بحرف الثّاء ، أو فيه حرف ثاء ، ولكنْ وردَ اسمُ بعضِ مشاهير الصَّحابة يبدأُ اسمهم بحرف الثّاء ، ومنهم : ثَابتُ بنُ قيس الأنصاريّ خطيب الأنصار ، وثُمامةُ بنُ أثالِ الحنفيّ ، وثَوبان مولى النّبيّ ﷺ ، وما أجمل أنْ يَسْرُدَ المربّون سِيرَ هؤلاء الصَّحابة للأطفال! .

* وللشَّاعر د. محمّد منير نظمٌ في الثَّاء له أثره المُؤنسُ في قلوب أطفالِنا وأذهانِهم ، فمعَ «حرف الثَّاء» وهذه النّعومة المُوحية :

ثَـــائـــي قـــد جَمَعـــت أصْنَـــافـــاً مثْـــل الثّعلـــبِ فيـــه المَكْـــر
أو ثُعْبـــانـــاً نَفَـــثَ السُّـــم جَـــاء بِلَيْـــلٍ ينْـــوي الغَـــدر
فـــي مـــزْرعَتـــي ثـــورٌ ضخـــمٌ دومـــاً يطْـــرُدُ عنّـــي النَّـــوم
يحـــرثُ أرضـــي لا يتْعبنـــي مِحْـــراثـــي يحتـــاجُ العَـــزْم
طَـــابَ الثّمـــر أكثـــر أكثـــر والكمّثـــرى مثـــل السُّكَّـــر
شُكـــراً مـــزْرَعتـــي قـــد جَمَعَـــتْ أَصْنـــافـــاً مـــنْ حـــرفِ الثَّـــاء

* وننتقلُ إلى حرفِ الجيمِ الذي تكرّرَ (٣٣١٧ مرة) في القُرآنِ الكريم ، ووردتْ سورتان بُدِئتا باسمِهِ وهما : «سورةُ الجاثية ، وسورةُ الجُمعَة» . ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّ حرفَ الجيمِ حرفٌ قمري ، وكثيرٌ من المُتعلّمين يلفظونَهُ على أنّه حرفٌ شمسيٌ ، فيجبُ على المُعلّمين والمربّين أنْ يعلّموا الأطفالَ أنَّ حرف الجيمَ من الحروفِ القمريةِ التي تبلغُ (١٤ حرفاً) .

* وورد في كتُبِ التّراجم أسماء كثيرٍ من الصَّحابة بُديءَ اسمُهم بهذا الحرف

ومنهم: جعفرُ بنُ أبي طالبٍ، وجابرُ بنُ عبدِ الله الأنصاريّ، وجريرُ بنُ عبد اللهِ البجَليّ، وجُبيرُ بنُ مطعم القرشيّ، وجُويرية أمُّ المؤمنين وغيرهُم.

* أمّا د. محمد منير فقد حلّقَ في خيالِه مع هذا الحرفِ، وجاءَ بما يتحفُ عقولَ الأطفالِ ونفوسَهم «بحرفِ الجيم» ويشدو بقوله:

جــدّيْ يقــرعُ جَــرسَ المكتــب ... وجميــلٌ يَجْــري فــي الملعَــب
جَــاري يــذهــبُ بعــدَ الفَجْــر ... يجــري يعبــرُ فــوقَ الجِسْــرِ
فــي جَــولتِــهِ قــوّى جِسْمــاً ... عــاشَ بهــذا أحْلَــىٰ العُمــر
تَحْــتَ ميــاهِ البحــرِ الأحْمــر ... مَــرْجَــان كَنْــزٌ وجَــواهِــر
فــرحــتْ جُــدَّة فيــه فــأضحــتْ ... أكبــر مينــاء فــي الحــاضــر
هــل أعجبَكُــم حَــرفُ الجِيْــم ... يَغْنــي الجِـدَّ وفيــه جَــواهِــر

* وحرفُ الحاءِ منْ حروفِ الألوفِ في القرآنِ الكريمِ وعددُه (٤١٣٨ مرة)، وبُدئت بضعُ سورٍ باسْمه وهي: «سورةُ الحِجْر، الحجُّ، الحجراتُ، الحديدُ، الحشْرُ»، أمّا أسماء الصَّحابةِ الذين بدأت أسماؤُهم بحرفِ الحاءِ فكثيرون جدّاً ومنهم: حارثةُ بنُ النّعمانِ، وحاطبُ بنُ أبي بلتعةَ، وحسّانُ بنُ ثابت، وحمزةُ عمّ النّبي ﷺ، وحفصةُ بنتُ عمر أم المؤمنين، وحليمةُ السّعديةُ، وحوّاءُ بنتُ يزيد وغيرهم كثيرون رضي الله عنهم أجمعين.

* وفي رحلتنا المغْنَاجِ مع هذا الحرفِ ألفينا د. محمد منير ينظم أهزوجةً اخترتُ منها بعضَها، وكانَ ما اخترتُه وهذَّبْتُه يموجُ بالأنغام، وفي كلّ جزءٍ من أجزاءِ أهزوجتهِ إيقاعٌ مطربٌ ينْسَابُ بعذوبةٍ ليلامسَ أفئدةَ الأحبابِ الصِّغار، ويحبّبَهم بهذا الحرفِ الجميل، فمع «حرف الحاء» وهذه الهمزيّةِ العِبقَةِ بالجمال:

حُسْنــي سَعِــدَ بحــرفِ الحَــاء ... وحَبيـــبٌ يحيَـــا بِصَفـــاء
حَسَــنٌ هــذا مــن فــرحتِــهِ ... شَــربَ قُبيــل الأكــل حِسَــاء
حَــاتــمُ يعــرفُ أُمَّ البَشَــر ... آدمُ زوجتُـــــه حـــــوّاء
حَمَــلٌ شحــرورٌ تمســاح ... حَجَــلٌ وحُبَــارىٰ حــربَــاء
وأَخــي حَــازمُ طِفْــلٌ يــرضَــع ... يبغــي حَليبــاً فيــه شِفــاء

يُعجبُنـــي حَـــرفٌ لِلْحـــاء   ألفظُـــه مـــن غيـــرِ عنـــاء

* وقد يتصوّرُ بعضُ النّاسِ أنَّ حرفَ الخاء قليلُ الاستعمالِ في الكلامِ ، ولكنّا نُعْلِمهُ ونقولُ بأنَّ حرف الخاءِ قد جاء في القُرآن الكريم (٢٤٩٢ مرة) ، ولكنْ لم تبدأْ بهِ أيّة سورةٍ من سُورهِ التي تبلغُ (١١٤ سورة).

* غير أنَّ هذا الحرفَ الميمونَ قد ازدانَ وتزين باسم أمّنا وسيّدتنا أمّ المؤمنين خديجةَ بنتِ خُويلد ، والخنساء ، وخَولة بنت حكيم ، ومن الرّجال: خالدُ بنُ زيد أبو أيّوب الأنصاريّ ، وخالدُ بنُ الوليد سيف الله وسيف رسوله ، وخبّابُ بنُ الأرت ، وخزيمةُ بنُ ثابت ، وخبيبُ بن عدي وغيرهم كُثُر رضي الله عنهم أجمعين.

* وفي دوحةِ الشِّعرِ الطّفولي العذبِ ، باحَ د. محمد منير بما تكنّهُ مشاعرهُ تجاهَ هذا الحرفِ بمنظومَةٍ طويلةٍ ، اخترتُ منها خمسة أبيات ، فتعالوا ننعم مع «حرف الخاء» وهذه التّحفة:

يــأْتــي بَعْــدَ الصّيــفِ خَــريــف   وهـــو الفَصْـــلُ الـــرّابـعُ رتبَـــا
ينمـــو تحـــتَ النَّخْـــلِ خُضَـــار   خَـــسٌّ خـــرنُـــوب وخيَـــار
نـــاديٰ لخـــديجـــةَ زوجتـــه   وخُلـــودٍ خـــولـــة مـــع خَـــالـــد
أَنْ هـــاتُـــوا خَـــروفـــاً نَشْـــويـــه   لِلضيـــفِ إذا حَضـــرَ الـــوَافِـــد
خَيـــرٌ لِلْخَـــاء يُـــلازِمُهـــا   كَخَميلتِنـــا فيهـــا الطّـــائـــر

* وحرفُ الدّالِ من أصحابِ الألوف في كتابِ اللهِ أيضاً بلغ عددُه (٥٩٩١ مرة) ، وبدأت باسمهِ سورةٌ هي سورة «الدُّخَان».

* أمّا الصّحابةُ المشاهيرُ الذين بُدىء اسمُهم بحرفِ الدَّال فمنهم: دحْيَةُ الكلبيّ ، ودرّةُ بنتُ أبي سفيان ، ودرّةُ بنتُ أبي لهب؛ وغيرهُم رضي الله عنهم أجمعين.

* ومع جماليّةِ حرفِ الدّال نجدُ لمساتٍ واقعيةً نتفاعلُ خلالَها مع هذا الحرفِ القاسي والرّقيق بآنٍ واحد ، بيد أنَّ د. محمد منير قد داعَبَ هذا الحرفَ بطريقةٍ طليقةٍ ساحرةٍ ، تجعلُ الصّغارَ يتعلّقون بالأهزوجةِ الدّالية ، وينشدونها

بشغفٍ ، لأنّها حَوتْ أصنافاً متعدّدةً من المعرفةِ ، وصيغَتْ بطريقةٍ محبّبةٍ ، ركبَ فيها قافية الهمزة ، وسار بطريقةٍ جميلةٍ تجمعُ الفائدةَ إلى جانبِ خفّة الظّلّ ، ورنين الضَّحكات ، ترىٰ هل يحبُّ الأطفالُ «حرفَ الدَّال»؟!

أنـــا دكْتُـــورة اسْمــــي سُعَـــاد — عِنْـــدي لِكُــلّ المَـــرضـىٰ دَواءْ
إنْ تــأْخُـــذْ مشْــروبــاً تــدعُـــو — يـــا ربّ وامْنَحْنِــــي شِفَــــاء
لا تُفْـــرِطْ فـــي الأكْـــلِ كثيـــراً — قَـــالـــوا المَعِـــدة بيـــتُ الـــدَّاء
دمُـــكَ القـــانـــيَ يحسُـــنُ أكْثَـــر — إنْ تبـــذُل جُهْـــداً وعَنَـــاء
هَـــذي الـــدُّنيـــا مَـــا أجملَهـــا — لـــو كنّـــا نحيـــا بِهَنَـــاء
دقَّـــتْ سَـــاعتنـــا فـــي الحـــال — قـــالَـــتْ نَغَمـــي حـــرف الـــدّال

* ومن المتوقّعِ أن يكونَ حرفُ الذّال من الحروفِ التي لمْ تأخذْ مساحةً كبيرةً في القُرآنِ الكريمِ ، ولكنَّ هذا الحرفَ يعدُّ (٤٩٣٢ مرة) ، ووردتْ سورةٌ بدأَتْ باسمِه هي سورة «الذّاريّات».

* ولهذا الحرفِ نصيبٌ وافرٌ في الألقابِ ، حيث قيل: عثمان بن عفّان «ذو النّورَيْن» ، وعن خُزيمةَ بنِ ثابت «ذو الشّهادتين» وهناك بعضُ الصَّحابة يبدأ اسمُه بحرفِ الذّال ومنهم: ذو خَيْوان اليماني واسمُه علّ ، وذو مِخبر الحبشيّ ، وغيرهما. أما ذو الكفل فهو نبيّ.

* ومن يَنْبوعِ د. محمد منير الهني نمتحُ هذه الأهزوجة الملوّنة ، التي صاغَتها قريحته صِياغةً سَيَّالةً ، وهي تتطلّبُ من الأطفالِ شيئاً من الإصغاءِ والانتباهِ كي يستمتعوا بها ، ويحلمُوا بجماليّةِ هذا النّشيدِ المُمتع ، إذاً دعونا نَسْري مع «حرف الذّال» بهذه التّرنيمات:

يَعنـــي حَـــذَراً حـــرف الـــذَّالْ — مـــن ذئـــب يَعْـــوي مُحتـــال
لِلْمـــرعـــىٰ أغْنـــامـــي تـــذْهَـــب — يحـــرسهُـــا كلبـــي فـــي الحـــال
وأذان الفجـــرِ يُعيـــدُ صـــدىً — ليعـــمَّ جميـــع الأكـــوان
ومـــؤذِّنُ مسجـــدِنـــا نـــادَى — يـــا مسلـــم قُـــم صَـــلِّ الآن
لا تَســـعَ بـــذمِّ الإخـــوان — ذاكـــر درْسَـــكَ فـــي إتقـــان
ذكـــرى صَـــدَحَـــتْ فـــي أقْـــوال — حبّـــي اليـــومَ لحـــرفِ الـــذّال

* ويأتي حرفُ الرّاءِ بعد حرفِ الذّال ، وهذا الحرفُ الشَّمسيُ من الحروفِ التي تكرَّرتْ كثيراً في القُرآنِ الكريمِ إذْ وردَ (١٢٤٠١ مرة) . وبُدىء به اسم سورتَيْن هما : «سورةُ الرّوم وسورةُ الرّحمن» .

* وهذا الحرفُ بدأتْ به جملةٌ من أسماءِ الصَّحابيات منْهُنَّ : الرُّبَيِّعُ بنتُ معوِّذ ، والرُّبَيِّعُ بنتُ النَّضر ، ورفيدةُ الأسلمية ، ورقيةُ بنتُ النَّبي ﷺ ، ورملةُ أمّ المؤمنين وغيرهنّ كثيرات ، ومن الصَّحابةِ : رافعُ بنُ خديج ، وربيعةُ العَبْسيّ ، وركانةُ بنُ عبد يزيد وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .

* وكانت الصّياغةُ الهامِسَةُ لهذا الحرفِ لا تقلُّ جمالاً عمّا سبقَ من الحروفِ؛ ترى هل نمرحُ مع «حرف الرّاء» ونستفيدُ مما يقدّمه من معلومات لنا؟!

رَائـــي تشبـــهُ شكْـــلَ القَمَـــر　　رامـــي يـــرســـمُ أحْلـــى الصُّـــوَر
رقَـــصَ الأرنَـــبُ تحـــتَ المطَـــر　　ريـــمٌ تشـــربُ مـــاءَ النّهـــر
عـــزفَ الـــرّاعـــي لحـــنَ الـــوتَـــرِ　　وهَـــزاري غنّـــى للْسَّمـــر
لـــو صُـــوّرتِ الـــدُّنيـــا تَبقـــىٰ　　صُـــورةُ بلـــدي فيهـــا الـــذّكـــرى
فيهـــا النّخـــلُ بشَـــط الـــوَادي　　جـــادَ التّمـــرُ بنخْـــلِ بـــلادي
أكْتُـــبُ رائـــي فـــي إتْقَـــان　　وأُزَخْـــرفُهـــا بـــالألـــوَان

* وإذا انتقلنا إلى حرفِ الزّاي ألفيناهُ أقلّ عدداً في القرآنِ الكريمِ من سابقهِ حرفِ الرّاء ، إذ تكرر (١٥٩٩ مرة) ، وقد بدأت به سورتان : هما : «الزُّمرُ والزُّخرفُ» ، وبُدىءَ به اسمُ نبيٍ كريمٍ صابرٍ هو زكريا عليه السَّلام .

* بينما بُدىء به اسمُ عددٍ كبير من كبارِ الصَّحابة والصَّحابيات منهم : زَاهرُ بنُ حرام ، وزيدُ بنُ حارثة ، وزيدُ بنُ الخطّاب ، وزيدُ الخير الطَّائي ، وزينبُ بنتُ النبي ﷺ ، وزينبُ بنتُ جحش أمُّ المؤمنين وكذاك زينبُ بنتُ خزيمة أمّ المؤمنين أيضاً ، وزينبُ بنتُ أبي سلمة وغيرهم كُثُر رضي الله عنهم أجمعين .

* وحرفُ الزّاي مُزْدَانٌ متميّزُ عند د . محمد منير الذي أضفى عليهِ الدُّعابة

وخفّةَ الظّلِّ ، ليكونَ قريباً من نفوسِ الأطفالِ وقلوبهم ، وقد أحسنَ صُنْعاً مع «حرفِ الزّاي» عندما صاغه بقوله:

أوّلُ حـــرفٍ لـــو نحـــذفُــه ضَـاعَ العِطْــرُ وأضحَــتْ هــرّة
مَــاءَتْ خمشَــت فــأخــافَتْنــا رجــعَ الحــرفُ فَعَــادتْ زَهْــرة
قـــالَ زيـــادٌ يـــا أبَتَـــاه حـــرفُ الـــزّاي ومَـــا أحْـــلاَه
ورقٌ عنـــدي يطْلـــبُ زايـــاً لـــو يـــأخـــذُهـــا يضْحـــي زورق
زمـــزمُ مـــاءٌ جمـــعَ الـــزَّاي فيـــهِ هنَـــائـــي فيـــهِ شِفَـــائـــي
هـــذا الحـــرفُ ومَـــا أغْـــلاه إنّـــي أحبّـــكَ حـــرفَ الـــزّاي

* ومن أصحابِ الألوفِ في القُرآنِ حرفُ السّينِ إذ بلغ (٦٠١٠ مرات) ، وبُدئَتْ بهِ سورة السَّجدة وسورة سَبأ. وبُدىءَ به اسمُ نبي شهير هو سُليمان عليه السَّلام؛ وهذا الحرفُ قد دخلَ أيضاً في أسماء عشْرة أنبياء وردَ ذكْرهم في القُرآنِ الكريم.

* أمّا ما بُدىءَ بهِ من أسماءِ الصَّحابةِ فكثيرون جدّاً ومنهم: سَاريةُ بنُ زُنَيْم ، وسعدُ بنُ أبي وقّاص ، وسعدُ بنُ الرّبيع ، وسعدُ بنُ معاذ ، وسعيدُ بنُ زيدٍ ، وسَلْمانُ الفارسي ، وسمرةُ بنُ جندب ، وسَهلُ بنُ بيضاء ، وسُهيلُ بن عمرو ، وسفَّانَةُ بنتُ حاتم ، وسميّة أمُّ عمّار ، وسَوْدَةُ أمُّ المؤمنين وآخرون رضي الله عنهم أجمعين.

* وقد اجتهدَ د. محمد منير لِيخرجَ حرفَ السِّين بحُلّةٍ قشيبةٍ تلفتُ نَظَر الأطفالَ ، فكان ممّا قالَ في «حرفِ السِّين»:

سَلْمـــىٰ قـــالـــتْ طلَـــعَ سُهيـــلْ نجـــمٌ يُسعِـــدُنـــا فـــي الليـــل
وسَمَـــاح قـــامـــتْ بِـــزيـــارهْ لِسَنَـــاءٍ وسُهْـــا وسهَيْـــر
يـــا سَـــامِـــر واختـــرْ كلمـــاتٍ سبعـــاً أوّلهـــا بـــالسِّيـــن
سَـــدٌّ سَبـــعٌ سَهْـــمٌ سُكَّـــر سَمـــكٌ سِـــنّ عنـــدي سِـــواك
قـــالَـــتْ سَلْـــوىٰ يـــا أطْفَـــال قـــد جَمَّعَنَـــا حـــرفَ السِّيـــن
حَـــرْفـــي هـــذا جـــدُّ نَفيـــس نَهـــرٌ يَجْـــري فـــي بـــاريـــس

* ويعدُّ حرفُ الشّينِ من الحروفِ ذواتِ الألوف ، فقد تكرّرَ في القرآنِ الكريمِ (٢٤٢١ مرة) ، وبُدئتْ به عدّةُ سُورٍ من مثل: سورةُ الشُّعراءِ ، والشُّورىٰ ، والشَّمسُ ، والشّرحُ.

* كما بُدىء به بعضُ أسماءِ الصَّحابة مثل: شَدّادُ بنُ أوس الأنصاريّ ، وشُرَحْبيلُ بنُ حَسَنة الكنديّ ، وشمّاسُ بنُ عثمان القرشي المخزومي ، وشيبةُ بنُ عثمان القرشي العبدريّ ، والشَّفَّاءُ بنتُ عبد الله ، والشُّموسُ بنتُ النُّعمان[1] وغيرهم كثير جداً رضوان الله عليهم أجمعين.

* ومع حرفِ الشّينِ أخذَ د. محمد منير يجرّبُ ريشتَهُ الجميلةَ ، فإذا به يلفتُ أنظارَ الأطفالِ إلى محاسنِ الطَّبيعةِ من شمسٍ وشجرٍ وشحرورٍ ، بالإضافةِ إلى كلماتٍ أخرى شملتْ هذا الحرفَ الجميل ، فهَلْ وُفّقَ مع «حرف الشّين»؟ إذاً اقرؤوا تغريدته العبقة:

شَمْـــسٌ تشـــرقُ فـــوقَ بـــلادي	شَجـــرٌ ينبـــتُ قُـــربَ الـــوادي
ظَهـــرتْ فيـــهِ ثمـــارٌ شتّـــى	منهـــا المشمـــشُ يـــا أولادي
وبَـــدا شحـــرورٌ أَطْـــربنَـــا	غنّـــى شَـــوقـــاً لـــلإنْشـــاد
فـــي قـــريتِنـــا نشْعِـــل شمعـــاً	يُصْنَـــعُ مـــن شَحْـــمٍ وسمَـــاد
حَـــرفُ الشّيـــن يفيـــدُ الشّـــوق	أو زَهْـــرٌ يحميـــهِ الشّـــوك
فـــاختَـــرْ شِينـــاً صِـــرتَ نبيهـــاً	كَشَهـــاداتٍ تفخـــرُ فيهـــا

* وحرفُ الصَّادِ من الحروفِ الشّمسيّةِ ، وقد وردَ في القُرآنِ الكريم (٢٠٧٢ مرة) ، وهناك سورةٌ كبيرةٌ باسمهِ ورسمهِ هي سورة «ص» ، كما أنَّ سورة الصَّافّاتِ ، والصَّفِّ قد بُدِئتا به أيضاً.

* وقد بُدىء بهذا الحرفِ اسم نبيّ وردت قصّته مع قومهِ وناقةِ اللهِ التي

---

(١) اقرأ سيرة الشُّموس بنت النّعمان الأنصارية في كتابنا «بيعة النساء في القرآن والسِّيرة» ففيها فوائد كثيرة بإذن الله.

عَقَروها ، ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس : ١٤ و١٥] ، هذا النّبيّ اسمه صَالح عليه السَّلام.

* وأسماءُ الصَّحابة الذين بدىء اسمُهم بحرفِ الصّادِ كثيرون منهم: صَخْر بنُ حرب أبو سُفيان ، وصُهيبُ بنُ سِنَان ، وصرمةُ بنُ أنس الأنصاريّ وصفيّة أم المؤمنين ، وغيرهم رضي الله عنهم؛ وأمّا د. محمد منير فقد كان له صَفَاءٌ كالسَّلسبيلِ مع «حرف الصّاد» فمع الصَّادِ وهذه الأنشودة الثّقافية:

صَـافـي يسمـعُ صـوتَ البلبـل وصـلاحٌ يُصْغـي يَتـأمَّـل
هَـذا الصَّقـرُ أحـبَّ الجـدْوَل والصَّيَّـادُ مَشَـىٰ وتعجّـل
يتبـعُ صَيْـداً فـي البُسْتَـان صَـوَّبَ فتحـاتِ النّيـران
دوّى الصَّـوت فخـافَ الصَّقْـر قـال الصُّـوص الآن نَجـوت
فـي بـركتِنـا مـاءٌ صَـافٍ وصَفَـاءُ تـذكُـر أَوْصَـافـي
أحلـىٰ حُـروفـي حـرفُ الصَّـاد صَـابِـرُ صَـالـحُ أوْ صَيّـاد

* والضَّادُ حرفٌ له نَسَبٌ جليلٌ في أبجديةِ العربِ ، فهو رأسُها ورئيسها ، وإليه تنْسَبُ اللغةُ فيقال: «لغة الضَّاد». وهذا الحرفُ يحتلُّ (١٦٨٧ مرّة) من بين تكرار حروفِ القُرآن الكريم. ولم تبدأْ سورةٌ باسْمِهِ ، ولا باسمِ نبيّ ، بل إنّ أسماءَ الأنبياء جميعهم خَلَتْ من هذا الحرفِ النَّبيل لحكْمَةٍ ما.

* غير أنَّ قاموسَ الصَّحابة لم يبخلْ علينا بهذا الحرف ، وأورَد أسماء صحابةٍ بُدئتْ أسماؤهم به ومنهم: ضِرارُ بنُ الأزور ، وضرارُ بنُ الخطاب ، وضمادُ بنُ ثعلبةَ الأزديّ ، وضَمُرة السُّلمي وغيرهم.

* وقد تجاوبتْ نفسُ د. محمد منير مع واقعاتِ الحياةِ ودنيا الأطفالِ في نظمِ هذا الحرفِ الأنيقِ ، ليكونَ قريباً من نفوسِهم ، فافتتحَ بِهِ أهزوجتَه ليكونَ «حرف الضّاد» حرفاً مميّزاً فقال:

ضَـرغَـامٌ اسْـمٌ لِـلأَسَـدِ وكَـذا الضَّيغَـمُ وفَـرُ اللّبَـدِ
أمّـا الضَّبُـعُ فَشَـرسٌ كـاسِـر مـنْ خَـوفِ ينـأى بمغـاور
هـذا الطّـالـبُ أبـدىٰ ضعفـاً أمضـى العُطْلَـة لا يَجْتهِـدُ

غضبَ الوالدُ يَبْغي حلاً ... وهُنا رَاضي قالَ سَأجدُ
ادْرُسْ بَعْضاً والْعَبْ بَعْضاً ... هذا حَلٌّ سُرَّ الوَلَدُ
حرفُ الضَّادِ أصيلُ النَّسَب ... فَبِهِ انْفَرَد النُّطقُ العَربي

* ويؤلِّفُ حرفُ الطّاءِ قطعةً صوتيةً متميزةً بين حروفِ الأبجديةِ العربيّةِ ، وله نطقٌ خاصٌّ به معروفٌ في عِلْم التّجويد ، وهو منَ الحروفِ الكثيرة التي تجاوزتِ الألفَ في القُرآن الكريم حيث تكرّر فيه (١٢٧٦ مرة) ، بينما بدأتْ فيه سُوَرٌ كبيرة منها سورة «طَه ، وسورة الطّور ، والطّلاق ، والطّارق» ؛ أمّا الأنبياء فلم نجدْ إلا نبياً واحداً خُتِمَ به هذا الحرف وهو نبي الله لوط عليه السّلام .

* ومن الصَّحابةِ الأعلامِ الذين بُدئت أسماؤهم بحرفِ الطّاء: سيدُنا طَلحةُ بنُ عبيد الله أحد العشرة المبشّرين بالجنّة ، وطارقُ بنُ شهاب ، والطُّفيلُ بنُ عمرو الدوسيّ وغيرهم رضي الله عنهم .

* أمّا د. محمد مُنير فقد راحتْ خواطرهُ تجوبُ عبابَ «حرفِ الطّاء» فَلْنُبحرْ معه ونَسْتَمتعْ بهذِهِ الخطرات العذبة المتدفّقة :

اكْتُبْ سَطراً واتركْ آخر ... في كُرّاسِ الخَطّ العربي
خطّاطٌ يكتبُ لَوحاتٍ ... نسخاً هذا خطّ الأدب
طارقُ بطَلٌ نِعْمَ الفاتح ... في أندلسٍ كان الرّابح
فتحَ طليطلةَ غَرناطة ... وقلاعاً تَعْلُو ومَسَالح
طه افتخرَ بحرفِ الطَّاء ... سمَّى مُدُناً بدأتْ فيها
طَنْطَا طنجةَ أو طَهْران ... وطَرابُلُساً في لُبْنان

* وحرفُ الظّاءِ هو الحرفُ الوحيدُ الذي تكرّر في القرآن بالمئاتِ ، فهو الحرفُ الوحيدُ الذي ورد (٨٥٠ مرة) أي هو أقلُّ حروفِ اللغةِ تكراراً في القُرآنِ الكريم ، بلْ لمْ تبدأ بهِ سورةٌ من السّور ، أو في أي من حروفِها ، ونجدُ هذا كذلك في أسماءِ الأنبياء حيث لم نجْد حرف الظّاء في أسمائِهم .

* أما أسماء الصّحابةِ فتكاد تكونُ خاليةً من هذا الحرف أيضاً .

* ومن العجيبِ أيضاً أنّ د. محمد منير قد وجدَ حرفَ الظّاء ثقيلاً عليهِ ، إلاّ أنّه نظمَ أهزوجة تجاوزت عشْرة أبيات اخترتُ منها ستةً تفصحُ عن هذا الحرفِ الذي ندرَ في المصَادرِ ، ولكنْ يبقى «حرف الظّاء» حرفاً ظريفاً ، فاقرأ:

ظَبيٌ يركضُ في الصَّحراء ... يبحثُ عن ظلٍّ أو ماء
مِنْ ظَمأ يبدو في تَعبِ ... مِنْ حرٍّ فوق الرّمضَاء
يمشي في أرجلهِ ظِلفٌ ... لكنْ يمشي الجمل بخفّ
ورأى بعْدَ الظُّهر ظِلال ... تحت النّخلِ ومَاءً سَال
ونعامات ظهرت أصْغَر ... وظَليم والدُهَا الأكْبَر
حرف الظّاءِ عَليَّ ثَقيل ... لكِنْ بَيْتي يَبْقَى ظليل

* وحرفُ العَينِ من الحروفِ الغنيّةِ بكلّ شيءٍ ، فقد جاء مكرّراً (٩٤٠٥ مرات) ، وبدأَتْ بهِ سورٌ منها: «العنكبوتُ ، وعبَس ، والعلَقُ ، والعادياتُ»؛ ومن الأنبياء عيسى عليه السّلام.

* أمّا الصَّحابةُ ـ رجالاً ونساء ـ فقد تجاوزوا المئات ومن أشهرهم: العبادلةُ الأربعةُ وعثمانُ وعمرُ وعليُ وعمروُ بنُ العاص ، ومن النّساءِ: أمُّنا الصّدِّيقةُ بنتُ الصّدِّيق عائشةُ أمُّ المؤمنين أفْقَه نساءِ الأمّة على الإطلاق وبنتُ الصّدِّيق الأكبر ، وفضائلها لا تُحصَرُ رضي الله عنها وأرضاها وحشَرنا في معيّتها ومعيّة أبيها[1].

* كان حرفُ العَينِ منوّعَ الألوانِ عند د. محمد منير ، وذكر خلالَ أبياتِه طاقاتٍ فواحةً بأريجِ المعرفةِ ، فهاهو ذا يترنّمُ للأطفالِ الأعزاءِ «بحرف العين» الذي بدأ به أنشودتَه فقال:

عَلَمُ بلادي دَوْماً عَالي ... فوقَ رَوَابِ فَوقَ جِبَالِ
وجَوادي مِنْ أَصْلٍ عربي ... أشْقَر يلمعُ مثلُ الذّهَب
يَغْدو عَدْواً مِنْ سُرعتهِ ... لا يشكُو أبداً مِنْ تَعَبِ

---

(١) اقرأ سيرة سيّدتنا وأمّنا عائشة بنت أبي بكر الصّديق رضي الله عنهما في موسوعتنا الشّهيرة المباركة «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» فسيرتها خير في خير في خير ، وبركة في بركة في بركة.

وطيـــورٌ عَــادتْ لبـــلادي تبحـــثُ عـــن دفءٍ وغـــذاء
عَيْـــنُ الحـــرفِ تـــرىٰ أسْمَـــاء عُمـــرٌ عُثْمـــانٌ وعَـــلاء
عَهْـــدٌ عَـــدْنَـــانٌ وعَطَـــاء عَبْلـــةُ عَـــادتْ بعْـــدَ عنَـــاء

* وكان تكرارُ حرفِ الغَين قليلاً في القرآنِ ، لكنّه أكثرُ من حرفِ الظّاء ، فقد تكرَّرَ حرفُ الغَين (١٢٢١ مرة) ، وابتدأتْ به سور منها: «غافرُ ، والغاشيةُ»؛ بينما غابَ هذا الحرفُ عن أسماء الأنبياء فلم يبدأْ به اسم نبي ، ولا كان جُزءاً من أسمائِهم.

* ولكنَّه لَمْ يغبْ عن أسماءِ الصَّحابةِ ومنهم: غالبُ بنُ عبد الله الليثي ، وغُزيّةُ بنُ الحارث الأنصاري، وغورثُ بنُ الحارث وآخرون رضوان الله عليهم.

* وإذا ماهجعتِ الحروفُ لدىٰ شُعراء الطُّفولةِ ، فإنَّ د. محمد منير كان يهفو لهذا الحرفِ الغني بمعاني الجَمال ، إذْ من كلماتِهِ وقاموسه الشّعريّ هذه الكلمات: غَزير ، غَزال ، تَغْريد ، غناء ، غَرناطة ، غاران ، ولا نريد أنْ نذهبَ بِرونَقِ هذه الأهزوجة اللطيفة عن «حرف الغَينِ» ولنتركَكم معها:

هَـــذي الغيمـــةُ فـــوقَ سَمـــائـــي تهمـــي مَطَـــراً لِـــلإرْوَاء
حتّـــى أضْحـــىٰ المـــاءُ غـــزيـــراً غَسَـــل غبـــاراً مـــنْ أجْـــوائـــي
وأتَـــتْ بَعْـــدَ الصّحـــو طيـــورٌ جـــالـــت تَغْـــريـــداً بِغِنـــاء
وغـــزالٌ وافـــى لِغَـــديـــرٍ يشْـــربُ منـــه المـــاء وينْهَـــل
فـــي غَـــرنـــاطـــةَ حـــرفُ الغيـــن حـــزنَ الحـــرفُ وغـــار المـــاء
ثـــورٌ وحـــراءٌ غَـــارَان دخـــلا تـــاريـــخ العُظمـــاء

* ونستقبلُ الآنَ حرفَ الخيرِ ، حرفَ الفاءِ الذي تكرّرَ في القرآنِ الكريمِ (٨٧٤٦ مرة) ، وافتُتِحَ القُرآنُ الكريمُ بالفَاتحةِ [١]، ثمّ نجد سُوَراً بدأتْ بحرفِ الفاءِ ومنها سورة «الفرقان ، وفاطر ، وفُصِّلت ، والفجر ، والفيل». ولكنّه غابَ عن أوائلِ أسماء الأنبياء ، وتألّقَ في أسماءِ الصَّحابةِ مثل: فَضَالةُ بنُ عبيد الأنصاريّ ، والفَضْلُ بنُ العبّاسِ ، وفَروةُ بنُ مسيك ، وتألّقَ كثيراً في اسم

(١) من الفوائدِ اللطيفة التي أودُّ أنْ أذكّرَ بها القُرّاء بأنَّ آياتِ سورة الفاتحة لا يوجد فيها حرف الفاء.

سيّدتنا فاطمةَ الزّهراءِ وعددٍ من الفواطمِ اللواتي بَلَغْنَ عشرين صحابيةً ، بالإضافةِ إلى صحابيات لهنّ جليل الأثرِ في أحداثِ السّيرةِ النّبويةِ ومنهنّ : فُريعةُ بنتُ مالكٍ الأنصاريّة ، وفضّةُ النّوبية [١] ، والفارعةُ بنتُ أبي الصَّلْت وغيرهنّ رضي الله عنهنّ .

* وتألَّقَ د. محمد منير بذكْرِ مفرداتٍ أنيقةٍ تجمعُها أُلْفَةُ «حرف الفاء» في طاقةٍ مزهرةٍ من لطائفِ المفرداتِ ، يقولُ :

فــالــحُ يَمْلِــكُ فَــرســاً أشْقــر　　يَجْــري جَــريــاً لا يتــأخَّــر
فَــارسُهــا خيَّــال مَــاهِــر　　فــازَ ونــال السّبــق الأكبــر
فَــلاّحٌ عــن ســاقٍ شَمّــر　　حَمَــل الفــأسَ ونــادى عنْتَــر
فَلــحَ الأرضَ لِيَغْــرِسَ فيهــا　　فــولاً سُــودانيــاً أَوْفَــر
فهمــي يَقْطِــفُ زهــرةَ فُــلّ　　وفــراسٌ يمشــي فــي الظّــل
فتحــي قــالَ الفــاء مُفَضّــل　　فهــدٌ فِهْــرُ فَضْــلُ فيصَــل

* ولا يقلُّ حرفُ القافِ ـ على ضخامته وثقله ـ مكانةً عن الحروفِ من ذواتِ الألوفِ ، فقد تكرّرَ (٧٠٣٤ مرة) في القُرآنِ الكريمِ ، وسمّيتْ سورةً كاملةً باسمهِ ، بالإضافةِ إلى سُورٍ بدأت بهِ ومنها سورة «القَصص ، والقَمر ، والقَدر ، والقَارعة ، وقُريش» . وأمّا أنبياء الله فلم يبدأْ اسمُ أيّ واحد منهم بهذا الحرفِ .

* وعندما استعرضْنا أسماء الصَّحابةِ ألفينا عشَرات منهم يبدأُ بهذا الحرفِ ومنهم : قَتادةُ بنُ النّعمانِ الأنصاريّ ، وقيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ الأنصاريّ ، وقَيسُ بنُ عاصم المنقريّ ، وغيرهم رضوان الله عليهم .

* وهذا الحرفُ قد جرَّرَ ذيولَه فرحاً عند د. محمد منير ، وراحَ يظهرُ مقلقلاً في كلماتهِ الشّعريةِ ، ويزهو بمكانتهِ بين بقيةِ الحروف . حسناً فما مقدارُ «حرف القَاف» بين حروفنا العربيّة؟!

---

(١) اقرأ سيرة «فضّة النّوبية» في موسوعتنا «نساء من المشرق العربي» (ص ٤٥٧ ـ ٤٧٤) طبعة دار اليمامة بدمشق . ففي سيرتها فوائد كثيرة وتصحيح لكثير من المفاهيم المغلوطة .

قَــدْرِي زَارَ الــدَّوحَــةَ بِقَطَــر ... ورأىٰ القَــاسِــمَ فيهــا وعُمَــر
ورَأىٰ قَنطَـــرةً وحَـــدائِـــق ... ورَأىٰ قصْـــراً يحلُـــو وسَمَـــر
وحقُـــولاً قـــد زُرعَـــت قطْنـــاً ... فيـــهِ اشتُهـــر القطـــرُ المصْـــري
هـــذي القـــاعـــةُ فيهـــا مقَـــاعِـــدْ ... شعـــراء يُلقُـــون قَصَـــائِـــد
فيهـــا القَلْـــبُ المـــرهَـــفُ يُبـــدي ... دقّـــاتٍ لِسَمَـــاعِ فَـــرائـــد
حـــرفُ القَـــافِ قَـــويٌ يبقـــىٰ ... فـــوقَ القِمّـــة يعلُـــو الأقْـــوىٰ

* ويسيرُ حرفُ الكاف بحريةٍ وانسيابٍ بين مجموعةِ حروفِ الأبجديّةِ، ويفتخر بمكانتهِ في كتابِ اللهِ حيث تكرَّر (١٠٤٩٧ مرة)، وبه بدأتْ سورةُ «الكَوثر»؛ هذه الهديّةُ الرّبانيّةُ لسيّدنا محمّد ﷺ. وتدخّلَ هذا الحرفُ في اسمَي نبيَّين وهما: زكريا وذو الكفْل عليهما السَّلام.

* لم يغبْ هذا الحرفُ عن أسماءِ الصّحابةِ، بل بُدىءَ به أسماء كثيرين منهم مثل: كرزُ بنُ جابر القرشيّ، وكَعْبُ بنُ زهير، وكعبُ بنُ عمرو الأنصاريّ، وكعب بن مالك وآخرون رضي الله عنهم.

* وفي وقفتِنَا مع د. محمد منير، رأينا أنَّه لمْ يقفْ وقفةً عَجْلَىٰ عند هذا الحرفِ، بل نظمَ أهزوجةً طويلةً هذّبنَاهَا، واخترنا منها ما يتلاءَمُ مع طبيعةِ الأطفالِ وميولهم، لذا فقد كان «حرفُ الكاف» ذا طَعْمٍ خاص على هذهِ المائدةِ المُنيريةِ:

كَـــرَمٌ يبنـــي الكُـــوخ الخَشبـــي ... غطَّـــى السَّقْـــفَ ببعـــضِ القصَـــبِ
ورأت كـــوثـــرُ مـــا أتعبَـــهُ ... مُلِئـــتْ كفّـــاهُ بـــالنُّـــدبِ
قـــالـــتْ خُـــذْ كـــرسيـــاً واجْلـــس ... كنْـــتَ اليـــوم كثيـــر التّعـــبِ
كُسِفَـــتْ شمـــس فـــي بكّيـــن ... ورَآهَـــا سكّـــان الصّيـــن
ورأَوا عنـــدَ الكَشْـــفِ كـــواكـــبْ ... منهـــا شهـــبٌ منهـــا نَيـــازِك
كَـــافـــي حَـــرفٌ كَشَـــفَ الكنْـــز ... عَـــادَ لِصَـــاحبـــه فـــي عـــزّ

* ويدلي حرفُ اللامِ دلوَهُ بين دلاءِ الحروف، فيفوزُ بالمرتبةِ الأولىٰ من حيث تكْرَاره في القُرآنِ، إذ عدده (٣٨٠٩٨ مرة)، وبه بدأَتْ سورةُ «الليل» كما بدأَ به اسمُ نبي اللهِ لُوط عليه السَّلام.

* وهناك أسماءُ صحابةٍ أوّلُها حرفُ اللام منهم: لَبيدُ بنُ ربيعةَ واللجلاجُ الزّهريّ ، ولُبابةُ بنتُ الحارثِ ، ولَيلىٰ بنتُ أبي حثمة وغيرهم رضي الله عنهم.

* وتناول د. محمد منير حرفَ اللامِ تناولاً لطيفاً منغوماً ، وألبَسَهُ ثوباً جميلاً من الأنغامِ المتألّقة ، وجعلَهُ قريباً من الأطفالِ يتلذّذون في إنشادِهِ ويتعلّمون من خلالهِ كثيراً من المُفْردَاتِ التي تنفعُهم في المحادثةِ والتّعبيرِ والمُسَابقَات.

* جمعتْ قصيدةُ د. محمد منير وضَاءَةَ الألفاظِ وسَلاسَةَ التَّعبيرِ ليكونَ «حرف اللام» ليّناً كَرسْمِهِ ومَعْنَاهُ ، وسَهلاً للأطفالِ فاقرأ ما يقول:

هَـذي اللّبـوةُ تـرعـىٰ الشّبـلْ	لَبَنـاً يـرضـعُ منهـا المـددا
ذَهَبَـتْ ليلـىٰ لتُشَـاهِـدهَـا	قـالـتْ أضحـىٰ شبْلـي أسَـدا
ولَبيـدٌ أنْشَـدنـا الشعْـر	وصَـفَ اللّيـلَ ومَـدحَ البَـدْر
غنّـتْ لُبْنـى مـا أنْشَـدهُ	لحنـاً مِثْـلَ ضيـاءِ الفَجْـر
لَبِسَـتْ لُـولُـو ثـوبـاً أحْمَـر	ولَميـسٌ قـالَـتْ لا أسْهَـرْ
حـرفُ الـلاّم لـه ألـوان	لَهَـبٌ لَعِـبٌ لَحْـنٌ كَمـان

* وحرفُ الميمِ من الحُروفِ الغنيّةِ الكثيرةِ أيضاً في حروفِ القُرآنِ الكريمِ أيضاً ، إذْ تكرَّرَ (٢٦٧٣٢ مرة) ، وهذا الحرفُ شبيهٌ بسَابقهِ من حيثُ مكانتُه في اللغةِ ، فقلّما نلفظُ جملةً إلاّ نجدُ فيها موضعاً لهذا الحرفِ المُهِمّ المنغوم اللطيف.

* ومن السُّور التي بدأت بحرفِ الميم: «سورةُ مريمَ ، والمؤمنون ، ومحمّد ، والمجادِلَة ، والمُمتحنة ، والمنافقون ، والمُلْك ، والمعارج والمُزّمّل ، والمدّثّر ، والمُرسَلات ، والمُطفّفين ، والماعون».

* وقد بُدِىء بهذا الحرفِ اسم نبيّينِ كريمَيْنِ من أولي العزمِ مِنَ الرُّسُلِ وهما: مُوسى ومحمّد عليهما السَّلام.

* وسيّدنا محمّدٌ ﷺ خاتَمُ الأنبياءِ والمرسلين ، وفي اسمهِ حرفان من الميمِ ، وتوجدُ سورة كاملةٌ في القُرآنِ الكريمِ تسمّى سورة «محمّدٍ» ، ووردَ

اسمُه صَريحاً «محمّد» أربعَ مراتٍ في أربعِ سورٍ ، فقد وردَ في سورةِ آلِ عمران آية (١٤٤) ، وسورةِ الأحزابِ آية (٤٠) ، وسورةِ محمّدِ آية (٢) ، وسورةِ الفتحِ آية (٤٩):

وَمَدائحٌ ووسائلٌ لمحمّدٍ | صلّى الإلهُ عَلَى عُلاه وسَلّما
سَمْحُ المعَاصِمِ للْعَوالم كُلّها | ولَكَمْ رَوَىٰ كُلّ الورودِ وأطْعَمَا
أوحىٰ لهُ مولاهُ أحكَامَ الهُدىٰ | وأراهُ أسْرارَ العُلومِ وعلّمَا
إسْراؤهُ للطُّهْرِ أمرٌ مُحْكَمٌ | وصُعُودهُ للهِ صَحّ وسَلّما
أعلامُ سؤددهِ على هامِ العُلاَ | وعلاؤُه طالَ السَّماءَ وكَمْ سَمَا[1]

* وهناك كثيرٌ منَ الصَّحابةِ ممَّنْ سمَّاهُم أَهْلُوهُم محمّداً وهم معروفون في كتُبِ الطَّبقاتِ ومعاجمِ الصَّحابةِ. أمّا الصَّحابةُ الذين بُدئت أسماؤهم بحرف الميم فتجاوزوا المئةَ ، ومنهم: مالكُ بنُ سِنانٍ والد أبي سعيد الخُدريّ ، ومحمدُ بنُ مسلمةَ الأنصاريّ ، ومرثدُ بنُ أبي مرثد الغَنويّ ، ومصعبُ بنُ عُمير ، ومعاذُ بنُ جَبَل ، ومعاويةُ بنُ أبي سفيان ، والمقدادُ بنُ عمرو ، وأمّنا ميمونةُ بنتُ الحارث ، ومارِيةُ القبطيةُ وغيرهم كثيرون رضي الله عنهم أجمعين.

* وحرفُ الميم حرفٌ ثريُ الينْبوعِ غزيرُ المادّةِ في قاموسِ شعرِ الطُّفولة لَدَيْنا ، وقد قَبَسْنا من قصيدةٍ طويلةٍ بَعْضَها لنكمِلَ عقْدَ هذه الحروفِ «بحرف الميم» مع همساتٍ راقصةِ المعَاني والألفاظِ:

مَحمُودٌ يجري ومُحمّد | في دوراتٍ حولَ المَعْهد
ومُفيدٌ يمشي مختالاً | لا يسعى حتّى لا يُجْهَد
ولِمَكّةَ بيتُ الله هفَتْ | أفئدةٌ صلّتْ في الحَرم
وسعتْ في المسعىٰ راجيةً | غفْران الذّنب مَعَ اللّمَم
أحببْتُ الميم وأسْعَدني | نور مصباح في الظُّلم
مِفْتَاحٌ مِسْكٌ مِذْيَاعٌ | ومَنارةُ عِلْم كالقَلَم

---

(١) هذه الأبيات الخمسة من قصيدة تعدّ مئة بيت وكلها مهملة الحروف (لا نُقط فيها) وهي لشاعرٍ اسمه: «صالح طه» من دوما قرب دمشق.

* ويحتلُّ حرفُ النّونِ المرتبةَ الثّالِثَةَ في الحروفِ التي تكررتْ في القُرآنِ الكريم حيث ورد (٢٧٢٦٩ مرة)، وهو من الحروفِ ذات المكانةِ في القُرآنِ وفي علْمِ التّجويدِ خاصّة، وبه بَدأَتْ «سورةُ النِّساء، والنّحل، والنُّور، والنَّمل»، وبه خُتِمَ القرآن بسورةِ «النَّاس». وبه أيضاً بُدِيءَ اسمُ نبيٍ كريمٍ صابرٍ مُعَمَّرٍ ومنْ أولي العزْم مِنَ الرُّسلِ: نوحٌ عليه السَّلام.

* وبهِ بدأتْ أسماء كثيرةٌ من صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ منهم: النَّابغةُ الجَعْديّ الشّاعر، والنّعمانُ بنُ بشير الأنصاريّ، ونُعيمُ النَّحّامُ، ومن النّساءِ: نسيبةُ بنتُ كعبٍ المازنيّة أمُّ عمارة[1] وغيرهم كثيرون جداً رضي الله عنهم وأرضاهم.

* وفي أبياتهِ المورّدةِ كوردِ دمشقَ المتألّق جمَالاً وعبقاً راحَ د. محمد منير يتحف الأطفالَ بشذا هذا الحرفِ الأنيقِ الذي يميسُ دلالاً ورقَّةً بين لِدَّاتِهِ، فمعَ «حرف النُّون» وهذه الأنداء:

فـي البَحـرِ الأحمـرِ نـافُـوره ... تعلُـو بميـاهٍ مـوفُـوره
نَـاجـي يهـوىٰ شَجَـرِ النَّخْـلِ ... ونَبيـلٌ يـزرعُ فـي الحقْـلِ
ينمـو النّـرجـسُ والنّعنـاع ... والنّسْـريـن امتـدَّ ذِراع
نهـرُ النّيـلِ بِمصْـرِ ذَاع ... يَسْقـي النَّـاسَ بمـاءِ الخيـرِ
قـالَـتْ نَجْـوىٰ مـا أَحْسَنَـه ... سفُـنٌ سـارتْ تَجـري معَـه
نَصْـرٌ نفـعٌ حـرفُ النُّـون ... فيـهِ جمَـالُ الحـرفِ يكـونُ

* وتأتي الهاءُ لتسجّلَ في ميدانِ الحروفِ سَبْقاً ملحوظاً، فقد تكررتْ (١٤٨٤٩ مرّةً)، وبهِ بدأتْ سورةُ «هودِ، وسورةُ الهُمزة»، وبُدِيء بهِ كذلك اسمُ نَبيّيْن وهما: هُود وهَارون عليهما السَّلام.

* وفي الصَّحابةِ أسماء أوّلها حرفُ الهاء ومنهم: هاشمُ بنُ عتبةَ الزّهريّ، وهالةُ بنُ أبي هالة، وهشامُ بنُ العاص، ومن النّساء هُند بنتُ أثاثةَ، وعقيلةُ

---

(١) اقرأ سيرة السَّيدة «نسيبة بنت كعب أم عمارة» في كتابنا: «بيعة النّساء في القرآن والسيرة» ففي سيرتها وقفات كريمة تستحقُّ الحفظ والمذاكرة، وتصلح للقدوة النسوية في كل زمان.

العربِ هندُ بنتُ عتبةَ[١] أمّ سيّدنا معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

* وكَهَزَارٍ يشدو ألحاناً يشدو د. محمد منير بأعذب الألحانِ لهذا الحرفِ، ليكونَ قريبَ الشَّكْلِ والمعنى من قلوبِ الصِّغار، فقد نظمَ كلماتٍ جميلةً في عقْدِ حروفهِ، وجاء «حرف الهاء» ليقولَ: ها أنا ذا ها هنا، فغنّوا وأنشدوا:

غنّـى هَـزَاري فـوقَ الشَّجـرِ ... وهيـامٌ طَـرِبَـتْ للـوتَـر
وأنـا أسمـعُ صـوتَ هَـديـل ... كحمـامٍ يلهُـو فـي السَّحَـر
وهشـامٌ قـد رتَّـل آيـاً ... مـن هـودٍ أو بعـضِ السُّـور
أصغَـتْ هنـدٌ كـي تسمعَـهُ ... فـإذا فيـهِ هـدىً للبَشَـر
وهِـلالٌ للشَّهْـر تـراءى ... يعلُـو الهَضَبـة يـا هَيفَـاء
هـل أعجبَكـم حـرفُ الهَـاء ... قَـالُـوا طَبعـاً فيـه هَنَـاء

* وحرفُ الواو ذو أهميةٍ كبيرةٍ بين الحروفِ، فهو الواصِلُ بينها، يقرِّبُ البعيدَ، ويؤلّفُ بينَ الخِلِّ والحبيبِ، وقد تكرَّر في القُرآنِ (٢٤٨١٦ مرة)، وهو حرفٌ غنيٌّ كريمٌ، وبه بدأَتْ سورةُ «الواقعة» وبهِ أقسم الله عزَّ وجلَّ في مواضعَ من القُرآنِ الكريم.

* وفي ديوانِ أسماءِ الصَّحابةِ يُطالعنا حرف الواو بقائمة منهم بُدئت أسماؤهم به ومنهم: واثلةُ بنُ الأسقع، والوليدُ بنُ الوليدِ القرشيّ، ووَهْبُ المزنيّ وغيرهم رضي الله عنهم.

* أمّا ما جادَتْ بهِ قريحة د. محمد منير بحرفِ الواو، فكان كثيراً ومفيداً، ونظمَ للأطفالِ قصيدةً طويلةً هذّبتُ منها ما يتوافقُ مع منهجِنا في هذهِ الدّراسةِ، فإلىٰ «حرف الواو» وهذه الأنشودة:

وَرْدٌ يَعْلُـو فـوقَ الفُـلّ ... زاهـي اللّـونِ خفيفُ الظّـلّ

---

(١) اقرأ سيرة السَّيدة الحصيفة «هند بنت عتبة» في كتابنا «بيعة النساء في القرآن والسيرة» ولاحظْ كيف صححنا كثيراً من المفاهيم المغلوطة في سِيَرِ كثيراتٍ من الصَّحابيات ومنهنّ هذه السَّيدة النّبيلة هند بنت عتبة رضي الله عنها.

فـــوّاحُ العِطْــــرِ بـــوادينـــا | يـــا حُسْــنَ الــورْدِ علينـا طَـلّ
قـــالــتْ وعــدٌ فــي مــدرستـي | صـــورةُ غـــزلان ووعُـــول
وهُنَـــا يبـدو حمــار الــوحـشِ | بخطـــوطٍ عــرضـــاً وبطُـــول
وجْــدٌ قـــالـــتْ واوٌ حَــرفــي | فــي واحتِنـا حُسْــنُ الــوصْــفِ

* ونختتمُ بحرفِ الياء هذه الطّاقةَ المزهرةَ من حروفِ اللغةِ العربيةِ التي ازدانتْ بالمعرفةِ والفائدةِ فيما أعتقدُ، ولعلَّ الأطفالَ والمربّين يستفيدون منها، وتكونُ لهم مفتاحَ خيرٍ لثقافةِ أطفالنا الأعزاء.

* وحرفُ الياءِ قد تكرّر (٢١٩٦٤ مرة) في القُرآنِ الكريمِ، وبهِ بدأَتْ سورٌ هي: «يونُس، يوسُف، يس». كما نجدُ أسماءَ أنبياء بُدئت به وهم: «اليَسع، يحيى، يونُس، يعقوب، يوسف».

* ومن أسماءِ الصّحابةِ الذين أوائلُ أسمائِهم حرفُ الياء: ياسرُ والد عمّار بن ياسر، ويزيدُ بنُ أبي سفيان، ويعلىٰ بنُ أميّة وغيرهم رضي الله عنهم.

* وحرفُ الياءِ حرفٌ حلوُ الرّونقِ، يحلو فيه الغناءُ للأطفالِ وقد حاولَ د. محمد منير أنْ يحقّقَ هذه الناحية عندما تعاملَ مع هذا الحرفِ، وغدا يكتبُ لأطفالنا بروحٍ مرحةٍ وهو يعطي نماذجَ جميلة من ذاتهِ وأعماقهِ، فمعَ «حرف الياء» نعيشُ هذه اللحظات المونقة المزهرة:

فــي بُسْتَــانــي ثَمــرٌ يَــانــع | وزهُـــورٌ منهـــا النِّسْــريـــن
لكــنْ زرعُ صَــديقــي يــوسُــف | أضْحـــى يَبســاً منــذُ سِنيـــن
يحيــىٰ قـــالَ دعــونــي أعْمَــلْ | أزرعُ فــــي أرضــي اليَقْطيـــن
قـــالـــت يســـرى يـــا أولادي | حـــرف اليـــاء بـــه إسعـــادي
يُســـرٌ يـــاسيـــنٌ ويَـــزيـــد | يَـــزَنُ الأَصْغَـــرُ مـــنْ أحفَـــادي

* والآن: أرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ أكونَ قد حقّقْتُ جُزءاً منَ الفائدةِ الثّقافيةِ التي قصدتُ من خلالِها إثراءَ معلوماتِ الأطفالِ وزيادتها، وربْطِهم بالثّقافةِ المفيدةِ في دِينهم ودُنياهم، وأنْ يقرأَ أطفالُنا هذه المعلومات، وأنْ يربّيهم مربّوهم على القراءةِ في هذا الزّمنِ الذي أخذَ كثيرٌ من النّاسِ ينصرفُ عنها إلى

أشياء ضارّة ، وليعملِ الآباءُ والمربّون على طرحِ شعار «اقرأ» ، اقرأْ أيّها الطّفلُ لتعرفَ وتبصرَ. . :

اقــرأْ تعــشْ فــي عــالَــمٍ ... راقٍ عظيـــمِ الشَّـــانِ
لــولا القِــراءةُ لاستــوىٰ ... الإنســـانُ بـــالحيَـــوانِ
لــولا سمــوُّ مكَــانِهــا ... ومقــامِهــا الــرَّبَّــانــي
مــا كــانــتِ اقْــرأْ أوّلُ الـ ... ـكَلِمــاتِ فــي القُــرآنِ

* اقرأْ أيّها الطّفلُ الحبيبُ قَصصَ الصَّحابةِ الأخيارِ ، واقْتَدِ بهم ، وسِرْ على هداهم.

* لقد حاولتُ في الصَّفحاتِ الفائتةِ إبرازَ هذه النّاحيةِ المونقةِ ليتعرفَ الأطفالُ إلى أسماءِ الصَّحابةِ عَبْرَ الحروفِ العربية المباركة ، ثمَّ يتّخذوهم أسوةً حسنةً مع رسولنا وحبيبنا محمّدٍ ﷺ ، وما أجمل أنْ نعلّمهم هذا النَّشيد في ختام هذا الفصل :

أحــبُّ الـرَّسـولَ النَّبـيَّ الأميــن ... أحــبُّ الصَّحــابــةَ والتَّــابعيــن
أحــبُّ الأئمــةَ والصَّــالحيــن ... وأهــلَ البُطــولاتِ والفَــاتحيــن
ومَــنْ أصلحُــوا النَّــاسَ دُنيــا ودِيْــن ... وبـالحـقّ سَـادوا علىٰ العـالَميـن(١)

* * *

(١) انظر: شعراء الطفولة في الوطن العربي (ص ٥٦ و٥٧) لأحمد فضل شبلول ـ دار المعراج الدولية ـ الرياض ط١ ـ ١٩٩٨ م.

الفصلُ السَّادسُ
همساتُ القُلوبِ إلى حبَّات القلوب

* الأطفالُ إحدى زينتَي الحياةِ الدُّنيا ، فهم بسمةُ الأملِ ، وروحُ الحياةِ ، وحياةُ النَّفس ، وريحانُ القُلوب:

وَإنّمــــا أولادُنــــا بينَنــــا
أكبــادُنــا تَمشِـــي علـــى الأرْضِ

* والأطفالُ امتدادٌ لحياةِ الأهلِ ، وما قيمةٌ للحياةِ دونَهم؟ :

مَا زِينةُ الدْنيا عَرفتُ ومَا المُنَى
إنْ لـم يكُـنْ طِفْـلاً أرَىٰ وَيَـرانــي

هُـو لِلعُيونِ النُّورُ والفَرحُ المدىٰ
والامتــدادُ لِقَــامَتِــي وزَمـــانــي

* تبدأُ المحافظةُ على الطِّفلِ قبل ولادتهِ ، وعند ولادته ، إذْ يبدأُ الأبوان بغرسِ القِيَمِ ومحاسنِ الشَّمائلِ في نفسهِ ، فالأطفالُ أمانةٌ عند آبائِهم وأمهاتِهم ، ويجبُ أنْ يحسنُوا أداءَ الأمانةِ ، ومن ثمّ يربُّونَهم على خَيرِ الزَّادِ وهو القُرآنُ الكريمُ وسيرةُ النّبي ﷺ وأصحابُهُ الكرامُ؛ وهذه همْسَةٌ لطيفةٌ إلىٰ أهلِ التّربيةِ ، الآباء والأمّهات ، وتخصُّ هذه الهمسةُ الهادفةُ أوّلاً الأمّهات ، حيث إنّهنّ يرتبطنَ مباشرةً بأولادهنَّ ، وهذه الخفقةُ بعنوان «إلى الأمّهاتِ المُسلمات» من الشَّاعر «محمد صيام» يدعو الأمّهاتِ من خلالها إلى تربيةِ أولادهنَّ تربيةً فاضِلةً على مائدةِ المُثُلِ والأخلاقِ وزادِ السَّابقين ، كي يكون أطفالُهنَّ سادةً في المستقبلِ ، يقول:

ربّـي وليـدكِ وفْـق الـدِّيـنِ ربّيـه
فـالـدِّيـنُ مِـنْ سَفَـهِ الإلْحـادِ يَحْميـهِ

يـا أخـتُ أنـتِ رعـاكِ اللهُ عـدّتنـا
لِصُنْـعِ جيْـلٍ قـوي غيـرِ مشبـوهِ

فَلَقّنـي طفْلَـكِ الإسـلامَ فَهـوَ لَـهُ
كـالمنْهَـل العـذْبِ ما ينفـكُّ يـرويـهِ

وعَلّميهِ مِن هدي الكتابِ ومِنْ / آياتهِ الغُرّ يا أختاهُ غَذّيهِ
وزَوّديهِ بأخلاقٍ محصَّنَةٍ / مِنَ الضَّلالةِ والإفسادِ تنْجيهِ
أخْلاقُ أجدادِهِ الغُرّ الذين مَضَوا / كالأنجمِ الزُّهْر في ليلٍ منَ التّيهِ
كَمثْلِ سَعْد وكسْرى يَسْتَهينُ بهِ / وجيشُ رستمَ طُوفانٌ يُلاقيهِ
فيزْأَرُ البطلُ المغوارُ وهو على / أقوى اليقينِ بأنّ النَّصر آتيهِ
وابن الوليدِ وما في الأرضِ من نَغَم / كمثْلِ قَعْقَعةِ الأَرْمَاحِ يشجيهِ
نَفْسي الفداءُ لمن كانوا برفقتهِ / والله يجزيهمو عنَّا ويجزيهِ
وَلَسْتُ أنسى صَلاحَ الدِّين وهو على / مشارفِ المسْجدِ الأقصى يُناجيهِ
هَذي نَمَاذِجُ قد جَادَ الزَّمانُ بها / فلألأت كالثُّريا في دياجيهِ[١]

* وقد ترنَّم الشُّعراءُ قديماً وحديثاً بالطُّفولةِ ، وأبدعُوا في هذا المجالِ وأكثروا وأجَادُوا ، وجاؤوا بما يطربُ الألبابَ ، لأنَّ معظمَ كلماتِهم نابعةٌ من سُويداءِ قلوبهم؛ جادوا بها للأطفالِ والطّفولةِ العذبةِ ، والأحلامِ والآمالِ ، والهمسَاتِ ونبضَاتِ القلوبِ[٢] .

* «ولأحمد رامي» ـ شاعرِ الشَّبابِ ، وشاعرِ الهَمَسَاتِ الغنائيّةِ ، والكَلِمَاتِ النَّديّةِ ـ أنغامٌ جَذْلىٰ في الطُّفولةِ وفي مناغاةِ الابن ، إذ هو يناجيهِ بألحانِ الهَوىٰ ، وهو لا يقوى أنْ ينظرَ إليهِ مخافةَ أنْ يهفوَ قلبُهُ ويخفقَ بشدّةٍ ، وقد ترجم هذه المعاني في هذا القالَبِ الأبويّ اللطيفِ فقال:

يا بُنيَّ ، ما أُحَيْلَى «يا بنيّ» / أنتَ ظلٌّ مدَّهُ اللهُ عَليّ
أتمنَّاكَ لِعَيني قُرّة / حين ألقاكَ وليداً في يديّ
أرقُبُ اليومَ الذي تبسِمُ لي / وترى آيَ الرِّضا في مُقْلتيّ
فأناجيكَ بألحانِ الهوىٰ / سَابقاتٍ خَاطري في شَفَتيّ
كلماتٍ هي لا مَعْنَى لها / غيرَ أنْ تسمعَ منّي أيَّ شيّ

---

(١) رياحين القلوب (ص ٣٦ ـ ٣٨) بتصرف ، تأليف: يحيى حاج يحيى ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨ م.
(٢) اقرأ مثل هذه الأشعار في ديوان عازفة القيثار (ص ٧٥ ـ ٧٧) لعفيفة الحصني ـ المطبعة العمومية ـ دمشق.

فتــراعينــي ولا تقــوىٰ علــىٰ غــضِّ أجفــانــكَ عنّـي يــا بُنــيّ

* ومن الأنداءِ الطُّفوليّةِ الرّائعةِ والجميلةِ هذهِ اللاّميةُ المُطْربةُ التي نظمَها الشَّاعرُ «نصْرةُ سعيد» قَبْلَ أكثرَ منْ نصْفِ قرنٍ ، وسَرَتْ في قصيدتِهِ هذه الأنفاسُ «الشَّوقيّةُ» فجاءتْ قصيدتُه جامعةً لألوانِ الرّقَّةِ والعُذوبةِ والجَمالِ ؛ وهذهِ القصيدةُ تجمعُ بين النَّصيحةِ للآباءِ والمُربّين وبينَ التّربيةِ الخُلقيةِ للأطفالِ ؛ والتّوجيهات التي ينبغي أنْ يحرصَ عليها الآباءُ والأطفالُ.

* فالتّربيةُ عندهُ ترفعُ الصِّغارَ إلى ذُرا الفَخْرِ ، والأبُ القدوةُ هوالذي يأخذُ بيدِ طفْلِهِ إلى العَلاءِ. والقَسْوةُ في التَّربيةِ مفْسَدةٌ للأطفالِ ، وقد تُميتُ فيهم كل إبداعٍ ، بل إنَّ الأبَ المربّي النّاجحَ الذي يتركُ طفْلَهُ يعيشُ طفولتَه ويمارسُها بشكْلٍ مدْروسٍ ومُوَجَّهٍ ، والأمُّ النَّاجحةُ هي التي تكملُ ما بدأهُ الأبُ ، والطفلُ منجمٌ لكلّ عجيبةٍ إنْ أحْسنَ الأبوانِ استثمارَ هذا المنجم ؛ وفي النِّهاية: إنَّ الأبوّةَ أنْ يكونَ الأبُ قدوةً لِطِفْلهِ؛ ولا أريدُ في الحقيقةِ أنْ أذهبَ ببهاءِ هذه القصيدةِ المطربةِ المفيدةِ ، بل سأتركُ الأبَ والأمَّ والمربّي يطالعونَها كلَّ وقتٍ وحينٍ لينهلُوا من عَذْبِ ألحانِها وفيضِ سَلْسبِيلها ما يُغَذُّونَ به نفوسَهم ونفوسَ أطفالِهم ، وما يَغُذُّونَ به السَّيرَ قدماً نحو المستقبلِ الزّاهرِ للأطفالِ:

أعظـمْ بتـربيـةِ النُّفـوسِ سبيـلا لتشيـدَ مجـداً للبـلادِ أثيـلا
فـانهـضْ لتـربيـةِ الصِّغـارِ مهـذّبـاً تـرفـعْ إلـى قمـمِ الفخـارِ الجيـلا
إن سـاءَتِ الأخـلاقُ عند جمـاعـةٍ كـان المـربِّـي وحـدَهُ المسـؤولا
فـالطِّفـلُ يعتقـدُ المـربِّـيَ كـائنـاً فـاق الأنـام مكمَّـلاً تكميـلا
فيجـدُّ فـي تقليـدِ كـلِّ فعـالـهِ حتـى يكـونَ لـه الغـداةَ مثيـلا
أكثـرْ مـن الأعمـالِ فـي تهـذيبـهِ لكـنْ تكلَّـمْ مـا استطعـتَ قليـلا
هل يستفيدُ الطِّفلُ من «لا تشتمنْ» ويـراك تشتـمُ بكـرةً وأصيـلا؟
لا تمنعـنَّ الطِّفـلَ عـن ألعـابـهِ يجـدِ الحيـاةَ مشقـةً وذبـولا
بـاللهـوِ يكتشـفُ الحيـاة مجـرّبـاً ليجـول فيهـا غـانمـاً ويصـولا
وجّـهْ غـرائـزَه الـدنيئـةَ قبلمـا تنمـو فينمـو فـاسقـاً وسفيـلا
فـالطِّفـلُ فطـريّـاً محـبٌّ نفسَـه لا يفهـمُ الإيثـارَ والتَّفضيـلا

في فطرةِ الطِّفلِ الحبيبِ مواهبٌ ... تتطلّـبُ الإنمـاءَ والتَّجميـلا
فلقد رأيتُ الطِّفلَ حرّاً صادقاً ... وعلى الصَّراحةِ فطرةً مجبولا
لا تكذبنَّ أمامَه مستهتراً ... يتعوَّدِ التَّغريرَ والتَّدجيلا
والطِّفل مِطواعٌ ولا يعصي سوى ... من يستكينُ لحكمِه تدليلا
نظِّمْ قواهُ في اتّجاهٍ صالحٍ ... كالسّيلِ يتّخذُ القناةَ سبيلا
يا أيُّها الأبُ في يديك وديعةٌ ... لا تكتفي بك آوياً ومُعيلا
ليس المُيتّمُ مَنْ أبوهُ قد قضى ... بل مَنْ أبوهُ ملَّهُ مشغولا
فانهضْ لواجبِكَ المقدَّسِ هادياً ... إنَّ الأبوَّةَ أن تكونَ رسولا[1]

* وإذا كانَ الولدُ بِكْراً لأبيهِ ، فماذا عسىٰ أنْ ينظمَ شاعرٌ عندما يرىٰ ابنَه الأوّلَ يأتي إلى هذهِ الحياةِ؟! لا شكَّ في أنَّ الغناءَ سيغدو عذباً رقيقاً نديّاً ، وسيظلُّ الفؤادُ يعمرُ نوراً طالما أنَّ الوليدَ الحبيبَ باسمٌ ابتسامةَ البراءةِ الفطريّةِ . وما أجملَ الحياةَ مع عُذوبةِ الطّفولةِ ومع الأطفالِ . ولنَسْعَدْ سوياً مع هذه النّفحةِ «الصَّدُّوقيّة» الغنائيةِ العَذْبةِ ، وهذه الخَطَرات:

سَيظلُّ الغِناءُ عذباً نديّا ... وتفيضُ الحياةُ خصْباً وريّا
سَيظلُّ الفؤادُ يعمرُ نوراً ... طالما أنتَ باسمٌ يا بُنيّا
ابتسمْ يا بُنيّ أنتَ صغيرٌ ... لم تزلْ طاهرَ الضَّميرِ نقيا
لا تفِقْ من طفولةِ اليوم إنّي ... أفتديك الشَّبابَ غضّاً نديّاً
ظَلَّ طفلاً تهيمُ في ريّقِ العُمْـ ... ـرِ ولا تَعْدُ في الحياةِ عتيّا
إيهِ يا «رائدي» الصَّغيرُ تبسَّمْ ... إنَّ في ثَغْرِكَ الجميلِ لَرؤيا
فابتسمْ يا بنيّ تُرجِعُ عُمري ... كالرَّبيعِ الجميلِ طَلْقاً بهيّا
ويعودُ الرَّبيعُ للأملِ الذّا ... وي وتزهو النُّجومُ بين يديا[2]

* والأبوةُ عند الشَّاعرِ «نصرة سعيد» بسمةٌ ومراحٌ وجمالٌ وفجرٌ وربيعٌ فوّاحٌ

---

(١) ديوان: شموع الكهف ، (ص ٥٨ ـ ٦٣) بتصرف واختيار وقد نظمها نصرة سعيد في عام (١٩٤٥ م) مطبعة الضّاد ـ حَلَب ـ ١٩٥٩ م آذار.

(٢) ديوان: من أسفار السّندباد (ص ٢١ ـ ٢٣) لراضي صدّوق بتصرّف ، وقد نظم هذه القصيدة عام ١٩٦٢ . و«رائد» هو الولد البكر للشّاعر.

بالزَّهر ، وهذه الهمسَات نقرأُ من خلالها هذه الفرحةَ التي تشعُّ بالبُشرى:

اليـومَ تهـزجُ حـولـيَ الأفـراحُ ... والقلـبُ منّـي راقـصٌ رنَّـاحُ
الفجـرُ لاح فلُحـتَ بيـن طيـورهِ ... وصـراخُـك المستعـذبُ الأصـداحُ
أيَّـارُ شهـرُكَ يـا بنـيَّ وزهـرهُ ... وفـدُ الـربيـع مهنـىءٌ فـوَّاحُ
رقـصَ الفـؤادُ هنـاءةً وتيمنـاً ... لمَّـا أهـلَّ جبينُـكَ الـوضَّـاح
وأبـوَّتـي الظَّمـأى انتشتْ بك فتنةً ... فهـلِ البنـوَّةُ لـلأبـوَّة راحُ؟
ميـلادُك الميمـونُ عيـدٌ مبهـجٌ ... وبـهِ الحيـاةُ بشـائـرٌ وفـلاحُ(١)

* وتكادُ غبطةُ الولدِ تسيطرُ علىٰ مشاعرِ «نصرة سعيد» وتستولي على قَلْبهِ وجوانحِهِ وجوارحِهِ، وخصوصاً عند فوزِه بالنَّجاحِ، فراحَ أبوه ينشدُ شعْرَ الفرحةِ والفُتونِ لابنهِ «كَرَم» الذي رأىٰ من خلالهِ امتدادَ حياتِه . لنَسْتَمِعْ إلى شَدْوِه:

فـوزُك اليـومَ بنيَّـا ... أسبـغ الفخـرَ عليَّـا
فـالتّهـانـي بـاسمـاتٌ ... والـرّؤى ملـكُ يـديَّـا
أنـت فـي عمـري امتـدادٌ ... ميّتـاً كنـتُ وحيّـا
لسـت أخشـى المـوتَ إنّـي ... فيـك أحيـا أبـديّـا
أتمنَّـى لـك دهـراً ... طيّبـاً رغـداً سخيّـا
عشـتَ فـي يمْـنِ حبيبـي ... بـالغـاً أوجَ الثّـريّـا(٢)

* ولم تتوقّفْ فرحةُ الشَّاعرِ «نصرة سعيد» عند نجاحِ ابنهِ وفوزِهِ ، بل فاضَتْ أبوّتُه بأحلامِها وآمالِها على فوزِ ابنتهِ «أمَل» الصَّغيرة ، التي أهْداهَا هذه اللامية المُفْعَمَةَ بالسُّرورِ والفرحِ والدُّعاءِ والنّصيحةِ ، فقال:

«أملـي» نِلـتِ الأمـلْ ... تحـتَ مصبـاحِ العمـلْ
كـان فـوزاً بـاهـراً ... وعلـى وعيِـكِ دلّ
فـاقبلـي تهنئتـي ... رمـزُهـا حلـوُ القُبَـلْ
غـايتـي أن تسعـدي ... وتظلّـي فـي الأوَلْ

---

(١) ديوان شموع الكهف (ص ٨٦ ـ ٨٨) طبع عام ١٩٥٩ م.
(٢) المرجع السابق (ص ٨٩ و٩٠) باختصار وانتقاء.

صـــــانـــــكِ اللهُ لنـــــا فـــي اكتمـــالٍ يـــا «أمـــلْ»(١)

* وللبناتِ الصّغيراتِ مسَاحَاتٌ غيرُ محدودةٍ في نفوسِ الآباءِ ، فهذا «مقبل عبد العزيز العيسى» يرسمُ آمالَهُ وأحلامَهُ في هذهِ الخطراتِ لطفْلَتِهِ التي هي نعيمُ قلبهِ ، وحياةُ نعيمهِ ، وروحُ خيالهِ ، وشمسُ نهارِهِ ، فتعالوا ننصِت إلى هذهِ الأنسامِ الجميلةِ التي يمرُّ بها على طفلتهِ فيقول:

لِعَينيـكِ . . يـا طفلتـي الغَـاليـة أبـــوحُ بحبّـــي وآمـــاليـــه
أبـــوحُ بحبّـــي . . لهــذي الحيــاة كَمــا بــاحـتِ الطيـرُ . . للـدّاليـه
فـأنـتِ لقلبـي . . نعيـمُ الحيـاة وعينـاكِ لـــي . . جنّــةٌ عــاليــه

* * *

فيـا طفلتـي . . لا تَـرُعْـكِ الحيـاة وجـوهـرُ هـذي الحيـاةِ نضـال
فـإن أشـرقـتْ شمـسُ سَعْـد عليك فـلا تسـأمـي مـن دُعـا وابتهـال
وإن أظلمــــت شَمْسُـــــه تــارة فكـونـي معَ الله . . فـي كـلّ حـال

* وممَّنْ أَسَرَتْهُ طفولةُ ابنتِهِ ، «د. عبد الكريم اليافي» ، فنظمَ رائيةً جميلةً ، تفيضُ حناناً للطّفولةِ العذبةِ ، فهو متيّمٌ بابنتهِ ، وهي لا تدري ، وابنتُه بهجةُ العمرِ وبرعُم الزَّهرِ:

وضعــتْ أنــاملَهــا علــى صــدري كــالطَّيـرِ حــطّ بشُــرفَــةِ القَصْــر
فســرَتْ لطــافتُهــا إلــى كَبــدي كــالنُّـور بيـن جَـوانحـي يسـري
لــم ألــقَ أعــذبَ مــن رهــافتِهــا أبــداً ولــن ألقـى مـدىٰ الـدّهـرِ
لا حُــبَّ أعــذبُ مـــن محبّتهــا فــأنــا المتيّـمُ وهــي لا تــدري
بنتــي وبنــتُ تخيّلــي التقتــا فــي شـادنٍ يـا بهجَـةَ العمـر(٢)

* وللشَّاعرِ «محمد مُصْطفى الماحي» أقباسٌ جَذْلىٰ في مضْمَارِ التّغنّي بطفولةِ ابنتهِ «سُعاد» التي نجحتْ في الابتدائيةِ سنةَ (١٩٣٢ م) ، فكانت هذه

(١) المرجع السابق (٩١ و٩٢) بتصرف واختصار.
(٢) حصاد الظّلال (ص ١٤٨) باختصار وانتقاء.

التّائيةُ الجميلةُ ترفلُ بحُلاهَا بين سائرِ قصائدِهِ في ديوانه ، فلنقرأْ ثمارَ حَصَادِ ذهنِه حيثُ يقولُ:

هيّا «سعادُ» إلى العلا مشكورةً ... ميمونةَ الرّوحاتِ والغدواتِ
هذي ثمارُ الجدِّ أزهرَ نَوْرُها ... فاجني هنيئاً أطيبَ الثّمراتِ
جاوزتِ مرْحلةً فدُونك غيرَها ... كم دون غايِ العِلْمِ من خطواتِ
دار الزّمانُ فأصبحتْ ظَبيَاتهُ ... تبرزنَ للآسادِ في الأجماتِ
دَارَ الزَّمانُ فسابقتْ فتياتهُ ... فتيانَه فسبقنَ للغاياتِ
كلٌّ يجاهدُ في سبيلِ حياتِه ... إنَّ الجهادَ قوامُ كلِّ حياة

* * *

فاسعَيْ إلى المجدِ الذي تَبغينه ... فسبيلهُ مأمونةُ العَثراتِ
الدينُ والعِلمُ الصَّحيحُ كلاهما ... نورٌ يقيكِ مواطِنَ الشُّبهات
ومكارمُ الأخلاقِ أفضلُ عدّة ... لكِ في الشدَائدِ بل أعزّ قناة
فخذي الفضيلةَ للسّموّ وسيلةً ... تاجُ الفضيلة حليةُ الفتيات(١)

* وما أجملَ فرحةَ الوالدِ حينما يعودُ ولدُهُ ، فهو المُهْجَةُ ، وهوَ هوَ الوردةُ المنَّداةُ بعبقِ الشَّذا ، وهو يحيا مِنْ أجلهِ ولأجلهِ ، وهو ضياءُ عينهِ ، ونورُ حياتهِ ، ولسانهُ ، ويدهُ ، هكذا ذكَرَ اليافي في هذه الأغرودةِ الجميلةِ التي افتتَحها بالفرحةِ ، فاسمعْه يقولُ:

يا فَرحتي يا فَرحتي ... حينَ يعودُ ولدي
أحبُّه أشتاقُه ... في كلِّ يومٍ وغدِ
أدعو له على المدىٰ ... يا ربّ سلّمْ ولدي
إذا رأيتُ خطُه ... أرتاحُ للوَردِ النّدي
إذا سمعتُ صوتَه ... يطيرُ شوقاً خلَدي
إنَّ حبيبي قادمٌ ... وصُولُه في الموعِدِ(٢)

* وأناشيدُ الطُّفولةِ أناشيدُ عذبةٌ ، تداعبُ القُلُوبَ ، وتلامسُ الوجدان ،

---

(١) ديوان محمد الماحي (ص ١١٨ و١١٩) ، مطبعة الإخاء ـ مصر ـ ١٩٣٤ م.
(٢) حصاد الظلال (ص ٣٧).

وقد تفنّنَ الشُّعراءُ في هذا المجالِ ، وأدلوا دلاءَهم في ذلك ، فالطفولةُ حياةٌ عذبةٌ ، والأطفالُ فتنةٌ وزينةٌ ، وهم الذين يفجّرون ينابيعَ الحنانِ في الصُّدورِ ، وهمُ همو الحياةُ والحبُّ وكلُّ جميلٍ ما داموا في هذه المرحلةِ الخصبةِ بالبراءةِ والبَساطةِ .

* وفي سبيلِ الطّفولةِ ، ومن أجلِ حبّاتِ القلوبِ ، يرىٰ الدّكتور اليافي جمالَ الحياةِ مع طفلَيْهِ ، «شادن ، ومحمّد» ويتحدّثُ ببساطةِ الأبِ الحاني عن غِيْرَةِ الأطفالِ وغضبِهم ، وكثيرٍ من بساطاتِ الطُّفولة وبراءتِها ، يقولُ في هذهِ البائيةِ اللطيفةِ :

فرخانِ ما أحلى الطّفولة فيهما ... من أجلِ لهوِهما أجِدُّ وأتعبُ
ما تنتهي الطَّلباتُ عند كليهما ... إمّا انقضىٰ طلبٌ تبادرَ مطلبُ
إنْ شادنٌ رضيتْ يغارُ محمّدٌ ... أو نال ما يصبو فشادنُ تغضبُ
أفْنى بحبهما وهٰذي لذّةٌ ... تُزْهَى بها أمٌّ ويدركُها أبُ
وأكادُ أشعرُ بالسَّعادة حينما ... كلٌّ يخفّ إلى أخيه ويلعبُ
﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا ﴾ يرعاهما ... وأنا بضعفي الحادبُ المحدودبُ[1]

* ويظلُّ الفجرُ مضيئاً إذا هذَّبَ المربُّونَ الأطفالَ ، ومع الطُّفولةِ والأطفالِ والتّهذيبِ وهذه البائيةِ اليافيّةِ :

إذا ضحك الطِّفل الغرير وجدتني ... سعيداً كأنّ الكون يضحك في قربي
كأنَّ شعاع الشَّمس يزداد حسنه ... إذا رفّ في ثغر الطُّفولة والهدب
ملائك حبٍّ ثُمَّ تعمل بيئةٌ ... فتفسد صفو الطَّبع باللؤم والخِبّ
إذا أنت هذّبت الوليد وجدته ... مُعينَك في السَّرّاء والموقف الصَّعب
تَنازَع أصحابُ الفنون فنونَهم ... وفَنُّ المربّي فوق أجمعها يُرْبي
يُنَشِّىءُ أحلاماً فتغدو حصيفةً ... ويشحذ أفهاماً فتعلو على الشُّهب[2]

* وهذهِ مناجاةٌ من أعذبِ كلماتِ الطّفولةِ ، أطلقَها محبٌّ قد ملأ قلبَهُ حبُّ

---

(١) حصاد الظلال (ص ١٨) د. عبد الكريم اليافي ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ (٢٠٠١ م).
(٢) حصاد الظلال (ص ٢٦) باختصار.

الطُّفولةِ ، وغرّدَ أمامَ سمعهِ صوتُ طفلهِ الذي يلثغُ في بعضِ الحروفِ ، فتعطي لثغتُه نغماً ساحراً في أذنِ أبيهِ ، فما أجملَ أنْ ننصتَ لهذهِ الميميَّةِ العذبة :

أنـا قـادمٌ لـكَ يـا بُنـيّ وحقّ طُهـرِك لا تنـمْ
لا تحرمنَّ أباكَ منْ فمِكَ الشّهيّ إذا ابتسَمْ
أسعىٰ إليـكَ وكـلُّ خـافقـةٍ بَجنْبي تَضْطَـرم
فلعلّني ألقـى صيـاحـك يمـلأُ الـدُّنيـا نَغَـم
فأطيرُ منْ فَرحي وأنسىٰ الهمَّ أنسىٰ كُلّ هَمّ
فلكم تعبتُ وكم شقيتُ وكم شبعتُ من الألم
وعلـى نِداكَ الحلـوِ تـرتـاحُ الجراحُ وتلتئـم
سـاقيتنـي حُبّـا حلمـتُ بـه وكـم عـزّ الحُلُـم
ثمّ استمعتُ إليك تدعوني وتلثغ في الكلم
فـإذا بـأقْـدرِ نـاثـر وإذا بـأبلـغ مَـنْ نَظَـمْ
جاوزتُ ما نطَق اللسانُ وفُقْتَ ما كتب القلم
وسكتّ عن عيٍّ ولكنْ كُلُّ ما تبغي فُهِم
عيناكَ أفصَحُ في الحديثِ المُشتهى منْ كلّ فم
والحـب عنـدك آيـة مـن صنـع وهّـاب النّعـم

* وتأتي بائيّةُ «بدوي الجبل» لِترتقيَ ذروةَ شعْرِ الطُّفولةِ ، وتحتلَّ بأبياتِها الجميلةِ قلوبَ محبّي الأطفالِ والطُّفولةِ والشّعرِ والنَّغَمِ ، وكيف لا تحتلُّ القلوبَ ، وقد غردَّتْ بين قصائدِهِ تغريدَ البلبلِ الجميلِ؟!

* لن أقدّمَ لهذهِ القصيدةِ بكلماتٍ ، فهي تقدّمُ نَفْسَها بثوبها القشيب ، وقالبها البديعِ ، وقافيتِها الرّاقصةِ ، ولكنّي سأختارُ منها ما رقَّ لي وراقَ . . فمعَ البلبلِ نصغي لِنَسْمعَ أعذبَ الألحانِ :

وَسِيماً مِنَ الأطْفالِ لَوْلاهُ لَمْ أخَفْ ... عَلـى الشَّيْـبِ أنْ أَنْـأَى وأنْ أَتَغَـرَّبَـا
وَعِنْـدِي كُنـوزٌ مِـنْ حَنَـانٍ وَرَحْمَـةٍ ... نَعِيمِــيَ أنْ يُغْـرَى بِهِــنَّ وَيَنْهَبَـا
يَجُور وَبَعْضُ الجَوْرِ حُلْوٌ مُحَبَّبٌ ... وَلَـمْ أرَ قَبْـلَ الطِّفْـلِ ظُلْمـاً مُحَبَّبَـا
وَيَغْضَـبُ أحْيـانـاً ويَـرْضَـى وَحَسْبُنَـا ... مِنَ الصَّفْوِ أنْ يَرضَى عَلَيْنَا وَيَغْضَبَا

وإنْ نَـالَـهُ سُقْـمٌ تَمَنَّيْـتُ أنَّنِـي فـداءً لَـهُ كُنْـتُ السَّقِيـمَ المُعَـذَّبَـا
يَـزُفُّ لَنَـا الأعْيَـادَ عِيْـداً إذا خطَـا وَعِيـداً إذَا نَـاغَـى وَعِيـداً إذَا حَبَـا
كَـزُغْبِ القَطَـا لَـوْ أنَّـهُ راحَ صَـادِيـاً سَكَبْـتُ لَـهُ عَيْنِـي وَقَلْبِـي لِيشْـرَبَـا
يَنَـامُ عَلَـى أشْـواقِ قَلْبِـي بمهْـدِهِ حَرِيراً مِنَ الوَشْيِ اليَمَانِيِّ مُذْهَبَا
وَأُسْـدِلُ أجْفَـانِـي غِطَـاءً يُظِلُّـهُ وَيَـالَيْتَهَـا كَـانَـتْ أحَـنَّ وأحْـدَبَـا
وَيَا رَبِّ مِنْ أَجْلِ الطُّفُولَةِ وَحْدَهَا أفِضْ بَرَكاتِ السِّلْمِ شَرْقاً وَمَغْرِبَا
وَصنْ ضِحْكَةَ الأطْفَالِ يَا رَبِّ إنَّهَا إذَا غَرَّدَتْ فِي مُوحِشِ الرَّمْلِ أعْشَبَا
وَيَا رَبِّ حَبِّبْ كُلَّ طِفْلٍ فَلاَ يَرَى وإن لَجَّ في الإعناتِ وجهاً مُقَطِّبَا
وَهيِّـئْ لـهُ فـي كُـلِّ قلـبٍ صبـابـةً وفـي كُـلِّ لُقْيَـا مَـرْحَبـاً ثُـمَّ مَـرْحَبَـا
وَيَـا رَبِّ إنَّ القَلْـبَ مِلْكُـكَ إنْ تَشَـأْ رَدَدْتَ مَحِيلَ القَلْبِ رَيَّانَ مُخْصِبَا[1]

* للهِ ما أحلىٰ الطُّفولةَ ، للهِ ما أعذبَها! إنّها حلُمُ الحياةِ ، وعهدُهَا من أجملِ الذّكرياتِ . فهي الصّفاءُ والوفاءُ ، وهيَ هيَ الحنانُ والتّحنانُ ، والحبُّ والنَّقاءُ ، وفيها وخلالها ينعمُ الإنسانُ بالحياةِ ، فلا تَنَاحُرَ ولا وعيد.

* وجمالُ الطّفولةِ يصْقلُ الفؤادَ ، ويجدّدُ القلبَ ، وضحكةُ الأطفالِ تزيدُ قلوبَ الكبارِ قرباً منَ الصِّغارِ ، فضمائرُ الأطفالِ مثلُ الأشعةِ تكشفُ الحجبَ ، وألسنتُهم لا تعرفُ الإثم ، ومنْ عيونِ الأطفالِ يشربُ الشُّعراءُ صفوَ الحنان . وها نحنُ أولاء نقرأُ ما جادتْ به قريحةُ أحدهم إذ نظمَ هذه الهمسَات:

أحببتُهـم وأزيـدهـم حبـاً صقـل الفـؤادَ وجَـدّد القلبَـا
مـاكـان أجمـل أن أضـاحكهـم ضحكـاً يـزيـدُ قلـوبنـا قُـربـا
كـالـزّهـر نُظِّـمَ فـي حـدائقـهِ كـالطّيـرِ تشـربُ صـوتـه عَـذبـا
تجلـو وجـوههـمُ ضمـائـرَهـم مثـل الأشعـة تكشـفُ الحجبـا
عَـف نفـوسُهُـمُ كـأنهـمْ لا يعـرفـون الإثـمَ والعيبـا
مـا إنْ تثيـر إذا زجـرتَهُـمُ حقـداً ولا تخشـى لهـم عُقبـى
قـد كنـتُ أشـربُ مـن عيـونهُـمُ صفـوَ الحنـان ألَـذُّه شـربـا

---

(١) ديوان بدوي الجبل (ص ١٥٨ ـ ١٦٣) بانتقاء والقصيدة تزيد عن مئة بيت.

ويشيعُ في نفسي ابتسامهم رُوحاً يجدّ لروحيَ الخصبا[1]

* والطّفولةُ عند «الشّابّي» حُلُمٌ، وعَهْدٌ معسولُ الرّؤىٰ، والطُّفولةُ تحملُ كلَّ معاني الجمالِ، فهي الأنداءُ والحبُّ، وكلُّ ما في الحياةِ من أَحلامٍ، ترىٰ ماذا خبَّأ الشَّابّي للطُّفولةِ؟!

للهِ ماأحلى الطّفولة! إنّها حلمُ الحياة
عهدٌ كمعسولِ الرُّؤى ما بين أجنحةِ السّبات.
ترنو إلى الدّنيا، ومافيها بعين باسمهْ
وتسير في عَدَوَاتِ واديها بنفس حالمهْ...

* * *

إنَّ الطّفولةَ حقبةٌ شعريّةٌ بشعورها
ودموعُها، وسرورُها، وطموحُها، وغرورُها
لم تمشِ في دنيا الكآبةِ، والتّعاسة، والعذابْ
فترى على أضوائها ما في الحقيقة من كِذابْ[2]

* ومع هذهِ الصّورةِ الجميلةِ الصّامتةِ النّاطقةِ التي تحكي وترسم الطّفلَ وأمَّهُ والمشاعرَ الأبويّةَ تجاه الطّفولةِ؛ يقول خليل مردم:

هَشّ لمّا حملتْه أمُّهُ ودنا منْ وجهِها بالرَّاحتَيْنْ
جازَ مابينَهما شوقُهُما قبلةٌ تجزيه عنها قُبلتين
مَنْ رأى عيسى يناجي مَرْيَماً أو رأى الزّهرا يناجيها الحُسَيْن
لجَّ بي فرطُ حناني فأنا مِنْ بكاءٍ وابتسامٍ بَيْنَ بَيْنْ
بسمةٌ حيرى أطافَتْ بفمي حينَ حارَتْ دمعتي بالمقْلَتين

* وللطّفولةِ الحالمةِ همسَاتُ حبٍّ في نَفْسِ «عمر بهاءِ الدِّينِ الأميري» وقد شَدا الأميريُ كثيراً للأطفالِ والطّفولة، ونظمَ لهم ما يحلُو منَ الكلماتِ، وما يجلو من ظُلَماتِ المَللِ، فالأبوّةُ والطُّفولةُ عندهُ شيئانِ متلازمانِ، غير أنَّ

---

(١) مجلة أبولو (٢/ ٥٦١) سنة (١٩٣٤ م).
(٢) موسوعة الشابي (١/ ٧٧) بتصرف وانتقاء.

الأطفالَ قد أثّروا به تأثيراً كبيراً ، وأثْروا عاطفتَهُ ، وشاعريّتَهُ ، وخُصوصاً إذا خلا البيتُ منهم.

* وقد رسمَ الأميريُّ بالكلماتِ الهامسةِ الموحيةِ قصيدةً جميلةً ، صاغَها عندما ابتعدَ عنه أطفالُهُ ، كان ذلك يوم أنْ كان يصْطافُ مع أهلهِ في أحدِ المصايفِ اللبنانيةِ «قُرْنَايل» ولما اقتربَ موعدُ افتتاحِ المدارسِ ، تركتِ الأسرةُ المصيفَ ، وعادتْ إلى حلبَ. وبقي الأميريُّ بعدها أياماً أُخر وحيداً ينظرُ إلى آثارِهم، وعزَّ عليهِ فراقُهم، وراحَ يتلمسُ كلَّ أثرٍ منهم بكلِّ جوارحهِ ، فانبجستْ شاعريتُه عن هذهِ البائيةِ المطربةِ المعبرةِ الصّادقةِ فقال مُتَسائلاً في أبوةٍ عفويةٍ:

أيـنَ الضَّجيـجُ العَـذْبُ والشَّغَـبُ ... أيـنَ التّـدارُسُ شَـابَـهُ اللّعِـبُ
أيـنَ الطُّفُـولـةُ فـي تَـوقُّـدِهـا ... أيـنَ الـدُّمـىٰ فـي الأرضِ والكُتُـبُ
أيـنَ التَّشَـاكُـسُ دونمـا غَـرض ... أيـنَ التَّشَـاكـي مـا لَـهُ سَبَـبُ
أيـنَ التَّبـاكـي والتَّضـاحُـك فـي ... وقْـتٍ معـاً والحـزنُ والطَّـرَبُ
وهتـافُهـم بـابـا إذا ابتعـدوا ... ونَجِيُّهـم بـابـا إذا اقتَـربُـوا
بـالأمـسِ كـانُـوا مـلءَ منـزِلنـا ... واليـومَ ويـحَ اليـومِ قـد ذهبـوا
ذهبـوا أجَـلْ ذهبـوا ومسْكَنُهُـم ... فـي القلْـبِ مـا شطّـوا ومـا قـربُـوا
فـي كـلِّ ركْـنٍ منهـمُ أثَـرٌ ... وبكـل زاويـةٍ لهـمْ صَخَـبُ
فـي النّـافـذاتِ زجـاجُهـا حَطَمُـوا ... فـي الحَـائِـطِ المـدهُـون قـد ثَقَبـوا
فـي البـابِ قـد كَسَـروا مـزَالِجَـه ... وعليـهِ قـد رسَمُـوا وقـد كتَبُـوا
إنّـي أراهُـم حيثمـا اتَّجهـتْ ... عينـي كـأَسْـرابِ القَطَـا سـربُـوا
بـالأمـس فـي «قُـرنَـايـلٍ» نـزلُـوا ... واليـومَ قـد ضَمَّتْهـمُ حَلَـبُ
دمعـي الـذي كَتمْتُـه جَلـداً ... لمّـا تبـاكُـوا عنـدمـا ركبُـوا
حتّـى إذا سـاروا وقـد نـزعُـوا ... مـنْ أضلُعـي قَلبـاً بهـم يَجِـبُ
ألفَيتنـي كـالطّفْـلِ عـاطفـةً ... فـإذا بـهِ كـالغيـثِ ينْسَكِـبُ
قـد يعجـبُ العُـذّالُ مـن رجـلٍ ... يبكـي ولـو لـمْ أبْـكِ فـالعَجَـبُ

هيهـــاتَ مـــا كـــلُّ البُكـــا خَـــوَرٌ إنّـــي وبـــي عـــزمُ الـــرِّجـــالِ أَبُ(١)

* والطُّفولةُ كلمةٌ عذبةٌ مع الأبوةِ الحانيةِ ، وهاتان الكلمتانِ هما جوهرةٌ غاليةٌ عند الشَّاعر «سليم الرَّافعي» ، فكلمةُ الأبوَّة في شِعرِهِ همسٌ دافئ ، ونَغَمٌ ساحرٌ ، وحُداءٌ مطربٌ ، يجوسُ بها الآفاقَ والحقولَ والغاباتِ ، وهي كذلك شُعَاعُ أملٍ ، وشمسُ حبيبٍ ومنزلُ أليفٍ ، ومن خلالِ ذلك كلّهِ يرىٰ أولادَهُ إذ هم حركاتهُ وسكناتهُ ، وأبوّتهُ ليس لها حدودُ ، فهو أبٌ لولدَيهِ: حاتمٍ وماجدةٍ ، وهو أجيرٌ لهما ، وأحياناً يكونُ معلّماً ، أو يكونان مُعلّمَيْن له ، وتعالوا نسمعْ نجواهُ في هذهِ المُناجاةِ الجميلةِ لولدَيْهِ:

بحَـــاتـــمٍ ومَـــاجـــده حَسبـــتُ نفســـي خـــالـــدَهْ
هُمـــا (سليـــمٌ) لـــمْ يـــزلْ فـــي واحـــدٍ أو واحِـــده
هُمـــا يَـــدايَ . . وفَمـــي إنْ نطقَـــا بِشَـــارده
وحـــركَـــاتـــي فيهمـــا وسكَنَـــاتـــي شاهـــده مُعَاهـــده(٢)

* ومن مُلتقطِ الدُّرِّ النَّفيسِ في مجالِ البنوّةِ هذهِ الميميّةُ النّادرةُ ؛ إذْ إنَّ أشرفَ ما اجتمعَ فيها جلالُ التَّصُّورِ ، وجمالُ الأسلوبِ ، إلى رقّةِ الشُّعورِ الأبويّ ، ورشاقةِ اللفظِ ، وهي للشَّاعر أحمد شَوقي إذ نظَمَها في أولادهِ الثّلاثةِ: أمينةَ ، وعليٍّ ، وحُسينٍ ، وهي قصيدةٌ جديدةٌ ممّا أوحاهُ إليهِ شَرفُ

---

(١) انظر: مجلة المنهل (ص ١٣٠ و١٣١) العدد (٤٥٢) شهر رجب عام (١٤٠٧ هـ) آذار ١٩٨٧ م. أقول: «على الرغم من كثرة حروف: الضّاد ، والجيم ، والشّين ، والصّاد في هذه القصيدة وهي حروف قاسية ، إلاّ أنّها جميلة ، وقد أخذتْ مساحةً معتبرةً بين قصائدِ الطّفولةِ في وقتنا المعاصر ، ووضعَتْ للحفظ في بعض المناهج المدرسية. وعلى الرغم من سلاسَةِ هذه القصيدة إلا أنّ هناك بعض الكلمات الموحشة من مثل: «التشاكس ، التشاكي ، الضَّجيج ، الشَّغب ، مزالجه. . . . . » ويُلاحِظُ الأديبُ الحصيفُ ، والمتذوّق للأدب أنَّ مثل هذا الكلمات غير مطلوبة وغير انسابية في الشِّعر ، إلا أنَّ المرحوم الأميري قد ساقها في نظمٍ مُسْتَساغٍ إلى حدٍّ ما ، وقد ضاعت وحشتُها وقرقعتُها بين كلماتِ القصيدةِ وقوافيها. والله الموفّق للصَّواب.

(٢) في غربة الشمس (ص ١٤٧) لسليم الرّافعي بتصرّف ـ دار النّدوة الجديدة ـ بيروت ـ لبنان ط١ ـ ١٩٩٢ م.

حُبِّ الآباءِ للأبناءِ؛ وعطفُ الشُّعراءِ على عَصَافيرِ القُلُوبِ وحبّاتِها . وما أجملَ أنْ نُمتعَ الأسماعَ بهذهِ الشّوقيّةِ المتناغمةِ النَّادرةِ:

يقُولُونَ لِمْ تطْرِي عليّاً وأُخْتَهُ	وتَنْسَىٰ حُسيناً والحُسينُ كَرِيمُ
فقُلْتُ فُؤادِي للثَّلاثَةِ منزِلٌ	هُما طُنُبَاهُ والحُسَيْنُ صَمِيمُ
ثلاثةُ أسْبَابٍ لأُنْسِي وَلَذَّتي	يبارِكُ فيها مَا نِجِي ويُدِيمُ
إذَا مَا بَدا لي أنْ أفاضِلَ بينهم	أبىٰ ليَ قلْبٌ عَادلٌ ورحيمُ
أحبُّ صغَارَ العالَمين لأجلِهم	ويعطفُ قلبي ذو أبٍ ويتيمُ
أَمِيْنَتِيَ الدُّنيا إذا هيَ أقبلَتْ	علىٰ العيشِ منها نضرةٌ ونَعيمُ
ذكاءٌ تمنّاهُ الفَتَى حليةٌ لَهُ	وَوَجْهٌ يَسُرُّ النَّاظرينَ وسيمُ
فأمّا عليٌّ فالمسيحُ حداثةً	وقُورٌ إذا طاشَ الصِّغَارُ حَليمُ
وقَبْلَ حُسين ما تكَلَّم مرضعٌ	ولا نالَ علياءَ البَيَانِ فطيمُ
إذا راحَ يَهْذِي بالحديثِ فَشَاعرٌ	فإنْ جَدَّ فيما قالَهُ فَحكِيمُ
عُصَيْفِيرُ رَوضٍ رَبِّ صُنْهُ وأبْقِهِ	فأنتَ بقلبٍ قدْ خَلَقْتَ عليمُ(١)

* ولأحمد شوقي منظوماتٌ كثيرةٌ في أولادهِ، وردَتْ في ديوانهِ «الشَّوقيات»، وهي مشهورةٌ مُتَعَالَمَةٌ بين النَّاسِ ولكنَّا ذكَرنا في هذا المقامِ ما قدْ يَسْتعصي على القُراءِ أحياناً وذلك ابتغاءَ الفائدةِ السَّريعة والمرجوّة.

* * *

(١) انظر: الشوقيات المجهولة آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها (٢/ ١١١) بقلم الدكتور محمد صبري. مطبعة دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٢ م. وهذه القصيدة نشرت في المجلة المصرية في ٣١ يناير ـ كانون الثّاني ـ سنة ١٩٠٩ م.

الفصلُ السَّابعُ
الأطفالُ في أدبِ الوالدَيْن

* يحفلُ أدبُنا العربيُّ بجميلِ الصُّورِ الطُّفوليَّةِ في نفثَاتِ الآباءِ الشُّعراءِ أو الأدباءِ ، فالأطفالُ مُنى روحِ الآباءِ ، وأملُ دنياهم ، من خلالِهم يَرَوْنَ البقاءَ ، ومن براءتهم يتذوّقون الهناء.

* فقد رسمَ الآباءُ صُوراً نفيسةً لأطفالِهم منها الوفاءُ ، والشَّجاعةُ ، والشَّهامةُ ، والمروءةُ ، وهذهِ الصّورُ تعكسُ الأواصرَ والعاداتِ والقيمَ التي كانتْ موجودةً عند العربِ.

* لقد بالغَ الآباءُ (Fathers) في حبِّ أبنائِهم ، فأحاطوهم بالرِّعايةِ ، وحرسُوهم بالعنايةِ ، وتمنّوا لهم كلَّ خيرٍ ، وكلّ صفةٍ حَسَنةٍ ، وهذا ما نجدُه عند عبد المطّلب عندما قال في ولدِه العبّاس:

ظَنِّـي بِعبّـاسٍ حَبيبـي إنْ كَبُـرْ ... يَمْنَـعُ القَـومَ إذا ضَـاعَ الـدُّبُـرْ
وينـزِعُ السَّجْـلَ إذا اليـومُ اقمطَـرْ ... ويكشفُ الكربَ إذا ما الخطْب هَرّ
أكمـلُ مـن عبـدِ كـلالٍ وحُجُـرْ ... لـو جُمِّعـا لـم يبلُغَـا منْه العُشُـرْ(١)

* فالأطفالُ لهم منزلةٌ رفيعةٌ عند الوالدَيْنِ وعند الآباءِ ، فهم زينةُ الحياةِ الدُّنيا (The allurement of the present life) ، وهم نعيمُ الأبوَيْن ، فإذا كانُوا من الصُّلحاءِ النُّجباءِ ، انتزعوا حبَّ آبائِهم من سُويداءِ قلوبهم.

---

(١) أبناء نجباء الأبناء (ص ٥١ و٥٢) ، ومعنى «السّجل»: الدلو الملأى ، و«هرّ»: وقع واشتد.

* فهذا الصَّحابيُ العالمُ الجليلُ «عبدُ الله بنُ عمر» ـ رضي الله عنهما ـ يفصحُ عن حُبِّهِ لطفْلِهِ سَالِمٍ فيقول:

يلومُونني في سَالمٍ وألومُهم ... وجلْدةُ بينَ العَيْنِ والأَنْفِ سَالِمُ

* وهذا أعرابيٌ يدعو الله عزَّ وجلَّ أنْ يحفظَ طفْلَهُ وأنْ يحرسَهُ من كلِّ سوءٍ، ويرعاهُ من كلّ مكروهٍ فيقول:

يا حبذا روحُهُ وملمسُهْ ... أملحُ شيءٍ ظلُّه وأكْيَسُهْ

اللهُ يرعاهُ لي وأحْرسُهْ

* وكان سيّدنا «الزُّبيرُ بنُ العوَّام» ـ رضي الله عنه ـ مُعْجباً بابنهِ عروةَ، فقد كان عروةُ طفْلاً صغيراً جميلَ الشَّكْلِ، أصيلاً نَسيباً حَسيباً، من نَسْلِ الخليفةِ الماجدِ الرَّاشدِ أبي بكر الصِّدّيق ـ رضي الله عنه ـ ولذا فكان يرقِّصُهُ ويقولُ:

أبيضُ منْ آلِ أبي عتيقِ ... مباركٌ من وَلَدِ الصِّدّيقِ

ألذُّهُ كما ألذُّ ريقي

* وأمَّا سيّدنا العبّاسُ بنُ عبدِ المطلب ـ رضي الله عنه ـ فكان يبثُّ طفْلَه العاشرَ حبَّه، ويتمنّى له ولإخوتِه الرفعةَ والمجدَ وحُسْنَ الأحدوثةِ، وأنْ يجعلَهم اللهُ عزَّ وجلَّ من الكرامِ البررَةِ، وأنْ يعلوَ صيتُهم بالخير، فيقولُ عن طفْلِه «تمّام»:

تَمُّوا بِتَمَّامٍ فَصَارُوا عَشَرهْ ... يا ربِّ فاجْعلْهُم كِراماً بَرَرهْ

واجْعَلْ لَهمْ ذكْراً ونمِّ الثَّمَرهْ[1]

* ويسْعَدُ العربيُّ حينما يخرجُ ابنُه شبيهاً بهِ، أو يشبه شريفاً من بني قومِه، فقد كان «سعيدُ بنُ صعصعةَ» يشيرُ إلى ابنهِ «ميمون» وينوّهُ بشبهه به وأنّهُ عرفَ اللهَ عزّ وجلَّ من خلالِ ذلك فيقولُ:

أحبُّ ميمونَ أشدَّ حُبِّ ... أعرفُ منه شَبَهي ولُبِّي

ولبُّهُ أَعْرفُ منّه ربّي[2]

---

(١) المنمق (ص ٤٣٧).

(٢) الطفولة في الشعر العربي الحديث (ص ٦٥) ومعنى «لبّه»: بلغ منتهى الإدراك، وعن طريقه عرفتُ الله عز وجل.

* وهذا بدويٌّ آخرُ يقولُ في طفْلِهِ «وهْبٍ» الذي يودُّ أن يكونَ شبْهَه في كلّ شيء:

يـا وهْـبُ أشْبِـهْ بـاطِلـي وَجِـدّي أَشْبَهْـتَ أَخْـلاقـي فـأَشْبِـه مَجْـدِي
وجُــودَ لــي عنــدَ الخُصــومِ اللُّــدِّ(١)

* وتتنوَّعُ العواطفُ المنبثقةُ من صدورِ الآباءِ وقلوبهم نحو أطفالهم ، فقد تمنَّوا لأطفالِهم المستقبلَ المونقَ الزَّاهرَ ، وتمنّوا لهم أنْ تكونَ نشأتُهم على الجود والإقدامِ والحلْمِ والكرمِ ، ومن هذا المبدأ نسمعُ صوتَ العاصِ بن وائلِ السَّهْميّ ينشدُ في ولدِهِ عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ هذه الأرجوزة فيقول:

ظَنّــي بعمــروٍ أنْ يفــوقَ حُلْمَــا وأنْ يســودَ جُمَحــاً وسَهْمَــا
ويَنْشُــقَ الخصْــمَ الألــدَّ رغْمَــا وأنْ يقــودَ الجيــشَ مَجْـراً دُهْمَـا
يلهَــمُ أحْشَــاءَ الأعــادِي لَهْمَــا(٢)

* وهذه نفحةٌ لطيفةٌ صدرتْ عن أعرابيٍ كان يرعى أحدَ أولادِ الخلفاءِ ، ورَجَا أن يكونَ هذا الابنُ صِنْوَ أبيهِ فقال:

إنَّــا لنَــرجُــوك لتَيكَــاتِيكَــا لهــا نــرجّيْــكَ ونجْتَبِيْكَــا
هــيَ التــي تــأمــلُ أنْ تــأتيكــا وأنْ يَــرَىٰ ذاكَ أبــوكَــا فِيْكَــا
كمــا رأى جــدُّكَ فــي أبيكَــا(٣)

---

(١) انظر: أمالي المرتضى (١/ ١٥٥).
(٢) أنباء نجباء الأبناء (ص ٧٦) ومعنى «جمح»: بطن من قريش ، و«سهم»: أحد أجداد عمرو بن العاص ، و«ينشُق»: ينشقه الدواء في أنفه ويصبه فيه ، و«الرغم»: الدالة ، و«المجر»: الكثير ، و«الدهم»: العدد الوافر ، و«يلهم»: يبتلع ، و«أحشاء»: حشود.
(٣) البيان والتبيين (٢/ ١٤٥). وذكر الرّاغب الأصفهاني في «محاضراته» نموجاً لشاعرٍ يصفُ وجوه أطفاله بأنّها كالأقمار جمالاً ، وهو يقول: إنه لولا هؤلاء الصّغار ، لم يغْشَ قصور الأمراء ، ولا أبواب الملوك ، ولكنَّ حاجته إلى المال لرعاية أطفاله ألجأتْهُ إلى مَدْحِ الملوك ، يقول هذا الأبُ الشّاعر:

واللهِ لــولا صِبْيــةٌ صغــارُ وجــوههــم كــأنّهــا أقمــارُ
لمَــا رآنــي مَلِــكٌ جبّــار ببــابــهِ مــا طلــعَ النّهــار

* وذكروا أنَّ الشّاعرَ الأمويَ جريرَ بن عطيّةَ الخطفيّ كان يحبُّ ابنه بلالاً وكان يناغيهِ بهذه الأبياتِ التي تحكي الأبوّةَ الصّادقةَ ، وتروي قصّةَ الحبِّ الأبويّ تجاهَ الأطفالِ الصِّغارِ ، حيث إنَّ جريراً يرى من خلالِ طفلِهِ بلالٍ كلَّ نعيمٍ وكلّ شفاءٍ وكلّ خيرٍ فيقول:

إنَّ بـــلالاً لـــم تَشِنْـــه أُمُّـــهْ   لـــم يتَنَـــاسَـــبْ خَـــالُـــهْ وعَمُّـــهْ
يَشْفِـــي الصُّـــدَاع ريحُـــهُ وشَمُّـــهُ   ويُـــذهِـــبُ الهُمُـــومَ عنّـــي ضَمُّـــهْ
كـــأنَّ ريـــحَ المِسْـــكِ مُسْتَحمُّـــهْ   مـــا ينْبَغِـــي للمُسْلِميـــنَ ذَمُّـــهْ
يُمضـــي الأمـــورَ وهـــو ســـامٍ همُّـــه   بحـــرُ البحـــورِ واســـعٌ مجمُّـــهْ
يُفـــرّجُ الأمْـــرَ ولا يغمُّـــه   فنفسُـــه نفسِـــي وسُمِّـــي سُمُّـــهْ

* وكان الحسَنُ البصريُّ التّابعيُ الثّقةُ الكبيرُ يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يحرسَ ابنهَ ويحميه ، فهو نعيمُ دنياهُ ، فيقول:

يـــا حبَّـــذَا روحُـــهُ ونفَسُـــهْ   وحبَّـــذا نسيمُـــهُ وملْمَسُـــهْ
اللهُ يبقيـــهِ لنَـــا ويحـــرسُـــه   حتّـــى يجـــرَّ ثـــوبَـــهُ ويَلْبَسُـــهْ

* إنَّ هذهِ الآثارَ كثيرةٌ وماتعةٌ في تاريخِ تراثِنا ، وقد حفلتْ كثيرٌ من المصَادرِ المتنوّعةِ بذكْرِها وذكْرِ ما حفلتْ به قرائحُ الآباءِ والأمّهاتِ وجَمْعٍ من الأدباءِ في هذا المجالِ.

* إنَّ مَنْ يتصفّح كتبَ المصادرِ القديمةِ وكتبَ المراجعِ الحديثةِ يجدْ أنّها مُلئتْ بكثيرٍ من الحبِّ المُفعمِ للأطفالِ ، وقد يصعُبُ عليه أحياناً أنْ يختارَ الأجودَ لأنَّ معظَمها ينبعُ من أعماقِ القُلوب ، ويتّسِمُ بصدْقِ العاطفةِ[١].

---

(١) منْ ذلكَ ما رَوَوْا أنَّ الحطيئةَ الشّاعرَ المخضرمَ المشهور الغليظ القلب أرادَ سفراً طويلاً ، فهيأ دابته ، وأخذ متاعه على راحلته ، وخرجت زوجته وبناته يودّعنه ، فقال مخاطباً مهدّداً إياها بطول الغياب:

عـــدّي السّنيـــن إذا رحلـــتُ لـــرحلتـــي   ودعـــي الشّهـــور فـــإنّهـــنَّ قِصَـــارُ

فأجابته زوجته في الحال بقولها:

اذكـــرْ تحنُّنَـــا إليـــك وشـــوقنـــا   واذكـــرْ بنـــاتِـــكَ إنهـــنّ صغـــارُ

فأخذَتْهُ العاطفةُ إلى بناتهِ وقال لمرافقيه: «حطّوا ـ أي أَنْزِلُوا أمتعتي من على الرّواحل ـ فو اللهِ=

* وإذا أردْنَا أنْ نسجِّلَ أدبيّاتِ الطُّفولة تحت ظلالِ الآباءِ من الأُدَباءِ شعراءَ وشاعراتٍ ، أو حتّى من الملوكِ العلَماء الأدباء ، فلا شكّ في أنّنا نحتاجُ إلى مجلّداتٍ وأسفارٍ كثيرة لنسُدَّ هذا الفراغَ الذي أعتقدُ أنّه لم يوفَّ حقَّه إلى الآن ـ في حدود اطّلاعاتي ـ.

* فالعربُ قديماً وخصوصاً في العُصورِ القديمةِ ـ الجاهليّة وعَصْر الإسلام والخلافة الرّاشدة ـ قد سجّلوا أنغاماً بديعةً في هذا المضْمَار العَذْبِ ، وقدّموا أهازيج ساحرةً سِحْرَ عيونِ الأطْفَالِ ، وتركوا لِمَنْ بعدهم تُراثاً أدبيّاً حافلاً بكلِّ جديد في ميدانِ عاطفة البُنوّةِ ، ورقّةِ التّعبيرِ وجمال الكلماتِ الصّادحاتِ على أيكِ الحنانِ وغصُونِ العطفِ وأوراقِ الحبِّ.

* وقد تَعْجَبُ ـ عزيزي القارىء ـ أنَّ العربَ ـ على اختلافِ مشاربهم وعاداتِهم وأوطانِهم ـ قد خلّفُوا أدباً مثمراً يناسبُ مداركَ الأطْفَالِ ، ويدخلُ إلى قلوبهم السّعادةَ والهناء ، ويرسمُ على وجوههم البِشْرَ والصَّفاء.

* لقد أدركَ العربُ القدماءُ بما جُبِلُوا عليهِ من فطرةٍ نقيَّةٍ صافيةٍ ما يُدخلُ على الأطفالِ البهجةَ والمسرّة ، فجادت أفئدتُهم بالحبِّ للأكباد التي تمشي على الأرضِ ، وجَرَتْ على ألسنَتِهم أعذَب همساتِ المُناغاةِ الموزونةِ في

= لا رحلتُ أبداً». والحطيئة نفْسُه قال لعمر بنِ الخطاب رضي الله عنه حين سجنه أبياتاً تسيلُ رقة وعذوبة في مجال حياته الأسرية :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مرخٍ ... زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيتَ كاسبهم في قعر مظلمةٍ ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

ومثلُ هذا ما جاء في «الكامل» عند «المبرد» قال : «كان أبو خالد القنانيُ من الخوارجِ ، وكان قطريُ بنُ الفجاءة دعاهُ إلى الخروجِ للقتال ، فقال :

لقد زادَ الحياة إليَّ حبّاً ... بناتي إنهنَّ من الضّعافِ
أحاذرُ أنْ يرينَ البؤسَ بعدي ... وأنْ يشربْنَ رنقاً بعد صَافِ
وأن يعرينَ إنْ كُسيَ الجواري ... فتنبو العينُ عن كَرَمٍ عجافِ
وأنْ يضطرهنّ الدهر بعدي ... إلى غُمْرٍ غليظ القلب جافِ
ولولا ذاك قد سوّمتُ مُهري ... وفي الرحمن للضعفاء كافِ
أبانا مَنْ لنا إنْ غبتَ عنّا ... وصارَ الحيُّ بعدَك في اختلافِ

أشعارٍ ذات نَغمٍ ساحرٍ مؤثِّرٍ في نفوسِ أطفالهم ونفوسِ النَّاس الذين أحبُّوا هذا النَّوعَ من الشِّعرِ ، فضمّنُوه مجالِسَهم الأدبيّةَ وجلسات السَّمر ، ومن ثمَّ جاءَ العُلماءُ والأدباءُ ، وعددٌ منَ المصنّفين فضمّنُوا كُتبَهم هذه التُّحفَ النَّادرةَ ، فكانتْ خيرَ مصدرٍ لِمَنْ أرادَ أن يستزيدَ في هذا المجالِ.

* وتظهرُ عواطفُ الأبوّةِ (Fatherhood) أو الأمومةِ (Motherhood) في أدبِ الشُّعراءِ في الأعْصُر الخوالي ، فإذا بالآباءِ يعبّرون عن الإحساسِ الذي يتنَامى داخلَ صدورهم . وإذا الأمّهاتُ صادحات بالعاطفةِ المتميزةِ الصّادقةِ وهُنَّ يتحدَّثْنَ عن أطفالهنَّ . وإذا بنا أمامَ لونٍ شعريّ رقيقٍ رائقٍ نابع من أضالُع القلُوبِ ، فهو يخرجُ مِن القلوب إلى القلوبِ ، وبالتَّالي يفترشُ مساحةً واسعةً في النُّفوس والضّمائر.

* إنَّ عاطفةَ الأبّوةِ أو الأمومةِ الصَّادقةِ تمدُّ الشَّاعرَ الأبَ بروافدَ غنيةٍ رائقةٍ ، وتجسُّ حواسَّه جَسّاً رقيقاً فإذا بها تندفعُ لتعطيَ أصدقَ العواطفِ وأصْفَاها وتجعلَ الشَّاعرَ يرسمُ إحساسَه بكلماتٍ محبّبةٍ إلى النُّفوسِ، مؤثّرةٍ في القُلوبِ ، ومِنْ ثمّ نرى أمامنا لوحاتٍ جميلةً تنطقُ جمالاً وتختالُ دلالاً ، حيث إنّها حقَّقَت المرادَ من صدقِ العاطفةِ التي يحملُها هؤلاءِ الأدباءُ الشّعراءُ بين جوانحهم[(١)].

* ومن الجدير بالذّكرِ أنَّ أدبَنا العربيَّ قديمه وحديثه يحملُ بين طيّاته كثيراً من صُورِ العواطفِ الأبويّةِ ، وكثيراً من صورِ عواطفِ الأمومةِ ، وقد رسمَ الآباءُ والأمهاتُ صُوراً خلّابةً في هذا المجال الرَّحْبِ الأنيقِ.

* ولما رأيتُ أنَّ آثارَ النِّساءِ كثيرةٌ في هذا المجال الجميلِ ، لذا فقد أحببتُ أنْ أوردَ لهنَّ صَفَحاتٍ توازي ما تركَه الرّجال من همساتٍ في ميدان الطُّفولةِ

---

(١) إنَّ أدبنا العربي القديمَ قد تضمَّنَ كثيراً من أدب الأطفالِ ، وخصوصاً فنَّ الشِّعرِ ، فقد روت لنا كتب التّراث كثيراً من المقطوعات التي تحدَّث أصحابها فيها عن تربيةِ الأطفالِ وشؤونهم ، كما ذكرت كتبُ التّراث كثيراً من الأرجاز النّسوية التي كانت النّسوة يتغنين بها لأطفالهنّ ، أو يرقصنَهم بها ، ونسبت كتبُ التراث ذلك في بعض الأحيان للرجال . ولم يكن الرجل العربيُّ القديم فظاً غليظ القلب ، بل كان يشارك زوجه في تربية أولاده وترقيصهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وهذا ما سنقرؤه في الصّفحات الآتية بإذن الله تعالى.

وما قيلَ للأطفال ، إذ إنَّ الخطرات النّسائيةَ لا تقلُّ جمالاً ورقّةً وسلاسةً عمّا صدرَ عن الرِّجال ، بل إنّ كثيراً من النِّساء تمخَّضَتْ تربيتهنّ عن رجالٍ قادُوا الأُمَم وساسُوا الرَّعيَّةَ ، ونجحوا وكانوا من ساداتِ المشاهيرِ في دنيا السَّادة .

* فمنَ الواضح أنَّ الأمّهات (Mothers) يتعاهَدْنَ أطفالهنَّ منذ طفولتهم ، فهنّ يسكبْنَ في أسماعِهم أعذبَ ألحانٍ[1] الأمومةِ الشَّجيّةِ ، وهنَّ يُحَمّلْنَ ألحانهنَّ وغناءهُنَّ الآمالَ الحلوةَ والأماني الخلاّبةَ في أنْ يكونَ أطفالهنّ كما يشتهيْنَ مجداً ، وكرماً وسؤدداً ، وبطولةً ، وعراقةَ مجدٍ ، وشجاعةً؛ وكُنَّ يرقِّصْنَ أطفالهنَّ ويغنِّيْنَ لهم .

* إنَّ ترقيصَ الأطفال بالغناءِ والكلامِ الموزونِ الخفيفِ هو طبيعةٌ موجودةٌ في الإنسانِ على وْجهِ هذه الأرضِ ، وأدبُنا العربيُّ حافِلٌ بهذا النَّوعِ من الغناءِ للأطفالِ ، وقد صنَّفَ الأديبُ اللغويُ ، «محمّدُ بنُ المعلّى الأزديّ» كتاباً عن التَّرقيص ذكر فيه ما شدا به العربُ لأطفالهم في هذا المضمارِ .

* وإذا كانَ الآباء يرقّصونَ أطفالَهم بين الحينِ والآخر ، فإنَّ الأمَّهاتِ أكثرُ مزاولةً لهذا الفَنِّ ، بل هُنَّ أكثرُ خبرةً من جماعةِ الرِّجالِ ، فهنَّ أندى صَوتاً وأرقُّ عاطفةً من الرِّجالِ ، وهنَّ أكثرُ صبراً على مداعبةِ أطفالهنَّ ، وفَهْمِ أحوالِهم ، وما يريدون من هَدْهَدةٍ وتهدئةٍ ، ومناغاةٍ ومناجاةٍ .

* وكانت الأمّهاتُ العربيّاتُ قديماً يقضيْنَ وقْتَ فراغهنّ مع أطفالهنّ الرُّضَعاءِ والصّغارِ ، فكُنَّ يغنِّيْنَ لهم ، ويُرَقّصْنَهم ومن ثمَّ يهدهدنَهم في وقتِ

---

(١) لا ريب في أنَّ الإيقاعَ الجميلَ وموسيقى الشِّعْر العذبة لها كبيرُ الأثر في نفوس الأطفال ، كما أنَّ الشاعرَ المبدعَ هو الذي يستطيع أنْ يؤثّر بنفوسِ سامعيه من خلال أنغامِهِ الموسيقية ، ويتفاوتُ الشّعراء في أنغامهم الموسيقية ، ويتفاوتُ أسلوبهم بحسب هذا التّفاوت ، فمنهم مَنْ ينضحُ شعره بالحلاوة الموسيقية ، ومنهم من يتميز بالإثارة والانفعال ، ومنهم مَنْ تتّسم موسيقاه بالقعقعةِ والرّنين ومنهم مَنْ لا تشعرُ في شِعرِهِ بأيةِ هزّةٍ ، وإنْ صاغَ شعْرهُ ونظَمَهُ نظماً صحيحاً. فالموسيقى والأنغام ذات أهمية في تفاعل الأطفالِ مع الكلمةِ الجميلة ، وانسجامهم مع قائلها ، كما أنَّ الموسيقى تضفي جمالاً على الشّعر ، إذ إنَّ الموسيقى جندي من جنود التعبير الشِّعري ، والموسيقى الحقّة ها هنا هي موسيقى العواطف والخواطر .

نومهم، أو حتّى في حينِ يقظتِهم، ويتصوّرْن أطفالَهُنَّ شبابَ المستقبلِ ورجالَه، فهم يخفّفون عنهنَّ شيئاً من أعباءِ الحياةِ، ويملؤون عليهنَّ البيوتَ، ويرفعون رؤوسهنَّ، فكُنّ يحدثْنَهم ويغنينَ لهم وكأنّهم يفهمونَ ما يقلْنَ، فيبدو عليهم السُّرور من خلالِ أصواتِ أمهاتِهم العذبة المنبعثة من ينابيعِ الحنانِ وحنايا القُلوب.

* ذكر «ابنُ عبد ربّه» في «عقْدِهِ» أنَّ أهلَ صناعةِ الطِّبّ زعَمُوا بأنَّ الصَّوتَ الحسنَ له فوائدُ للأطفالِ فقال: «وزعمَ أهلُ الطّبّ أنَّ الصَّوتَ الحسنَ يَسْري في الجسم، ويجري في العروقِ، فَيَصْفُو له الدّمُ، ويرتاحُ له القلبُ، وتهشُّ له النَّفسُ، وتهتزَّ الجوارحُ، وتخفُّ الحركاتُ، ومن ذلك كرهوا للطفلِ أن يُنَوَّمَ على أثرِ البَكاءِ حتّى يُرقَّصَ ويُطْربَ»[1].

* ولا ينسى ابنُ عبد ربّه أنْ يسوقَ أقوالَ الفلاسفةِ في هذا المضمار فيقول: «وزعمتِ الفلاسفةُ أنَّ النَّغَم فَضْلٌ بقيَ منَ المنطقِ، لم يقدرِ اللسانُ على استخراجه، فاستخرجَتْهُ الطبيعةُ بالألحانِ على التّرجيعِ لا على التَّقطيع، فلما ظَهَرَ عَشِقَتْه النَّفْسُ، وحَنّ إليه الرّوح؛ ولذلك قالَ أفلاطون: لا ينبغي أنْ تُمنعَ النّفسُ من معاشَقةِ بعضِها بعضاً؛ ألا ترى أنَّ أهلَ الصّناعاتِ كلّها إذا خافُوا الملالةَ والفُتُورَ على أبدانِهم ترنّموا بالألحانِ، فاستراحَتْ لها أنفسُهم، وليسَ مَنْ أحدٍ كائناً مَنْ كان إلاّ وهو يَطْرَبُ من صوتِ نفْسِهِ، ويعجبُه طنينُ رأْسه، ولو لم يكنْ من فَضْلِ الصَّوتِ إلاَّ أنَّه ليس في الأرضِ لَذّة تُكْتَسَبُ من مأكلٍ أو ملبس أو مشْرب... إلاّ وفيها معاناةٌ على البدن، وتعبٌ على الجوارحِ، ما خلا السَّماع، فإنَّه لا معاناةَ فيه على البَدنِ، ولا تعبَ على الجوارحِ، وقد يُتوصَّلُ بالألحانِ الحِسَانِ إلى خير الدّنيا والآخرةِ، فمن ذلك أنَّها تبعثُ على مكارمِ الأخلاقِ من اصطناعِ المعروفِ، وصِلَةِ الأرحامِ، والذَّبّ عن الأعراض، والتّجاوزِ عن الذُّنوب، وقد يبكي الرّجلُ بها على خطيئتهِ، ويرقّ القلب من قسوته، ويتذكّرُ نعيمَ الملكوتِ، ويُمثّلَهُ في ضميره»[2].

---

(١) العقد الفريد (٦/ ٤).

(٢) المصدر السابق نَفْسُه (٦/ ٤ و٥) باختصار يسير جداً.

* فالأمّهاتُ يناغينَ أطفالهنَّ بالهدهدةِ والتّرقيصِ ليناموا ويسكتوا.

* وقد يسأل سائل: «هَلْ يفهمُ الأطفالُ الصِّغارُ معانيَ التّرقيصِ وكلماتِ الغناءِ وهمساتِ المداعبةِ التي ترقّصُهم بها أمّهاتهم؟! وإذا كانوا لا يفهمون ذلك فَلِمَ تفعلُ الأمّهاتُ ذلك؟!».

* والإجابةُ عن هذا السّؤالِ ليستْ قطعيّةً أو جازمةً؛ فلا يقدرُ إنسانٌ أنْ يقولَ: «إنّ الأطفالَ الصِّغارَ يفهمون هذهِ المعاني ، ولكنَّهم يتأثّرونَ بها وبأنفاسِ غنائِها العذبِ الذي ينبعثُ من أفواه أمّهاتهم وفي كثيرٍ من الأحيانِ يعتادُ الأطفال هذا الغناء الهادف المُوحي ، فيفهمونَه ويتفاعَلون معه ، ويستجيبون لمناغاةِ أمهاتِهم»..

* فهذه ضُباعةُ الصَّحابيةُ ، وهي ضباعةُ بنتُ عامر بنِ قرط بنِ سلمةَ بن قُشير بن صعصعةَ ، وهي شاعرةٌ من شواعرِ العربِ ، أسلمتْ بمكّةَ وحَسُنَ إسلامُها ، ونُظِمَتْ في عدادِ الصَّحابيّات؛ كانت ضباعةُ ترقّصُ ابنَها وتصِفُهُ بأعظمِ الوصْفِ ، فهي تفخرُ بآبائهِ ، وتشيدُ بسيادتهم وكرمهم وعزّهم ، وهي تأمُلُ أَنْ يكونَ طفلُها من هذه الدّوحةِ ، وأن يكون سيّداً من آلِ مخزومِ الأعلام فتقولُ:

نمـى بِـهِ إلـى الـذُّرا هِشَـامُ ... قِـرْمٌ وآبَـاءٌ لَـهُ كِـرَامُ
جَحـاجِـحٌ خضَـارِمٌ عِظَـامُ ... مِـنْ آلِ مَخْـزومٍ هُـمُ الأعـلامُ
الهَـامَـةُ العُلْيـاءُ والسّنَـامُ[1]

* وضباعةُ نفسُها تقولُ عن ابنها «سلمة» عندما هاجرَ إلى النّبيِّ ﷺ؛ وتذكرُ خلالَ شِعْرِها كرمَهُ وجودَهُ وشجاعتَه ، وتسألُ اللهَ أنْ ينصرَهُ:

اللهـمَّ ربَّ الكعْبَـةِ المُحـرَّمـة ... انْصُـرْ علـى كـلّ عـدوٍ سَلَمَـه

---

(١) انظر ترجمة ضباعة في كُتب الطّبقات مثل: طبقات ابن سَعد ، والاستيعاب ، وأسُد الغابة ، والإصابة ، وانظر كذلك ترجمتها في الوافي بالوفيات (١٦/٢٠١ و٢٠٢) ترجمة رقم (٥٦١٣) دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠م؛ ومعنى «جحاجح»: سادة مسارعون إلى المكارم. و«خضارم»: كرماء سادة ، و«قرم»: سيد.

لـه يَـدَان فـي الأمـورِ المُبهَمـة　　كـفٌّ بِهـا يُعْطـي وكـفٌّ مُنْعِمَـه
أجـرأُ مـن ضـرغَـامـةٍ فـي أجَمَـه　　يحمي غداةَ الرَّوع عنْدَ المْلحَمه
بِسَيْـفِ عـورة مـربِّ المَسْلَمَـه[1]

* وهذه عقيلةُ قريشٍ السَّيِّدةُ الصَّحابيةُ الكريمةُ المنجبةُ هندُ بنتُ عتبةَ أمُّ معاويةَ بن أبي سفيانَ ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ تحنو على ابنِها المُعْرِقِ الكريمِ الحليمِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ أمير المؤمنين وملكِ الإسلامِ ، فكانت تقول :

إنَّ بُنَـيَّ مُعْـرِقٌ كَـريـمْ　　محبـبٌ فـي أهلـه كـريـم
ليـسَ بفحّـاشٍ ولا لَئيـمْ　　ولا بِطُخْـرورٍ ولا سَئيـمْ
صَخْـرُ بنـي فِهْـر بـه زَعيـم　　لا يخلـفُ الظَّـنَ ولا يَخِيـمْ[2]

* وقالت هندُ أيضاً تزفّنُ ابنهَا عتبةَ وترقّصُهُ:

إنَّ بُنَـيّ مِـنْ رجـالِ الحمْـس　　كـريـمُ أصـلٍ وكـريـمُ النَّفـس
ليـسَ بِـوَجَّـابِ الفُـؤادِ نكْـس　　عُتبـةَ بَـدْر وأبـوهُ شَمْـس[3]

* وعندما يكبرُ الأطفالُ على هذه التَّربية الفريدةِ ، يتأثَّرون بالصُّورِ التي رسمتْها الأمّهاتُ في ترقيصهنَّ لهم ، وبالتَّالي يصبحون أسيادَ المجتمعِ وآسَادَهُ ، وهذا المعنى قد حقّقه الشّاعرُ الجاهليُّ بقوله :

ولَيْـسَ يهْلِـكُ مِنّـا سيّـدٌ أَبـداً　　إلاَّ افتَلينـا غُـلامـاً سيّـداً فِينَـا

* وعواطفَ الأمومةِ تنبجسُ من الحبِّ المتأصّلِ بجذورهِ في أعماقِ القلوبِ ، فأشعارُ الطُّفولةِ تقومُ على عاطفةٍ ملتهبةٍ متقدّمةٍ من الأمّهاتِ نحو أطفالهنَّ ، إذ هم أملُ العيونِ وعيونُ الأمل ، وقلبُ الحبّ ، وحبُّ القلب ، وهم همو بسمةُ العمرِ وضمانةُ الدَّهرِ ، وأعزُّ مِنَ المالِ والتّلادِ.

* ذكرَ الأصمعيّ أنَّ أعرابيةً[4] لم ترزَقْ ولداً ، وظلّتْ حيناً من الدهر ترثي

---

(١) انظر : أعلام النساء (٢/ ٣٥٥).

(٢) انظر: الأمالي (٢/ ١١٦) ، والمنمق لابن حبيب (ص ٤٣٣) ، ومعنى «مُعرق»: عريق النّسب و«فحّاش»: قبيح القول ، و«طخرور»: غير صابر ولا جَلْد ، و«يخيم»: يجبَن.

(٣) انظر : المنمق لابن حبيب (ص ٤٣٤).

(٤) ورد في العقد (٢/ ٤٣٩) أنه أعرابي بدلاً من أعرابية.

حالَها ، وتندبُ حظّها ، إلى أنْ مَنَّ اللهُ عليها ورزقَها بغلامٍ ، فتبدّلَ بؤسُها فرحاً ، وامتلأ قلبُها به سروراً.

* يقول الأصمعيُّ: «رأيتُها ترقّصُ ابنَها وتقولُ في عاطفةِ أمومةٍ صادقةٍ:

أحبُّه حبَّ الشَّحيحِ مَالَهُ ... قَدْ كانَ ذاقَ الفَقْرَ ثمَّ نالَهُ

إذا أرادَ بَذْلَه بَدَا لَهُ[1]»

* وهذا سيّدنا الزّبيرُ بنُ العوّام ، فارسُ الإسلامِ ، وأحدُ العشرةِ العظامِ ، المقطوعِ لهم بالجنّةِ دارِ السّلامِ رضي الله عنه وأرضاه ، تربّى في حجرِ سيّدتنا أمّه صفيّةَ بنتِ عبد المطلب عمّةِ حبيبنا وسيّدنا رسولِ الله ﷺ ، فخرجَ شجاعاً مقداماً ، وكانت أمّه السيّدةُ صفية تضربهُ حتى يدبّ ، وقيل لها: لقد أهلكْتِ هذا الغلام من كثرةِ ضربكِ له! فتقول: «وإنّما أضربُه لكي يدبّ ، ويجرّ الجيش ذا الجلب»[2].

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ السيّدة صفية قد عُوتبتْ على ضرب الزُّبيرِ وهو لا يزالُ طفلاً ، فقالت تردُّ على العاتبِ ، وتذكّره بأنّها تحبُّ الزّبيرَ ولا تكرهُهُ ، وإنّما ترجو من ضَرْبِه وتأديبه أنْ يصبحَ فارساً لبيباً صافياً وأنشأَتْ تقول:

مَنْ قالَ لي أبغضُه فقدَ كذَبْ ... وإنَّما أضربُه لكَي يَلَبّ

ويَهْزِمُ الجيشَ ويأتي بالسَّلَب ... ولا يكُنْ لمالِهِ خبّاً مِخَبّ

يأكُلُ ما في البَيتِ من تَمْرٍ وحَبّ[3]

* وكسَرَ الزُّبيرُ يدَ غلامٍ ذاتَ يومٍ ، وهو لا يزالُ طفْلاً ، فجيءَ بالغُلامِ إلى سيّدتنا صفيةَ رضي الله عنها ، فقيل لها ذلك ، فقالت تخاطبُ الغُلام:

---

(١) العقد الفريد (٣/ ٤٧٢) ، ومعنى «ناله»: نال المال ، و«بدا له»: ظهر الفقر أمامه.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٠١) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥) ، مع الجمع والتصرف اليسير.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥) ، والإصابة (٤/ ٧ و٨) مع الجمع والتصرف ، ومعنى «يلب»: يصبح لبيباً. و«الخب»: الماكر الغشاش.

كيـــفَ وجَـــدْتَ وبـــرْاً   أَأَقِطـــــاً أَمْ تَمْــــــرا
أمْ مُشْمَعِـــــــلاً صَقْـــــــراً[1]

* وإذا أردْنا أنْ نستثيرَ ينْبوعَ الودّ ، وغديرَ الحنانِ ، وصدقَ العاطفةِ المنبثقةِ من حنانِ الأمومةِ ، فلنستمعْ إلى هذه الأهزوجةِ التي تضوعُ بشذا حبِّ الطُّفولةِ من أعرابيةٍ تبثُّ طفلَها الحبَّ ، وتهديهِ القَلْبَ ، وتشفقُ عليهِ وتفديهِ ، وتضحّي من أجله ، إنّه الولدُ فلذةُ الكبدِ:

يَـــا حَبَّـــذا ريـــحُ الـــوَلَـــدْ   ريـــحُ الخُـــزَامـــى فـــي البَلَـــدْ
أهكَـــــذا كُـــــلُّ وَلَـــــد   أمْ لـــمْ يلـــدْ مثْلـــي أحَـــدْ؟

* وهذه التّرنيماتُ الغنائيةُ الجميلة تعكسُ ما تكنُّه قلوبُ الأمَّهاتِ لأطفالهنَّ ، وهم على فُرشِ المِهَادِ ، صغار السّنّ ، يحلمون بالصّفاءِ والنّقاءِ بينما تشعرُ أمهاتُهم إزاءهم بكلّ فرحٍ وغبطةٍ ، ويحملْنَ أطفالهنَّ من مهادِهم ويشمّونهم ويضمّونهم إلى صدورهنّ وهُنَّ يغنِّينهم ما تجودُ به قَرائحهُنَّ من عذْبِ الشِّعر ونضر النَّغمات ، وهنَّ مستعذباتٌ بهم الحياة وواجدات شيئاً من ريحِ الجنَّة من خلال أطفالهنَّ ، وقد دفعتهنَّ الغزيرةُ إلى ذلك ، إنّها الأمومةُ وحدَها ، وإنّها مياسمُ الحبّ ، وإنّها ـ أوّلا وآخراً ـ قدرةُ اللهِ ومشيئتُه في الأنثى التي تتحمّلُ كلَّ هذا في سبيلِ سعادةِ أطفالِها.

* وإذا انتقلنا إلى أجواءِ أمّهاتِ الصّحابةِ الأكابر ، لرأينا العجبَ العُجابَ في هذا المضمارِ ، ولرأينا عاطفةَ الأمومةِ مرسومةً على قلوبهنّ الكبيرةِ ، فهذه السَّيِّدة الكريمةُ أمُّ الخيرِ سلمى بنتُ صَخْر ـ رضي الله عنها ـ كان تغنّي لابنها أبي بكر رضي الله عنه وتقول:

يـــا بـــأَبـــي يَـــا بِـــأَبـــي   كـــأنَّـــه فـــي العِـــزّ قيْـــسُ بـــنُ عـــدي
فـــي دَارِ قَيْـــسٍ يَنْتَـــدي أهـــلُ النَّـــدي[2]

* وكانتَ أمُّ الصَّحابي الجليل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحدِ العشرةِ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥) ، ومعنى «أقِط»: طعام من اللبن و«مشْمَعِلّ» سريع.
(٢) انظر: أبناء نجباء الأبناء (ص ٤٤ و٤٥) ، وأغاني ترقيص الأطفال (ص ٦٢).

المبشّرين بالجنّةِ ، تغنّي لولدها ، وتذكرُ صفاتِهِ الجميلةَ ، تقولُ فاطمةُ بنتُ نعجة أمُّ سعيد بن زيد:

إنَّ بنـــــيَّ سيّـــــدُ العَشيـــــرة   عــفٌّ صَلَيْــبٌ حَسَــن السَّــريـرْة
جَــزْلُ النَّـــوال كفُّـــه مَطَيـــرة   يُعطـي علـى المَيْسُـور والعَسِيْـرة[1]

* وكان جبيرُ بنُ مُطْعِم بن عديّ القرشيّ الصّحابي شريفاً مُطاعاً ، له روايةُ أحاديث ، وهو من حُلماءِ قريش وساداتهم؛ هذا السّيِّد المُطاعُ استفادَ من تربيةِ أمّهِ له ، فقد كانت تتغنّى في عاطفةٍ صادقةٍ ، وكلماتٍ معبّرةٍ عن الحبِّ الغريزيّ بداخلها؛ تقول أمّ حبيب[2] في ولدها جُبير:

احْفَـظْ جُبيـراً ربّ فـي السَّـريّـهْ   لا تُقْعِــدَنّــي مقْعَــداً شَقيَّـــهْ
وبَـــاركَـــنْ يـــا ربّ فـــي بُنَيّـــهْ[3]

* ولأمّ حبيب هذه دعاءٌ من أعماقِها لطفلِها جبير بأنْ يحفظَه اللهُ عزّ وجلّ في المستقبلِ من سيوفِ فَارِس ، وأنْ يبعدَ عنه الوساوسَ وأن يكونَ زينةَ المجالسِ ، تقول:

احفَـظْ جُبيـراً مـن سيـوفِ فـارسْ   وجنِّبْنــهُ عــارضَ الــوَســاوِسْ
واحفظْـهُ مـن كـلّ زَحيـرِ حَـارِسْ   وزَيِّنَــنْ ربـيّ بــهِ المجـالِـسْ[4]

* وكانت السّيّدةُ الفاضلةُ أمُّ الفَضْل بنتُ الحارثِ الهلاليّة ـ الحرّةُ الجليلةُ زوجةُ العبّاسِ عمّ حبيبنا وسيّدنا رسولِ الله ﷺ ، واسمُها لُبابةُ ـ من ساداتِ نساءِ قريش ، ومن ذواتِ الفَصَاحةِ والنّباهةِ ، وكانت ترقِّص ابنَها عبد الله بن عبّاس وتقول:

ثكلْــتُ نَفْســي وثكلــتُ بكْــري   إنْ لــم يَسُــدْ فِهــراً وغيــر فِهْــرِ

---

(١) انظر: مجالس ثعلب (ص ٤٩٣ و٤٩٤) ، وأغاني ترقيص الأطفال (ص ٦٣) والمنمق (ص ٤٣٤) طبعة الهند.
(٢) قال ابن سعد: «أمُّ أمِ جبير ، هي جدّته أمُّ حبيب بنُ العاص بنِ أمية بنِ عبد شمس».
(٣) انظر: المنمق لابن حبيب (ص ٤٣٨) طبعة الهند.
(٤) المنمق (ص ٤٣٨) ، ومعنى «زحير»: انطلاق البطن بشدة؛ و«الحارس»: الصارع.

بالحسَبِ العدِّ وبَذْلِ الوَفْر ... حتّى يُوارىٰ في ضَريحِ القَبْرِ[1]

* وهذه سيّدتُنا النّبيلةُ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ سيّدةُ نساءِ العالَمين في زمانها ، البَضْعَةُ النّبوية ، والجهةُ المصطفوية ، أمّ الحسنَيْن السِّبْطيَن السَّعيدَيْن الحسن والحسين ، زعموا أنّها كانت تقولُ لابنها الحسَن :

بأبي شِبْهُ أَبي ... غيرُ شبيهٍ بِعَليّ[2]

* وتقولُ في ابنها الحُسين :

إنَّ بنيّ شِبْهُ النّبي ... ليسَ شبيهاً بِعَلي[3]

* وكانت أمُّ البنَين الوحيديّةُ تنشدُ طفْلَها العبّاسَ بن علي بن أبي طالب ، وتخشى عليه من عيونِ الحُسّادِ، القائمِ منهم والقاعدِ، والصّادرِ والوارِدِ، فتقول :

أعيذُهُ بالواحِدْ ... مِنْ عينِ كلِّ حاسِدْ

قائِمُهم والقَاعِدْ ... مُسلمُهم والجاحِدْ

صَادِرهُمْ والوارِدْ ... مولُودهم والوَالِدْ[4]

* والآثارُ النّسويةُ غزيرةٌ في حبِّ الأطفالِ ومحبّةِ التّفاخرِ بهم ، والتّنبؤ بالمستقبلِ الزّاهرِ لهم ، وهذا ما نجدهُ عند ماويّةَ بنتِ كعبِ بن القين في ابنها أسامةَ بن لؤي ، فهي تظنُّ به الخير ، وتتوسّمُ الفروسية ، والكرَّ والبطولةَ ، وقد عبّرتْ عن خَلَجات فؤادِها بهذا الرّجزِ الذي تعدِّدُ من خلالهِ خصائلَ ابنها فتقول :

وإنَّ ظنّي ببنيّ خيرُ ظَنْ ... أنْ يشتري الحمدَ ويَغْلي في الثّمنْ

ويهزم الجيشَ إذا الجيشُ ارجحنْ ... ويرويَ الهَيمانَ من مَحْضِ اللبنْ

---

(١) الأمالي (٢/ ١١٨) طبعة بولاق ، وشاعرات العرب (ص ٣٢٠) ، ومعنى «بكري»: بكرها ابنها الفضل بن العباس وبه تكنى ، و«الحسب العد»: القديم.

(٢) انظر المحبر لابن حبيب (ص ٤٦).

(٣) الكامل للمبرد (١/ ٢٧٨).

(٤) المنمق (ص ٤٣٧).

ويمــلأ الشَّيــزي الــواري الكَــدِن   إنْ نبَّــهَ القــومَ إذا مــا قيــلَ مَــنْ
كــان هــوَ المــدعــوُ لا هَــنٌّ وهَــنْ(١)

* أمَّا البيضاءُ أمُّ حكيمٍ بنتُ عبد المطّلب ، فقد كانتْ تنظرُ إلى حفيدِها عثمانَ بنِ عفّان ، وهي ترجو أنْ يكونَ بطَلاً شجاعاً صبوراً يضربُ بالسَّيفِ القاطعِ ، وسُمِعَتْ وهي تقول:

ظَنّــي بــهِ صــدْقٌ وبَــرْ   بــأَمْــرِهِ ويــأْتَمِــرْ
مــنْ فتيَــةٍ بيــضٍ صُبُــرْ   يحمُــونَ عــورَاتِ الــدُّبُــرْ
ويَضْــرِبُ الكَبْــشَ النّعِــرْ   بضــربــةٍ حتَّــى يَخِــرْ
بكــلِّ مصْقُــولٍ هِبِــرْ(٢)

* وتقول منفوسةُ بنت زيدِ الخيلِ ترقّصُ طفلَها:

اشْبَــهْ أخــي أو أشبهَــنْ أبــاكَــا   أمّــا أبــي فلَــنْ تنَــالَ ذاكَــا
تَقْصُــرُ عــن منــالِــهِ يَــداكَــا(٣)

* وتقولُ فاطمةُ بنتُ أسدٍ ـ رضي الله عنها ـ وهي ترقّصُ ولدهَا عقيلَ بن أبي طالب:

أنــتَ تكــونُ مَــاجِــداً نَبِيْــل   إذا تَهُــبُّ شَمْــأَلٌ بلَيْــل

* وذكروا أنَّ الشَّيماءَ بنتَ الحارثِ ـ وأمّها حليمة السَّعدية ـ كانت تحتضنُ النَّبيَّ ﷺ وهو طفلٌ صغيرٌ ، وترقّصُهُ وتنشدُ قائلةً:

يــا ربّنــا أَبْــقِ لَنَــا محمّــداً   حتّــى أراه يــافِعــاً وأمْــرَدَا

---

(١) المنمق (ص ٤٣٤) ، ومعنى «يشتري الحمد»: يفعل ما يوجب الثّناء ، و«يَغلي في الثّمن»: يكثر يكثر من الفِعَال الموجبة كنحر الإبل السّمان وغيرها ، و«ارجحن»: مال ، و«الهيمان»: العطشان. و«الشيزي»: الجفان المصنوعة من الخشب الجوزي. و«الواري»: الشّحم السّمين ، و«الكدن»: ذو اللحم الكثير.

(٢) أنساب الأشراف (ص ٥) ومعنى «صدق»: الكامل من كل شيء ، و«بر» حسَنُ المعاملة ، و«النَّعِر» على وزن نَمِر: الصائح في الحروب ، و«الهجر»: القاطع.

(٣) البيان والتبيان (١/ ١٦٣).

ثـــم أراهُ سيّـــــداً مُسَـــــوّدا وأكبُتْ أعَـادِيـه معـاً والحُسَّـدَا
وأعْطِــــهِ عـــزّاً يـــدومُ أبَـــدَا

فكان أبو عُروة الأزديّ ، إذا أُنشِدَ هذا التّرقيصُ قال: «ما أحسنَ ما أجابَ اللهُ دعاءَهَا»[١].

* وسمعتْ حليمةُ السَّعديةُ ذات يومٍ ابنتَها الشَّيماءَ ترقّصُ محمّداً ﷺ وتقول:

هَـــذَا أخٌ لـــي لـــمْ تَلِـدْهُ أمّـــي وليـسَ مَـنْ نَسْـلِ أبـي وعمّـي
فـــانمــه اللهـــمّ فيمـــا تنْمِـــي[٢]

* وننتقلُ إلى أدبياتٍ من أديباتِ العصرِ الحاضرِ لنرىٰ ما قدمْنَهُ من صميمِ وجدانهنّ للأطفالِ والطُّفولةِ ، وقد حاولتُ أنْ أسْتثِيرَ ما بداخلِ بعضهنّ من أنسامِ الطُّفولةِ وأشجانِها ، إذْ إنَّ ذكرياتِ الطّفولةِ وأشجانَها من المواضيع المهمّةِ التي تطرقَتْ إليها الشّاعراتُ ، وأظهرنَ مقدرةً فائقةً عندما تصدَّيْنَ لها.

* ومن الشّاعرات المُعاصراتِ اللواتي نَسَجْنَ بُروداً لطيفة رقيقة من أشعار الأطفالِ والطُّفولةِ: الشّاعرةُ «نازك الملائكة»؛ هذه المرأةُ التي نشأَتْ في بيئة ترفل بالشِّعْرِ ، فأبوها «صادقُ الملائكة» شاعرٌ متميّز ، وأمُّها «أمّ نزار» شاعرةٌ متميزةٌ ، وإخوتُها وأخواتُها: «إحسان ، ونزار ، وعصام ، وسُها ، ولُبنى» ، يحبّونَ الشِّعرَ ويقرضونَه ، بل إنّهم يتبارون في تأليفهِ ، بينما طغَتْ شهرةُ البنتِ الكبرى نازك على الأسرةِ «الملائكية» التي تنسجُ الشّعر ، وتتذوق الأدب.

* ولعلَّ هذه الشُّهرةَ «النّازكيةَ المتألّقةَ» قد غَشَتْ على شهرةِ كثير من الشّواعرِ من بناتِ جِنْسِها أيضاً ، حتّى غطّتْ على شاعريّة أمّها التي تُعَدّ بحقّ إحدى الأصواتِ النّسائيةِ المتميزةِ في العَصْرِ الحديثِ في العالَم العربي.

* وقد عاشَتْ نازكُ أيّاماً حُلوةً في طفولتها ، وها هي ذي تتحرّكُ لواعجها

---

(١) انظر: السّيرة النّبوية لأحمد زيني دحلان (١/ ٦٣).
(٢) نساءٌ من عَصْر النّبوة للدكتور أحمد خليل جمعة (ص ٣٣٩).

نحو تلكَ الطُّفولةِ البريئةِ التي كانت تقضيْها بين الشَّذا والظِّلال والكثبانِ والرّمالِ:

أَعْبـرُ العُمـرَ كلّـه نحـو أمْسِـي ... ويَعُـودُ الشُّعـور بـي لِلتِّـلال
مَجْلِسٌ فَـوقَ تلّـي الحلـو وحْـدي ... أو شُـرودي بيـن الشَّـذَا والظِّـلال

* وكان لنازك صديقةٌ اسمُها «كاملة» وهذه الصّديقةُ لا تذكرُ سوى اسمِها وسوى عبثَاتِ الأطفالِ معَها:

معـي الطّفْلـةُ الصَّـديقـةُ نبنـي ... فـوقَ وجْـهِ الـرّمـالِ عـرشَ الخَيـال
عمـرُنَـا قصّـةٌ ولحسْـنِ نغنّيـ ... ـهِ وقَلْبَـانِ فـي نقـاءِ الـرِّمـال
أيـن أصبحـتِ يـا رفيقـةَ أمْسِـي ... ما الذي قَدْ شَهدتِ فوقَ الوجود
أتـرى تـذكـريـنَ مثْلـي أيّـا ... مَ صِبَـانَـا وحلْمَنـا المفقُـود

* وتمتدُّ يدُ الذّكريات لتنبشَ عذوبةَ البراءةِ الطّفوليةِ عند الشّاعرةِ نازك الملائكة، فَمِنَ الذّكريات الحلوةِ ذلك المكانُ المحبّبُ فوقَ تلّ الرّملِ، وتحت ظلالِ النَّخيلِ تبني قُصوراً من الرِّمالِ، ولكنْ أين هذا كلّه؟! هذا ما ترسُمه نازك:

لـم يَـزَلْ مَجلسي على تلّـيَ الـرَمْـ ... ـلـيِّ يُصْغـي إلـى أنـاشيـدِ أمسـي
لـم أزلْ طِفْلـةً سـوىٰ أننـي قـد ... زِدْتُ جهـلاً بكُنْـهِ عُمْـرِي ونفسـي
فـي ظـلالِ النَّخيـلِ أبنـي قـلاعـاً ... وقصُـوراً مشيـدةً فـي الـرِّمـالِ
أحقـاً يـا حَيـاةُ أيـن رمـالـي ... وقُصوري؟ وكيف ضاعتْ ظلالي؟

* تلك خطراتُ الطُّفولةِ العذْبةِ تمرحُ هنا وهناك فلا غشٌّ ولا خدعٌ، والأحلامُ تغطّي جمالَ الطُّفولةِ وبراءةَ الأطفال. ولكنْ هل بقيَ الحلمُ الطُّفوليُ يرفرفُ فوقَ البراءةِ النّازكية الملائكيّة؟!

ذَهَـبَ الأمـسُ لـم أعُـدْ طفلـةً تَـرْ ... قُـبُ عُـشَّ العصفـور كـلَّ صبـاحِ
لَـمْ أعُـدْ أُبصـرُ الحيـاة كمـا كـا ... نـتْ رحيقـاً يـذوبُ فـي أقـداحـي
لم أعُدْ في الشّتاءِ أرنو إلى الأمـ ... ـطارِ مـن مَهْـدي الجميـلِ الصغيـرِ
لـم أعُـدْ أعشَـقُ الحمـامـةَ أن غنّـ ... ـتْ وألهـو علـى ضِفَـافِ الغـديـر
كـانَ هـذا الـوجـودُ مملكتـي الكُبْـ ... رَىٰ فيـا ليتهـا تعـودُ إليّـا

ليت تلَّ الرمالِ يسترجع الأسـ ـرارَ والشِعْرَ والجمالَ الطَّرِيّا

* لقد تلاشتِ الطفولةُ النَّازكيّةُ، وذهبتْ مع الأمسِ ومع الأمسياتِ الجميلةِ، فلم تَعُدْ ترقبُ عصفورَهَا كلَّ صباحٍ، أو تنظرُ إلى تساقطِ المطرِ من مهْدِها الوثير الصَّغير، والزُّهور والعُطُور قد سرقَتْها الحياةُ منها، وتلّ الرّملِ ليتَه يسترجعُ الأَسْرَارَ . . .

* وتتساءلُ نازكُ الملائكة عن أشياءَ كانت جميلة في أيّام الطُّفولةِ، تساءلَتْ عن لحنِ الطُّيورِ، وهمسِ النَّسيمِ، وما أجملَ الذّكرى وما أندىٰ الذّكريات!

أيـن لحـنُ الطيـور؟ لـم يعُـدِ الآ نَ اشتيـاقـاً وحُـرْقـةً فـي فـؤادي
فـالغنـاءُ اللـذيـذُ ضـاعَ صَـدَاهُ وانطـوى فـي تـذكُّـر الصَيّـادِ
أينَ همْسُ النسيمِ؟ أشواقُهُ السَّكْـ ـرَىٰ انطفَتْ لـم تَعُدْ تُثيرُ خيالـي
فغـداً يهمـسُ النسيـمُ بمَـوْتـي في عميقِ الهُوَى وفوق التِّلالِ[1]

* وفي صورةٍ أخرى نجدُ للطُّفُولةِ وللأطفالِ صورةً غير الذّكرياتِ العبقةِ، نجدُ عند نازكِ الملائكة حديثاً عن أشجانِ الطُّفولةِ وعن مآسيها، حديثاً يلامسُ شغافَ القُلوب، ويرسمُ لوناً من ألوانِ الطّفولةِ البائسةِ، الطّفولة التي اغتالَتْها يَدُ الأسىٰ، فعاشتْ في الأسى والحِرمانِ والتَّعبِ، والضّيقِ، كلّ هذا قد خلَّفَتْه ظاهرةُ التّمدِيُنِ والمدنيَّة، وتعالوا نُنْصِتْ إلى هذه الهمَسَاتِ النَّازكيّةِ التي تصوِّرُ فيها طفلةً نائمةً في الشَّارعِ في حي «الكرّادة» فتقولُ:

فـي الكـرَّادةوفـي ليلـةِ أمطـارٍ وريـاحْ
والظلمـةُ سقـفٌ مُـدّ وستـرٌ ليـسَ يُـزَاح
الشـارعُ مهجـورٌ تُعـولُ فيـه الـرّيـحُ
تتـوجّـعُ أعمـدةٌ وتنـوحُ مصَـابيـحُ
والحـارسُ يعبـرُ جَهْمـاً مـرتعـدَ الخُطُـواتْ
يكشفُـهُ البـرق وتحجُـبُ هيكلَـهُ الظُلُمـاتْ

---

(١) ديوان نازك الملائكة (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٧٠)، بانتقاء واختصار، دار العودة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.

فـــي مُنْعطَـــفِ الشّـــارع فـــي ركْـــنٍ مقـــرور
حَـــرَسَـــتْ ظُلمتَـــه شـــرفـــةُ بيـــتٍ مهجـــور
كـــان البـــرقُ يمـــرُّ ويكشـــفُ جسْـــمَ صَبيْـــة
رقـــدتْ يلسَعُهـــا سَـــوطُ الـــرّيـــحِ الشّتـــويَّـــة
الإحـــدَى عَشْـــرة نـــاطقـــةٌ فـــي خَـــدّيْهَـــا
فـــي رقّـــةِ هيكلِهـــا وبـــراءةِ عينيهـــا
ضَمـــتْ كفّيْهـــا فـــي جَـــزَعٍ فـــي إعيـــاء
وتـــوسّـــدتِ الأرضَ الـــرّطبـــة دون غطـــاء
لا تغفـــو لا تَغْفُـــلُ عـــن إعـــوالِ الـــرَّعـــدِ
والحمّـــىٰ تُلْهـــبُ هيكلَهـــا ويـــدُ السّهْـــدِ
ظمـــأىٰ ظمـــأىٰ للنّـــومِ ولكـــنْ لا نـــومـــا
مـــاذا تنســـىٰ؟ البـــردُ؟ الجـــوعُ؟ أم الحمّـــى؟
وتَظَـــلّ الطّفلـــةُ راعشـــةً حتّـــى الفجْـــرِ
حتّـــى يخبـــو الإعصـــارُ ولا أحـــدٌ يـــدري
أيّـــامُ طفـــولتهـــا مَـــرّتْ فـــي الأحـــزانِ
تشـــريـــدٌ جـــوعٌ أعـــوامٌ مـــن حِـــرْمَـــانِ
ولمـــن تشكـــو؟ لا أحـــدٌ يُنصِـــتُ أو يُعْنـــى
البشـــريّـــة لفْـــظٌ لا يسكُنُـــه معنـــى
والمجتمـــعُ البَشَـــريّ صـــريـــعُ رؤىً وكـــؤوس
والـــرّحمـــةُ تبقـــى لفْظـــاً يُقْـــرأ فـــي القـــامـــوس
ونيـــامٌ فـــي الشّـــارع يقَـــوْن بـــلا مـــأوى
لا حُمّـــى تشفـــعُ عنـــد النّـــاسِ ولا شكـــوى
هـــذا الظُلْـــمُ المتـــوحِّـــشُ بـــاسْـــمِ المـــدنيّـــة
بـــاســـمِ الإحســـاسِ فـــواخَجَـــلَ الإنســـانيّـــة(١)

---

(١) ديوان نازك الملائكة (١/ ٢٦٨ ـ ٢٧٢) بانتقاء واختصار.

* وتمتدُّ الرّيشةُ النّازكيةُ لِترسُمَ مأساةً أخرى للأطفال في صورةٍ من أجملِ الصّورِ المؤثّرةِ في النّفوسِ ، إذ إنَّ دموعَ الأطفالِ تجرحُ القلوبَ ، وإذا ما بكوا فأدمعٌ خُرسٌ ، وراءها الآلامُ ، ومنذ القِدَمِ وُلدوا وهم يصرخُون . لا يعرفون لِمَ الصُّراخ ، وربما يصرخون منْ ألَمِ المُقْبل الذي لم يعرفوهُ[1] .

* وننتقلُ إلى رحابِ شاعرةٍ أخرى أبدعتْ للطّفولةِ فيما نسَجَه خيالُها الواسعُ ، وعاطفتُها الفياضةُ . فقد رأتْ منظرَ مأْسَاةٍ مفعمٍ بالحزنِ ، رأتْ طفلاً يتيماً هزيلاً في عمر الزَّهر ، عاش سَبْعَ سنواتٍ لم تكن سِمَاناً بل هزيلةً كجسمهِ الذَّابلِ ، وعاشتْ أمُّه من أجْلهِ . عاشتْ من أجلِ سعادتِه ، فلم تلبسِ السَّوادَ حتّى لا يحسَّ بمرارةِ اليُتمِ ، وإنّما لبستِ الثّيابَ البيضَ ، وكأنّها حمامةٌ من حماماتِ الحرمِ ، وجعلَتْ من حضنها الملجأَ الأمينَ لِطِفْلِها ، وهاهُما الطّفلُ وأمُّه يتبادلان الكلماتِ؛ ولكنْ بالنَّظَراتِ الحاضرة ، فالطّفلُ يودُّ أنْ يعرفَ أين أبوهُ ، ولا تَسَلْ عن جرحِ الأمّ الذي نَبَشَ ذكرياتها مع زوجِها الذي ماتَ منذ زَمن؛ ثم إنَّ الشَّاعرةَ البارعةَ «فدوى طوقان» ترسمُ حال اليتيم الذي فقَدَ أباه ، إنّه يحيا في وجودٍ كالعَدم .

* فمع هذه النّفحةِ «الطّوقانيّة» الماتعة التي تحكي عطْفَ الأمِّ على وحيدها اليتيمِ الذي هاضَهُ الوهْنُ ، وأعياهُ الألَم ، وهو يسألُ أُمَّه الحنونَ عن رجوعِ أبيهِ ، فمعَ فدوى طُوقان وهذ الميميّة المُوقظة:

هـاضَـهُ الـوهـنُ وأعيـاهُ الألـمْ   وسَطَـا الضَّعـفُ عليـهِ والسّقـمْ
خـاشـعُ الأطـرافِ مـن إعيـائـهِ   مـا بـهِ يقلـبُ كفّـاً أو قـدمْ
مُتَـداعٍ جسمُـهُ منخـذلٌ   لجَّـتِ الحمّـى عليـهِ فـاضطـرمْ
ابـنُ سبـع بـرّح اليتـمُ بـهِ   رحمـة اللهِ لـه نضـو يتـمْ
كسـرتْ مـن طـرفـهِ مسكنـةٌ   لبسـتْ هيْـأتـه منـذ انفطـمْ
واحنَـانـاهُ لأمِّ أيّـمٍ   طـوت النَّفـسَ علـى خـوفٍ وغـمْ
فنضـتْ عنهـا الثّيـاب السّـود لا   لا تظنّـوا جـرحَهـا الـدّامي التأمْ

---

(١) انظر هذه المعاني في ديوان نازك الملائكة (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٨).

بـل لـدفـع الشـؤم عـن واحـدِهـا ... يـا لقلـبِ الأم إنْ أُشعِـر هـمّ!
وبـدتْ فـي البيـضِ مـن أثـوابهـا ... مَـنْ رأى إحـدى حمـامـاتِ الحـرمْ
عطفـتْ مـن رحمـةٍ تحضنُـه ... إنّمـا دنيـا اليتـامـى حضنُ أُمْ
نظـرَ الطّفـلُ إليهـا صـامتـاً ... وبعينيـهِ حـديـثٌ وكلـمْ. . .
ليـتَ شعـري مـا بـهِ؟ مـا يبتغـي ... أبنفـسِ الطِّفْـلِ سُـؤْلٌ مكتتـمْ؟
وحنَـتْ تسـألُ عـن طلبتـهِ ... فـرنَـتْ عيـنٌ لـه وافتـرّ فـمْ. .
قـال يـا أمّـي تـرى أيـن أبـي ... لـمَ لا يرجعُ مـن حيثُ اعتزْم؟!
نـاشـديـهِ واسـأليـهِ رجعـةً ... فلكـم يفـرحُ قلبـي لـو قـدم!
ضمّـتِ الطِّفـلَ إليهـا بيـد ... وبـأخـرى مسحـتْ دمعـاً سجَـمْ
عـزّ مـا يطلبـهُ يـا رحمتـا ... كيـف تـأتـي بـرفـاتِ ورمـمْ!؟
قلّـبِ البُـؤْسَ علـى أوجهـهِ ... لـن تـرى كـاليتـمِ بـؤسـاً محتكـمْ
ينشـأ الطِّفـلُ ولا ركـن لـه ... ركنـهُ مـن صغـر السّـنِّ انهـدمْ
ليـسَ فـي الـدنيـا ولا فـي نـاسهـا ... فهـو يحيـا فـي وجـودٍ كـالعـدم[1]

* * *

(١) ديوان: وحدي مع الأيام (ص ١١٨ ـ ١٢٠) بتصرف وانتقاء.

الفصل الثامن
من أدبيّاتِ رثاءِ الأطفالِ

* في الرّحلةِ الشّائقةِ الممتعةِ الماتعةِ مع الأطفالِ في قلوبِ الأدباءِ ، تستوقفُنا عاطفةُ رثاءِ الآباءِ والأمّهاتِ وكذلك رثاء أكابرِ الشّعراءِ للأطْفَال.

* من المتوقّع أنَّ عاطفةَ الآباءِ والأمّهاتِ تظهرُ مرسومةً على الوجوهِ عند موتِ أحدِ الأطفالَ ، وهناك تتفجّرُ العاطفةُ الصّادقةُ ، وتمنحُ الطفلَ الفقيدَ صدقَ التّعبيرِ ، إذ إنَّ الرّثاءَ نفثةُ مصدور يقولُها الآباءُ والأمّهاتُ تأسّياً وتصبّراً.

* ويحفلُ التّاريخُ العربيُ الأدبيُ (Literary Arabic History) بنماذجَ شعرية ونثريةٍ جميلةٍ في هذا المضمارِ النّبيلِ ، الذي يمسُّ شغافَ القُلوب ، ويعزفُ على أوتارِها ألحانَ الصّدقِ ، وترانيمَ التّفجّعِ الصّادقِ؛ وممن رثى ولده ، وسطّرَ أدمعَهُ على خدِّ الزّمن ، ابنُ الرّومي في مراثيهِ المشهورة التي سنذكرُ بعضَها ، وقبله جرير رثى ابنه «سُواده»[1] ، والتّهامي رثى ابنه برائيةٍ شهيرةٍ مؤثّرةٍ ، والمتنبّي رثى طفْلاً لسيفِ الدولةِ؛ وكثير من الشّاعرات حفظ التّأريخُ لَهُنَّ رثاءَ الأطفال ، وسنشيرُ إلى بعضهن لِتَكْتَمِلَ الحياةُ مع هذا البحثِ بإذن الله .

* فَمِنْ بدائعِ مراثي الأطفالِ هذه الأبيات الميميّة لرجلٍ ماتَ ابناه فقال يرثيهما :

ألا أيُّها القَبْرانِ شَوقي إليكما شديدٌ وقد أفنيتُ دمعي عليكما

---

(١) انظر ديوان جرير (ص ٣٤٥) طبعة دار صادر ـ دون تاريخ ـ لبنان.

تضمنتُمـا دونـي خليلـيَ فـارقـا بشخصَيْن حلاّ أمْسِ في حفرتيكما
سـلامٌ ورضـوانٌ وروحٌ وراحـةٌ ومغفرةُ المولى على ساكنيكما[1]

* وكذلك يذكرُ التّاريخُ مرثيةَ جويرةَ بنتِ فارظٍ لولدَيْها في قصيدة فائيّةٍ مؤثّرة ذكرتْها كتب المصادر.

* ومَنْ مِنَ الأدباءِ لا يعرفُ رائيّةَ التِّهاميِّ الشّهيرة في رثاءِ طفلهِ؟! إنَّ قصيدة أبي الحسن عليِّ بن محمد التّهاميّ المتوفىٰ سنة (٤١٦ هـ) كالثُّريا بين نجومِ السَّماء، وقصيدة أبي الحسن التّهامي هذه من أجمل ما قيلَ في رثاءِ الطِّفل، إذ جمعتْ بين ثناياها الحكمةَ التي تحكي قصّةَ الموتِ والحياة، ثمّ وصْف مصيبته بطفلهِ، ثمّ تفجّعه وبكائه، وهذه القصيدةُ مفعَمةٌ بالعواطفِ الملتهبةِ، والصُّورِ الحركيّةِ، والمعاني الصّادقةِ، وهي تزيدُ عن ثمانينَ بيتاً نقتطفُ منها هذه الأبيات الكاشفَاتِ التي سارَتْ مسيرَ الشَّمس:

حكْـمُ المنيّـةِ فـي البـريـة جَـارِ مـا هـذهِ الـدُّنيـا بِـدَارِ قَـرارِ
بينـا يُـرىٰ الإنسـان فيهـا مُخْبِـراً حتـى يُـرى خَبـراً مـن الأخبـارِ
طُبِعَـتْ علـى كَـدرٍ وأنـتَ تُـريـدهـا صَفْـواً مـن الأقْـذاءِ والأكْـدارِ
ومكلّـفُ الأيّـام ضِـدَّ طِبَـاعِهـا مُتَطلّـبٌ فـي المـاءِ جَـذْوةَ نـارِ
وإذا رجـوتَ المستحيـلَ فـإنّمـا تبنـي الـرَّجـاءَ علـى شفيـرٍ هَـارِ
العيـش نـومٌ والمنيـةُ يقظـةٌ والمـرءُ بينهمـا خيـالٌ سَـارِ
فـاقضـوا مـآربكـم عجـالاً إنّمـا أعمـارُكـم سفَـر مـن الأسْفَـارِ

ومنها:

أبكيـهِ ثـم أقـولُ معتـذراً لـه وفّقْـتَ حيـنَ تـركْـتَ أَلأَمَ دارِ
جـاورتُ أعـدائـي وجـاورَ ربَّـه شتَّـان بيـن جـوارِهِ وجِـواري

ومنها:

لا ذنْبَ لي قد رُمتُ كَتْمَ فضائلي فكـأنّنـي بـرقَعْـتُ وجْـهِ نَهـارِ
وسترتُهـا بتـواضعـي فتطلّعَـتْ أعنـاقُهـا تعلـو علـى الأسْتَـارِ

---

(١) حماسة الظرفاء (ص ٧٩) دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢ م.

وآخرها:

ذهبَ التّكرّمُ والوفاءُ من الورى ... وتصَرّما إلاّ من الأشعارِ
وفشَتْ جناياتُ الثّقات وغيرهم ... حتّى اتهمنا رؤيةَ الأبصارِ
ولربّما اعتضدَ الحليمُ بجاهلٍ ... لا خيرَ في يُمنى بغير يَسارِ[1]

* وللتِّهامي مرثيةٌ أخرى في طفلهِ وهي من عيونِ شِعْر الرثاء وأوّلها:

أبا الفَضْل طالَ الليلُ أمْ خانَني الصَّبْرُ ... فَخُيِّلَ لي أنّ الكواكبَ لا تَسْري

* ولابن الرّومي الشّاعرِ المشهورِ مَرَاثٍ عديدة، من أشهرِها مرثيته لابنه «محمّد» ذلك الطّفلُ الصَّغيرُ الذي ماتَ وهو غضُّ الإهابِ، طريُّ العُود، بعد أنْ ألحّ عليه النّزْفُ، يقولُ ابنُ الرومي في هذه الداليّة الشّهيرة التي نختارُ منها هذه النَّفثَات:

بُكاؤكُما يشْفي وإنْ كان لا يُجْدي ... فجُودا فقَدْ أوْدَى نَظيْرَكُما عنْدي
بنيَّ الذي أهْدتْه كفَّايَ للثّرى ... فيا عزّةَ المُهْدىٰ ويا حَسْرة المُهْدي
توخّى حمامُ الموتِ أوسْطَ صِبيتي ... فَللّهِ كيفَ اختارَ واسِطَة العِقْد
طواهُ الرّدى عنّي فأضحى مزارُهُ ... بعيداً على قربٍ قريباً على بُعْدِ[2]

* ومنها:

وأولادُنا مثلُ الجوارحِ أيُّها ... فَقَدْنَاه كانَ الفاجعَ البَيِّنَ الفَقْدِ
أرى أخَويكَ الباقِيَيْن فإنّما ... يكُونان للأحزانِ أورىٰ منَ الزَّندِ

* ثم ختمها بقوله:

عليكَ سلامُ اللهِ منّي تحيةً ... ومن كلّ غيثٍ صادقِ البرقِ والرّعدِ

* وهناك مَرَاثٍ شهيرة للأطفالِ في أدبنا العربيّ، وهي تُعتبرُ بحقّ ثروات نادرة في ميدانِ الأدبِ واللغةِ، ويمتدُّ هذا التُّراثُ إلى العصرِ الحاضرِ، حيث

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (٢٢/٧٨ ـ ٨١) باختصار ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠م، وانظر: دمية القصر (١/١٨٨)، ويتمة الدهر (١/٣٧)، وديوان التِّهامي، وغيرها كثير جداً.

(٢) انظر: ديوان ابن الرومي (١/٤٠٠ ـ ٤٠٢)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٤م.

نجدُ الأنفاسَ الحرّىٰ عند الأدباءِ والشُّعراءِ؛ وفي هذه الرّحلةِ الماتعةِ في رحابِ هذا الفَصْلِ وجدتُ كثيراً من المراثي لِشعراءَ كثيرين في الأطفالِ، واخترتُ من بين هؤلاء مرثيةً جميلةً للشّاعر «محمّد الماحي» الذي فُجِعَ في صُغرىٰ بناتِه «هدى» التي كانتْ في الثَّالثةِ من عمرها، وكانت ريحانتهُ المنوّرةُ، وهي أوّلُ درّةٍ افتقدَهَا فسكبَ على فراقها هذهِ الدَّمعةَ المؤثّرةَ:

لِـمَ عجّلـت نحـوَ المنـونِ خطـاكِ ... يـا وردةً سَلمـتْ مـن الأشـواكِ
يـا زهـرةً مـا كـانَ أروعَ طيبَهـا ... فـارقتِني فحُـرِمْـت طيـبَ شـذاكِ
كـانـتْ منـاي سعـادةً تلقيْنهـا ... فـي غبطـةٍ ومنـايَ كـنّ منـاكِ
هـل كـانَ يُسعدنـي ويبعث همَّتي ... إلا رضـاكِ وقـد فقـدتُ رضـاكِ
قالوا هي الصُّغرى فلا تَهلِك أسى ... واصبـرْ ومـا الفضلـى لـديّ سـواكِ
جمَـدت دموعـي فهـي غيـر مطيعةٍ ... فـي لهفتـي لكـنّ قلبـي بـاكِ
أولاكِ لـم تسعـفْ بمـا أمّلتـه ... فتهنّئـي بـالخيـر فـي أخـراكِ[1]

* ولمحمّد الماحي مرثيةٌ أخرى بابنتهِ هدى، فقد مرَّتِ السُّنون وأقبلَ العيدُ، فعاودتْهُ الذّكرى، واستروحَ من ابنتهِ نسيمَ الطّفولةِ البريئةِ، فبلّلَ ثرى قبرها بهذه العبرةِ ومنها:

كبِـدِي عليـكِ تحيتـي وسـلامـي ... هذا مُقامكِ هل عرفتِ مقامي؟
هذا خيالكِ ظلَّ يصحبُ خاطري ... لـم يجفُني في صحوتي ومنامي
إنِّـي أشـمُّ عبيـر أنفـاسٍ سـرى ... كـالـزّهـر حيـن تفتّـحِ الأكمـام
فأشم منكِ شذى عبيرك ساطعاً ... وأرَاكِ رغـم جنـادلٍ ورجـام
لله روحـك لـم ينـلْ منهـا البلـى ... فـي حـرصِـه مـا نـالَ مـن أجسام
كنـتِ المـلاكَ تَسـامياً وطهـارة ... فـالآنَ عـدتِ إلـى عـلاكِ السَّامي
بيـن المـلائـكِ تنعميـن وحبـذا ... لـكِ صحبة مـن طاهـرين كـرام[2]

* بعد أنْ عشْنَا مع الشَّاعر المعاصر «محمّد الماحي» ورثائهِ لابنته «هدى» نعيشُ مع الشَّاعرةِ المُعاصرة «د. سعاد الصَّباح» في مرثيتها لابنها «مبارك»،

---

(١) ديوان محمد مصطفى الماحي (ص ١٢٠ ـ ١٢٣) مطبعة الإخاء ـ مصر ـ ١٩٣٤ م.
(٢) ديوان الماحي (ص ١٢٤ ـ ١٢٧) بتصرف وانتقاء.

فقد كان ابنها الأكْبر ، وكان لِفَقْدِهِ أثرهُ الكبيرُ في نفسِها ، وقد رثَتْه بقصيدةٍ جميلةٍ تذكرُ أثره في وجدانِها وتقولُ في قصيدتها:

لا تسـلْ عـن كـون مـأسـاتـي ومجـرى عبـراتـي
لـوعـة لـم تـدرهـا قبلـي ثكـالـىٰ الأمَّهـاتِ
ولـدي كـان أبـي. . . كـان أخـي بـل كـان ذاتـي
ولـدي كـان حبيبـي ورجـائـي وحيـاتـي
كـان لـي تـاجـاً علـى رأس كتـاج الملكـاتِ
كـان إلهـامـي. . وإبـداعـي وأحلـى أغنيـاتـي
ولـدي كـان منـي عينـي وحلمـي فـي سبـاتـي
ومتـاعـي فـي حيـاتـي ودعـائـي فـي صـلاتـي

* ولم تبرحْ صورةُ الابنِ مبارك من خيالِ أمّه ، ولا تزال ذكرياتُه تُعايشُها ، وكثيراً ما ترحلُ بها الذّكرياتُ إلى الماضي ، عندما كانت تصحبُ طفْلَها إلى المدرسةِ ، وفي هذا ترسمُ قصيدةً معبِّرةً نقتطفُ منها هذا المقْطَع الآسِرِ المؤثّرِ إذ تقول:

كـلُّ أمٍّ فـي يـديهـا فلـذة مـن كبـد
وأنـا أرنـو إليهـنَّ وجنبـي ولـدي
سـألـونـي مـا اسمـه؟ عـاش وأوفـى وتبـارك
قلـت هـذا ولـدي ، معقـد آمـالـي «مبـارك»
سـألـوا مـا عمـره؟ قلـت: تخطَّـى الخـامسـة
كبـر البـرعـم فـي حجـري وجـاء المـدرسـة[1]

* كما نسمعُ من د. سعاد الصّباح هذه الرّائيّةَ التي تظهرُ فيها الحسراتُ والآلامُ في معظم قوافيها ، تقول سعاد:

أنْـتَ يـا مـن كنْـتَ فـي ليلـي مصـابيـحَ النَّهـارْ
أنـت يـا مـن كنـتَ فـي صحـراءِ أيّـامـي اخْضِـرَارْ

---

(١) أمنية (ص ٢٨ و٢٩) د. سعاد عبد الله المبارك الصباح ـ منشورات ذات السلاسل ، كويت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

لا تسلني عن دموعي إنَّها ماءٌ ونَارْ
تلتقي فيها البراكين بأمواجِ البحارْ[1]

* إنَّ الأطفال أغلى مِنْ كلِّ شيءٍ عند الأبوَيْن ، فهم عصافيرُ القلوبِ ورياضها ، وهم ابتسامُ الزّهرِ كلّ صبحٍ ومساءٍ يعطّرون بشذا براءتهم الأرجاء ، وهم سرُّ السَّعادةِ وشفاء الأبدان . فإذا أُصيبَ طِفْلٌ أو مات ، فإنَّ فؤادَ أبيه يتفطّر حزناً عليه ، ولذا فإنّنا سنختم هذا الفصل في عينيةٍ رقيقةِ الألفاظِ والمعاني ، صاغها أبٌ ملتاع[2] ، ونَشَرهَا في مجلّةِ أبولو ، يوم أنْ كانت هذه المجلّةُ الطّائرَ المحكيَ والأخريات الصَّدى :

مصابٌ له الصُّمُّ الصِّلادُ تصدَّعُ ... لو انَّ لها قلباً يحسُّ فتجزعُ
رُمينا به في يوم نَحْسٍ ولم نكن ... ليومٍ عبوسٍ مثله نتوقّعُ
ولم نك ندري أنَّ في الغيبِ فاجعاً ... أليماً وأنَّ الدهر قد كان يخدعُ
إلى أن بدا جيشُ البليةِ زاحفاً ... طليعتُه داءٌ عضَالٌ مروِّعُ
فسدَّد ذاك الدّاءُ سهماً رمى به ... خيارَ بنينا ناشئاً يترعرعُ
فيا لك من داءٍ سلبتَ فؤادنا ... وهل بعد فَقْد القلب عيشك ينفعُ؟!
فيا رحمة الله انزلي فتداركي ... أباً قلبه المكلوم حرَّانُ موجعُ
وأمّاً لنيران الأسى في فؤادها ... لهيب له العينان تدْمَى وتدمعُ
فيا راحلاً عنا فدتك نفوسنا ... وأموالنا لو كان ذلك ينفعُ
فلا خيرَ في هذا الوجود وقد غدا ... ظلاماً وكان النُّورُ في الكونِ يسطعُ
بُنيَّ! قد اسودَّت حياتي بعدما ... فقدتك هل لي في رجوعك مطمعُ
أدورُ بعيني في لداتك علّني ... أرى شخصك المحبوب في النَّشء يرتعُ
فيرتدُّ طرفي خائباً ثم أنثني ... على كبدٍ مقروحة تتوجَّعُ
بُنيَّ! تكلّمْ! ناجني! أنا منصتٌ ... فإنَّك في قلبي أراكَ وأسمعُ
أذقْني عذباً من حديثك علّني ... أُروِّي به روحاً إليك تطلّعُ
وتصفو ليَ الدُّنيا وأظفر بالمنى ... وإلاّ فإنِّي راحلٌ ومودِّعُ

---

(١) المرجع السابق (ص ٣٤ و٣٥).
(٢) اسمه : أحمد التومي ، مدرس بدار العلوم العليا وقتذاك.

بُنيَّ أراني سامعاً صوتك الذي عهدتُ ، فهل في الحق أنِّي أسمُعُ؟
أراكَ بعينِ القلب في كلّ مشهدٍ شهدت معي إذ كان بدرك يطلعُ
وقالوا لي الصَّبرَ الجميلَ فهل ترى يردّ قضاء الله أنّك تجزعُ
فقلتُ لهم والرُّشدُ عنيَ عازبٌ وموطن وعْي النُّصح مني مضيَّعٌ
أروني مكان الصَّبر كيف يكون لي سُلُوٌّ ومني مهجة القلب تنزعُ
يقولون إنَّ الدَّمع يعقب راحةً ولكنَّني أبكي وقلبي مصدَّعُ
فإن كان في الدُّنيا دواءٌ يريحني ويطفىء ناراً في فؤادي تلذعُ
فليسَ سوى وردِ المنية ، إنَّه يبرِّدُ أحشائي وحزني ينزعُ
فذاك دوائي قرَّب الله يومه فليس سواهُ للأحبَّة يجمعُ
هنالك ألقى قرّة العين (أحمداً) يقربني من ربّه ثمَّ يشفعُ
كذلك ألقى (أنوراً) و(محمَّداً) يحوطهما نورٌ من الله يسطعُ
كذاكَ بناتي السّابقات يطُفن بي ويدعون بالغفران ربّي فيسمعُ
هنالك نحيا خالدين يُظلّنا نعيمٌ ورضوانٌ من الله أوسعُ
فيا ربّ ألحقنا بهم وتولّنا بعفوك إنا في رضاك لنطمعُ(١)

* * *

(١) مجلة أبولو (٢/ ٥٨٢ ـ ٥٨٧) وقد اخترت شطراً من هذه القصيدة العينية لجمالها ولأنها تجدِّد عينيَّة أبي ذؤيب الهذلي المشهورة «أمِنَ المنون وريبها تتوجع. . .» انظر: مجلة أبولو عدد ديسمبر ١٩٣٤ م.

الباب الثاني

روافد ثقافية للأطفال والطفولة

الفصل الأول : فوائد من القرآن والسيرة

الفصل الثاني : عبادات وسلوكيات في أهازيج

الفصل الثالث : تعليم الأطفال مكارم الأخلاق

الفصل الرابع : قصص الحيوان وثقافة الأطفال

الفصل الخامس : أحجيات في أغاريد

الفصل السادس : المسرح وأثره في ثقافة الأطفال

الفصل السابع : القصة رافد لثقافة الأطفال

الفصلُ الأوَّلُ
فوائدُ من القرآنِ والسِّيرةِ

* في القرآن الكريم فوائدُ تَشْتَهيْها الأنفسُ ، وتلذُّ لها الأعينُ ، وتشتاقُ إليها الضَّمائرُ والحنايا ، فيهِ ريحانُ القلوبِ ، وروحُ الحياةِ ، وحياةُ الرُّوحِ ، إليه يلجأُ مَنْ أحبَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وإليه يلجأُ مَنْ أحبَّ رسولَ اللهِ ﷺ ، وإليهِ يلجأُ مَنْ يحبُّ الحقَّ والخير والنّجاة. . . .

* ونحن في هذا الفَصْلِ الجميلِ نودُّ أنْ نعيشَ مع أطفالِنا في أفيائِهِ ننعمُ بفوائدِهِ التي لا تُحصَى ، وذلك ليكونَ زادُ الأطفالِ الأوَّلِ منه ، إذْ يغترفون مِنْ معينهِ ما يبصرون بهِ طريقَ الحقِّ ، وسبيلَ الحقيقة ، ويجعلونَهُ سميرهُم وجَليسَهُم آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهارِ.

* ومع أفياءِ القُرآنِ الكريمِ ننعُمُ بالقصّةِ الهادفةِ ، وبالفائدة المعرفيةِ ، ونتوقّفُ عند بعضِ المفاهيم المفيدةِ من خلالِ بعض المنظوماتِ والأشعارِ الخفيفةِ ، لعلَّ ذلك يفتحُ آفاقاً جديدةً نافعةً أمامَ أطفالنا فينهلون منه ، ويحفظونَ بعضَ وقائعهِ وأحداثِه ، ويتعرفُون بعضَ مفاهيمِ الإسلامِ ، من مثل الكتبِ السَّماوية ، والملائكةِ ، وقصّةِ آدمَ وإبليسَ ، وأشياءَ أخرى تخص العقيدة الإسلامية (Is lamic creed).

* حاولتُ في هذا الفَصْلِ الماتع أَنْ أقدّم شيئاً مفيداً للأطفالِ ، فيعرفونَ القرآنَ الكريمَ بأنَّه خيرُ كتابٍ ، وأنَّه الهادي للألبابِ ، وقمتُ باختيارِ عددٍ من المنظوماتِ الجميلةِ لشعراءَ معاصرينَ ، وعمدت إلى تهذيبِ بعضِها ، وتغيير

بعضِ الكلماتِ والجملِ ؛ كما نظمتُ بعضها بما يتناسبُ مع هَدفِ هذا الفَصْل وخطَّةِ هذهِ الرِّسالةِ. . .

* وها نحنُ أولاءِ في رحابِ أهزوجةٍ لطيفةٍ لخَّصَتْ معَانٍ جميلةً عن القرآنِ العظيمِ بأنَّه خيرُ كتابٍ ، وهذه الأهزوجةُ ترفُلُ بلطفِ المعنىٰ ورشاقةِ الجُملِ ، ويُسْرِ الألفاظِ ، لعلَّ أطفالَنا يحفظونَها وينشدونَها في حلِّهم وترحَالِهم ، فمع أنداءِ القرآنِ الكريم ، وهذه الهمسات العَطِرات:

قُــرآنـــي يَــــا خَيْــرَ كِتَــابِ ⁂ أَنْـــتَ الهَــادي لِـــلأَلْبَـــابِ
أَنْـــتَ كَـــلاَمُ اللهِ المُنْـــزَلْ ⁂ منهـــاجـــاً بـــأَرَقِّ خِطَـــابِ
وأنـــا أمْضِـــي بِنُـــوْرِ هُـــدَاهُ ⁂ فَهُـــوَ الهَـــادي لـــلأَلْبَـــابِ
قُــرآنـــي مُـــدْرسَـــةٌ كُبْـــرَى ⁂ دَرْسٌ للـــدُّنْيـــا والأُخْـــرَى
أنهَـــلُ نَهْـــلاً حَتّـــى أرْوَىٰ ⁂ فَهُـــوُ الهَـــادي لِـــلأَلْبَـــابِ

* ومع أهزوجةٍ مطربةٍ بعنوان: «القُرآنُ كتابُ الله» تظْهرُ الأنفاسُ اللطيفة والهمسات النّاعمة لتَحْمِلَ إلى قلوبِ الأطفالِ هذه الأنداء لتصقلَها وتصِلَها بمحبّةِ كتابِ الله عزَّ وجلَّ ، وتربُطَها بتلاوتهِ دائماً ، إذْ إنَّ القرآنَ لهُ شأنٌ ، في قلْبِ المؤمنِ يزدانُ:

بـــالْـــوَحْـــي تَنَـــزَّلَ قُـــرْآنُ ⁂ وأَضَـــاءَتْ مِنْـــهُ الأَكْـــوَانُ
آيَـــاتٌ تَتْلُـــو آيَـــاتِ ⁂ والقَلْـــبُ رَبِيْـــعٌ وَجِنَـــانُ
فِكتَـــابُـــكَ رَبّـــي بُـــرْهَـــانُ ⁂ وكَـــلامُـــكَ رُوْحٌ وَبَيَـــانُ

هَـــذَا القُـــرْآنُ لَـــهُ شَـــانُ
فـــي قَلْـــبِ المُـــؤْمِـــنِ يَـــزْدَانُ

هَيّـــا فَلْنَقْـــرَأْ قُـــرْآنَـــا ⁂ ونُغَـــذِّي الـــرُّوْحَ بـــإِيمَـــان
بِتِـــلاَوَةِ حَـــرْفٍ يَنْفَحُنَـــا ⁂ رَبّـــي بـــالصَّفْـــحِ وغُفْـــرَان
بـــالحَـــرْفِ يُعَـــوِّضُنـــا عَشْـــرَا ⁂ هَـــذي بَـــرَكَـــاتُ القُـــرْآن

هـــذا القـــرآنُ لـــهُ شَـــانُ
فـــي قلْـــبِ المـــؤمـــنِ يـــزدانُ

فَبِـــهِ يـــأْمُـــرُنـــا بـــالخَيْـــرِ ⁂ ويُجَنِّبُنَـــا دَرْبَ الشَّـــرِّ

يـــأْمُـــرُنَـــا رَبِّـــي نَتَـــواصَـــى بـــالحَـــقِّ مَـــلاَذاً والصَّبْـــرِ
ونُـــؤَدِّي زكـــاةً عَـــنْ مَـــالٍ كَـــيْ نُبْعِـــدَ آلامَ الفَقْـــرِ
هـــذا القـــرآن لـــه شـــانُ
فـــي قلـــبِ المـــؤمـــن يـــزدانُ

* وجميلٌ منَ المربيّ (Educationist) والأبِ والأمِّ وكلِّ مَنْ يحبُّ الأطفالَ أنْ يعرّفَهم بالكتبِ السّماويّةِ ، وعلى مَنْ أُنزِلَ كلُّ كتابٍ ، أو صحيفةٍ ، ويذكّرهم بضرورةِ الإيمانِ بهذهِ الكتبِ والصُّحف ، وها هي ذي قريحةُ د. محمد منير تتفتّحُ عن أهزوجةٍ مفيدةٍ جمعَ فيها الكتبَ السّماوية والصّحفَ ، وأجادَ في عرضها بطريقةٍ لطيفةٍ تسرُّ خواطرَ الأطفالِ ، وتثلجُ قلوبَ اليافعين ، فلنقرأْ هذه الهمْسَةَ الموقظةَ الموحيةَ ؛ وقد هذَّبْتُها لتكونَ نشيداً جميلاً للأَطفالِ :

آمَنْـــا إيْمـــانَـــا حَقّـــاً بِجَمِيْـــعِ الصُّحُـــفِ وبـــالْكُتُـــبِ
وبِمَـــا قَـــدْ أَنْـــزَلَـــهُ رَبِّـــي وَحْيـــاً لِلـــرُّسُـــلِ بِـــلا رَيْـــبِ
قُـــرآن اللهِ وخـــاتمُهـــا جمَـــعَ التـــوّحِيْـــدَ لِكُـــلِّ نَبِـــي
«فَسَلاماً يَا خَيْرَ الرُّسُلِ نَزَلَ القُرْآنُ مَعَ العَمَلِ»
قَـــدْ خَـــصَّ الله بِتَـــوْرَاةٍ مُـــوْسَـــى وبِـــأَلْـــوَاحٍ عَشْـــرَةْ
وَزَبُـــوْرٌ جَـــاءَ لِـــدَاوُد وَحْيـــاً وأتَـــاهُ مَـــعَ البُشْـــرَىٰ
وتَنَـــاوَلَ عِيْسَـــى إِنْجِيْـــلا فَتَـــلاهُ وأَوْجَبَـــهُ نَشْـــرَاً
«فسلاماً يا خير الرُّسل نزل القرآن مع العمل»
وَعَلَـــى شِيْـــثٍ نَـــزَلَـــتْ صُحُـــفٌ وعَلَـــى إِبْـــرَاهِيْـــمَ وَمُـــوْسَـــى
تُلِيَـــتْ بـــالحَـــقِّ عَلَـــى قَـــوْمٍ مِـــنْ آدمَ حَتَّـــى إِدْرِيْسَـــا
وعَلَـــى نُـــوْحٍ نَـــزَلَـــتْ صُحُـــفٌ هَـــدْيـــاً لِلنَّـــاسِ وَنِبْـــرَاسَـــا
«فسلاماً يا خير الرُّسل نزل القرآن مع العمل»
فـــالشَّـــرْعُ تَطَـــوَّرَ أَزْمَـــانَـــاً وتَجلّـــى فـــي أَحْلَـــى الصُّـــوَرِ
وأَتَـــى القُـــرْآنُ لَهـــا خَتْمَـــاً وتَسَـــامـــى الشَّـــرْعُ مَـــعَ الفِكَـــرِ
فَـــرِسَـــالَـــةُ أَحْمَـــدَ قَـــدْ عَمَّـــتْ بـــالـــدَّعْـــوَةِ أَصْنَـــافَ البَشَـــرِ
«فسلاماً يا خير الرُّسل نزل القرآن مع العمل»

* وممّا تَحْسُنُ معرفتُه ، ويحْسُنُ بالمرّبينَ ذكْرُهُ؛ الإيمانُ بالملائكةِ ، إذْ إنَّ ذلكَ من أركانِ العقيدةِ الإسلاميّةِ ، وعلى الأطفالِ أنْ يتعلّمُوا هذا ، ويعرفوا أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الملائكةِ فهو منكرٌ لكلامِ اللهِ ورسولِه.

* وقد اقتضتْ حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُسَخِّرَ الملائكةَ لكثيرٍ من الوظائفِ يقومونَ بها في النَّاسِ: كَنَفْخِ الرُّوحِ في الأجنَّةِ، ومراقبةِ أعمالِ البشَرِ، والمحافظةِ عليهم، وقبضِ أرواحِهم وغيرِ ذلك. والملائكةُ لهم صفاتٌ منها: أنَّهم مخلوقون منْ نُورٍ ، وأنَّهم قد يكونونَ معَنا ولا نَراهم ، وأنّهم قادِرون على التّمثّلِ بأمثالِ الأشياءِ ، والتَّشكُّلِ بالأشكالِ الجسمانيّةِ ، وأنَّ لهم قدراتٍ خارقةً ، وهم لا يفترونَ عن طاعةِ اللهِ ، ومقرّبون منْهُ ومكرمون ، ومنهم أولي أجنحةٍ مثْنَى وثلاثَ ورباع ، ولا يعرفُ عددهُم إلاّ اللهُ عزَّ وجلَّ. وهم أصنافٌ منهم أكابرُ الملائكةِ وهم: جبريلُ ، وميكائيلُ (ميكال) ، وإسرافيلُ ، ومَلَكُ الموتِ ، ومنهم حَمَلةُ العرشِ ، والحافّون حولَ العرشِ ، ومنهم ملائكةُ الجنّةِ وملائكةُ النّارِ ، وملائكةُ الموتِ ، وآخرون موكّلونَ بأمورٍ أخرى على مُرادِ اللهِ عزّ وجلّ.

* وينبغي على المربِّين أنْ يلفتوا نظرَ الأطفالِ إلى الملائكة بأنّهم عبادٌ للهِ تعالى ، خلقهم من نورٍ ، وأن التَّسبيحَ والتّهليلَ والتّمجيدَ للهِ عزَّ وجلَّ من أعظمِ أعمالهم ، فهم العابدون لله دون مللٍ أو كسَلٍ وهم: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. فهم دائمو التسبيح لله لا يملّون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

* ويستطيعُ الآباءُ والمربّون من خلالِ أحاديثهم وقصصهم أن يبيّنوا للأطفال أنَّ الملائكةَ تحبُّ المؤمنين ، وأنّها تستغفرُ لهم ، كما أخبرَ اللهُ بذلك في القرآنِ الكريمِ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [الشورى: ٥]. وها هنا يشعرُ الأطفالُ بحبِّ الملائكةِ الكرامِ لهم ، وأنَّهم يدعون لهم ، ويطلبون لهم النّجاة والفوز بالجنَّة ، وأنّهم يحفظونهم في جميعِ حالاتهم قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد: ١١]. فالمعقّباتُ همُ الملائكةُ الذين يتعاقبون على النّاسِ بالليلِ

والنَّهارِ ، يحفظونَهم بأمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ممّا لم يكتب عليهم.

* ويبيّنُ الآباءُ والمربّون للأطفالِ أنَّ الملائكةَ هم الذين ينزلون بالوحي الذي تحيا به القلوبُ والأرواحُ ، ولهم فضْلٌ وإحسان.

* كما يبيّن المربّون للأطفال أعمالَ الملائكةِ ، وأنّهم لا يفارقون الإنسان منذ أن يكونَ في الرحم حتى دخوله الجنّة أو النّار ويحصون أعمال العباد كلّها من خيرٍ أو شرٍ. وإذا علم الأطفال ذلك فإنّهم ينضبطون في حركاتهم وسكناتهم. بل إنَّ الأطفال الواعين يشعرون في خلواتهم بالأنس بالملائكة والاطمئنان بهم بأنهم معهم يحفظونهم ، وعندها لا يشعرون بالخوف من الظلام أو الوحدة..

* وقد رسم د. محمد منير هذه المعاني في ثلاثياتٍ جميلةٍ ، استطاعَ مِنْ خلالها أنْ يجمَعَ ما ذكرناه ويجملَهُ بأسلوبٍ رشيقٍ ، وكلامٍ رقيقٍ ، وفَهمٍ دقيقٍ ، ومعلوماتٍ تعتمدُ على التَّحقيقِ ، ولن أذهبَ ببريقِ قصيدتهِ ، بل أتركُ الأطفالَ يهصرونَ أغصانَها ، ويتذوّقُونَ ثمارَها:

خَلَقَ الرَّحْمَنُ مَلائِكَةً ... مِنْ نُوْرٍ وَجَمالٍ حَسَنِ
أعْطَاهُمْ رَبّي مَقْدِرَةً ... أَقْوَى مَخْلُوقٍ في الكَوْنِ
ولَهُمْ أجْنِحَةٌ تَحْمِلُهُمْ ... فَتُسَابِقُ دَوْرَاتِ الزَّمَنِ
لا يَعْلَمُ عَدَّهُمْ إلاَّ ... رَبّي خَلاّقٌ عَلاّمُ
مِنْهُمْ جِبْرِيْلُ أَمِيْنُ اللهِ ... وحَامِلُ سِرٍّ مِقْدَامُ
مِنْهُمْ مَنْ يَحْمِلُ عَرْشَ اللهِ ... لَهُمْ تَسْبِيْحٌ رَنّامُ

(أنعمْ بهم... أكرمْ بهم... فهم العبّادُ الأخيار)

وَكَذَا مِيْكَالُ وإسْرَافِيْلُ ... لِنَفْخِ الصُّوْرِ ولِلمَطَرِ
ومَلائِكَةٌ زُوّارُ النَّاسِ ... بِعَتْمِ اللّيْلِ إلى الفَجْرِ
لِيَرَوا مَا يَتْلُوا عُبَّادٌ ... بِهَزِيْعِ اللّيْلِ مِنَ السُّوَرِ
مِنْهُمْ مَنْ يَقْبِضُ أَرْوَاحاً ... مِنْهُمْ لِلنّارِ الخُزَّانُ
وعَلَى أَبْوَابِ لِجنَانِ ... رَحَّبَ بالفَائِزِ رِضْوَانُ

فَسَلامٌ يا مَنْ قَدْ فازُوا   فالجَنَّةُ خُلْدٌ وأمَانُ

(أنعمْ بهم أكرمْ بهم . . . فهم العبَّاد الأخيار)

* وعندما يتعلَّمُ الأطفالُ أحوالَ الملائكةِ ، ويعرفُون وظائِفَهم ، تتوضّحُ آفاقُهم ، ويتوثَّقُ إيمانُهم بهم وبخالقهم العظيمِ؛ لهذا رأيتُ منَ الضَّروري لِتتنوَّعَ ثقافتُهم أنْ أذكرَ لهم قصَّةَ إبليس ، وذلك من خلالِ شعْرٍ قَصَصي استقيْتُه من مجلةِ «أبولو» وبالتّالي يحذَرون مَكْرَ الشّيطانِ ، ويعرفون أنَّ بداية الشَّرِّ للإنسانِ كانتْ منْ إبليس الذي عَصَىٰ ربَّه عزّ وجلّ .

* ويحسُنُ بالمربّين أن يبيّنوا للأطفال بأنَّ الشّيطان عدو الإنسان اللدود ، فقد أخذ على نفسِهِ وذريّته العَهْد بأن يضلَّ بني آدم ويغويهم ، وقد بدأ بتنفيذ ذلك مع آدم عليه السلام وزوجه حوّاء ، فأغواهما ، فأهبطوا جميعاً إلى الأرض لتدور معارك جديدة بين آدم وذريّته من جانب والشَّيطان وذريّته من جانب آخر .

* وقد حذّر اللهُ عزَّ وجلَّ من الشَّيطان واتّخاذه عدوّاً ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

* وفي كتابِ الله عزَّ وجلَّ فيضٌ من الآياتِ التي تحذّر من الشَّيطان ومكره ببني آدم، فهو العدوُّ الخفيُّ الذي لا يُرىٰ بالعين، وهو يرصُدُ تحرّكات الإنسان ، ولكنَّ المسلم الواعي يدرك مخاطر هذا العدو الخبيث ويحذر غوائله . فالشّيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم ، فَلَهُ قوّة على الجري في باطن الإنسان مجاري دمه .

* وعلى الرّغم من هذه القُدرات الخارقة للشَّيطان التي يتقوّى بها الشَّيطان على الإنسان ، إلا أنَّ الله عزّ وجل وجّه المسلم إلى الحصن الحصين من كيده ومكره ، إذ أمَرَ بالدّعاءِ والذّكر فإن الشياطين تتسلَّطُ على مَنْ لا يذكر اسم الله ، وأمَّا من يذكر اسم الله تعالى فلا سلطان لهم عليه ، ولهذا شُرعت الأذكار المختلفة في جميع الأحوال ، وكلُّها مستقاةٌ من الهدي النّبويّ ، فالشّياطين تخاف أهل الذّكر وتهابهم، فلا يقربون منهم، بل يهربون منهم وهم مذعورون .

* والواجب على الآباء أنْ يعرّفوا الأطفال بكيد الشيطان من الألف إلى الياء

حتى يحذروه ، ويدربوهم على ردّ كيده بالأذكار الواردة في القرآن الكريم والسّنة المطهّرة.

* والآن سنعيش مع هذه الأهزوجة التي صاغَها الشَّاعرُ «مُخْتار الوَكيْل» والتي تسردُ قصَّةَ هذا اللعين، وعداوتَه لآدمَ عليه السَّلام ولذريته، ثمّ يستمرُّ في الحديثِ حتّى يصلَ إلى خروجهِ مطرداً من الجنَّةِ، وهذا كلُّه قد صاغه الشَّاعرُ مُستضيئاً بالقُرآنِ الكريمِ، والآن سنقرأُ للأطفالِ هذه الأبياتَ الجميلةَ، وهي بعنوان «إبليس»:

مِـنَ الصَّلصـالِ والطِّيـنِ المهيـنِ	بَـراهُ اللهُ فـي فجـرِ الـزَّمـانِ
كـريـمَ الخلـقِ وضَّـاحَ الجبيـنِ	كبيـرَ النَّفـس فيـاضَ البيـانِ
ونـادى فـي المـلائـكِ يـا عبـادي!	خَلَقْـتُ اليـومَ سيّـدكـم جمِيعـاً
عظيـمَ العقـلِ مـوفـورَ السَّـدادِ	نقـي القَلْـب أوَّابـاً مُطيعـاً
سُجَـوداً يـا مـلائكتـي سجـودا	لآدمَ أقـوم الأرواح طُـرَّا
أمـرتكمـو فـإنْ تعصَـوْا جُحـودا	جعلـتُ لكـم جهنّـم مستقـرّا...
مضـى الأمـلاكُ رتْـلاً مستطيـلاً	يـزفّـون التّحـايـا مـنْ بعيـدِ
سـوى إبليـس قـد رفضَ المثـولا	وجـاهـرَ بـالعـداوةِ والكنـودِ
ولمَّـا كـفَّ إبليـسٌ تعـالَـتْ	ريـاحُ السُّخـط تـزأرُ والـرُّعـودُ
وصـاحَ الـربُّ والأكـوانُ مـالـتْ	لُعِنـتَ فـأنـت شيطـانٌ مـريـدُ
ألا فـاذهـبْ كمـا تبغـي كفـورا	فـإنِّـي قـد نـذرتُـكَ للسّعيـرِ
وطِـرْ وازجُ المـآثـمَ والشّـرورا	إلـى رجعـاكَ فـي اليـومِ الأخيـرِ
نفـاهُ عـن الجنَـان وراحَ يغـوي	ذراريـه علـى مَـرِّ العصـورِ
ليخـرجهـم عـن التّقـوى ويهـوي	بهـم للنّـارِ فـي يـوم النّشـور[1]!

(1) انظر: مجلة أبولو (1/999 - 1001) شهر حزيران 1934 م، وقد أوردت أبياتاً من هذه القصيدة ليستفيد منها أطفالُنا بإذن الله. وكذلك يستفيدُ منها الآباءُ والأمّهات والمربّون، وتكون لهم مادّة دسمة يوجّهون - من خلال عِظَاتِها - الأطفال نحو طريق السّداد والصَّواب والخير.

كما أنَّ الآباء والأمّهات يستطيعون حفظ الأطفال من مسِّ الشَّيطان بطريقتين: =

* والحديثُ عن النَّبي ﷺ في هذا الكتاب لا يخلو من فوائدَ عظيمةٍ لأكبادِنا التي تمشي على الأرضِ ، وفي بداية حديثنا عن رسولنا نقول:

إنَّ الكتــابَ إذا حَــلاَ وازْدَانــا ... نِعْــمَ السَّميــر إذا أردْتَ بَيــانَــا
يُهْــدي إلَيْــكَ بَــدائِعــاً ورِوَايــةً ... وَيَصُــونُ سِــرَّكَ إنْ أردْتَ أمــانَــا
تخلــو بــه فَتَــرى صــديقــاً مُخْلصــاً ... كــالبحــرِ يَحْوي الــدُّرَّ والمَرْجَــانَــا
وتــرى بــه روضــاً تَضُــوعُ غُصُــونــه ... مِسْكــاً وتَشْــدو طَيْــرُهُ الألْحــانَــا
ولئــنْ بَلَــوْتَ مَــدَاركَ الإخْــوَانَ مــا ... غيــرُ الكتــابِ يقــدِّمُ البُــرهَــانَــا
كــم فيــكَ مــنْ حِكَــمٍ ستــأتــي آيــةً ... وتُهَــذِّبُ الفَتَيــاتِ والفِتْيَــانَــا

* فالكِتَابُ باقةٌ مِنْ زَهْرِ معرفةٍ قد بَدَتْ عِلْماً وحكمةً وبلاغةً وبياناً ، ينهلُ منه الأطفالُ والنَّاشئةُ ، ويرتوون منْ مَعِينهِ ، فيه حديثٌ عن الأقدمينَ والمُحدثين ، وفيهِ ما رقّ وراقَ من العُلُومِ والآدابِ والوصَايا ، وفيهِ ما ينعشُ الأرواحَ والأبدانَ؛ لذا حرصتُ أنْ يكونَ هذا الفَصْلُ ذا ألوانٍ وأشكالٍ ، ليستفيدَ منه الأطفالُ والناشئةُ ومحبّو العِلْمِ والأدبِ، ومقدرو الجهدِ والبحثِ ، وسأسعى جاهِداً ـ بإذن الله ـ لتقديمِ المفيدِ والجديدِ في هذا البحثِ ، وهذا العَمَلِ المُونق:

ربِّ سَــاعِــدْ علــى البَيــان لِسَــانــي ... فــي كِتَــابٍ قَــدْ صُغْــتُ فِيــهِ بيَــانــي
مُبْــدعَ النَّثْــرِ والقَــريــضِ أغثْنــي ... أنْــتَ عــوَّدتَنــي رَقيــقَ المعَــانــي

* وفي هذا الفصلِ المُفعمِ بالأفكارِ ، المُزهرِ بالآدابِ ، نَسْتَمِعُ ونُسْمِعُ الأطفالَ هذا النَّشيدَ المُثْمِرَ بعنوان «رسول الله» ، وقد صاغَهُ د. محمّد منير

= الأولى: تعويذ الأطفال بالأذكار المشروعة ، وذلك بترديد الأذكار وتحصين الأطفال بها ، فقد ورد عن النَّبيِّ ﷺ أنه عوّذ الحسن والحسين بكلمات الله التّامّة من كلِّ شيطان وهامّة ومن كلِّ عين لامّة.
الثّانية: تعليم الأذكار ، فإذا عُرِفَ أنَّ الذّكرَ هو الحصنُ الحصينُ ضد مكْرِ الشّيطان وكيدِهِ ، فإنَّ مسؤوليةَ المربّين في هذا الجانب ، وواجبهم تعليم الأطفال الكبار حفظ بعض الأذكار الشّرعية الواردة ، حيث يتولّى الأطفالُ تحصين أنفسهم بهذه الأذكار التي يحفظونها. ومن الأذكار التي ينبغي أن يحفظها الأطفال: آية الكرسي ، وخواتيم سورة البقرة والمعوّذات.

الذي خالَطَتِ المحبّةُ النّبويةُ قَلْبَه فَشَدا قائلاً ومادِحاً وداعياً:

يَـــا رَسُــــولَ اللهِ إنِّـــــي ... لَـــكَ مُصْـــغٍ سَـــامِـــعُ
جِئْـــتَ بِـــالهَـــدْيِ إِمَـــامَـــاً ... إنَّ قَلْبِـــي طَـــائِـــعُ
أنْـــتَ نُـــورٌ وهِـــدايَـــة ... يَـــا إمَـــامَ المُـــرسليـــن
كَـــانَ دَرْبُـــاً شَـــائِكَـــاً ... مُتْعبـــاً للسَّـــالِكِيـــنْ
بَلَـــغَ الصَّبْـــرُ المَـــدَى ... فـــي قِـــرَاعِ الظّـــالِميـــنْ
بَعْـــدَهَـــا القَلْـــبُ اهْتَـــدَى ... ورَسَـــا فيـــهِ اليَقِيْـــن
فـــإِذَا الـــدِّيْـــنُ نَعِيْـــمٌ ... ورأوا فِيْـــهِ الإخَـــاءْ
ورأوا فِيْـــهِ حَيَـــاةً ... وهَنَـــاءً وَصَفَـــاءْ

* والحديثُ شِعْراً كان أمْ نثْراً حلو الهمَساتِ؛ خُصوصاً إذا كانَ عَنْ سيِّدِ الكائناتِ؛ محمّدٍ ﷺ، فعلى الآباءِ والمربّين أنْ يهتمُّوا بسيرة النّبيّ ﷺ وأحداث دعوته، ويلخّصوا ذلك للأطفال بأسلوب مشرق فيه التّرغيب والتّحبيب للنّبيّ ﷺ، فمحمد رسول الله؛ أخرجَ اللهُ عزَّ وجلَّ به النّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الجهل إلى العلْمِ، فبِعْثتهُ رحمةٌ للعالمين، ولهذا يجبُ طاعته ومحبّته.

* وإذا استطاعَ المربّون تعريفَ الأطفالِ بشخصيّة النَّبيّ ﷺ وفضائله وشمائله، فإنّ قلوبهم النّقية تصبحُ متعلّقة به تعلقاً عظيماً، وقد كان الصَّحابةُ الكرام يحبّونه محبة تفوق الوصف، حتى إنَّ التّابعي الجليل ثابت البُناني كان يقول لسيدنا أنسٍ بن مالك رضي الله عنه: «أعطني عينيكَ اللتين رأيتَ بهما رسول الله ﷺ حتّى أقبّلهما».

* وحبُّ النّبيّ الكريم ﷺ من حبّ الله عز وجل، فمن أحبّه ﷺ فقد أحبَّ الله عزَّ وجلَّ، لأنّ الله يحبه؛ وقد أمرَ بحبِّه.

* وإذا كانتِ الأوامرُ الرّبَّانيَّةُ تحضُّ على محبّة النّبيّ ﷺ فإنَّ واجبَ الآباءِ والمربّين أنْ يغرسوا في نفوس الأطفال حبه ﷺ وتعظيمه، ولعل أفضل الوسائل إلى ذلك أنْ يهتمّوا دائماً بقراءةِ سيرته الشّريفة التي تضمَّنت وصفه وشخصيّته وشمائله وفضائله التي تؤثر في قلوب الأطفال ونفوسهم، وتجعلهم

يقتدون بهذا النّبيّ الكريم الحبيب إلى الله عز وجل والحبيب إلى المؤمنين.

* ومن المستحسن أن يهتمَّ الآباءُ والمربّون بلَفْتِ أنظار الأطفال إلى بعض المواقف العطرة من السّيرة النّبويّة من مثل: طفولة النّبيّ ﷺ، وشبابه، وتجارته بمال خديجة رضي الله عنها، وعن بدء الوحي وما شبه ذلك، حتى يتمثّلوا السِّيرة في جميع أطوار حياتهم.

ومن النّواحي المهمّة في السّيرة العطرة هذه القصّة الشِّعريّة بعنوان «بَدْء الوحي»، وهي من القصائدِ الجميلة الفائزةِ في مسابقةِ المبعثِ النّبويّ:

كانَ الحَبيبُ يُحِبُّ مِنْذُ بُلوغِهِ	أَنْ يَخْتَلِي في نَفْسِهِ بِصَفاءِ
والاعْتِكافِ بِكُلِّ عامٍ دأْبُهُ	شَهْراً يَغِيبُ بِهِ عَنِ الأَحْياءِ
رَمَضانُ هذا الشَّهْرُ وَهُوَ مُبارَكٌ	قَدْ كانَ يَقْضيهِ بِغارِ حِراءِ
وإذا بِجِبْرائيلَ يحضُرُ بغْتَةً	وَيَقُولُ اقْرَأْ آمِراً بِصَفاءِ
فأَجابَهُ ما كُنْتُ يوماً قارئاً	أو كُنْتُ مَحْسُوباً من القُرّاءِ
لكِنَّ جِبْرائِيلَ كَرَّر قَوْلَهُ	اقْرَأْ وشَدَّ عَلَيهِ بالإلقاءِ
فأَجابَهُ ماذا سأَقْرَأُ دُلَّني	فأَنا على وَفْرٍ من الإصْغاءِ
وعَلَيْهِ جِبْرائِيلُ ردَّ بِقَوْلِه	وبِمَنْطِقٍ مِنْ صِيغَةِ الإمْلاءِ
اقْرأْ وَرَبُّكَ بالصِّفاتِ مُكَرَّم	قَدْ عَلَّمَ الإنْسانَ كُلَّ خفاءِ

* ما زلْنَا نقرأُ الأغاريد عن سيّدنا رسولِ الله ﷺ، وما زالتِ الأنوارُ المحمّديّةُ تَشعُّ لِتَمْلأَ القُلوبَ والنُّفوسَ، وتشدَّ قلوب الأطفالِ وعقولَهم لِتعرفَ نبيّها محمّداً ﷺ، ذلك الذي أخرجَها من الظُّلماتِ إلى النُّور، وصاحبِ الأغْرودةِ الجميلة الآن هو «أحمد شوقي» الذي شَدا بِفَوحِ الشَّذَا في مديحِ سيّدنا رسول الله ﷺ. وفي قصيدة جميلة ونادرة جدّاً يشْدُو شوقي في عام (١٣٢٩ هـ) بمناسبة ذكرى المولد النّبويّ الشّريف بقصيدةٍ جميلةٍ قوامها (٩٩ بيتاً)، وهي من القصائدِ المُتناغمة لَفظاً ومبنىً ومعنىً، وقد تعرّضَ شوقي من خلالِها إلى بعضِ شمائلِ الحبيبِ الأعظم سيّدنا رسولِ الله ﷺ، وقد بدأها بمطلعِ غَزَليّ فقالَ:

بِهِ هَجْرٌ يُتَيِّمُهُ	كِلا جَفْنَيْكَ يعلمُهُ
تعَذِّبُهُ بِسِحْرِهِما	وتُوجِدُهُ وتُعْدِمُهُ

* ثمَّ بعد قرابةِ عشرينَ بيتاً ، يبدأ في ذكرِ الحضْرةِ النَّبويّةِ ، فيقولُ شَادياً :

نبـــيُّ البِــــرِّ والتَّقْـــوى ... مَنَـــارُ الحـــقِّ مَعْلَمُـــــهُ
تـــزفُّ الآيُ محملَــــــه ... إلـــى الــدُّنيـــا وتَقْـــدمُـــهُ
تجلّـــى مـــولـــدُ الهـــادي ... يضـــيءُ الكـــونَ مـــوسمُـــهُ
هلمّـــوا أهْـــلَ ذا النَّـــادي ... علـــى قَـــدمٍ نُعظّمُـــــهُ
بَـــدا تستقْبِـــلُ الـــدُّنيـــا ... بـــهِ خَيـــراً تَـــوسَّمَـــهُ
لكـــلٍّ عنـــدهُ فـــي البِـــرّ ... حـــقٌّ ليـــسَ يَهْضُمُـــهُ
وَلـــيُّ الأَهْـــلِ والأَتْبـــا ... عِ والمسكيـــن يطعِمُـــهُ
نظـــامُ الـــدِّيـــنِ والـــدُّنيـــا ... أُتيـــحَ لَـــهُ يتمّمُـــهُ
تطلَّـــعَ فـــي بنـــائِهمـــا ... علـــى التَّـــوحيـــدِ يـــدعمُـــهُ
بِشَـــرعٍ هـــامَ فيـــه النّـــا ... سُ هـــاشمُـــه وأعجمُـــهُ
حكيـــمُ الـــذّكْـــرِ بيـــنَ الكُتْـــ ... ـــبِ مظهـــرُهُ ومَيْسَمُـــهُ
وكـــمْ لِلحـــقِّ مِـــنْ غَـــابٍ ... رســـولُ اللهِ ضَيْغَمُـــهُ
لـــه الغَـــزواتُ لا تُحصـــىٰ ... ولا يُحصَـــىٰ تكـــرُّمُـــهُ
أميـــنُ قـــريـــش اختلفَـــتْ ... فجـــاءتْـــهُ تُحَكِّمُـــهُ
صبيّـــاً بيَـــن فِتْيَتِهَـــا ... إليـــهِ الأمْـــرُ يـــرسُمُـــهُ
وإنَّ أمـــانـــةَ الإنســـا ... نِ فـــي الـــدُّنيـــا تقـــدّمـــهُ
زكـــيّ القَلْـــبِ طُهِّـــرَ مـــنْ ... هَـــوىً وغـــوايـــةٍ دمُـــهُ
تبـــاركَ مَـــنْ بِـــهِ أسْـــرىٰ ... وجـــلَّ اللهُ مُكْـــرمـــهُ
رســـولَ اللهِ لَـــنْ يَشْقَـــىٰ ... بِبـــابـــكَ مَـــنْ يُيَمِّمُـــهُ
لـــواءُ الحشْـــر بيـــنَ يـــد ... يـــكَ يـــوم الـــدِّيـــن تَقْـــدمُـــهُ
شفيعـــاً فيـــهِ يـــومَ يلـــو ... ذُ بـــالشُّفَعـــاء مُجـــرِمُـــهُ
أنـــا المـــرحـــومُ يـــومئـــذٍ ... بِـــدرٍّ فيـــكَ أنظمُـــهُ[1]

---

(١) انظر : الشّوقيات المجهولة (٢/ ١٣٥ ـ ١٣٩) بشيءٍ من الاختصار . وقد حاولتُ أنْ أوردَ شيئاً من أبياتِ هذه القصيدةِ الجميلةِ لندرتها ، ولما فيها من أحداث مهمّة في السِّيرةِ النّبويةِ ، =

* وننتقلُ الآن إلى بلادِ المغربِ لنعيشَ لحظاتٍ رغيدةً مع أنشودةٍ في محبّةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ ، هذه الأنشودةُ القافيَّةُ الجميلةُ التي نظَمها شاعرُ الجزائرِ «محمد العيد» وشدا بها في عام (١٩٣٨ م) . وهي أغرودةٌ تميسُ جمالاً ، تصلحُ للأطفالِ ، ويحسنُ بالمربّين والآباء أنْ يطلعوهم عليها ، ويغرسُوا في نفوسهم الصَّافيةِ محبّةَ الحبيبِ ﷺ من خلالِ مدائحهِ ، ومن خلالِ القصائدِ والأناشيدِ الهادفةِ الموحيةِ ، ولن أتأخرَ عنكم أعزّائي الأطفال ، بل سأزفُّ لكم أدبَ المغربّيين في حُلاَهُ وحَلاوتِهِ بهذهِ الأهزوجةِ التي تحكي جانباً من الإشراقاتِ النَّبويةِ المحمّديّةِ :

بمحمّـــــدٍ أتعلَّـــــقُ ... وبخُلقـــــهِ أتخلَّـــــقُ
وعلـــى البنيـــنَ جميعِهـــم ... فـــي حبِّـــهِ أتفـــوّقُ
أنـــا مسلـــمٌ أهـــوَىٰ الهـــدىٰ ... بســـواه لا أتحقَّـــقُ
بخـــلالِ أحْمَـــدَ أرتَـــدِي ... وبحبِّـــهِ أتمَنْطـــقُ
فـــي مثـــل هـــذا الشَّهـــر لا ... حَ كَبـــدْرِهِ يتـــألَّـــقُ
فعلـــىٰ الـــوجـــودِ نَضـــارة ... مِـــلءَ العيـــونِ ورونـــقُ
أنـــا أســـرعُ الفِتيـــانِ فـــي ... مـــا تـــرتضيـــهِ وأسْبـــقُ
جنـــديُّـــكَ الغـــازي بـــأَمْـ ... ــرِكَ يـــومَ يغـــزو الفيلـــقُ
قسَمـــاً بـــربّـــكَ إنَّنـــي ... مـــتْنَ غيـــرِهِ لا أفـــرَقُ
إنِّـــي علـــى البيضـــاء مُغْـ ... ـتَـــدلُ الخُطـــا لا أزلـــقُ
هـــي ملّـــةٌ يُمْحَـــىٰ بهـــا ... ريْـــبُ القلـــوبِ ويُمْحَـــقُ
أتْلُـــو الكتـــابَ مُصـــدِّقـــاً ... إنَّ الكتـــابَ مُصـــدَّقُ
يـــا قـــائـــداً فـــي الحـــربِ صَـ ... ـــفُّ جنـــودِهِ لا يُخْـــرَقُ
لـــي أســـوةٌ بـــكَ فـــي دِفَـــا ... عِـــكَ يـــومَ خُـــطَّ الخَنـــدقُ
والصَّحـــبُ بـــالأحـــزاب تُغْـ ... ـــزَىٰ والمـــدينـــةُ تُحْـــدَقُ
مـــا زلـــتَ تُـــرفَـــدُ بـــالمُـــدو ... دِ مـــن السَّمـــاء وتُـــرفَـــقُ

= والتي تفيدُ النَّاشئة فائدة كبيرة بإذن الله عزّ وجلّ ، وتساعد المربّين على إتمام مهمّتهم التربوية في هذا المجال الرحب الميمون .

حتّـــى رأيـــتَ القـــومَ يُهـ ـــــزَم جمعُهـــم ويُمَـــزَّقُ
مـــا زلْـــت فـــي درجِ المعـــا رِف والعُلـــى تتسَلَّـــقُ
أنـــتَ الحنيـــفُ فـــلا تخـــفْ إنَّ الحنيـــفَ مُـــوَفَّـــقُ(١)

* وممَّا يزيدُ ثقافةَ الأطفالِ ويثْريها في السِّيرة النّبويةِ (Prophet Mohamed's life) ، حديثُ الهجرةِ الشّائقِ المُمتعِ ، إذْ يَشْرحُ الآباءُ أو المربّون للأطفالِ ، ما لقِيَهُ المسلمون من إيذاءِ فجّارِ الكفّارِ بمكّةَ ، ثمّ الإذنُ بالهجرةِ إلى المدينةِ المنوّرةِ ، ويوضّحُ المربّي هجرةَ سيّدنا أبي بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ مع سيّدنا وحبيبِنا رسولِ اللهِ ﷺ ، وفدائيّةُ سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ ودورُ أسماءَ بنتِ أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ في رحلةِ الهجرةِ ، إلى أنْ وصلَ الرّكبُ الميمونُ المدينةَ المنورةَ واستقبالُ الأنصارِ لهم أجْملَ استقبالٍ وأصدَقَهُ في التّاريخِ الإنسانيّ؛ ثمّ يقرأُ الآباءُ هذا النّشيدَ الجميلَ الجامعَ لأحداثِ الهجرة على مسامعِ الأطفالِ؛ ويشرحه شرحاً بسيطاً لتتوضّحَ صورُ الصَّحابةِ وأحداث الهجرة من خلاله :

الهجـــرةُ رِحْلـــةُ هَـــادينـــا حَمـــلَ الإسْـــلامَ لنـــا دِيْنـــا
فَسَـــلامُ اللهِ علـــى الهَـــادي والكَـــونُ يُـــردِّدُ آمينـــا
رحـــلَ الصِّـــدِّيـــق عـــن الـــدَّار فـــي صُحبـــةِ خَيْـــرِ الأبْـــرارِ
صَلَـــواتُ اللهِ تبـــاركُـــهُ مـــلأَ الـــدُّنيـــا بـــالأنـــوارِ
اللهُ تكفَّـــــلَ يَحميـــــهِ وعَلـــيٌّ أصبَـــحَ يَفـــديـــهِ
وبِســـرِّ القَـــومِ الأَشْـــرارِ بِنْـــتُ الصّـــدِّيـــقِ تـــوافيـــهِ
وَصَـــلَ المختـــارُ إلـــى طيْبـــةْ والكَفـــرُ تـــراجـــعَ فـــي خيبـــةْ
وجنـــودُ اللهِ تحيـــطُ بهـــمْ مـــن نُـــورِ الإســـلامِ الهيبـــةْ

---

(١) ديوان محمد العيد (ص ١٦٦ ـ ١٦٨) باختصار؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ مطبعة أحمد زبانة ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة. أقول: «ومن الفضائل التي ينبغي على الآباء والمربين أن ينتبهوا إليها: تعليمُ الأطفالِ الأدبَ مع النّبيِّ ﷺ فيحثّوهم على الإكثار من الصّلاة والسّلام عليه دائماً ، وخصوصاً يوم الجمعة ، لقوله ﷺ: «أكثروا الصّلاةَ عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فمن صلّى عليَّ صلاةً صلة الله عليه عشراً» (السّنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٤٩) وبهذا التّعظيم والتّوقير للنّبيِّ ﷺ يتعود الأطفال على اتّباعه إذا كبروا».

بـــالـــرّوحِ سَنَحْمـــي المختـــارا ونُقـــاتـــلُ عنـــهُ الكفّـــارا
عَهْـــداً للهِ نُبـــايعُـــهُ جُنْـــداً للهِ وأَنْصَـــارا

* وعن مغازي رسولِ الله ﷺ يربّي الآباءُ الأطفالَ على معرفةِ أحداثِها ، من مثل: غزوةُ بَدْرٍ أَشْهرُ غزوةٍ في تاريخِ السِّيرةِ النَّبويةِ ، ويذكرُ الآباءُ بأنّها كانت في يوم الجُمعَةِ (١٧ رمضان) من السَّنَةِ الثَّانيةِ من الهِجْرةِ المباركةِ ، وقائدُهَا هو أفضلُ خَلْقِ اللهِ على الإطلاقِ نبيّنا محمّد ﷺ ، بينما كان قائدُ الجيشِ المُشرك عمرو بن هشام «أبو جَهْل» فرعونُ الأمّة ، وكانتِ الموقعةُ في بَدْرٍ ، وبدرٌ موضعٌ يبعدُ عن المدينةِ أكثرَ من (١٠٠ كم) إلى الجَنُوبِ الغربي.

* ويصفُ المربّون أحداثَ الغزوة ، ومواقفَ الصَّحابة(١) ونزولَ القُرآنِ ، ويسلكُون في عرضِ الأحداثِ الأسلوبَ القَصَصي الجميلَ الشَّائقَ ، ليتابعَ الأطفالُ مُجرياتِ المعركةِ ، ثم يختمُ المربّي ذلك بإنزالِ النَّصرِ منْ عند اللهِ تعالى المؤمنين ، ويقرأُ لهم هذا النَّظمَ الجميلَ بعنوان «يوم بدر»:

فـــي بَـــدْرٍ عَـــزَّ الإسْـــلامُ وهَـــوَتْ لِلْبـــاطـــلِ أَصْنـــامُ
وتَعَـــالَـــتْ رَايَـــةُ خَـــالِقِنَـــا وتَـــرَاجَـــعَ عَنْهـــا الإجْـــرامُ
قَـــدْ قَـــادَ القِلَّـــةَ مُـــؤْمِنَـــةً لِلنَّصـــرِ رَسُـــولٌ وإمـــامُ
فَتَعَـــالَـــىٰ اللهُ يُـــؤَيِّـــدُهُ وعَلَيْـــهِ صَـــلاَةٌ وَسَـــلامُ
بَـــدْرٌ يـــا يَـــومَ مَفـــاخِـــرِنَـــا تَـــزْهُـــو بِعُـــلاهُ الأيَّـــامُ

* ويحدّثُ الآباءُ الأطفالَ عن غزوةِ أحدٍ والخندقِ وبني قُريظةَ وبني المُصطلقِ وغيرِها من المغازي ، ويتوقّفُ عند بعضِها شارحاً وموضحاً ، فمثلاً يتحدّث المربّي عن غزاةِ خيبَر ، وأنّها كانت في السَّنَةِ السَّابعة من الهجرةِ ، وقائدها سيّدنا رسولُ الله ﷺ ، وأنَّ عددَ جنودِه يقتربُ من (١٤٠٠ صحابيّ) ، ثم يشيرُ إلى غَدْرِ اليهود بالنبي ﷺ ، ومسيرةُ النبيّ ﷺ إليهم ، ومن ثمّ يذكرُ بطولات عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وحَمْلِهِ الرّاية ذلك اليوم ، ولا مانعَ

---

(١) ننصح القرّاء الكرام بالعودة إلى موسوعتنا «فرسان من عصر النبوّة» طبعة دار اليمامة بدمشق ، وقراءتها على أسماع الأطفال واليافعين ليعرفوا أقدار الصحابة في جميع الميادين وخصوصاً في ميدان الجهاد والإيثار والتّضحية. والله وليُّ التوفيق.

منْ أنْ يقرأَ هذه الرّائيةَ الموحيةَ على مسامعِ الأطفال ، ويكرّرها حتى يحفظونَها :

البَـاطـلُ مَهْـزُومُ العَسْكَـرْ وجُمُـوعُ البَـاطِـلِ فـي خَيْبَـرْ
ويَهـودُ الحِقْـد ولَـو كَـادُوا ومـن الإسْـلامِ غَـدَتْ تَسْخَـرْ
فَـرَسُـولُ اللهِ يَسيـرُ لِمَـا أَمـرَ الـرَّحمْـنُ ومَـا قَـدَّرْ
وعلـيٌّ حَـامِـلُ رايتِـهِ كـاللَّيـثِ الغَـاضـبِ إذْ يَـزأرْ
وتَحَقَّـقَ نَصْـرُ كَتَـائِبِنـا وتَعَـالـى اللهُ هُـوَ الأكبَـرْ

* ويمكنُ للآباءِ والمُربّين أنْ ينتقلُوا بحديثهم وينقلُوا الأطفالَ إلى عَصْرِ الخلافةِ الرّاشدةِ ، ويحدّثُوهم عن الرِّدَّةِ الخطرةِ بزعامةِ الأفّاكِ المُحتالِ مُسيلمةَ الكذّاب[1] الذي عاثَ في الأرضِ فساداً وضلالاً ، ومن ثمَّ تصدّى له الصِّدِّيقُ الأكبرُ أبو بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ وتحدّاهُ بسيفِ الله المسلولِ وسيفِ الرّسول خالد بين الوليد ـ رضي الله عنه ـ هازِم الكتائب المرتدة ، وقاتل أهلِ الشّركِ بحسامِهِ البتارِ؛ ومن ثمّ يقرأُ الأطفالُ هذه اللاميّةَ الجميلةَ التي تحكي جانباً من حروبِ الرّدّة :

قَـدْ مَنَـعَ الكفَّـارُ المَـالاَ وأغـارُوا خَيْـلاً ورِجَـالاَ
ومُسيلمَـةُ الكَـذَّابُ سَعَـى فـي النَّـاسِ فَسَـاداً وضَـلالاَ
وبَـدا كـاللَّيـثِ أبـو بكْـرٍ حَـزْمـاً ومضَـاءً وجـلالاَ
سَـأُقـاتِـلُ مَـنْ يـرتَـدُّ ولـوْ مَنعُـونـي حبْـلاً وعِقَـالا
وبسَيـفِ اللهِ تَحَـدَّاهُـمْ وأراهُـمْ منـهُ الأهْـوالاَ

* وفي رحلةِ المعاركِ الإسلاميّةِ (Islamic battles) ، يذكرُ الآباءُ للأطفالِ أحداثَ معركةِ اليرموكِ الشّهيرة التي حدثَتْ في بلادِ الشّامِ في السَّنَةِ الثّالثَةَ عشْرةَ من الهجرةِ قربَ نهر اليرموك ، وكان قائد جيشِ المسلمين بطلُ الإسلام وسيفُ اللهِ ورسولهِ خالدُ بنُ الوليد رضي الله عنه ، ومعه عددٌ من أعيانِ الصَّحابة

(١) اقرأ سيرة هذا الكذاب المحتال في كتابنا «المبشّرون بالنّار» طبعة دار ابن كثير بدمشق ، ولاحظ كيف أخزاه الله ومحَقَه ومَنْ معه ، ولاحظ أيضاً موقف أبي بكر الصّديق رضي الله عنه تجاه المرتدّين وغضبته المضريّة لدين الله .

وأخيارهم وفرسانهم الكبار من مثل: سيّدنا أبو عُبيدة بنُ الجرّاح ، وعمروُ بنُ العاص ، والزُّبيرُ بنُ العوام ، وشُرحبيلُ بنُ حسنةَ ، والقعقاعُ بنُ عمرو ، ويزيدُ بن أبي سفيان ، وعِكْرِمَةُ بن أبي جَهْل وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ ويشرحون للأطفالِ انتصار المُسلمين على جموعِ الرُّوم ، وينشدون لهم هذه الأغرودةَ الحلوةِ لشاعرِ الأقصى:

وعلــى اليَــرْمــوكِ تَــراتيــلُ ... مِــنْ آيِ الــذِّكــرِ وتَنــزيــلُ
وابــنُ الجــرَّاحِ يُعــاونُــهُ ... سَيــفٌ للعــزَّةِ مَسْلُــولُ
فــانْــدَحَــرَ البَــاطِــلُ مَهْــزُومــاً ... والــرُّومُ أَسيــرٌ وقتيــلُ
وحُصُــونُ دِمَشْــقَ يُــزَلْــزِلُهــا ... تَكْبيــرُ اللهِ وتَهليــلُ
والحَــقُّ تعــالَــتْ رايتُــهُ ... مُــذْ حَمَــلَ الــرَّايَــةَ جِبْــريــلُ

* وينتقل المربّون مثلَ النّحلةِ فوقَ الزّهرِ ، فينقلُون للأطفال الصُّورَ المشرقةَ من بطولاتِ الصَّحابةِ في معركة القادسيّة الشَّهيرةِ التي وقعتْ في سنة (١٤ هـ) قربَ القادسيّةِ في العراقِ ، وكان قائدُ هذه الموقعةِ الأسدُ في بَرَاثِنِهِ سعدُ بنُ أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ أحدُ العشرة المبشّرينَ بالجنَّةِ ، وأحدُ فُرسانِ مدرسةِ النّبوّةِ[1] ، الذين ملؤوا الدّنيا بالمكارمِ ، ويذكرُ المربّون بأنَّ قائدَ جيوشِ الفرسِ هو رستُم جاذوَيْهِ الذي قَدِمَ بجيشٍ جرّارٍ ومعهُ أكثرُ من ثلاثينَ فيلاً ، منهم فِيْلُ سابُور الأبيض.

* ومن خلالِ الحديثِ عن بطولاتِ القادسيّةِ ، يستمعُ الأطفالُ إلى هذهِ النّونيّةِ العذبةِ ، لتزدانَ ثقافتُهم وتزدادَ خبرتُهم ، وتصقلَ مواهبُهم بحفظِ ألوانِ الشِّعرِ والأدبِ:

زَلْــزِلْ يــا سَعْــدُ الإيــوانــا ... واحْمِــلْ لِلنَّــاسِ القُــرآنــا
وٱنصُــرْ بــاللهِ كَتَــائبَنــا ... وٱنشُــرْ فــي الكَــونِ الإيمــانــا
قَــدْ ضَــلَّ الفُــرْسُ وقَــد عبــدوا ... مِــنْ دونِ اللهِ النِّيــرَانــا

(١) اقرأ موسوعتنا المباركة «فرسان من عصر النّبوّة» طبعة دار اليمامة ، إذ تجد فيها الأخبار الموثقة عن أبطال الصحابة وفرسانهم الذين تربوا في المدرسة المحمدية فغدوا سادة الدنيا رضي الله عنهم وأرضاهم.

وتَــراجــعَ رستــمُ فــي عَجــبٍ ليُــلاقــي كِســرَى حَيْــرانــا
فعلَـــتْ رايَـــاتُ محَبّتِنـــا ومــلأنــا العَــالَــمَ إحْسَــانــا

* وينتقلُ بعد ذلكَ الآباءُ إلى الحديثِ عن معاركِ المسلمينَ الشّهيرةِ في التّاريخ ، ويعرّجُ على حطّينَ ، تلك المعركةِ الشّهيرةِ التي وَقَعَتْ في ربيع الأوّلِ سنَة (٥٨٣ هـ) . وكان قائد هذهِ المعركةِ صلاح الدّين الأيّوبيّ . ثم يذكُرونَ للأطفالِ كيفَ انتصرَ جيشُ المسلمين على الصّليبيين والإفرنجِ ، وكيفية توحيدِ صفوفِ المسلمين ، وطردِ الغزاةِ عن أرضهم.

* ثمّ يعمدُ الآباءُ والمربّون إلى غرسِ صُوَرِ الأبطالِ المسلمين بنفوسِ الأطفالِ ، ويذكرون مكارِمَهم في الحروبِ ، وفي ثنايا هذا النّشيدِ يعيشُ الأطفالُ بأجوائِهِ وهم مستمتعونَ بهِ ويقولون:

حِطّيـــنُ جِهَـــادٌ وفِـــدَاءُ ونِـــداءٌ يَعلـــوهُ نِـــدَاءُ
بـــاللهِ نُصِـــرْنـــا وانْجـــابَـــتْ عـــنْ أرضِ القُـــدسِ الظّلَمـــاءُ
فَـــرَّ الإفْـــرَنْـــجُ يُطـــارِدُهُـــمْ سَيـــفٌ للعـــزّةِ وضّـــاءُ
وصَـــلاحُ الـــدِّيـــنِ بَـــدَا لَيْثـــاً يَتَـــوارَى منْـــهُ الأعْـــداءُ
قـــدْ جمـــعَ الشَّمـــلَ ووَحَّـــدَنـــا فـــي الحَـــقِّ صَفَـــاءٌ وإِخَـــاءُ

* * *

الفصلُ الثَّاني
عباداتٌ وسُلُوكيّاتٌ في أهازيجَ

* من واجب المُربّين والآباءِ أنْ يعرّفُوا الأطفالَ معنى العبادةِ وممارستِها وهم في مرحلةٍ مبكرةٍ ، لأن المسلمَ ينالُ مرضاةَ اللهِ في أداءِ العباداتِ التي فَرَضها اللهُ عزَّ وجلَّ عليه .

* والعبادةُ هي اسمٌ جامعٌ لألوانِ البرِّ ، ولكلِّ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ ويرضَاهُ من الأقوال؛ ومن الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ ، فالصّلاةُ ، والزّكَاةُ ، والصِّيامُ ، والحجُّ ، وبرُّ الوالدين ، والأمرُ بالمعروفِ ، والإحسان[1] إلى الجيرانِ ، والأيتامِ ، والمساكينِ ، وأبناءِ السَّبيلِ ، وحتّى إلى الحيواناتِ؛ وذكْر الله ، والدُّعاء ، والصّدق[2] ، وأداء الأمانةِ ، ووفاء الوعد و . . . . وما شابه ذلك كلُّ هذا من بابِ العبادةِ؛ وكذلك حبُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وحبُّ رسولهِ ﷺ ، وخشيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، والإنابةُ إليه ، والتّوكّلُ[3] عليه ، والشّكرُ لِنعَمهِ ، والرّضا بقضائه ورجاءِ رحمته ، والصَّبرُ[4] على حكمتهِ ، وأمثالُ ذلك يُعَدُّ منَ العِبَادة لله عزَّ وجلَّ .

* ويعلّمُ الآباءُ والمربّون الأطفالَ أنواعَ العباداتِ ، من مثل: الأركانُ

---

(١) اقرأ كتابنا «الإحسان في القرآن الكريم» دار اليمامة ط١ ـ ١٤١٨هـ.

(٢) اقرأ كتابنا «الصدق والصادقون» دار الكلم الطيب ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٤١٥هـ.

(٣) اقرأ كتابنا «التوكل» دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٤١٨هـ.

(٤) اقرأ كتابنا «الصبر والصابرون» دار الكلم الطيب ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٤١٥هـ.

الخمسةُ ، والذّكْرُ ، وبعضُ العباداتِ الأخرى التي تناسبُ سنَّ الطّفوليّةِ والنّاشئة.

* إنَّ تعليم الأطفالِ للعباداتِ ذو فوائد جمّةٍ ، فهي أركانُ الإسلام ومبانيه الرئيسيّة ، يدلُّ عليها الحديثُ النّبويُّ المشهورُ الذي رواه سيّدنا عبدُ اللهِ بنُ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنهما ـ عن رسولِ الله ﷺ قال: «بُني الإسلامُ على خمْسٍ: شهادةُ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإقامُ الصّلاة ، وإيتاءُ الزّكاة ، والحجُّ ، وصوم رمضان»(١).

* ولأنَّ العباداتِ (Worship) هي جوهرُ الإسلامِ ولبُّه ، ولها أحوالٌ دينيةٌ خاصَّةٌ ، مقيّدةٌ بأوقاتٍ معينةٍ وصفاتٍ معينةٍ ، مشتركٌ في غالبها نيّةُ التّقرّبِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وليس فيها نفعٌ دنيويٌّ مباشرٌ ، وهي تميّزُ المجتمعَ المسلمَ عن غيرهِ من المجتمعاتِ الأخرى.

* وإذا ترسَّختِ العباداتُ في ذهْنِ الأطفالِ فسيعرفون بأنَّ الحياةَ قائمةٌ على عابدٍ ومعبودٍ ، وأنَّ النّاسَ جميعاً عبادٌ لله عزَّ وجلَّ ، وأنَّهُ مطّلعٌ على حركَاتِ النَّاسِ وسكَنَاتهم؛ ويجبُ غرسُ هذه المفاهيم بنفوسِ الأطفالِ منذُ الصِّغرِ ، إذْ إنَّ هذه المرحلةَ مرحلةُ تأسيسٍ ، وإذا نشأ الأطفالُ عليها انعقدتْ محبّتها في قلوبهم وأَلِفُوها ، فمن حقِّ الأطفال أنْ يعلّمهم آباؤهم ما فرضَ اللهُ عزَّ وجلّ عليهم ، وما نَهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ عنه.

* ولذا فعلى الآباءِ والأمّهاتِ تدريبُ الأطفالِ على العباداتِ من صلاةٍ وصومٍ وطهارةٍ ، قال الشّافعيُّ ـ رحمه الله ـ: «على الآباءِ والأمّهاتِ أنْ يؤدّبُوا أولادهم ، ويعلِّموهم الطّهارةَ والصَّلاةَ ، ويضربوهم على ذلكَ إذا عقَلُوا»(٢)

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) انظر: المجموع للإمام النووي (٣/ ١١). ومن الواضح أنّه ينبغي على الأبوين أن يعلِّموا أطفالَهما ما يحتاجونَهُ لأنفسِهم منْ أحكامِ الإسلام مثل: كيفية الاستنجاء والوضوء ومعرفة نواقضه ، والصَّلاة وما يلزم فيها ولَها ، والصَّوم وبعض أحكامه ونحو ذلك.
وعلى الأمّ أنْ تعلّمَ ابنتها ما تحتاجهُ من أحكام الإسلام المتعلّقة بالنِّساء مثل الحيض ، والغُسْل منه عند مقاربتها سنّ البلوغ ، كما تعلّمها ما يتعلّق بأمور البيت وشؤونه ، =

وقال الكَيا الهرّاس الفقيهُ المعروفُ المتوفى سنة (٥٠٤ هـ): «علينا تعليمُ أولادِنا ، وأهلينا الدِّيْنَ والخيرَ ، وما لا يُسْتَغنى عنه من الأَدَب».

* ومن الملاحظ أنَّ هذه النُّصوصَ والأدلةَ والآثار تكشفُ عن العنايةِ الثّقافيةِ التي أرادَها الإسلامُ في تزكيةِ نفوسِ الأطفالِ ، وتربيتهم على العبادةِ ، وبالتّالي ترتبطُ هذه الأنفسُ الغضّةُ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وتتعودُّها وتتخلّقُ بها ، لأنَّ التَّعودَ من أهمِّ العواملِ المؤثّرةِ في الطُّفولةِ وهي أيسرُ عندما يكونوا في مرحلةِ الصِّغَرِ ، وتنطبعُ في نفوسهم ، وعلى المربّين أنْ يعوّدوا الأطفالَ الصِّفاتِ الحسنَةَ ، ويربّوهم التّربية الإسلاميّة (Islamic education) ويجنّبوهم العادات الملتوية ، والتّربية السَّيئة (Miseducation).

* وقد حرصَ كثيرٌ من أدباءِ الشُّعراء ، على ترسيخِ مفهومِ العباداتِ ، من خلالِ أهازيجَ خفيفةٍ سهلةٍ نظمُوها للأطفالِ ، ومنهم شاعرُ الأقصىٰ الذي وُفّقَ في هذا المضمارِ الميمون ، فقد ألّفَ عدداً من المنظُوماتِ الجميلةِ في أسلوبٍ رشيقٍ فيه المُتعةُ والفائدةُ ، ففي أهزوجةٍ عنوانُها: «اللهُ ربيّ ومحمد نبيّي» يُوصلُ الأطفال إلى معرفةِ الشّهادتَيْن فيقول:

إنْ سـألتـمْ عـن إلهـي
فهـوَ رحمٰـنٌ رَحيـمْ
أَوْ سَـألتـمْ عَـنْ نبيِّـي
فهـوَ إنسـانٌ عَظيـمْ
أَوْ سَـألتـمْ عَـنْ كِتـابـي
فهـوَ قـرآنٌ كـريـمْ

= والمستحب فيها ، والمكروه منها شرعاً.

وقد صرّح العلماءُ والفقهاءُ بوجوب قيام الأبوين بتعليم أطفالهما الأمور الدينية ، فإذا قصّر أحدهما في تعليم الطفل ، نُزِع من يده وسُلِّمَ إلى مَنْ يرعىٰ واجب تعليمه.

قال ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله: «قال شيخنا ـ شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ: وإذا ترك أحدُ الأبوين تعليم الصَّبي ، وأمره الذي أوجبه الله عليه ، فهو عاصٍ ولا ولاية له عليه. . . فإمّا أنْ يرفعَ يده عن الولاية ويُقم مقامه مَنْ يفعل الواجب ، وإمّا أنْ يُضمَّ إليه من يقوم معه بالواجب. . .». (زاد المعاد ٤/ ١٣٨) بتصرف. .

أَوْ ســـــأَلتـــــمْ عَـــــنْ عَـــدوّي
فهـــــوَ شيطـــــانٌ رجيـــــمْ

* وفي أهزوجةِ «الصَّلاة»[1] استطاعَ شاعرُ الأقصى أنْ يعرّفَ الأطفال بأنَّ الصَّلواتِ المفروضةَ على المسلم هي خمسُ صلواتٍ ، يؤدّيها المسلمُ في اليومِ والليلةِ ، لِنَسْمعْ إليهِ يقول:

كلَّمـــا نـــادَىٰ المُنـــادي ... هَـــاتِفـــاً اللهُ أكبـــرْ
خَمْـــسَ مـــرَّاتٍ نُصلِّـــي ... بخُشـــوعٍ وتفكُّـــرْ
فـــي قيـــامٍ وقعـــودِ ... مَـــا أُحَيـــلاهـــا صَـــلاة
وركُـــوعٍ وسُجـــودِ ... نبتَغـــي عفْـــوَ الإلـــهْ

* وقد أجادَ إجادةً بالغةً في لَفْتِ أنظارِ الأطفالِ إلىٰ فريضةِ الزّكاة ، وإلى الأموالِ التي يزكّي المسلمُ عنها ، فقال:

ابـــذلْ مـــن مـــالـــكَ مَسْـــرورا ... قَمْحـــاً ونقـــوداً وحَـــريْـــرا
واحْفَـــظْ مِسْكينـــاً وفَقِيـــرا ... وتجنَّـــبْ ويْـــلاً وسعيـــرا
واطلـــبْ مـــنْ خَـــالِقـــكَ الـــرَّحمـــةْ
ابـــذلْ مـــنْ مَـــالِـــكَ لا تَنْـــدمْ ... فَـــزكـــاةُ المـــالِ بهـــا تَغْنَـــمْ
وارحَـــمْ إخـــوانـــكَ كـــي تُـــرحَـــمْ ... فـــي يـــومِ الحَشْـــرِ غـــداً تسلـــمْ

---

(1) إنَّ الأبَ الواعي الحصيفَ المثقّف يأخذُ ولده إلى المسجد ، ويعوّده على صلاة الجماعة ، ومن خلالها يتعرّف الأطفالُ على العلماء والفقهاء والأئمة ، ويقتبسوا آداب الصلاة وآداب الإصغاء إلى المواعظ والخطب ، فيتزوّدوا بالغذاء الرّوحي والفكري ، ويتعوّدوا على أداء الصّلوات كاملة. والأطفال في مرحلة الطّفولة المتأخّرة يميلون بطبعهم إلى مشاركة الكبار في أداء الشّعائر التّعبُّديّة ، فيستغلُّ الآباء هذه الميول ، وينمّوها بالوسائل التّربوية المتنوِّعة.
ويستطيعُ الآباء أنْ يكثروا من ذكْر المسجد عند الأطفال ، ويحاولوا أنْ يقرنوا كلَّ جميل بالمسجد وبالصّلاة ، فإذا أَلِفَ الأطفالُ الصَّلاةَ استطاع الآباء أن يرغّبوهم بصلاة الجمعة ويتحدَّثوا لهم عن فضائل يوم الجمعة ، ويظهروا اهتمام المسلمين بهذا اليوم. ولا بدّ للآباء من الحكمة وتقدير طبيعة الأطفال فلا يقْسُوا عليهم دون سنّ العاشرة ، بل يسلكوا معهم أسلوب التّرغيب والتّشويق حتّى يحبّوا الصّلاة ويحبّوا المسجد والمداومة على كافة الصّلوات.

مـــــنْ نَـــــارِ جَهنَّـــــمَ والنِّقْمـــــةْ

ابــذلْ مــنْ مــالِــكَ فَــرْحَــانــاَ　　واحفــظْ بــزكــاتِــكَ إنســانــا
واقـــرأْ فـــي بيتِــكَ قـــرآنـــا　　واطلـــبْ مـــن ربِّـــكَ رِضـــوانـــا
واشكـــرْ مَـــولاكَ علـــى النِّعمـــةْ

* وفي رقّةٍ فائقةٍ نظمَ هذه الأهزوجةَ عن الصَّومِ(١) فقال:

رَمضَــــانُ هَــــلَّ هِــــلالُــــه　　فــــاستبشــــروا بطلُــــوعــــهِ
وبِصَــــومــــهِ وصَــــلاتِــــهِ　　وبِــــذِكْــــرهِ وخُشــــوعِــــهِ
فــــاضَــــتْ عَلينــــا رَحْمــــةٌ　　بــــالخيــــرِ مــــن يَنْبُــــوعِــــهِ
قــــد عَــــادَ يشــــرقُ بــــالهــــدىٰ　　يــــا مــــرحبــــاً بــــرجــــوعِــــهِ

* واستطاعَ بسلاسَةِ المتذوّقِ أنْ يقرّبَ فريضةَ الحجِ إلىٰ أذهانِ الأطفالِ، وصوَّر بذلك هذا الموقفَ الحِواريّ اللطيف فقال:

قَــدْ سَــارَ أَبــي ومَضَــىٰ يــومــاً　　فَسَــأَلــتُ أَبــي عــنْ مقصــدِهِ
فــأَجــابَ أبــي أنــوي حجّــاً　　لِــرِحَــابِ النّــورِ ومــولــدِهِ
وأزورُ نبيِّــــي منْشــــرحــــاً　　وأنــــا المُشتــــاقُ لمسجــــدِه

---

(١) من المستحسن أنْ نذكِّرَ الآباء في سياق هذه الفكرة عن الصّوم بمنهج السَّلف الصّالح تجاه الأطفال. فقد نُقِل عن الصَّحابةِ الكرامِ رضوانُ اللهِ عليهم أنّهم كانوا يدرّبون أطفالَهم وصغارهم على الصِّيامِ، ويعودونهم عليه، وقد استناروا بذلك من الهديّ النّبويّ، فقد جاء في الصَّحيح عن الصَّحابيةِ الجليلة الرُّبَيّع بنت معوِّذ الأنصارية قالت: «أرسلَ النبيُّ ﷺ غداةَ عاشوراء إلى قرىٰ الأنصار مَنْ أصبحَ مفطراً فليتمَّ بقيةَ يومهِ، ومَنْ أصبحَ صائماً فليصُمْ. قالت: فكُنَّا نصومُهُ بعد ونُصَوِّمَ صبياننا ونجعلُ لهم اللعبة من العِهْنِ ـ الصُّوف الملوّن ـ فإذا بكى أحدهم على الطَّعام أعطيناهُ ذلك حتّى يكون عند الإفطار» (أخرجه البخاري في الصوم).
ففي هذا الحديث الصَّحيح دلالةٌ واضحة على تعليم الأطفال الصوم وتعويدهم عليه وتمرينهم على الصِّيام قدر المستطاع، وعدم الالتفات إلى الأقوال المسمومة التي تخالف الهدي النّبويّ.
وكان بعضُ السَّلفِ من الصُّلحاءِ والفقهاءِ يعطون صوم الأطفال أهمية كبيرة، فكانوا يَرَوْنَ بداية أمر الطِّفلِ بالصِّيام إذا أطاقه دون أنْ يؤثّر على صحته.
والآباءُ والأمّهات يقدّرون بخبرتهم طاقة الأطفال ومقدرتهم على الصوم، فإذا رأوا فيهم قوّةً عليه رغّبوهم في الصَّوم، وبيّنوا لهم فَضْله ومحاسنه من النّاحيةِ الدِّينيةِ والطِّبّيّةِ والنَّفسيّة.

فَحَضَنْتُ أبي ما أطيَبَهُ ولثمتُ المِسكَ على يَدِهِ

* وفي السّيرةِ النّبويةِ العطرةِ أحداثٌ مهمةٌ ، ينبغي على الآباءِ والمربّينِ أنْ يطلعُوا الأطفالَ عليها ، لتَسْتَقِرَّ محبّةُ النّبيّ ﷺ في نفُوسِهم ، من مثل: ليلةُ القَدْر ، ويومُ الهجرة ، ثم يتعرّفون بعضَ الغزواتِ المشهورةِ في عَصْرِ النّبيّ ﷺ وما تلاه من عُصورٍ ، ويعرفون أسماءَ بعضِ القادةِ ، وانتصاراتِ المسلمين ، وهذا ممّا يزيدُ في رصيدِهم الثّقافيّ والمَعْرفيّ ، ويربطُهم بتاريخِ المسلمين الوضيء عبر القرونِ الطَّويلةِ.

* ومن هذا المبدأ حرصتُ على إغناءِ هذا البحثِ ببعضِ الثّقافاتِ النّافعةِ للأطفالِ ليتمثّلُوا بها ويتّخذوها قدوةً لهم في طريقِهم في هذهِ الحياةِ ، وعسى أنْ ينتفعَ بعضُهم منها ، فيدعو لي دعوةً صادقةً بظهرِ الغيب تنفعُني عند اللهِ عزَّ وجلَّ.

* ومن الأهازيجِ التي اخترتُها ليشدوَ بها الأطفالُ ، هذه الأهزوجة بعنوان «ليلةُ القَدر» لشاعر الأقصى ، وهي:

هجرَ الأصنامَ وفارقَها لمْ يَعْبُدْ إلاّ مولاهُ
وأتى جبريلُ يخبِّرُهُ أنَّ الرَّحمٰنَ سيرعاهُ
النُّورُ تلألأ في الصَّحرا ومُحمّدُ يهتفُ ما أقرا؟
وإذا جبريلُ يُبشِّرُهُ في غارِ حِراءٍ بالبُشرَى
في ليلةِ آياتِ القدْرِ وسلامُ اللهِ إلى الفجرِ
نزلَ القرآنُ لينقذَنا في أعظمِ أيّامِ العمرِ
اقرأْ واللهُ هُوَ الأكرَم خلقَ الإنسانَ من العَلَقِ
ومضى جبريلُ يودِّعهُ وتوارَى في جوفِ الأُفُقِ

* ومن الأناشيدِ التي تزيدُ من الرّصيدِ الثّقافي لدىٰ الأطفال ، وتصقلُ من طباعِهم ، هذا النّشيدُ الجميلُ ، في هذهِ الرُّباعيّاتِ اللطيفةِ بعنوانِ «يا أخي المُسلم» ويحسُنُ بالمربّين أنْ يجعلُوا بين أيدي الأطفالِ كثيراً منَ المحصولِ الأدبيّ ، ويسمعوهم مثلَ هذه الهَمَساتِ ، ليتعرفُوا قيمةَ المعاني التي يحملُها

الأدبُ في أردَائِهِ ، وبالتّالي يتخلّقون بمكارمِ الأخلاقِ ، ويتحلّونَ بالفضائلِ ، والآن مع هذا النَّشيدِ المُفيد:

يَـا أخـي المسلـمُ فـي كُـلِّ مكـانٍ وبَلَـدْ
أنـتَ منّـي وأنـا منـكَ كَـرُوحٍ فـي جَسَـدْ
وحـدَةٌ قـد شـادَهـا اللهُ أضـاءتْ لـلأبَـدْ
وتسـامـتْ بشعـارِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾
يـا أخـي المسلـمُ والإسـلامُ دِيـنٌ لـلإلـهْ
فـي حِمَـاهُ قـد تَسَـاوىٰ كـلُّ فـردٍ بسـواهْ
فَبِـلالٌ كَعلـيّ ليـسَ مـن فَـرْقٍ تـراهْ
كلّنـا للهِ عَبْـدٌ ولـهُ تعنـو الجِبَـاهْ [١]

* وفي ديوانهِ الحافل بالجمال نظمَ «إسماعيل صَبْري» عدّةَ أناشيدَ مدرسيّةٍ مُفيدةٍ للطُّلابِ[٢] ، ومن بينِ هذه الأناشيدِ اخترتُ هذا النَّشيدَ المفيدَ للأطفالِ والنّاشئةِ الذي افتتحه بالحمدِ والشّكرِ وطلبِ المعونةِ منَ اللهِ فقال:

رَبَّنَـا حَمْـداً وشُكـراً ... أَنْـتَ خَيـرُ الـرَّاحميـن
كُـنْ لَنَـا عـونـاً وذُخـراً ... يـا إلـهَ العَـالَميـن
هَـبْ لَنَـا التَّـوفيـقَ دومـاً ... واهْـدِنـا سُبْـلَ الـرَّشَـادْ
وَامْـلأِ الآمـالَ عـزْمـاً ... يَـا بَصيـراً بـالعِبَـادْ
صُـنْ لَنَـا الآبـاءَ عـزّاً ... إنّهـم رمـز الحنـانْ
وَاجعَـلِ الطَّـاعَـةَ زَاداً ... للْفُـؤادِ ولِلِّسَـانْ
اطْلُبُـوا العِلْـمَ دوامـاً ... فهـو مِصْبـاحُ الفَـلاحْ
مَـنْ سَعَـىٰ لِلعِلْـم يحظَـىٰ ... بِـالأَمَـانـي وَالنَّجـاحْ[٣]

* وللبناتِ المُسلماتِ (Moslem girls) أناشيدُ عِذابٌ علىٰ ألسنةِ الشُّعراءِ

---

(١) انظر: ديوان في موكب الضياء (ص ٣٨ و٣٩) أبو زيد إبراهيم سيّد ، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي؛ السّعودية.

(٢) انظر ديوانه: (ص ٢٧١ ـ ٢٨٠).

(٣) ديوان إسماعيل صبري (ص ٢٧٩) باختصار.

في واقعنا المعاصر ، وقد شاركَ فيها شُعَراءُ أدباءُ عرفوا سِرَّ مواقعِ الكَلِمِ الطَّيِّبِ في نفوسِ النَّاشئاتِ ، فَشَدَتْ ألسنتُهم معبّرةً عمّا تكنُّه ضمائرهُم أعذبَ ألحانِ الوفاءِ لبناتِنا الكريماتِ . وقد تألّقَ د. محمد منير في نظمِ نَشْرُهُ مِسْكُ الكلماتِ الدّافئةِ ، وبناؤُه عِطْرُ المعاني الرقيقةِ ، ونشيدُهُ يبسِمُ عن زَهْرِ أدبٍ مفيدٍ ، يصلحُ زاداً وريّاً للفتياتِ والبناتِ المُسلماتِ ، فاسمعْ إليهِ يترنّمُ بهذهِ الكلمات ؛ وقد هذّبتها لتحلو معها النّغمات :

نَحْـــنُ نَحْـــنُ المُسلِمـــــاتْ لِلْكتــــابِ حَـــــافِظــــاتْ
شَــــرعُنَـــا شــــرعٌ قَــــويــــمْ فيـــــهِ تَسْعَـــــدُ الحَيَـــــاةْ
إنّنـــــا نَسْعَــــــىٰ إلـــــىٰ طَـــاعـــةِ اللهِ الـــرَّحيـــمْ
ونُصَلِّـــــي فَـــــرضَنَـــــا يَشْهَـــــدُ اللهُ العَظيـــــمْ
قَـــدْ تَعلَّمنَـــا الهُـــدىٰ مِـــنْ رسُـــولِ المُـــؤمِنيـــنْ
حـــبُّ مَـــنْ عَلَّمَنـــا واجـــبٌ فـــي العُنُـــقِ دَيْـــنْ
وَلَنـــا نحـــنُ البَنـــاتْ أخـــواتٌ مُسلِمـــاتْ
كُـــنَّ فـــي عَهْـــدِ الـــرَّسُـــولْ سَـــاجـــداتٍ عـــابـــداتْ
نحـــنُ نحـــنُ المُسلمـــات للكتـــابِ حـــافظـــات
شـــرعُنـــا شـــرعٌ قـــويـــمْ فيـــه تَسْعَـــدُ الحيـــاةْ

* والفتاةُ المسلمةُ جزءٌ منْ مجتمعٍ يعيشُ فيه الفتيانُ والنَّاشئةُ . وبصلاحِ هَذيْن الجانبَيْن: الفتاةُ والفتَىٰ ينْصَلحُ المجتمعُ ، ومن خلالِ الأناشيدِ الهادفةِ التّربويةِ ينظمُ الأدباءُ كثيراً من المكارمِ والفضائلِ التي يَنْبغي على الفتاةِ أنْ تتحلّى بها.

* ففَتاةُ الإسلامِ لها مزايا إنْ تمسَّكَتْ بها ، فستكونُ من أسْعَدِ الفتياتِ ، منها أنّها مصونةٌ ، طاهرةٌ ، تزيّنُها الحشْمَةُ . ويجمّلُها الحياءُ ، وهي في عالمها المَصُون تعشقُ الفضيلةَ وتهوىٰ العَفَافَ . وتحبُّ النُّبْلَ ، وتسعىٰ إلى مكارمِ الأخلاقِ ، وإلى العلْمِ النَّافعِ الذي يؤدّي إلى سعادةِ الدَّارين ، لتغدوَ في المستقبلِ من بناةِ الرّجالِ وبناةِ الأُمم. وقد سعىٰ كثيرٌ من الشُّعراء لإثراءِ الجانبِ الأدبيّ بتلكم المفاهيمِ العظيمةِ ، فنظموا الأناشيدَ والأهازيجَ لتتمثَّلَها البناتُ

ويَسِرْنَ على دربِ الفضيلة ، ومن بين كثيرٍ من الأناشيدِ ، احفظْنَ هذه الأنشودةَ الجميلةَ النَّاعمةَ التي لها رفيفٌ كرفيف أماني الطفولة الحالمة :

أنَـــا الفَتَـــاةُ المُسْلِمـــةْ مَصُـــونـــةٌ مُكَـــرَّمَـــةْ
عَفِيْفـــــةٌ مُحْتَشِمـــــةْ أَنـــا الفَتَـــاةُ المُسْلِمـــةْ
بـــالـــدِّيـــنِ والفَضيلـــةْ وعفَّتـــي الأصيلَـــةْ
وشِيمَتـــي النَّبيلـــةْ أَنَـــالُ كُـــلَّ مَكْـــرُمـــةْ
نَهْـــج الكتـــاب السَّـــامـــي أنَـــا بِـــهِ مُلتَـــزمـــةْ
يـــأبـــىٰ عَلـــيَّ الـــدِّيـــن والخُلُـــقُ المَتيـــن
تبـــرُّجـــاً يَشَيـــن أو سِيـــرةً مُتَّهمـــةْ
أَعْتـــزُّ بـــالحِجـــابْ وسَـــابـــغِ الثِّيـــاب
فَضَـــائـــلُ الآدابِ أحْيَـــا بِهـــا مُنَعَّمَـــةْ
لـــيْ قُـــدوةٌ عَبْـــر السِّنيـــنْ بـــأُمَّهـــاتِ المـــؤمنيـــنْ
والصَّـــالحَـــاتِ كُـــلَّ حيـــنْ إلـــىٰ الفَـــلاحِ مُلْهِمَـــةْ
عَـــرفْـــتُ وَاجِبَـــاتـــي كَمـــا عَـــرفْـــتُ ذَاتـــي
فـــأَشْـــرقَـــتْ حَيَـــاتـــي نَضِيْـــــرةً مبتَسِمَـــةْ
لقَـــد طَلبْـــتُ العِلْمَـــا هِـــدايـــةً وفَهْمَـــا
غـــداً أَصِيْـــرُ أُمَّـــا أَبنـــي الحَيَـــاةَ القيّمـــةْ
أعلّـــمُ الأَجْيَـــالاَ أُنشِّـــىءُ الأَبْطَـــالا
وأَبْعَـــثُ الآمَـــالاَ فـــي أُمّتـــي مجسَّمَـــةْ

* وهذه أنشودةٌ (Song) لطيفةٌ تعليميّةٌ ، وهي حوارٌ داخليٌ لطيفٌ بينَ والدٍ وابنتِهِ حولَ نخلةٍ معوجّةٍ أحبَّتِ البنتُ الصَّغيرةُ تقويمَها بعدما سَمَقَتْ وتطاولَتْ وكبرتْ ، فَلَفَتَ والدُهَا نظرَهَا إلى أنّه قد أكلَ الدهْرُ عليها وشَرِبَ ، ومنَ العَسِيرِ صلاحُها الآن ، بل إنَّ الواجبَ إصلاحُها منذ أنْ كانَتْ نبتةً صَغِيرةً؛ وهذه الأنشودةُ الرائيةُ «الشَّوقيّة» المغناج تحكي قصّة «مَهَا» وأبيها والنَّخْلة :

بَيْـــنَ الْحَـــدِيقَـــةِ وَالنَّهَـــرْ وَجَمَـــالِ أَلْـــوَانِ الـــزَّهَـــرْ
وَالطَّيْـــرُ يَشْـــدُو بِـــالغِنَـــا ءِ الْعَـــذْبِ فِـــي شَتَّـــى الصُّـــوَرْ

سَـــارَتْ مَهَـــا مَسْـــرُورةً مَـــعَ والِـــدِ حَـــانٍ أَبَـــرّ
فَـــرَأَتْ هُنَـــالِـــكَ نَخْلَـــةً مُعْـــوَجَّـــةً بَيْـــنَ الشَّجَـــرْ
فَتَنَـــاوَلَـــتْ حَبْـــلاً وَقَـــا لَـــتْ يَـــا أَبِـــي هَيَّـــا انْتَظِـــرْ
حَتَّـــى نُقَـــوِّمَ عُـــودَهَـــا لِتَكُـــونَ أَجْمَـــلَ فِـــي النَّظَـــرْ
فَـــأَجَـــابَ وَالِـــدُهَـــا لَقَـــدْ كَبِـــرَتْ وَطَـــالَ بِهَـــا العُمُـــرْ
وَمِـــنَ الْعَسِيـــرِ صَـــلاَحُهَـــا فَـــاتَ الأَوَانُ وَلاَ مَفَـــر
قَـــدْ يَنْفَـــعُ الإِصْـــلاَحُ وَالتَّهْـــذِ يـــبُ فِـــي عَهْـــدِ الصِّغَـــرْ
وَالنَّـــشْءُ إِنْ أَهْمَلْتَـــهُ طِفْـــلاً تَعَثَّـــرَ فـــي الْكِبَـــرْ

* وهذه أنشودةٌ تخطرُ في ثوبِ طُفوليّ جميلٍ، وهي عبارةٌ عن حوارٍ جميلٍ بين شاعرٍ وطائرٍ، شَدا بها للأطفالِ «الصّاوي علي شَعْلان» فقال:

غنَّـتْ علـىٰ زَهْـرِ الـرُّبَـى عصفـــورةٌ عنـــدَ الصّبـــاحْ
فســألتُهـا مَـنْ أنـتِ قـا لـتْ لا تَسَـلْ غيـرَ الكفـاحْ
عصفـورةٌ قـد كـان يُغـ ـري نـومَهـا ضَعـفُ الجَنَـاحْ
لكنّهـا لـم تَستبـحْ نـومـاً عـن الـرّزقِ المُبَـاحْ
إنّـي أغـارُ مِـن الشُّعـا عِ إذا سَـرَىٰ ومِـن الـرِّيـاحْ
وأحِـبُّ أن أسعـىٰ كسعـ ـيهمـا لأحظـىٰ بـالنَّجـاحْ
مـا لـي أرىٰ الإنسـانَ يسـ ـبقنـي بـألحـانٍ فِصَـاحْ
مـا بـالُـه لـم يَسْـعَ مِثـ ـلـي جـاهـداً يبغـي الفَـلاحْ
قـد صـارَ دونـي فـي الجهـا دِ وكـان قبلـيَ فـي الصِّيـاحْ
وأُعيـدُ أنغـامَ الصَّفـا ويُعيـدُ آلامَ النُّـواحْ
بُشـراكِ يـا بنـتَ السّمـا ءِ وحبـذا الأمَـلُ المتـاحْ!
وليستنـرْ بـكِ عـاقـلٌ فـي ظلمـةِ العقـلِ استـراحْ
يـا مُلهـمَ الطيـرِ الجهـاد ربِّ ألهمْنـا الصَّـلاحْ![1]

* ومن الأناشيدِ المفيدةِ للأطفالِ التي تستحقُّ الاستظهارَ، هذه الأنشودةُ

---

(١) انظر: مجلة أبولو ١/ ١٣١ اكتوبر سنة (١٩٣٣م).

الجميلةُ ، وهي عبارةٌ عن نصيحةٍ للحسُودِ الذي أفْسَدَ نفسَهُ بهذا الدّاءِ العُضَالِ ، الذي يهدُّ الجِبَال الرّواسي . وهذه الأنشودةُ تهدف إلىٰ إسداءِ النُّصحِ للنّاشئةِ ليبتعدوا عن هذا الطَّريقِ الشَّائكِ العَسِرِ المُهْلك . ترىٰ ماذا خبّأَتْ هذه «الدَّاليّة» الهادفة؟!

أَفْسَـــدْتَ نَفْســـكَ بـــالحَسَـــدْ   وَهَـــدَمْـــتَ أركَـــانَ الجَسَـــدْ
وَغَـــدَوْتَ تَسْعَـــى فِـــي الأَذَىٰ   فَـــأَضَعْـــتَ عُمْـــرَكَ فِـــي الكَمَـــدْ
مَـــاذَا خَسِـــرْتَ بِـــأَنْ غَـــدَا   زَيْـــدٌ أخـــا سَعْـــيٍ وَكَـــدْ
أَو مَـــا رَبِحْـــتَ مِـــنَ الأَسَـــىٰ   لَمَّـــا نَـــأَى عَنْـــهُ النَّكَـــدْ
مَـــا أَنْـــتَ مُفْقِـــرُهُ إذَا   أَوْلاَهُ مَـــــوْلاَهُ المَـــــدَدْ

* * *

هَمَـــدَ الشَّبَـــابُ مِـــنَ الضَّنَـــى   وَلَهِيـــبُ خُبْثِـــكَ مَـــا خَمَـــدْ
فَـــدَع الفَسَـــادَ فَكُـــلُّ مَـــا   دَبَّـــرْتَ مِـــنْ أَمْـــرٍ فَسَـــدْ
مَـــاالـــرّزْقُ مَمْنُـــوعـــاً ولاَ   فَقْـــرٌ يَـــدُومُ إلَـــى الأَبَـــدْ
وَالخَيْـــرُ فَـــاعلـــه إذَا   سَـــأَلَ المُهَيْمِـــنَ لاَ يُـــرَدْ
وَالشَّـــرُّ زَارِعُـــهُ سِـــوَى   شَـــرٌّ عَظِيـــمٍ مَـــا حَصَـــدْ

* وفي هذا الفَصْلِ المنوّع الماتع ، رأيتُ أنْ أذكرَ شيئاً عن حوادثِ المرورِ ، فقد أصبحتْ مشكلاتُ المرورِ في عَصْرِنا الحالي تأخذُ مساحةً كبيرةً من حياةِ النَّاسِ . وقلّما تخلو بلدةٌ من مأساةٍ منبعِثَةٍ عن المرورِ ، وقد أصبحَ للمرورِ آدابٌ وقواعدُ ووزَارَات ، ولكنْ هل له مساحاتٌ في صفحاتِ الكُتُبِ وصدورِ الأُدَبَاءِ؟ هذا ما ستجلوهُ هذه «الرّائيةُ» النّاجحةُ للشّاعرِ الليبي المُعَاصِر «محمّد عبد الله مُعَيتيق»(١) الذي نَظَمَ قصيدةً في هذا المجالِ أبانَ خلالَها عن دواهي حوادثِ المرورِ (Traffic accidents) ومراراتِهِ ، ودعَا إلى بناءِ الجهودِ بالهدوءِ والتّعقُّلِ وعدمِ الطَّيشِ في قيادةِ المركباتِ والسَّياراتِ فقال:

إذا مـــا كُنْـــتَ ذَا عَقْـــلٍ كبيـــرٍ   فـــلا تُهْمِـــلْ قَـــوَانِيـــنَ المُـــرُورِ

---

(١) انظر ترجمته في كتاب: «الشعر والشعراء في ليبيا» (ص ٢٣٩) لمحمد الصادق عفيفي ـ القاهرة ١٩٥٧م.

قَـدِ اسْتَعْصَـتْ مَشَـاكِلُـهُ وَجَلَّـتْ عَلَـى كُـلِّ المُعَقَّـدِ مِـنْ أُمُـورِ
لَنَـا فـي كُـلِّ مُنْعَطَـفٍ مَـآسـي يَشِيـبُ لِهَـوْلِهَـا رأسُ الصَّغِيـرِ
فَكَـمْ مِـنْ أُسْرَةٍ نُكِبَـتْ وَكَـانَـتْ تَعِيْـشُ بِكَـدِّ عَـائِلِهَـا الكَبِيـرِ
دَهَتْـهُ الحَـادِثَـاتُ وقـد تَـرَدَّى وَخَلَّـفَ صِبيَـةً مِثْـلَ الطُّيُـورِ
غَـدَوا مـن هَـوْلِ نَكْبَتِـهِ يَتَـامَـى فَيَـاللهِ مـن سُـوءِ المصِيـرِ
وَكَـمْ مِـنْ نَكْبَـةٍ حَلَّـتْ بطَيـشٍ فَـأَوْدَتْ بـالبَـرَاعـمِ لِلْقُبُـورِ
وخَلَّفَـت المَـآسـي للثَّكَـالَـى وَأَجَّجَـتِ العَـداوَةَ فـي الصُّـدُورِ
وَهَـذا الشَّعْـبُ أَحْـوَجُ مَـا نَـرَاهُ إلـى الـرَّجُـلِ الكبِيـرِ وللصَّغِيـرِ
لِنَبْنِـيَ بِـالجهُـودِ رَفِيـعَ صَـرْحٍ يَـدُومُ مُعَـزَّزاً طُـولَ العُصُـورِ

* وفي رحلةِ الزَّادِ الثَّقافي للأطفالِ ، لا مانعَ منْ أنْ نلفتَ أنظارَهُم وعقولَهم إلى قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في خَلْقِ الإنْسَان ، وأعضاءِ الإنسان؛ وها نحن أولاء نوردُ بعضاً من هذا في أناشيدَ جميلةٍ موحيةٍ وموقظةٍ لوجدانِ الأطْفَالِ ▪ فمَعَ هذه «العَينيّة» الموقظة عن الأُذنِ ، وهذه الخطرات:

السَّمْـعُ ومَـنْ وَهَـب السَّمْعَـا رَبِّـي قَـد أعطَـانَـا السَّمْعَـا
هـذي الآذانُ بِمَظْهَـرِهَـا كَـالآلَـةِ فـي دَأَبٍ تَسْعَـىٰ
تَحْمِـي مَـدْخلَهَـا أشعـارٌ مَـنْ يـدخـلُ تـدفَعُـهُ دَفْعَـا
هَـلْ تَنْظُـرُ فـي أُذُنـي لِتَـرى كَـمْ أَحْسَـنَ لـي ربِّـي الصُّنْعَـا
فيْهَـا مِطْـرقَـةٌ سَنَـدَانٌ فيهـا طَبْـلٌ يقْـرعُ قَـرْعَـا
وقنَـاةٌ يَجْـري الصَّـوتُ بهـا نحـو الأعْصَـابِ لَـهُ تَـرْعـى
فيـدقُّ الطَّبْـلُ علـىٰ قَـدرٍ كَـي يُـوصِـلَ لِلمُـخِّ السَّمْعَـا
لَكِـنْ لـو دَقَّـتْ مِطْـرقَـةٌ دقَّـاتٍ تَخْلَعُهـا خَلْعَـا
فـاعْلَـمْ هـذا صـوتٌ مـؤذٍ وَجَنَـابُـكَ فـي حَـرْبٍ طَبْعَـا
والصَّـوتُ إذا كـانَ دَوِيّـاً فـالنَّـاسُ بـه تُضحـي صَـرْعـىٰ
فَعَلَيْـكَ بسَـدِّ الآذانِ وامْسَـحْ مِـنْ عينيـك الـدَّمعَـا
قـد يُـؤذي الأُذُنَ ويُصْمِيهـا إنْ نـالَـتْ ضَـرْبـاً أو صَفْعَـا
وَتَكُـونُ مُعَطَّلَـةً أبَـداً لا تَجْلِـبُ خَيْـراً أو نَفْعـاً

قــد عَــذَّبَ رَبِّــي أقــوامــاً بــالصَّــوت فكَــانَ لهــم رَدْعــا

* ومن الزَّادِ الثَّقافي نلتقي «نونيةً» نافعةً للأطفالِ ، وهذه النُّونيّة الرّقيقةُ الرَّاقصةُ تتحدَّثُ عن «العَيْنِ»؛ العينُ التي شغلَتِ النَّاس قديماً وحديثاً بما لَها وما عَلَيْها ، وتجملُها هذهِ الأنشودة الرّائعة ، المشيرةُ إلى آياتِ الله عزَّ وجلَّ في الخَلْقِ ، والمختومةُ بدعاءٍ جليلٍ جميلٍ ، يأسرُ القُلوبَ ويربطُها بعلاّمِ الغُيوب :

بَــرْنَــامَــجُ عِلْــمٍ إيمــانِ فصّــلَ فــي جسْــمِ الإنســانِ
فــي العَيْــنِ وفــي بَصَــرٍ أعْطَــى شَــرْحــاً فــي حســنٍ وبيــانِ
هَــذَا عَصَــبٌ هَــذَا عِــرْقٌ هــذا مَــنْ يحْمِــي بِــأَمَــانِ
هَــذي الأَهْــدابُ وقَــدْ وقفــتْ لِتَــذُبَّ عــن العَيْــنِ الجَــانــي
أدْعُــو مــنْ قَلْبــي يــا ربّــي أنْ تَحْفَــظَ عَيْنِــي وَلِسَــانــي
أنْ تحفــظَ لــي نَظَــري حتّــى أسْطيــعُ قِــراءَةَ قُــرْآنــي
لأرىٰ آيــاتِــكَ مَــاثِلَــةً كــالنّــورِ لِعَينــي وجَنَــانــي
يــا مُعْطِــي النّعمــةَ ثَبِّتْهــا بــالفَضْــلِ بِبِــرٍّ الإحســانِ

* ونطيرُ معَ الأطفالِ إلى عالَمٍ آخرَ ، إلى عالَمِ مناغاةِ الطُّيورِ ومناجاتِها ، فالأطفالُ يحبُّونَ الطّيورَ الأليفةَ ، وكثيراً ما نجدُ في البيوتِ عصْفُوراً سجيناً داخلَ قَفَصٍ أنيقٍ ، وقدامُه الماء والطَّعام ، ولكنْ هلِ العُصْفُور سعيدٌ في ذاكَ القَفصِ حتّى لو كان منْ ذهبٍ؟ ![1] لِنَسْتمِعْ إلى هذهِ المحاورةِ الأنيقةِ بين شاعرٍ

---

(١) الإسلامُ دينُ رحمةٍ ورفقٍ بالإنسانِ والحيوانِ والجمادِ . ويحسُنُ بالآباءِ والمربّين أنْ يلفتوا نظَرَ الأطفالِ إلى الرّفق بالحيوان ، ويذكّروهم بالهدي النّبوي في هذا المجال ، وبأنَّ امرأة دخلتِ النَّار في هرّةٍ ربطتها ، فلم تطعمْها ، ولم تدعْها تأكل من خشاشِ الأرض . وهذا ينطبقُ على الطّيور أيضاً بألاّ يقتلوها أو يصطادوها دون الانتفاع بأكلها ، فلا يجوزُ قَتْل عصفورٍ بغير حقّه إذ إنَّ حقّه أنْ يُذْبحَ فيؤكل .
والأطفالُ عادةً يحبّون الصَّيدَ واللعبَ بالطُّيور ، وها هنا يبرزُ دورُ المربّين للتّوجيه الصّحيح في هذا المضمار ، فقد وردَ عن النّبي ﷺ النّهيُ عن الإيذاء للطيورِ أو الحيوانِ ، فقد نهى ﷺ أنْ يُساء إلى الحيوان باللعن أو الشّتم (صحيح مسلم برقم ٨٠ و٨١ و٨٢ و٨٣).
إنّ هذه التّوجيهاتِ الرّاقيةَ والهادفةَ تجعلُ من الأطفالِ أناساً رحماء ، وتكوّنُ لديهم أدباً رفيعاً ، وشعوراً وإحساساً بالتّعامُلِ مع خَلْقِ الله إنساناً كام أم حيواناً. =

متأمّلٍ وبين عصفُورٍ سجينٍ في قفصٍ؛ وما أجملَ أنْ ينشرهَا الآباءُ على مسامعِ الأطفالِ!

ألــوانُــكَ زهــرُ حــديقَتِنــا	هــلْ عِشــتَ مــعَ الــزَّهــرِ الــزَّاكــي
هَــلْ عِشْــتَ كــأطيــار الــدّنيــا	تَغْــــدُو لِلــــــرّزْقِ لإدراكِ
وجَلَســتَ وحيــداً يــا طيــري	لِتُغَــــرّد قــــربَ الشُّبّــــاكِ
أتُنــادي أمّــاً إخــوانــاً	طَــاروا فِــيْ تلــكَ الأفْــلاكِ
فلمــاذا الشّــوقُ إلــى تعــبِ	ومصيــــرُكَ رَهْــــنُ المــــلاّكِ
وطَعــامُــكَ دومــاً تــأكُلُــهُ	مِــنْ غَيْــرِ صِــراعٍ وعِــراكِ
فهُنَــا اللّــذاتُ بــأصنــافٍ	وَهُنَــا تخلــو كَــالنُّســاكِ
فــاهنــأْ فــي قَفَــصٍ مــن ذَهَــبٍ	واشْكُــرْ مــن صَــادَك بِشِبــاكِ
هــل أشكُــرُ مَــنْ يُحصِــي نَفَســي	وَيُقَيِّـــدُنـــي دونَ حَــرَاكِ
أعطَــانــي شِبــراً فــي شبــرٍ	وَرَمَــانــي خلــفَ الأســلاكِ
وَرَأى فــي صَــوتــي تَغْــريــداً	وَنَسَــى أنّــي دَوْمَــاً بــاكــي
أطْلِقْنــي مِــنْ قَيْــدِيْ إنّــي	فــي شَــوْقٍ لِلْــوَرْدِ الــزَّاكــي

* ويمكنُ للمربّين أنْ يلفتُوا نظرَ الأطفالِ ـ من خلالِ الأناشيدِ الهادفةِ ـ إلى عظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في المخلُوقاتِ ، ومنها الشَّجرةُ ذاتُ الفوائدِ التي لا يُحصيها عَادٌّ ، ويلفتُوا نَظَرَ الأطفالِ إلى فوائدِها الجليلةِ في كُلِّ مكانٍ ، وإلى بيعةِ الرِّضوانِ التي تمّتْ تحتَ الشَّجرةِ ، وإلى الأحاديثِ الشَّريفةِ التي تحثُّ على غرس الشّجرةِ ورعايتها ، وإلى أشياءَ أخرى جميلة نقرؤُهَا لهم عن الجمادات بشكلٍ عامٍ ، فهذه الجماداتُ كلُّها مع الحيوان تشترك في تسبيح الله عزَّ وجلَّ قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وقال عزّ شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

= فليحرصِ المربّون والآباءُ والأمّهاتُ أنْ ينتهزوا كلَّ فرصة لتوجيه الأطفال إلى ما يسعدهم في حياتهم ومماتهم وإلى كل سبيل في الرّفق والرّحمة ، لأن الرفق يزين الأعمال ويزيد الحسنات.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

* فجميعُ هؤلاء مهتمٌّ بالتّسبيح منشغلٌ به، وقد جاء في الحديث الشَّريف أنَّ الصَّحْفَةَ تستغفرُ لمن يلعقها، والآثار كثيرة في هذا المجال.

* إنَّ الأطفال يمكنُ أنْ يصدّقوا مثل هذه الحقائق الكونيَّة، فإنَّ خيالهم واسع، ولديهم قدرةٌ بالغةٌ على التّصديق بأكثر من هذا.

* إنَّ الخيال الواسعَ لدى الأطفالِ الصّغار يمكن أنْ يُستغلَّ في تثبيت مثل هذه الحقائق الرّبانية الكونية العظيمة، وللمربّين أن يختاروا الأساليب والوسائل المناسبة لتغذيةِ الأطفال بهذه المعارف، فيختاروا الأوقات المناسبة، كطلوع الشّمس، أو رؤية الهلال، أو مشاهدة شجرة باسقة، وهنا يستغلُّوا هذه المناسبة ويوجّهوا الأطفال إلى قدرة الله وعظمته، كما يتحدثون عن فوائد هذه المخلوقات لنبي آدم.

* وفي هذهِ الأهزوجةِ الحانيةِ المُوقظةِ؛ ينبغي على المربّين أنْ يحثُّوا أطفالَنَا الأعزّاءَ على استظهارِها؛ وهي بعنوان: «الشَّجرة وفوائدها»:

أَنَا الرّحمنُ كَرَّمَنِي ... وأعلَى في الوَرَى شَاني
أسبِّحُ خَالِقي دوماً ... صَدوقاً كانَ تِبْيَاني
فُصُولُ العَامِ تَشْهد لي ... وتَحْكِي جُودَ أغْصَاني
ثِمَاري نَفْعُها باقٍ ... كبيرُ القَدْر والشَّانِ
أنا الأطيارُ تصحَبُني ... بتشْرينِ ونَيْسَانِ

* * *

أنَا للطّبِّ رافِدةٌ ... مَعَ العطَّار تَلْقَاني
عِلاجُ النَّاس في وَرَقي ... وأزْهَاري وعيدَاني
أنا النَّجَّارُ يطلُبُني ... ويذكرُ فَضْلِيَ البَاني
أنا دفءٌ لِمقْرورٍ ... أنا ظلٌّ لِحرَّانِ
وبالخيَّاطِ لي صِلَةٌ ... بقُطنٍ أو بكتّانِ
ودودُ القزِّ يذكُرني ... إذا ما ذَاقَ إحْسَاني

ويُـــدْنينـــي لِغَـــانيـــةٍ	خِمـــــاراً أو بفُسْتَـــــانِ
ومنّـــي جـــلّ زينتكـــم	لِـــــدُورٍ أو لأَبْـــــدانِ

* * *

أَنَـا فـي الـوحـي لـي ذِكْـرٌ	حَـــديثـــاً أو بِقُـــرآنِ
بِـيَ الأمثـالُ قـد ضُـرِبَـتْ	لِتَـــوضيـــحٍ وتبْيَـــانِ
رِوَايـــةُ قِصّتـــي دَخَلَـــتْ	حـــديـــثَ الإنـــسِ والجَـــانِ
أنـــا المحبـــوبـــةُ الفُضْلـــىٰ	لِـــذي جُـــودٍ وإحْسَـــانِ
حَمَـــانـــي الله مـــنْ عَبَـــثٍ	وعنْـــدَ العَـــرشِ أدْنَـــانـــي
شَهْـــدتُ البَيْعَـــة العُظْمَـــىٰ	وكنْـــتُ مَكـــانَ رضْـــوَان

وشَـــرْعُ اللهِ أوْصَـــاكـــم	بِغَـــرسـي كُـــلَّ أزْمَـــانِ(١)

* ومما يزيدُ من ثقافةِ الأطفالِ (Child education) أنْ نلفتَ نظرهم إلىٰ ألوانِ الطَّهارةِ ، ثمّ نعرّجُ على النَّظافةِ الكاملةِ ، إذْ يجبُ علىٰ الطِّفْلِ المسلم أنْ يكونَ نظيفَ الثّياب ، نظيفَ شَعْرَ الرّأسِ ، والفمِ ، يقلّمَ أظافِرَهُ ، ويعتني بأسنانِهِ بالفرشاةِ والسِّواكِ ، وأنْ ينظّفَ فَنَاءَ البيتِ ، ويتّبعَ الهديَ النَّبويَّ في مجالِ النَّظافةِ؛ وقد وفّقَ الأستاذُ «عبد الوهّاب صالح» إلىٰ نظمِ أُطُرِ النَّظافةِ في هذهِ الميميّةِ العَبقةِ الجميلةِ فقالَ داعياً وموجّهاً الطّفلَ إلى اتّباعِ أشْكَالِ النَّظافةِ :

تَنظَّـفْ يـا بنـيَّ وكُـنْ وسيمـاً	تَنَـلْ فـي النَّـاسِ عـزّاً مُسْتَـديمَـا
ولا تَـدَعِ النَّظـافَـةَ فـي ثيـابٍ	وفـي جسْـمٍ لكـي تبقـىٰ سَليْمَـا
رِضـاءُ اللهِ والجنَّـاتُ تُـرجـىٰ	لمـنْ أَلِـفَ النَّظَـافَـةَ مُسْتَقيمـا
بهـذا الفَضْـلِ أخبـرنَـا نبـيٌّ	حَـوَىٰ مع طُهْـرهِ القَلْـبَ الـرَّحيْمَـا
تَعَـاهَـدْ بـالنَّظَـافـةِ شَعْـرَ رأسٍ	وعَـوِّدْ فَـاكَ مسْـوَاكـاً هَضِيْمـا
وقُـصَّ الظُّفْـرَ واغْتَسِـلِ اسْتِنَـانـاً	وتَنْظِيفـاً ولا تُطـعِ الـرَّجيْمَـا
وجَنِّـبْ بيتَـكَ الأوسـاخَ دومـاً	ولا تُهْمِـلْ فِنـاءً أو حَـريْمَـا

---

(١) انظر : قلائد الحكم (ص ٥٢ ـ ٥٥) بتصرف وانتقاء .

ولا تُلْــقِ القَــذَارةَ فــي طَــريــقٍ فَــذا قُبْــحٌ تُعَــدُّ بــهِ ذَميْمــا
ولا تَنْــسَ النَّظــافَــةَ فــي خَــلاءٍ وبَيْــنَ النَّــاسِ كُــنْ دومــاً وسيْمــا
وصيَّـــةُ دِينِنـــا أَخْـــلاقُ طُهْـــرٍ وتَشْـريـعٌ حَـوى الخَيْـرَ العَميْمَـا(١)

* إنَّ النَّظافةَ روحُها الماء؛ الماءُ الذي جَعَلَ اللهُ منه كلَّ شيءٍ حيّ ، ومتى وُجِدَ الماءُ كانتْ حياةٌ ، ويحسنُ بالمربّين أنْ يلفتوا نظرَ الأطفالِ إلى أهميّةِ الماءِ وقيمتهِ وفوائدهِ ، ويعلّموهم التّرشيدَ السَّليمَ في استهلاكهِ ، وفي هذه القصيدة النّافعةِ إرشاداتٌ تجعلُ من الأطفالِ أُناساً لا يسرفونَ في الماءِ ، بل يحافظون على هذهِ النّعمةِ الرَّبانيةِ التي أنعمَ بها على جميعِ المخلوقاتِ ، وجعلَها آيةً منْ آياتهِ ، يستخدمُها رحمةً وعقَاباً وترغيباً وترهيباً ، وهناك أشياءُ وأشياءُ يتعرّفُها الأطفالُ الأعزاءُ من خلالِ هذهِ الأغرودةِ العذبةِ عذوبةَ قطراتِ النّدىٰ على أوراقِ الوَرْدِ في صباحٍ ربيعيّ يضحكُ جَمالاً ، ويهتزُّ دلاَلاً ، ويُوحِّدُ الخالقَ على نِعَمِهِ التي لا تُحْصَىٰ:

قَطَــراتٌ مــنْ مــاءِ المُــزْنِ أَنْـــزلَهـــا ربّـــي لِحَيَـــاةِ
فـــالكـــلُّ لمـــاءٍ مُحتـــاجٌ لا يَسْتغنـــي عـــنْ قَطَـــراتِ
ووضـــوءُ المسلـــمِ مـــنْ مـــاءٍ للشّـــربِ وســـدّ الحَـــاجَـــاتِ
لنظـــافـــةِ بيـــتٍ ولبـــاسٍ للشَّـــاي وطَهْـــو الأكَـــلاتِ
أنعيـــشُ لِنَهْـــدُرَ مـــا أعطـــىٰ ربّـــي مـــنْ مـــاءِ القَنَـــواتِ
أمْ نـــأخـــذُ مِقْـــداراً منهـــا ونـــوفّـــرُ شيئـــاً لِـــلآتـــي
فـــالهَـــدْرُ يضيّـــعُ أمْـــوالاً والمســـرفُ ممقـــوتُ الـــذَّاتِ
فـــالعـــاقـــلُ دومـــاً مقتصِـــدٌ يُبقـــي لِعَصيـــبِ الأوقـــاتِ
قَطَـــراتٍ مـــنْ مـــاءِ المـــزْنِ أَنْـــزلهـــا ربّـــي لِحَيَـــاةِ

* ويمكنُ للآباءِ والمربّين والأمّهاتِ والمتخصّصين في تربيةِ الأطفالِ والإشرافِ عليهم ، أنْ يهْدُوهم إلىٰ الطُّرقِ القويمةِ ويُعلّموهم الاعتدالَ في كلّ الأمورِ ، وعدمِ الإسرافِ في أي شيءٍ ، وخصوصاً الثّروات الرَّبانيّة كالماءِ

(١) انظر المرجع السابق عينه (ص ٢٠) بتصرف يسير جداً.

ونحوه ، ويعلموهم ألا يفرطوا في استخدامِ الكهرباءِ ، وأنْ يحافِظُوا على المُمتلكاتِ العامّةِ ، ليستفيدَ منها جميعُ النَّاسِ .

* وينبغي الآن أنْ نأخذَ بنفوسِ الأطفالِ وأسماعهم إلىٰ زَادٍ ثقافي كَريمٍ ، جَليلِ الفائدةِ عظيم ، ونلفتَ أنظارهم إلى أدبِ الابتهالِ ، والالتجاءِ إلى العَليمِ الخبيرِ في كل وقْتٍ وحينٍ ، وإذا أحسنَ المربُّون غَرْسَ هذه القيمةِ الثَّقافيةِ في نفوسِ الأطفالِ ، فقد قطعُوا شَوطاً عظيماً في ميدان الثَّقافةِ ومجالِ التَّربية .

* ومنَ المستحسنِ في رحلةِ الابتهالِ والدّعاءِ أنْ يقبسَ المربّون زادهم أوّلاً من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثم منَ الهديِّ النّبويّ ، فأدبُ الخلفاءِ الرّاشدين وأعلياءُ الصَّحابة ، وما رقَّ وراقَ من أدبِ الشّعرِ والنَّثْرِ .

* والآن لِنُسْمعِ الأطفالَ هذا الابتهالَ العَذْبَ ، ونقرأْ لهم ما جادَتْ به قريحة الشّاعرِ «راضي صَدّوق» الذي جاءَت كلماتُه صادقةً تجرِّرُ أذيالَ الجَمالِ والبلاغةِ فيقول :

دعــوتُ وذكْــرُ اللهِ زَادي ومتْعَتِــي ... أسيرُ على النَّجوىٰ سَعيداً بِحَيْرتي
وأشعـرُ أنَّ النُّور بَيـنَ جَـوانِحي ... ينَـوِّرُ أعْمـاقـي ويقْشَـعُ ظُلمتـي
فيمـلأُ أعمـاقـي بفيـضٍ ورحمـةٍ ... ويُخْصِبُ وجْداني ويطفىءُ غُلَّتي
أهينمُ بـاسْـمِ اللهِ صُبحـاً ومغـرِبـاً ... ويَعْنُـو لـوجْـهِ اللهِ قَلْبـي وجَبْهتـي
تباركتَ ربّي بارىءَ الخَلْق والورىٰ ... فأنْتَ مَلاذي منْ ضَيَاعي ووحْشَتي
إذا ضَلَّ خَطْوي كنْتَ لي النُّورَ والهُدى ... وكنْتَ لِرُوحي منْقذاً من ضَلالتي
فأنتَ ضياءُ العينِ والقَلْبِ والنُّهى ... وأنتَ دُعائي في رُقَادي وصَحْوتي
حنـانَـكَ إنّـي فـي رحـابِـكَ عـابـدٌ ... أُصَلـي لـكَ الأيّـامَ يـا ذَا الجَـلالـةِ
فجُـدْ لـي بخيـرٍ مـنْ نـوالِـكَ مُنْعِـمٍ ... وشُدَّ جَناحي في طريق وخطْوتي (١)

* * *

(١) انظر : ديوان رياح السّنين لراضي صدّوق (ص ١٢١ ـ ١٢٦) بتصرّف يسير مع بعض التّقديم والتّأخير والاختيار في الأبيات وتغيير بعض الكلمات والتّراكيب. دار كرمة للنّشر ـ روما ـ ط١ ـ ١٩٩٥م.

الفصلُ الثّالثُ
تعليمُ الأطفالِ مكارمَ الأخلاقِ

* في الشِّعْرِ العربيِ القديمِ ـ قبل الإسلام وبعده ـ صورٌ مشرقةٌ ترسمُ اهتمامَ العربِ بشعْرِ الأطفال ، فهم يترنّمون لهم بشعرٍ جميلٍ ، منذ أنْ يكونُوا في المِهادِ صغاراً ليناموا ، أو عندما يدرجُوا على الأرضِ لمداعبتِهم ، وتغنّوا لهم في أشعارٍ جميلةٍ وكثيرةٍ ، وصلَتْ إلينا عن طريقِ المصادر المتنوّعةِ.

* وقد اهتمَّ المسلمون على مدارِ العُصورِ بالأطفالِ اهتماماً واضحاً ، واهتمّوا بنوعيّةِ الشِّعْرِ الذي يتلقّفُه أطفالُهم وهم في مرحلةِ النُّمو ، وأوصوا بذلك؛ حتّى كان سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ يُوصي المربّين بتعليم الأطفالِ الشّعْرَ العفيفَ الهادفَ فيقولُ: «ارووا منَ الشّعرِ أعفَّه ، ومن الحديثِ أحسنَه ، ومن النَّسب ما تواصَلُون عليه»؛ وأُثِرَ عن الأقدمين ما يفيدُ بضرورةِ روايةِ الأطفالِ للشّعْرِ المناسبِ لأعمارِهم والمؤثّرِ في تربيتهم ، ووردَ في وصيّةِ هشامِ بنِ عبد الملك الأمويّ الخليفة ما يؤكّدُ ذلـك ، إذْ أوصى معـلّم ابنـهِ أنْ يعـلِّمه أوّلاً القُرآنَ الكريمَ ، ثمّ رَوِّهِ «من الشِّعرِ أحسنَه ، ثمّ تخلَّلْ بهِ في أحياءِ العربِ ، فخذْ من صالحِ شِعْرهم هجاءً ومديحاً».

* وفي القرونِ الأولى التي تَلَتْ مطلعَ شمسِ الرِّسالةِ المحمديّةِ ، أوصى كثيرٌ من مشاهيرِ العُلماءِ والمربّين بروايةِ الشِّعْرِ ، وبينوا أهميّته للأطفالِ ومدى تأثيره بنفوسهم ، كالغزالي ، والتّوحيديّ ، وابنِ حزم وغيرِهم؛ وذلك لأنَّ الشِّعْرَ العذبَ شيءٌ مهمٌّ للأطفالِ ، فهو يثْري خبراتِهم ويصقلُها ، وينمّي التّذوّق والإحساسَ بالجمالِ الأدبيّ ، وينشطُ من خيالِهم.

* والأطفالُ بفطرتهم يميلون للشّعْرِ والإيقاعاتِ المنظّمةِ المؤثّرة ، فهم يستجيبون لأمّهاتهم حين يربينهم في انتظامٍ فينامون ثم نجدهم يستمتعون وهم يُسمِعون الكِبارَ ما حفظوه من كلمةٍ أو جملةٍ في نغمةٍ غنائيةٍ ، وقد يردّدونَ ذلك قبل أنْ يعرفُوا معاني الكلمات؛ ولذلك ينبغي استغلال هذه الظّاهرةِ لصَقْلِ مَلَكات الأطفالِ ، وتقويةِ الحسِّ الجماليّ عندهم ، وتربيتهم على شتّى الأخلاق الحميدةِ (Good morals) ، والآدابِ الفاضلةِ ، التي تنفعُهم في مسيرةِ حياتِهم عندما يكبرون ؛ ومن هنا ينبغي أنْ يكونَ المعلّمون والمربّون على معرفةٍ بما يختارون للأطفالِ من الشّعرِ ، ولا يلزموهم بنوعٍ معيّن بل يعرضون عليهم ألواناً من الشّعرِ المدرُوس ، ثمّ يلاحظُون مدى استجاباتهم لكلِّ لون منها ، وبعدها يعمّقُون القِيمَ بنفوسِهم.

* إنَّ الشِّعرَ الذي يُقدَّمُ للأطفالِ ينبغي أنْ يلائمَهُم مِنْ حيثُ الموضوع والمزاج ، فكثيراً ما تضيعُ قيمةُ الشعْرِ الجميلِ الممتعِ حين نقدّمُه للأطفالِ بحيثُ لا يدركونَ جماليّتَه ، وبالتّالي فَهُمْ لا يستمتعُون بهِ ولا يتذوّقُونه ، فإذا أردنا أنْ ننميَ فيهم حبَّ الشِّعْرِ وتذوّقَه ، فعلينا أنْ نختارَ لهم ما يتّصِلُ بحياتِهم وعصرِهم ، بالإضافةِ إلى المُختارِ من القديمِ والذي ينمّي بنفوسهم حُبَّ الفضيلةِ. «فالغرضُ الأساسيُّ الذي يجبُ أنْ يضعَه المدِّرسُ نُصْبَ عينَيه في تقديمِ الشِّعْر للأطفالِ هو زيادةُ استمتاعِهم بهِ ، وتمرينُ أذواقِهم ، وتطويرُ تقديرِهم للصِيَغ الشعريّةِ المختلفةِ ، وكلّما زادتْ تجربةُ الأطفالِ بالشِّعر ، زادَ استمتاعُهم وفَهْمُهُم للفنّ الجميلِ ، والأدبِ الرّاقي الرّفيع»[1].

* ومن المُسلَّم بهِ أنَّ العربَ أمةٌ قامتْ حياتُها على الشِّعْرِ ، بل كان الشِّعْرُ روحَ حياتِهم ومنتهىٰ أملِهم ، ومع هذا وذاك فإنّا نجدُ كثيرين الآن لا يقرؤون الشِّعرَ ، أو يستمعون إليهِ ، أو يَسْمعونَه من غيرِهم ، وتكادُ تكونُ الطّامّةُ كبيرةً إذا علمنا أنّ أكثرَ من خمسين بالمئةِ من مدرسيّ اللغةِ العربيّةِ في رَحْبِ الوطنِ العربي لا يطالعونَ الشِّعْرَ ، ولا يفتحونَ ديوانَ شاعرٍ بعد تخرُّجِهم في

(١) انظر : الأدب وبناء الإنسان (ص ٢٠٥) بتصرف يسير جداً.

جامعاتِهم؛ ربّما يعود هذا لِظُروفهم ، ولكنْ ليس الإهمالُ بنافعٍ إلى هذا الحدِّ المُزْري ، حتّى يَصِلَ الحالُ بأحدِهم ألاّ يحفظَ سوىٰ بضعةِ أبياتٍ نصفُها غيرُ موزون!!![1].

* بيد أنَّ الأملَ يزهرُ الآن ـ والحمدُ لله ـ لوجودِ سُبُلِ التَّعليمِ الميسّرةِ ، والتّقنياتِ العلميّةِ العاليةِ التي يسَّرتِ السُّبُلَ أمامَ المتعلِّمين ، وابتكرتْ كثيراً من الوسائلِ السَّمعيّةِ والبصريّةِ فأثْرَتْ هذا المجالَ بما يسرُّ الخواطرَ ، وذلك ابتداءً من آلاتٍ وأشرطةِ التّسجيلِ ومروراً بوسائلِ الإعلامِ من صحافةٍ وراديو وتلفزيون وغير ذلك ، ثمّ استخدام الإنترنت بما يخدمُ الشّعرَ واللغةَ العربيةَ المتألّقة دائماً على مرِّ الأيّامِ.

* وإذاً ، علىٰ محبّي اللغةِ العربيّةِ لغةِ القرآنِ العظيمِ ، ولغةِ الشّعرِ والنّثرِ والبلاغةِ والبيانِ ، ولغةِ أهلِ الجنّةِ ، أنْ يسْعَوْا جادّين ليغرسُوا في نفوسِ أطفالنا تقديرَ الشِّعْرِ ، وتنميةِ الإحساسِ لديهم بهذا اللونِ الأدبي الرّائعِ ذي الفتون والفنونِ ، وإلاّ قَتَلْنَا ما تبقى لديهم من محبّةِ فنونِ الأدبِ العربي إذا أهملنا هذا الجانبَ ، وخصوصاً في المدارسِ؛ ولكنْ كيف يمكنُ للمدارسِ أنْ تثيرَ اهتمامَ الأطفالِ بالشِّعْرِ وتلفتَ أنظارهم نحوه؟!

* «إنَّ الأساسَ الصَّحيحَ الذي تستطيعُ المدارسُ أنْ تبنيَ عليه خطّتَها حتّى يدخلَ الشِّعرُ في مجالِ اهتمامِ الأطفالِ والنّاشئةِ ، هو أنْ تجعلَ الشِّعر جزءاً طبيعيّاً منَ البرنامجِ اليومي للحياةِ والتَّعلُّم؛ وأنْ تعملَ بترغيبِ الأطفالِ على محبّةِ الشِّعرِ ، واحترامهِ كمادّةٍ مهمّةٍ ، فيُخصِّصَ له المدرسُون المتخصّصُون

---

(١) هذه ظاهرةٌ حقيقةٌ لا مبالغةَ فيها ، فهناك كثيرٌ من الذين تخرّجوا في الجامعات منذ سنوات لا يعرفون الكتاب أو المطالعة ، فضلاً عن حفظِ الشّعر ، ومن المزري أنَّ بعضَ هؤلاء لا يجيدُ قراءةَ بضعة أبيات فكيف يحفظها؟! وممّا يزيد الطّين بلّة أنَّ المتخصّصين في اللغة العربيّة من هؤلاء يلحنون لحناً قبيحاً ، ويركنون إلى اللهجة العاميّة ويشجّعون على التّحدث بها ، وقد وصلَ الأمْرُ ببعضهم غلى أنْ يقول: إنَّ التّحدثَ بالعامية وتدريس الدّين بالعاميةِ هو الأفضل!!

فالله المستعان ، وهدانا الله وإياهم إلى الصّواب.

وقتاً يقرؤونه مع طلّابهم ، لا كجزءٍ منَ المقرَّرِ ، بل كَفَنٍّ يستمتعون بهِ لما يشتملُ عليه من طلاوةٍ في الأسلوبِ ، ورقّةٍ في المعنى ، وجمالٍ في الصُّورِ والخيالِ. ويقدّمُ المدرسون جوائزَ مرغّبة لطلّابهم ويحثّونَهم على اختيارِ مقطوعاتٍ أو قصائدَ شعريّةٍ مفضّلةٍ عندهم ، ومن ثمّ يقرؤونها بصحبةِ المدرّسِ ، أو تسجيلها بصوتِ المدرسِ مرّةً ، وبصوتِ الطّالبِ مرّةً أخرىٰ على شريطٍ يستمعُ إليهِ متى شاء ، وبالتّالي يأتي الحفظُ تبعاً من كثرةِ استماعِ الطالبِ إلى مختاراتِهِ الشّعريّةِ المشفوعةِ بتقديرِ المدرسِ للطّالب وللشّعر ، وعندها تنشأُ روابطُ الحبِّ بين الأطفالِ وهذا الفنّ الجميلِ»[1].

* وفي هذا الفصلِ الجميلِ المونقِ ، نجدُ أدبَ المسلمِ الصَّغيرِ ـ وحتّى الكبير ـ مع ربّه ، ونجدُ أدبَه مع دِينِهِ ، وأَدَبَهُ مع قِيَمِ الإسلامِ والمجتمعِ والأهلِ والأصدقاءِ. . ونجدُ الزّادَ المغذّي للنَّفْسِ والعَقْلِ ، يتزوّدُ منه أحبابُنا الأطفالُ بالآدابِ الإسلاميّةِ والأخلاقِ والتّشريعاتِ الإلهيّةِ والتَّوجيهات المُفيدة ، فإذا اهتمَّ الآباءُ والمربُّون بالنَّشءِ ، وأحسنُوا تقويمَهم وتأديبَهم سعِدوا وأسعدُوا بَنِيْهم ، وإذا أهملُوهم كانُوا كما عناهُم الشَّاعر بقوله :

إهْمَـالُ تَـربيـةِ البَنِيـن جِنَـايـةٌ عَـادَتْ عَلَىٰ الآبَـاءِ بـالـويْـلاتِ

* وفي هذا الفصلِ المفيدِ نلتقي مع د. محمد منير الذي يسجّلُ في أدبِ الأطفالِ لوناً جديداً جميلاً إذْ نظمَ كثيراً من الأخلاق الإسلاميةِ (Islamic morals) المهمّةِ في حياةِ الأطفالِ ، وقد اخترتُ بضْعَ قصائدَ منها ، وهذّبتُها تهذيباً لم يخرجْها عن مضمونها ، وأعتقدُ أنّها زادتْ حُسْناً وقرباً من أطفالِنا الأعزاء.

* بدأ الشاعرُ بآدابِ الصَّلاةِ (Prayer) ، إذْ هيَ الرّكنُ المهمُّ في بناءِ العباداتِ عند الأطفالِ؛ وأخذَ يَروي لهم آدابَها بنَفَسٍ رقيقٍ لطيفٍ ، يجعلُهم يشعرون بفضائِلها ومكانتها بين العِبَاداتِ.

* ففي البدايةِ ذكرَ عددَ الصَّلواتِ في اليومِ والليلةِ ، ثمَّ أشارَ إلى فوائِدها

---

(١) انظر : الأدب وبناء الإنسان (ص ٢٠٨) بشيء من التصرف.

الحِسَانِ ومنها: تزكيةُ النَّفْسِ وتطهيرُهَا ، وتنشيطُ الرُّوحِ ، وهي تُبعدُ الإنسانَ عن المنكراتِ ، وفيها النّورُ الذي نُشَاهدهُ في الوجْهِ.

* ثم يأتي للأطفالِ بأُسلوبِ التّرغيب ليتطهّروا من أجْلِ أداءِ الصَّلاةِ في جماعةٍ في المسجدِ ، وراحَ يذكرُ أشياءَ لطيفةً ومفيدةً للنّشءِ منها: نظافةُ اللباسِ ، واستخدامُ العِطْرِ والطِّيْبِ ، واستعمالُ السِّواكِ ، وما شابه ذلك من التزامِ بالخشوعِ ، والاقتداءِ بالإمامِ ، وبيانِ محاسنِ المسجدِ في الإسلامِ.

* ولم يخرج الشّاعرُ عن نهجِ القرآنِ العظيمِ والسُّنَّةِ النّبويّةِ المطهّرةِ في هذا المجالِ ، بل حاولَ أنْ يقتبسَ من القرآنِ والسُّنةِ ما يزينُ عباراتِه وألفاظَه ، دون أنْ يخرجَ عن الخطِّ العامِ ، وهو نقلُ المعرفةِ إلى الأطفالِ وهو يسيرُ بهم قُدماً نحو تعلّم آدابِ الصَّلاةِ وآدابِ المشي إلى المساجدِ ، فيقول:

صَلَواتٌ خَمْسٌ في اليَوم ... فَرضٌ صلُّوهَا يا قومي
وتُزكّي النَّفس تُطَهّرها ... وتُنشّطُ رُوحاً للْجِسْم
تنهىٰ عن فُحشٍ أو سُوءٍ ... وكمالُ المُسْلِمِ بالحِلْمِ
بِصَلاةٍ ترقىٰ الرُّوح إلىٰ ... ربٍّ رحْمَن باركَها
فتزيدُ خُشوعاً إيماناً ... والخير ضياء شاركها
نُورٌ في الوجهِ نُشَاهِدهُ ... هي روحُ المؤمن ضاء بها
أَبنيّ تَطَّهر لِصَلاةِ ... فالماءُ حَياةٌ وطهُور
واللهُ يحبُّ طهارتَنَا ... فالصّحةُ تاجٌ وسُرور
واذهَبْ للمسْجدِ وضّاءً ... وبثَوبِكَ عِطْرٌ وعَبيرُ
فَصَلاةُ المرءِ إذا صَلحَتْ ... بشرىٰ بصلاحِ وكمال
فهي المعْيَارُ إلى التّقوى ... وبها ميزان الأعمال
فمسَاجدنا عُمِرَتْ بكُمُ ... فيها تخريجُ الأجيال
فالنّفُس بها ما أجملَها ... والقَلْبُ تهلّل بالبشر

* لا يزالُ د. محمد منير ينيرُ بنصائحهِ دربَ الأطفالِ في توجيهاتٍ مباركةٍ ، فلا ينسىٰ أنْ يدلَّ علىٰ آدابِ صلاةِ الجمعةِ ، وفضلِها وفوائدِها وشرفها؛ فمن آدابِ الجُمعةِ الاغتسالُ والتّطيّبُ والسّواكُ والتّبكيرُ ، وذكرُ اللهِ عزّ وجلّ ، ومن

ثمّ الاستماعُ إلى الخطبةِ بإنصاتٍ وتدبّرٍ ، ولبسُ أحسنِ الثّياب ، واغتنامُ أوقاتِ الدُّعاءِ في هذا اليومِ العظيمِ.

* ومن الجدير بالذكرِ أنّه تُوجَدُ سورة تسمى «سورة الجمعة» (Chapter of Friday) وفيها آياتٌ تشيرُ إلى فَضْلِ هذا اليوم ، وإلى فضْلِ صلاةِ الجمعةِ وآدابِها ، والمسارعةِ إليها وترك كلّ شيء في سبيلِ الحصول على ثوابها. وفي السُّطُورِ التَّوالي نقرأُ توجيهاتٍ تفصحُ عن مضمونِ ما ذكرناه:

بكِّــرْ للجُمعــةِ وتهيّــأ ... لِلصَّـــفِ الأوّل وتبـــوّأْ
مَنْــزِلــةً عُليــا وثَــوابــاً ... مــا شئــتَ فصَلٍّ أو فــاقــرأ
قــد سَــنّ نبــيُّ الله لَنَــا ... غُسْــلاً للجمعــةِ فَتَطهَّــرْ
لِصَــلاةِ نــأْخــذُ زينَتنــا ... بــالعِطْـر وفــي حُسْــنِ المظْهَـر
فــالأوّلُ يــأخــذُ مــرتبــةً ... درجــات عشْـراً مــن عَشْــر
وتظــلُّ النّسبــةُ فــي نقــصٍ ... إنْ ظــلَّ ببيــتٍ يتــأخَّــر
فــي الجمعــةِ أوقــاتٌ عِــدّة ... خصَّصَهــا ربّــي لِــدُعــاء
فــالمــؤمــنُ يتحــرّى فيهــا ... أوقــاتــاً تحلُــو لــرجَــاء
فــالــدّعــوةُ إنْ خلصَــتْ فيهــا ... عبَــرتْ بــالإذْنِ لبَــاريهــا
أبــوابُ الــرحمــةِ إنْ فُتحــتْ ... غَمــرتْ مــن فيــضِ ســواقيهــا
فــاغْنَــمْ مــن فَيــضٍ يتجــدَّدْ ... فــي يــومِ الجمعــةِ وتعبَّــد
قــد خُــصَّ لأَجْــلِ سَعــادتنــا ... فــاعْمَــلْ يــا مُسْلِــمُ وتــزوّد

* وأمّا آدابُ المسجدِ (Mosque) ، فقد كان لها النّصيبُ الطّيّبُ ، والزّادُ الوفيرُ في نَظْمِ د. محمد منير ، فقد أحسنَ وأبدعَ فاسمعْ إليه ، واقرأْ للأطفالِ ما لَديه ، حيث يقول:

للمَسْجــدِ بــادرْ وتطهَّــر ... والبــسْ وتــزيّــنْ وتعطّــر
واذْهَــبْ بــوقَــارِ وسكينــة ... لا تســرعْ كــي لا تتعثّــر
وأجــبْ مَــنْ أذّنَ لنــداءِ ... لصــلاةِ ركــوع وسجــود
واســأَلْ لــرســولِ أنْ يحظــى ... بمقــامِ اللهِ المحمــود
لا تــأكــلْ ثُــومــاً أو بَصَــلاً ... بــروائِحهــا تُــؤذي المسجــد

يتـــأذّىٰ منـــكَ مـــلائكـــةٌ والجـــارُ بقـــربـــكَ إذْ يسجـــد
فـــالـــرِّجْـــلُ اليمنـــى قـــدِّمهـــا لـــدخـــولِ المسجـــدِ فـــي أدبِ
وادع الـــرَّحمـــن بـــدعـــوات لجـــلاء القلـــب مـــن التَّعـــب
والحَـــقْ بجمـــاعـــةِ إخـــوان بـــإقـــامِ صـــلاة قُـــدسيَّـــة
بـــإمـــامٍ فـــاركـــعْ مُقتـــديـــاً تـــابِعْـــه سُجـــوداً وتحيَّـــة
إنْ سلّـــم تـــابِعْـــهُ وسلِّـــمْ واجلـــسْ لتسبِّـــحَ يـــا مُسلـــم
إنْ رمـــتَ خُـــروجـــاً لا تقطـــعْ بمـــرورٍ صلـــواتِ مُتمّـــم
ولـــربِّـــك وحِّـــد واستغفـــرْ واحمـــدْه وسبّحـــه وكبّـــر
أتممهـــا مئـــةً كـــي تحظـــىٰ بـــرضـــاءِ الله وبـــالأجْـــر

* والدّكتور محمد منير كالنّحلةِ ، تنتقلُ من زهرةٍ إلى أخرى ، لتمتصّ رحيقَ الأزهار ، وتجودَ به عَسلاً فيه شفاءٌ للنّاس ، وها هو ذا الآن يصنعُ ذلك ، فيدلُّ الأطفالَ على أدبٍ يوميّ حضَّ عليه الإسلامُ ، إنّه أدبُ السَّلامِ (Greet) في الإسلام ، فمع هذا الأدبِ وهمسةٌ رقّافةٌ:

شَـــرعَ الإســـلامُ لنـــا نهجـــاً لِنَعيـــشَ الحـــبَّ ونتـــآلَـــف
ونقـــوّي صِـــلاَتِ مـــودّتنـــا ونشـــدَّ الأَزْر ونتَعـــارف
فـــالمسلـــمُ يلقـــاهُ أخـــوهُ بتحيّـــةِ ودّ وســـلام
فَيـــرُدّ عليـــهِ بـــأحسنهـــا ويتـــمّ تحيّـــةَ إســـلام
فـــاجْهَـــرْ بِسَـــلامٍ يـــا وَلَـــدي وابـــدأْ بِكَبيـــرٍ واجْتهـــد
إنْ زُرْتَ الجمـــعَ فَبـــادرهـــم بِســـلامٍ صـــافِحْهـــم بِيَـــد
ونبـــيُّ الله يـــوجّهنـــا لِيســـودَ الـــودّ تعـــاملنـــا
أنْ أفشُـــوا سَـــلامـــاً بينكمـــو فَســـلامٌ الله يـــوحِّـــدُنـــا

* ومن الآدابِ المهمةِ أدب اللّباسِ (Clothing) ، وينبغي أن نفتحَ عيونَ الأطفالِ على الأشياءِ التي يحبُّها اللهُ ورسولُه في هذا المجالِ الذي يلمسُه الأطفالُ كلَّ يومٍ ، إذ ينبغي على المربّين أن يربُّوا الأطفالَ على آداب اللباسِ ، وما يتعلّق به من توجيهات نبويّةٍ فيما يخصُّ المباحَ منه وغير المباحِ بالنّسبةِ للأطفال .

* فاللباسُ نعمةٌ منْ نعمِ اللهِ عزّ وجلّ على بني آدم ، يستترُ به الإنسان ، ويتزيّن ، ويتنعّمُ بما خلقه الله له من أنواعِ اللباس ، والذي يلائمُ فصولَ السَّنةِ وأيامها ، وليلَها ونهارَها.

* وقد استحبَّ النّبيُّ ﷺ اللون الأبيضَ ، وحثَّ على لبسه ، وجاءت الرّخصةُ النّبويةُ كذلك في لبسِ الأحمرِ والأخضرِ والأسود من الثّياب ، كما أمرت بعدم تطويل الثّياب وجرّها.

* ويحسُنُ بالمربّين والآباءِ تعويد الأطفالِ على لبسِ الأبيض من الثّياب اتباعاً للسُّنَّة ، ولأنَّ اللباسَ الأبيضَ نقيٌّ وجميلٌ ، ويتعوّدُ الأطفالُ لبسَ الثّياب البيض بالقدوةِ من الآباء والمربّين.

* وينبغي على المربّين أن يمنعوا الأطفالَ من لبسِ الثّياب الشّفافة التي لا تسترُ العورة ، لما في ذلك منَ الميوعةِ وقلّة الحياء ، وعدم المبالاةِ بظهورِ العورةِ أمامَ النّاس ، ويُضاف إلى ذلك المنع من لباسِ الشُّهرة ، والملفتة للنّظر ، فإنَّ ذلك مكروهٌ ومذموم ، ويندرج معه اللباس الذي يحمل صوراً وعليه رسومات لطير أو بشَر...

* فالسّترُ محمودٌ وتربيةُ الأطفال عليه من أعلى الغاياتِ النّبيلةِ وأرفعها ، إذ تجعلُ الأطفالَ ذوي حياء ، والحياء خيرٌ كلّه ، والحياءُ يقوّي حبّ العفّة في الأطفال ، وإذا درجوا على هذه العادة كانوا أسوياء فُضلاء في المجتمع رجالاً كانوا أو نساء ، وفي تحقيقِ هذه الغايات نقرأ هذه الأهزوجة الجميلة:

جَعَـلَ إلهـي شيئـاً يَسْتُـر ... لِلْعَـوراتِ فحـاذِرْ تَنْظُـر
أعطـىٰ لـرجـالِ ألـوانـاً ... واللّـونَ الأزْهـى لِنسَـاء[1]
عـن أنثـى يمتـاز رجـالٌ ... والسّتْـر شعَـارٌ لِنَقَـاء
فـالمـرأةُ تسْبِـلُ أثـوابـاً ... وتلـفُّ علـى الـرّأسِ نِقَـابـا

(١) هذه إشارة ذكيةٌ ولفتةٌ تربويةٌ منَ د. محمد منير ، حيثُ أشارَ إلى نوعيةِ لباس الرّجل والمرأة ، وهذا يذكرنا بما أُثِر عن رسول الله ﷺ: «لعنَ رسولُ الله ﷺ الرّجلَ يلبسُ لبسةَ المرأةِ ، والمرأةُ تلبسُ لبسةَ الرجلِ» أخرجه أبو داود برقم (٤٠٩٨).

لا تُبـــدي أبـــداً زينَتَهـــا ... لِتحـــوزَ رضـــاءً وثَـــوابَـــا
ولـــزوجٍ تُبـــدي زينتَهـــا ... تَتَعطَّـــرُ تُبـــدي بَسْمتَهـــا
والـــرَّجُـلُ يُقصِّـــرُ مـــن ثـــوبٍ ... مـــن فـــوقِ الكعْـب إلـى السَّـاق
لـــو يسحـــبُ ثـــوبـــاً مُختـــالاً ... فـــالكِبْـــرُ لِبَـــاسٌ لِنِفَـــاق
مـــا جـــاوزَ كعبـــاً إسْـــرافٌ ... سَيُمَـــسُّ بنـــارِ الإحـــراق
فـــالقـــدوةُ سنَّـــةُ محمـــودٍ ... والنُّصـــح لأَهْـــلٍ ورفـــاق

* ومن الآدابِ النّافعةِ المهمّة التي ترفدُ الأطفالَ بأدب ثَرّ ، وأسلوبٍ هني رضي جميلٍ ، تعليْمَهم أدبَ النَّومِ ، وربّما يظنُّ بعضُ الناسِ أنّ أدبَ النومِ (Sleeping habit) أدبٌ غير ذي بال؛ والحقيقةُ فمعرفةُ الأطفالِ له يزيدهم خبرةً ومهارةً في الحياةِ من نواحٍ عدّة ، منها: معرفةُ ماهيّة النّوم وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جعلَ الليلَ لباساً ، يسكنُ فيه النَّاس ، والنَّومُ من خِصَال الفطْرة ، كما يعرفون بعضَ النَّواحي الطِّبِّية وفوائدها في الالتزامِ بقواعدِ الإسلام في النّوم ، كالنّوم على الجانبِ الأيمنِ ، ثمّ تعرِّفهم بعضَ أذكارِ المُسلمِ التي يقولُها عند الاضطجاعِ على الشِّقِ الأيمن ، إذ إنّه من المؤكّد أنَّ للنّومِ آداباً يحرصُ المربّون على تعويدِ الأطفالِ عليها ليحصل لهم من خلالها اتّباع السُّنَّة المطهرة ، وراحة أجسامهم ونفسيّاتهم.

* ومن الآداب النَّافعةِ للأطفال ـ وحتّى الكبار ـ النوم المبكّر في أول الليل ، فقد أثبتت الدراساتُ الطّبيّةُ والنَّفسيّة أنَّ أجسام الأطفال تستفيدُ من النَّومِ في الليل أكثر ممَّا تستفيده بالنَّهار.

* ومن اللافت للنّظرِ في هذه الأيّامِ أنَّ المربّين أنفسهم قد ابتلوا بالسَّهر في الليالي ، وعوّدوا الأطفالَ على ذلك ، فهم يسهرون إلى ساعات متأخِّرة من الليالي ، وربما سهروا الليالي كلَّها ، وناموا في النَّهار ، وقد لا يستيقظ معظمُهم لأداءِ صلاةِ الفجر ، ومن العجيب أيضاً أنَّ السَّهرَ واللهوَ قد أصبح الآن من أحدثِ «الموضات» ومَنْ لا يَسْهَرُ فهو متخلِّفٌ عن ركْبِ الحضارة وركبِ التّمدْين والتَّحضُّر ، وقد سرى مرض السَّهر هذا إلى الأطفال وإلى الأمّهات المربّيات ، فترى الأطفال في النّهار نائمين على مقاعد الدّراسة لا يكادون

يفقهون حديثاً ، وأمّا الأمهات فيتثاقلنَ عن آداء واجباتهنّ البيتية ، والآباء مشغولون أيضاً بأشياءَ لا تسمنُ ولا تغني من جوع.

* إذن ينبغي على المربّين والمربيات ممّن يهمُّهم تنشئة الأطفال على الآداب والأخلاق والسُّنَّة المحمودة أنْ يعلّموا النَّاشئة على آداب النوم ، واستغلال الأوقات بما يفيد الأطفال ، وأن يعوّدوهم على الأنشطة المفيدة التي يكون تعود عليهم بجليل الفوائد.

* والآن سنطّلع على أشياء مفيدةٍ في هذه المنظومةِ العذبةِ التي تتحدث عن آداب النوم:

بـــثَّ اللهُ بـــأرضٍ نـــاســـاً ولهـــم خَلَـــق الليـــلَ لِبـــاسَـــا
كتـــبَ الله النَّـــومَ لِـــزامـــاً لـــلإنســـانِ فكَـــان أسَـــاسَـــا
إنْ تتبـــدّلْ فِطْـــرَةُ ربّـــي نَقْتُـــلْ فـــي النَّفـــس الإحســـاسَـــا
فـــإلـــى النَّـــوم بُنـــيّ بلَيـــلٍ واخلـــد فيـــهِ لِـــراحـــةِ جِسْـــم
لا تسهـــرْ كـــي تُتعِـــبَ عقـــلاً أبْـــقِ العقـــل لعمـــلِ اليـــومِ
وتـــوضـــأْ واقـــرأْ آيـــاتٍ واسْتَسْلـــمْ فيهـــا للنّـــوم
قَبْـــل النّـــومِ أَعِـــدَّ فـــراشـــاً أطفـــىء قنْـــديـــلاً وقّـــادا
وعلـــى الشّـــقِّ الأيمـــنِ فـــارقُـــدْ وبهـــذا تَـــرتـــاحُ مِهَـــادا
واستيقـــظْ بنشَـــاطٍ ليـــلاً واجْلـــس للقُـــرآن وذِكْـــر
وتنفَّـــل فـــي الليـــلِ صـــلاةً واخْلُـــد فـــي نـــومٍ لِلْفَجـــر
تلكـــمْ آدابٌ للنَّـــوم فـــالْـــزمْهَـــا يـــومـــاً فـــي يـــوم
لِتَـــروا صحّتكَـــم يـــا قـــومـــي بـــاديـــةً بنشَـــاطِ الجسْـــم

* ولـلاستئـذانِ (Permission) آدابٌ يجبُ على المربّيـن أنْ يعلّمـوهـا الأطفال ، فقد حضَّ القرآنُ الكريمُ على أدب الاستئذانِ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ [النور: ٥٨].

* وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثاً ولمْ يُؤْذَنْ له فَلْيَنْصَرِفْ»[1].

* وعلى الآباء والمربّين أنْ يتّخذوا الأسبابَ الشَّرعيّة والآدابَ المرعيّة لحماية الأطفال داخل البيوت وخارجها، ومن أدقّ هذه الأسباب: تعليمهم آداب الاستئذان وقواعده لحمايتهم من احتمال وقوع أبصارهم على ما لا تُحمد عقباه.

* ولهذا رغَّبَ الإسلام في الاستئذان وتعلُّم آدابه وأوقاته التي يُتَوقَّعُ خلالها انكشاف العورات فيها وهي: صباحاً حين الاستيقاظ من النّوم، ومساء حين إرادة النّوم، وظهراً حين القيلولة والرّاحة.

* وفي غيرِ هذه الأوقاتِ يحلّ للأطفالِ أنْ يدخلوا على أهليهم دون استئذان، ولكن يُسْتحبُّ أن يتعلّموا آداب السَّلام لقوله ﷺ لأنس بن مالك معلماً ومربّياً: «يا بنيَّ إذا دخلتَ على أهلك، فسلّمْ يكون بركة عليك وعلى أهلِ بيتك»[2]، فمن بركات هذا السَّلام: مزيدٌ من الحيطة، وحصولٌ للأُنْسِ، وإشعارٌ لأهل البيت بالقدوم.

* وإذا بادرَ الآباءُ والمربّون والأمهات إلى تعليمِ الأطفالِ هذا الأدبَ وتابعوه متابعةً لطيفةً، نشأ الأطفالُ على غايةٍ منَ الفضائلِ والمكارمِ وحسنِ التَّعاملِ مع الآخرين، بالإضافةِ إلى حسنِ الالتزامِ بأوامرِ اللهِ ونواهيهِ، فلا ينظرون إلى بيتِ قومٍ بغيرِ إذنِهم ويغضّون من أبصارِهم، ويعرفون أوقات الاستئذان المناسبة، ويتجنّبون الأوقاتَ غير المناسبة، حسناً، فلنتَعَرَّفْ بعضَ أدبِ الاستئذانِ في هذه الخَطَرات:

الدِّينُ الأقومُ أرشَدنا ... لِنظامِ حياةٍ يحفظُنا
شَرَعَ استئذاناً لِدخُولٍ ... فدخُولُ البيتِ له حُرمة
والعورةُ تُسْتُر بِخِباءٍ ... لِتَشيع التّقوى في الأمة

---

(1) أخرجه البخاري برقم (٦٢٤٥)، ومسلم برقم (٢١٥٣).
(2) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٩٨) وقال: «حديثٌ حسنٌ غريبٌ».

فيـــدقّ البـــابَ وينتظـــر		إذنــاً لِــدخُــولٍ أو يــرجــع
والسُّنَّـــةُ أن يقـــرعَ بـــابــاً		مِقْــدارَ ثــلاث كــي يُسْمــع
إنْ قيــلَ لــه مَــنْ بِــالبــاب		فليـــذكُـــر اسمــاً بِتَمــام
فــإذا أَذِنُـــوا فَلْيبـــدأهـــم		بتحيّـــةِ أهـــلِ الإســـلام
ولأهـــل البيـــتِ لهـــم إذن		فـــي أوقـــات هـــي عَـــورات
مـــن قبـــلِ صَـــلاةِ للفَجْـــر		أو بعـــد صـــلاةِ لِلظُّهْـــر
أو بعـــدَ عشَـــاء لمنَـــامِ		فـــارجـــعْ فـــي هـــذي الأوْقَـــاتِ

* وللمائدةِ والطّعام والشّرابِ آدابٌ منها: قولُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ عند الابتداء به، وقولُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عند الانتهاءِ منه، وها نحنُ نزجي نصائحَ مفيدةً للأطفالِ، نعرضُها في أسلوبٍ رقيقٍ رفيقٍ، نريدُ من خلاله أنْ يلتزمَ أطفالُنا بتعاليمِ الإسلام وتوجيهاته في أدبِ المائدةِ. فاحفظوا هذه الآداب:

آدابُ الأكْـــلِ علـــى الـــوقـــتِ		تجتمِـــعُ الأســـرةُ فـــي البيـــتِ
وتُجهِّـــزُ أمّـــي مـــائـــدةً		وتســـاعِـــدُهَـــا مِثلـــي أُختـــي
ونُسمّـــي بـــاسْـــمِ الـــرّحمـــن		ســـرّاً والأفْضَـــلُ بـــالجهْـــر
بـــاليُمنـــى نـــأكـــلُ بـــأنـــاةٍ		ونُعـــدُّ اللقمـــة بـــالقَـــدر
فـــالسُّنـــةُ قـــالـــت معـــدتكـــم		أثـــلاثٌ تُقسَـــم فـــي الحـــسّ
ثُلُثـــان لشُـــربٍ وطعَـــام		والثّلـــثُ البـــاقـــي للنَّفـــس
فـــالصِّحـــة تـــاجٌ نَطْلبُـــه		لِيتـــوَّجَ رأسُ الإنســـان
ونصـــائـــح شـــرعٍ نـــأخـــذهـــا		سببـــاً لنجـــاة وأمـــان

* ولإكرام الضَّيفِ وأدبِ استقبالِهِ نصيبٌ موفورٌ في هذا الفصل، ترى هل يتعلّمُ أطفالنا أدبَ إكرامِ الضَّيف؟ لذا علّموهُم هذه المكارم اللطيفة:

اسْتَقبـــلْ ضَيفَـــكَ بحبُـــورِ		وببسمـــةِ حُـــبٍّ وزُهـــور
رحِّـــبْ بـــالكُـــلّ وهُـــشَّ لهـــم		وارفـــعْ مـــن حبِّـــك لحضـــور
للضَّيـــفِ نســـوقُ الآدابـــا		ليظـــلَّ الـــرّفقـــةُ أحبـــابـــا
يلتـــزمُ بمـــوعـــدِ دعـــوتـــهِ		وينظّـــفُ جِسْمـــاً وثيـــابـــا
ويقـــدّمُ إخـــوانـــاً سبقُـــوا		بـــالسِّـــنِّ ويُبـــدي الإعجـــابـــا

وإذا طعِمُــــــوا فلْيَنْتَشـــــــروا   بِلســـــانٍ يلهَـــجُ بـــــالشُّكـــــر
ومضيـــــفُ القـــــومِ يُشَيِّعُهـــــم   لِلْبـــــابِ ببسمـــــــةِ مُفْتَـــــرّ
مـــا أحلـــى القـــوم إذا اجتمعُـــوا   والغبطـــةُ مـــن فـــوقِ الثَّغـــر

• وما أجملَ أنْ نختمَ هذا الفصلَ بتعليمِ أطفالِنا أسماءَ الأشهرِ العربيةِ الهجريّةِ ، فمعَ هذه الأهزوجة الجميلة التي تسردُ أسماء الشهور عند المسلمين:

أشهُـــرُنـــا زهـــرُ البستـــانِ   نُنْشِـدُهـا فـي خيـرِ بيـانِ
أحفـظُ أشهـرَنـا الهجـريَّـةْ   مـا أسعـدنـي يـا إخـوانـي
شهـرُ «محـرّم» يـأتـي الأوّلْ   سنـةٌ تبـدأُ بـالـدَّوران
«صفـرٌ» يـأتـي بعـدَ محـرّمْ   يـأتـي فـي التَّـرتيـب الثَّـانـي
شهـــرُ «ربيـــعِ الأوّلِ» روضٌ   صَـدَحَ الطَّيـرُ علـى الأغصـان
شهـرُ «ربيـعِ الثَّـانـي» يبـدو   بـاقـةَ زهـرٍ بـالألـوان
شهـــرُ «جمـــاد الأوّلِ» فيـــهِ   جَـوُّ البَلَـدِ لَطِيـفُ الشَّـان
أمّـا شهـر «جمـاد الثّـانـي»   فَبـهِ البـرْدُ بكـلّ مَكَـانِ
«رجـبٌ» والإسـراءُ تـلالا   فـي المعـراجِ إلـى الـدّيـان
فـي«شعبـانَ» الجـوُّ جميـلٌ   معتـدِلٌ وَبِـلا نُقصـان
فـي «رمضـانَ» الخيـرُ مُضَـاعـفْ   شهـرُ الجـودِ مـعَ الإحسـان
فـي «شـوالَ» العيـدُ بهيـجٌ   بسمَتُـهُ ثغـرُ الإنسـان
فـي «ذي القعـدة» يَقْصِـدُ قَـومـي   مَكّـةَ فـي حُـبٍّ وتفَـان
و «بـذي الحجَّـةِ» يبـدأُ حَـجٌّ   لبّـى المسلـمُ للغُفْـران
فـاحفـظْ أشْهُـرَنـا العـربيـةْ   بِنَشِيـدِ عَـذْبِ الألحـانِ

* * *

الفصل الرابع
قصصُ الحيوانِ وثقافةُ الأطفالِ

* من أهم مصادرِ الثَّقافةِ الماتعةِ للأطفالِ قصصُ الحيوانِ (animal stories) فهي تزوّدهُم بالحكاياتِ المشوقةِ المُمتعةِ؛ وقد أثبتتِ الوقائعُ وكثيرٌ من الدّراساتِ العربيّةِ والأجنبيّةِ أنَّ قصصَ الحيواناتِ المسموعةِ والمقروءةِ عندَ الأطفالِ من أكثرِ الأشياءِ رواجاً وحبّاً لديهم. وقد تبيَّنَ أنَّ معظمَ الأطفالِ يعشقُون القَصصَ التي تدورُ حولَ الحيواناتِ الأليفةِ المستأنسةِ ، وحتّى المتوحّشة ، كما أنَّ عدداً من الدّراساتِ قد أكَّدتْ أنَّ أكثرَ من نصفِ تساؤلاتِ الصِّغارِ تدورُ حولَ الحيواناتِ والطَّبيعةِ والكونِ.

* ومن الواضحِ لدى المُتمرّسينَ في أدبِ الأطفالِ (Child Literature) أنّهم يلحظُون أنَّ قصصَ الحيوانِ تشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ قصصَ الإنسانِ ، فَقَدْ وجدوا أنَّ الحيواناتِ تتحدّثُ وتتصرَّفُ كأنَّها بَشَرٌ ، لذا فمنَ الطَّبيعي أنْ تدخلَ الحيواناتُ خيالاتِ الطُّفولةِ ، بل خيالاتِ الإنسانِ ، فيتحدَّث عنها ، ويحكي قصصاً على لسانِها؛ وقد لعبَ الحيوانُ دوراً مهمّاً في قصص العَامّةِ وخيالاتهم التي سارتْ على الألسنةِ أمْثالاً ، أو اتّجهت اتّجاهاً تعليمياً أو وَعْظيّاً أو تأكيداً لدرسٍ أخلاقي للبَشَرِ ، أو ربما ترمي إلى النَّقدِ أو تصحيحِ مفهوم ما يرتبطُ بالأمرِ الواقعِ.

* ومن الواضحِ في تراثنا الثَّرِّ أنَّ أدبَ قصصِ الحيوانِ مشهورٌ وواضحُ المعالمِ في حياةِ العربِ قديماً ، فعنترةُ بن شداد يحاورُ حصَانَه ، والفرزدقُ

يحكي ما حدثَ بينه وبينَ ذئبٍ اشترَكَا في الطَّعامِ ، وكذلك البُحتريُّ وغيرُهم.

* ونجدُ في الأدبِ العربيّ القديم صدىً لقصصِ الحيواناتِ ، ولعلَّ ظهورَ كتاب «كليلة ودمنة» الذي نَقَلَهُ عبد الله بن المقفّع من اللغةِ البهلويّةِ إلى العربيّةِ كان السَّببَ الرئيسَ في خَلْقِ هذا الجنْسِ الأدبيّ الجديدِ في اللغةِ العربيّة ، وظهرتْ مصنّفاتٌ تحكي قصصَ الحيوانِ في أدبنا العربيّ القديمِ ، ومنها: «كتابُ الحيوانِ» لأبي عُثمان الجاحظِ وبعدهُ بقرون ظهر كتابُ «حياة الحَيوانِ» للدّميري ، وغير ذلك من كتبٍ مثل: «فاكهةُ الخلفاءِ ومفاكهةُ الظُّرفاء» لابن عربشاه.

* وكان لهذه المصنَّفاتِ أثرُها الكبيرُ في أدباءِ الغرب ، فقد تأثّرَ الشّاعرُ الفرنسيّ «لافونتين» (Lafontine) في هذا الجنسِ الأدبيّ العربيّ ، وبلغَ به أقصى ما قُدّرَ له منْ كمالٍ فنّي حتّى صارَ مثالاً لمن حاكوه في الآدابِ جميعاً ، ومنهم أحمد شوقي.

* إنَّ المتعمّقَ في الدّراساتِ الأدبيّةِ يجدُ أن «لافونتين» هذا لم يكنْ هو الذي يبتكرُ قَصَص الحيواناتِ والخرافاتِ ، بل كان يستولي عليها ويقتبسُها من كتابِ «كليلة ودمنة» وغيرِه ، ثمَّ يصوغُها ويلبسُها أثواباً مِنَ الخَيالِ والفُكَاهةِ فتبدو رشيقةً لطيفةً يبعثُ الجمال الشِّعري الخفيف من جنباتِها. ومنَ الواضحِ أنَّ «لافونتين» لم يهدفْ من منظوماتِهِ إلى التَّعليم أو التَّوجيهِ ، بل كان يهدفُ إلى الإمتاعِ والإيناسِ والتَّسليةِ وترطيبِ العاطفةِ عند الأطفالِ وربّما الكبار.

* وقصصُ الحيوانِ حكاياتٌ قصيرةٌ تهدفُ إلى أنْ تنقلَ معنىً أخلاقياً ، أو تعليميّاً ، أو حكمةً ، أو تهذيباً ، وتصلح قَصَصُ الحيوانِ الهادفةِ للأطفالِ الصِّغارِ ، لأنّهم يرون عدداً مِنَ الحيواناتِ حولَهم كالدَّجاجةِ الحمراءِ ، أو الأرنبِ ، أو القطِّ ، أو الحصَانِ أو ما شابه ذلك . .

* ويرى كثيرٌ مِنَ الباحثينَ والدّارسينَ لأدبِ الأطفالِ وثقافتهم أنْ تُقْرأَ قصص الحيوانِ ذات المغزى الأخلاقيّ أو التَّهذيبي (١) في المدرسةِ على أطفالِ

(١) من أمثلة ذلك ما رواه الشّعبي قال: «مرضَ الأسدُ فعادتْه السّباع ما عدا الثّعلب ، فأراد=

ما بعد الخامسةِ ، وتقرأ عليهم في غرفةِ الصَّفِّ مصادفةً للتّرفيهِ والاستمتاع. ومنهم مَنْ يرى أنَّ قصصَ الحيوانِ ينبغي أنْ تكونَ في المنهجِ الدّراسي للأطفالِ ، لأنّها تزوّدُ الأطفالَ برصيدٍ من المعرفةِ يساعدهم على فَهْمِ كثيرٍ من الاصطلاحاتِ والتّورياتِ والرّمْزيّاتِ المستعملةِ في الحياةِ.

* وقد تفنّنَ الأدباءُ والشُّعراءُ قديماً وحديثاً في عرضِ قَصَصِ الحيواناتِ بقوالبَ نثريّةٍ وشعريّةٍ جميلةٍ محبّبةٍ إلى النّفوس ، ومن المقطوعاتِ الجميلةِ الرّاقصةِ هذه النُّونيّة عن أُمَمِ الحيوان ، صِيغَتْ بريشةٍ ماهرةٍ وفكْرةٍ وقَّادةٍ لإثارةِ ذهنِ الأطفالِ للتّفكُّر في خَلْقِ الرّحمنِ عزّ وجلّ ، والنّظرِ إلى أشكالِ أُمَمِ الحيواناتِ وأصواتِها وحكمةِ اللهِ في خَلْقِها ، وكلٌّ هذا مستمدٌّ من هَدْيِ القرآنِ الكريمِ ، فتعالوا نرى أممَ الحيوان:

هـــذا مـــن خَلْـــقِ الـــرَّحمـــن ... مِـــنْ طيـــر البحـــرِ وحيتـــانِ
أَشْكَـــالٌ لـــو تَبْغِـــي حصـــراً ... لأَثَـــارتْ عقـــلَ الإنســـانِ
لكـــنَّ المـــولـــى صَنَّفهـــا ... فـــي مُحْكَـــمِ آيِ القـــرآنِ
أُمَـــمٌ للطَّيـــرِ لأسمـــاكٍ ... أُمَـــمٌ فـــي البـــرِّ لِحَيْـــوَانِ
منهـــا الـــزَّحَّـــافُ علـــى بطـــنٍ ... منهـــا تكْفيـــهْ الـــرِّجـــلانِ
منهـــا مَـــنْ يسبـــحُ فـــي مـــاءٍ ... لا يَعْـــرفُ غيـــرَ الشُّطـــآنِ
منهـــا يحتـــاجُ لأَرْبَعَـــةٍ ... أوْ أَكْثَـــرَ سبحـــانَ البَـــانِـــي(١)

= الذئبُ أنْ يكيد للثّعلب عند ملك الحيوانات ، فقال الأسد: أيّها الملك ، لقد مرضتَ فعادتك السّباع جميعها ما عدا الثعلب. قال الأسد: فإذا حضر الثعلبُ فأحبرني. فلمّا بلغ ذلك الثّعلب جاء ليعود الملك ، فقال له الأسدُ: يا أبا الحصين مرضتُ فعادني السّباع كلها إلاّ أنتَ. قال الثعلبُ: بلغني مرض الملك فخرجتُ أسعى في طلبِ الدّواءِ له. فقال الأسد: فأي شيء أصبتَ؟ قال الثّعلبُ: قالوا لي: عليك بخرزةٍ في ساقِ الذّئب ينبغي أنْ تخرجَ فيعالج بها الملك. فضرب الأسد بمخالبهِ ساقَ الذّئبِ فشقّها ، وتسلّلَ الثّعلبُ خارجَ عرين الأسد ، وبعد قليل مرّ عليه الذّئبُ يعرجُ والدم يسيل من ساقهِ. فقال له الثّعلبُ: يا صاحبَ الخفّ الأحمر ، إذ قعدت بعد هذا عند سلطان ، فانظرما يخرج من رأسك».

(المستطرف للأبشيهي).

(١) هذا النّظمُ مقتبسٌ من قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

منهــــا أحجـــامٌ بـــالِغَـــةٌ ... جمعَـــتْ مِـــنْ كـــلِّ الأوزانِ
منهــــا أصنـــافٌ نـــادرةٌ ... فيهـــا مِـــنْ كـــلِّ الألـــوانِ
والمـــولـــى أَوْدَعَ حِكْمَتَـــهُ ... فيهـــا كـــي تحيـــا لطعـــانِ
هـــذا يقتـــاتُ علـــى هـــذا ... والكـــــلُّ لَـــهُ رزقٌ دانِ
يـــا مُـــؤْمِـــنُ أَدْرِكْ أســـراراً ... لتـــوازُن عـــالَمِنَـــا الفـــانـــي

* ومن روائع القَصَصِ الجميلِ ذي العبرةِ والفائدةِ وقصّةٌ بعنوان «صَيْدِ الأَسَد» وتحكي أنَّ أسَداً وذئباً وثعلباً وكلبَ صيدٍ اتّفقُوا في رحلةِ صيدٍ، وتشَارطُوا أنْ تكونَ القسْمةُ بالتَّساوي، فاصطادَ الثَّعْلبُ أرنباً، وأحبَّ أنْ يقسمَهُ أربعةَ أقسامٍ، بَيْدَ أنَّ الأسدَ لم يرضَ ذلكَ، وجرَّهُ إليهِ واحتجَّ بأشياءَ سنقرؤها في هذا النَّشيدِ المفيدِ للأطفالِ:

لَيْـــثٌ وَذِئْـــبٌ وَثَعْلَـــبْ ... وَكَلْـــبُ صَيْـــدٍ مُجَـــرَّبْ
تَشَـــارَكُـــوَا بِـــاتِّفَـــاقِ ... فِـــي الصَّيْـــدِ مِـــنْ كُـــلِّ مَـــا دَبّ
وَأَنْ يَكُـــونُـــوا جَمِيعـــاً ... وَالكُـــلُّ يَسْعَـــى وَيَتْعَـــبْ
تَشَـــارَطُـــوا بِـــالتَّسَـــاوِي ... قَسْمـــاً بِعَقْـــدٍ مُـــرَتَّـــبْ
فَـــرَاحَ أَوَّلَ يَـــوْمٍ ... ثُعَـــالَـــةُ اصْطَـــادَ أَرْنَـــبْ
دَعَـــا الـــرِّفَـــاقَ إِلَيْـــهِ ... وَبِـــالشُّـــرُوطِ تَـــدَرَّبْ
لِيَقْسِمُـــوهُ رِبَـــاعـــاً ... مَـــا بَيْنَهُـــمْ سَـــدَّ مَسْغَـــبْ
فجَـــرَّهُ اللَّيْـــثُ حَتَّـــى ... بِـــهِ البَـــرَاثِـــنَ أَنْشَـــبْ
بِـــالغَـــدْرِ حَمْلَـــقَ فِيهِـــمْ ... وَشَقَّـــهُ يَتَغَضَّـــبْ
وَقَـــالَ إِنِّـــي عَلَيْكُـــمْ ... أُقَسِّـــمُ الصَّيْـــدَ أَرْغَـــب
هَـــذَا لأَوَّلُ قِسْـــمٍ ... بِـــالشَّـــرْطِ لِـــي قَـــدْ تَـــرَتَّـــبْ
وَذَا نَصِيبِـــي لأَنِّـــي ... لَيـــثٌ مَلِيـــكٌ مُـــرجَّـــب
وذاكَ سَهْمِـــي لأَنِّـــي ... أشَـــدُّ بطْشـــاً مُجَـــرَّبْ
وَذَلِـــكَ القِسْـــمُ بَـــاقٍ ... يَنَـــالُـــهُ مَـــنْ تَطَلَّـــب
وَمَـــنْ تَقَـــرَّبَ مِنْـــهُ ... يَطِيـــحُ رَأْســـاً وَيُعْطَـــبْ

* وهذه أقصوصةٌ جميلةٌ تحكي قصّةَ الغرابِ الغَبي وقطعةَ الجبنةِ التي

استَلَبَها منه الثّعلبُ بحيلةٍ ذكيةٍ ، ترىٰ ما هذه الخديعةُ الطّريفةُ؟! لِنَقْرأ هذه القصّة الطَّريفة من خلال هذا النّظم اللطيف:

دارٌ بَـــديعَـــةُ البِنَـــا قَـــوراءُ لِقَـــاطِنِيْهَـــا اليُسْـــرُ والثّـــراءُ
فـي صَحْنِهـا مـن جُبنَـةٍ بعضُ قطَعْ حَـــامَ عليهـــنَّ غُـــرابٌ ووَقَـــعْ
وسَـــلَّ منهـــا قطعـــةً فَـــرَّ بهـــا لِغَيْضَـــةٍ وحـــلَّ فـــي جَـــانِبِهـــا
وحيـنَ إذْ حَـلَّ بـإحـدى الشَّجَـرِ رآهُ ثعلَـــبُ حَـــديـــدُ البَصَـــرِ
فَـــرامَ أنْ يَسْلُبَـــهُ إيّـــاهَـــا بحيلَـــةٍ قَـــدِ انْطَلَـــىٰ ريّـــاهَـــا
قَـــالَ لَـــهُ يَـــا مُحْسِـــنَ النَّشِيـــدِ وَسَيِـــدَ التَّلْحِيْـــنِ وَالتَّغْـــرِيـــدِ
لِـــي نَحْـــوَ عَـــامِ ضَـــارِبٌ وَرَاكَـــا مُـــوَلَّهَـــاً تَيَّمَنِـــي غِنَـــاكَـــا
فَهَـــلْ تَجُـــودُ أَنْ تُجَـــوِّدَ الغنـــا وَتُبْلِـــغَ الصَّـــبَّ المُـــدَلَّـــهَ المُنَـــى
حِينَئِـــذٍ لَبَّـــاهُ يَشْـــدُو هَـــزَجَـــا وَقَـــالَ يَـــا لَيْـــلُ لَقَـــدْ طَـــالَ الـــدُّجَـــى
فَـــوَقَعَـــتْ جُبنَتُـــهُ لِلثَّعْلَـــبِ فَفَـــازَ فِيهَـــا دُونَ أَمْـــرٍ مُتْعِـــبِ
وَبَعْـــدَ أنْ غَبَّهَـــا عَـــنِ النَّظَـــرِ وَوَرَدَ المَـــاءَ زُلَالاً دُونَ شَـــرِّ
نَـــادَاهُ يَـــا غُـــرَابُ مَـــا ظَلَمْتُكَـــا نَظِيـــرَ مَـــا عَـــامَلْـــتَ قـــد عَـــاملتُكَـــا
سَلَبْـــتَ إِنْسَـــانَـــاً عَلَيْـــكَ مَـــا اعْتَـــدَى وَمَـــا فَعَلْـــتَ الآنَ تَلْقَـــاهُ غَـــدَا
وَالمَـــالُ لَا يَخْـــرُجُ مِـــنْ حَيْـــثُ خَـــرَجْ إِلَّا مِـــنَ البَـــابِ الـــذَّي مِنْـــهُ وَلَـــجْ

* وقصّةُ القردِ والنَّظَارةِ قصّةٌ ظريفةٌ تحكي للأطفالِ بأنَّ قرداً قد ضعُفَ جسمُه وبصرهُ ، فسمعَ منَ النَّاسِ أنَّ الدواءَ متوفرٌ عندهم ، وهو عبارةٌ عن نظّارةٍ يضعُها على عينيهِ فَيتحسَّنُ بصرهُ ، لكنَّه أساءَ استخدامَها ، واتَّهم النّاسَ بالكذبِ والهذرِ والنّفاقِ ، ثُمَّ ألقى بها ، فتعالوا نسمع قصّتَه:

قِـــردٌ علـــى الأزمـــانِ أعيـــاهُ الكِبَـــرْ وسَـــاءَهُ مـــنْ وَهْنِـــهِ ضَعْـــفُ البَصَـــرْ
بَلَغَـــهُ فيمـــا مضـــى مِـــنَ النَّفَـــرْ دَوَاءُ هَـــذَا الـــدَّاءِ فِيْهِـــمْ مُشْتَهَـــرْ
بِـــآلَـــةِ الـــزُّجَـــاجِ تحـــديـــقُ النَّظَـــرْ فَـــابْتَـــاعَ نَظَّـــاراتِ بَلّـــورٍ أَغَـــرّ
مُجَـــرِّبَـــاً أحْسَنَهـــا لِلْمُخْتَبَـــرْ فـــي رأسِـــه يَضَعُهَـــا كمـــا ائْتَمَـــرْ
ثُـــمَّ علـــى ذُنَيْبِـــهِ إذا اسبكَـــرّ وكـــان هـــذا دأبُـــهُ ومـــا ظَفَـــرْ
بمـــا تمنّـــى نَفْعُـــه ولا شَعَـــر حتَّـــى اعْتَـــراهُ اليأسُ من فَـــرطِ الخَـــوَرْ

أَلقى بها يقولُ موفورَ الكَدَرْ أحْمقُ مَنْ صدَّقَ أقوالَ البَشَرْ
مَديحُهم كِذْبٌ نِفَاقٌ وهَذَرْ صَدَّقْتُهم بذا فكنْتُ المُغْتَرَرْ
فكلّ شيءٍ نافعٌ لَهُ خَطَرْ عِنْدَ الذي يَجْهَلُهُ لِمُحْتَقَرْ
لا قدَّرَ اللهُ جهولاً إنْ قَدَرْ في فُرصةٍ يُكَافِيءُ الخيرَ بِشَرّ

* ومن القصص الجميلة في «العيون اليواقظ» قصةٌ جميلةٌ جدّاً تُعجبُ الأطفالَ وتطربُهم ، وهي أهزوجةٌ مشوقةٌ ، تحكي قصّة ضفدعةٍ مكّارةٍ أحبَّتْ أنْ تغدُرَ بجارتها الفأرةِ وتغرقهَا في الماء ، وبعد أنْ خدعَتها ربطتْ رجلَها برجلها كيلا تغرقَ الفأرةُ ، ثمَّ سَحَبَتْ بها ، وكادتِ الفأرةُ تموتُ ، هناكَ أبصرَ بهما نسْرٌ فنزلَ ، والتقَطَ بمنقارهِ هذا الصَّيدَ الثّمين ، هنالك عرفتِ الضّفدعةُ عاقبةَ البغي والغدرِ؛ إذاً لنقرأ:

ضِفدعةٌ مرَّتْ عليها فَارَه قالت لها يا مرحباً يا جَارهْ
ما ضرَّ أنْ لو زُرتني في داري إنْ كانَ في الليّلِ أو النّهارِ
تأْتينَ بَعْدَ زَمنِ الشّتاءِ تَتَشَرَّحينَ فَوقَ سطحِ الماءِ
فقالتِ الفأرةُ يَا ما أحْلى يا ليتني لِلعَومِ كنْتُ أهلاً
قالتْ لها الضفْدعةُ المكّارهْ وقَدْ نَوتْ لها على الخسارهْ
نربطُ رجْلَينا معاً ونَسْبَحُ فتأمنينَ الماءَ حينَ يَطْفَحُ
حتّى إذا عُمْنَا نعومُ صُحْبَهْ ونستوي إذ ذاك في المحبّهْ
فصدَّقتْهَا وأتَتْ لِلْبِركَهْ واشتركَتْ معها وأي شِركَهْ
هناكَ شَدَّتْ رجْلَها بالربْطِ وقَفَزَا للماءِ قَفْزَ البَطّ
وَسبحتْ بها بلا امْتِناعِ وقَطَعَتْ في المَاءِ قَدْرَ باعِ
وهي تروغُ تحتَها في الماءِ وتطلبُ العَفْوَ من السَّماء
كم رفَسَتْ برجلها واضطَربَتْ وروحُها إلىٰ الخُروجِ قَرُبَتْ
وكانَ هذا في مُرورِ النّسْرِ وكانَ كلٌّ منها لا يَدْرِي
فَسقطَ النّسر سُقوطَ البَيْنِ ورفَعَ الرِّباطَ بِالاثنيْنِ
فقالتِ الضّفْدَعةُ المكّارَهْ ورجلُها مَربُوطةٌ بالفارهْ

للبغــيّ سيــفٌ بــاتــرٌ ومعتــدلْ مَـنْ سَلّـهُ على امرىءٍ به قُتِلْ[١]

* وأما قصّةُ النّملةِ والحمامةِ ، فهي على عكسِ قصّةِ الضّفدعةِ والفأرة ▪ فقد أنقذتِ الحمامةُ النّملةَ من الغَرقِ ، فأنقذتها النّملةُ من كيدِ الصَّيادِ ، ترى كيف حدثَ ذلك؟ في هذهِ الأقصوصةِ الطَّريفةِ تتكشَّفُ لنا الحكايةُ :

حَمَـامــةٌ مَــرَّتْ عَلَـى غَـدِيــرِ لِتَــرْتَــوِي مِــنْ مَـائِـهِ النَّمِيــرِ
وَحَــدَّقَــتْ بِمُقْلَــةٍ نَجْــلاَءَ لِنَمْلَــةٍ تَخْبُــطُ فِيــهِ المَــاءَ
فَـأَخَـذَ العَطْـفُ عَلَيْهَـا مَـأْخَـذَا فَــابْتَـدَرَتْ إِنْقَـاذَهَـا مِـنَ الأذَى
فَطَـرَحَـتْ عُـوداً لَهَـا مِـنْ حَطَـبِ نَجَـتْ عَلَيْـهِ مِـنْ مَثَـاوِي العَطَـبِ
وَبَعْــدَ مِنْهُمَــا دَنَــا صَيَّــادُ تَقَــاذَفَتْــهُ البيــدُ وَالــوِهَــادُ
فَصَــوَّبَ السَّهْــمَ إِلَــى الــوَرْقَــاءِ يَنْــوِي بِهَــا مَــوَارِدَ الفَنَــاءِ
وَحِيْــنَ إِذْ أَرَادَ أَنْ يُــرْسِلَــهُ إِذَا بِقَــرْصٍ مــؤلِــمٍ أَعْجَلَــهُ
وبينمــا يبحــثُ عمّــا يقــرصُــهُ أفْلَــتْ منــه عنــد ذاك قَنْصُــهُ
وسلمــتْ مــنْ سَهْمِــهِ الحمــامَــةْ ورجعَــتْ للْعُــشّ بــالسّــلامَــهْ
وهــيَ تقُــولُ قــولَهــا إِيْجــازَا كمــا تُجــازي هكــذا تُجَــازَى
ومَــنْ أغــاثَ البــائــسَ الملْهُــوفــا أغــــاثَــــه اللهُ أذا أُخيْفَــــا[٢]

* ومن طريفِ القصصِ السَّاحرِ الآسرِ هذه اللاميّةِ التي تحكي قصّةَ الذّئبِ الظَّالِمِ والحَمَلَ الوديعِ ، حيث إنَّ الذئبَ اختلقَ الأعذارَ غير المنطقيّةِ ليأكلَ الحَمَلَ الصَّغيرَ ، ولأنَّ الغدرَ طبيعةُ الذئبِ ، لذا يجبُ الحذرُ من الغَدرِ وأهلِهِ ، هكذا تنتهي هذه الأقصوصةُ اللطيفةُ التي صيغت للأطفالِ ▪ فاسمعوها :

سَــاقَــت الأقْــدَامُ يَــوْمــاً حَمَــلاً قُــرْب نَهْــرٍ يَنْثَنِــي بَيْــنَ التِّــلالْ

---

(١) انظر : العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ (ص ٦٩) بتصرف يسير جداً للشاعر محمد عثمان جلال ـ طبعة الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ م .
أقول : «منَ العجيب أنَّ محمد عثمان جلال قد ترجم كتابه العيون اليواقظ عن لافونتين ويشتمل على مئتي قصة وحكاية رويت على لسان الحيوان ، والأعجب من ذلك أن لافونتين اقتبس حكاياته من أدبنا العربي وتراثنا التليد»!! .
(٢) انظر : العيون اليواقظ (ص ١٠٦) بتصرف .

فَــرآهُ الــذِّئْــبُ فــاسْتسْمَنَــهُ   فَلُحـومُ الضَّـأنِ أشْهَـى مَـا يُنـالْ
قــالَ مــا عُــذْرُكَ إِذْ تَشْتُمنــي   مُنْـذُ عـامٍ دُونَ حَـرْبٍ أوْ قِتـالْ
قــال يــا سِـرْحـانُ عُـذْري وَاضِـحٌ   عُمُـرِيَ المَـاضـي شُهُـورٌ ولَيـالْ
قــال إِنْ أنْكَـرْتَ شَتْمِـي جـاحِـداً   فَـأَبـوكَ هُـوَ خَصْمِـي لا مَحـال
وإذا كُنــتَ اليتيــمَ المبتلــى   فَذُنـوب الجَـدِّ تَسْـري فـي العِيَـالْ
وَإذا أنْكَـرْتَ شَتْمِـي جَـاحِـداً   كَيْـفَ فِـي تعْكِيـركَ المَـاءَ الـزُّلالْ
قــالَ يــا سِـرحـانُ مَـائِـي قـادمٌ   مِنْ أَعالي الأرْضِ مِنْ فَوْقِ التِّلالْ
أنْـتَ فَـوْقَ التَّـلِّ فـي الأعْلَـى فَهَـلْ   تَصْعَـدُ الأمـواهُ فـي أعْلَـى الجبالْ؟
قَــالَ أعطيــتَ جَــوابــاً مُقْنِعــاً   مِـنْ جَمَـالِ الثَّغْـر يُسْتَحلـى المَقَـالْ
وَدَنــا الْمسْكيــنُ يَعْلــو وَجْهَــهُ   رَوْنَــقُ البِشْــرِ وأطْيَـافُ الخَيَـالْ
عَضَّــهُ الــذِّئْــبُ وَمَــا أمْهَلَــهُ   أَكَـلَ اللَّحْـمَ وَنَحْـوَ العَظْـمِ مَـالْ
منْطِــقُ الأنْيــابِ هَــذَا شَــأْنُــهُ   شَــرْعُـهُ مَكْـرٌ وَغَـدْرٌ وَاخْتِيَـالْ
فَــاحْــذَرِ الغَــدَّارَ لا تَــرْكَــنْ لَــهُ   واسْمَـعِ النُّصْـحَ وَدَعْ قِيـلاً وَقَـال[1]

* * *

(١) أقول: «كثير من الشعراء اقتبسوا حكاياتهم عن العيون اليواقظ وصاغوها بأسلوبهم» وهذه القصة قصة الذئب والحمل مقتبسة عن العيون اليواقظ (ص ٤٤) وعنوانها «الذئب والخروف».

الفصل الخامسُ

أحجياتٌ في أغاريدَ

* إذا أردنا أنْ نثريَ روافدَ الأطفالِ الثَّقافيةِ ، فعلَيْنَا أنْ نحرصَ على تكوينِ سَليقتِهم اللغويّةِ ، ونُجابِهَ العاميّةَ التي تمشَّتْ وتَفَشَّتْ في صفوفِ المتعلّمين ، فَضْلاً عن أنَّ العاميّةَ قد غمرتْ ميادينَ الحياةِ العربيّةِ اليوميّةِ ، وأسْهَمَ في إغناءِ العاميّةِ المُسلْسَلات والأفلام والدّعايات والمرغّبات المتنوّعة التي تشدُّ الألوفَ وتجذبُهم ، وكلُّها بالعاميّةِ[١] .

* لذا حرصتُ قَدْرَ الإمكان أنْ أقدِّم في هذا الفَصْلِ بعضَ الأُحجياتِ (Puzzles) بلُغْةٍ فُصحى سَلِسلة وجزلةٍ ، لِتُقَوِّمَ ما اعْوَجَّ من ألسنةِ النّاشئةِ والأطفالِ التي أفسدها الإعلامُ العاميُّ المهلهل ، وتسهمَ في إيقاظِ التّذوّقِ الأدبي لَديهم في مرحلةٍ مبكّرةٍ ، ومن ثمّ يتأصّلُ حبُّ الفُصحى في قلوبِ الأطفالِ ، ويتآلفُونَ معَها .

---

(١) من المصائب والأعاجيب التي مُنيَتْ بها العربية أنَّ كثيراً من الدُّعاة وأهل الوعظ قد سلكوا في محاضراتهم طريق العامية ، واعتبروا أنَّ ذلك أفضل وأقرب إلى الأذهان ، وصارت اللهجات المحلية تظهرُ على الشّاشات بشكل يدعو إلى الحزن ، إذ إنَّ في ذلك تدمير العربيَّة وتقويضها ، ومن العجيب أنَّ كثيراً من الكلمات العامية في بلد ما تختلف بمعناها ومبناها عن بلاد أخرى ، فقد تكون الكلمة ذات معنى جميل في بلدٍ ، بينما هي ذات معنى قبيح في بلدٍ آخر ، لذا فإنَّ هؤلاء الدُّعاة والوعّاظ وأمثالهم يدمّرون أكثر ممّا يبنون ؛ ونحن لا نشكُّ مطلقاً في حسْنِ نواياهم ، وأنّهم يريدون منْ خلالِ دروسهم ومحاضراتهم توصيلَ المعلومات لأكبرِ عددٍ من المشاهدين أو السّامعين ، ولكنَّ الفصحى المبسطة السَّهلةَ يفهمُها جميعُ النّاسِ بما فيهم الأجانب الذين يتعلّمون العربية ، فإنّهم لا يعرفون العامية ، وربّما يفهمون من العامية غير المقصود. والله الموفق للصّواب.

* ولعلَّ فنَّ الأُحجياتِ والألغازِ من الأدواتِ التي تساعدُ على تقويمِ اللسانِ عندَ الأطفالِ ، إذ تحرّكُ عقولَهم وترفدهُم بمعلوماتٍ غزيرةٍ وجميلةٍ ومفيدةٍ ، فالأحجياتُ تجعلُ الأطفالَ يفكّرونَ ويتذكّرون ويحاولونَ ويطالعونَ ويَسْأَلونَ ليصلُوا إلى حَلِّ اللغزِ ، وبالتّالي يشعرونَ بالفائدةِ ولذّة المعلومات الصَّحيحة ونشوتها.

* ومن الألغاز النّافعةِ ما يحرِّكُ عقولَ الأطفالِ من مثلِ هذا اللغزِ في «النّار» يقولُ النَّاظمُ:

وآكلــةٍ بغَيْــرِ فَــمٍ وبَطــنٍ ... لَهــا الأشْجَــارُ والأحجـارُ قُــوتُ
إِذَا أطْعَمْتَهـا انتعشَـتْ وعـاشَـتْ ... وإنْ أسقيتَهــا مــاءً تمــوتُ

* ويقولُ آخرُ هذه الأحجيّةَ في «النَّارِ» أيضاً:

وَمَا اسمٌ ثلاثيٌ به النَّفْعُ والضَّرر ... له طلعَة تُغني عن الضَّوءِ والقَمَر
يَمُوتُ إذا مـا قُمْتَ تسقيهِ عـامِداً ... ويأكُلُ ما يلقَى منَ النَّبتِ والشَّجَر

* وألغزَ أحدهُم في القَلَمِ الذي يُلازمُ الأَصَابعَ الخمسَ فقال:

وَذِي خُضــوعٍ رَاكــعٍ سَــاجــدٍ ... ودمعُــهُ فــي خــدّهِ جَــاري
مُــلازمٌ للخْمــسِ فــي أوقــاتِهــا ... مُعْتكــفٌ فــي خِـدْمــةِ البَــاري

* وهذه أحجيةٌ جميلةٌ في فاكهةِ «الموز»:

مـا اسـمٌ لِشـيءٍ قـد حَـلا شَكلُـهُ ... تَلْقَــاهُ عنْــدَ النَّــاسِ مَــوزُونــا
تَــراهُ مَعْـــدوداً فَــإنْ زدْتَــهُ ... واواً ونــونــاً صَــارَ مــوزُونــا

* ومن بدائع الأحاجي هذه الأحجيةُ في «القلم»:

تَـراهُ قَصيـراً كُلّمـا طَـالَ عُمْـرُهُ ... ويُضْحِـي بليغـاً وهـو لا يتكلّـمُ
بَصيـرٌ بمـا يُـوحىٰ إليـهِ ومـالَـهُ ... لِسَـانٌ ولا قَلْـبٌ ولا هـو سَـامِعُ
كـأنَّ ضميـرَ القلـبِ بـاحَ بِسِـرِّهِ ... إليـهِ إذا مـا حـرّكَتْـهُ الأَصَـابِعُ

* ولآخر في «القلم» أيضاً:

وأَجْــوَفُ يَمْشِــي علــى رأسِــهِ ... يطيــرُ حثيثــاً علــى أَمْلَــسِ

فَهِمْتُ بآثارِهِ مَا مَضَى ... وَمَا هو آتٍ وَلَمْ يُبْلِسِ[1]

* ومن طرائفِ الأحاجي في «الكتاب» هذه الأحجية:

وَذي أوجهٍ لكنَّه غيرُ بائحٍ ... بِسِرّ وذو الوجْهَيْنِ للسِّرّ يُظْهِرُ
تناجيكَ بالأسرارِ أسرارُ وجْههِ ... لِتَسْمَعَها بالعَيْنِ ما دمتَ تُبْصِرُ[2]

* ومن الأحاجي الجميلةِ التي تعجبُ الأطفَالَ، تلك المنظوماتُ الخفيفةُ التي تُسْتَخرجُ من قصَصِ القُرآنِ الكريم، أو منَ السِّيرةِ النَّبويّةِ العطرةِ، أو سيرِ الصّحابةِ، أو من جسم الإنسانِ، أو من التّاريخِ، وما شابَه ذلك.

* فمن القَصَصِ القُرآني الجميلِ هذه الأحجيةُ عن «البقرةِ والنّاقةِ» تقولُ الأحجيةُ التي تخاطبُ الأطفالَ:

حَيَوانَانِ أُنْثَاوَانِ ... وَرَدَا فِي قَصَصِ القُرآنِ
أمَرَ اللهُ بذبحِ الأولىٰ ... والقومَ أحَاطُوها جَدَلاَ
ونَهاهُم عن عَقْرِ الأخرى ... لكنّهمُ ارتكبُوا شَرَّا
وعَتَوا عن أمْرِ الرّحمن ... فأَفيدوا ما الحَيوانان؟

* ومن قَصَصِ القُرآنِ الطَّريفِ، قصّةُ عَصَا نبيّ الله موسى، وعصَا نبيّ اللهِ سُليمان عليهما السَّلام، وعن هاتَيْنِ العَصَوين نسمعُ هذه الأحجيةَ الجميلةَ التي تحركُ وجدانَ الأطفالِ:

وعَصاً مُعْجِزةٌ لِنَبيّ ... وعَصاً كَشَفَتْ موتَ نَبيّ
الأُوْلَىٰ تلْقَفُ حيّاتْ ... فتكَتْ بالأُخرى الحشَراتْ
في مِصْرَ جَرىٰ حَدَثُ الأولى ... والآخرُ في القِبْلَةْ الأُوْلَىٰ
فلِمَنْ هَاتَان العَصَوانْ ... قولُوا ردُّوا يا فِتْيانْ

* وهذهِ أحجيةٌ من السِّيرةِ النّبويةِ تحكي جانباً مُشْرِقاً من يومِ الهجرةِ المحمديّةِ، وسأتركُ الأحبابَ الصِّغار يكتشفون الحلَّ لهذا اللغزِ الجميلِ:

خَيْطٌ وَاهٍ رَدَّ البَاطِلْ ... عَنْ غَارٍ شَرَّفَه النَّازِلْ

---

(١) التذكرة الحمدونية (٨/ ٣٢٧).

(٢) المستطرف (٢/ ٢٠٤) طبعة مصر ببولاق.

نُسِـــجَ الخيـــطُ بِبَـــابِ الغَـــارِ　　شَتَّـــتَ أفكَـــارَ الفُجَّـــارِ
فـــي حَـدثٍ أصبحَ تَـارِيْخـاً　　حيَّـرَ شُبَّـانـاً وشُيــوخـا
مـــا هـــو هَـــذَا الحَـدثُ الأكبَـرْ　　يَـــا أصحـــابَ الفِكْـــرِ الأزْهَـرْ

* ونذهبُ ونحنُ مستمتعون معَ الأطفالِ بهذهِ الأحجيةِ التي تروي قصّة «أصحابِ الأخدود» ، تلكم القصّةُ التي وردتْ في سورة «البروج» فمع هذهِ الأحجيةِ وهذه الأنشودة :

أَشْـــرارٌ مِـــنْ إسْـــرائيـــل　　حَـــرَقُـــوا أَتبـــاعَ الإنجيـــل
يـــرأسُهـــم فَـــظٌّ مَلْعُـــون　　مَلِـــكٌ مِـــنْ صنعـــاءَ يكُـــون
فـــأَبـــادَ نَصَـــارىٰ نَجْـــران　　جمعـــاً بِلَهيـــبِ النّيـــران
مـــا اســـمُ القَتْلـــىٰ يـــا أحْبـــابَ　　أفتُـــوا يـــا أهـــلَ الألْبـــابِ

* وخيرُ مكانٍ يطمحُ إليه المؤمنُ الجنَّةُ ، إذْ فيها مالا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بشرٍ ، وقد أحببتُ أنْ أوردَ هذهِ الأحجيةَ عن «الجنَّة» ليعملَ لها الأطفالُ ، بل الكبارُ ، وكلّ مَنْ يقرأُ أو يسمعُ ، فتعالوا إلى رحابِ هذهِ الأهزوجةِ في قالَبِ أحجيةٍ حيثُ تقول :

ومَكَـــانٌ قَـــد فَـــاقَ خَيـــالاَ　　ويَتيـــهُ بَهَـــاءً وَجَـــلالاَ
نُـــزُلٌ بِطَعَـــامٍ وَشَـــرابِ　　وحِسَـــانِ عُـــرْبٍ أَتْـــرابِ
الـــدَّفـــعُ لـــهَ بـــذْلٌ للفضْـــلِ　　والسَّعـــيُ إلـــى خيـــرِ العَمَـــلِ
وإِطَـــاعَـــةُ أمْـــرِ الـــدَّيّـــانِ　　أفْتُـــونَـــا عَـــنْ خَيْـــرِ مَكَـــان

* وقصةُ فرعونَ وموسى مشهورةٌ في القُرآنِ الكريمِ ، فقد طغىٰ فرعونُ وعلا في الأرضِ وقَتَل وذبحَ الأطفَالَ ، أمّا موسى فقد أوحى اللهُ إلىٰ أمِّهِ أنْ ترضعَهُ ثمّ تلقيهِ في الماءِ ، فمعَ هذهِ الأحجيةِ التي تحكي قصّةَ هذَيْن الاثنَيْن للأطفالِ :

طـــاغيـــة أخبـــرَهُ سَـــاحِـــرْ　　بِغُـــلاَمٍ يـــأْتِـــي يَخْـــذُلـــهُ
ولِـــذَلِـــكَ قَتَـــلَ الأطْفَـــالا　　إلاّ طِفْـــلاً أفلَـــتَ مِنْـــهُ
ألقَتْـــــهُ الأمُّ بِصُنـــــدوقٍ　　فِـــي يَـــمٍّ وانصـــرفَـــتْ عنْـــهُ
فمَـــنِ البَـــاغـــي ومـــنِ الطّفْـــلُ　　مَـــنْ يُخْبِـــرنـــا فَلَـــهُ الفَضْـــلُ

* ومع أحجيةٍ أخرى تحكي قصّة رجلين آخرين ، قتلَ أحدهُماالآخرُ ،

فكانَتْ أوّلَ جريمةٍ في الدُّنيا ، هذان الرَّجُلان هما «ابنا آدم: قابيلُ القاتلُ ، وهابيلُ المقتول» ترى كيفَ يستطيع الآباءُ والمربّون استخدام هذه الأحجيةِ لأطفالهم؟!

رَجُلٌ مَا قَدْ عَرَفَ الموتَا   هوَ أوّلُ مَنْ دفَنَ المَوتى
بَعْد عذَابٍ فوقَ عذَابْ   أرشَدَهُ للدّفْنِ غُرابْ
مِنْهُ القَتْل بَدَا في الأرضِ   يا شِقْوتَهُ يومَ العرضِ
فَمَنِ القَاتِلُ والمقْتُولْ   أعْطُونا حلاً معْقُولْ

* وهذه أحجية عن نَبيَّيْن كريمَيْن: أحدهُما أبٌ للآخرِ ، ولهذينِ النّبيينِ قصّةٌ شائقةٌ في القرآنِ الكريمِ ، يعرفُها الكبارُ والصِّغارُ ، وهذا اللغز الجميلُ ينظمُ ذلك الحدثَ الجليلَ ، ويقدّمه للأطفالِ كي يعرفوُا سِرّه:

ورسُولانِ في الفُرقانِ   الأوّلُ ابنٌ للثَّاني
ابنٌ عُرِّضَ للسّكينِ   وأبٌ أُدْخِلَ في النّيران
رفَعا بيتَ اللهِ قَديماً   وامتَثَلا أمْرَ الرّحمن
فَمنِ الوالدُ ومَنِ الابنُ   مَنْ يُخبرُنا فهو الفَطِنُ

* والشَّخصيّاتُ كثيرةٌ في القُرآنِ العظيمِ ، فهذهِ شخصيّةُ الطّاهرةِ المُصطَفاةِ مريم ابنة عمرانَ في هذه الأحجيةِ التي تخصبُ ثقافةَ الأطفالِ وتثْريها:

آنِسةٌ حَمَلَتْ بِرَسُول   دونَ أبٍ مِنْ بَطْنِ بَتُول
وتغذّتْ بِجَنِيِّ الرُّطبِ   فَارتاحَتْ مِنْ بَعْدِ التَّعَبِ
قالُوا إنَّكِ جئْتِ فريّا   فأجَابَ مَنَ المهْدِ صَبيّا
مَنْ هَذي صَاحِبَةُ المِحْنَة   قُولُوا يا أصحابَ الفِطْنَةِ

* وهذه امرأةٌ أخرى وردتْ قصّتُها في سورةِ «النّمل» مع نبيّ الله سليمانَ ، ونقدّمُها في هذهِ الأحجيةِ للأطفالِ ، ترى مَنْ هي؟!

كَشَفَتْ عن ساقَيْها فَورا   لمّا دخَلَتْ ذاكَ القَصْرَا
مَا فَعَلَتْ ذلك إعْيَاءَ   بلْ حَسبَتْ أنْ داسَتْ مَاءَ
سَاعتَها كَانَ الإيمَان   وإليهِ هَدَاهَا الرّحمَان
مَنْ هيَ تلكمْ في الفُرقان   ردُّوا يا أذكى الصِّبْيَان

* وهذه أحجيةٌ تحرِّكُ كوامنَ عقولِ الأطفالِ ، حتّى يعرفُوا «المسيح الدَّجّال» ، وهانحنُ أولاء نقدّمها بثوبٍ جميلٍ للأعزّاءِ الصّغارِ ، كي تزدادَ معارفُهم ، ويرتبطوا بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فيعرفوا كيفَ يجتنّبونَ فتنتهُ؛ بمساعدةِ آبائِهم ومربّيهم:

لمَّـا يَقْـرُبُ يَـوم العَـرضِ   أفَّـاكٌ يفْسِـدُ فـي الأَرضِ
إذْ يسعـى لِضَـلالِ النَّـاسِ   يبعـدهُـم عـنْ ربِّ النَّـاس
قَـدْ يُمْسِـي بَعْـضٌ أَتْبـاعَـهْ   ذَلِـكَ مـنْ أشْـراطِ السَّـاعـةِ
مَـنْ هـذا الـرَّجُـلُ الـدَّجَّـال   يـا أحْبَـابـي يـا أشبَـال؟

* وأمّا هذه الأحجيةُ عن «سَدِّ مأربٍ» ، فإنَّها تجعلُ من الأطفالِ باحثين عن الإجابةِ ، ولا شكَّ في أنَّ الآباءَ والمربّين سَيَسْعَدونَ وهم يحكُون قصَّةَ هذا السَّدِّ للأطفالِ ، ترى في أي سورةٍ ذكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلّ؟! وفي أي ثوبٍ تنسجُه هذه الأحجيةُ للأطفالِ عن السَّدِّ والسَّيلِ؟!

سَـدٌّ كـانَ بـأرضِ اليَمـنِ   قِـدمـاً فـي أغـوارِ الـزَّمَـنِ
حَقَّـقَ للـزُّرَّاعِ الخَيْـرا   لكنَّهُـمُ ازدادُوا بَطَـرَا
فَـانْهـارَ السَّـدُّ مـنَ السَّيْـلِ   وأُصِيبُـوا بِشَـديـدِ الـوَيْـلِ
مـا اسـمُ السَّيـلِ ومـا اسـمُ السَّـدِّ   أفتُـونـا يـا أهـلَ العَقْـدِ

* وفي رحلةِ الزّادِ الثّقافي في فنِّ الأحجياتِ والألغازِ ، نتوقفُ مع بعضِ المغازي النّبويّةِ ، لنلفتَ نَظَرَ النَّاشئةِ إليها ، وإلى جهادِ النَّبيِّ ﷺ ، وجهادِ أصحابهِ الكرام؛ فمع هذه الأحجيةِ عن غزوة «بَدْر» العظمى:

هِـيَ مَـوقعَـةٌ فـي الأزْمَـان   سَحَقَـتْ زُعَمـاءَ الطُّغْيَـان
كـانَـتْ فـي الغَـزَواتِ الأُوْلَـى   جَعَلَـتْ جيـشَ الشِّـرْكِ فُلُـولا
بِضـعُ مِئَـاتٍ هـزمُـوا ألْفـاً   نَسَفُـوا جنْـدَ البـاطِـلِ نَسْفـاً
مَـا اسـمُ غَـزاةٍ فـي الإسْـلام   تـدْعَـى قَمـراً عنـد تَمـام؟

* وأمّا موقعةُ «أحدٍ» فقد قدمناهَا على هذه الصورة ، في قالبِ هذهِ الأحجيةِ المُوحيةِ:

مَـوقعـةٌ هـي ذاتُ ضِـرَام   هُـزِمَ بِهـا جنْـدُ الإسْـلام

كـــانَ لهـــمْ نَصْـــرٌ مـــأْمـــول ‏ لَـــو لَـــمْ يَعْصُـــوا أمْـــرَ رسُـــول
تـــركُـــوا الجبَـــلَ وعنـــهُ انسلُّـــوا ‏ طَمَعـــاً فـــي الأَسْـــلابِ فَـــزَلُّـــوا
مـــا تِلْـــكَ المـــوقْعَـــة يـــا قَـــومـــي ‏ فَـــأَجِيْبُـــوا يَـــا أَهْـــلَ الفَهْـــمِ

* ويوم حُنين يومٌ مشهودٌ في أحداثِ القُرآنِ الكريم . والسّيرةِ النَّبويَّةِ ، فقد رأى المسلمون أنهم لَنْ يُغلَبوا عن قلَّةٍ ، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما رأى اضطرابهم ثَبَتَ وثبتَتْ مِنْ حولهِ فئةٌ صابرةٌ باعَتْ نفوسَها لله ، فانتصرَ بعدها المسلمون.
وفي هذهِ الأحجيةِ اللطيفةِ نظمٌ عن ذلك اليوم:

دخَـــلَ الإعْجَـــابُ بـــأنفسِهـــم ‏ إذ قَـــالُـــوا اليـــومَ فَلَـــنْ نُغْلَـــبْ
وَإِذَا الكفَّـــــارُ تُحيـــطُ بِهـــم ‏ وجنـــودُ الحـــقّ بَـــدَتْ تَهْـــرُبْ
وهنـــا قَـــدْ ثَبَـــتَ المُخْتَـــارُ ‏ وعبـــادُ الـــرّحمـــانُ أَغَـــارُوا
يَـــــومٌ سَمّـــــاهُ القُـــــرآن ‏ أفْتُـــــونَـــــا بـــــالاســـمْ الآن

* وفَتْحُ مكة هو الفتْح الأعظمُ ، يومٌ فتحَ الله به قُلوباً عُمياً ، فغدتْ مستنيرةً بنورِ الإيمان؛ يومٌ عظيمٌ جاءَ فيه الحقُّ ، وزهقَ الباطلُ ، ويومٌ جَعَلتْ قلوبُ النّاسِ تهفو إلى ظلالِ الأمنِ ، وإلى حرمِ الأَمَانِ والصَّفاءِ ، في ذلكَ اليومِ وقَفَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ وقفةَ الرّحماءِ وعفا عمّنْ أساءَ ، فهو الرّسولُ المربّي؛ ومع هذهِ الأحجيةِ عن يومِ فتح مكّةَ:

فَتْـــحٌ فيـــه هَـــوَتْ أصْنَـــام ‏ وبـــذاكَ انْتَصَـــر الإســـلام
دخَـــلَ النَّـــاسُ بِـــديْـــنِ الله ‏ أفْـــواجـــاً مـــنْ فَضْـــلِ الله
جَـــاءَ الحـــقُّ وزَهَـــقَ البـــاطِـــلُ ‏ إنَّ البَـــاطِـــلَ كـــانَ السَّـــافِـــل
مـــا هـــوَ ذاكَ الفَتْـــحُ الأَعْظـــم ‏ مَـــنْ يعـــرفُـــهُ حقّـــاً يَغْنَـــم

* وهذه ثلاثون أحجيةً تحرّكُ أذهانَ الأطفالِ وتثري ثقافتهم ، وتساعدُهم على التّذوّقِ الأدبي ، وتثيرُ كمائنَ ذكائِهم ، لأنّها متنوعةٌ في مجالاتٍ شتى ، ويستفيدُ منها المربّون في تهذيبِ الأطفالِ . وها نحنُ أولاء ذاكروا هذه الأحاجي[1]:

---

(١) تركنا الإجابة عن هذه الأحجيات حتّى يستفيدَ الأطفالُ ، ويفكّروا ويعرفوا الحلّ . وذلك =

الأولى :

أنَـا فـي الحَـقِّ طَـرِيـقُ المَجْـدِ وَأنَـا المُـوصـلُ نَحْـوَ السَّعْـدِ
عَمَلِـي بَيْـنَ النَـاسِ مُقـدّسْ فَـأنَـا بَيْـنَ النَّـشْءِ مُـؤَسّـسْ
أنَـا أمحُـو ظُلُمَـاتِ الجَهْـلِ ثُـمَّ أحَقِّـقُ نُـورَ العَقْـلِ

الثانية :

بِجُهُـودِي وَبِفَيْـضِ المَـاءْ خَـالِقُنَـا يُحْيِـي الصَّحْـراءْ
فَنَـرَى فِيهَـا الأشْجَـارَا تُعْطِـي ظِـلاً وثمَـاراً
مُتْعَـةَ قَلْـبِ لـلإنْسَـانِ ثُـمَّ غَـذَاءً لِلْحَيَـوانِ

الثالثة :

بِنَشَـاطِـي وَبِكُـلِّ تَفَـانِ وَبِـذَوْقِ الـرَّجُـلِ الفَنَّـانِ
أصنَـعُ لَـوْحَـاتٍ تَتَجَلَّـى لِتُعَلَّـقَ فَـوْقَ الجُـدْرانِ
وَأزَيِّـنُ صَفَحَـاتِ الكُتُـبِ بـالـرِّيشَـةِ ثُـمَّ الألـوَانِ

الرابعة :

أنَـا رَجُـلٌ جلْـدٌ مِقْـدَامُ فِـي عَمَلِـي ضَبْـطٌ ونِظَـامُ
أحْيَـا دَوْمـاً فِـي اسْتِعْـدَادِ كَـيْ أحْمِـيَ أنْحَـاءَ بِـلادِي
فَـوقَ الجَبَـلِ وفِـي الصَّحْـرَاءِ دَحْـراً دَحْـراً لـلأعْـداءِ

الخامسة :

أحْيَـانـاً أجلِـسُ كَـيْ أرسُـمْ أحْيَـانـاً أجْلِـسُ لأُصمِّـمْ
فَـأنَظِّـم رَسْـمَ البُنْيَـانِ وَأجَمِّـلُ شَكْـلَ الأَوْطَـانِ
فَـأحَقِّـقُ حُسْنـاً وَكَمَـالاَ وَبِـذَوقِـي أُسْعِـدُ أجْيَـالا

السادسة :

أبْـدَأُ عَمَلِـي بِـاسْـمِ اللهْ حَتَّـى نـأكُـلَ مِـنْ نُعْمَـاهْ
نَشْـوِي لَحْمـاً مَـا أشْهَـاهْ ذَلِـكَ مِـنْ خَيْـرَاتِ اللهْ

= ساعتماداً على ذكائهم ، وثقافتهم؛ أو بمساعدة مَنْ يحيطون بهم ، ويعملون على إثراء معلوماتهم.

بَعْضُ الذَّبحِ يكُونُ حَلالاً فَتَبَارَك ربِّي وتَعَالَى

السابعة:

بِجِهَازٍ بيَدي أو آلَةْ أَلْتَقِطُ المَشْهَدَ بِعُجَالَهْ
هَذِي أَحْدَاث مُمْتِعَةٌ هَاتِيكَ أمُورٌ مُوْجِعَةٌ
صُوَرٌ فِيمَا جَرَى أو صَارْ تُسْعِفُ فِي حَالِ التَّذكَار

الثامنة:

بِسْمِ اللهِ تَذُوبُ البَلْوَى أعْمَلُ حتّى أنهِي الشَّكْوَى
أَسْعَى كَيْ يُجتَثَّ الألَمُ فَيَعُودَ الشَّاكِي يَبْتَسِمُ
أنَا مطلُوبٌ لَيْلَ نَهَارْ مَالِي فِي الأوقَاتِ خَيَارْ

التاسعة:

لا يَسْتَغنِي أحَد عَنِّي كُلَّ الأمَّةِ تَأكُلُ مِنِّي
كَمْ يُؤْذِينِي لَفْحُ النّارْ لَكِنَّ مُعينِي الجبَّارْ
إنْتَاجِي فِي كُلِّ مَكَانِ وَأَسَاسُ غِذَاءِ الإنْسَانِ

العاشرة:

رَغْمَ غُبَارٍ فَأنَا أعْمَل مكنَسَتِي للمُدُنِ تُجمّلْ
وتُحَسِّنُ شَكْلَ الطُرقَاتِ أَسْعَى لأنَالَ الحَسَنَاتِ
عَمَلِي نَفْعٌ لِلإنْسَانِ فَالنّظافَة مِنَ الإيمَانِ

الحادية عشرة:

لا يُزّعِجُنِي صَوْتُ الطَّرْقِ فَالطَّرْقُ سَبِيلِي للرِّزقِ
نَفْخُ الكِيرِ تجَاهَ النَّارْ يُتْقِنُ صَنْعَةَ مَا أخْتَارْ
أصْنَعُ شَيْئاً لِلإنْسَانِ يَنفَعُه أوْ لِلْحَيَوان

الثانية عشرة:

أنَا فِي السِّلْمِ لِنَقْلِ النَّاسِ ولَدَى الحَرْبِ شَدِيدُ البَأسِ
يُتْعِبُنِي سُوءُ الأجْواءِ وَأنَا أصْعَدُ لِلْعَلْيَاءِ
أنَا أَخْدِمُ قَوْمِي بِمَهَارَهْ أسْحَقُ أَعْدَائِي بِالغَارَهْ

الثالثة عشرة:

أعْمَــلُ عَمَلِــي وَأنَــا وَاقِــفْ وَلِكُــلِّ الأشْخَــاصِ ألاَطِــفْ
وَالمِشْــطُ لأعمَــالــي أسَــاسْ وَمِقَصِّــي لا يُــؤذِي النَّــاسْ
قَصَّــاتِــي فِــي الحَــقِ ظَــرِيْفَــه وحِكَــايَــاتِــي جِــدُّ لَطِيفَــهْ

الرابعة عشرة:

أعْمَــلُ عَمَلِــي بِــالمِقْيَــاسِ لِيُنَــاسِــبَ أَحْجَــامَ النَّــاسِ
بِيَــدِي أعْمَــلُ ثُــمَّ بِقَــدَمِــي حَتَّــى أُرْضِــي ذَوْقَ الأمَــمِ
عمَلِــي يَكْثُــرُ فِــي الأعْيَــادِ وَأسَلِّمُــه فِــي المِيعَــادِ

الخامسة عشرة:

تَحْــتَ الشَّمْــسِ أوِ الأمْطَــارِ أعْمَــلُ مَنْعَــاً لِــلأخْطَــارِ
بِــإِشَــارَةِ خَيْــرٍ وسَــلامَــهْ تُنْقِــذُ مِــنْ شَــرٍّ وَغَــرَامَــهْ
كَــيْ تَحْيَــا بَلَــدِي بِنِظَــامْ دُونَ مُخَــالَفَــةٍ وَزِحَــامْ

السادسة عشرة:

أرْفَــعُ أَرْكَــانَ البُنْيَــانِ فَــأنَــا عُنْــوَانُ العُمْــرَانِ
وَأعَــدِّدُ فِيْهَــا الأدْوَار بِــالأخْشَــابِ وَبِــالأحْجَــارْ
فــي عملــي ذوقٌ وجمــالْ وينــاســبُ ذوقَ الأجيَــالْ

السابعة عشرة:

أخْــرُجُ بَعْــدَ صَــلاةِ الفَجْــرِ قُطْعَــانٌ قُــدَّامِــي تَجْــرِي
فَــوْقَ سفُــوحٍ فِــي ودْيَــانِ تَــرْتَــع فــي أمْــنٍ وَأمَــانِ
أحْيَــانــاً أُنشِــدُ أنْغَــامِــي يَعْــرِفُنِــي أهْــلُ الأفْهَــامِ

الثامنة عشرة:

عُنْــوَانِــي فِــي السُّــوقِ أمــانَــهْ لأُحَقِّــقَ فِــي النَّــاسِ مَكــانَــهْ
صَفَقَــاتِــي تَــأتِينِــي تَتْــرَى جَــوّاً أو بَــرّاً أوْ بَحْــراً
وَبِحُسْــنِ المَنْطِــقِ وَالصِّــدْقِ يُــوسِــعُ ربِّــي لِــي فِــي رِزْقِــي

التاسعة عشرة:

أعْمَـــلُ فِــي أنْحَــاءِ المَنْــزِلْ فهُنَــا أقْطَــعُ وهُنَــا أوصِــلْ
أَتبَلّــلُ دَوْمــاً بــالمَــاءِ وَأنــا أُصْلِــحُ فــي الأشيــاءِ
لا يَسْتَغْنِــي أحَــدٌ عَنِّــي والإتقَــانُ يُطْلَــبُ مِنِّــي

العشرون:

صَــوْتُ الآلَــه يَسْتَهْــوِينِــي رَغْــمَ غُبَــارٍ قَــدْ يُــؤذنِيــي
وإذَا مَــا تَسْهُــو أفْكَــارِي قَــدْ أتَعَــرَّضُ للمِنْشَــارِ
أصْنَــعُ مَــا يَطْلبُــهُ النَّــاسْ مَــنْ تَــأثِيــثِ بِــالمِقْيَــاسْ

الحادية والعشرون:

صَــوْتُ الــرِّيــحِ أوِ الأمْــوَاجْ لَيْــسَ يُسَبِّــبُ لِــي إزْعَــاجْ
وَعَلَــى القَــارب فَــوقَ المَــاءِ أخْــرُجُ مِــنْ صُبْــحٍ لِمَســاءِ
أبْحَــثُ عَــن رِزقٍ بحسَــابْ وَزَّعَــهُ اللهُ الــوَهَّــابْ

الثانية والعشرون:

قَــوْلِــي تَحْكُمُــه الأوْزَان سِحْــرٌ فِيــه وَحُلْــوُ بيَــانْ
فِيــهِ الحِكْمَــةُ فــي الأبْيَــاتِ وَشَــذَا عِطْــرٍ فِــي الكَلِمَــاتِ
رَدَّدْنَــاه ونَحْــنُ صِغَــارْ آهِ مَــا أحْلَــى الأشْعَــارْ

الثالثة والعشرون:

بِــدَواتِــي ثُــمَّ بِــأقْــلامِــي تَتَحَقَّــقُ أحْلَــى أحْــلامِــي
بــالــرُّقْعَــةِ أكْتُــبُ مَــا أبْغِــي أوْ بِــالنَّسْــخِ أوِ الــدِّيــوَانِــي
لا يَسْتَغْنِــي عَنِّــي أحَــدٌ فِــي مَشْــرُوعٍ أوْ دُكَّــانِ

الرابعة والعشرون:

أعْمَــل فِــي أغْلَــى الأشْيَــاءِ هــيَ مِــنْ مَخْصُــوصَــاتِ نِسَــاءِ
يَتــزَيَّــنَّ بِهــا فِــي العيــدِ أوْ فِــي عُــرْسٍ جِــدُّ سَعيــدِ
مَــنْ يَمْلكهَــا مَلَــكَ الثَّــروَهْ وَبِهَــا قَــدْ يَصْعَــدُ للــذَّروه

الخامسة والعشرون:

عَمَلِـــي يَجْــرِي لَيْــلَ نهَــارْ ... فِــي صَحْــو أوْ فــي أمْطَــارْ
أنْقُــلُ أُوصَــلُ أهْــلَ المَنْــزِلْ ... وَأقُــولُ اصْعَــدْ وأقُــولُ انْــزِل
سَفَــرِي حينَــاً جِــدُّ بَعِيــدْ ... وَإِذَا اقْتَــربَ فَــإنــي سَعِيــدْ

السادسة والعشرون:

نَــاوِلْنِــي ذَاكَ المِفْتَــاحْ ... لأرْكَّــبَ قِطَــعَ الإصْــلاَحْ
وَاجْعَــلْ فَــوْقَ يَــدي المصْبَــاح ... لأرى التَّــالــفَ يَــا وَضَّــاح
اعْمَــلُ فِــي صَبْــرٍ وَمَهَــارهْ ... كَــي أُصْلِــحَ عُطْــلَ السَّيَّــارة

السابعة والعشرون:

وَأنَــا أعْمَــلُ فِــي الأرقَــام ... يُسْعِفُنِــي حُسْــنُ الأفْهَــامِ
أجْمَــعُ أطْــرَحُ أضْــرِبُ أقْسِــمْ ... وَلِكُــلّ الأعْمَــالِ أُنظِّــمْ
عمَلِــي مُحْتَــاج لِمَهــارهْ ... يُظْهِــرُ أرْبَــاحــاً وخَسَــارهْ

الثامنة العشرون:

بِيَــدِي أمْحُــو كُــلَّ ظَــلاَم ... فَــأَسُــرُّ جَمِيــعَ الأقْــوَامِ
وأشْغِّــلُ أجْهِــزَةَ المَنْــزِلْ ... تكْــوي تَطْبُــخُ تُبَــرِدُ تَغسِــلْ
يَحْتَــاجُ إِلَــيَّ الإنْسَــانْ ... دَوْمــاً فِــي كُــلِّ الأحْيَــانْ

التاسعة والعشرون:

أسْهَــرُ كَــيْ يَــرْتَــاحَ المَــرضَــى ... أرْجُــو الخَــالِــقَ عَنِّــي يَــرْضَــى
فِــي مِيعَــادٍ أُعْطِــي دَوَاءْ ... يَنْفَعُهُــم لِيَكُــونَ شِفَــاءْ
أعْمَــلُ مَــا يُــوصِيــهِ طَبِيْــبْ ... لِلْمَــرْضَــى وَأكُــونُ مُجِيــبْ

الثلاثون:

عَمَلِــي عَمَــلٌ جِــدُّ مُنَظَّــمْ ... عَصْــرِي أصْبَــحَ عَصْــرَ تَقَــدُّمْ
أصْنَــعُ بَــرْنَــامَــجَ أعْمَــالِ ... فِــي الحَــاسُــوبِ لِكُــلِّ مَجَــالِ
فَــأنَــا مَفْخَــرُةُ الأزْمَــانِ ... فِــي عَمَلِــي كُــلُّ الإتْقَــانِ

* وللشاعرِ الجزائري المعاصر «محمد العيد» المولود عام ١٩٠٤ م؛ مشاركاتٌ جميلةٌ في فنِّ الألغازِ والأُحجياتِ، فقد نظمَ عدداً من الأحجياتِ الجميلةِ للأطفالِ تدلُّ على خيالهِ الرّحْبِ، وعلى حُسْنِ تراكيبه، وحسنِ تعاملهِ مع الصِّغارِ في فنِّ الكلماتِ. ومن أجملِ ألغازهِ وأبدعها هذا اللغزُ بعنوان «لا النّافية» الذي أرادَ بنظمه أنْ يكشفَ الأطفالُ عن معنى كلمةٍ واحدةٍ هي سلاحُ كلِّ مؤمن، وهي كلمةُ الإخلاص «لا إله إلا الله» فقال:

مَا كلمةٌ واحِدَةٌ ... لِكِلْمتَيْن تَجْمَعُ
تصِلُ هذهِ لَنَا ... بِتِلْكَ ثمَّ تَقْطَعُ
تَسُلُّ رُمحَيْنِ معاً ... منْها عَلى مَنْ يَطمَعُ
فَهيَ سِلاَحُ كُلِّ مَنْ ... يأْبَى السَّخا ويمنَعُ
لكنَّها في قَولِنَا ... لَهَا مقَامٌ أرفَعُ
بِذكرِهَا في كلمةٍ ... بِها الحَنيفُ يَصْدَعُ
فَاكْشِفْ لَنا عن لُغْزِهَا ... ولا تَقُل لا ينْفَعُ[(١)]

* ولهذا الشاعرِ ذي الأسلُوبِ السَّلسِ لُغزٌ وأحجيةٌ في «الأُذن» ترى كيفَ صَاغَ هذا اللغز؟:

مَا وَرْدَةٌ بديعةُ الإحكَام ... مِنْ غَيْرِ أَوْرَاقٍ ولا أكْمَام
شَجَرهَا مُفَرَّعُ الأغْصَان ... لكنَّه خَالٍ مِنَ العِيْدانِ
عديمةُ السَّقْيِ بلا ذُبُول ... مفْتُوحَةٌ فِي سَائِرِ الفُصُول
راقَتْ بحُسْنِ الشَّكْلِ للأنْظَار ... واستَأْثَرتْ بسَائِرِ الأَخْبَارِ
قامَتْ تُباهِينا على سَطْحِ جَبَل ... وأصْبحَتْ فِي الوَرْدِ مضرِبَ المثَل
فاكْشِفْ لنَا عَنْها بِلا ارتيابِ ... وفّقَكَ اللهُ إلى الصَّوَابِ[(٢)]

* بينما صاغَ «عبد الله روضة» الأذنَيْن في أحجيةٍ جميلةٍ فقال من أبياتٍ يخاطبُ بها الأطفال:

---

(١) انظر: ديوان محمد العيد (ص ٥٥٧) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر. مطبعة أحمد زبانة ـ دون تاريخ أو رقم الطبعة.

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ٥٦٠)، وله ألغاز كثيرة متنوعة يمكن للباحث أن يرجع إليها.

فـي الـرّأسِ وفـي كُـلّ النَّـاسِ — زوجٌ منّـــي ذُو إحســـاسِ
أنَـا أعـرفُ كـلَّ بنـي صَـوتِ — أنـــا أدركُ كُـــلَّ الأَنْفـــاسِ
أنَـــا مســـرورٌ ممـــنْ يُعْنـــى — فـــي تَنْظيفـــي وبـــلا بَـــاس
أنَـــا نعمـــةُ رَبٍّ خَـــلاّقٍ — وهَـــبَ الأسمـــاعَ إلـــى النَّـــاسِ[1]

* وله لغزٌ جميلٌ في «العينَيْنِ» يخاطبُ بها النَّاشئةَ بهذا الأسلوبِ اللطيفِ:

أُدْرِكُ ألـــوانـــاً مـــا تَكْثُـــرْ — ســـودٌ بيـــضٌ بُنّـــي أصْفَـــرْ
بســـوادِ اللـــونِ وزُرقَتـــهِ — يتغنّـــى والعَسَلـــي الأَخْضَـــرْ
المَـــاءُ ينظّفُنـــي حتمـــاً — أَنْعِـــمْ بـــوضُـــوءٍ لـــي أَطْهَـــرْ
إنْ تُهملْنِـــي فَسَتَخْسَـــرُنـــي — فـــأَنَـــا المنْظَـــارُ لمـــا تُبْصِـــر[2]

* ولهذا الأديبِ أحجياتٌ جميلةٌ ضمَّنها كتابهُ الطَّريفُ اللطيفُ[3]، وهي (٣٠) أحجية تصلحُ للأطفالِ إذا تخاطبُ حواسَّهم وغذاءهم وأدواتِهم، وهي تجمعُ الطَّرافةَ والسَّلاسةَ، كما أنَّه نظمَ (١٢) أحجية في أسماءِ الأنبياء، وفِّقَ خلالَها لمخاطبةِ الأطفالِ، ومنها هذه الأحجيةِ عن نبيّ الله نوح عليه السلام:

إِنَّـــه بَـــرٌّ أَميـــنْ — عـــاشَ أَلْفـــاً مـــنْ سِنيـــن
مَـــا عَـــدا خَمسيـــنَ عَـــامـــاً — داعيـــاً فـــي كـــلّ حِيْـــن
فـــاستجـــابَ المـــؤمنـــون — مَـــعَ هُـــزءِ الكَـــافـــريـــن
حيـــثُ كـــانَ الابـــنُ منهـــم — بـــأبيـــهِ يَسْتَهيـــن
ضـــاقَ ذرعـــاً مـــنْ نُفـــور — فـــدَعَـــا الله المُعيـــن
أَغْـــرِقِ الأرضَ إلهـــي — ونَجَـــا مَـــنْ فـــي السَّفِيْـــن
ابنُـــه كـــانَ تَنَحَّـــى — فَقَضـــى فـــي الغَـــارقيـــن
وسَيْـــدري كـــلُّ طفـــلٍ — مقْصَـــدي فيمـــن يكـــون

* * *

---

(١) انظر: أحجيات في أغاريد (ص ٢٩)، بيت الحكمة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩م.
(٢) المرجع السابق عينه (ص٢٧).
(٣) المرجع السابق (ص١٢)، ويمكن للباحث أن يقرأ هذا الكتاب على مسامع الأطفال.

الفصل السادس
المسرحُ وأثرهُ في ثقافةِ الأطفالِ

* لا يستطيعُ الدَّارسُ لأدبِ الأطفالِ أنْ يهملَ جانبَ المسرحِ (Drama) في تلوين ثقافةِ النَّاشئةِ ، وزيادةِ رصيدهم الثَّقافيّ ، وصقْلِ مواهبِهم بما يُعْرَضُ على خَشَبَةِ المسَارحِ المتخصِّصةِ في تقديمِ المسرحيّاتِ المنوّعةِ للأطفالِ والطُّفولةِ.

* لقد أسهمَ الأدبُ المسرحيُّ للأطفالِ في هذه الأيَّامِ إسهاماً ذا أثرٍ واضحٍ في دعمِ شخصيّتهم ، وتغذيتها بروافدَ متنوعةٍ تمنحُهم الثّقةَ بأنفسِهم إلى حدٍّ كبيرٍ ، فالأدبُ المسرحيّ بنوعَيْهِ الشِّعريّ والنَّثْريّ وسيلةٌ من وسائلِ تكوينِ الاتّجاهاتِ والميولِ المبكّرةِ عند الأطفالِ.

* «ففي سنِّ الطُّفولةِ يتكونُ الضَّميرُ الحيُّ ، والوازعُ الخلقيُّ ، وأغلبُ الاتّجاهاتِ النّفسيّةِ التي تهيمنُ بعدَ ذلك على الذَّاتِ الشّعوريّةِ عند الأطفالِ؛ وفي هذهِ السِّنِّ أيضاً يتكيَّفُ الأطفالُ مع بيئتهم تكيُّفاً عميقاً قويّاً وصادقاً يستمرُّ في التّأثيرِ على شبابِهم وشيخوختِهم فيما بعد»(١).

* إنَّ أدبَ الطُّفولةِ الذي يتميّزُ بالتّكاملِ الفنيّ ، وفَهْمِ مشاعرِ الأطفالِ وميولهم ، هو الأدبُ الذي يستولي على نفوسِهم ، فيحبّونه ويردّدونَهُ صباحَ مسَاء ، فهذا النّوعُ المتميّزُ من الأدب: شِعْراً أو نثراً يحترمُ قُدراتِ الأطفالِ

---

(١) الطّفولة في الشّعر العربيّ الحديث (ص ٥٣٥ و٥٣٦) د. إبراهيم صبيح ـ دار الثّقافة ـ قطر الدّوحة ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

وآراءَهُم ، ويقدّرُ مشاعِرهم ، ويُراعي مُسْتَواهم ، لذا فإنّه يظلُّ حيّاً في وجدانِهم[١] ، ويخلقُ لَديهم الإبداعَ في كثيرٍ من الأحْيَان .

* ولعلَّ الأدبَ المسرحي الذي يقدّمُهُ الأدباءُ المتخصِّصون لأطفالِنا الأعزاء ، من أفضلِ السُّلوكيّاتِ الأخلاقيّةِ النَّافعةِ لهم ، وهو خيرُ دافعٍ لهم إلى السُّلوكِ الطَّيِّبِ ، ذلك أنَّ مشاهِدَهُ تعتمدُ على الحَركَةِ المسموعةِ والمنظُورةِ والمُمَوسَقَةِ أحياناً ، وقد تبعثُ على الحماسِ ، وتصلُ إلى قلوبِ الأطفالِ بانسيابٍ ونعومةٍ ، وبالتَّالي يحاولون تقليدَ المشاهدِ بالمحاكاةِ والتَّقليدِ والإعادةِ[٢] .

---

(١) من الجدير بالذكر أنَّ النَّشاطَ التّمثيلي المسرحيّ إذا استُخْدم في مجال التّربية والتّعليم وخاصّة في تدريس الموضوعات المختلفة فإنّه يسهمُ في إغناءِ التّعليم وتعزيزِ ثقافة الأطفال. ويدرك هذا المعلّم الحصيف الذي يمارسُ تلاميذَه الأطفال النّشاط التّمثيلي خلال الحصة المدرسية أنّ الموضوعَ التّعليمي يأخذ بعداً جديداً ، فالطّفل يؤدي المادة التّعليمية أداء تمثيلياً ، ويقترب من المادة بطريقة تختلف تماماً عن تعامل المعلم مع المادة نفسها بالأسلوب التّقليدي الذي يعتمد على الإلقاء والتّلقين . إنَّ الطفلَ يتفاعل مع الموضوع ، وفي بعض الحالات قد تكون الكلمة المطبوعة جافة يصعُبُ على الطّفل تقبّلها فتأتي الحركة في النّشاط التّمثيلي لتمنحَ الكلمة معنى أقوى وتأكيداً ورسوخاً أكثر ، فالطفل ها هنا يواجه الموضوع مواجهة مباشرة.

وقد ذكر «ماكجريجور لين» في كتابه «التّطوير في التّعليم التّمثيلي» نجاح استعمال نموذج واقعي لاستخدام النشاط التمثيلي من أجل ترسيخ الوعي الاجتماعي بين الأطفال. وذكر نجاح معلمة على إبراز معاناة عمال المناجم في بريطانيا من خلال حياتهم ، وتركت طالباتها الصغيرات يؤدين مشهداً تمثيلياً . ظهر من خلاله النجاح والاهتمام بهذا الفن الذي آتى أكله عام (١٩٧٢ م). ودعا «لين» إلى الاستفادة من الظروف الاجتماعية وترسيخها في العمل المسرحي .

(٢) يقول «بيترسليد» أحد رواد النشاط التّمثيلي في بريطانيا: «إنَّ لعبَ الطِّفْل هو طريقُه في التّفكيرِ والتّجربةِ والاسترخاءِ والعَملِ والتّذكّر والإقدام والإبداع والانهماك . وجانب من جوانب لعب الطفل هو النّشاط التّمثيلي الذي يسمّى دراما الطفل . ويلاحظ المهتم بسلوك الطفل ظهور لحظات تشخيص يؤدّي فيها الطفل دور الأب . أو الطّبيب ، أو المعلّم . وهذه الأمور تبرز في سنوات الطفل الأولى قُبيل المدرسة أو بداية المرحلة الابتدائية ، وغالباً ما يكون هذا الفعل نشاطاً تمثيلياً مرتجلاً وغير رسمي . وربما يكون من أجل متعة في نفس الطفل . ولكنّه بذرة لهذا الفن الجميل».

* إنَّ جماليّةَ الأسلوبِ ورقَّةَ المعاني وبساطةَ الفكْرةِ ، من الأمورِ المهمّةِ التي يحتاجُها الأطفالُ في مسرحيّاتهم الأدبيةِ التي تُعرَضُ عليهم ، فذلك يساعدُهم على فَهْمِ معاني الحياةِ في طريقةٍ مقنعةٍ ، ويدفعُهم إلى التّذوّقِ للأدب وفنونه ، وبالتّالي معايشة مجتمعِهم بطريقةٍ سَهلةٍ وأسلوبٍ جيّدٍ ، يجعلُهم يؤمنون بواقعيةِ الحياة.

* وراحَ الكُتّابُ والشّعراءُ في العَصْرِ الحاضرِ يذكُونَ هذهِ النّواحي جميعَها ، ويمدُّونَ الأطفالَ بأدبٍ مسرحيّ معقولٍ وهادفٍ ، وخصوصاً بُعَيْدَ منتصفِ القَرنِ العشْرين ، وظَهرَتْ كوكبةٌ من الأدباءِ الشُّعراءِ المُحترفين في فنِّ معاملةِ الأطفالِ بالكلمةِ المُوحيةِ الهادفةِ ، والفكْرةِ المؤثّرةِ المُستقاةِ من التّاريخِ الإسلاميّ أحياناً ، ومن الواقعِ أحياناً أخرى.

* إنَّ الأدباءَ والشُّعراءَ الذين يتعاملونَ مع البيئةِ الثّقافيةِ للأطفالِ ، تتوفّرُ لديهم ـ بعامة ـ معرفةٌ جيدةٌ ، وأداةٌ فعّالَةٌ للتّعاملِ مع أكبادِ القلوبِ وأملِ المستقبلِ أطفَالنا الأعزّاء.

* وفي رحلتي الطويلةِ الممتعةِ الشّائقةِ والشّاقّةِ في رسالتي هذه ، أخذتُ أطالعُ المسرحيّاتِ الأدبيةَ التي صِيغَتْ للأطفالِ بأنفاسِ أدباءَ أحبُّوا الطُّفولةَ فأعطوْهَا قلوبَهم ومشَاعِرهُم وفنَّهم؛ وفي الحقيقةِ فقد بحثتُ كثيراً بين ثنايا الكتُبِ ، والمجلاّتِ ، والجرائدِ ، وقابلتُ عدداً من المتخصّصين في هذا المضمار ، حتّى تجمَّعَتْ لديّ ثروةٌ قيّمةٌ في أدبِ المسرحِ للأطفالِ ، ثم بدأتُ عمليّةَ الاختيارِ الصَّعبةِ ، فالاختيارُ والتّذوُّقُ يختلفُ من كاتبٍ إلى آخرَ ، ومن مؤلّفٍ لآخر ، بَيْدَ أنّني حرصتُ أنْ أسجّلَ المفيدَ والمهمَّ للطُّفولةِ النّاعمةِ والأطفالِ البُرآءِ الذين يحتاجونَ إلى العنايةِ الخاصَّةِ الهادفةِ ، وقصدتُ من خلالِ ذلك وجْهَ الله عز وجل ورضاهُ ومرضاتِه ، ومن ثمّ خدمةَ الأطفالِ الصّغارِ في هذه الدّنيا؛ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

* ومن النُّصوصِ الأدبيةِ الشّعريةِ التي اخترتُها؛ هذه المحاورةُ الجميلةُ الرّائعةُ بعنوان «رجاء» ؛ «لمحمد العيد» وقد أجرى حِواراً جميلاً مع أولادِهِ ، وقَصَدَ من خلالهِ تعليمَ الأطفالِ ونصحَهم للعملِ الطّيِّبِ في مستقبلهم ، ترى

ماذا نتوقّع من هذا الحوار ، وما الهدف الذي نستجليهِ من هذا الرَّجاء؟!

* سؤال:

بنيَّ أرجو من المولى لكُمْ سَلَفاً   مستقبلاً زاهراً بالسَّعدِ مقْرُونا
ياليتَ شعري ووجهُ الغيبِ مستترٌ   من بعدِ عشرينَ عاماً ما تكونونا؟

* جواب:

نكونُ جنداً بإذنِ الله منتظماً   في سلْكِ جنديَّةِ الإسلامِ مَيْمُونا
نَحمي البلادَ وننفي كلَّ غائلةٍ   عنها وندفعُ عنها العَارَ والهُونا

* سؤال:

بنيَّ أرجو منَ المولى لكُم سَلَفاً   مُستقبلاً زاهِراً بالسَّعدِ مقرونا
ياليتَ شِعري ووجهُ الغيبِ مستترٌ   منْ بعدِ خمسينَ عاماً ما تكُونونا؟

* جواب:

نكُونُ شِيْبًا بإذنِ اللهِ شَيْبَ تُقىً   وقَد سَلَكْنَا طريقاً فِيه مَسْنُونا
أبناؤنا حولَنا يرعُون حُرْمَتَنا   ونَحْنُ هادُون لِلأَبْنَاءِ راعُونا[1]

* وهذه مسرحيةٌ قصيرةٌ هادفةٌ بعنوان «الغلام الصَّدوق» صاغَها «حيدر مصطفى» ونشرتها مجلّةُ الأدبِ الإسلاميّ منذ بضع سنين ، وهي مسرحيةٌ ماتعةٌ جميلةٌ تثْري أدبَ الأطفالِ المسرحيّ بلونٍ هادفٍ مؤثّرٍ في سلوكهم ونفسيّتهم وفي حياتِهم ، وفي لُغتِهم ، وعلى الرّغم من جمالِ المسرحيةِ هذه؛ إلاّ أنَّ كاتبها قد وقعَ في بعضِ الهَنَات ، فحاولتُ ترميمَها لتكونَ أضوأ ، وأجملَ وأعظمَ أثراً ، ومن ذلك تصحيحُ بعضِ الأخطاءِ التي سَهَا عنها الكاتبُ ـ وكلّنا نَسْهو وكلُّنا يخطىء ـ مع ضبطِ النّص قدر الإمكانِ والتّصرّف اليسير ؛ والآن لنقرأْ للأطفالِ مسرحيّةَ الغُلام الصَّدوق:

---

(١) ديوان محمد العيد (ص ٥٢٦) ويمكن لجماعة المربّين ـ آباء كانوا أو معلّمين أو مشرفين ـ أنْ يدرّبوا الأطفالَ على هذا النّص ، وأنْ يختاروا الأبَ والأولادَ بلباسٍ مناسبٍ وحركاتٍ ملائمة ، ومن ثمّ يستخدمُ المربي التّوجيهات الملائمة للأطفال ، وينمي فيهم الإخلاصَ في أي عمل يقومون به أو يحبّونه ، فاللهُ عز وجل يحبُ العبد الذي يعمل العمل أنْ يتقنَه ويخلصَ فيه . . .

* «منظر الوالدِ معَ ولدِه في غرفةٍ متواضعةٍ».

* هل أحضرتَ كتبكَ وأمتعتكَ يا ولدي؟

* أسألُ الله لكَ التّوفيقَ والسَّداد ، لا تنسَ يا بنيَّ أنْ تأخذَ معكَ هذهِ الآيةَ التي كتبتُها بخطّي.

* الله ما أجملها. . . !! ما أكثر فائدتها!!.

* ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

* ولا تنسَ ذِكْرَ اللهِ أينما كنتَ ففي ذكْرِه أمانٌ لروحِكَ واطمئنانٌ لقلبك.

* ويتلو ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨].

* سيكونُ ذلكَ دأبي إنْ شاءَ اللهُ يا أبتِ.

وكمَـــا علّمتَنـــي منـــذُ الصّغَـــر عـن إلهِـي خَـالِقِـي ربّ البشَـر
ســوفَ أدعــوهُ بقلــبٍ خــاشــعٍ دامـع العيـنِ إذا الليـلُ اعتكـر

* هذا عهدي بكَ يا بني.

* وتابع: هذه أربعون ديناراً ، لِتَسْتَعينَ بها في حلّك وارتحالكَ.

* ولما حانت ساعةُ الوداعِ ، وحلّتْ لحظةُ الفراقِ قال أبوهُ: سافرْ فِي أمانِ اللهِ يا بني ، وعاهدْني ألا تعملَ عملاً يفسدُ عليك دِينكَ ودُنياك وإيّاكَ والكذبَ فإنّه بئس الخُلق:

احــــذْر مــــن الكــــذبِ واللهـــــو واللعــــــبِ
واصــدقْ بقــولــك كــمْ فـــي الصّـــدق مـــن أدبِ

* فعَاهدَهُ وشدَّ على يدهِ قائلاً: سأكونُ عند ظنّك يا أبتِ. . . . . ثمّ أضاف:

كيــف لا أحفــظُ عَهــداً كيــف لا أصــدقُ وعــداً؟
كــي أرى خيــراً عميمــاً وأرى الإيمـــانَ شهْـــدا

(ثمَّ انطلقَ مع قافلةٍ من القوافلِ المسافرةِ إلى البلدةِ التي سيتعلّم فيها).

* وسافرتِ القافلةُ في الصَّحراء.

* بعضُ المسافرين: رأيتُكَ بيننا منذ بدايةِ رحلتنا ، فإلى أينَ تزمعُ السَّفر يا بني.

* أطلبُ العلمَ في مظانّهِ يا عمّ.

* أنتَ ما زلتَ صغيراً!.

* إنّ الإنسانَ ـ يا عمّ ـ لا يُقاسُ بجسمه ، أليس كذلك؟

* آه . . حقّاً حقّاً (إنّما المرءُ بأصغريه: لِسَانه وقلبه).

* قلْ لي: ما العلمُ الذي تطلُبه؟

* حديثُ رسول الله ﷺ.

* نِعْمَ ما طَلبتَ (يتجه بنظره إلى السَّماء: اللهمّ وفّقْ هذا الغُلام).

* (يسمعانِ صِياحاً وجلبَةً) ما هذا؟ ماذا جرى؟.

* إنّهم لصوصٌ . . حسبنا الله ونعْمَ الوكيل:

نحـــنُ نحيـــا فـــي زمـــانٍ ... مـــا رأتْ عينـــاي مثلـــه
عصْـــرُنـــا عصـــرٌ غـــريـــب ... أيـــن عصـــر الطّهـــر قبلـــه
يـــوم كُنّـــا فـــي أمـــانٍ ... نلبـــسُ الإيمـــان حلّـــه

(اللصوصُ يحيطونَ بِهِمْ من كلِ جانب وفي أيديهم السّلاح).

* قفوا ، وإلا أتينا عليكم جميعاً ، لا أحد يتحرّك!.

(أحد اللصوص يتقدّم قليلاً): ماذا لديكم من مالٍ ومتاع؟ هاتوا كلّ ما عندكم.

* ليس لدينا شيءٌ تأخذونه!!.

(يقترب أحدُ اللصوص من الصَّبي ويشيرُ إليه مستصغراً شأنَه وسِنَّه ويقول): وأنتَ أيها الصَّبي ما معك؟.

* معي أربعون ديناراً.

* هيه طفلٌ صغيرٌ عنده أربعون ديناراً ياللعجب!!.

* ثمّ انصرف وهو يهزأ به.

* لصٌ آخر: أصحيح أنَّ معك أربعين ديناراً؟

* نعم معي أربعون ديناراً.

* تعال معي إلى زعيمنا.

(يمشي معهم مرفوع الرأس).

(اللصُّ إلى زعيم العصابة): إنّ هذا الغلام يملكُ أربعين ديناراً.

* زعيمُ العصابة: يا غلامُ! أتقولُ حقّا؟.

* الغلامُ (في جرأة):

أنــا لا أكــذبُ يــومــاً أو أخــافُ النّــاس ظلمــا
لســتُ أخشــى فــي إلهــي مِــنْ مقــالِ النّــاس لَــومــا
وأبــي عــاهــدتُ قبــلاً أنْ أقــولَ الحــقَ دومــا

(زعيم العصابة ينظرُ إلى صاحبه قائلاً) عجيبٌ أمر هذا الغلام.

(يشير إليهِ ساخراً): فأين هي الدّنانير إذاً؟

* هذه هي في جيبي (يخرجها من جيبه ويمسكها بحزم) ويبدي عدم ارتياح للسُّؤال:

أيهــا اللــصُّ تــدبّــر بــالــذي تنــويــه واحــذَر
إنّ ربَّ الكــون أقــوى منــك يــا لــصُّ وأكبــر

* دُهِشَ الحاضرون بما فيهم زعيم العصابةِ وتهامسوا فيما بينهم (يا له من غلامٍ شجاع).

(زعيمُ العصابة) أيكونُ معك هذا المال وتخبرنا به؟ ما الذي حملَكَ على هذا أما كان بوسعك أن تكذبَ لتنجو:

إنّمــا الصّــدقُ نجــاةٌ للــورى وبــه نعلــو علــى هــامِ الــذّرا
فلنقــلْ صــدقــاً نفُــزْ فــي جنَّــة هكــذا ربّ الــورى قــد أخبــرا

* لقد عاهدتُ أبي ألا أكذبَ أبدا.

(هزّت الكلماتُ قلبَ زعيم العصابة واقشعرّ جلده لها وظهرَ على وجههِ التأثّر وعلامات النّدم وملأت عينيه الدموع).

(وتابع الغلام):

* أيّها الرّجل:

لا تكـنْ مثـلَ الطّغـاة الجـائريـن   لا تكـنْ مثـلَ العصـاة الغـافليـن
واحذرِ المولى تكنْ في الصّالحين   أو غيـــر الله ربّ العـــالميـــن؟

* يقبلُ إليه تائباً.

* آه لو تعلم ما عانيتُ في دربي الطويل... آه لو خففتُ حملي ذلك الحمل الثّقيل:

فــي حيــاتــي صَفَحــات   مــن حكــايــاتِ الشّقــاء
ليتنـــي يـــا طفـــلُ أغـــدو   فـــي عـــدادِ السّعـــداء

(الصّبي على ثغره ابتسامة الفرح).

أيّها العائدُ إنّ الله أولى أنْ يُطاعا   اهزم اليأسَ تقرَّب لترى ذاك الشّعاعا

(ينظر قائدُ العصابة إلى عصابتهِ ويقول):

إنّ هـــذا الطفـــلَ حقّـــا   لـــم يخـــنْ فـــي الغيـــب عهـــده
وأنـــا مَـــنْ أخلـــف الآبـــا   ء والأجـــــــداد وعْـــــــده
ومشَـــى فـــي الـــدّربِ حتـــى   أبصـــــر التّيـــــار ضـــــده

* يبكي وينشد..

ربّ واشملنـــــي بعفـــــوك   وتـــــداركنـــــي بلطفـــــك

* صوتٌ يتلو: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

* التّائب:

ليتَ شعري كيف عشتُ الدّهرَ في بحر الضّياع
تـاه فـي لجـة هـذا العمـر يـا صحبـي شـراعـي
بم أفضي؟ أنا لولا الله ربي ما اهتدى للنّور قلبي

ثمّ هذا الطّفل من بين جميع الخلقِ صحبي

(يجتمعُ الجميعُ حول الغلام):

ذاك أنَّ الطفلَ صادق لم يداهنْ أو ينافق

أو يخف لومة لائم لو هَوَىٰ مِنْ فوقِ شاهق

* الطفلُ:

أحمدُ الله تعالى أن هداني

لطريق الخير دوما في زماني

* الجميع:

ولك اللهمَ حمداً

خالصاً قبلاً وبعداً

خالصاً قبلاً وبعداً(١)

* وقد استلهمَ الأدباءُ المعاصرونَ من صورِ الصَّحابةِ ومن حياتِهم وصبرِهم وجهادِهم مشاهد مؤثّرة، وصاغُوها في طريقةٍ مُمَسْرحَةٍ أَخَّاذَةٍ، تجذِبُ قلوبَ الأطفالِ ونفوسَهم إليها، ومن أمثلةِ ذلك مسرحيّة بعنوان «بطولة بلال» وبلالُ ـ كما نعلم ـ هو مؤذّنُ النَّبيّ ﷺ الذي عطّر الكونَ بصوتِه النّدي الشّذي؛ وكان عبداً للفاجرِ أميّةَ بن خلف الجُمحيّ الذي أذاقَه ويلات العذاب، فأراهُ بلالٌ محاسنَ الصَّبرِ، وقوةَ الثّباتِ على العقيدةِ، ولم يقدرْ عتو أميّةَ وفجورُهُ من أن يصرفَ بلالاً عن الإسلام، بل إنَّ أميّةَ باءَ بالفشَلِ، وهزّتْهُ كلماتُ بلالٍ الخالدةِ: «أَحَدٌ، أَحَدٌ...» ثم يأتي مُعتِقُ العبيد، أبو بكر الصّدّيق ـ عليه سحائب الرّضوان ـ فيشتريهِ من أمية ثم يعتقُه، ثم يكونُ بلالُ من صنائعِ سيّدنا أبي بكر، وإحدى حسناتِهِ في الإسلامِ، ومَنْ كأبي بكر ثاني اثنين ووزير النّبيّ ﷺ وصاحبِه وصَدِيقهِ وصِدِّيقهِ؟.

* والآن نذكرُ مشْهَداً من المسرحيّةِ الأدبيّةِ التي تصوّرُ اضطهادَ أميّةَ لبلال.

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ المجلد السادس ـ العدد (٢٣) (ص ٤٨ ـ ٥٠) عام (١٤٢٠ هـ)، بتصرف واختصار.

صاغها الشَّاعرُ المعاصرُ «محمد يوسف محجوب» ، وفي المشهدِ الآتي يظهرُ أحدُ الخدم يخاطبُ سيّدنا بلال بنَ رباح كي يستميلَهُ لسيّدهِ أميّةَ ، فيقولُ وقد رأى سَيْلاً من العذابِ ينصبُّ فوقَه وهو صابرٌ:

بِـلالُ كَفَـاكَ فـي الـدُّنيـا عَـذَابـا ... فَهَـذَا المـوتُ يقْتَـرِبُ اقْتِـرَابَـا
أميّـةُ سيـدٌ لـكَ مـنْ قـديـمٍ ... فَطَـاوِعْـهُ تَنَـلْ منـه الـرّغَـابَـا

* خادمٌ ثانٍ يعقبُ على الخادمِ الأوّلِ ويقولُ:

أَلَسْنَـا منْـه نَحْيَـا فـي نعيـمٍ ... ونَجْنِـي مثْلَ مَـا شِئْـتَ الطّـلابـا

* فَيُجيبُ بلالٌ في قوةٍ وثباتٍ ويقينٍ وازدراءٍ للشِّرك:

أأرضَـى الشِّـرْكَ والإسـلامُ دِيـنٌ ... وربُّ العـرشِ أَلْهَمنـي الصَّـوَابَـا
سَـأمْضِـي لِلْمنيّـةِ لا أُبَـالـي ... وعنـدَ اللهِ أَدَّخـرُ الثَّـوابَـا

* ويأتي أميّةُ بن خلف بالقيد والصَّخْر ، ثمّ يقولُ لبلالٍ مُهدّداً ومتوعّداً بالعذابِ الشّديدِ إنْ هو لمْ يرجعْ إلى الجاهليّةِ:

سَتُتْـرَكُ فـي لَظَـى الصَّحـراءِ حتَّـى ... أرى رَمْضَـاءَهَـا تُغْـرِي الجُفُـونـا
وأقـذفُ بـالصُّخـورِ عليـكَ حتَّـى ... تعـودَ لِـديننـا وتَثُـوبَ فيْنَـا

* ويضعُ أميّةُ صخرةً فوقَ صدرِ بلال ، فيقولُ له بلال في شجاعةٍ:

مُحَـالٌ أنْ أُذلَّ لِغَيْـرِ ربِّـي ... مُحَـالٌ أنْ أُرَاعَ وأنْ أَهُـونَـا

* طفلٌ لأميّةَ: مَا الذي جَنَى؟

* طفلٌ ثانٍ: مَا الذي فَعَلَ؟

* طفلٌ ثالثٌ: (متشجّعاً): تلكَ قَسْوةٌ منْكَ يا رجُلْ.

* أميّةُ (صَائحاً بهم): أيّها الأطفالُ هيا اذهبوا.

* أبو بكر مقبلٌ مِنْ بعيدٍ...

* غلام آخرُ (مُستبشراً):

يـا رفـاقـي ذَا أبـو بكـرٍ أَتَـى ... مِـنْ بعيـدٍ فـاقْصُـدوهُ منْجِـدا

* الغلامُ (يتقدّمُ إلى أبي بكر رضي الله عنه):

أَلَـمْ تَنْظُـرْ أبـا بكـرٍ بِـلالاً ... على الرّمْضَاء يُـوَثَـقُ بِـالحبَـالِ
أميّـــةُ راحَ يلهبُـــهُ بِسَـــوطٍ ... ويـرميـهِ بِصَخْـرٍ كـالجِبَـالِ

* أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لأميّة بن خلف مُستغرباً وسائلاً :

أميّـةُ هَـلْ جَنَـى ذَنْبـاً بِـلالٌ ... فَتُمعـنَ فـي العـذابِ وفـي النَّكَـال

* أميّةُ (هائجاً غاضباً) :

سـأصنَـعُ مـا أشـاءُ بِـهِ فـأَقْصِـرْ ... فـإنّـي لا أخَـافُ ولا أُبَـالـي
وإلاّ فَـاشْتَـرِ البَطَـلَ المفـدَّى ... بـألْفٍ يُمْسِ في البِيضِ الغَوالي

* أبو بكر (يقدّم المالَ) يقولُ :

إلَيْـكَ المَـال إنَّ المـالَ عنـدي ... يهـونُ إذا افتـديـتُ بـهِ بـلالـي
سـأَشْـرِيـهِ وأعتقُـهُ احتِسَـابـاً ... لـوجْـهِ اللهِ ربِّـي ذِي الجَـلالِ(١)

* وفي مسرحيةٍ شعريةٍ جميلةٍ يطوفُ الشاعرُ الرّقيقُ «عبد الكريم الكرمي أبو سلمى» في معظمِ أقطارِ الوطنِ العربيِ ، ثم يتحدّثُ بلسانِ كلّ قطْرٍ بأبرز ما فيهِ من خصائصَ وسِماتٍ ، ومزايا تاريخيّةٍ وحضاريةٍ . وغدتِ المسرحيَّةُ «الكرميَّةُ» مسرحيّةَ «الوطن العربي» من أشهرِ الأغاريدِ التي يحبُّها الأطفالُ في أرجاءِ الوطنِ العربي ، من محيطهِ إلى خليجهِ. . . وقد بدأ أبو سَلمى مسرحيته بسوريةَ فقال :

* سورية :

أنــا الفجــرُ مُنيــرُ الكــونِ ... قَلْــبُ العُــرْبِ سُــوريّــة
وتَــاريخــي بُطُــولاتٌ ... وأمجــادٌ وحُــرِيّــة

* وعلى لسان العراق يقول :

أنــا العــراقُ الأبــيّ ... الفَــارسُ العــربــيّ
تــاريــخُ بغــدادَ يَــروي ... أنّــي المحــبُّ الــوَفــيّ

* ثمّ الأردنّ :

أنــا الشّبــابُ الصّــاعــدُ ... الأردنُ المجــاهــدُ

---

(١) الطفولة في الشعر العربي المعاصر (ص ٥٠٠ ـ ٥٠٢) بتصرف واختصار .

أنـــا الـــــذي يقـــولُ إنَّ العـــربَ شَعْـــبٌ واحـــدُ

* ويأتي لبنانُ ليقولَ على لسانِهِ:

النّسيـــمُ العَـــذْبُ والمـــاءُ الـــذي يشفـــي الغَليْـــل
كـــلُّ مـــا يفتـــنُ عنـــدي   أنـــا لبنـــانُ الجميـــل

* ويأتي دور مصْرَ لتقول:

أَنَـــا وَالنّيـــلُ كِـــلانَـــا   رمـــزُ عـــزّ وحَميّـــة
سَـــائِـــلِ الأَجْيَـــالَ عنَّـــا   أَنَـــا مِصْـــرُ العَـــربيّـــة

* وتظهرُ السُّودانُ ليقولَ على لسانِها:

أنـــا السُّـــودانُ يـــا صَحْـــبُ   وعنْـــدي المنبـــعُ العَـــذْبُ
تُـــرابـــي كُلُّـــه ذَهَـــبٌ   وأهْلِـــي كلُّهُـــم عَـــرَبُ

* أما بلادُ الحجازِ، بلادُ الحرمَيْنِ الشَّريفَيْن، فلَها دورٌ لطيفٌ في هذه المسرحيّةِ الطّفوليّةِ العذبةِ، فتقول:

أنـــا الحجـــازُ لـــي وطَـــنْ   مـــا أرخَـــصَ الـــرُّوحَ ثَمَـــنْ
قَـــدْ عَلَّـــمَ النَّـــاسَ الهُـــدى   وكيـــفَ تحطيـــمُ الـــوَثَـــنْ

* أما اليمنُ الحرّةُ فيقول على لسانها:

أنصتُـــوا لـــي أنَـــا سَمـــراءُ اليَمْـــن   حـــرّةً عشْـــتُ علـــى طـــولِ الـــزَّمَـــنْ
أنـــا أسْقـــي قَهْـــوَتـــي كـــلَّ فتـــىً   عَـــربـــيٍّ هـــام فـــي حـــبِّ الـــوطـــنِ

* ثم ينتقلُ الشاعرُ إلى ليبيا ليقولَ على لسانِها:

أنَـــا التـــي تـــاهَـــتْ بهـــا   علـــى المـــدى إفـــريقيَـــا
فهـــلْ عـــرفْتُـــم مَـــنْ أَنـــا   أنـــا فَتَـــاةُ لِيبيَـــا

* وتونسُ الخضراء تشدو:

تـــونـــسُ الخضـــراء داري   دارُ عـــزّ وفَخَـــارِ
فـــي ظـــلالِ المَجْـــدِ نَحْيَـــا   مـــنْ صِغَـــارِ وكبـــارِ

* والجزائر الحرةُ تشدو أيضاً:

إنّـــي هـــوىٰ كـــلّ ثـــائـــرْ   أنـــا ربـــوعُ الجَـــزَائِـــرْ

وللعـــــروبـــــةِ يَحْيَـــــا أحـــــرارُهَـــــا والحَـــــرائِـــــرْ

* ومراكشُ العربيّةُ تشدو من بعيدٍ :

أنـــــا بـــــلادُ الحميّـــــة مـــــراكـــــشُ العـــــربيّـــــةْ
ولـــم تـــزلْ فـــي سمـــائـــي أعـــــلامُ جَيـــش أميّـــــةْ

* ثم يسأل أبو سلمى عن بلده السليبة فلسطين :

أيـــنَ يـــا قَـــومـــي بـــلادي إنَّهـــا عنـــدَ الأَعَـــادِي
ليـــسَ للعُـــربِ حَيَـــاةٌ وفلسطيـــــنُ تُنـــــادِي

* وتأتي الوحدةُ العربيّةُ تتحدّثُ عن نفسِها فتقول :

دَعُـــوا كُـــلَّ الـــذي قُلْتُـــم وجِـــدّوا اليـــومَ فـــي طَلبِـــي
فـــإنّـــي الـــوحـــدةُ الكُبْـــرى ســـأحمِيْكـــم مـــنَ النُّـــوَبِ
وعنـــدي رايـــةٌ خفقَـــتْ ســـأرفعُهـــا علـــى الحقَـــبِ
فقُـــولـــي رَايتـــي عَـــاشَـــتْ وعـــاشَـــتْ وحـــدةُ العـــربِ(١)

* لقد لاحظْنَا في مسرحيةِ أبي سلْمى هذه نفحاتٍ جميلة ، إذ أدارَ حِواراً لطيفاً وجديداً على لسانِ الشّعرِ ، وهذا الحوارُ مفعمٌ بالدّلالاتِ الفنيّةِ التي تلائمُ سنَّ الطُّفولةِ وعقليةَ الأطفالِ ، فقد جعلَ سوريةَ ومصرَ وتونسَ ، وغيرهَا من البلادِ هي الشّخصيّات النَّاطقة ، وكأنّها شخصياتٌ حيّةٌ حقيقيّةٌ ، وهذا ما يعزّزُ الحدثَ المسرحيَّ بنفوسِ الأطفالِ ، ويجعلُهم يتفاعلون معه ويتصوَّرونه تصوُّراً جميلاً ، خصوصاً إذا أدّى المسرحيّةَ متْقِنُون متميّزون بفنّ المسرح الشِّعري.

* «إنَّ الدلالاتِ الفنيةَ التي قدَّمها أبو سلمى في معظمِ جوانبِ مسرحيّتهِ قد تجسَّدَتْ في الإجادةِ ، وفي الاختيارِ والتّعبيرِ والأسلوبِ ، باعتبارها وسيلة تفتحُ أمامَ الجيلِ الجديدِ أفقاً فكريّاً جديداً في المفهومِ القومي ، والوطن الذي أبْعدَ الطّفلُ العربيُ عنه عن عمد. إلاّ أنَّ الشّاعرَ باختيارهِ الموفَّقِ ، وأسلوبهِ الجديد ، أحْيَا المشاركةَ الوجدانيةَ في معظمِ القَضَايا الحيويةِ المتلصِقة بمصيرِ

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٥١٦ ـ ٥١٨) بتصرف نقلاً عن ديوان أبي سلمى (ص ٣٨١ ـ ٣٨٣).

الطّفلِ وحياتهِ مستقبلاً ، فكان ذلكَ الحوارُ الذي سمعناه بين الأقطارِ العربيّةِ التي تئنُّ من الفُرقةِ ، وتشكو من التّمزّقِ. لقد وفّقَ الشاعرُ عندما اختارَ أحداثَ مسرحيّتهِ من معاناةِ أمّتهِ ، فكان بارعاً في وضعِها ضمنَ هذه المشاهد المُتتابعةِ ، التي يمكنُ تمثيلها بطريقةٍ مشوقةٍ ، يحبُّها الأطفالُ ويميلون إلى مشاهدتها. كما وفّقَ الشاعرُ عندما جسّدَ أشخاصَ المسرحيّةِ في رموزٍ وطنيةٍ يحبُّها الطِّفلُ ، ويصغي إلى سماعِ ما تقولُ من نصائحَ وتوجيهاتٍ ، فجعلَ هذه الرّموزَ تنطقُ وتتحركُ على خشبةِ المسْرَحِ ، الأمرُ الذي خلقَ عند الأطفالِ روحَ التّجاوبِ العاطفي والنّفسي والذّهني للمسرحية»[١].

* وهذه مسرحيةٌ جميلةٌ تناسبُ الأطفال ، وتدخلُ أعماقَهم ، وتحاكي وجدانَهم ، وهي عبارةٌ عن حوارٍ بين كتابٍ وتلميذٍ مهملٍ وأبٍ ، ومن ثمّ ينتصرُ الحقُّ ، ويعلو أمرُ الكتابِ وشأنهُ عندما يتعرضُ التّلميذُ المهملُ لحادثٍ ينقذُه منه طبيبٌ بفضْلِ الله عزَّ وجلَّ ؛ ثم بِفَضْلِ العلم.

* أعتقدُ أنَّ مثلَ هذا العملِ المسرحيّ البسيطِ يؤدّي دوراً تربوياً وسلوكيّاً مهمّاً في حياةِ الأطفالِ وسلوكهم ، خُصوصاً إذا استطاع ممثلو الأدوارِ الإجادة . . والآن سنقرأُ للأطفالِ هذه المسرحية الهادفةَ التربوية وقد صِيغَتْ بأسلوبٍ أدبي سَلسٍ سيّالٍ ؛ ليتحققَ الهدفُ المنشودُ لتوجيه الأطفالِ وتربيتهم على حبِّ العلْم والكتاب ، وعنوان المسرحية : «التّلميذ الضّائع» :

* الكتاب :

هـذي حُـروفـي إنْ أردتَ عُلـومـي ... فَـأَنـا الكتـابُ أَمَـا رأيـتَ رسُـومـي

فاقرأْ على صفَحاتِ قلبي حكمةً ... أو قصــةً تضفــي عليــكَ نَعيمــي

* التّلميذ :

لا تفتخــر بــالحــرفِ والتّــزييــن ... فحـروفكـم تُـؤذي ضيـاءَ عُيـونـي

مــاذا سَـأفعـلُ يـا كتـابُ بحكمـةٍ ... أو قِصّـةٍ إنْ لـمْ تكـنْ تَـرويـنـي

(ثم يعبثُ بالكتاب ويرميه أرضاً)

---

(١) المرجع السابق نفسه (٥٥٠).

* الكتاب :

فـأَنـا الكتـابُ صـديـقُ كـلِّ مـؤدّبٍ بيـن السّطـورِ تـرى جميـلَ كـلامي
هيـا اعتـذرْ منّـي وضَعْنِـي هـا هنـا فـوقَ الـرّفـوفِ بـرقـةٍ وسَـلامٍ

* التّلميذ :

هيهـاتَ تسمـعُ أيّ قـولٍ مـادحٍ منّـي فـإنّـك خَصْمـيَ المشـؤومُ
نغَّصـتَ عيشـي كَـمْ أتتنـي لـومـةٌ مـنْ والـدي للـدّرسِ حيـن أقـومُ

* الكتاب :

أهـلٌ يـودّون السّعـادةَ يـا فتـى فـاسمعْ نصيحـة والـد فـإلى متى

* التلميذ :

قـد جـاءَ دوري يـا كتـابُ ونقمتـي أنْ أقطـعَ الصّفحـاتِ تلـو الصفحـةِ

* الكتاب :

ياليـتَ أنّـك قـد حفظـتَ لجاحـظٍ مـا قـالـهُ عنّـي بـأحسـنِ وصـف
شـوقـي يقـولُ الشّعـر فـيَّ فـأرتقـي ويحبّنـي شهـمٌ وصـاحـبُ إلـف

* التلميذ :

تَبـاً لجـاحظكـم وشـوقيكـم معـاً مهمـا يقـولا إنّنـي لَـنْ أسمَعـا
بـالـذاتِ أنـتَ فـلا أحبُّـك مطلقـاً مَـنْ ذا يحـبُّ النحـوَ عقلـي ضيعـا

* الوالد :

جنّ الفتى حتى تمادى في الغَلط ابنـي يـؤولُ أمـامَ عينـي للشّطـط

* التلميذ مكرراً :

فلـن أعـودَ للـدروس مطلقـا هـذا مـرادي بـاختصـارِ الجملـة

* الوالد :

عـرَّضـتَ نفسـكَ للضّيـاع وللهـلاك فـالعلـمُ مشكـاةُ القلـوبِ عليـه نـور

* التلميذ :

أنـا هكـذا لـن أنصلـح سـأفـرُّ منـكَ وأستـرح

(يهربُ فتصدمه سيارة)

* التلميذ:

أنـا مـا ظننـتُ بـأنَّ مـوتـي قـد دنـا إنّـي حسبـتُ بـأنّنـي بـاقٍ هنـا

* الوالد:

لا تخشَ شيئاً أنتَ من قلبي قريب حـالاً بعـونِ الله أستـدعـي الطبيب

* الوالد:

يـا طبيبَ الـرّوحِ هـل زال الخطر فـأنـا علـى ولـدي بخـوفٍ أنتظـر

* الطبيب:

حَمـداً لـربّـي يـا عُمَـرْ زالَ الخطـرْ... زالَ الخطـرْ

* الوالد:

أرأيـتَ يـا ولـدي الحبيـب أرأيـتَ مـا فعـلَ الطبيـب؟

أَرَأَيْـتَ فضـلَ العِلْـمِ يُهـدىٰ للبعيـدِ وللقـريـبِ

* الولد:

أين الكتابُ.... أينَ الكتابُ أقبّله فـالعلمُ نـورٌ يـا أبـي فـالعِلْـمُ نـور.

* وهذه وقفةٌ أخرى مع مسرحيةٍ لطيفةٍ عن النَّظافةِ، ويَجْرِي الحوارُ بينَ طالبات، ثمّ ينتهي بإجماعهنَّ على أنْ يتدربْنَ على النَّظافة بكافَّةِ أشكالها، والآن مع هذه المسرحيّةِ الجميلةِ عن النظَّافةِ، وقد صاغَها د. محمد منير، وهذبتُ ما يتناسَبُ مع الأطفالِ، وذللتُ صعابَ بعضِ المفردات ليتمكنَ النَّشءُ من تمثيلها:

* طالبةٌ ناصحةٌ محبّةٌ للنَّظافة تخاطبُ أُخرى مُهْمِلَة:

رُوَيـدَكِ يـا فَتـاةُ فـلا تكُـونـي مـعَ الإهمـالِ تَـرميـنَ القُمـامـه

وصُـونـي شَـارعـاً تمشيـنَ فيـهِ فمـا أرقـى النَّظـافـة والسَّـلامـة

* الطّالبةُ المهملةُ (تردُّ بشيءٍ من الاستهتارِ):

سَيـأتـي عـامـلٌ للكنسِ صُبحـاً لهـذا وفّـرِيْ قَـولاً ونُصْحَـاً

فـلا تخشَـي مـنَ الأمـراضِ كُفّـي فهـذا القـولُ هَـزْلٌ لَـنْ يَصحَّـا

* طالبةٌ ناصحةٌ:

فـأنـتِ صـديقـةُ الإهمـالِ يكْفـي ... دِفـاعـاً عـن جـراثيـمِ الخـرابِ
فكـلُّ قـذارةٍ تُضْحـي مَحطّـاً ... لأسْـرابِ العَنـاكـبِ والـذُّبـابِ

* الطّالبةُ المهملةُ:

دَعينـي إنَّ هـذا ليـسَ طبْعـي ... أَبْعـدي عنّـي تَفَـاهـاتِ السَّخـافـةِ

* مجموعةٌ من الطالباتِ النّاصحات يناشِدْنَ زميلاتهنَّ؛ ويتوجهن إليهنَّ بهذا الرَّجاء:

فهيّـا يـا زَميـلاتـي ... نُسَخِّـرُ بعـضَ أوقـاتِ
لِتـدريـبٍ وتنظيـفٍ ... لنكْسَـبَ خيـرَ عَـاداتِ
فـلانَـرمـي قُمـامَتَنـا ... بِفَضْـلٍ أو بِسَـاحَـاتِ
فـإنَّ مكـانَهـا دومـاً ... بكيـسٍ أو بِسَـلاَّتِ

* وهذه حواريةٌ جميلةٌ بعنوان «رجال الغد» من شِعْرِ سعيد جودة السَّحار:

أيُّهـا الإخـوانُ هيَّـا ... نَطْـرَح الإهمـالَ عَنَّـا
ولْيَقُـلْ كُـلُّ صغيـرٍ ... يَطْلُـبُ العَلْيَـاءَ منَّـا
مـا عَسـاه أن يكـونَ ... عنـدمـا يَكْبَـرُ سنَّـا

* مجاب:

عِنْـدمَـا أكْبَـرُ أرجـو ... أن أكـونَ مثْـلَ خـالـي
ضَـابطـاً أحمـي بِـلادِي ... عَـامِـلاً بيـنَ الـرّجَـالِ

* مصطفى:

إنْ كَبِـرتُ واجتْهـدتُ ... صـرتُ معمـاراً شهيـراً
أنشُـرُ العُمـرانَ دُوراً ... أو قُصُـوراً أو جُسُـوراً

* الجميع:

أيُّهـا الإخـوانُ هيَّـا

* مكين:

عنـدَمَـا تَكْبَـرُ سِنِّـي ... لَـن أُرَى إلاَّ طَبِيبَـا

أُبْــرِىءُ المَــرضــى وأمحُــو   عَــنْ بنَــي النَّــاسِ الكُــروبَــا

* معن:

أيُّهــا الأصْحَــابُ مَهْــلاً   إنَّكُــمْ جُــرْتُــمْ عَلَيَّــا
إنَّمــا كــان المُــربِّــي   والــداً بــرَّاً وَفيَّــا

* الجميع:

فَهْــوَ مــن يجعــلُ مِنْكُــمْ   ضَــابطــاً شَهْمــاً أبيَّــاً
أو طبيبــاً أوْ وزِيــراً   بَعْــدَ أنْ لَــمْ يَــكُ شَيْئَــا

* ونختمُ هذا الفصلَ بهذهِ المسرحيةِ الجميلةِ التي تتحدثُ عن الرفقِ بالحيوان:

* صالح:

عصفــورٌ سقــطَ مــنَ العُــشِّ   كــالعَــاجِــزِ يــزحَــفُ لا يَمْشــي

* سامر:

وأراهُ سمينــاً ذا لحــمٍ   هيّــا نــذبحُــهُ. نَشْــويــه

* صالح:

مِــنْ أيْــنَ اللحْــمُ ألا تَنْظُــر   عَظْــمٌ مَكْسُــوٌّ بــالــرّيــشِ

* سامر:

لا... دَعْــهَ معــي وَبِــهِ أَلْهــو   وَسَــأُطْعِمُــهُ وَسَــأسْقِيــهِ

* صالح:

فَــانظُــر لِــلأمّ وحَــالَتِهَــا   سَتَمُــوتُ إذا لــم نُــرجِعُــه

* سامر:

حَيَــوانَــاتٌ قَــدْ لا تَــألَــم   خُلِقَــتْ لِلْقَتْــلِ ولِلــذّبْــحِ

* صالح:

يــا سَــامــرُ لا تَقْــسُ وَارفُــقْ   فَــالــدّيــنُ دعــانَــا لِلّــرفْــقِ

أَوَ لَيْـــسَ الطّيْـــرُ لَـــهُ رُوْحٌ   وَيُحِـــسُّ الأَلَـــمَ بِـــلا نُطْـــقِ

(جرس الدرس)

* صالح:

هَيّـــا فـــالـــدّرسُ يُنَـــادِينَـــا   فَـــاجْعَـــلْ عُصْفُـــورَكَ فِـــي عِتْـــقِ

(يدخلانِ إلى الفصل والعصفور داخل علبة)

* المعلم:

مـــاذا فـــي العلبـــةِ يَـــا سَـــامـــر؟   أَعَصِيْـــرٌ أم طَيْـــرٌ نَـــادِرْ

(ينظر المعلم في العلبة)

* المعلم:

عصفـــورٌ... فَـــرخٌ حَـــالَتُـــهُ   تَـــدعُـــو لِلّـــرأفَـــةِ يَـــا سَـــامِـــر

* سامر:

قَـــدْ خِفْـــتُ عَلَيْـــهِ مِـــنْ الهِـــرَرِ   لَمّـــا أَنْ سَقَـــطَ عَـــنِ الشّجَـــرِ

* المعلم:

يَـــا سَـــامِـــرُ ضَعْـــهُ هُنَـــا واسْمَـــعْ   فَـــالـــدّرسُ اليـــومَ عَـــنِ الـــرّفْـــقِ

(القصة تروىٰ في نشيد جماعي)

* المجموعة:

جَـــاءَتْ للهَـــادي عُصْفُـــورَةْ   تَـــزْقُـــو وَبِصَـــوْتٍ مُـــرْتَعِـــدِ
أَرْخَـــتْ جُنْحَـــاً نَفَشَـــتْ رِيشَـــاً   قَـــدْ فُجِعَـــتْ حَقّـــاً بِـــالـــوَلَـــدِ
فَـــالْتَفَـــتَ لِصحْـــبٍ قَـــالَ لَهُـــمْ   مِـــنْ فَجّـــعِ الطّـــائِـــرَ بِـــالـــوَلَـــدِ
فَمضَـــى مَـــنْ غَـــالَ لَهَـــا وَلَـــدَاً   وأَعَـــادَ فِـــرَاخَـــاً فِـــي رشَـــدِ
رَفّـــتْ شَـــاكِـــرَةً مَـــا صَنَعُـــوا   وَلَهَـــا تَغْـــرِيُـــدٌ بِـــالحَمْـــدِ

* المعلم:

لا تَحْبِـــسِ عُصفـــورا أَبَـــدَاً   فـــي قَفَـــصٍ دَعْـــهُ سَيَنْطَلِـــقُ

* سامر :

أَخْطَــأْتُ فَعُــذَراً يَــا صَــالــح		قَــدْ كُنْــتَ النّــاصِــحَ وَالفَــالِــحْ
شُكـــراً أُسْتَـــاذِي بَصّـــرَنـــي		فَـــالـــرّفـــق بِمنْهَجِنـــا واضِـــحْ

* المعلم :

فَـــالـــرّفـــقُ بِشَـــرْعٍ وكِتَـــابِ		لا تَنْسَـــوا رِفْقَـــا أَحْبَـــابـــي
مَـــنْ كَـــانَ مُطيعَـــاً لإلـــهِ		فَـــالسُّنَّـــةُ نَهْـــجُ الأَصْحَـــابِ

* * *

الفصلُ السابع

القصَّةُ رافدٌ لثقافةِ الأطفالِ

* القصَّةُ (Story) فنٌّ منَ الفنونِ الأدبيةِ (Literary arts) التي لها مكانتُها الأثيرةُ عند الأطفالِ ، والقصّةُ كالرَّسْمِ والنَّحتِ وبقيةِ الفُنونِ الجميلةِ رسالتُها الجمالُ ، ودورُهَا في الحياةِ أنْ تمنحَ السُّرورَ والبهجة ، وأَنْ تُثيرَ وتقوّي جوانبَ الرّوحِ من خلالِ المُتعةِ والبهجة ، وهذه هي الوظيفةُ الأساسيّةُ للقصّةِ في التّربيةِ؛ وأكبرُ فائدةٍ يجنيها الأطفالُ من القصةِ هي تنميةُ الإعجابِ بالجمالِ وتذوّقهِ .

* وتعدُّ القصةُ وسيلةً تربويةً هامةً ، إذ لا يقتصرُ دورها التّربويّ ، وتأثيرها العاطفيّ والنّفسيّ على الأطفال فحسب ، وإنّما يشملُ ذلك الكبار .

* فالقرآنُ الكريمُ قد تضمَّنَ قصصاً كثيرةً تربّى عليها الكبارُ في العهد النّبويّ وتذوّقوا جماليّتها قبل أنْ تصلَ أحداثُها إلى الصِّغار .

* إنَّ وجودَ هذا العدد الكثير من القَصَصِ في القُرآنِ العظيم ، وسَرْدَ بعضها بتفصيلٍ دقيقٍ ، إشارةٌ بالغةُ الوضوحِ في أنَّ لهذا القصصِ مكانته وأهميته التّربوية في منهجِ التّربيةِ الثّقافية والنّفسيّةِ للأطفال .

* وراوي القصّةِ يمنحُ مستمعيهِ من الأطفالِ المتعةَ والسُّرورَ ، ويكسبُ انتباهَهم ومحتوياتِ عقولهم ، ويضيفُ شيئاً جديداً لأرواحِهم وعواطِفهم النّفسيةِ ، وقد يفتُح نوافذَ جديدة للخيالِ عندهم ، ويزوِّدهُم ببعضِ الخطوطِ والألوانِ لِمثاليةِ الحياةِ والفنِّ التي تتخذُ لها مكاناً في قلوبهم .

* وينبغي لرواي القصّةِ أنْ يراعيَ بعضَ الأمورِ عندما يتصدّى لسردها بين جماعةِ الأطفال ، ومن هذه الأمور :

١ ـ أنْ تهدفَ قصصُهُ إلى تحقيق فوائدَ أدبيةٍ وعلميةٍ وخُلُقيةٍ .

٢ ـ أن يُظهِرَ بعضَ الحركاتِ والانفعالاتِ على الوجْهِ والصَّوت حسب المواقفِ والأحداثِ المختلفة ، حتى يعيشَ الأطفالُ واقع القصةِ وأحداثها .

٣ ـ أنْ يضمّن الرّاوي شيئاً من خفّة الظّلّ والفكاهةِ لجذب انتباه الأطفال إليه .

٤ ـ أن يبتعدَ عن الأحداث التّاريخية التي لا يستوعبها الأطفالُ ، وليس فيها مواقف أخلاقية تفيدهم .

٥ ـ أنْ يتحدَّثَ بلغةٍ فصحى سهلة ومفهومة ، لأنَّ اللهجةَ العاميةَ تهدمُ العربيةَ الفُصحى وتشوِّهُ كثيراً من جماليّتها ومعناها ومبناها .

* وروايةُ القصّةِ تمنحُ الأطفالَ الانتعاشَ والحيويّة ، وتكوِّنُ علاقةَ مودّةٍ بين الرّاوي والأطفال ، ولعلَّ المدرّسينَ النّاجحينَ أو المربّينَ المتألّقينَ هم الذين يؤثّرونَ بقصصِهم في قلوبِ الأطفالِ ، خصوصاً إذا اختاروا القصّةَ المناسبة والوقت المناسبَ لإلقائِها .

* إنَّ الأطفالَ يحبّون الطَّريقة البسيطَة المباشرةَ في روايةِ القصّةِ[1] ، ويحبّونَ كثيراً من الإثارةِ ، ويستمتعونَ بكثيرٍ من القصصِ المسلّيةِ المضحكةِ ، ويعشقونَ ما دارَ منها حولَ الحيواناتِ ، وأحياناً حولَ الزَّهرِ والوردِ والشَّجر ، كما يحبّونَ أعمالَ الخيرِ والبرِّ والعطفِ .

* والأطفالُ في حاجةٍ إلى كاتبِ قصّةٍ مبدعٍ ، وراوٍ فنّانٍ ، ذلك لأنَّ كتابَة القصَّة فنٌّ إبداعي ، وتمرُّ أحداثُ القصّةِ من خلالِ روحِ الكاتبِ الخلاّقةِ ، وبالتّالي يحيا مع الأطفالِ وهم مستمتعون بما يقدمُهُ لهم .

---

(١) «القصة» : القِصَّةُ بالكسر : الخبر وهو القصص ، وقصّ عليَّ خبره يقصُّه قصاً وقصصاً : بمعنى أورده .
والقَصَص بالفتح : هو الخبر المقصوص .

* وكاتبُ قَصصِ الأطفالِ قد يُولَدُ ومعه الموهبةُ ، ولكنَّ الموهبةَ وحدها لا تكفي ، بل تحتاجُ إلى رصيدٍ منَ الخبرةِ والتّجربةِ والمعرفةِ ، لتندمجَ الموهبةُ مع هذهِ الأشياءِ ، وتجعلَ منَ الكاتبِ قصّاصاً ناجحاً مبدعاً.

* ومنَ المُتَعالَم أنَّ كلَّ كاتبِ قصّةٍ للأطفالِ عليه أنْ يتّصلَ بحياةِ الأطفالِ ، حتّى يثيرَ عواطفَهم من خلالِ سرِّ موهبتهِ التي يُحْسِنُ من خلالها اختيارَ موضوعاته.

* كانت معظم قصص «كامل الكيلاني» من وضعِه ، وبعضُها يحملُ طابعَ التّعليم ، ثم نجدُ الشّاعرَ «أحمد شوقي» الذي يدخلُ هذا المجالَ ولكنْ بمنظوماتٍ جميلةٍ تدعو في معظمِها إلى المكارمِ وترسُم للأطفالِ الآدابَ والفضَائلَ والحكمة والتجربة.

* انتشرتْ قصائدُ شوقي هذه ، وحفظَها الطلابُ في المدارسِ ، في معظمِ أنحاءِ الوطنِ العربيِ ، وهي موجودةٌ في ديوانهِ الشّوقيّات بآخر الجزءِ الرابعِ. وقد أوردنا بعضَها في ثنايا هذه الرّسالةِ في فُصُولٍ وأبوابٍ متفرّقةٍ.

* بيد أنَّ أدبَ القصّةِ أخذَ ينمو فيما بعد ، ويأخذُ أشكالاً وطرقاً جديدةً ، وظهرَ قصّاصون تخصّصُوا في هذا الفَنِّ الجميلِ ، وأحسنوا التّعامُلَ مَع الأطفالِ شِعْراً ونثراً ، ولا يكاد يخلو بلدٌ عربيٌ من هؤلاءِ القُصّاص المجيدين.

* ولا ريبَ في أنَّ أمّةَ العربِ مثلُ غيرِهم منَ الأُممِ ، يحبُّونَ أطفالَهم ، والعربيُّ مثل غيره يحبُّ القصّةَ ويشغفُ بها ، وربّما يسهرُ على سماعها.

* ومن الطَّبيعي في الحياةِ أنّه يوجدُ في كلّ بيتٍ أو أسرةٍ ، رجلٌ كبيرٌ ، أو امرأةٌ عجوزٌ ، وأطفالٌ وأحفادٌ ، ومن المؤكّدِ أنَّ ذلكَ الرجلُ الكبيرُ المُعَمَّرُ ، أو تلكم المرأةُ العجوزُ كانا يجلسان مع الأطفال ، ويقصّان عليهم حكَاياتٍ وقَصَصاً وأحَاجٍ وطرائفَ ، فأينَ هاتيكم الحكاياتُ ، وأينَ أخبارُها ، هل احتفظتِ الذّاكرةُ التّاريخيّةُ بشيءٍ منها[1]؟!

---

(١) أدب الأطفال (ص ٢٢٥) بتصرف لعبد الرزاق جعفر ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٩ م.

* لا شكَّ في أنّ كثيراً منها تلاشى ، ولكن احتفظتِ الذّاكرةُ التّاريخيةُ بكثيرٍ من القَصَصِ التي تسدُّ جُزءاً منَ الفَراغِ في هذا المضْمَارِ ، ومنها الحكاياتُ الصَّغيرةُ والقصصُ المصنوعةُ على ألسنةِ الحيوانات .

* والقصةُ على لسانِ بعضِ الحيواناتِ حكايةٌ أُريدُ بها التَّعليم وأَخْذُ الموعظةِ . وفي تراثنا العربيّ مادّةٌ جميلةٌ وغنيةٌ لهذهِ الحكاياتِ. ومن هذهِ الحكاياتِ قصَّة «الضّبُع والرّجل المُحْسن» .

* قال بعضُ الحكماء : «المعروفُ إلى الكرامِ يعقبُ خَيراً وإلى اللئام يعقبُ شرّاً ، ومثَلُ ذلك مَثَل المطرِ يشرب منه الصَّدفُ فيعقبُ لؤلُؤاً ، وتشربُ منه الأفاعي فيعقبُ سُمّاً» وقال سفيان : «وجدنا أصلَ كلِّ عداوةٍ اصطناع المعروف إلى اللئام» ، وقال : «أثَارَ جماعةٌ من الأعرابِ ضَبعاً ، فدخلتْ خباءَ شيخٍ منهم ، فقالوا : أخرجْها . فقال : ما كنتُ لأفعلَ ، وقد استجارتْ بي فانصرفُوا؛ وقد كانت هزيلاً ، فأحضرَ لها لقَاحاً ، وجعلَ يسقيها حتى عاشَتْ ، فنامَ الشَّيخُ ذاتَ يومٍ ، فوثَبَتْ عليه ، فقتلتهُ ، فقال شاعرهم في ذلك :

ومَنْ يصْنَعِ المعروفَ في غيرِ أهلِهِ ... يُلاقِ الذي لاقى مجيرُ امّ عامرِ
أعدَّ لَهَا لَمّا أناخَتْ ببابهِ ... لِتَسْمَنَ ألبانَ اللقاحِ الدرائرِ
فَأَسْمَنَهَا حتّى إذا ما تمكَّنَتْ ... فَرتْه بأنيابٍ لها وأظافرِ
فَقُلْ لذوي المعروفِ هذا جزَاءُ مَنْ ... يجودُ بإحسانٍ إلى غيرِ شاكر»[1]

* وقيل : «أصابَ أعرابيٌّ جروَ ذئب ، فاحتملَه إلى خبائهِ ، وقرَّبَ له شاةً ، فلم يزلْ يمتصُّ من لبنها حتَّى سمنَ وكبرَ ، ثمّ شدَّ على الشَّاةِ فقتَلَها ، فقالَ الأعرابيُ يذكرُ ذلك :

غذتكَ شُويهَتي ونَشَأتَ عندي ... فَمَنْ أدراكَ أنَّ أباكَ ذيبُ
فَجَعْتَ نُسَيّةً وصغارَ قومٍ ... بشاتِهمُ وأنتَ لها ربيبُ
إذا كانَ الطّباعُ طباعَ سوءٍ ... فليسَ بنافعٍ أدباً أديبُ[2]

---

(١) انظر المحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٤٨) دار إحياء العلوم ـ لبنان ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م .

(٢) المصدر السابق عينه. وفي المثل : «سمّنْ كلبَكَ يأكلك»وأنشد : =

* ومن لطائفِ القَصص أيضاً قصّة «الباز والعُصفور» التي رواها الجاحظُ فقال: «ظفرَ المأمونُ برجلٍ كان يطلبُه، فلَّما دخلَ عليهِ قال: يا عدو اللهِ أنتَ تفسدُ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ! يا غلام خذْهُ إليك فاسقهِ كأسَ المنيّةِ. فقال يا أميرَ المؤمنين، إنْ رأيتَ أنْ تبقيني حتّى أؤيِّدكَ بمالٍ. قال: لا سبيلَ إلى ذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين فدعني أنشدكَ أبياتاً، قال: هاتِ، فأنشدَهُ:

زعمُوا بأنَّ البازَ علّقَ مرّةً ... عصفورَ بَرٍّ ساقَهُ المَقْدورُ
فتكلَّم العصْفُورُ تحتَ جناحهِ ... والبازُ منقضٌّ عليهِ يطيرُ
ما بي لما يُغني لمثلكَ شَبْعَةٌ ... ولئنْ أُكِلْتُ فإنّني لَحقيرُ
فتبسَّمَ البازُ المدلُّ بنفسهِ ... كَرماً وأُطلِقَ ذلكَ العُصفُور

فَعفَا عنه»[١].

* ومن القصصِ التُّراثيّ على لسانِ الحيوان هذه القصّة التي ذكرَها أبو حيَّان التَّوحيديّ على لسانِ «الطَّير والثّعلب» فقال: «أوْلَمَ طيرٌ، فأرسلَ رسلَهُ ليدعوَ إخوانه؛ فغلَطَ بعضُ الرُّسلِ، فجاءَ إلى الثَّعلبِ. فقال: أخوك يقرئُكَ السَّلام، ويسألكَ أنْ تتجشَّمَ العناءَ إليهِ يوم كذا وتجعلَ غداءَك عنده. فلمّا رجعَ وأخبر الطّيرَ بغلطهِ، اضطربتِ الطُّيورُ من ذلك وقالوا له: يا مشؤوم أهلكْتَنا وعرضتْنَا للحتْفِ، ونغّصتَ أمرنَا علينا. فقالتِ القنبرةُ: إنْ أنا صرفتُ الثّعلبَ بحيلةٍ لطيفةٍ ما لي عندكم؟ قالوا: تكوني سيّدتنا، وعن رأيكِ نَصْدرُ، وعلى أمرِكِ نعتمدُ. فقالت: مكانكم.

ومشت إلى الثّعلبِ فقالت له: أخوكَ يقرأُ عليكَ السَّلام ويقول: تحضرُ غداً يوم الاثنين وقد قَرُبَ الأنسُ بحضورِكَ، فأينَ تحبُّ أن يكونَ مجلسُك مع الكلابِ السّلوقيّة أم الكلابِ الكُرديّةِ؟!. فتجرّعَها الثّعلبُ ثم قال: أبلغِي أخي

= هُم سمّنوا كلبَاً ليأكلَ بعضَهم ... ولو علموا بالحزم ما سمّنوا كلبا

وقال آخر:

وإنّي وقيساً كالمسمّنِ كلبَه ... فخدّشه أنيابه وأظافره

(١) المصدر السابق (ص ٥٧).

السَّلام وقولي له: واللهِ أنا مسرورٌ بقربكَ ، شاكرٌ للهِ سبحانه على ما منحني من مكانِكَ ، ولكنْ تقدم لي نذرٌ منذ دهرٍ بصومِ الاثنينِ والخميسِ ، فلا تنتظروني»[1].

* ومن القصصِ الهادفِ قصّةُ «الصِّرصار والنَّملة» التي تقولُ: «أضاعَ صرصارٌ زمنَ الصَّيفِ في اللهوِ واللعبِ ، ولم يدَّخرْ للشّتاءِ ما يغنيهِ عن المسألةِ ، ويقيه شرّ الذُّلِّ ، فلمّا جاءَ الشّتاءُ ، وافتقرَ إلى الغذاءِ ، وعجزَ عن السَّعْي لشدّةِ البردِ ، فقصدَ مسكنَ نَمْلةٍ ، واستقرضَها شيئاً من القمح ، حتى إذا جاء الصَّيْفُ ردَّه. فقالت له: ومامنعكَ أنْ تدَّخرَ مثلي وتسعى سَعْيي ، ولا تعرّض وجهكَ لذلِّ المسألةِ.

فقال: قد فرطّتُ وندمتُ على ما فعلتُ.

فقالت له: جزاءُ المُفرطِ الإهمال ، ومقابلتُهُ بالإعراضِ ، وليس عندي ما أستغني عنه ، وأدفعُهُ إليكَ ، فَسَلْ غيري ، وتذكّر موقفَك متّى جاءَ الصَّيفُ.

قال: يا أختاه ، قد سمعتُ مقالتَكِ وقبلتُ نصيحتَكِ. والآن لا أجدُ مَنْ يقرضني ، فأجيبي سُؤالي ، وكفَاني ما رأيتُ ، جزاكِ اللهُ خيراً. فأعطتْهُ جُزءاً من القمحِ ، فتناولَهُ ومضى كئيباً حزيناً ، وذلك جزاءُ المُهملين».

* ومن القصصِ الهادفِ هذه القصةُ الجميلةُ التي تقول: «أرسل أحدُ التُّجّار ابنَه في تجارةٍ ، فرأى في طريقهِ ثعلباً طريحاً يتلوّىٰ من الجوعِ فقال: مِنْ أين يتغذّى هذا المسكينُ؟ وإذا أسدٌ أقبل يحملُ فريستَه ، فانزوى الولدُ وهو يرتعدُ ، ثمَّ راقبَ الأسدَ حتّى أكلَ فريستَه ، وتركَ منها بقيّة لا خيرَ فيها ومضى. فقامَ الثّعلبُ وأكلَ من فضْلةِ الأسدِ ، فأرادَ الولدُ أنْ يقتديَ بالثَّعلب ، ورجعَ إلى أبيهِ ، وأخبرَهُ بما رأى ، فقال له والده: إنَّك مخطىءٌ يا بنيّ ، وإنّي أرجو أن تكونَ أسَداً تأكلُ الثّعالِبُ ما أبقيتَ ، ويسوؤني أنْ تكونَ ثعلباً تأكلُ مِنْ بقايا الأسودِ ، وتشربُ من سؤرها. وردَّه عن خطئِه وقال:

ومَـا الـمَـرءُ إلاّ حَيْـثُ يَجْعـلُ نَفْسَـه فكُنْ طالباً في النَّاسِ أعْلَى المَراتِبِ».

---

(١) البصائر والذخائر (١/ ٢٨٢ و٢٨٣) تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ـ مكتبة أطلس ـ دمشق.

* هذه بعضُ القصصِ التي حفلتْ بها بعضُ المصادرِ القديمةِ ولكنْ مع إطلالةِ القرن العشرين ، حدثَتِ النّهضةُ القصصيةُ في العالَم العربي ، وظهرَ أعلامٌ كبارٌ في هذا الميدانِ ومنهم «كامل كيلاني» في مصرَ ، إذْ أصدرَ عدّةَ مجموعاتٍ قصصيّةً جميلةً.

* ولمصطفى صادق الرّافعي قصةٌ بعنوان «الصَّغيران» وهي من القصصِ الماتعةِ الجميلةِ وتحكي قصّة طفلَيْن ضائعَيْن خائفَيْن ، وقد صاغ الرّافعيُّ ـ رحمه الله ـ هذه القصَّةَ بأسلوبٍ يسْحرُ الألبابَ ، ويسرُّ قلوبَ الأطفالِ الأحباب.

* والقصّةُ أنشأها الرّافعي في كتابِه الممتع «السحاب الأحمر» وقمتُ بتلخيصها دون أنْ أعبثَ بجمالِها الآسرِ للقُلُوب ، بل اختصرتُها اختصاراً جميلاً كجمالِها ، ليستمتعَ بها الأطفالُ ، ومن ثمّ يسمرونَ مع أنغامها أحلى سهرات السَّمر.

* يقولُ الرّافعيُّ ـ رحمه الله ـ ما محصَّلُه وملخّصُه : «جلستُ ليلةً مع صحبةٍ من الأدباءِ في نديٍّ على عُنُقِ شارعٍ كَذا بالقاهرةِ ، في ساعةٍ هي أوّلُ عهدِ الليلِ بالتّنفُّس تحتَ الأجنحةِ السَّماوية . . . وفي تلك السَّاعةِ كانتِ الأرضُ قد عَرِيَتْ إلا منّ أواخرِ النّاسِ ، وطوارقِ الليلِ ، وبقيةٍ من يقظةِ النَّهارِ تحبو في الطُّرق ذاهبةً إلى مضاجِعها؛ فبينما أمدُّ عينيّ وأديرهما في مفتتحِ الطَّريق ومُنْقَطَعِهِ ، إذ انتفضتُ انتفاضةَ الذُّعر . . . ذلك حين أبصرتُ الطِّفْلَين . .

* صغيران ضَلاّ منْ أهلهما في هذا الليلِ ، يمشيانِ على جانبِ الطَّريقِ في ذلةٍ وانكسارٍ ، وتحسبُ أقدامَهما من البطءِ والتّخاذلِ لا تمشي ، بل تتزحزحُ قليلاً قليلاً ، فكأنّهما واقفان . . .

* أكبرهُما طفلةٌ تعدُّ عمرها على خمسِ أصابِعها ، والآخرُ طفْلٌ يبلغُ ثلاثَ سنواتٍ.

* طفلان في وزن مثقالَين من الإنسانية ، لكنّهما يحملان وزنَ قناطير من

الرّعبِ . . . وعليهما ذلُّ اليتمّ من الأهل ، ومسكنةُ الضّياع بين الضّياعِ ، وظلام الطّبيعةِ وكآبتها .

* رأيتُ الطفلةَ وقد تنبّهَتْ لأخيها الصَّغيرِ غريزةَ أمٍّ كاملة ، فهي تشدُّ على يدهِ بيديها معاً كأنَّها مذ علمتْ أنّها ضائعةٌ تحاول أنْ يطمئنَّ أخوها أنّه معها ، ولن يضيعَ وإنّه معها ، فَيَا لَرحْمَةِ الله ! ! .

* وقد أسندتْ منكبَهُ إلى صدرِها وهي تمشي ، فلا أدري إنْ كان ذلك لتحملَ عنه بعضَ تعبهِ فلا يتساقط ؛ أو ليكونَ بها أكبرُ من جسمهِ الصّغيرِ الضّئيلِ فلا يخافُ .

* أما الطِّفْلُ فمستذِلٌّ خاشعٌ ، لو تُرجمَتْ نظراتُه لكانت هذه عبارتُها : اللهمّ أنقذْنا من بلاء يومنا .

* كان الطّفلُ المسكينُ يرسلُ من عينَيْه الدَّعجاوين سِحْرَ المذلّةِ الفاتنةِ ، ونظرَ إليَّ أنا أوّل نظرةٍ ، فذكرتُ أطفالي ، فتزلزلَ قلبي ؛ ولن يطيقَ مَنْ كان له طفلٌ أنْ يرى صغيراً ضائعاً في الطّريقِ يستهدي النّاسَ إلى أهلِهِ ويبكي عليهم ، أو طفلاً جائعاً يعرضُ على وجههِ المنكسر ويستعطفُهم بصوته المريض أنْ يطعموه ، أو طفلاً يتيماً قد ثكلَ أهله وضاقَ بقسوةِ أوليائهِ فانطرحَ في ناحيةٍ يبكي ويتفجعّ ويسألُ مَنْ يعرفون الموتَ : أين أبي؟ أين أمي؟ .

* واطمأنَّ ذلكَ الطّفلُ إلى صدرِ أختهِ ، ومال برأْسِهِ عليها ، ثم أطلقَ عينَيْهِ فينا جميعاً ، فما حسبتُه أراد إلا أنْ يخبىءَ في قلبِها أفكارَهُ الصَّغيرةَ ، ثمّ ينظرُ إلى هؤلاء النّاسِ نظراتٍ مجردةً بلهاءَ كما ينظرون إليه ، إذ لم يَرَ فيهم مَنْ فتحَ له ذارعَيْهِ ، ولا مَنْ حَمَلَهُ ، ولا مَنْ ضَحِكَ لَه ، ولا مَنْ أعطاه شيئاً يأكله ! ! .

* ولما رأيتُ حيرةَ الطّفلَيْنْ ضممتهما إليَّ ، وألهيتُهما عن كآبةِ القلبِ بسرورِ البَطْن ، فدفنتُ كلَّ آلامهما في بعضِ قطعٍ من الحلواء ، فَطِعمَا وضَحِكا ، وتطعَّما الحياةَ جديدةً آمنة .

* وقدّرتُ في نفسي أنَّهما من هذا الشَّارع الذي نحنُ فيه ، وقلت : إنَّ أهلهما على أثرِهما ، فجلعتُ أستأني وأنتظرُ ، بينما نحنُ على ذلك ، إذا

ارتفعَ سوادٌ مقبلٌ ، فتبيّنتُ فإذا امرأةٌ تهفو كذاتِ الجناحَيْنِ ، وكأنَّها تنساقُ بقوةٍ تحترقُ في داخِلها ، ثمّ أخذتْنا عيناها ، فإذا هي أمُّ الطّفلين ، تبدو من لهفتِها لولدَيْها كأنّما تحاول أنْ تخطفهما من بعيدٍ بقوةِ قلبها.

* هلَّ الطّفلان لمَّا أبصرا أمَّهما ، ونَفَضَا أيديهما نَفْضَ الأجنحةِ ، ثمّ أكبّتْ هي عليهما بجسمها ومدامِعها وقُبلاتها ، والتحما بها التحامَ الجزء بِكُلّه ، واشتبكتِ الأذرعُ في الأذرعِ حتّى لا تفرقُ بين ثلاثتهم في معاني الحبّ إلا بالكبر والصِّغر ، ورجعتْ معهما طفلةٌ كأنَّ تاريخَها ابتدأ جديداً في ساعةٍ من السَّاعاتِ الفاصلة التي يتحوّل عندها التّاريخ.

* وإذا كانتِ القلوبُ بين إصبعَيْن من أصابعِ الرّحمنِ يقلّبُها ، فلقد كانت هذه القلوبُ الثّلاثةُ في تلكَ اللحظةِ تنطقُ وجوهُها بأنّها في يَدِ اللهِ يهزّها هزّاً.

* وذهبتِ المرأةُ بالصَّغيرينِ بعد أنْ شهدتُ منها ومنهما مواقعَ رحمةِ اللهِ في القوى المسكينةِ التي لم يجئها المسكنَةُ إلاّ من كونها أطهرَ القوى وألطفِها ، وانفجرَ قلبي آلاماً وسروراً ورحمةً في ساعةٍ واحدة»(١).

* * *

---

(١) انظر: السحاب الأحمر (٩٧ ـ ١١٢) باختصار وانتقاء وتصرف. دار الكتاب العربي ط ٧ بيروت ١٩٧٤ م.

الباب الثالث

عوامل في ارتقاء ثقافة الأطفال وأدبهم

الفصل الأول : ثقافةُ الأطفالِ ضرورةٌ تربويّةٌ

الفصل الثاني : مؤثّراتٌ في بناء ثقافةِ الأطفال

الفصل الثالث : وسائل الإعلام وأثرها الثّقافي

الفصل الرابع : القراءةُ والكتبُ والصّحافةُ ثراءٌ ثقافي

الفصل الخامس : الرّسمُ يرتقي بثقافةِ الأطفال

الفصل السادس : التلفزيون داءٌ أم دواء ؟.

الفصل السابع : نصائحُ ثقافيةٌ للوالدين

الفصلُ الأوّلُ
ثقافة الأطفال ضرورةٌ تربويةٌ

* هذا فصلٌ مهمٌّ جدّاً ، فهو عمود هذا البحثِ الذي نتحدّثُ من خلالهِ عن ألوانِ التَّربيةِ وفْقَ المنهجِ الرّبّاني ، ليكونَ الأطفالُ مناراتٍ خيّرةً لمن بعدهم منَ الأجيالِ.

* قبل أنْ نمضيَ في رياضِ هذا الفصْلِ ، ونستمتعَ بروضهِ الأُنُفِ ، تعالوا نقرأ هذَيْن البَيْتَيْن:

يــا أُخُــذُ الأَبْنَــاءُ عُمْــري كُلَّــهُ   مَا لِنَفْسي في حيَاتي مِنْ نَصيبْ
كُــلُّ مَــا أَجْمــعُ مَحْفُــوظٌ لَهُــمْ   يَجْمُــلُ العَيْــشُ بِهَــذَا وَيَطِيــبْ

* إذاً ، فكلُّ شيءٍ للأبناءِ ، ولفلذاتِ الأكبادِ الذين يمشونَ علىٰ الأرضِ هوناً ودَلالاً وحنَاناً ، فليكُنْ ما نتركُهُ لهم ثميناً ، وأنْ نورِّثَهم ما يُصْلِحُ دينَهم ودنياهم ، لا أنْ نورّثَهم سقْطَ المتاع فَحَسْب ، أو شيئاً من زُخرفِ الدّنيا الزّائلِ.

* لذا فعلينا أن نُحسِنَ تربيةَ الأطفالِ في ضوءِ المنهجِ الصّحيح المستمدّ من نور الله عزّ وجلّ ، وفي أضواءِ الثَّقافةِ المفيدةِ الماتعةِ التي تثري أبناءَنا وترويهم في مختلفِ المجالاتِ.

* ويحسنُ بنا أنْ نتعرَّفَ معنى التَّربية ، ومعنى الثَّقافة ، إذ إنَّه من الخيرِ أنْ نعرفَ هذه الجوانبَ لنكونَ على بصيرةٍ وهدىً من أمرِنا.

* فالتَّربيةُ معناها في اللغةِ: الازديادُ والنّمو؛ أو التّنشئةُ والتّغذيةُ ويُقالُ:

«ربّى الوالدُ ابنَه بمعنى غذّاه وجعله ينمو أي حفظَه ورعَاه ونشّأَه»[١].

* وليستِ التّنشئةُ والتّغذيةُ عمليةً وعادةً تقتصرُ على الطّعام والشّرابِ ، بل هي عمليةٌ متكاملةُ الجوانبِ تشملُ جميعَ جوانبِ شخصيةِ الأطفالِ من النّاحيةِ الجسميّةِ والرُّوحيّةِ والعقليّةِ ، وهذا ما تشيرُ إليه معاني التّربيةِ في اللغةِ وغيرها.

* يقولُ د. عبّاس محجوب: «وتدورُ حكمةُ التّربيةِ في اللغةِ ، حولَ تنشئةِ الطّفْلِ مادّياً بتغذيتهِ ورعايتهِ جسميّاً وعقليّاً ، وبتزويدهِ من ضُروبِ المعرفةِ الإنسانيّةِ والثّقافيةِ البشريّةِ ، وتغذيتهِ روحياً بتزويدهِ بما يهذّبُ نفْسَه ويزكّيها ويسمو بها ، وقد وردتِ الكلمةُ في معانيها اللغويّة بمعنى الرّعايةِ والزّيادةِ والإصلاحِ والنَّشْأةِ والنّماءِ والكَمالِ»[٢].

* ويمكننا أنْ نقولَ الآن: «إنَّ التّربيةَ هي عمليّةٌ راقيةٌ ودقيقةٌ لبناءِ شخصيّاتِ الأطفالِ شيئاً فشيئاً إلى حدِّ التّمامِ والكَمالِ».

* قال مجاهدُ بنُ جَبْر ـ رحمه الله ـ: «الرّبانيّون هم الذين يربُّون النَّاسَ بصغارِ العلْمِ قبل كبارِه ، فهم أهلُ الأمْرِ والنّهي».

* لذا فإنَّ التّربيةَ أعمُّ وأشملُ من التّعليمِ ، لأنَّ التّعليمَ فرعٌ من التّربيةِ الكاملةِ ، والهدفُ من التّعليم إتقانُ فنٍّ ما أو عِلْمٍ ما أو حرفةٍ من الحرفِ. بيد أنَّ التّربيةَ ذات طابعٍ شمولي تهدفُ لتنميةِ جميعِ جوانبِ الإنسان وتهذّبها باعتدالٍ واتّزانٍ ، وهي عمليةٌ تحملُ سِمَةَ البقاءِ والاستمرارِ ، حيثُ تنتقلُ من جيلٍ إلى آخر ، ومن أمّةٍ إلى أمةٍ إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

* أمّا الثّقافةُ فلهَا مسَاحةٌ كبرىٰ في دواوينِ اللغةِ ، حيث تستعملُ في معانٍ كثيرة ، منها: الفطْنَةُ ، والفَهْمُ ، والظّفرُ والإدراكُ وسرعةُ التّعلّمِ ، والتّسويةُ ،

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٥) باختصار وانتقاء وتصرف.

(٢) انظر: أصول الفكر التّربوي في الإسلام (ص ١٥) طبعة دار ابن كثير الأولى بدمشق عام ١٩٨٧م. ولشدّة شغف العرب وخلفائهم بالتّربية والأدب ، يذكر الرّاغب الأصفهاني في «محاضرات الأدباء»: «أنَّ المنصورَ العبّاسي بعثَ إلى مَنْ في الحبس من بني أميّة مَنْ يقول لهم: ما أشدَّ ما مرّ بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: ما فقدنا من تأديب أولادنا وتربيتهم».

وتُستعملُ في المجازِ بمعنى التّهذيبِ والتّأديبِ وما شابه ذلك؛ وإنَّ جولةً مستفيضةً في كتبِ اللغةِ والقواميسِ بمختلفِ أنواعِها يتّضحُ لنا ما أوردناه من معانٍ سابقةٍ ، وقد يُوصَفُ الرَّجلُ ذو المعرفةِ الواسعةِ بأنَّه ثَقِفٌ لَقِفٌ رامٍ راوٍ ، وقد وصفتْ كتبُ السّيرةِ النّبويّة عبدَ الله بنَ أبي بكر الصِّدِّيق بأنَّه شاب ثَقِفٌ لَقِفٌ.

* والآن: «كيف نربّي أطفالَنا تربيةً ثقافيةً مناسبةً؟! ومَنِ الذي يؤمِّنُ للأطفالِ زادهُم الثَّقافيَ؟! وأيّ الزّادِ أزكىٰ وأنقىٰ وأبقىٰ؟».

* والجوابُ عن هذا يتلخَّصُ بقولنا: «إنَّ مرحلةَ الطُّفولةِ مرحلةٌ طويلةٌ وحَرِجةٌ ومهمّةٌ ، وتحتاجُ إلى رعايةٍ ممن حولنا من الأطفالِ ؛ لأنّهم يُولدون سُذَّجاً وهم مزوَّدون بِطَاقاتٍ وقُدُراتٍ تؤهّلُهم للتّفاعُل مع مجتمعهم. وعلى هذا ؛ فإنَّ المربّين إذا أحسنُوا إعدادَ الأطفالِ وبناءهم ، فإنَّ هؤلاء الأطفالَ سيكونون صُلَحاء نافعين في هذه الحياةِ ؛ إذ إنَّ الأطفالَ يتفاعلون بمبادىءِ المجتمعِ وقيَمِهِ ، وهذا هو في البدايةِ نواةُ التَّثْقيفِ ، فالأطفال يرتضعون أصولَ الثّقافةِ ، وهم في أَسِرَّةِ المَهْدِ لا يعقلون شيئاً ، ثمّ يرتشفونَها وهم في أحضانِ الأمّهاتِ ، ثمّ يشربونها عندما يبلغون سنَّ التّمييز ، ومن ثمّ تصبحُ مبادئهم التي يؤمنون بها ، ويواجهون من خلالها معتركَ الحياةِ».

* إنَّ مرحلةَ الطُّفولةِ هي أكثرُ مرونة لتلقّي الثّقافةِ من كافّةِ مراحلِ الحياةِ الأخرى ، لأنَّ الأطفالَ يولدون وهم بحاجةٍ ماسّةٍ لمعرفةِ أمورِ الحياةِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

* ويتلقّى الإنسانُ الثّقافةَ من المجتمعِ بعد والديهِ [١] ، فإذا كانتِ الثقافةُ

---

(١) ممّا لا ريبَ فيه أنَّ لتوجيه الوالدين وإرشادهما للأبناء أكبرَ الأثرِ في ثقافتهم ، وكلّما كانت العلاقةُ بين الآباء والأبناء سويةً ، ساعَدَ ذلك على بناء شخصيّتهم الثّقافية ، وحتّى صحتهم النّفسيّة ؛ وممّا لا شكَّ فيه أيضاً أنّه عندما يصبحُ الوالدان أكثر توافقاً وأقل انفعالية ؛ فإنَّ الأطفالَ يظهرون تحسّناً في ثقافتهم واستيعابهم ، وتختفي عندهم حدّة التوترات النّفسية التي يتعرضون لها.

مفيدةً هادفةً ، كانتِ الأجيالُ خيِّرةً ، وصاحبةَ خيراتٍ في جميعِ المجالات .

* إنَّ التّربيةَ الثّقافيةَ والفكريةَ في ضوءِ الإسلام وفي ضوءِ الدّراسات النّفسيّة الهادفة تسعى إلى تنمية ذكاءِ الأطفالِ ، وقدرتهم على التّفكير والنّظر ، وتنمية قدراتهم على التّصورِ والتّخيّلِ إلى جانب تقوية ذاكرتهم ، وإعطائهم القدرة على التّحليل ، حتى تثبت عقيدتهم بشكل صحيح من خلال التّوجيه الهادف ، والثّقافة النّظيفة الخالصة من الشّوائب .

* ومن المعلومِ أنَّ اللهَ عز وجل قد حبَا بني آدم مَلَكَاتٍ وقدراتٍ عقلية عظيمة كالذّكاء ، والقدرة على الحفظ والتّذكّر ، والإبداع ، ، الفهم ، وما شابه ذلك. وهذه القدرات ـ وإنْ كانت مكنونة في الأطفال عند ولادتهم ـ فإنّها في حاجةٍ إلى استخراجٍ وتنميةٍ وتربيةٍ وتوجيه ، وإذا لمْ يهتمَّ المربّون والآباءُ بهذه القُدراتِ العقليةَ وتنميتها بالأساليبِ التّربويةِ الصَّحيحةِ ، فإنَّها ستضعفُ ، أو ربما يأتي مَنْ يستغلّها في وجهةٍ شيطانية ، فتضلَّ وتنحرفَ .

* لهذا كلّه كان دورُ المربّين مهمّاً في استغلالِ هذه المِنَح الرّبانيةِ العظيمةِ التي أعطَاهَا الأطفالَ ، فعليهم أنْ يحسنوا تعليمهم وتثقيفهم وتنمية مواهبهم ، والمحافظة على طاقاتهم الفكرية وتوجيهها إلى الخير ، كما ينبغي على المربّين أن يصونوا الأطفال من التقليد الأعمى للحضارة المزيفة التي تصطاد ببريقها نفوس الأطفال والشّباب ، وكذلك عليهم ربط الماضي بالحاضر حتى يدرك الأطفال سناء تراثنا وقيمة علمائنا وجمال تاريخنا . .

* إنَّ في تاريخنا الإسلامي وقفاتٌ تربويّةٌ وثقافيّةٌ هادفةٌ ، جعلَتْ كثيراً من المربّين يخرّجون أطفالاً صاروا فيما بعد سادةَ الدّنيا ، وتربعوا قمّةَ السّيادة في دنيا السّادة. وقد تحدّثنا كثيراً في ثنايا هذا الكتابِ عن نبغاءِ النّابهين الذين عُني بهم المربّون ، وكان لهم صوتٌ مسموعٌ في دنيا العِلْمِ والمعرفةِ ، كما كان لهم آثارٌ محمودةٌ في قيادةِ دفّةِ المجتمعِ نحو ساحلِ الخيرِ والعَطَاءِ.

* * *

الفصلُ الثَّاني
مؤثّراتٌ في بناءِ ثقافةِ الأطفالِ

* ليست عمليةُ تثقيفِ الأطفالِ عمليةً سهلةَ المنالِ ، دانيةَ القطوفِ ، بل هي عمليةٌ دقيقةٌ شفّافةٌ تحتاجُ إلى كثيرٍ من مضاعفةِ الجهودِ لِنَقْلِ الثقافةِ إلى الأطفال ، وإلى الأجيالِ النَّاشئةِ ، وذلك بشكلٍ يتناسبُ مع مستواهم النَّفسيّ والعقليّ والاجتماعي .

* فمن المؤكّد أنَّ الأطفالَ يُولدون في عالَمٍ من العَلاماتِ والرُّموز التي ينبغي لهم أنْ يتمثّلُوها بسرعةٍ حتّى يكونوا قادرين على أنْ يندمجوا اندماجاً مُتَناغماً في المجتمعاتِ الإنسانيةِ التي ينتمون إليها .

* ويبدأ اكتسابُ اللغةِ (Language acquisition) لديهم منذُ الولادةِ بِفِعْلِ التّلقّي السَّمعي ، ويدومُ الحياة كلَّها .

* ويؤسّسُ الكلامُ صِلَةً بين الأطفال ومحيطهم ، ويجعلُهم يبلغون الفِكْرَ الذي يشاركُ فيه أفراد المجتمع بواسطة الأصوات المدركة بوصفها تعاقباً مجهوراً ذا دلالة ، وليس مجموعاً من الضّجّات الخاصة . فتعلُّم الكلام إنّما هو معرفة العلاقات الاصطلاحية التي تقيمها الأصوات مع المفاهيم والأشياء .

* وتعلُّمُ الكلامِ إنَّما هو تعلّمُ العالَم الاجتماعي ، إذ ليس في عالَم البشر شيء لا اسم له ، فكل شيء واقع يمكننا أنْ نسمّيه .

* ويتعلَّمُ الطِّفْلُ الكلامَ والحوارَ منذ ولادته ، ونحنُ نعلمُ أنَّه ليس للرَّضيع في البداية سوى الصُّراخِ والبكاءِ والأصوات والأوضاع والإيماء للتَّعبير عن حالاتهِ الوجدانيةِ ، ثم تبدأ الثّرثرةُ الطّفولية منذ الشّهر الثّالث ، ثم يكتسب

الطفلُ بعضَ الألفاظِ والتّعابيرِ فيلفظها ولا يفهمُ معناها أحياناً ، ثمّ يلفظُ جُمَلاً صغيرة ثم يستقيمُ لسانُهُ بعد السَّنة الرَّابعة.

* ويمنحُ الكلامُ الأطفالَ لذّةً خاصة ، إذ بفضل اللغة وما اكتسبوه من الثقافة يستطيعون أن يصلوا إلى أهدافهم التي يبغونها ، وبالتّالي تكون اللغة أساس الحياة الاجتماعية ، والأداة الأساسية للفكر والثّقافة.

* وهناك عواملُ كثيرةٌ تؤثّر في ثقافةِ الأطفالِ وتكوينهم النَّفسي في عالمنا المعاصِر ، منها: الأبوان والإخوةُ الكبارُ ، المسجدُ وحلقاتُ العِلْم ، والمدارسُ ودورُ التَّعليم ، ناهيك بوسائلِ الإعلام المتنوّعةِ الكثيرة التي قصَّرتِ المسافاتِ والزّمنَ بشكلٍ ملحوظٍ ، وبعضُها خلَطَ الخبيثَ بالطَّيِّبِ عنْ عمْدٍ ، وسنتحدثُ عنها مفصَّلةً وعن محاسِنها ومساوئِها في فقْرةٍ منفصلةٍ بإذنِ اللهِ؛ حيثُ إنَّ وسائلَ الإعلامِ ـ في عالِمنا المعاصرِ ـ من أهمّ العَواملِ البارزة في بناءِ ثقافةِ الأطفالِ ، وبناء شخصيّاتهم وسلوكهم.

* أمّا العواملُ الأخرىٰ السَّابقةُ ، فنحنُ مرسلو القولِ فيها ، وباسطو الأمثلةِ والتّوجيهاتِ من خلالها ، ليكون المربّون على بصيرةٍ من أمرِهم في تثقيفِ الأطفالِ وإثراء نفسيّاتهم بما يفيدهم.

أولاً: الأبَـوانِ والإخْـوَةُ الكِـبَـارُ:

* يتعاونُ الأبوان ومعهما الإخوةُ الكبارُ في مضمارِ التَّربيةِ الثَّقافيّةِ للأطفالِ ، وكلُّ واحدٍ منْ هؤلاءِ لهُ دورهُ المهمُّ في بناءِ صَرْحِ الثَّقافةِ الطُّفولي وتهذيبِهِ ، وبالتَّالي يشعرُ الأطفالُ بأنّهم موضعُ اهتمامٍ وعنايةٍ ممّن يعيشون معهم داخلَ الأسرةِ.

* وللأبوين دورٌ مهمٌّ في تهذيبِ الأطفالِ ، وتعويدِهم العاداتِ المفيدةَ ، وفي مقدمتها: التّفكيرُ والتّأمُّلُ؛ وتزويدهم بمعارفَ ومعلوماتٍ مفيدةٍ تؤدّي إلى نمو عقولهم ونضجها ، فالأطفالُ ـ بشكل عام ـ لديهم قابليةٌ شديدةٌ للتّعلُّمِ في الصِّغر.

* والأطفالُ يعتقدون عادةً بوالديهم في سلوكهم ، وفي تصرُّفاتهم ، فإن

كان سلوكُهم على المنهجِ الإسلامي والأخلاقي تأثَّر الأطفالُ به ، وقلَّدوا الأبوين فيه ، وكان ذلك من عوامل تكوين معالم شخصيّتهم ومعانيها الإسلاميّة .

* وإذا كانت الأمُّ تنشرُ الحبَّ وتُعلِّمُهُ للأطْفَالِ ، فإنَّ الأبَ يحوزُ السُّلْطانَ ويمثّلُ القانون. فالاثنان يتكاملان تكاملاً ناجحاً ، وغيابُ أحدهما يُحْتَملُ أنْ يزرعَ الاضطرابَ في التّوازنِ الوجداني لدى الطّفْل ، وخصوصاً غياب الأم .

* وإذا كان الأبُ قادراً وحده على أنْ يحافظ على غنى شخصيّة أطفاله ويفتّحها على الثّقافةِ النّافعة ، فإنَّ غيابه مُؤْذٍ لهم إلى حدٍّ كبير .

* إنَّ الدّور التربوي الثّقافي للأب يبدأ مبكّراً جداً ولا يتوقّف أبداً . ولهذا السَّبب كانت صورته التي يقدّمها لأطفالهِ ذات أهمية رئيسة ، إذ إنَّ الأطفال يتسلّحون بقدرٍ كبير من المعرفة والتّجارب والعلم والمعرفة . وهذا كلّه استقوه من أبيهم المثقّف الواعي .

* وقد تنبَّهَ علماءُ المُسلمينَ وأدباؤُهم منذ قرونٍ خلَتْ إلى هذهِ الظّاهرةِ ، ومنهم أبو الحسن الماورديّ المتوفىٰ سنة (٤٥٠ هـ) فقد قال ما مُفاده: «مِنْ أسبابِ التّقصيرِ في طلبِ العلمِ أنْ يَغْفُلَ عن التّعلُّم في الصِّغر ، ثمّ يشتغلَ به في الكِبَر. . .»[١] ويقول أيضاً: «كان التّعلُّم في الصِّغرِ أحْمَدُ»[١] .

* ونقل الماورديّ عن سيّدنا عليٍّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: «قَلْبُ الحَدثِ كالأراضِي الخاليةِ ، ما أُلقِيَ فيها من شيءٍ قبلَتْه؛ وإنّما كان كذلك، لأنَّ الصَّغيرَ أفرغُ قلْباً، وأقلُّ شغلاً ، وأيسرُ تبذّلاً ، وأكثر تواضعاً»[٢] .

* وينبغي أنْ يُعَلّمَ الأبوانِ الأطفالَ القرآنَ الكريمَ ، وأنْ يجعلا منه الموردَ الأهنىٰ والينبوعَ الثّرَّ ، لأنَّ الأطفالَ إذا تربَّوا على مائدةِ القُرآنِ الكريم ، وتثقّفُوا على آدابه صار هو الأساسُ المتينُ لكلِّ علْمٍ بعده ، وهو أيضاً القاعدةُ المتينةُ الصُّلْبةُ التي تُبنى عليها العلومُ فيما بعد .

* وقد أشار كثيرٌ من مفكّري المسلمين وعلمائِهم إلى تثقيفِ الأطفالِ

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين (ص ٧٤) طبعة دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٥م.

(٢) المصدر السّابق عينه.

وإثرائهم بالقُرآن الكريم ، وأشاروا إلى أنَّ الوالدين هما المسؤولان عن ذلك ، وكذلك البيتُ المسلمُ الذي يضمُّ الإخوةَ الكبارَ ، فجميع هؤلاء مسؤولون عن تعليمِ الوِلْدانَ كتابَ الله عزّ وجلّ.

* يقول ابن خلدون في «مقدمته»: «اعلمْ أنَّ تعليمَ الوِلْدان للقرآنِ شعارُ الدِّينِ أخذَ به أهلُ الملَّةِ ، ودرجوا عليه في جميعِ أمصارِهم ، لم يسبقْ فيه إلىٰ القُلُوب من رسوخِ الإيمانِ وعقائده من آياتِ القرآنِ ، وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآنُ أصلَ التَّعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعْدُ منَ الملَكات ، وسبب ذلكَ أنَّ التّعلُّمَ في الصِّغر أشدُّ رسُوخاً ، وهو أصلٌ لما بعده ، لأنَّ السَّابقَ الأوّلَ للقلوبِ كالأساسِ للملَكات ، وعلى الأساسِ وأساليبهِ يكون حالُ مَنْ يُبْنَى عليه»[(١)].

* ويوضحُ أبو حامد الغزاليّ ـ رحمه الله ـ العلومَ والثّقافات التي ينبغي تعليمَها للأطفال ، وفي أوّلها ومقدمتها القُرآن الكريم ، كما ينصحُ بإبعادِ الأطفالِ عن علومٍ فارغةٍ ، فيقول ما ملخّصهُ ومفادُهُ في شأن تثقيفِ الأطفالِ وتعليمهم: «ثمَّ يُشغلُ الطّفلُ في المكتبِ ، فيتعلّمُ القرآنَ العظيمَ ، وأحاديثَ الأخبارِ ، وحكاياتِ الأبرارِ وأحوالهم كيما ينغرسَ في نفسه حبُّ الأولياءِ والصَّالحين ، ويُصانُ عن الأشعارِ التي تبوحُ بذكرِ العشّاق وأهْليهم ، ويُحفَظُ من مخالطةِ الذين يزعمون أنَّ ذلك من الظّرفِ ، ومن رقّةِ الطَّبْع ، فإنَّ ذلك ـ لا شكَّ ـ يغرسُ في نفوسِ الأطفالِ بذورَ العَفَنِ وجذورَ الفَسَادِ»[(٢)].

* أمّا ابنُ سينا فينصحُ في كتاب «السِّياسة» أنْ يبدأ الوالدان بتعليمِ الطِّفْلِ القُرآنَ الكريمَ عندما يتفتحُ عقْلُه وجسمهُ ، حتّى يرضعَ منذ نعومةِ أظفارِه رحيقَ اللغةِ العربيّةِ الأصيلةِ الثَّابتةِ ، ومن ثمّ ترسخُ في نفسهِ معالمُ الإيمانِ.

* إنَّ الأبوين مكلّفان بتعليمِ الأطفالِ كتابَ اللهِ[(٣)]، والحديثَ الشَّريفَ ،

---

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون (ص ٥٣٧) طبعة دار القلم ببيروت عام ١٩٧٨م.

(٢) انظر : المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٥٢) بشيء من التصرف.

(٣) نذكّرُ الأبوَيْن مرةً أخرىٰ ونقول: «يجبُ على الأبوين أنْ يعلّما أطفالهما الذّكور والإناث =

والتَّفسيرَ ، والفقْهَ ، وسيرَ الصُّلحاء وقَصصَهم ، وكذلكَ العلومُ الأخرى التي تحتاجُها الأمّة المسلمةُ في حياتِها ومعاشِها من طبٍّ وحسَابٍ وفَلَكٍ وهندساتٍ وما شابه ذلك لتستقيمَ أمورُ الحياةِ لهؤلاءِ الأطفالِ ، إذ من حقِّهم ذلك ، بل إنّ من حقِّ الولدِ على أبيهِ أنْ يعلّمَه الكتابةَ والقراءةَ وينفقَ عليهِ في سبيلِ ذلكَ.

* ويرى «القابسيُّ» أنّه لا بأسَ في طلبِ الغاياتِ الدّنيويةِ مع الدِّينيّةِ ، لأنَّ الدِّيْنَ قد أقرَّهَا وحضَّ عليها ، وبالتَّالي يكونُ الأطفالُ قرّةَ أعينٍ لأهلِهم ، يقول القابسيُّ: «فمن رغبَ إلى ربِّه أنْ يجعلَ له من ذريّته قرّة عين ، لم يبخلْ على ولدِه ، بما ينفقُ عليه في تعليمهِ القُرآن ، فلعلَّ الوالدَ إذا أنفقَ مالَه عليه في تعليمهِ القرآن ، أنْ يكونَ من السَّابقين بالخيراتِ بإذن الله ، والذي يعلّمُ ولده فيحسنُ تعليمَه ، ويؤدّبُه فيحسنُ تأديبَه ، فقد عملَ في ولدِه عملاً حَسناً ، يُرجىٰ له من تضعيفِ الأجرِ فيه ، كما قال اللهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]»[١].

* ونعى ابنُ قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله ـ الوالدَين اللذَيْن يهملان تثقيفَ الطِّفْلِ ، وخصَّ الآباءَ المهملين لأبناءِهم فقال: «فَمَنْ أهملَ تعليمَ ولدهِ ما ينفعُه ، وتركَهُ سدىً ، فقد أساءَ إليهِ غايةَ الإساءةِ ، وأكثرُ الأولادِ إنَّما جاء فَسَادهُم من قِبَلِ الآباءِ وإهمالهم لهم ، وترك تعليمهم فرائضَ الدِّين وسُننه ، فأضاعوهم صغاراً ، فلمْ ينتفعوا بأنفسِهم ، ولم ينفعوا آباءهم كباراً»[٢].

* إذن ، للوالدين تأثيرٌ عظيمٌ في أطفالهما في أمورِ العقيدةِ والدّينِ ولا سيّما في سنواتهم الأولى من عمرهم ، حتى يصلَ تأثيرهما فيهم إلىٰ تحويلهم عن الفطرة التي خلقهم اللهُ عزَّ وجلَّ عليها ، وهي كونُ فطرتهم مستعدّةٌ لقبولِ الإسلامِ ، ومقتضية لمعرفته ومحبّته ، فالحديثُ الصّحيحُ في

= القرآنَ الكريمَ قراءةً فيه ، وحفظاً له ، أو لبعضه ، وتفسيراً لمعانيه ، فهو أصْلُ الإسلام ومرجع الدِّين».

(١) انظر: التربية في الإسلام (ص ١٢٦ و١٢٧) لأحمد فؤاد الأهواني ، طبعة دار المعارف بمصر.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود (ص ٢٢٩) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ دمشق ١٩٧١م.

البخاري يُبيِّنُ ذلك ، فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة. . .». والمرادُ بالفطرة في هذا الحديثِ: الإسلام. وهو المعروفُ عند عامّة السَّلف. والمعنى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد خَلَقَ قلوبَ بني آدم مؤهّلة لقبول الحقّ كما خلقَ أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئياتِ والمسموعاتِ ، فما دامتْ باقيةً على ذلك القبولِ وتلك الأهليةِ أدركتِ الحقّ ، ودين الإسلام هو الدّين الحقّ.

* وإذا كان تأثيرُ الأبوين في أطفالهما إلى الحدّ الذي جاء في الحديثِ الشّريفِ ، وهو تحويلُهم عن مقتضى فطرتهم وما تستلزمُهُ من معرفةِ الإسلامِ ومحبّته ، فمن البدهي أنْ يكون تأثير الأبوين في أطفالهم في معاني الإسلام وترسيخها في نفوسهم وتبصيرهم بها ، وأن يكونَ تأثيرهما في هذا المجالِ وفي هذا الاتّجاهِ أَعظمَ بكثيرٍ من تأثيرهما بتحويلهم إلى الكُفْرِ من يهوديّة أو نصرانيّة أو مجوسيّة ، لأنَّ الإسلامَ هو ما تقتضيه فطرةُ كلِّ مولود ، وما تستلزمُهُ. ومن هنا كانت مسؤوليةُ الأبوين عظيمةً إذا قصَّرا في تعليم أطفالهما معاني الإسلام وأحكامه وعقيدته ، وتركوهم فريسة للأفكار الباطلة.

* فالتَّوجيهُ السَّليمُ المستقيمُ للأطفالِ من قبلِ الأبوين يجعلُ منَ النَّشْء أعضاءَ صالِحيْن لبناءِ الكونِ وعمارتِه ، وكم يربحُ مجتمعُ المسلمين شخصيّاتٍ إسلاميةً وعبقرياتٍ فذّةً إذا استطاعَ الوالدان توجيهَها الوجهةَ الصَّحيحة!! وكم من مبدع وعبقري كان وراءه أبواه يُرشدانِه إلى سُبُلِ الإبداعِ ، وتلمّسِ الحَسَناتِ والخيراتِ!!

* فعلى الوالدين إذاً تقعُ المسؤوليّةُ الكبرى في تثقيفِ أطفالهما ، فهما راعيا أفرادِ البيت ، وهما اللذان يسقيانِ هذهِ الغِراسَ من نميرِ الثّقافةِ العَذْبِ؛ ولذا فإننا نجدُ في الهدي النّبويّ مصداقَ ذلك ، فيما جاءَ في الصَّحيحَيْن وغيرهما عن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ألا كلّكم راعٍ ، وكلّكُم مسؤولٌ عن رعيّته ، ألا فالأميرُ الذي على النّاسِ راعٍ عليهم ومسؤولٌ عنهم ، والرَّجُل راعٍ على أهلِ بيتِهِ ومسؤولٌ عنهم ، وامرأةُ الرَّجُل راعيةٌ على بيتِ زوجها وولدِهِ ومسؤولةٌ عنهم ، وعبدُ الرَّجلِ راعٍ على مالِ سيِّدِهِ

ومسؤولٌ عنه ، ألا فكلّكم راعٍ وكلّكُم مسؤولٌ»(١) .

* ولا شكَّ في أنَّ الأطفالَ يتأثّرون بثقافةِ آبائِهم ، وأنَّ الأبوين هُما اللذان يحثَّان على الثَّقافةِ الصَّحيحةِ ، فهما المثَلُ الأعلىٰ لأطفالِهما ، وليس عجيباً أنْ ينشأَ الأطفالُ على التّربيةِ الأُسريّةِ ، فالوالدان يتمكّنان من تقويةِ روحِ المعرفة عند الأطفالِ ، ويقوّيانِ ما صلحَ منَ المعرفةِ والعِلْم عندهم .

* وفي اعتقادنا أنَّ مجتمعَ الأطفالِ في كُلّ أسرةٍ ، ينقلُ مشاهداتِهِ التي يراها منْ والديهِ أو من إخوتهِ الكبارِ ضمنَ الأسرةِ ، لأنَّ هذا المجتمعَ الأسريَّ هو الوعاءُ الثَّقافيُ الأوّلُ في تربيةِ الأطفالِ وصقْلِهم ثقافيّاً ، وقد لا يستطيعُ أي مكان أُعِدَّ للتّربيةِ أنْ يسدَّ مسدَّ التَّربية الأبويَّةِ ، وخصوصاً في توجيهِ الأطفالِ وهم في سِنّ مبكّرةٍ .

* ومن الملاحظِ لدى الباحثين والمهتمّين بالتّربيةِ أنَّ معظمَ الأطفالِ في بداياتِ طفولتهم الأولى يتلقّفون حركاتِ الأبوين وكلماتهم وهمساتِهم ، بل إنّ كثيراً منهم يترصّدون ويرصدون كلَّ حركةٍ تصدرُ عن الأبوين أو الكبارِ ضمنَ أُسَرِهم ومحيطِهم ، ومن ثمَّ يبدأُ هؤلاء بتقليدِ ومحاكاةِ ما سمعُوه وما رأوه ، قال الشاعر :

---

(١) انظر مسند أبي يعلى الموصلي (١٠/ ١٩٩) حديث رقم (٥٨٣١) ، والحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما ، وكذلك أحمد (٢/ ٥ و٥٤ و١٢١) ، والترمذي برقم (١٧٠٥) ، وقال : «وحديثُ ابن عمر حديث حسن صحيح» .
و«الرّاعي» : هو الحافظُ المؤتمنُ الملتزمُ صلاحَ وإصلاحَ ما قامَ عليه وما هو تحت نظره لأنّه مطالبٌ بالعدلِ فيه ، والقيام بمصالحه كلّها ، وبما يتعلقُ بأمرِ دينه ودنياه .
وقد اشتركَ الأميرُ والرجلُ والمرأةُ والعبدُ الخادمُ في الوصفِ بالرّاعي مع اختلافِ رعاية كلّ واحد منهم عن الآخر .
فرعايةُ الأميرِ حياطةُ الشريعةِ ، وإقامةُ العدلِ ، والسَّهرُ على راحةِ الأمة .
ورعايةُ الرجلِ أهلَه سياستُه لأمرهم وإيصالهم إلى كلّ ما يرضي الله عز وجل .
ورعايةُ المرأةِ تدبير أمرِ بيتها وأولادها ورعايتهم ليكونوا صُلحاء الأمة .
ورعايةُ الخادم حفظ ما تحت يده .
وهنا يُظهر الحديثُ عمقَ المسؤوليّة الإسلامية واتّساعها (مسند أبي يعلى : ١/ ٢٠٠ و٢٠١) بتصرف .

مَشَى السَّرطانُ يَوْماً بِاعْوِجَاجٍ ... فَقَلَّدَ شَكْلَ مشْيَتِهِ بَنُوهُ
فَقَالَ عَلامَ تَنْحرِفُونَ قَالُوا ... بَدَأْتَ بِهِ وَنَحْنُ مُقَلِّدوهُ
وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَىٰ مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ
وَمَا دَانَ الفَتَى بِحِجىً وَلكِنْ ... يُعَوِّدُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ

* فالأبوان إذاً يُشْرِبان أطفالَهما مبادئَ الثَّقافةِ السَّليمةِ عن طريقِ التَّوجيهِ والتَّلقين ، وإلاّ كان الأطفالُ هملاً لا قيمة لهم ، وكان لهم سوءُ العاقبةِ في الدّنيا والآخرةِ بسببِ إهمالِ الأبوين.

* ونؤكّدُ على أنَّ صلاحَ الأبوين يجعلُ منَ الأطفالِ أفراداً صالحين أيضاً ، فالأبوان اللذان يَعيَانِ ما للثّقافةِ الإسلاميةِ من تأثيرٍ إيجابي علىٰ بنيهما ، يحرصان كُلَّ الحرصِ على رسمِ كلّ معالِم الثّقافةِ الإسلاميّةِ في نفوسِ النَّشء بطريقةٍ محبَّبة ، فأطفالُهما في صغَرِهم صفحاتٌ بِيْضٌ شفّافةٌ تتأثّرُ بما يُرسَمُ عليها ، وتؤمنُ وتصدّقُ بما تسمعُه منَ الأبوَيْن.

* وأودُّ أنْ أسديَ النُّصحَ إلىٰ الآباءِ في عالمنا المُعاصِرِ بألاّ يتخلّوا عن دورهم الثَّقافي تجاهَ أطفالِهم ، لا سيّما أنَّ عواملَ ثقافيّة أخرى تشاركُهم في بذْرِ الثَّقافةِ ، ومن هذه الوسائلِ: المدرسةُ ، الإعلامُ بأنواعهِ وألوانهِ وأشكالِهِ ، والشّارعُ ، والأصدقاءُ ، وغيرُ ذلك.

* وقد لاحظتُ تدهورَ ثقافةِ ووعي كثيرٍ من الأطفالِ في كثيرٍ من المجتمعاتِ[١] ، في كثيرٍ من المُدنِ والعواصم ، ولعلَّ مردَّ ذلك يعودُ إلى الأبوين عن دورِهما المهمّ في بناءِ ثقافةِ أطفالِهما ، أو تقصيرهما بحجّةٍ واهيةٍ

---

(١) هناك تراجيدياتٌ عائليةٌ لا يلاحظُها كثيرٌ من النَّاس ، ومنها أوامرُ الأبوين المتناقضة أمامَ الأطفالِ ، وهذا يُشعرهُم بعدمِ الاهتمامِ بهم ، أمّا إذا كان الأبوان متّزنَيْن فالأمرُ يختلفُ تماماً ، ويكونُ الأطفالُ أكثرَ نجاحاً. . . . . فقد تشكّلَتْ مجموعاتٌ متخصّصةٌ في هذا المجالِ في جامعةِ واشنطن برئاسة «كارول هوفين» (Carole Hooven) و«جون جوتمان» (John Gottman) ، وقامت بتحليلٍ دقيق لتفاعلات العلاقة بين الأزواج ، وكيف يتعاملون مع أطفالهم ، وجدوا أنَّ الأبوين الأكثر كفاءةً وانسجاماً كانا أكثرَ فعاليةً في مساعدةِ أطفالهما في مختلفِ أحوالهما المقلّبة ، وخصوصاً النّاحية الثّقافية.

مفادها أنَّ عواملَ التَّثقيف تملأُ الرَّحبَ وكُلَّ مكانٍ وهي مُيَسَّرة ، ونَسِيَا أنَّ هذا هو الخسْرَانُ المُبينُ ، فقد يضيعُ الأطفالُ بين غاباتِ الإعلامِ المتصارعة وأدغالِ الثَّقافاتِ الضَّبابيةِ الهشَّةِ القادمةِ من بيئةٍ لا تتناسبُ مع بيئتنا الإسلاميّة ذات النَّقاءِ ، وذات الصَّفاءِ ، والبناءِ والنَّماءِ والعَطَاءِ.

* وممّا زادَ الطِّينَ بلَّة ، والأمرَ بلاءً وعلّةً ، ما نراهُ من تلاشي دور الأمّ وانعدامهِ من البيتِ ، وانشغالِ الأبِ بأعمالهِ وتجارتهِ أو حِلّه وترحالهِ ، وتخلّي كلٍّ واحدٍ منهما عن دورهِ التَّربويّ والتّوجيهيّ ، وعندها ينعكسُ هذا الفراغُ على نفوسِ الأطفالِ الذين باتُوا كالأيتام في الصَّحراء:

لَيْسَ اليتيمُ مَنِ انتهى أبواهُ مِنْ ... هَمِّ الحَياةِ وخَلَّفَاهُ ذَلِيْلا
إنَّ اليتيمَ هُوَ الذي تَلْقَىٰ لَهُ ... أُمّاً تخلَّتْ أوْ أباً مَشْغُولا

* إنَّ الأبوين اللذين يهتمّان بتربيةِ أطفالهما وتثقيفهما ، يجنيان قطوفَ ما أحسناهُ في تعليمهم ، وتقرُّ عيناهما بهم ويشعران براحاتِ السَّعادة تمسحُ وجدانهما وتداعبُ نفسَيْهما؛ وترفرفُ على قلْبَيْهِما.

* وقد اهتمَّ كثيرٌ من سلفِنا الصَّالح في تثقيفِ أطفالِهم ، فخلَّدَهم التَّاريخُ بأحرفٍ من المسْكِ الأذْفَر ، فكلّما قرأنا أخبارهم ، شعرنا بأنفاسِ العِطْرِ تملأُ دنيانا ونفوسنا ، ومن ذلك ما ذكروا قصَّة الغُلامِ المثقّفِ أمامَ عمرَ بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فقالُوا ما مفادُه: «عندما أفضتِ الخلافةُ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيز ـ رحمه اللهُ ـ قدمتْ عليه الوفودُ منْ كلّ جهةٍ ، وكان فيمن قدمَ عليه وفدُ الحجازيين ، فاختاروا من بينهم غُلاماً صغيراً لم يشبَّ عن الطَّوقِ ، وقدَّمُوه عليهم ليتكلَّمَ أمامَ الخليفةِ عمر ، فقامَ الغُلامُ ، ولما بدأ يتكلّمُ نظرَ إليه عمرُ فرآه صغيراً فقال له: مهلاً يا غلامُ ، اجلسْ وليتكلّمْ مَنْ هو أسنُّ منك ، فهو أولىٰ بالكَلامِ في هذا المقام.

فقال الغلامُ بقلبٍ ثابتٍ وعقلٍ واعٍ وأدبٍ جمّ: مهلاً يا أميرَ المؤمنين ، إنّما المرءُ بأصغريهِ: قلبه ولسانه ، فإذا منَحَ اللهُ العبدَ لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجادَ له الحِلْية ، واستحقَّ الكَلام.

يا أميرَ المؤمنين ، لو كان التَّقدُّمُ بالسِّنِّ لَكان في هذه الأمّةِ من هو أسنُّ منكَ ، وأحقُّ منكَ بمجلسكَ هذا أيّدكَ اللهُ .

فسُرَّ عمرُ منه وأعجبَهُ كلامه فقال له : باركَ اللهُ فيك من غلامٍ ، تكلّمْ رعاكَ اللهُ .

قال الغلامُ : نعم يا أميرَ المؤمنين ، نحنُ وفودُ التّهنئةِ لا وفودُ المرزئة ، قدمْنَا إليك من بلدنا ، نحمدُ الله الذي مَنَّ بك علينا ، لم يخرجْنا إليك رغبةَ ولا رهبةَ ، أمّا الرّغبةُ فقد أتانا منكَ إلى بلدنا ، وأمّا الرَّهْبةُ فقد أمّننا اللهُ بعدلكَ منْ جورِك .

فقال عمر : عِظْنا يا غلام وأوجزْ .

قال : نعم يا أميرَ المؤمنين ، إنّ أناساً من النَّاس غرّهم حلْمُ اللهِ عنهم ، وطولُ أملِهم ، وحسنُ ثناءِ النَّاس عليهم ، فلا يغرنّك حلمُ الله عنكَ ، وطولُ أملكَ ، وحسنُ ثناءِ النَّاسِ عليك ، فتَزِلَّ قدمُك .

فنظرَ عمرُ في سنِّ الغُلام ، فإذا هو قد أتتْ عليه بضع عشْرة سنةً ، فأنشأَ عمرُ يقول :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المرءُ يُولَدُ عَالماً ... ولَيْس أخو عِلْمٍ كَمنْ هو جَاهلُ
فإنَّ كَبيرَ القَومِ لا عِلْم عنده ... صَغيرٌ إذا التفَّتْ عليهِ المحَافِلُ»[1]

* إنّ هذه القصّةَ تدلّنا على أنَّ الثّقافة تجعلُ المرءَ يتصدّرُ المجالسَ ، وإنْ لم يكنْ كبيراً في السِّنِّ ، كما تدلُ على عنايةِ أبويهِ بتهذيبهِ وتعليمهِ :

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمُو كَواحدٍ ... وَوَاحِدٌ كالأَلْفِ إنْ أَمْرٌ عَنا

* ومن الرَّصيد الثَّقافيّ والأدبيّ للأطفال ، ما تُطالعنا به كتبُ الأسمارِ والأخبارِ عن قصّةِ الصِّبيانِ الثَّلاثة الذين خالفوا أَمْرَ الحجّاج بن يوسُف في العراقِ ، فنجوا بحُسنِ ثقافتِهم ، وجمالِ خواطرِهم ، وكمالِ حصافتِهم ، ترى كيف نجا هؤلاء الصّبيان المثقفون؟!

---

(١) انظر : مروج الذهب (٣/ ١٩٧) بتصرف يسير .

* تقول القصةُ ما محصّله وملخّصُهُ: «عندما ولي الحجاجُ بنُ يوسفَ الثّقفيُّ العراقَ ، أمر صاحبَ حراستِه أنْ يطوفَ بالليلِ ، فَمَنْ وجدَهُ بعد العِشَاءِ ضربَ عنقَه ، فطافَ ذات ليلةٍ من الليالي فوجدَ ثلاثةَ صبيانٍ ، فأحاطَ بهم مع جنوده ، وقال لهم: ويحكم ، مَنْ أنتم حتّى خالفتم أمْرَ الحجّاج؟! فانبرىٰ الأوّلُ منهم وأنشد قائلاً:

أَنَا ابنُ مَنْ دانَتِ الرّقابُ له ... ما بينَ مَخزُومِها وهاشِمِها
تأتي إليهِ الرِّقابُ صَاغِرةً ... يأخذُ مِنْ مَالِها ومن دَمِها

فأمسكَ عن قتلهِ وأوجسَ في نفسه خيفةً وقال: لعلّهُ من أقاربِ الأمير. ثمّ تقدمَ الثّاني وقال:

أنا ابنُ الذي لا يُنزِلُ الدَّهْرَ قِدْرهُ ... وإنْ نزلَتْ يوماً فَسوفَ تَعُودُ
ترى النَّاسَ أفواجاً إلى ضَوءِ نارِهِ ... فمنْهُم قيامٌ حَولَها وقُعودُ

فأمسكَ عن قتلهِ وقال: لعلّه من أشرافِ العرب. وأمّا الثّالثُ فإنّه أنشدَ قائلاً:

أنَا ابنُ الذي خَاضَ الصُّفُوفَ بعَزْمِهِ ... وقوَّمَها بِالسَّيفِ حتّى استقَامَتِ
رَكَابَاهُ لا تَنْفَكُّ رِجْلاهُ عَنْهُمَا ... إذا الخيْلُ في يومِ الكَريْهةِ وَلّتِ

فأَمْسَكَ عن قتلهِ وقال: لعلّهُ من شجعانِ العرب.

ولما أصبحَ الصَّباحُ ، رفعَ أمرهم إلى الحجّاج بن يُوسَف ، فأحضرهم ، وكشفَ عن حالِهم وخَبرَ أحوالَهم ، فإذا الأوّلُ ابنُ حجّامٍ ، والثّاني ابنُ فوّالٍ ، والثّالثُ ابنُ حائك. فتعجَّبَ من أمرهم ومن فصاحتِهم وبلاغتِهم ، وقال لجلسائِه: علِّمُوا أولادَكم الأدبَ ، فو اللهِ لولا فصاحتُهم لضربتُ أعناقَهم. ثم إنّه أطلقهم وطفق ينشد:

كُنِ ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ أدباً ... يغنيكَ محمُودهُ عنِ النَّسبِ
إنَّ الفتى مَنْ يَقُولُ ها أنَا ذا ... لَيْسَ الفتى مَنْ يَقولُ كان أبي»(١)

---

(١) انظر كتاب: نوادر الخلفاء المسمى: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس (ص ٧٩ و٨٠) طبعة دار الآفاق بمصر ١٩٩٨م ونحن بدورنا نشكُّ في صحة هذه القصةِ ونحسب أنّها مصنوعة موضوعة ؛ ولكنا أوردناها لأنها تشير إلى العناية في تثقيف الأطفال والاهتمام بهم. =

* وممّا ينبغي أنْ يعيَ له الأبوان في تثقيفِ أطفالِهم ، ما نجدُهُ ضرورياً في أيّامنا هذه ، وهو اختيارُ الأصدقاء الصَّالحين لهم ، فالمرءُ قرينُ المرءِ . وربّما يكتسبُ المرءُ من أصدقائهِ كثيراً من العاداتِ والأخلاقِ والكلامِ ، وقد أشارَ الإمامُ الغزاليّ قديماً إلى هذه النَّاحيةِ التَّربويةِ فقال: «ويمنعُ ـ يعني الطّفل ـ من لغوِ الكلامِ وفحْشِهِ ، ومنَ اللعنِ والسَّبِّ ، ومخالطةِ من يجري على لسانهِ شيءٌ من ذلك ، فإنَّ ذلكَ يسري لا محالةَ منَ القُرناءِ السُّوءِ ، وأصلُ تأديبِ الصِّبيانِ الحفظُ من قرناءِ السُّوءِ»(١).

* وقول الغزاليّ هذا قد استقاهُ من الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ ، الذي أخرجه الترمذي عن رسولِ الله ﷺ: «المرءُ على دينِ خليلهِ ، فلينظرْ أحدُكم مَنْ يُخالِل»(٢).

* وكذلك من الحديثِ النّبويّ الشَّهير: «إنَّما مثَلُ الجليسِ الصَّالح والجليسِ السُّوء ، كحاملِ المسْكِ ونافخِ الكِيْرِ ، فحاملُ المِسْك: إما أنْ يُحذيكَ ، وإمّا أنْ تبتاعَ منه ، وإما أن تجدَ منه ريحاً طيّبة ، ونافخُ الكير: إمّا أنْ يحرقَ ثيابك ، وإمّا أنْ تجدَ منه ريحاً خبيثة»(٣).

* ومن هذا المبدأ الواضح ، يجبُ على الأبوين اختيارُ صالحي الأصدقاء لأطْفَالِهم(٤)، والتّعرف عليهم ، ومعرفة مدخلهم ومخرجِهم ، وأجوائِهم وبيئتهم وتربيتهم وسلوكِهم ، فإذا تنبّه الأبوان إلى هذه النَّاحية كسبا الأطفالَ ، وصانوهم عن الانحرافِ؛ وبالتّالي عندما يكبرُ الأطفالُ يعرفون فضْلَ آبائِهم وأمّهاتِهم في هذا المضمارِ خاصَّة ، إذ منحهم الأبوان محضَ الودّ . وكانا ساهِرَيْن على راحتِهم عندها يقولون مردّدين دائماً قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٧٣).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٠٠).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٢١٠١)؛ ومسلم برقم (٢٦٢٨).
(٤) ولله در الشاعر إذ قال منذ قديم الزّمان:

عنِ المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قرينهِ ... فكلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يقتدي

ثانياً: المَسْجِدُ وَرِسَالَتُهُ الثَّقَافِيَّةُ:

* للمسجدِ دورٌ بارزٌ في تربيةِ الأطفالِ ، وزيادةِ معلوماتِهم المعرفيّةِ. وقد كان للمسلمين عاملٌ مهمٌ في إحياءِ العِلْم في المسجدِ ، بل إنَّ معظمَ علماءِ المسلمين ومشاهيرهم تخرّجوا في المساجدِ ، وذلكَ اقتداءً بالسّلف الصّالح منَ الصّحابةِ الكرامِ ، فالتّابعين فتابعي التّابعين ، فَمَنْ بعدهم من الصُّلحاء والعلماءِ والفقهاءِ وأهلِ الاستقامةِ والتَّقْوى.

* والمسجدُ(١) في الإسلام لم يُؤَسَّسْ لِتقُومَ به العبادةُ وحدَها ، وإنّما هو صرحٌ ثابتٌ في بناءِ المجتمعِ الإسلاميّ ، ونشرِ الإسلامِ ، كما أنّه مهوىٰ أفئدةِ العلماءِ العامِلِيْنَ الذين يعملون على هدايةِ الحيارىٰ ، وتنْبيهِ الغافلين ، وإرشادِ السَّارِيْن ، ليكونُوا من الحافظين للدِّين والمدافعين عن شريعةِ الإسلام.

* وقد حرصَ دينُنا الحنيفُ على إيجادِ صِلَةٍ قويةٍ بين المسجدِ والأطفال ، فرغَّب في دخولِ الأطفالِ إلى المسجدِ منذ صغرهم ومنذ أنْ يطَّهروا ، ويصبحوا قادرين على قضاء حاجاتهم بأنفسِهم.

* إنَّ للمسجدِ دوراً مهماً في تكوينِ شخصيّةِ الأطفالِ الثّقافيةِ ، فهو معينٌ ثرٌّ ـ بعد الأبوَيْن ـ يرفدُ الأطفالَ بشتّى ألوانِ الثّقافاتِ المفيدةِ النّافعةِ ، فيعملُ على تغذيةِ أرواحِهم وأفكارِهم بروحِ ورَيْحانِ الإيمانِ ، ويزيدهُم ارتباطاً باللهِ

---

(١) «المسجد»: جاء لفظ «مسجد» مفرداً عشرين مرة في القرآن الكريم ، وجاء جمعاً بصيغة «مساجد» ستّ مرات. والمساجد في اللغة: جمع مسجد ، وهو مصلّى الجماعة ، وأصل السّجود: الخضوع والتّذلل ، وخصّ ذلك شرعاً بعبادة الله ، فلا يجوز السّجود لغيرِ الله تعالى.

وأهم المساجد وأشهرها في دنيا الإسلام ثلاثة:

أ ـ المسجد الأقصى: وقد ورد ذِكْره مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية الأولى من سورة الإسراء وهو في أرض فلسطين.

ب ـ المسجد الحرام: وقد ذُكر هذا المسجد موصوفاً بالحرام (١٥ مرة) في القرآن الكريم ، وهو في مكة المكرمة.

جـ ـ المسجد النبوي: وفيه قبر الرسول ﷺ وهو في المدينة المنورة.

عزَّ وجلَّ ومحبّتِهِ ومراقبتِهِ في السِّرِّ والعلانيّة ، كما يبذرُ في نفوسِهم الصَّافيةِ معاني الأُخوَّةِ والوفاءِ المُستَمدّ من أدبِ القرآنِ الكريمِ ، وشمائلِ النّبيِّ ﷺ ، وسيرِ أعلامِ النُّبلاءِ وطبقاتِ الأصفياءِ ، وسائرِ أصنافِ المعرفةِ والعلْمِ .

* وكان سيّدنا وحبيبُنا محمّدٌ رسولُ الله ﷺ يهتمُّ اهتماماً بارزاً بالأطفالِ وخصوصاً في حضورِهم إلى المسجدِ ، وأداءِ الصَّلاة فيه .

* ومنَ المُتعارَفِ والمُتعالَمِ بين الجمهورِ وعامّةِ المُسلمين أنَّ الحبيبَ الأعظمَ سيّدنا رسولَ اللهِ ﷺ كان يجعلُ مكاناً خاصّاً للأطفالِ والأولادِ في مسجدِهِ ، فكان يضعُهم في صفوفِ الصَّلاةِ بين صفوفِ أصحابِه الرّجالِ ، وصفوفِ النّساءِ الصَّحابياتِ ، ليقتديَ هؤلاء الأطفالُ بمن حولَهم ، ويشعروا بمكانتهم ووجودهم .

* فعن عبد اللهِ بنِ غنم ، عن أبي مالكٍ الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ﷺ : «أنّه كان يسوّي بين الأربع ركعاتٍ في القراءة والقيام ، ويجعلُ الرّكعةَ الأولىٰ هي أطولُهنّ لكي يثوبَ النّاسُ ، ويجعل الرّجالَ قدّام الغُلمانِ ، والغُلمانَ خلفَهم ، والنّساءَ خلفَ الغلْمانِ»[١] .

* ندركُ من خلال هذا الحديث كيفَ كان حرصُ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ على حضورِ الأطفالِ إلى المسجدِ ، لأنَّ في ذلكَ خيراً ما بعدَهُ خيرٌ . فالمسجدُ يشاركُ الأُسَرَ المسلمةَ في زيادةِ ثقافةِ أطفالِهم ، وبناءِ شخصيَّاتِهم ، ويجعلُ منهم غراساً تؤتي الأُكُلَ الطَّيِّب في المجتمعِ الذي يُعتبرُ الأطفالُ هم نواتُهُ؛ فالأسرةُ الواعيةُ تبذرُ في أغوارِ أطفالِها بذورَ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ المهمّة من معتقداتٍ سليمةٍ ، وقيمٍ وعاداتٍ كريمةٍ ، والمسجدُ يرعىٰ ظهورَ البذورِ في عنايةٍ فائقةٍ ، فإذا ما خرجتْ وأصبحتْ نباتاً حسناً زكّىٰ هذا النَّبات ، وأمدَّه بماءِ الثَّقافةِ الإسلاميةِ ، وعطَّرَهُ بأريجها ، فيعلّمهم المربّون والقيّمون على المساجدِ العبادةَ الصَّحيحةَ ، وفقه بعضِ الأمورِ التي تتناسبُ مع سنّهم ، وكذلك يلفتون أنظارهم إلى التّدبّرِ والتّفكّرِ في ملكوتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويزرعون في نفوسِهم

(١) انظر : مجمع الزوائد للهيثمي (٢/ ١٣٠).

الخشيةَ ومراقبةَ ضمائرهم ، وهذا يؤدّي إلى ترسيخِ العقيدةِ الإسلاميةِ في قلوبهم ، كما تتهذّبُ نفوسُهم وتسمو وتزكو ضمنَ أجواءِ الثّقافةِ الهادفةِ ، وفي مقدمتها : المحافظةُ على أداءِ الصّلواتِ الخمس .

* فالأطفالُ حينما ينشؤون نشأةً مرتبطةً بالمسجدِ ، يتعلّمون دروساً قيّمةً تتجلّى في أداءِ الصّلواتِ التي تغرسُ في نفوسِهم فضائل المكارمِ ومكارمَ الفضائل ، إذ إنَّ أداءَ الصّلوات بهذا النّظامِ الجميلِ الذي علّمه رسولُ الله ﷺ لأصحابهِ يجعلُ الأطفالَ يشعرون بمبادىء الإسلامِ العظيمةِ وفي مقدمتها المساواةُ والامتثالُ بين يدي الله عزّ وجلّ ، فجميعُ طبقاتِ النّاسِ تؤدّي الصّلواتِ ، بطريقةٍ واحدةٍ تشيرُ إلى وحدةِ المسلمين .

* ولعلَّ في أداءِ صلاةِ الجمعةِ أثراً وضيئاً في نفوسِ الأطفالِ ، ينهلونَ مِنَ الثّقافةِ الإسلاميّةِ ما يشاؤون ، فصلاةُ الجمعةِ يشهدها عددٌ كبيرٌ منَ النّاسِ ، ويشهدون الخطبةَ التي يتحدَّث الخطيبُ من خلالها عن مواضيعَ ثقافيةٍ مركّزةٍ تَصِلُ الحاضِرَ بالماضي ، وربّما يشيرُ إلى أخطاء وإلى مفاهيمَ ينبغي أن تصححَ ، وربّما يستمعُ الأطفالُ من خلالِ الخطبةِ إلى معلوماتٍ يحتاجونها في مدارسهم وفي بيوتهم ، كما أنّهم يستمعون في الصّلواتِ الجهريّةِ إلى القراءة الصَّحيحةِ للقرآنِ الكريمِ من الإمامِ ، وهذا يجعلُهم في مأمنٍ من اللحنِ والخطأ في تلاوةِ القرآنِ الكريمِ .

* ومن القيمِ الثّقافيةِ التي يجنيها الأطفالُ من المسجدِ ، الاستفادةُ من أوقاتِ الفراغِ لديهم ، فالمسجدُ له دورٌ لطيفٌ ومفيدٌ يقضي فيهِ الأطفالُ فراغَهم في أشياءَ تعودُ عليهم بالنَّفعِ العميمِ مثل : تعلّم الصَّلاةِ والوضوءِ ، وحضور مجالسِ التَّعليم ، ومجالس الذّكر السَّنيةِ ، ومجالس القرآنِ بأشكالِها وفي مقدمتها : حفظُ كتابِ اللهِ ، وتفسيرهُ ، ومعرفةُ أحكامهِ ، وقصصه . . . . إلخ كما أنَّ المسجدَ بستانُ معرفةٍ ، وحديقةُ نَقَاءٍ ، يتعرَّفُ الأطفالُ من خلالهِ على الجلساءِ المأمونين الصّالحين ، وعلى صفةِ الصَّفوةِ منَ المهذّبين والمتأدّبين بأدبِ الإسلامِ؛ وهذا الاجتماعُ مع غيرهم ، يساعدهُم في بناءِ شخصيّتهم الإيمانيّة والاجتماعيةِ ، حيث يتعرفون بالمعلّمين وعلماءِالمسلمين والدُّعاةِ ،

ويسمعون من هؤلاءِ ما تجودُ به قريحتُهم من ثقافاتٍ مفيدةٍ ، تساعدُ الأطفالَ على ممارسةِ العلاقاتِ الثَّقافيَّةِ بشكلٍ سليمٍ وصحيحٍ ، فكمْ مِنْ طفْلٍ أجادَ الخطابةَ والإلقاءَ من خلالِ خطيبٍ ماهرٍ مفوّهٍ ألقىٰ خطبتَهُ على المنبرِ ، فقلَّدهُ الطِّفلُ وغدا فيما بعدُ خطيباً لامعاً بليغاً .

* ولهذا أوجِّهُ إلى المربّين والقيّمينَ على المساجدِ ، أنْ يجعلوا من مهمّةِ المسجدِ رعايةَ ثقافةِ الأطفالِ ، وأنْ يتيحوا لهم الحلقاتِ العلميّة التي تتناسبُ مع إدراكهم ، وميولهم ، فمثلاً تكونُ هناك بعضُ الحِلَقِ لتحفيظِ القرآنِ الكريمِ ، ويقومُ عليها الأكْفاءُ ، فالأطفالُ عندما يحفظون كتابَ اللهِ تستقيمُ ألسنتهُم وتتجنَّبُ اللحنَ ، كما يرفدون مكتبةَ المسجدِ بفرعٍ يخصُّ مكتبةَ الأطفالِ ، وما يلائمهم من قصصٍ ومن سيرٍ مستقاةٍ من القُرآنِ الكريمِ وسيرةِ النّبي ﷺ وأصحابهِ وشخصيّاتِ الأمّةِ الذين تركوا دويّاً علميّاً في أرجاءِ المعمورةِ ، وبالتّالي ينتفعُ الأطفالُ من هذهِ الثّقافةِ الهادفةِ التي تجعلُ منهم رجالَ المستقبلِ الذين يحملون رسالةَ الإسلامِ لِمَنْ بعدهم .

* لقد تمكَّنَ المسجدُ ـ من خلالِ رسالتهِ الثَّقافيّةِ الهادفةِ منذُ أوّلِ مسجدٍ أُسِّسَ على التّقوىٰ في الإسلام ، وإلى عصورٍ وقرونٍ أولى ـ أنْ يجعلَ من رُوّادِهِ علماءَ فقهاءَ ، وحكماءَ فُصحاءَ ، وقادةً وخلفاءَ استطاعوا أنْ يبلغُوا بالثَّقافةِ الجوزاء ، وأن يكونوا قدوةً وقادةً للأممِ بسببِ الثَّقافةِ التي استمدّوها من هدي الإسلامِ ، بل إنَّ بعضَ رعاةِ الإبل والغنم غدا ـ بفضل الله عزَّ وجلَّ ومن ثم فَضْلِ الرّسول ﷺ من علماءِ الصَّحابةِ وفقهائهم ، ومن هؤلاء: عبدُ الله بنُ مسعود ، وعقبةُ بن عامر ـ رضي الله عنهما ـ وغيرهما ممّن لا يُحْصَون[1] .

* وإنّني أذكُرُ للمربّين هنا وأذكِّرُهُم بقصّةِ الصَّحابي عقبةَ بن عامر الجُهنيّ

---

(١) هناك كثيرٌ من أطفالِ الصّحابةِ غدوا علماء الأمّة ومنهم العَبادلةُ الأربعةُ الذين تخرجُوا في مسجدِ الرّسولِ ﷺ ، وغدوا غرّةً ناصعةً في جبين الدنيا وهم: عبدُ الله بنُ عبّاس ، وابنُ عمر ، وابنُ عمرو ، وابنُ الزّبير ، وقد استوفيتُ سيرهم في كتابي: «علماء الصّحابة» الذي أسألُ الله أنْ ينفعَ بهِ ، وأن يجعل ثوابه في صحيفة كلّ محبّ لصحابةِ رسولِ الله ﷺ .

الذي كان راعياً فصارَ إماماً عالِماً من خلالِ المسجدِ؛ ومن خلالِ التَّوجيهِ النَّبويّ والتّربيةِ المحمديّة.

* في واحدةٍ من نفحَاتِ الأنْفاسِ المحمديّةِ التي ملأَ شذاها جوَّ المدينةِ المنوّرةِ وما حولَها، داعبتْ همسَاتُ التَّوحيدِ قلْبَ راعٍ بطرفِ المدينةِ المنوّرةِ، فأسرعَ إلى منبعِ النّورِ ونبعِ الهدايةِ، والتقىٰ رسولَ الله ﷺ وبايعَهُ بيعةَ هجرةٍ وأقامَ معه، وهذا الرّاعي هو عقبةُ بنُ عامر الجهنيّ، الذي غدا أحدَ علماء الصَّحابةِ وفقهائهم، وممن تخرّجَ في مسجدِ النَّبي ﷺ بشهادةِ العلْمِ والعَملِ.

* ولشدّةِ شغَف عقبةَ بدروسِ المسجدِ النّبويّ وتوجيهاته، تركَ الباديةَ، ولزم المجالسَ السَّنيّةَ المباركة في حضرةِ حبيبنا وسيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ، حيثُ تَحصَّلَ لَديْهِ ثقافةٌ غزيرة؛ ومنها ما رواه عقبةُ نفسُهُ فقال: «لقيتُ رسولَ الله ﷺ فابتدأتُه، فأخذتُ بيدِهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما نجاةُ المؤمنِ؟ قال: «يا عقبةُ أخْرِسْ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتك».

ثمَّ لقيني رسولُ اللهِ ﷺ فابتدأني فأخذَ بيدي فقال: «يا عقبةُ بنُ عامر؛ ألا أعلّمُكَ خيرَ ثلاثِ سُوَرٍ أُنزلتْ في التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ والقُرآنِ العظيمِ»؟.

قلتُ: بلى، جعلَني اللهُ فداك، فأقرأني: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثمَّ قال: «يا عقبةُ لا تَنْسَهُنَّ، ولا تَبِتْ ليلةً حتّى تقرأَهُنَّ».

قال عقبةُ: فما نسيتُهنّ منذ قال: «لا تنسهنّ»، وما بتُّ ليلةً قطّ حتّى أقرأَهُنّ. ثم لقيتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فابتدأتُه، فأخذتُ بيدِهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ؛ أخبرني بفواضِلِ الأعمالِ، فقال: «يا عقبةُ، صِلْ مَنْ قطَعَك، وأَعْطِ مَنْ حرمَك، وأعرضْ عمَّن ظلَمَك»[1].

* وفي المسجدِ النّبوي راحَ عقبةُ ينهلُ من القُرآنِ الكريم ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلاً، فتعلّمَ سُوَراً من القُرآنِ، وكان يتلوها بصوتٍ نديٍ جميلٍ، فقد كان

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٩٨ و٩٩).

عقبةُ منْ أحسنِ النّاسِ صوتاً بالقُرآنِ ، وقرأ مرّةً على سيّدنا عمرَ بنِ الخطّابِ ، سورةَ براءة ـ التّوبة ـ حتى بكىٰ عمر لشدّةِ تأثّرهِ بتلاوة عقبة[١] .

* ومن الفوائدِ المجموعةِ التي اجتنَاها عقبةُ منْ ثقافةِ المسجد ، أنّه تعلّمَ الخَطَّ ، فكان كاتباً جيّد الخطِ ، وقد كتبَ مُصْحَفاً بيدهِ . وقد وصفَهُ الذَّهبيُّ بقوله : «كان عالماً ، مقرئاً ، فصيحاً ، فقيهاً ، فرضيّاً ، شاعراً ، كبير الشّأْن»[٢] .

* ويستطيعُ المربي أنْ يرويَ قصّةَ عقبةَ للأطفالِ في أسلوبٍ قصصي ، ويربطُ ذلكَ كله بثقافةِ المسجدِ الذي جعلَهُ من مشَاهيرِ الدّنيا في دنيا المشَاهير .

* وعلى فئةِ المربّين أنْ يربطوا نفوسَ الأطفالِ وقلوبَهم بالمسجدِ ، وذلك لما في ذلك من خَيْرَي الدُّنيا والآخرة ، وكذلك يذكُرُ المربّون الحديثَ الشَّهيرَ في الصَّحيحَيْن وغيرهما : «سبعةٌ يظلّهم اللهُ في ظلّه يومَ لا ظلّ إلا ظلّه . . .» ويذكرون منهم : «ورجل قلبُه معلّقٌ بالمساجدِ» .

* ويعلّمُ المربّي الأطفالَ شيئاً من آدابِ المسجدِ ، ومن ذلكَ ، أنَّ الإنسانَ إذا دخل المسجدَ يُستحبُّ له أنْ يكثرَ من ذكْرِ الله عزَّ وجلَّ بالتَّسبيحِ والتَّهليلِ والتّكبيرِ والتّحميدِ ، وأنْ يكثر منْ قراءةِ القرآنِ الكريمِ ، ومن المستحبِّ في المسجد أيضاً : التّزوّدُ بقراءةِ حديثِ رسولِ الله ﷺ وحفْظِهِ ، وعلم الفقْه وسائر العلومِ الشَّرعيّةِ ، ويُتْلىٰ عليهم دائماً قولُه عزَّ وجلَّ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٣٦ ـ ٣٧] ، فالذي يجلسُ في المجلسِ يتزوّدُ من العِلْمِ والثّقافةِ النّافعةِ فإنّه يجالسُ ربّهُ ، ومَنْ يجالسْ ربّهُ فإنّه ميمونُ السَّنا ، محفوظٌ بحفظ الله ؛ ولا بأسَ أنْ يذكُرَ المربّون بعضَ الأحكامِ الشّرعيّةِ في المساجدِ ، وأنْ يرغّبوا الأطفالَ في استظهارِها ، وذلكَ عن طريقِ المواعظِ والقَصَصِ الهادفِ .

* فمن ذلك ما وردَ أنَّ سيّدنا أبا الدَّرداء[٣] ـ رضي الله عنه ـ كان يقولُ

---

(١) المصدر السّابق (١٧/ ١٠٠) بتصرف . وانظر كتابنا «فُرسان من عصر النّبوة» (ص ٧٤٩) .

(٢) سير أعلام النّبلاء (٢/ ٤٦٥) .

(٣) اقرأ سيرة أبي الدرداء في موسوعتنا الشهيرة الكبيرة «علماء الصّحابة» تجد خيراً بإذن الله .

لابنهِ: «ليكنِ المسجدُ بيتَك، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ المساجدَ بيوتُ المتّقين، ومن كانتِ المساجدُ بيتَه ضَمِنَ الله تعالى له الروح والرَّاحة والجوازَ على الصّراطِ»[1].

* والمساجدُ مجالسُ الأنبياءِ، والصَّالحين، وأهلِ الفَضْلِ والدِّين. قال أبو إدريس الخولاني ـ رحمه الله ـ عن المساجدِ: «المساجدُ مجالسُ الكِرامِ من النَّاس»[2] وعن إعْمارِ الأطفال للمساجدِ يقول مالكُ بنُ دينار ـ رحمه الله ـ: «بلغني أنَّ الله تبارك وتعالى يقول: «إنّي أهمُّ بعذابِ عبادي، فأنظرُ إلى عُمّار المساجدِ، وجلساءِ القُرآنِ، ووُلْدان الإسلام فيسكنُ غضبي»[3] وقالَ سعيدُ بنُ المُسيِّب: «مَنْ جلسَ في مسجدٍ فإنّما يجالسُ ربَّه. فما حقّه أن يقولَ إلا خيراً»[3].

* ولا بأسَ في ترغيبِ الأطفالِ بأنْ يألفوا المسجدَ، ويتعاهدوه. وينهلوا من معينِ الوعّاظِ والأئمةِ، وبذلك يكونُ الأطفالُ من فريقِ المؤمنين، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا رأيتم الرّجلَ يعتادُ المسجدَ فاشهدوا له بالإيمان» لأنَّ الله يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨][3] فهذه شهادةٌ ربّانيةٌ لِعُمَّارِ المساجدِ بالإيمانِ. وهي شهادةٌ صحيحةٌ لا تعدلُها شهادةٌ، إذْ إنَّ مَنْ عَمَرَ المساجدَ بالصَّلاة فيها، وآمَنَ بالله، فهو مِنَ الذين رضي الله عنهم، وممَّنْ ترعاهُم عنايتُه، يقول بعضُ السَّلفِ: «إذا رأيتم الرّجل يعمرُ المسجدَ فحسِّنُوا به الظَّنَّ»[4].

* ولا شكَّ في أنَّ جليسَ المسجدِ يكونُ على ثلاثِ خصالٍ كريمةٍ ومفيدةٍ: أخٌ يستفيدُ ممّا علَّمه اللهُ، أو كلمةٌ يسمعُها تكونُ كالحكمةِ له طوالَ حياتِهِ، أو رحمةٌ مُنتظرةٌ من ربِّ النَّاسِ.

* وكان المسجدُ النَّبويُّ في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ مَصْدرَ علْمٍ وتدريبٍ وكلِّ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٨٣) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.
(٢) المصدر السابق عينه.
(٣) أخرجه التّرمذي وقال: «حديث حسنٌ غريب».
(٤) انظر تفسير القرطبيّ (٨/ ٥٨).

خيرٍ ، منْ ذلكَ أنَّ جماعةً من الحبشَةِ قد لعبُوا بالمسجدِ بِدَرقِهم وحِرابِهم في يومِ عيدٍ ، وجعلَ رسولُ الله ﷺ يسترُ عائشة أمَّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وهي تنظرُ إليهم ، وقال لهم: «دونكم يا بني أرْفِدَة»[1] ، وثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أجازَ لهم ذلكَ في المسجدِ ، وهو لونٌ من ألوانِ الثَّقافةِ التي يمكنُ أنْ يستفيدها الأطفالُ والنَّاشئةُ من هذهِ الحياةِ الثَّقافيّةِ للسَّلفِ الصَّالح؛ وذكر أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّه لما كانتِ الحبشةُ تلعبُ بالحِرابِ بين يدي النّبيّ ﷺ ، كانوا يقولُون: «محمدٌ عبدٌ صالحٌ؛ محمدٌ عبدٌ صالحٌ»[2] .

* قال الإمامُ النَّوويُّ في شرحِ مسلم: «فيه جوازُ اللعبِ بالسِّلاحِ ونحوهِ من آلاتِ الحربِ في المسجدِ ، ويلحقُ به ما في معناه منَ الأسبابِ المُعِيْنة على الجهادِ» .

* ويجبُ على المربّين أنْ ينبّهوا الأطفالَ والنَّاشئةَ على وعي آدابِ المسجدِ لأنّهُ مصدرُ الثَّقافةِ ، لا مصدرُ البدع والمنكراتِ ، أو ما يجري فيه من المُخالفاتِ الشَّرعيةِ ، ويحسُنُ بالمربِّينَ أن يسمعُوا ما نقلَهُ ابنُ مفْلحٍ في «الآداب الشَّرعيّة» عن أبي الوفاءِ ابنِ عقيل[3] إذ قال: «أنا أبرأُ إلىٰ اللهِ تعالى من جموعِ أهل وقتِنا ـ القرن السَّادس الهجريّ ـ في المساجدِ والمشاهدِ ليالي يسمّونَها إحياء ، لعمري إنّها لإحياء أهوائهم ، وإيقاظِ شهواتِهم؛ جموعُ الرِّجالِ والنّساءِ ، مخارجُ الأموالِ فيها من أفسدِ المقاصدِ ، وهو الرِّياءُ والسُّمعةُ ، وما في خلالِ كلّ واحدٍ من اللعب والكذب والغفلة ، ما كان أحْوَجَ الجوامعِ ـ المساجد ـ أن تكونَ مُظْلِمةً من سُرُجِهم ، منزّهة عن معاصيهم وفسقِهم . . . »[4] .

* وعلَّقَ ابنُ مفلحٍ ـ رحمه الله ـ على قولِ ابنِ عقيل فقال: «وإذا كان ذلك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٩٠٧) ، ومسلم برقم (٨٩٢) ، وهو عند الإمام أحمد وغيره أيضاً. وبنو «أرفدة»: جنسٌ من الحبشةِ يرقصون بالحراب.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢) وإسناده صحيح.

(٣) توفي ابن عقيل سنة (٥١٣هـ).

(٤) الآداب الشرعية (٣/ ٣٨١).

في زمنهِ ـ أي زمنِ ابنِ عقيل ـ ، فما ظنُّك بزمنِنَا هذا الذي بينهما نحو ثلاث مئةِ سنة[1] ، وما يجري بالشَّام ومصرَ والعراقِ وغيرِها من بلادِ الإسلامِ في أيّامِ المواسمِ منَ المنكراتِ؟ فإنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون»[2]!!

* وعلّقَ السَّفّاريني[3] ـ رحمه الله ـ على ابنِ مفلحٍ فقال: «وهذا الذي قال ابنُ مفلحٍ في «آدابِهِ» في زمانِهِ ، وهو ـ رحمهُ الله ـ قد توفي سنة (٧٦٣ هـ) فما بالكَ بعصرنا هذا الذي نحنُ فيه ، وهو في المئةِ الثّانية عشْرةَ ، وقد انطمسَتْ معالمُ الدِّين ، وطُفِئَتْ إلّا من بقايا حفظَةِ الدِّين ، صارتِ السُّنَّةُ بدعةً ، والبِدْعَةُ شِرعةً ، والعبادةُ عادةً ، والعادةُ عبادة»[4] .

* ويتابعُ السَّفّاريني حديثَه فيقولُ عن الذين لم يعرفوا آدابَ المسجدِ ولا حرمتَهُ: «فلو رأيتَ جموعَ صوفيّةِ زمانِنا ، وقد أوقدوا النّيران ، وأحضروا آلاتِ المعازفِ بالدّفوفِ المُجلْجِلة والطُّبول والنّاياتِ والشّبّاب ، وقاموا على أقدامِهم يرقُصون ويتمايلون ، لَقَضيتَ بأنّهم فرقةٌ من بقيّةِ أصحابِ السَّامريّ وهم على عبادةِ عجْلِهم يعكفون ، أو حضرتَ مجمعاً وقد حضرهُ العُلماءُ بِعَمائِمِهم الكبارِ والفِرَاءِ المُثَمَّنةِ ، والهيئاتِ المُستحسنةِ ، وقدَّمُوا قِصابَ الدُّخَانِ ، التي هي لجاماتُ الشَّيطانِ ، وقد ابتدرَ ذو نغمةٍ ينشدُ من الأشعارِ المُهيِّجَةِ ، فوصفَ الخدودَ والنُّهودَ والقدودَ ، وقد أرخى القومُ رؤوسَهم ونكَّسُوها ، واستمعوا للنَّغْمةِ واستأنَسُوها ، لَقُلْتَ وهم لذلك مطرقون: ما هذهِ التَّماثيل التي أنتم لها عاكفون ، فإنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون»[5] .

* ولا بأس أنْ ينبّهَ المربُّون الأطفالَ إلى المخالفاتِ التي يرتكبُها بعضُ النَّاسِ في المساجدِ ، لتكونَ ثقافةُ الأطفالِ صافيةً لا يشوبُها ما يعكّرُ صفوهَا ،

---

(١) توفي ابن مفلح سنة (٧٦٣هـ) أي بعد ابن عقيل بحوالي (٢٥٠ سنة).
(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٣٨٢).
(٣) توفي السفاريني واسمه محمد بن أحمد بن سالم سنة (١١٨٨هـ) أي بعد ابن مفلح بـ (٤٢٥ سنة).
(٤) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (٢/ ٢٤٥) طبعة دار الكتب العلمية الأولى عام ١٩٩٦م.
(٥) غذاء الألباب (٢/ ٢٤٦).

كما يحرصُ الآباءُ على اصطحابِ أطفالِهم إلى المسجد ، لأنَّ المسجدَ ذو دورٍ بارزٍ في تحسينِ ثقافةِ الأطفالِ ، وخصوصاً حينما يؤدّي الطّفلُ صلاةَ الجمعةِ برفقةِ والدِه ، فقد كان أطفالُ الصَّحابة يحضرون الصَّلاة مع ذويهم ، ويستمعون إلىٰ النَّبيّ ﷺ ، ويستفيدون من توجيهاتِهِ المباركةِ ، كما كان رسولُ الله ﷺ يحملُ في المسجدِ حفيدتَهُ أمامةَ بنتَ أبي العاص ، وكان يصلّي وهو يحملُها ، فإذا سجدَ وضعَها ، وإذا قامَ حَملها[١] . وكان يخفّفُ صلاتَه إذا سمعَ بكاءَ طفلٍ كراهيةَ أنْ يُشقَّ على أمّتِهِ[٢] .

* إنَّ الإسلامَ يحرصُ على رعايةِ الأطفالِ ، وتنشئتهم بين صفوفِ المسلمين في صلاتهم وفي مساجدهم ، ولا مانع من مكثِهم في المسجدِ إذا تأكّدَ المربّي من طهارتِهم ، فلعلَّ الثَّقافةَ المُتاحةَ التي يلقاها الأطفالُ في المسجدِ لا تتمُّ لهم في بيوتهم؛ وبالتَّالي فإنّنا نستفيدُ من عطاءِ المسجدِ في تغذيةِ الأطفالِ الفكريّةِ .

* وربما نجد أنَّ بعضَ الأطفالِ يعبثُ في المسجدِ ، أو يحبُّ اللعب وكثرة الحركةِ ، وفي مثلِ هذه الحالةِ يجبُ على المربيّ أنْ يُحسِنَ التَّوجيهَ لهم ، ويأخذَ بأيديهم إلى طريقِ الصَّوابِ ، ولا ينفّرهم من دخولِ المسجدِ ، وقد تنبّه الغزاليُّ ـ رحمه الله ـ إلى هذه النَّاحية منذ مئات السّنين فقال: «ولا بأس بدخولِ الصَّبي المسجد إذا لم يلعبْ ، ولا يحرُمُ عليه اللعبُ في المسجدِ ، ولا السّكوتُ على لعبهِ ، إلاّ إذا اتّخذَ المسجدَ ملعباً ، وصار ذلك مُعتاداً ، فيجبُ المنعُ منه ، فهذا ممّا يحلُّ قليلُه دون كثيرِه»[٣] .

* إنَّ المساجدَ اليوم تشاركُ في تنميةِ الثَّقافةِ للأطفالِ في معظمِ عواصمِ الدُّولِ الإسلاميّةِ ، ولا شكَّ في أنَّ رسالةَ المسجدِ اليوم تُؤتي كثيراً من الثّمار بفضلِ اللهِ ، حيثُ إنّنا نجدُ كثيراً من العُلَماءِ والدُّعاةِ تنتشرُ أقوالُهم عبرَ وسائلِ الإعلامِ المختلفةِ ، بالإضافةِ إلى أنَّ بعضَ العلماءِ يعدُّ برامجَ هادفةً من خلالِ

---

(١) لهذا الكلام أصل في الصحيحين البخاري برقم (٤٩٤) ، ومسلم برقم (٥٤٣).

(٢) لهذا الكلام أصل في الصحيح ، انظر البخاري برقم (٦٧٥).

(٣) انظر : المهذّب من إحياءِ علوم الدين (١/ ٤٧٧ و٤٧٨) طبعة دار القلم الثانية ١٩٩٨م.

المسجدِ ، ويربطُ به الأطفالَ ويشجّعُهم على حفظِ القرآنِ ، واستظهارِ بعضِ الأحاديثِ ، وقد وجَدَتْ هذه البرامجُ أفئدةً واعيةً واستفادَ كثيرٌ من الأطفال منها ، والذي يتتبَّعُ مسابقاتِ القُرآنِ الكريمِ في بعضِ عواصمِ الدُّولِ الإسلاميّةِ يَجِدُ مصداقَ ذلك ، وإنّنا نرجو اللهَ أنْ تُتَاحَ فرصةُ الثَّقافةِ بشكلٍ أفضل للأطفالِ من خلالِ المساجدِ والمعاهدِ الدّينيةِ الملحقةِ بالمساجدِ ، ولا بأسَ في أنْ يشيرَ المربّي إلىٰ دَوْرِ أَشْرفِ المساجدِ على وجْه الأرضِ ، وعن دورِها الثَّقافي للأطفالِ وغيرِهم.

* فمّما لا جدال فيه أنَّ أبرزَ مساجدِ الدّنيا وأشرفَها وأكْملَها على الإطلاق: المسجدُ الحرامُ؛ والمسجدُ النَّبويُّ ، والمسجدُ الأقصىٰ ، وفي فَضْلِ وأهميّةِ هذه المساجدِ الثّلاثةِ قالَ النّبيُّ ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاّ إلى ثلاثةِ مساجد: المسجدُ الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجدُ الأقصى»(١).

* وهذه المساجدُ هي مناراتٌ ثقافيةٌ للإسلامِ ، ولا تزالُ باقيةً تفيضُ بالخيراتِ إلى أنْ يقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً ، ويرثَ الأرضَ ومَنْ عليها.

* كان المسجدُ على عَهْدِ سيِّدنا وحبيبنا رسولِ اللهِ ﷺ علامةً بارزةً متميزةً في حياةِ الصَّحابةِ ، وله دورٌ لطيفٌ في ترسيخِ الإيمانِ بنفوسِ الأُمّةِ المسلمةِ و«إذا رأيتم الرّجل يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان»(٢).

* كانت قلوبُ السَّلف ، وقلوبُ المحبِّين المؤمنين معلقةً بالمسجدِ ، لا تكاد تخرجُ منه حتى تهفو إليهِ مرّةً أخرى؛ وهكذا كان قلبُ سيّدنا رسولِ الله ﷺ ، وقد ربّى أصحابَهُ على حُبِّ المسجدِ وإعْمارِه بالذّكر والعبادةِ والعِلْمِ والعَملِ ، فكان أصحابُهُ الكرامُ ـ رضوان الله عليهم ـ تلاميذَ المدرسةِ المحمديّةِ المخلصين ، فكانوا ساداتِ النّاسِ ، وقادتَهم ، كما كانوا معلمي الخيرَ لمن خلفَهم.

* وما أجملَ أنْ نقفَ وقفاتٍ تربويةً عند حياةِ الصَّحابةِ الأخيارِ ، الذين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٨٩)؛ ومسلم برقم (١٣٩٧)؛ وابن حبان برقم (١٦١٩).

(٢) انظر كنز العمال (٧/ ٦٥١) والحديث أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي سعيد.

تفرقوا في الأمصارِ! فحيثما كانُوا جعلُوا لهم مسجداً يربُّون النَّاسَ على الطَّريقةِ المُثلى التي تربَّوا عليها حول المائدةِ النَّبويّةِ الزّاكيةِ المونقة ، فكانوا ينقلون الثّقافةَ المتمثّلة بالقرآنِ وعلومهِ ، والحديثِ ، والفقْهِ ، وسائرِ الآدابِ ، النّافعةِ والفضائل الماتعة .

* ويحسُنُ بالمربّي أنْ يذكُرَ للأطفالِ والأولادِ أنَّ هؤلاء الصَّحابةَ الكرامَ قد تخرجَ في مدارسهم الميمونةِ ـ هذه ـ جيلٌ فريدٌ من الأجيالِ الخيّرةِ الصّالحةِ في تاريخ البشريّة ، بشهادةِ خير البشريّةِ حيث قال: «خيرُ القرون قرني ، ثمّ الذين يلونهم ، ثمَّ الذين يلونَهم»[1] .

* ومن المستحسنِ أنْ يتابعَ المربّي مسيرتَه التّربويّةَ في تبيانِ دورِ المسجدِ الثّقافي فيذكرَ المساجدَ الشّهيرةَ في تأريخِ المسلمين ، التي تخرَّجَ فيها أساتذةُ الأُلىٰ ، من مثل: المسجدُ الأمويّ بدمشقَ ، وحلبَ ، ومساجدُ العراقِ ومساجدُ مصرَ وتونسَ والمغربِ العربيّ وبلادِ الأندلس ، وغيرها من المساجدِ المعمورةِ في هذهِ المعمورةِ .

* ومن الطَّريف في تاريخِ الطَّرافةِ الثّقافيّةِ النَّابعةِ من المساجدِ ، أنَّ مسجدَ المنصورِ ببغدادَ كانت تُعقدُ فيهِ مجالسُ العِلْمِ المباركةِ لعبدِ اللهِ بنِ المباركِ وكانت تجمعُ ما بين ثلاث مئة إلى سبع مئة عالمٍ وفقيهٍ ، وقد أحصى المقدسيُّ في مسجدِ القاهرةِ وقتَ العشاءِ مئة وعشرة مجالسَ من مجالسِ العِلْم ، ويستطيعُ الإنسانُ الآن أن يرى مجالسَ العُلماءِ العامرةِ وحلقاتِ العلمِ الزّاهرةِ ، في المسجدِ الحرامِ بمكّة المكرمةِ ، والمسجدِ النّبوي بالمدينةِ المنوّرة ، وبعضِ المساجدِ الأخرىٰ في عواصمَ أخرى .

* من أجلِ هذا نلحظُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أولىٰ المسجدَ اهتماماً بالغاً ، إذ إنَّ المسجدَ يُعدُّ أهمَ قاعدةٍ في بناءِ مجتمعِ الصَّحابةِ ، ومن ثمّ المسلمين ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٥٨) ، ومسلم برقم (٢٥٣٣) ، وأحمد (٤/ ٢٦٧) ، وابن حبان برقم (٦٧٢٧).

لتكونَ آصرةُ الأخوّةِ والمحبّةِ موجودةً بين المسلمين ، وكذلك المشاركةُ والمساواةُ وطلبُ العِلْمِ والفقْهِ وأمورِ الدِّين.

* وقد أخرجَ لنا المسجدُ في تاريخهِ الوضيءِ أجيالاً ترفعُ الرأْسَ عالياً في كلِّ ما هو مفيدٌ ، فكانوا المثَلَ الرَّفيعَ في الرّقي والعِلْمِ والحضَارةِ ، فازدهرتْ بهم الحياةُ ، وسعدت بهم الأممُ من الشرق والغربِ ، فكان منهم الأعلامُ في سائر العلومِ الدّينيةِ والدّنيويّة؛ وإنَّ سجلَّ الإسلامِ حافلٌ بأسماء وأعلامٍ تخرجتْ في المساجدِ ، ونبغَتْ من خلالِ حلقاتِه ، فسادوا ورأسوا النَّاس في كُلّ الأمور.

* إنَّه من البدهي أنْ نعرفَ أنَّ الثَّقافةَ الإسلاميّة انبثقتْ عن الإسلام ، وعن نبيّ ديْنِ الإسلام سيّدنا محمّد رسولِ اللهِ ﷺ. فما المقدارُ الذي جاء به من الثَّقافة؟ وما النَّواةُ المباركةُ الطَّيِّبةُ التي غرسَها فأنبتتْ في أرضِ التّربيةِ هذه الشَّجرة الكريمة ذاتِ الأصلِ الثَّابتِ والفرعِ المتطاولِ في السَّماء؟!

* من المُتعارَف عليه لدى المطّلعين أنَّ مَنْ كان يعرفُ الكتابة والقراءة هم بعضُ أهلِ المدنِ في ذلك العَصْرِ ، وكانت نادرةً في باديةِ الجزيرةِ ، حتّى عُرِفَ العربُ بأنَّهم أميّون ، وقد نصَّ القرآنُ الكريمُ على ذلك ، والأحاديثُ النّبويّةُ ، قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢] ، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّا أمّةٌ أمّيّةٌ ، لا نكتبُ ولا نحسبُ».

* بدأ الرّسولُ ﷺ يحثُّ أصحابَه على العِلْم ، وبدأ يتلو عليهم آياتِ اللهِ وهي ما جاء في القُرآنِ الكريمِ ، ويحضُّهم على تعلُّم الكتابة ، ويعلّمهم الحكمةَ التي تشتملُ على العِلْم والثّقافةِ ، وكذلك يزكّيهم ، والتّزكيةُ هي تربيةٌ تهذيبيةٌ تجعلُ الإنسانَ صالحاً طيِّبَ الأخلاق والسُّمعةِ.

* ويستطيعُ المربّي ـ ها هنا ـ أنْ يوضحَ للأطفالِ والنّاشئةِ دورَ الصَّحابي الجليل مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ في بذْرِ العلْمِ والفِقْه بين أهْلِ المدينة.

* والحقيقةُ ، فقد كان أوّلُ عملٍ ثقافي علميّ هو إرسالُ النّبيّ ﷺ مصعبَ بنَ عمير رضي الله عنه إلى المدينة مع رجالِ العقبةِ الأولى ، وكانت

وظيفتُهُ في المدينةِ أنْ يقرىءَ أهلَها القُرآنَ ، ويعلّمهم الإسلام ، ويفقّههم في الدّين.

* كانت عنايةُ مصعبَ منصبةً بصورةٍ خاصّةٍ على أطفالِ أهلِ المدينةِ ، فراحَ يعلّمهم القُرآنَ ، وبرزَ في طليعةِ أولئكَ الأطفالِ النّجباء زيد بن ثابت الأنصاريّ(١) الذي حفظَ سبعَ عشرةَ سورةً من القرآنِ الكريمِ وهو في الحاديةِ عشْرةَ من عمره؛ وقِسْ على ذلك بعض الأطفالِ الآخرين من الأنصار.

* بعد هجرة النّبيِّ ﷺ إلى المدينةِ ، أخذ يعملُ على بناءِ الثّقافةِ ، وتنظيمها في صفوفِ الأطفالِ ، وأخذ يعملُ على نشْرِ الكتابةِ والقراءةِ ومحوِ الأميّةِ ، وتسجّلُ كتبُ السِّيرةِ والمغازي هذه الظّاهرةَ المباركة ، فعندما خاض المسلمون غزاةَ بدرٍ ، وأسروا عدداً منهم ، جعَلَ النَّبيُّ ﷺ فداءَ مَنْ لا مالَ له من المشركين تعليمَ عشرة من أطفال المسلمين.

* وتابعَ النَّبيُّ ﷺ تعليمَ النَّاسِ القراءةَ والكتابة والقرآنَ ، فقد ذكر ابنُ عبدِ البرِّ في «الاستيعاب» في ترجمةِ عبد الله بنِ سعيد بنِ العاص ، أنَّه كان اسمُه في الجاهليّة الحكم ، فسمّاه النّبيُّ ﷺ عبدَ الله ، وأمره أنْ يعلّمَ الكتابةَ بالمدينةِ ، وكان كاتباً مُحسناً(٢).

* روي عن عبادةَ بنِ الصَّامت الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه شاركَ في تعليم أهلِ الصُّفَّةِ بالمسجدِ فقال: «علّمتُ جماعةً من أهلِ الصُّفَّةِ الكتابةَ والقُرآنَ»(٣).

---

(١) اقرأ سيرة هذا الصحابي الجليل النبيل في كتابنا «علماء الصّحابة» حيث تجد خيراً كثيراً بإذن الله تعالى.

(٢) انظر: الاستيعاب (٦/ ٢٢٦) ترجمة رقم (١٥٥٦) ومنَ الواضح أنَّ النبي ﷺ كان حريصاً على أنْ يثبتَ في أذهانِ المسلمين أنّ هذا الدين الحنيفَ الصّافي أساسه القراءة والكتابة؛ ولذلك جعل أسارى بدر القارئين الكاتبين يفدون أنفسهم من الأسر بأنْ يعلّم كل واحدٍ منهم عشرة من صبيانِ المدينةِ القراءة والكتابة ـ وقد مر معنا هذا ـ ، وحضَّ كذلك عبد الله بن سعيد على تعليم الناس الكتابة بالمدينة ، ولسعيد ثلاثة إخوة من كتاب الوحي ، فرضي الله عنهم جميعاً.

(٣) مسند أحمد (٥/ ٣١٥).

* ولقي أبو ثعلبةَ الخُشنيّ النّبي ﷺ فقال له: يا رسولَ الله ادفعني إلى رجلٍ حسنِ التّعليم، قال ـ أبو ثعلبة ـ: فدفعني إلى أبي عُبيدةَ بنِ الجرّاح ثمّ قال: «دفعتُك إلى رجلٍ يحسنُ تعليمَك وأدبكَ».

* وجاء في ترجمةِ وردان أنَّ النّبيَّ ﷺ قد أسلمَه إلى أبانَ بنِ سعيد بنِ العاص كيما يُموّنَه ويعلّمَه القرآن.

* لقد أنشأَ سيّدنا رسولُ اللهِ ﷺ أوّلَ مقرٍّ علمي لنَشْرِ الثّقافة وتعلّمها وتعليمها. هذا المقرُّ الميمونُ هو مسجدُه الشّريفُ في المدينةِ المنورةِ؛ وحرصَ ﷺ أنْ يجعلَ من هذهِ الأمّةِ الأميّةِ أمةً متعلّمةً مثقّفةً، واجتهدَ في كلِّ ما يهذّبُ مشاعرَ أصحابه، ويرهفُ حسَّهم، ويثيرُ الخيرَ في نفوسهم، ويرقّقُ عواطفَهم، ويزيدُ في تربيتهم وتثقيفهم وصقْلِ عقولهم في طرقٍ تربويةٍ جعلَتْ منهم طَلَبَ العلْمِ فريضةً، وتعلُّمَه فضيلةً، وتعليمَه عبادةً.

* ويمكنُ لنا أنْ نبرهنَ على ذلك بقصّةٍ ذكرها أبو القاسم ابنُ عساكر في كتاب «التّبيين» بسنده إلى علقمةَ بنِ عبد الرّحمن بن أبزى عن أبيه عن جدّهِ عن رسولِ اللهِ ﷺ: أنَّه خطبَ النّاسَ قائماً، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليه، وذكر طوائف من المسلمين، فأثنى عليهم خيراً، ثمّ قال: «ما بالُ أقوامٍ لا يعلّمون جيرانَهم، ولا يفقهونَهم، ولا يفطنونَهم، ولا يأمرونَهم، ولا ينهونَهم، وما بال جيرانٍ لا يتعلّمون مِنْ جيرانهم ولا يتفقّهون ولا يتفطّنون. والذي نفسي بيده ليعلمنّ قومٌ جيرانَهم، وليفقهنّهم، وليفطننّهم، وليأمرنّهم، ولينهونهم، وليتعلمنَّ قومٌ من جيرانهم، وليتفقهنَّ، وليتفطننَّ، أو لأُعجِّلَنَّهم العقوبةَ في دارِ الدنيا». ثمَّ نزلَ رسولُ اللهِ ﷺ فدخلَ بيتَه فقال أصحابُ رسولِ الله ﷺ بينهم: «مَنْ يعني بهذا الكلامِ»؟. قالوا: «ما نعلمُ بهذا الكلام إلاّ الأشعريين، إنّهم فقهاءُ علماءُ، ولهم جيرانٌ من أهلِ المياهِ، جُفَاة جَهَلة». فاجتمعَ جماعةٌ من الأشعريين، فدخلُوا على النَّبيّ ﷺ فقالوا: «قد ذكرتَ طوائفَ من المسلمين بخيرٍ وذكرتنا بشرٍ فما بالنا»؟

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لتعلمنَّ جيرانكم ولتفقهنّهم ولتفطننّهم ولتأمرنَّهم

ولتنهونَّهم أو لأعاجلنّكم بالعقوبة في الدّار الدنيا».

قالوا: «يا رسولَ اللهِ، أمّا إذا كان الأمرُ كذلك فأمْهِلْنَا سنةً نعلّمهم»؛ فأمهلَهم سنةً[١].

* إنَّ في هذه الآثارِ والنُّصوصِ أدلةً على حُبِّ العِلْمِ والمعرفةِ والثَّقافةِ، وكذلك فيها ترغيبُ النّبي ﷺ وترهيبُهُ للنّاسِ بجميع أعمارهم أن يتعلّموا الكتابةَ والقراءةَ وحفظَ كتابِ اللهِ[٢]. وقد رأينا كيفَ أمَرَ النّبيُ ﷺ عبد الله بنَ سعيد بنِ العاص أن يعلّمَ النَّاسَ في المدينةِ الكتابةَ؛ وكيف أنَّ عُبادةَ بنَ الصّامت علَّمَ جماعةً من أهلِ الصُّفَّةِ الكتابةَ والقرآنَ، وكلُّ هذا كان يتمُّ في المسجد، إذ هو منبعُ ونبعُ الثَّقافةِ والخيرِ والفضائلِ.

---

(١) كأنَّ هذه الحادثة في هذا الحديث الشَّريف تشير إلى أهميّة التّربية الثَّقافيّة، وإلى أنَّ التَّعليم كان فرضاً على أصحاب النّبيّ ﷺ وأنّ التّعليم يشمل القراءة والكتابة والتّهذيب لذا فإنّنا نرى النّبيّ ﷺ يهددُ بالعقوبة العالمين والمتعلّمين أيضاً إذا تقاعسوا عن التّعليم والتعلّم، لأنَّ المسلم يصلي وعليه أنْ يقرأ دون أنْ يلحنَ.

(٢) انظر: سنن أبي داود، والاستيعاب، والروض الأنف في مواضع، وكذلك صحيح البخاري، والإصابة وغير ذلك من مصادرَ إذ نرى كثيراً من الوقائعِ والنصوصِ تدلُّ على أنَّ المسجد له رسائل كثيرة، ومنها تربيةُ الناس وتهذيبهم وتعليمهم.
ومن أمثلة ذلك ما جاء في صحيح البخاري في كتاب «الدّيات» أنّ سيّدتنا وأمّنا: «أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ، بعثت إلى معلّم الكتاب أن ابعثْ لي غلماناً.
كما أنَّ البخاري ـ رحمه الله ـ قد ترجمَ في «الأدب المفرد»: باب السَّلام على الصّبيان، وأسند إلى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه كان يسلّم على الصِّبيان في الكُتّاب.
وذكر ابنُ حجر في «الإصابة» أنَّ إبراهيمَ بن جابر، كان عبداً لخرشة الجعفي، نزل إلى النّبيّ ﷺ من حصنِ الطائف في جملة مَنْ نزل من عبيدهم أيام حصارهم، فأعتقه ودفعه إلى أسيدِ بن حُضَير، وأمره أن يموّنه ويعلمه.
وجاء في ترجمة «وردان» وترجمة «الأزرق بن عقبة الثقفي» أنَّ النّبي ﷺ قد أسلمَها لسعيد بن العاص لِيُموّنَهما ويعلّمَها.
وجاء في كتابَي «الاستيعاب» و«الإصابة» وغيرهما ما يدلُّ على أنَّ التعليمَ والتعلّم لم يكن مقصوراً على جماعة الذكور وحدهم، وإنّما كان التّعليم والتربية والحفظ يشمل النساء أيضاً، فقد ورد أن النبي ﷺ قال للشّفاء أمّ سليمان بن أبي حثمة: «علّمي حفصة رقية النّملة كما علّمتها الكتابة».

ثالثاً: المدرسةُ والأُسْرَةُ التَّعْلِيميّةُ:

* هذه فقرةٌ مهمّةٌ جدّاً من فِقْرات هذا الفَصلِ . إذ إنَّ المدرسةَ (School) تشكّلُ عاملاً ثقافيّاً بارزاً في بناءِ شخصيّةِ الأطفالِ ، فالمدرسةُ تحتوي شطراً من المجتمعِ ، حيث تضمُّ في صرحِها الأبناءَ منَ الذّكورِ والإناثِ ، وهؤلاء جميعاً يقضُونَ شطْر نهارِهم فيها ، ويتلقّون شطْراً من الثَّقافةِ والمعرفةِ من خلالِ معلّميها والأسرةِ التّربويّة فيها.

* ومن الجدير بالذّكرِ أنَّ المدرسةَ كانت فيما مضى من الزّمان وقفاً على أبناءِ الأسرِ الميسورة التي كان لديها وقت الفراغِ لتثقِّفَ نفسها . وكان هذا النِّظام سائداً في بعض المدن في الشّرق والغرب.

* أما الدّخولُ إلى المدرسة الابتدائية بالنّسبةِ للطّفلِ ، فهو حَدَثٌ ذو أهميةٍ دائماً ، ومأساوي في بعض الأحايين والأوقات ، فعليه من الآن فصاعداً أنْ يندمجَ في وسطٍ مختلفٍ عن الوسطِ الذي كان قد تعوّده ، ويمتثل لانضباط أكثر صرامة ، ويقدّم عملاً فكرياً ليستجيبَ لتوقّعات أبويه ومعلّميه. وينبغي له أيضاً أنْ يتعلّم السُّلوك المدرسي ، وأنْ يتعاون مع أطفالٍ آخرين من عمره.

* وتقدّمُ المدرسة إلى الطِّفْلِ أدوات الثَّقافة ، وسائل التفكير المنطقيّة المناسبة ليندمج في المجتمع. فالمدرسةُ هي المحل الذي يمكنه أنْ يتثقَّفَ فيه ويكملَ تربيته ، ويوسِّع حقْل اهتمامه ، فتقدّمَ لهُ ما لا يمكن أنْ يقدّمه محيطه له.

* ولكنَّ المدرسة لا تؤدّي دورها على النّحو الأكمل ، دور الانفتاح وتفتّح الفكر ، لأنَّ مسؤولي التّربية غالباً ما يفكّرون بقالب المعارف التّقليدية أكثر ما يفكّرون بكثيرٍ أنْ يُكوِّنوا عقولاً وأفكاراً مخترعةً تناسب التقدّم الحضاري والتّقني الذي يعيشه الأطفال الآن.

* إنَّ على المدرسة الآن أنْ تعلِّم الأطفال أنْ يختاروا ، وأنْ يصنّفوا ، ويستخدموا المعلومات الكثيرة التي تأتي من كل جانب ، وأن يحرصوا على ان

يكتسبوا نوعاً من المرونة في التّفكير حتى يستطيعوا التّكيُّف مع التغيير الذي يطرأ على المجتمعات.

* إذن، فالمدرسةُ مؤسَّسةٌ تربويّةٌ، ومهدٌ ثقافيٌ يمهّدُ الطَّريقَ الثَّقافي أمامَ الأطفالِ والنَّاشئةِ، ويوطّئُ لهم أكْنافَ العِلْمِ، كما أنَّ المدرسةَ تسهمُ في إصلاحِ الأطفالِ، وفي تهذيبهم، ليكونوا قادةَ المجتمعِ في يومٍ منَ الأيّامِ.

* وقد مرَّ معنا في الفقرة السَّابقةِ أنَّ المساجدَ قديماً ـ وإلى عهْدٍ قريبٍ جدّاً[1] ـ كانت المكانَ الأوّلَ والأساسيَ الذي يقومُ بالتّربيةِ والتّثقيفِ للأطفالِ وغيرِهم.

* ولعلَّ أوّلَ مدرسةٍ تربويّةٍ تهذيبيّةٍ متكاملةٍ في الإسلام، هي دارُ سيّدنا الأرقم بنِ أبي الأرقم المخزوميّ في أمِّ القُرى مكَّةَ المكرمةِ، فقد كانت دارُ الأرقمِ[2] هذه هي المدرسةُ الوحيدةُ في العالَم التي تخرّجَ فيها أكابرُ وأعلياءُ وعلماءُ وفرسان وقادة بإدارة رسولِ اللهِ ﷺ الذي ربّى أصحابَه تربيةً فريدةً، فكان منهم: أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ العشَرة من أهلِ الجنَّة، وفيها تخرجَ حمزةُ أسدُ اللهِ ورسولهِ، والأرقمُ صاحبُها وغيرُهم من سادةِ الرّجالِ، ورجالِ السَّادةِ ناهيك بفضلياتِ النِّساءِ اللواتي كتبْنَ في ديوانِ المكارمِ أحْلَىٰ صفحاتِ الإيمانِ، وأجلَّ صفحاتِ العِلْمِ والمعرفةِ والثّقافةِ، ونقلنَ إلى نساء الأمّةِ كثيراً من أمورِ الدّين، وأمورِ الحياةِ، وشؤون المجتمع النّسويّ الإسلاميّ.

* وما دُمْنا نتحدَّثُ عن المدرسةِ المحمديّةِ، فلا بأْسَ أنْ نعطيَ لمحةً عن التّعليمِ والمدارسِ التّربويّة في عهْدِ الخلفاءِ الرّاشدين وصدرِ الإسلام وما تلاهُ من عصورٍ، لتتوضّحَ الصُّورةُ التّربويةُ والتَّثقيفيّةُ في الأذهانِ حتّى ينقلَها المربُّون

---

(١) لا تزال ـ بفضل الله ـ بعضُ المساجدِ مركزَ إشعاع وتربية وتثقيف، وهي تخرّجُ العلماء والدعاة والمثقّفين بزادِ الإسلام، وما نراه في وسائلِ الإعلام وما نسمعُه دليلٌ على ما نقول.

(٢) اقرأ سيرة الصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ في موسوعتنا الكبيرة الشّهيرة «فرسان من عصر النبوة» (ص ٣١٦ ـ ٣٢٧) طبعة دار اليمامة بدمشق، تجدْ ما يسرّك.

إلى أذهانِ الأطفالِ والنّاشئةِ ليعلموا مدىٰ الثّقافةِ ومدى المعرفةِ التي توصَّلَ إليها السَّلفُ الصَّالحُ فسَادُوا وخلدُوا.

* ففي عصْرِ سادتنا الخلفاءِ الرّاشدين الميامين ، سادَ التّعليمُ أرجاءَ الأرضِ التي نقلُوا إليها الإسلامَ ، وأضحتِ الثَّقافةُ تمثّلُ طابعَهم وسماتِهم ووجدانَهم ، وغدا الأطفالُ ينهلون من الثَّقافةِ ما لذَّ لهم وطابَ ، وما مَلُحَ وجادَ ، وما صقلَ المواهبَ والنُّفوسَ.

* ففي كتابهِ «المِلَل والنِّحَل» ذكر الشّهرستانيُّ كيفَ فُتحتِ البلادُ طولاً وعرضاً ، وكيف تعلَّم الأطفالُ في المكاتبِ التي هي كالمدارسِ ، فقال: «. . . . ثمَّ ماتَ أبو بكر ، ووليَ عمرُ ـ رضي الله عنهما ـ فَفُتِحتْ بلادُ الفُرسِ طُولاً وعرضاً ، وفتحتِ الشّامُ كلُّها ، والجزيرةُ ومصرُ كلُّها ، ولم يبقَ بلدٌ إلاّ بُنيتْ فيه المساجدُ ، ونُسِخَتْ فيه المصاحفُ ، وقرأ الأئمةُ القرآنَ ، وعلّمَهُ الصِّبيانُ في المكاتبِ شرقاً وغرباً»[١].

* ونشعرُ مِن خلالِ هذا الخبرِ المفيدِ بأنَّ سيّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضوان الله عليه ـ قد أَسْهَمَ في بثّ الثَّقافةِ المدرسيّةِ في البلاد التي فتَحها ، وأشارَ إلى تعليمِ الكتابةِ والقراءةِ بشكلٍ إلزامي؛ لأنَّ تعلّمَ الخطّ والكتابةِ مفتاحُ كُلِّ علْمٍ ، و:

إنَّ الكتَابةَ رأْسُ كُلِّ صِنَاعةٍ   وبهَا تتمُّ جَوامِعُ الأعْمَالِ

* وقد رووا أنَّ جماعةً مِنَ النَّاسِ كانوا يجوبُون الطُّرقاتِ في المدينةِ المنوّرةِ في عهْدِ عمر ، فإذا ما رأوا رجُلاً غريباً عنها ، بادروا إليهِ وسألوه: هل يعرفُ القراءةَ والكتابةَ والقرآنَ؟ فإذا لم يعرفْ أخذوا به إلىٰ الكُتَّاب ، وأبقوه فيه أيّاماً حتّى يتعلّمَ.

* أوردَ القلقشنديُّ في موسوعتهِ الكبرىٰ «صُبح الأعْشَىٰ» قصّةً طريفةً عن تعليمِ النّاس فقال: «سألَ عمرُ بنُ الخطّابِ ـ رضي الله عنه ـ أعرابياً: هل تُحْسِنُ القرآنَ؟

---

(١) انظر: الملل والنحل (٢/ ٨٠).

قال: نعم.

قال: فأقرأُ أمَّ القُرآن.

فقال: واللهِ ما أحسنُ البَنَاتِ، فكيف الأمّ؟!! فضربَهُ وأسلمَهُ إلى الكُتَّاب. ثمَّ هربَ، وأنشأَ يقولُ:

أتَيــتُ مَهُــاجِـريْــنَ فعَلّمُــونــي ثَــلاثَــةَ أسْطُــرٍ مُتَتَــابِعَــاتِ
كتَــابَ الله فــي رَقٍّ صحيــحٍ وآيــاتِ القُــرانِ مُفَصَّــلاتِ
فخطّــوا لــي أبَــا جَـادٍ وقــالُــوا تعلَّــمْ سَعْفَصــاًوقُــرَيِّشَــاتِ
ومَــا أنَــا والكتــابــةُ والتَّهجّــي ومــا حــظُّ البَنيــن مــنَ البَنَــات

* لقد كانتِ المدارسُ في عصْرِ الإسلامِ الأوّلِ ذاتَ أثرٍ ثقافي بارزٍ في حياةِ الأطفالِ، وقد حظيَ عددٌ من الأطفالِ بالعنايةِ الفائقةِ من العُلماءِ فنبهوا ونبغُوا وشاركوا الكبارَ في متعتِهم بتلقّي العِلْمِ في المدارسِ السَّنيّةِ الميمونة.

* ويحسُن بالمربّي أن يسردَ للأطفالِ قصّةً من قصصِ نبوغ الأطفالِ في مجالسِ التّعليمِ والتّربيةِ في عصْرِ النّبيِّ ﷺ، فقد كان الأطفالُ من أبناءِ الصَّحابةِ يتحلّقُون مع آبائِهم في مجلس النّبي ﷺ، ويقتبسون من قبسِ النَّبيِّ العِلميِّ والأدبيِّ والسُّلوكي، ومنهم العبادلةُ الأربعةُ: ابنُ عبّاس، وابنُ عمر، وابنُ عمرو، وابنُ الزّبير، وغيرهم كثيرون.

* ففي واحدةٍ من جلساتِ العلْمِ المباركةِ، ألقى رسولُ اللهِ ﷺ سؤالاً على أصحابهِ ـ وكان معهم بعضُ أبنائهم ـ وقصدَ بذلك استخراجَ ما عندهم من العِلْمِ.

* روى ابنُ عمر رضي الله عنهما صورةَ ذلك المجلسِ التّعليميّ في حضرةِ سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ، حيث إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ من الشَّجرِ شجرةً لا يسقطُ ورقُها وإنّها مثلُ المسلمِ، حدّثوني ما هي»؟ قال: فوقعَ في نفسي أنّه النّخلةُ، ثمَّ قالوا: حدّثْنا ما هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «هي النّخلةُ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم. برقم (٦٢).

* وفي روايةٍ أخرى قال ابنُ عمر: «فوقعَ في نفسي أنّها النَّخلةُ، ورأيتُ أبا بكر وعمرَ لا يتكلّمان، فكرهتُ أنْ أتكلّمَ فلمّا لمْ يقولُوا شيئاً، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «هي النّخلةُ» فلمّا قمنا قلتُ لعمرَ: يا أبتاه، واللهِ لقد كان وقَعَ في نفسي أنّها النّخلةُ؛ فقال: ما منعكَ أنْ تكلّمَ؟ قال: لم أركم تكلّمون فكرهتُ أنْ أتكلَّم أو أقولَ شيئاً. قال عمر: لأنْ تكونَ قلتَها، أحبّ إليَّ منْ كذا وكذا»(١).

* ويستغلُّ المربّي من خلالِ هذا الحديثِ تعويدَ الأطْفَال على حسنِ الإنصاتِ والاستماعِ، والأدبِ في مجالسِ تعليمِ الكبار، وتشجيعهم إنْ أَجادوا في فَهْمِ بعضَ أمور الدِّين، كما صنعَ عمرُ مع ابنه عبدِ اللهِ، وكما صنعَ عبدُ الله مع أبيهِ عمرَ في المجلسِ النّبويّ التّعليميّ.

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الأطفالَ بعامّة لا يستطيعون تحمُّل مجالسِ الكبارِ، ومشاركتهم في تلقّيهم العِلْمَ بشكلٍ دائمٍ ومستمرٍ، لذا فقد انتشرتِ المدارسُ قديماً في نظامٍ يسمّى «الكتَاتيب»، وكانتْ هذهِ الكتاتيبُ ملحقةً بالمساجدِ وخُصصتْ لِتَعليمِ الأطفالِ، وقد كثرتْ هذه الكتاتيبُ في صدرِ الإسلام لما كثرتِ الفتوحاتُ وأصبحَ النَّاسُ يدخلون في دينِ اللهِ أفواجاً، وكثُرَ الأطفالُ ممّا جعلَ سيّدنا عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ يأمرُ عمَّاله في بناءِ الكتاتيبِ، وتخصيصِ فئةٍ متميزةٍ من الرّجال يقومون على تعليمِ الأطفالِ وتأديبهم، فانتشرَ التّعليمُ، وكثُرتِ الكتاتيبُ في الأمصارِ، وكان لها غايةٌ في نشرِ العلْمِ تبرزُ في ناحيَتَيْن اثنتَيْن:

* **أولاهما**: تعليمُ القرآنِ العظيمِ وعلومهِ ومبادىءِ الإسلامِ.

* **الثّانية**: تعليمُ القراءةِ والكتابةِ.

* وقد أبدعَ المعلّمون في مهمّتهم بتعليمِ الأطفالِ بحيثُ إنَّ أبا بكر ابنَ العربيّ قد أثنى عليهم في كتابةِ الشّهيرِ «أحكام القرآن» فقالَ: «وللقومِ في التّعليم سيرةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ الصَّغيرَ منهم إذا عقلَ بعثوه إلى المكتبِ، فيتعلّمُ

---

(١) الحديث متفق عليه، فقد أخرجه البخاري برقم (٤٤٢١)، ومسلم برقم (٢٨١١).

الخطَّ والحسابَ والدِّينَ ، فإذا حذقَهُ كلّه ، أو حذق منه ما قُدِّرَ له ، خرجَ إلى المقرىء ، فلقَّنَهُ كتابَ اللهِ ، فحفظَ في كلّ يومٍ ربْعَ حزبٍ أو نصفه أو حزباً»(١) .

* أدركَ السَّلفُ الصَّالحُ من هذه الأمّةِ أنَّ الأطفالَ هم روحُ الحياةِ وريحانتُها ، وأنَّ حقوقَهم لا تتوقَّفُ عند تأمين طعامِهم ولباسِهم ، وإنَّما لهم حقُّ التَّعلُّمِ ، إذْ إنَّ مرحلة الطُّفولةِ هي مرحلةُ البناءِ الثَّقافي ، والتّرسيخِ العلميِّ والدِّينيِّ ، وقد أشارَ البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ إلى حقوقِ الأطفالِ على والدِيْهم فقال: «حقوقُ الأولادِ والأهلين ، وهي قيامُ الرّجلِ على ولدِه وأهلِهِ ، وتعليمِهِ إيّاهم منْ أمورِ دينهم ما يحتاجون إليهِ ، لقولهِ تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التّحريم: ٦] ، قالَ الحسنُ: أي مُروهُم بطاعةِ اللهِ وعلّموهم الخيرَ. وقال عليّ: علّموهم: أدّبُوهم»(٢) .

* وبمثلِ هذهِ التَّوجيهاتِ المباركةِ ، أخذَ المسلمون في صدرِ الإسلام يعملُون على تثقيفِ أطفالهم ، وإرسالِهم إلى الكتاتيب وأماكنِ التَّعليم ، حتّى يتزوّدوا بزادِ العلْمِ ، وحتى يكونوا معلمي الغَدِ ، ويكُونوا من الأخيار الذين قيل فيهم: «خيركُم مَنْ تعلَّم وعلَّم» .

* وفي عَصْرِ بني أميّة انتشرتْ مدارسُ التَّعليمِ انتشاراً واضحاً ، وغدا التّعليمُ للقراءةِ والكتابةِ بيِّنَ الأثرِ بين النّاسِ ، ففي عهدهم الميمونِ جرى نَقْطُ المُصْحَفِ وتشكيلُه ، وإحصاءُ آياتهِ وكلماتِه وحروفِهِ ، وتقسيمُه إلى ثلاثين جزءاً ، والعنايةُ بكتابتِهِ وتدريسهِ وتحفيظهِ .

* وبرزَ في تلكم الحقبةِ معلّمون أفذاذٌ ، منهم التَّابعيُ الجليلُ عطاءُ بنُ أبي رباح ، فقد وردَ أنّه كان يعلّمُ الكتابةَ في عَهْدِ سيّدنا معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ويأخذُ أجرَ تعليمهِ من أولياءِ الأطفالِ ومن المتعلّمين ، وكذلك كان صفوانُ بن سُليم يعلم الكتابَ بالمدينة؛ وذكر ابنُ شهابٍ الزُّهريّ أنَّ سعدَ بنَ أبي وقّاص

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٨٨٣) .
(٢) مختصر شعب الإيمان (ص ٢٠٥) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت .

ـ رضي الله عنه ـ قدمَ برجلٍ منَ العراقِ يعلّمُ أبناءَهم الكتابَ بالمدينةِ ، ويعطونَهُ على ذلك الأَجْرَ.

* ويظهرُ لنا من خلالِ البحثِ والسَّعي في عهد بني أميّة أنَّ المكاتبَ ـ المدارسَ ـ قد انتعشتْ في عهدِهم انتعاشاً كبيراً ، وكثرَ المعلّمون الأكفَاءُ المتمكّنون من نواصي اللغةِ والأدبِ والشّعرِ ، والحافظون لكتابِ اللهِ عزّ وجلّ ، وللحديثِ الشَّريفِ ، فقد ذكروا أنَّ عددَ الأطفالِ في مكتبِ الضّحّاكِ بنِ مزاحم[1] المتوفىٰ سنة (١٠٥ هـ) قد بلغَ حوالي ثلاثة آلاف طفْلٍ ، وكان يطوفُ عليهم على حمارٍ حين يشعرُ بالتّعبِ ، وربما كان يساعدُهُ بعضُ المعلّمين في مدرستهِ الكبيرةِ.

* ولا شكَّ في أنَّ كثيراً من هؤلاء المشاهيرِ كانوا معلّمين وعندهم مئاتُ الطُّلاب من أطفالِ المسلمين وأبنائِهم ، ومن مشاهير المعلّمين في دنيا المشاهير: الكِسَائِيُّ وقُطْرب وسُليمانُ الكلبيّ وعطاءُ بنُ أبي رباح وغيرهُم كثير ، وهؤلاء كانوا يعلّمون في كتاتيبَ معدةٍ للتّعليم ، ويرتادُهَا مئاتٌ ، بل آلافُ الأطفالِ.

* وقد سَما بنو أميّة في طُرقِ تعليمِ أطفالِهم سموّاً متميّزاً ، فكانوا يتخيّرون لأطفالِهم الأكْفَاءَ القدوة لتكون أعينُ أطفالِهم معقودةً بهم.

* فهذا عتبةُ بنُ أبي سفيان[2] شقيقُ سيّدنا معاويةَ ـ رضي الله عنهما ـ يختارُ

---

(١) الضّحاكُ بنُ مزاحم الهلاليّ الخراسانيّ ، أحدُ المحدّثين والمفسّرين ، كان يؤدّب الأطفال ، ويقال: «كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي» قال الذّهبي: «كان يطوفُ عليهم على حمار». وثّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، وأبو زرعة والعجليّ والدّارقطنيّ. توفي سنة (١٠٥هـ) (تهذيب التهذيب ٤/ ٨٠ ـ ٨٢) ترجمة رقم (٣٠٥٨).

(٢) عتبةُ بنُ أبي سفيان بن حرب الأمويّ ، شقيقُ معاوية ، ولد في حَياةِ النّبي ﷺ ، ولاّه عمر بن الخطاب الطائف ، وشهد الجملَ مع أمّنا عائشة فذهبت عينُه يومئذ ، كان عتبةُ فصيحاً ، خطيباً ، بليغاً ، مفوّهاً. قيل: «لم يكن أخطب منه» ولما مات سيدنا عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ في مصر ، ولاه معاوية مصر ، وأقام بها سنة ، ثم توفي بها سنة (٤٤هـ) وقد روى عتبة عن أخته أمنا أمّ المؤمنين أم حبيبة زوج النبي ﷺ (المعارف ص ٥٨٦) و(تهذيب التهذيب ٥/ ٤٥٩) مع الجمع والتصرف.

لأطفالِهِ معلّماً من كبارِ المثقّفين ، ثمّ يوصيه بوصيةٍ تربويةٍ من أجملِ ما ندَّتْ به قرائحُ التَّربويين ، فقال: «ليكُنْ أوّلُ ما تبدأُ بهِ منْ إصلاحِ بنيَّ إصلاحُ نَفْسِكَ ، فإنَّ أعينَهُم معقودةٌ بعينك ، فالحُسْنُ عندهم ما استحسنتَ ، والقبيحُ عندهم ما استقبحتَ ، وعلّمْهُمْ كتابَ اللهِ ، ولا تكرههم عليهِ فيملّوهُ ، ولا تتركْهُم منه فيهجروهُ ، ثمّ رَوِّهم منَ الشِّعْرِ أعفَّه ، ومن الحديثِ أشرفَه ، ولا تخرجهم من علْمٍ إلى غيره حتّى يحكموه ، فإنَّ ازدحامَ الكلامِ في السَّمعِ مضلّةٌ للفَهم»(١).

* ومن النّصوصِ التَّربويةِ المشرقةِ في ديوانِ التَّربيةِ ، ما جاء في وصيّةِ هشامِ بنِ عبد الملك حينما أوصى سُليمانَ الكلبيَّ بطريقةٍ ينبغي أنْ يسيرَ عليها ، وذلكَ عندما جعلَهُ مؤدّباً لولدِهِ ، فقال له: «إنّ أوّلَ ما آمرك به أنْ تأخذَهُ بكتابِ اللهِ ، وتقرئه في كلِّ يوم عشراً يحفظُه حفْظَ رجلٍ يريدُ التّكسُّبَ به ، ثمّ روّهِ منَ الشِّعْرِ أحسنه ، ثمّ تخلّلْ بهِ في أحياءِ العربِ؛ فخذْ من صالحِ شِعْرِهم هجاءً ومدحاً ، وبَصّرْهُ طرفاً من الحلالِ والحرام ، والخطبِ والمغازي ، ثمّ أجلسْهُ كلَّ يومٍ للنَّاس ليتذكّر»(٢).

* وفي العصرِ العبَّاسي كثرتِ المدارسُ ، وتوسَّعَ التَّعليمُ ، وانتشرَ في المدنِ والقُرى ، وزاد عددُ الطُّلاب ، وازدحمتْ بهم دورُ العلْمِ ، فأنشئتِ المدارسُ الكبيرةُ كالمدرسةِ النّظاميةِ في بغدادَ التي ظهرتْ في القَرْنِ الخامسِ الهجريّ ، والتي أسَّسها نظامُ الملكِ الحسنُ بنُ عليّ بنِ إسحاقَ الطّوسيّ ، وأنشأَ كذلكَ عدّةَ مدارسَ أخرى في بلادِ فارس ، وواحدةً في جزيرة ابنِ عمر. ثم بدأتِ المدارسُ تظهرُ في مختلفِ البلدانِ الإسلاميّةِ ، وكانت أوّل مدرسةٍ أُنشئَتْ في دمشقَ؛ المدرسةُ الصَّادريةُ سنة (٤٩١ هـ) وهي لا تزالُ قائمةً على عروشها إلى أيّامنا هذه ، وتحتفظُ بتخطيطها القديمِ الجميلِ.

* ومن الجدير بالذّكرِ أنَّ المعلمين الذين كانوا قيّمِيْن على هذهِ المدارسِ ،

---

(١) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٢٤٩) ، ومحاضرات الأدباء (١/ ٥٣).

(٢) محاضرات الأدباء (١/ ٥٣) وقال ابن المعتز عن هشام بن عبد الملك: «لم يقل هشام سوى هذا البيت» وهو:

إذا أنتَ لمْ تعصِ الهوى قادكَ الهوى ... إلى كلّ ما فيه عليك مقالُ

كان لهم منزلةٌ في نفوسِ النّاسِ ، فقد كان العوامُ وأفرادُ الشّعبِ يجلّونَ المعلّمين العُلَماءَ ويحترمونهم ، ويحسبون حسابَهم ، وينزلونهم منازلهم ، حتى إنَّ بعضَ النّاس كانوا يقسمون بهم!!! وهذا ما ذكرهُ ياقوتُ الحمويّ إذ أورد أنّهُ يوجدُ بتونسَ قَبْرَ المؤدّب «محْرِز» ، يقسمُ به أهلُ المراكبِ إذا جاشَ عليه البحرُ ، يحملون من ترابِ قبرِه معهم ، وينذرون له[١]. . . !!!؟؟

* إنَّ الوالدَيْن مسؤولان عن تعليمهما لأطفالِهما ، وإرسالهم إلى المدارسِ ، إذ إنَّ الأطفالَ لا يملكون لأنفسِهم نفعاً ولا ضرّاً ، ولا يميّزون لأنفسِهم ما يأخذونه لها ، فليس لهم منْ ملجأ إلاّ أبويهم.

* ومن المُتَعارفِ عليه أنَّ نَفَقَةَ الأطفالِ واجبةٌ على الوالدِ ، إذ ليس للأطفالِ من حيلة يستعينون بها ، فيستغنون بأنفسِهم عن آبائِهم ، فيحضرون المعلّمين ليدرسونهم ، أو يذهبون إلى المدارسِ ليتلقّوا فيها العِلْمَ والثّقافةَ.

* وقد تنبّه إلى هذه النّواحي أبو الحسنِ القابسيّ ، وصرَّحَ بوجوبِ تعليمِ الأطفالِ عند معلمين تربويين فقالَ: «وقد أُمِرَ المسلمون أنْ يعلّموا أولادهم الصَّلاة ، والوضوءَ لها ، ويدربوهم عليها ، ويؤدّبوهم بها ليسكنوا إليها ويألفوها ، فتخفَّ عليهم إذا انتهوا إلى وجوبِها عليهم ، وهم لابدَّ لهم إذا علموهم الصَّلاة ، أنْ يعلّموهم منَ القُرآنِ ما يقرؤونَهُ فيها ، وقد مضى أمْرُ المسلمين أنَّهم يعلِّمون أولادهم القرآن ، ويأتونَهم بالمعلّمين ، ويجتهدون في ذلك ، وهذا ممّا لا يمتنعُ منه والد لولده وهو يجدّ سبيلاً ، إلاّ مداركة شحّ نفسه ، فذلك لا حجّة له»[٢].

---

(١) انظر: معجم البلدان (٢/ ٤٣٤) ومحرزُ هذا؛ اسمه: محرز بنُ خلف أبو محفوظ التونسيّ الصِّدِّيقي نشأ بتونسَ ، وعن علمائها أخذ العلم والأدب؛ كان عالماً فقيهاً ، غلب عليه الزّهد والعبادة ، اشتهرت فضائله ، وكان ملجأ لأهل تونس وغيرهم في قضاء حوائجهم ، معظماً عند السلطان ، يرجون بركته ، ويخشون دعوته. وكان مربياً انتفع الناس بوعظه ، وكان شاعراً مفلقاً. ومن كلامه: «المؤمن يأكل ما حضر ، ويلبس ما ستر ، ويأخذ ما صفا ويترك ما كدر» توفي سنة (٤١٣هـ) (عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أو أديب ١/ ١٣٠ ـ ١٣٧).

(٢) التربية في الإسلام (ص ٢٨٧) لأحمد الأهواني.

* ومن هذا المنطلقِ وتلكم النّصوص يتَّضحُ أمامنا أنَّ مسؤوليّةَ المدرسةِ جسيمةٌ ، فهي تتحمّلُ في عنقها تعليمَ الأطفالِ وتثقيفَهم ثقافةَ الإسلامِ الصَّافية الأصيلة غير الممزوجةِ بألاعيبِ الغربيين مِنَ المتفلسفين والمدّعين أصول التّربيةِ ، ففي تراثِنا وتاريخنا وتاريخ المربّين المسلمين كفايةٌ وزيادةٌ ويصلح لكلّ جيلٍ من الأجيالِ المُسلمةِ.

* إنّ المدرسةَ ذات الإدارةِ الواعيةِ المثقّفة ، والأسرة التّربوية المتميزة المطّلعة لها كبيرُ الأثرِ ، وجليلُ التّوجيهِ ، ولطيفُ المجالِ التّربوي ، بحيث إنَّها تؤثّرُ بشكلٍ إيجابي سليمٍ في شخصيّةِ الأطفالِ لديها ، إذا قامتْ بأداءِ رسالتِها التّربويّةِ على خيرِ ما تصبو إليهِ الحاجةُ في توجيهِ الأطفالِ وتربيتهم.

* يقولُ عبدُ الرّحمن النّحلاوي في الوظيفةِ الرئيسيّةِ للمدرسةِ في نظرِ الإسلامِ بأنَّها هي: «تحقيقُ الشَّريعةِ الإسلاميّةِ بأسسِها الفكريّة ، والعقيديّة ، والتّشريعيّةِ ، وبأهدافِها ، وعلى رأسِ تلكَ الأهداف: عبادةُ اللهِ وتوحيدُهُ ، والخضوعُ لأوامرِهِ وشريعتِهِ ، وتنميةُ مواهبِ النّشء حسبَ فطرةِ الإسلامِ التي فطرَ اللهُ العبادَ عليها ، والمحافظةُ على تلكَ الفطرةِ من الزّيغ والضَّلالِ»(١).

* وممّا يسرُّ الآن أنَّ كثيراً من المدارسِ ورياضِ الأطفالِ ـ في أيّامنا هذه ـ تسعىٰ لتحقيقِ بعض أهدافِ التّربية الإسلاميّةِ الصَّحيحةِ ، وتعليمِ الأطفالِ أجملَ الأساليبِ وأنقاها ، وتقريبِ المعلوماتِ إلى أذهانهم ، واستغلالِ قُدراتهم وتوجيهها بما ينفعُها ويجعلُ منها أداةً صالحةً في المجتمعِ ، وقد اختارتْ هذه المدارسُ ثلّةً من المربّين والمربيات ممّن تربّوا على حبِّ التّربية الإسلاميّة ، والتّربيةِ القويمةِ المستمدةِ من المدرسةِ المحمديّةِ المباركةِ.

* وإذا أردنا أنْ نحدّدَ دور المدرسةِ الثّقافي في حياةِ الأطفالِ ، علينا أنْ نتحدَّث عن المراحلِ الثّلاثِ للمدرسةِ وهي: المرحلةُ الابتدائيّةُ ، والمتوسطةُ ، والثّانويّةُ ، ونركّز على المرحلةِ الابتدائيةِ وأسرتها التّربويةِ لأنَّها

(١) أصولُ التّربية الإسلامية وأساليبها (ص ١٣٤).

هي الأساسُ لكافّةِ المراحلِ الأخرى بما فيها: الجامعيّةُ والعُليا والتَّخصُّصُ.

* فالمرحلةُ الابتدائيةُ من المراحلِ المهمّةِ في حياةِ الأطفالِ الثَّقافيةِ، وتكوين شخصيّاتهم وميولهم. فالمدرسةُ تعملُ على إحياءِ ما غرسه الأبوان وتَقْويتِهِ في نفوسِ الأطفالِ من قيمٍ وعاداتٍ ومعتقداتٍ، وكلّما تقدّمَ الأطفالُ مرحلةً تتوضّحُ شخصيّتُهم، وتتبلورُ ثقافتُهم.

* إنَّ المدرسةَ الابتدائيّةَ (An elementary school) ـ ذات الإدارةِ الحصيفة والأسرةِ التَّعليميَّةِ الرّاشدةِ ـ تعملُ بإخلاصٍ ووفاءٍ وصدقٍ على إزالةِ ما يتعلّمُهُ الأطفالُ من مفاهيمَ وعاداتٍ غير سليمةٍ، سواء استقَوها من المنزلِ، أو الشّارعِ أو المجتمع، أو في أيّ مكانٍ آخر.

* ومن المُسَلَّمِ بهِ والمتعَارفِ عليه بين أهلِ التّربيةِ والتّعليم أنَّ للمدرسةِ الابتدائيةِ دوراً بنّاءً، وأهدافاً إنشائيةً ذات قصدٍ تربوي منها: تزويدُ الأطفالِ بالخبراتِ اللفظيةِ الصَّحيحة، والكلامُ الموزونُ المُعْرَب، والنُّطقُ السَّليمُ والعقليّةُ الواعيَةُ، ليستطيعوا تأديةَ دورهم البنّاءِ في المستقبلِ ومواصلةِ النَّجاحِ في دراستِهِم.

* أمّا إذا كانتِ الإدارةُ لا تهتمُّ بالمدرسين والمربّين، فإنَّ حصيلةَ الأطفالِ لن تزيدَ عن الصِّفْرِ، خصوصاً إذا كان المديرُ (Headmaster) ـ مثلاً ـ خالي الوِفَاض، لا يتقنُ اللفظَ السَّليمَ ولا التّحدُّثَ باللغةِ الفُصحى المقبولةِ نوعاً ما؟ فما عسى أن يكونَ مستقبلُ الأطفالِ في إدارة عرجاء، ومدير يرطنُ باللغة؟!!!

* إنّ للمديرِ خصائصَ وصفاتٍ متميّزة يجبُ أنْ يتمتعَ بها، ومنها: الثَّقافةُ الشّاملةُ، والذّكاءُ، وحسنُ الملاحظةِ، ودقّةُ المتابعةِ، كما يجبُ أنْ يكونَ حصيفاً لمّاحاً، يحسنُ التَّعاملَ مع مدرّسيهِ وطلاّبهِ ومراجعيه، ومَنْ يعملُ معه في رفعِ مستوى الأطفالِ الثَّقافي؛ فإذا كان المديرُ من هذه الفئةِ ارتفعَ مستوى الأطفالِ علميّاً وتربوياً وثقافياً، أما إذا كان المديرُ لا يتقنُ توجيهَ الأطفالِ بلُغةٍ سليمةٍ ولا توجيهٍ حصيف، ولا تصرّفٍ سليم فكيف تكونُ النّتيجةُ؟!!

* روىٰ أحدُ المدرِّسين، أنّه كان يعملُ في مدرسةٍ كبيرة، وكان مديرُها

يقرع سمعهم صباحَ معظمِ الأيام بتوجيهاتٍ وخُطَبٍ رنّانةٍ طنّانةٍ ، يرفعُ من خلالها المضافَ إليهِ والمفعول ويجرُّ الفاعل والمبتدأ والخبر ، بالإضافةِ إلى أنَّ معظمَ حروفهِ وكلماتِه مهلْهَلةٌ كأنَّها قد خاضتْ حربَ داحسَ والغَبْراء ، وشهدتْ كذلك يومَ بُعَاث وكان لا يُلقي بالاً لأحدٍ ، كأنّه في الميدانِ يطلُبُ وحده الطَّعنَ والنّزال ، وبعثَ بخطبهِ الرّكيكة تلك سيبويهِ والكسائي من البِلى ، وتجنّى على ابن جنّي . . ! . . . .

* وذكر المُدَرِّسُ أنّ هذا المدير قد وعظَ الأطفالَ يوماً ، وحضَّهم على العِلْمِ وقرأَ أوّلَ سورة العَلَقِ ، فلم يتقنْ لفظَها وقرأ الآيةَ الخامسةَ منها على النّحو الآتي: «عَلَّمَ الإنْسانُ ما لَم يَعْلَم» فرفعَ الإنسان وهي منصوبة؟!!.

* ثمَّ زادَ الطِّينَ بلَّة ، فوعظَ الأطفالَ يوماً آخر موعظةً خلَطَ فيها بين الحديثِ والقُرآنِ ، فبعد أنْ حضَّ الأطفالَ على حسنِ المعاملةِ ، ومساعدةِ الآخرين ، أخذَهُ الحماسُ وقال لهم مستشهداً ـ كما زعم بآيِ القرآن الكريم ـ: وكونوا كما قالَ الله تعالى: مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمِهم كمثل الجَسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسدِ بالسَّهر والحمى. . . بالحمى والسّهر[1].

* وليستِ المصيبةُ هنا في خَلْطِهِ الحديثَ بالآياتِ ، ولكنَّ المصيبةَ أنّه كانَ يقرأُ ألفاظَ الحديث بطريقةٍ قبيحةٍ ، ومن أمثلةِ ذلك أنَّه قرأ: «كمَثَلِ» قرأها «كَمَثَلُ» وقِسْ على ذلك بقيّة الكلام. . والأنكىٰ والأشدّ مِنْ هذا وذاك أنّه لم يصحِّح لهُ أحَدٌ منَ المعلّمين ما كان يقعُ فيهِ من مطبّاتٍ وحُفَرٍ تهلكُ الحرثَ والنَّسلَ والفِكْرَ والثّقافةَ!! ولا نملك إلاّ أنْ نقولَ: «كان اللهُ في عونِ الأطفالِ ، وعونِ اللغةِ».

* ونودُّ أنْ نذكّرَ القارىء الكريمَ بأنّنا لم نوردْ هذه الأشياء من بابِ التّعريضِ بأحدٍ ، أو أنّنا نسمع لأي رجلٍ يتحدّثُ دون التّأكدِ. . . لا ، بل إنّنا نريدُ من

---

(١) هذا حديث صحيح ونصه من حديث النّعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النبي ﷺ قال: «مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسدِ بالسَّهر والحمى» أخرجه البخاري برقم (٦٠١١) ، ومسلم برقم (٢٥٨٦).

وراء هذا النّصحَ لمن لا يسمعون النّصيحة... وهم يظنّون أنّهم يحسنون صنعاً ، ويعبثون باللغة وآدابها وبالتّراثِ وأصولهِ..

* وممّا يزيدُ الأمْرَ خطورةً ما رواه لي صديقي المعلّم من أنّ هذا المديرَ قد اتّخذَ بطانةً لا يألونَه خَبالاً ، فكان يرىٰ ما يَرون ويَهْوَوْن ، وكثيراً ما كانُوا سبباً في إحباطِ خبراتٍ متميّزةٍ لمعلّمين أفاضل قَلّ أنْ يجودَ الدَّهْرُ بأمثالِهم؛ وكثيراً ما كانوا يحاولون عرقلةَ المسيرةِ التّربويّة في سبيلِ إرضاءِ ما تُمليه عليهم أهواؤهم المريضةُ حَسَداً وبغياً. ونحنُ ندعو لأمثالِ هؤلاء أنْ يصلحَهم اللهُ ويرشدهم لما فيهِ الخيرُ للجميع إذ إنّ العمرَ قصير ، والنّاقد بصير ، وإلى اللهِ المصير.

* إنَّه لا يخفى ما للتّعليمِ في المرحلةِ الابتدائيةِ من أهميةٍ في صياغةِ شخصيّاتِ الأطفالِ ، وبناءِ ثقافتِهم ، فمن تلكم المرحلة يأخذُ الأطفالُ أساسَ معارفهم ، ولذا فإنَّه ينبغي على الذين يهتمون بهذه المرحلةِ الحسَّاسةِ أنْ يُولُوها اهتمامَهم وبالغَ عنايتهم ، وأنْ يختاروا لها المديرين والمعلّمين[1] الأكْفَاء ، لأنّها أمانةٌ ، وما أدراكم ما الأمانةُ ، لأنَّ التَّعليم الصَّحيحَ والسَّليمَ للصِّغار يوصلُ إلى نتائجَ طيّبةٍ ، ورحمَ اللهُ ابن خلدون إذ تنبّه إلى هذا فقال في مقدمته الشَّهيرة: «إنَّ تعليمَ الصِّغَر أشدُّ رسوخاً ، وهو أصلٌ لما بعد ، لأنَّ السَّابق الأوَّلَ للقلوبِ كالأساسِ لِلْمَلَكَاتِ ، وعلى حسبِ الأساسِ وأساليبهِ ، يكونُ حالُ ما يبني عليهِ».

* ودعني الآن أحدثكَ عن المدرسةِ ودورِها الثّقافي المهمّ للأطفالِ ، لكي

---

(١) ما من حاجةٍ إلى التّأكيد في أنّ المدرسَ أو المعلّم أهمّ شخصية في حياة الطّفل بالمدرسةِ بعد أبويه ، وترجعُ هذه الأهمية إلى ما يترك في نفوس تلاميذه من أثر يبلغ الحدّ الذي يمكن أنْ يُقال: إنّه لا يمكن أنْ يكون سلبياً. وللمدرس سلطةٌ قويةُ الأثرِ في نفوس الصّغار ، وله عدّة أدوار مهمّة ، فيمكن أنْ يقومَ بدور الأب ، والمشرف ، والرئيس ، والخبير ، والعالم ، والصّديق ، والموجه ، والمعالج. وتختلف أهميّةُ الدّور الذي يقومُ به المدرس في نفوس تلاميذه وفقاً لشخصيته من ناحية ، ولسِنّ التّلاميذ الذين يشرف عليهم من ناحية أخرى.
وأياً كان الدّورُ الذي يقومُ به المدرس ، فإنَّ مهمّته الأولى معاونة التّلاميذ على تحقيقِ النّجاح الثّقافي ونضجه ، والأخذ بأيديهم إلى ينابيع الخير.

تكونَ الصّورُ واضحةَ المعالمِ ، تفيدُ القارىءَ والمستمعَ ، كما تفيدُ مَنْ يودُّ أنْ يبنيَ نفوسَ الأطفالِ وعقولَهم على أساسٍ سليمٍ ومتينٍ ، خصوصاً إذا اعتمدتِ المدرسةُ على الثّقافةِ الإسلاميّةِ المفيدةِ ، وحرصتْ كلَّ الحرص أنْ تكون أسرتُها التّربويّةُ تضمُّ الخيرةَ من المثقّفين والمهتمين بالتّربيةِ الإسلاميّةِ .

* فالأطفالُ في المدارسِ التّربويةِ المُتّزنةِ يتميّزون عن غيرِهم بالثّقافةِ الواعيةِ الصَّحيحةِ ، وهذا هو المفروض في المجتمعِ المسلمِ الذي يهتمُّ بالجيلِ وبخاصّةِ الأطفال منهم .

* إنَّ المدرسةَ الابتدائيةَ ـ خاصّةً ـ والتي حملتْ على عاتِقها تربيةَ أطفالِها في ضوءِ القُرآنِ والسُّنَّةِ والآدابِ الإسلاميّةِ ، تسعىٰ بكلّ جهدِها أنْ تربّيَ الأطفالَ ليكونوا صالحين ، وهي تواكبُ تربيةَ الأطفالِ الإسلاميّةِ التي بدأهَا الأبناءُ في بيوتهم ، وتسيرُ معهم خطواتٍ نحو الاكتمالِ والفضائلِ . وهذه التّربيةُ المدرسيّةُ الصَّحيحةُ لا تأتي من فراغ ، لأنّ المدرسة تحرصُ كلَّ الحرصِ على أنْ يكونَ مدرسوها وأسرتُها التَّربويةُ من المتخصّصين في التّربيةِ ، وبالتّالي تقوّمُ وتصحّحُ ما عسى أن يكونَ البيتُ قد نسيَهُ أو فاتَهُ ، فقد يكونُ الأبوان غيرَ موهوبَيْن في أساليب التّربيةِ وفنونها؛ أمّا المدرسةُ فهذهِ مهمّتُها الرّئيسيّةُ: أنْ تربي الأطفالَ على منهجٍ مدروسٍ نقيٍ منَ الشّوائبِ ، وذلكَ على أيدي المعلّمين الذين هم على درْبةٍ ودرايةٍ وخبرةٍ بمنهج التّربيةِ الإسلاميّة القويمةِ .

* إنَّ المدرسين المؤهّلين تربوياً على منهجِ التّربيةِ الإسلاميّةِ ، هم الذين يكملون مع الأطفال في المدرسةِ شوطَ التَّربيةِ الثّقافيةِ الذي انطلقوا به من بيوتهم ، ويكون المدرسون والمدرسةُ خيرَ مَحْضَنٍ في تنشئةِ الأطفالِ نشأةً صافيةً ، إذ يربطون قلوبَ الأطفالِ الصَّغيرةَ الصَّافيةَ باللهِ ، ويطبعونَهم بطابعِ الأخلاقِ والقيمِ المستمدة مِن فضائلِ الإسلامِ ومكارمهِ ، إلى جانبِ تعليمِ الأطفالِ العُلومَ الأخرى من لغاتٍ ، ورياضياتٍ ، وموادَ أخري نافعة .

* ومن المفروضِ في المدرسةِ التي تثري أبناءَها بالثّقافةِ الإسلاميّة قولاً وعملاً ، أن تكونَ أخلاقياتُ الإسلامِ وسلوكياتُهُ هي أساسُ التّعاملِ فيها بين المديرِ والمدرّسين ، وبين المدرسين والطّلاب ، لا أنْ تكونَ هناك نظراتٌ

وترقّبُ هفواتٍ بين هذه الأسرةِ التّعليميّةِ ، وإلاّ فَقَدَ التَّعليم هيبتَهُ ، وتلاشتْ قِيمَتُهُ ومبادئهُ وقواعدُ سلوكِه .

* لا شكَّ في أنَّ مهمّةَ المدرسةِ هي تثقيفُ الأبناء بشتّى ألوانِ العلومِ النّافعةِ ، ولكنَّ مهمتَها أكبرُ في بناءِ شخصيّةِ الطُّلابِ الثّقافيةِ ، فهي مسؤولةٌ عن تكوينِ شخصيّاتهم ، وكيفيةِ الاستفادةِ من هذا العِلْم ، وكيفيّةِ التَّعاملِ مع النَّاسِ بشكلٍ عمليّ ونظريّ ، ليتدرَّبَ النَّشء على تحمّلِ تبعاتِ الحياةِ ، وليكتسبوا بعضَ الخبراتِ المفيدةِ لمسيرتهم التّربوية .

* وأودُّ في نهاية هذه الفقرة أنْ أذكّر الآباءَ والمربين بأنَّ المدرسة لا تستطيع وحدها بناء ثقافة الأطفال ، فليس كل ما يقال في المدرسة حقاً ، إذ إنَّ المعلمين ليسوا جميعاً من أهلِ الصَّلاحِ والتَّقوى والتّربيةِ . ويخطىءُ مَنْ يحسبُ أنَّ رسالةَ المدرسةِ تقتصرُ على النَّاحيةِ العِلْميّةِ والتّحصيلِ المعرفيّ فحسب ، بل إنّها مسؤولةٌ عن التَّربيةِ الأخلاقيةِ ، والتّوجيهاتِ الأدبيةِ والثّقافيةِ ذات الطّابع الإسلاميّ .

* ومن ها هنا ينبغي على الآباءِ والأمّهاتِ والمربّين متابعة ما يتلقّاهُ أطفالُهم في المدرسة ، فيقوِّمُوا ما يحتاجُ إلى تقويمٍ من الأفكارِ والتَّصوُّراتِ المنحرفةِ التي تعيقُ التّربيةَ الثّقافيةَ السّليمةَ . ويجبُ عليهم أيضاً أن يكملُوا ما قد يحصلُ من نقْصٍ في عمليتي التّربية والتَّعليم في المناهجِ المدرسيّة ، إذ إنَّ المربّين والمدرسةَ يشكّلان زاداً ثقافياً متكاملاً للأطفال ، وخصوصاً إذا استطاع الآباءُ أن يخصِّصوا بعضَ الأوقاتِ لزيارةِ المدرسةِ ، وأنْ يتعرّفُوا على المديرِ والمعلمين من خلالِ اللقاءات المتكرّرة .

* وهناك ناحيةٌ مهمّةٌ جداً تقعُ على عاتق الآباء والمربّين وهي حسنُ اختيار المدرسة للأطفال ، إذ ينبغي أنْ يكون الجهازُ التّعليميُ من أهلِ الخيرِ والصّلاحِ والثّقافةِ ، وغالباً ما تتوفّر هذه الشُّروط في المدارسِ الخاصّةِ والأهليّةِ التي هدفُها بناء ثقافةِ الأطفالِ قبل الأهداف المادية ، كما أنَّ هدفَها بناءُ نفسيّةِ الأطفال بناءً سليماً مناسباً ، فلا تمدُ إلى الاختلاطِ حتّى في المرحلةِ الابتدائيةِ . ولا تلتفتُ إلى الدِّعايات وإلى التّربويّات المستوردة في هذا المجال ، بل

تحمي الأطفالَ ذكوراً وإناثاً من كلّ ما يؤثّر على سلوكهم ونفسيّاتهم.

* إنَّ المدرسةَ النَّاجحة[1] هي التي تربّي الأطفالَ تربيةً واعيةً، تربيةً تكملُ رسالةَ الأبوين، وتسعفُ ما قصَّرا فيهِ، أو غابَ عنهما بعضُه، وتحتاجُ هذهِ التَّربيةُ إلى الأمانةِ في التَّعليمِ والتَّعلُّمِ، فلا غشٌّ ولا محاباةٌ، وبالتّالي تكون الثمرةُ التّربويةُ مفيدةً ومجديةً؛ وناجحةً وموفّقةً، وخصوصاً إذا وجدنا المعلّمَ النَّاجحَ الذي يؤسّسُ نفوسَ الأطفالِ ويبنيها على الثَّقافةِ الحقَّةِ، وعلى التّعليمِ الصَّحيحِ. وهذا ما نتعرفُ أحوالَه في الفقْرةِ التَّاليةِ بإذنِ اللهِ تعالى.

*** رابعاً: المعلّمُ وأثَرُهُ الثَّـقـافـيُّ بنُفُوسِ الأطْـفَـالِ:**

* هذه فقرةٌ مهمّةٌ بالنّسبةِ للفقْراتِ الأخرى، إذْ هي ريحانةُ هذا الفصل ووردَتُهُ. لما لها من أثرٍ جليٍّ في بَذْرِ الثّقافة بين صفوفِ الأطفالِ على مقاعدِ الدِّراسة، أو في مجالسِ التّعليمِ المختلفةِ من قِبَلِ المعلّم المثقّف.

* إنَّ لشخصيةِ المعلّم (Teacher) أثراً عظيماً في عقولِ الأطفالِ ونفوسِهم. فهم يتأثّرون به وهم في تلك السِّنّ الصَّغيرةِ، فيقلّدون حركاتِهِ وإشاراتِهِ، وربّما يقلّدونَه في مظهرِهِ وفي شكْلهِ وسلوكهِ؛ وقد أكّدَ المربُّون ـ قديماً وحديثاً ـ بأنَّ الأطفالَ أشدُّ تأثُّراً بغيرهم من النَّاسِ من الشَّبابِ، وهم أسرعُ في كَسْبِ الكلام والتقاطِ الحركَات عن الذين يتّصلون بهم منَ الكبارِ، وخصوصاً إذا كان الكبارُ من المعلّمين أو المربّين.

* إنَّ الأطفالَ يقضون شطْرَ نهارِهم وهم بصحبةِ المعلّم، فهم يتّصلُون به أكثرَ من صِلَتِهم بآبائِهم وأهلِهم، ومن الطَّبيعي أنْ يكونَ تأثيرُ المعلّمِ في نفوسِ الأطفالِ أكثرَ وأعمقَ من تأثيرِ أهلهم فيهم، فالمعلّم هو الذي يقدّمُ إلى الأطفالِ وجباتٍ من غذاءِ الألبابِ وغذاءِ الأرواحِ، وهو الذي يثبّتُ فيهم آدابَ السُّلوكِ

---

(١) من الواضح أنَّ المدرسَةَ الموفَّقَةَ هي التي تحقّقُ الفِطَامَ النّفسيَ للطّفل، وتجتازُهُ بنجاحٍ حافلٍ بدفءِ العاطفةِ وبالسَّلامةِ النّفسيّةِ البعيدة عن بعض العقدِ الاجتماعيةِ. وينبغي أنْ تهتمَّ المدرسةُ بالطفل في السَّنة الأولى، فهي من أخطر سنوات عمره، إذ هي اللبنة التي يقوم عليها صرح مستقبله كله بشتّى الوسائل والنواحي.

وأدبيّاته ، وبالتّالي تترسّخُ في أعماقِهم العاداتُ التي طبعهم المعلّم عليها ، وعوّدهم إيّاها ، ويصعبُ بعد ذلك أنْ يتحوّلوا عنها ، فكلُّ امرىء يعملُ بعادتِه ، وما تعوّده وتربّى عليه لا يتكلّفه ، ولله درّ أبي الطَّيِّب المتنبي الذي فَطِنَ لهذا المعنى منذ أكثر من ألفِ سنة فقال:

لِكُـلِّ امْـرِىءٍ مِـنْ دهْـرِهِ مَـا تَعَـوَّدَا وَعَاداتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ في العِدَا[١]

* ومرَّ معنا في الصَّفحاتِ الفائتةِ كلماتُ عتبةَ بن أبي سفيانَ التي قالَها لعبدِ الصَّمدِ مؤدّب ولده: «ليكن أوّلُ ما تبدأُ به من إصلاح بنيّ إصلاح نفسِك ، فإنَّ أعينَهم معقودةٌ بعينكَ ، فالحسنُ عندهم ما استحسنتَ ، والقبيحُ عندهم ما استقبحتَ. . . . ».

* وكلماتُ عتبةَ بنِ أبي سفيان هذه ـ وايم اللهِ ـ حقيقةٌ ناصعةٌ ، ووصْفَةٌ ناجعةٌ ، فكَمْ من معلّمٍ حصيفٍ ذكيٍ مثقّفٍ قد تركَ أجملَ الأثَرِ في نفوسِ طلّابه وخصوصاً الأطفالَ منهم والمراهقينَ ، فنشأَ أحدهم وقد جعلَ شخصيّة المعلّم نبراساً له ، يقفو أثَـرَهُ في جميعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ[٢] ، وأستطيعُ أنْ أضربَ مثلاً

---

(١) انظر: ديوان المتنبي (٢/ ٣ ـ ١٢) طبعة دار الكتب العلمية الأولى ٢٠٠١م بشرح البرقوقي. وهذه القصيدة بمدح سيف الدولة وعدد أبياتها (٤٢ بيتاً) ، وهي من عيون قصائده.

(٢) وينبغي أنْ نعرفَ ما الصّورة التي يجبُ أن يكونَ عليها المعلّمُ أو المدرس؟
هناك صورٌ كثيرةٌ يمكن أن نجملَها في النّقاطِ التّاليةِ:
١ ـ المعلمُ في ميدانِ التّعليم قائدٌ لأطفالهِ ، فيجبُ أنْ تكونَ العلاقةُ طيبةً فيما بينهم.
٢ ـ يجبُ أنْ يظهرَ المعلمُ أو المدرسُ بمظهرِ الوقارِ الطبيعي ، وأن يكونَ صريحاً مخلصاً مع الأطفالِ حتى يشعروا بالاطمئنانِ معه.
٣ ـ يُعتبرُ المعلّم أخاً أكبر للتلاميذ ، يسترشد به الأطفال ويطيعونه ويحبّونه ، وينبغي على المعلّم أن يكون متّزناً ناجحاً في شخصيته خالياً من عوامل القلق
٤ ـ ينبغي على المعلّم أنْ يلقّنَ الأطفالَ مبادىء الصّحةِ السّليمةِ بتدريبهم وملاحظتهم بعد ذلك ، كما ينبغي عليه أنْ يكتشفَ ما يطرأُ على صحّتهم من عللٍ وأمراضٍ وعيوب نفسية وجسمية.
٥ ـ المعلمُ النّاجحُ هو الذي يراعي العلاقات الإنسانية مع الأطفال ، فلا بدّ له أنْ يمنحَهم الاحترام والثّقة ، وأنْ يقدّر شعورهم فيشاركهم في أفراحهم وأتراحهم وأنْ يساعدهم على تخطّي الصّعاب وحل المشكلات التي تعترض حياتهم. =

بسيطاً هنا على الأثَرِ الثّقافي الواضحِ الذي يتركهُ المعلّمُ المثقَّفُ في نفوسِ طلّابهِ . وهو أني لما كنتُ أمارسُ التّعليم ـ بُعيدَ تخرّجي في الجامعة ـ كنتُ أهتمُّ ـ أحياناً ـ بجمالِ الخطِ العربيّ ، وحُسْنِ التّرتيبِ في الكتابةِ ، والتّأنقِ في اللباسِ؛ والتّأكّدِ من صحّة حفظِ النّصوصِ إنْ كانتْ منَ القرآنِ الكريم ، أو الحديثِ الشّريف ، أو الشِّعرِ العربيّ ، أو غيرِه من قطعِ البلاغةِ العربيّة . فكنتُ آنذاك أَلْحَظُ تأثّرَ الطّلابِ بهذه النّواحي الجماليّةِ ، وكانوا يتبارَوْنَ فيما بينهم ويتنافسون أيّهم يخطبُ إعجابي بما صنعَ وبما رتَّبَ أو حفظَ دون أنْ يلْحَنَ بحرفٍ واحدٍ ، وكنتُ أكافىءُ المجيدَ منهم بهَديّةٍ تناسِبُه . وأذكرُ مرّةً أنَّ معظمَ الأولاد قد حفظَ سورة المزمّل أو سورةً أخرى قريبة منها ، وكانت المدّةُ وقْتَها يوماً وليلة ، فجاء الأولادُ في اليومِ الآتي ومعظمُهم قد حفظ السُّورةَ عن ظهر قلْب . وحظيَ بهديةٍ طريفةٍ لا تزال ذكْراها في نفوسِ بعضِهم إلى الآن.

* وإذا فكَّرنا بصدقٍ وأمانةٍ وواقعيةٍ ، علمْنا بأنَّ المعلِّمَ المتميّز الحصيف هو الذي يحتلُّ المكانة العُليا في المجتمعِ ، لأنَّ الأمّةَ المحترمةَ هي التي تكرمُ علماءَها ومعلميها ، وتمنحُهم الجوائزَ ، وتثْني عليهم ، بمِنَحِ المَدحِ لأنّهم يقدّمونَ ما يملكونَ من نفيسِ ثقافتِهم ليحيُوا بها أرواحَ طلّابهم ونفوسهم.

* ومن هذا المبدأ الميمونِ نقرأُ في القُرآنِ العظيمِ آياتٍ كثيرةً ترفعُ من شأنِ أهلِ العِلْمِ والمعلّمين ومنها قولُ ربنا جلَّ وعزَّ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]؛ وقوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] وكذلك نقرأ في أحاديثِ النّبيّ ﷺ تكريمَ العلْمِ وأهلَه

= ٦ ـ ينبغي أنْ تتوفَّرَ في شخصيةِ المدرس القوة والحزم وعدم التّردد أو التّراجع في أوامره وأن يسدّدَ ويقاربَ ليصلَ إلى الهدفِ المنشود.

٧ ـ يتحتّمُ على المدرس أن يكونَ قدوةً حسنةً في تصرفاته كلّها ، وأن يكون نظيفَ الملابس أنيقَ المظهر . معتدلاً في شكله.

٨ ـ المدرسُ النشيطُ يفيدُ تلاميذه جسمياً وصحياً وعقلياً ونفسياً واجتماعياً ويتمسّك بالعدل في تعامله معهم . فيكسب حبّ تلاميذه له . ويكمل العملية التّربوية والثّقافية معهم . الأمر الذي يبشّر بمستقبل منير للطلاب . فيخدمون وطنهم بإيمان وعزم فيسعد بذلك والداهم ويفخر الوطنُ بأعمالهم.

ومنها: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء..»(١) وقوله: «ثلاثةٌ لا يستخفُّ بهم إلا منافق: ذو الشّيبة في الإسلامِ، وذو العلْمِ، وإمامٌ مقسط»(٢).

* فالمعلّمون الأتقياءُ المخلصون هم موطنُ الثّقةِ من طلابهم، ومن عمومِ النّاس، فالطّلابُ يتأثّرون بهم ويقتدون بأقوالهم، ويتأسون بتصرّفاتهم وأعمالِهم، فهم كالنُّجوم الزَّواهر يُهتدىٰ بها في ظلمات البرّ والبحرِ، فباستِقامتهم يستقيمون ويعتدلون، وبصَلاحِهم يَصْطلحون ويستوون؛ وإذا ما هزُلَتْ ثقافتُهم فكبِّر على الأطفالِ والنّاشئةِ أربعاً، وقلْ: سلامٌ على الدّنيا.

* إنَّ شخصيةَ المعلّمِ المثقفِ يجبُ أنْ تلتزمَ بأخلاقٍ ومكارمَ فوّاحةٍ بالنَّفع، ومنها: الأمانةُ في أداءِ ما عليه من مهام؛ والإخلاصُ في توصيل المعلوماتِ إلى الأطفالِ الأبرياءِ بشكلٍ بعيدٍ عن الشَّوائبِ، كما يجبُ على المعلّم أنْ يلزمَ جانبَ التّواضعِ ليعمَّ الطلابَ بنفحاتِ العلْمِ، ويبذرَ الألفةَ والمحبةَ بينه وبين مَنْ يعلّمهم، وبالتّالي تنتشرُ الثّقافةُ ويعمّ الخيرُ جميعَ المتعلّمين، وتنمو لديهم ملكةُ البحثِ والاستقراءِ وحبِّ القراءةِ، ويصحبوا المعرفةَ في حلِّهم وترحالهم، ويصبحوا من المنهومين في طلبِ العِلْمِ، ويستفيدوا من الحكمةِ أنىٰ وجدوها.

* إنّ كلَّ هذه الفضائلِ والمحاسنِ يجبُ أنْ تكمنَ في شخصيةِ المعلّم النّاجح، ليؤثّر فيمن يعلّمهم، ويكون من ذوي الآثار الإيجابيةِ فيمن حولَه.

* إنَّ شخصيةَ المعلّم كانت إلى عهدٍ قريبٍ قويّةً لها هيبتُها، وكانت تبسطُ ظلَّها على مجتمعها بأسرهِ، وخصوصاً في الرّيفِ والقُرى، حيثُ يعتبرهُ النَّاسُ هنالكَ من أكثرِهم ثقافةً، وأسماهم مكانةً، ومعرفةً بأمورِ الدِّين والفقْهِ وبعضِ أمورِ المجتمعِ، وكانَ الأطفالُ يستفيدون منه، ويعرفون قَدْرَه ومكانته.

* ولكنَّ شخصيةَ المعلّمِ ـ الآن ـ قد غدتْ ـ على الأغلبِ ـ شخصيةً هزيلةً ركيكة، ليسَ لها في النُّفوسِ ذلك البريقُ الجميلُ الذي توهجَ منذ أعوامٍ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، وغيرهما.

(٢) رواه الطبراني.

خَلَتْ، ومنذ عقودٍ انصرمَتْ، ممّا جعلتْ «أحمد شوقي» ـ في نهايةِ الرُّبعِ الأوّلِ من القرنِ العشرين[١] ـ يشدو بهذه «الشَّوقيّةِ» المُطْرِبة في ثوبها الزّاهي الأنيقِ، وقافيتها اللاميةِ الخالدةِ، فيقول:

قُــمْ للْمُعَلّــمِ وَفِّــهِ التَّبجيــلا ... كــادَ المعلّــمُ أنْ يكــونَ رســولا
أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي ... يَبْنــي وينشــئُ أنْفُســاً وعقــولا
سُبحــانــك اللهــم خَيــرَ مُعَلّــمٍ ... علّمــتَ بــالقلمِ القــرونَ الأولـى
أخـرجـتَ هـذا العَقْلَ من ظلمـاتـهِ ... وهَــديتَــه النُّــورَ المبيــنَ سبيــلا

* ومنها:

فهــو الــذي يَبْنــي الطِّبــاعَ قـويمـةً ... وهــو الــذي يَبْنــي النُّفـوسَ عُـدولا
ويقيـمُ منطـقَ كـلّ أعـوجِ منطـقٍ ... ويـريـهِ رأيـاً فــي الأمـورِ أصيْـلا
وإذا المعلّــمُ سـاءَ لحـظَ بصيـرةٍ ... جـاءتْ علـى يـدهِ البصـائـرُ حُـولا

* ومنها يخاطبُ المعلّمين:

إنّــي لأعــذرُكــمْ وأحســبُ عبئكــم ... مــن بيــنِ أعبــاءِ الــرّجــالِ ثقيـلا[٢]

* وقد غدتْ قصيدةُ «قُم للمعلّمِ» من القصائدِ الشّوقيةِ الطّنّانةِ في عالمِ الشِّعْرِ والنّظم، وانتشرتْ على ألسنةِ النّاسِ في الشّرقِ والغربِ، وأمست كالحبْلِ السِّري لجميعِ المعلّمين الذين يؤلّفون شريحةً كبيرةً من المجتمعاتِ، وقَلَّ أنْ تجدَ معلّماً إلاّ يحفظُ بعضها؛ أو مطلعَ هذه القصيدة التي رفَعَت اسمَه لامعاً بينَ الأسماءِ الأخرىٰ.

* ولعلّه منَ الطَّريفِ والممتعِ أنْ نستطردَ الآن قليلاً في رحابِ قصيدة «قُم للمعلّم» من بابِ المُتعةِ والفائدةِ والتَّرويح والمعرفةِ... فنقول: «على الرّغمِ منْ أنَّ «أحمد شوقي» لم يجربِ التّعليمَ ولم يمارسْ تربيةَ النَّاشئة، إلاّ أنَّ النَّاسَ وقفوا حيالَها فريقَيْن اثنَيْن: فريقٌ أيّد شوقياً ورأىٰ أنَّ المعلّمَ كادَ أنْ يكونَ

---

(١) نظم شوقي قصيدته هذه حوالي عام (١٩٢٤م) وغدت من مشاهير القصائد في الدنيا، وصارت أهزوجة نشوى على فم المتعلمين والمعلمين ومحبّي العِلْم...

(٢) انظر: الشوقيات (١/ ١٨٠ ـ ١٨٤) وهي قصيدة طويلة تبلغ حوالي (٦٦ بيتاً) وألقيت في حفل قام به نادي مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة.

رسولاً . . !! وفريقٌ آخر رأى أنَّ المعلّمَ شقيٌّ بمهنتهِ لا يجتني سوىٰ الإفلاسِ في كلِّ شيء».

* ومن الطَّريفِ أنَّ كثيراً من الأدباءِ والمرّبين والشُّعراءِ قد عارضوا هذه القصيدة ونسجوا على منوالها ، وهم بين مادحٍ للمعلّم أو قادحٍ له وللتَّعليم ، ولا يستطيعُ الباحثُ أن يحصرَ تلكم القصائدَ ، لأنَّها قد تزيدُ عن مجلدٍ ضخم ، ولكن مجلّةَ المعرفةِ التي تصدرُها وزارةُ المعارفِ بالسُّعوديّةِ قد أصدرتْ كُتيِّباً طَريفاً عن معارضات بعض الشُّعراء السُّعوديين[1] لقصيدةِ شوقي بعنوان «قُم للمعلّم: قصيدة وشعراء» وجاء هذا الكُتيب ليضمَّ أكثر من عشرينَ معارضةً بين مادحٍ للمعلّمِ ومُكْبِرٍ له ، وبين ذامّ متأففٍ لذلك ، وقد أحببتُ أن أسجّلَ بعضَ هاتيكم النَّفثات لِنَجْنِيَ بعضَ الفائدة بإذن الله ، حيث إنَّ بعضَها قد جمعت المدحَ والذَّمَّ في آنٍ واحد.

* فمن القصائدِ اللطيفةِ التي مدحتِ المعلّم ، هذه القصيدة الرّقيقة ومنها:

قُــمْ للمعلّــمِ إنْ أردتَ قَبــولا ... قُـمْ لـلأمـانَـةِ وفِّهـا التّبجيـلا
كُـنْ للصِّغَـارِ طَـريـةً أغْصَـانهـم ... كنَسـائـم الحـبِّ الجميـلِ أصيـلا
واسكبْ على أسماءِهم في صفوِها ... ﴿اقْرَأْ﴾ ورتّلْهـا لَهـم تَـرتيـلا
واكْسُ الشَّبابَ منَ الفضائِل حُلةً ... واحْمِلْ علىٰ كَفِّ الطُّموحِ الجيلا[2]

* ومن القصائدِ التي أثنتْ على شخصيةِ المعلّم ، وكسَتْهُ من ثوبِ الوقارِ حُللاً هذه القصيدة ومنها:

فـي شَخْصـهِ ظهـرَ النّبـيّ محمّـدٌ ... يَهْـدي الأنـامَ ويَقْـرأُ التّنـزيـلا
مَنْ كـالمعَلّـم فـي سَمـاحـةِ خلْقـهِ ... مَـن كـالمُعلّـم حـامِـلاً قِنْـديـلا
لَـولاهُ مـا خَطَـتِ البـريـةُ خطـوةً ... كـلّا ولا عـرفَـتْ هـدىً وسبيـلا

---

(١) صدرَ هذا الكتيّبُ الجميلُ الطّريف «كتاب المعرفة» رقم (٤) سنة (١٤١٩هـ) ، ولكنَّ الطّرفة والطرافة قد لعبت دورَها ، فقد صُدِّر الكتاب بقصيدةٍ معارضةٍ لقصيدة شوقي ، وكانت القصيدة للشّاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان التي نظمها بعد شوقي بحوالي عشر سنين.

(٢) كتاب المعرفة «قم للمعلّم» (ص ٣٩ و٤٠) بتصرف وانتقاء.

حتّى الفلاسفةُ العِظَام تقمّصُوا ثوبَ المُعلّم بكرةً وأصيلا[1]

* ونقرأُ هذه الهمساتِ النّديّة لأحدهم وقد جعلَ من المعلّم نخلةً تُؤتي مع الثّمرِ الرّطيبِ الظّلَّ الظّليلَ ، فقال:

حَيِّ المعلِّمَ في الوجُودِ وقُلْ لهم [كادَ المعلمُ أنْ يكونَ رسولا]
برزَ الرّسولُ مبشّراً ومُعلّماً نَهْجاً لأَصْحابِ العُقُولِ جَليْلا
بِيَديْهِ أحْيا في النُّفوسِ حقَائقاً وأشادَ مدرسةَ الصِّحابِ دليلا
نورُ الحقيقةِ مِنْ رياضِ محمّدٍ مُتَفَاوحٌ بينَ الأنامِ عَلِيْلا
إنَّ المعلّمَ في الوجودِ كنَخْلَةٍ تُؤتي مع الثّمرِ الرَّطيبِ ظليلا[2]

* وهذه قصيدةٌ يبرزُ فيها التّفاؤلُ بالمعلّمِ ، وخُصوصاً المثقّف الذي سهرَ اللياليَ الطَّويلةَ ذوات العددِ وهو يبحثُ في الكتبِ ، وغرقَ بين معارفها ليرفدَ طلاّبَه بمعارفِها ، ترى ماذا خبّأتْ لنا هذه القصيدة التي أطْرَتِ المُعَلّم؟!

صَدقَ الذين ترنّموا في مَدْحهِ لا لَمْ يغالُوا بل رأوه دليلا
فهوَ الذي يهَبُ الحياةَ كَرامةً بالعلْمِ يبني أنْفُساً وعقولا
وهو الذي بالليل يسهرُ باحثاً في الكتبِ كيما يُظْهِرَ التّعليلا
فهو الجديرُ المستحقّ بقولنا [قُم للمعلّم وفّه التّبجيلا]
وهو المنيرُ إلى الدُّروبِ وحسْبُه [كاد المعلّم أنْ يكون رسولا][3]

* وأمّا هذه القصيدة فهي صنو سابقتها أملاً وتفاؤلاً ، وناظمُها مستبشرٌ جدّاً بالمعلّمِ ، مُكْبِرٌ لجهدهِ ، داعياً للعِلْمِ ، ترى هل المعلّمُ والتّعليمُ كما يقول؟! فلنَسْتَمعْ إذن:

شَوقي يقولُ مؤكّداًومدلّلاً [قُم للمعلّم وفِّهِ التّبجيلا]
أنْعِمْ به مِنْ مخلصٍ ومدرّسٍ قد درّسَ القُرآنَ والتّرتيلاَ!
عُلماؤُنا عرفُوا الحياةَ بعلمِهم سلكُوا طريقاً شائكاً وطويلا
مَنْ ينبري ويقولُ جهدُ معلّم قد ضاعَ حقّاً أو يظلُّ قليلا

---

(١) المرجع السّابق (ص ٤٤) ، بتصرف وانتقاء.
(٢) المرجع السابق (ص ٥٥ ـ ٥٨) باختصار.
(٣) المرجع السابق نفسه (ص ١٠١ و١٠٢) باختصار.

إنَّ المعلّمَ للعُلوم دليلُها قد صارَ يبني كُلّ عامٍ جيلا

* ونختمُ قائمة المُتفائلين بهذهِ القصيدة التي قال(١) ناظمُها قيلولةَ الطّفْلِ المُدللِ في حضْنِ أمّهِ ، فجاءت كلماتُ قصيدتِه بريئةً كبراءةِ الأطفالِ . . . فبراءةُ الأطفالِ تظهرُ من عيني أبياتهِ التي منها :

شَأنُ المعلّمِ في النُّفوسِ معظَّمٌ لا غَرْوَ إنْ حازَ العُلا تبجيلا
كانَ الرّسولُ معلّماً فيما مضى قد علّمَ الأجيالَ جيلاً جيلا
حسبي به فخراً لكلّ معلّم أبلىٰ فأنْشَأ أنفُساً وعقولا
فَيُريهمُ دربَ الرّسولِ وصحبهِ والتّابعين ليَسْلكوهُ سبيلا
ويحذّرُ الطُّلابَ كلَّ غوايةٍ سَنَحتْ وفكْراً ساقطاً ودخيلا
هذا المعلّمُ وارثٌ لرسولهِ حقّاً وذَا يَستأهلُ التّقْبيلا(٢)

* هذه أمثلةٌ على فريقٍ من الذين غلّفَ التّفاؤلُ قلوبَهم ، فأماطوا الصُّعوباتِ جميعها من طريقِ المعلّمِ ، وزرعوا دربَه بالزّهْرِ والوردِ والفلّ والرّيحانِ ، وجعلوا البسَماتِ والقُبلاتِ تمسحُ وجنتَيْه ، وتلمسُ رأسَه ، وتعزّزُ أساسَه ، وتعطرُ أنفاسه .

* ولكنْ ما شأنُ مَنِ اسودّتْ دُنيا التّعليمِ وفضاءِ التّعلُّمِ في عينَيْهِ ومهجتِه وسُويداء قلبه وبَصيرة لُبّه ، فغدا لا يعرفُ يومَه من أمسهِ؟! هذا ما ستجلوهُ السُّطورُ التّوالي ، وتكشفُ ما تخفيه هذه المهنة في جُنْح الليالي . .

* تبدّى لنا ونحنُ نستعرضُ هذا المجال أنَّ الذين تأفّفوا من مهنةِ التّعليمِ ؛ ومن المُعلّمِ همُ الغالبيةُ العظمىٰ ، وخصوصاً في العقودِ الأخيرةِ من القرنِ العشرين إذ أصبح التّعليمُ مهزلةً ، خصوصاً بعد أنْ وافتنا التّربويات الأجنبية بعجرِها وبجرِها واستقبلناها استقبال الفاتحين .

* كان إبراهيمُ عبد الفتّاح طُوقان من أوائلِ الذين نعوا على شوقي طريقتَه في إطراءِ المعلّمِ ، وسَخِرَ منه ، ووضعَ النّقاطَ على الحروفِ في هذا المجالِ

---

(١) «قال» : من القيلولة وهي النوم وقت الظهيرة .
(٢) المرجع السابق عينه (ص ١٣٨ و١٣٩) باختصار وانتقاء .

المباركِ ، وكان إبراهيمُ طوقان من الشُّعراءِ المثقّفين والمتمكّنين من اللغةِ العربيّة وآدابها ، ومارسَ التّعليم ، لكنّه وجدَ المعلّم المثقّفَ في وادٍ ، والنَّشء والصّغارَ في وادٍ آخر ، ونزلَ طوقان بمهنةِ التّعليمِ بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ ، في الوقتِ الذي كان بوسعهِ أنْ يبذرَ معارفَه في نفوسِ الأطفالِ وطلبةِ العلْمِ ، ولكنْ لا حياةَ لمن ينادي ، وأقْفَر الميدانُ من فرسانِه. . . . وعندها باحَ طُوقانُ بما تكنُّه الضّمائرُ والصُّدورُ ، وقال يردُّ على شوقي بهذه الحلْيةِ الطُّوقانيّةِ التي أخذتْ مساحةً كبرى من وجدانِ المعلّمين المثقّفين الذين تعثروا في هذه المهنة:

(شوقي) يقولُ وما دَرىٰ بمصيبتي ... [قـمْ للمعلّـم وفّـهِ التّبجيـلا]
اقعـدْ فـديتُـكَ هَـلْ يكُـونُ مبجّـلاً ... مـنْ كـان للنـشء الصّغـارِ خليـلا!
ويكـادُ يفلقُنـي الأميـرُ بقـولـهِ ... [كَـادَ المعلـمُ أنْ يكـونَ رسـولا]
لـو جـرّبَ التَّعليـمَ شـوقـي سـاعـةً ... لقضَـى الحيـاةَ شقـاوةً وخمـولا
حسْـبُ المعلّـمِ غمَّـةً وكـآبـةً ... مـرآى الـدّفـاتـرِ بكـرةً وأصيـلا
مئـة علـى مئـةٍ إذا هـي صُلّحـتْ ... وجـدَ العمـى نحـو العيـونِ سبيـلا
ولو أنَّ في التّصليحِ نفعاً يُرتجى ... وأبيـكَ لـم أكُ بـالعيـونِ بخيـلا
لكـنْ أصلّـح غلطـةً نحـويّـةً ... مثـلاً واتّخـذُ الكتـابَ دليـلا
مستشهـداً بـالغُـرّ مـن آيـاتـهِ ... أو بـالحـديـثِ مفصّـلاً تفصيـلا
وأغوصُ في الشِّعرِ القديمِ فأنتقي ... مـا ليـسَ ملتبسـاً ولا مبـذولا
وأكـادُ أبعـثُ سيبـويـهِ مـنَ البِلـى ... وذويـهِ مـن أهـلِ القـرونِ الأولـى
فـأرىٰ حمـاراً بعـد ذلـك كلّـهِ ... رفـعَ المضـافَ إليـه والمفعـولا!!
لا تعجبوا إنْ صحتُ يوماً صيحةً ... ووقعـتُ مـا بيـن البنـوكِ قتيـلا
يـا مَـنْ يـريـدُ الانتحـارَ وجـدتـه ... إنَّ المعلـمَ لا يعيـشُ طـويـلا![1]

* ولم تكنْ هذه القصيدةُ «الطُّوقانيةُ» التي تطوِّقُ نفوسَ فئةٍ كبيرةٍ من الذين طوّقتْهم مهنةُ التّعليمِ المباركةِ ـ على الرّغمِ ممّا يقالُ هنا وهناك ـ وجعلتْ منهم

---

(١) ديوان إبراهيم طوقان (ص ٤٨ و٤٩) طبعة دار العودة ببيروت.

يسيرون في هذا الميدانِ رغم ما فيهِ من أشواكٍ. . . لم تكن هذه القصيدةُ المنفرجةُ التي سَمَتْ وعلَتْ في سماءِ الصَّراحةِ وحدَها ، وإنّما كانتْ هناك أصواتٌ أخرى جميلةٌ وصادقة وقد اتّسمت بالصّراحة ، على الرّغم من شدّةِ نبرتها وعلو صرخاتِها من وراءِ أسوارِ التَّعليم وأبوابِ صفوفِ (فصول) الطُّلابِ ، وهذا صوتٌ من الصَّفِ الأخيرِ نبستْ به شفتَا معلّم شفَّه «شوقي» الذي رآهُ يلوحُ له بيديهِ القصيرتَين ، فتداخلَ معه في حروفهِ وقوافيهِ ، لكنَّ روحَه أبتْ أنْ تنسجمَ مع الذي نبسَتْ به شفتا أحمد شوقي وقال متألماً:

ضَحكُوا لشَوقي حينَ قال مُفَلْسِفاً   [قــمْ لِلْمُعَلّــمِ وفّــهِ التَّبجيــلا]

* ثم ينعى حظَّه معَ المتعلّمين العاقّين فيقول:

ماذا جنيتُ سوى العُقوقِ منَ الذي   أسقيتُــه نخــبَ العُلُــوم طَــويــلا
حتّـى استقـامـتْ بـالعُلـومِ قنـاتُـه   ومشىٰ على الدَّربِ الطَّويلِ قليلا
إزورَّ عنْــك تنكّــراً وتجــاهُــلاً   ورَنَــا إليــكَ تــرفّعــاً وفضُــولا
يـا مـوقـدَ القِنْـديـلِ نبضَ فـؤادِهِ   احـذرْ فـؤادَكَ واحـذرِ القنـديـلا
فـالكـونُ يـمٌّ زاخـرٌ يُنْسَـىٰ بـهِ   مَنْ شادَ صَرحاً أو أنارَ سبيلا[1]

* وهذا واحدٌ ممن قادتْه الحقيقةُ إلى ميدانِ الوضوحِ ليحكيَ مأساةَ مهنةِ المعلّمِ ، ويروي للنَّاسِ آلامَه ، وما آلَ إليهِ وما آلتْ إليه الحال ، إذ انقلبَ الطُّويلبُ فِيلاً شَرِساً ، والمعلِّم هرّاً وادعاً ، وفي اللحظاتِ التي يكابدُ فيها شقاءَ التَّعليمِ مع طلاّبه ، يبعثُ لِشَوقي نفثاتِهِ الحرىٰ ليخبرَهُ بأنّه لو عاشَ مع هؤلاء الطُّلاب لنَظَمَ المطولاتِ والمذهّباتِ والمدلّلات والمعلّقات و. . . و. . . . لنستمعْ إلى أنّاتِ هذا المعلِّم الذي جمعَ متاعَ التَّعليمِ وأدواتِهِ ورحلَ بعيداً عن صفوفِ الطُّلابِ ، وصارَ يرسلُ هذه الزّفرات:

أدبُ التّـلامـذةِ الأوائـلِ قـد عفَـى   والآن لا أَدبٌ يســودُ الجِيْــلا
وأتـى الشَّبـابُ اليومَ وجهـاً كـالحـاً   فــإذا المهيــنُ معلّــمُ التنـزيْـلا
فتـرىٰ المُعلّـم صـارَ قطّـاً وادعـاً   وتـرىٰ الطُّـويلـبَ صارَ حقّـاً فِيلا

---

(١) كتاب المعرفة؛ قصيدة وشعراء (ص ٣٢ و٣٣) بتصرف.

لـو أنَّ شـوقـي عـاشَ فينـا لحظـةً ... لغَـدا يـؤلّـفُ فـي القصيـدِ طَـويـلا
ولقَـالَ فـي وصْـفِ الـزّمـانِ مقـالـةً ... تَشْفـي العليـلَ وتـروي فيـه غليـلا
كتـبَ اليـراعُ علـى الـزّمـانِ بخطّـهِ ... قُـم للمعلّـم وفّـه التّنكيـلا[1]

* ومن خلالِ رحلتِنا الطَّريفةِ المُورِّدةِ والشّائكة هذه ، ألفينا أحدهم يتمنّى ألّا يكون أحمد شوقي قد نظَم قصيدةَ «قم للمعلّم» ويقول: «قولُ مضىٰ يا ليتَه ما قيلا» ، وينعى ما وصلَ إليه المعلّمُ من خلالِ التّربيةِ المجلوبةِ من الخارجِ ، ومن خلالِ التّهجين التّربوي المنفوخ مثل الطَّبْلِ الذي يُقرعُ من بعيدٍ ، وداخِلُهُ من الخيراتِ خاوي؛ إذْ في مثُلنا الإسلاميّةِ وتربيةِ أسلافنا المستقاةِ من التَّربيةِ النَّبويةِ ، ومن نهجِ أسيادِنا صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، والسَّادةِ التّابعين ما يغني عن التّربيةِ الغربيّةِ الغريبةِ ـ إنْ كان هناك تربيةٌ حقيقةٌ لفلذاتِ الأكبادِ ـ ، فقد غدا الطّفلُ ـ بسببِ تربيةِ الغرب الغَرِيْبَةِ ـ شرساً يناطحُ الوعولَ ، ويأبى النَّصائحَ ولا يبدي التّجاوبَ نحو العلْمِ والتّلقي لشتّى ألوانِ المعرفةِ ، وبالتّالي لم يتوقفِ الأمرُ عند هذا الحدّ؛ وإنّما طارتْ هيبةُ المعلّمِ من القلوبِ والنّفوسِ ، بل من الصُّحفِ التي ترميه بسهامِ النّقدِ ، وتلقي على كاهلهِ تَبِعَات التَّقصيرِ ، في وقتٍ كبّلتْ يَديهِ ولسانَهُ ومن ثمَّ ألقتْهُ بالبحرِ وحذَّرتْهُ بألّا يبتلَ بالماءِ ، وإلّا لم يكنْ مُعلّماً تربويّاً ناجحاً وإنْ حفظَ كتابَ اللهِ وشطراً من الأحاديثِ الشَّريفةِ ، وجملةً صالحةً من آدابِ العربِ ، فاللهُ المستعانُ ، وبيده مقاليدُ كلّ شيءٍ.

* والآن دعونا نقرأُ ونسمعُ بعضَ ما جاءَ في هذهِ الكلماتِ التي رسمتْ حقيقةً رآها وعاينَها ومارسَها قائِلُها:

[قُـمْ للمعَلِّـم وفِّـهِ التّبجيـلا] ... قَـوْلٌ مَضَـىٰ يـا ليتَـه مـا قِيـلا
مَـنْ ذا يقـومُ وفـي الأوامـرِ لا تقُـمْ ... أبـداً فلـمْ تَـكُ يـا بنـيَّ ذليـلا
والطّفـلُ أصبـح سيّـداً فـي فَصْلـهِ ... شَـرسـاً ينـاطـحُ لـو أرادَ وعـولا
فَقَـدَ المعلِّـمُ نفْسَـه فـي عـالَـمٍ ... يحتـاجُ فيـه السَّـائـرونَ دليـلا
حمل الأمـانـةَ مشْعـلاً ومضَـى بهـا ... ظـنَّ الطـريـقَ ممهَّـداً وسهيـلا

---

(١) المرجع السّابق عينه (ص ٥٠ ـ ٥٢) بتصرف واختصار وانتقاء.

وإذا بـه فـي الخطوةِ الأولـى علـى ... جُـرفٍ يحـاذرُ أنْ عليـهِ يميـلا
تلميـذُهُ يـأبـىٰ نصـائحـهُ ولا ... يُبـدي لهَـا فَهْمـاً ولا تـأويـلا
فـزعَ المعلّـمُ مـن سهـامِ صحـائـفٍ ... فلَطـالمـا ألقَـتْ عليـهِ ثقيـلا
بـالأمـسِ صـاحبـتِ المعلّـم هيبـةٌ ... كـانـت تـزيّـنُ رأسَـه إكليـلا
واليـوم فـي الصَّـفِّ الأخيـرِ مكـانُـه ... وإذا تقـدَّم خـائِفـاً وخجـولا
كـم مـنْ عقـولٍ أُنشئَـتْ بجهـودهِ ... ومسـائـلٍ وجَـدت لـديـهِ حُلـولا(١)

* وهذا واحدٌ ألقىٰ عصَا التّسيار ، ووقفَ يرثي حالَ المعلّمِ الذي أمسى من المُجرمين في عرفِ بعضهم ، وراحَ كلٌّ واحدٍ يهجوهُ ويظهرُ مثالبَه كأنّه خالفَ التّنزيل! وينادي أحمد شوقي ، بل يتمنّى أنْ يرى شوقي ما حلَّ بالمعلّمِ من همٍّ وضيقٍ وتضييقٍ وإرهاقٍ ، ويرى كذلكَ الصَّبيَ خلف مقعدِ الدّراسة وقد تأبّط شرَّهُ ، ونبذَ احترامَ المعلّمِ وراءَ ظهرِهِ ، وتمرَّدَ على الزَّمان. . .

يا ليتَ شَوقي شَاهِدٌ في عَصْرِنا ... لِيَـرىٰ المعلّـمَ كيـفَ صَـارَ ذليـلا
فـالكـلُّ شَمَّـرَ كـاشِـراً ومُجـاهـراً ... يهجـو المعلّـمَ مـا استطـاعَ سبيـلا
أمسى المعلّمُ مجرماً في عُرفهم ... فكـأنّـه قـد خـالَـفَ التَّنـزيـلا
فتـرى الصَّبـي وقـد تـأبّـط شَـرَّهُ ... نحـو الكبيـرِ وينبـذُ التَّبجيـلا
قُـلْ لـي بـربِّـك هـل نسـودُ زمـاننَـا ... وشَبـابنـا يَعـشِ الحيـاةَ خُمـولا
فانظُرْ إلى تلك الشُّعوبِ تربَّعت ... عـرشَ الحضـارة أصبحـتْ إكليـلا
نَبـذوا الخِصَـامَ وعلَّمـوا أجيـالَهـم ... أنَّ المعلِّمَ في الصُّفوف الأولى(٢)

* ومن خلالِ جولتنا هذه بين ربوعِ ومضَاربِ العلْمِ والمعلّمِ والتَّعليمِ ، صادفنا مَنْ يلقي التَّبعة على المعلِّم ، ويقَارنُ بينَه وبين معلّم الماضي الذي كان بحراً في العلْمِ والفَهْمِ ، والأدبِ والهيبةِ والوقارِ ، أمّا اليوم فهو هزيلٌ ضئيلٌ في تحصيلِ العلْمِ ، لا يُدْرَىٰ كيف نالَ الشّهادة ، دروسُه طلاسمُ وغرائبُ وعجائبُ ، فهو يمارسُ وظيفةً ، ولا يمارسُ مهمّة التّعليم ، ولذا فإنّه فَقَدَ هيبةَ العلْمِ ووقاره ، وغدا من دائهِ متوجّساً وخجولاً ، يقول:

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ١٢٣ ـ ١٢٥) بتصرف وانتقاء.
(٢) المرجع السابق (ص ٨٣ ـ ٨٥) بتصرف واختصار.

شتّانَ بينَ مُعلّمٍ ممّنْ مضَوا ... ومُعلمِيْ ذا العَصْرِ لا تمثيلا
شتّان بين معلّم في علمِهِ ... تلقاهُ بَحْراً إنْ غدا مسْؤولا
يُبدي الجوابَ لِنشْئِهِ إنْ يسألوا ... متَهلّلاً لا يطْلبُ التّأجيلا
واليوم قارنْ ما سمعتَ بما ترى ... من حالِنا تلقَ المُصَاب جليلا
صار المعلمُ لا اهتمامَ بعلْمِهِ ... فبما مضَى قَدْ أدركَ المأمولا
نالَ الشَّهادةَ والوظيفةَ واكتفى ... بمبادىءٍ لم تُغْنِ صَاحِ فتيلا
ودروسُهُ تَجِدِ الغرائبَ عندها ... فَبِشَرْحِهِ يغدو الصّحيحُ عليلا
والسَّهل منها قد كسَاه صعوبةً ... والصَّعب صار غموضُه مدبولا
وإذا سألتَ أتى الجوابُ طلاسماً ... تحتاجُ منك لِفَهْمِها تحليلا
يكفيهِ في المَيدانِ دوماً أنْ يُرى ... متوجّساً من دائِهِ وخَجُولاً[1]

* وأخيراً فهذه قصيدةٌ جميلةٌ صاغَها أحدُ الشّعراءِ المعاصرين بعنوان: «كان المعلم في القلوب نزيلا» وهي معتدلةٌ تتحدثُ عن دورِ المعلم والواجب تجاهه[2]:

صَدقَ الّذي مَدحَ المُعلِّمَ قائلا ... (كادَ المعلِّمُ أن يكونَ رسولا)
(قُمْ للمُعلِّم شاكراً أفضالَهُ ... (قُمْ للمُعلِّم وفِّه التَّبجيلا)
أعْطى الكثيرَ مُفاخراً بعطائِه ... حَمَلَ الشُّموعَ وأشْعلَ القِنْديلا
فأنارَ للطلاَّبِ دَرْبَ حياتِهم ... وأقالَ عَثْرَتَهمْ فكان نبيلا
هذا المعلِّمُ مَنْ لَهُ في خافقي ... حُبٌّ وذِكْرٌ لا يزالُ جَليلا
كُنّا نُكِنُّ لَهُ احْتراماً مُفْعَماً ... بالحبِّ لا نَرضى سِواهُ بَديلا
كُنّا وكانَ الحُبُّ مِلءَ قُلوبنا ... لمعلِّمٍ نُصْغي له ليقولا
لَهَفي على يَوْمٍ أتوقُ لأنْ أرى ... فيه المعلِّمَ في القُلوبِ نَزيلا
نَسْعى لِرِفْعَتِهِ ونذْكرُ فَضْلَه ... نُجْزيهِ خَيْراً بلْ نَرُدُّ جميلا
فاليومَ قدْ فقدَ المدرِّسُ مَجْدَهُ ... خسِرَ الرِّهانَ وأغضبَ المسؤولا
وهُنَا وليُّ الأمْرِ لم يعبأْ بهِ ... إنْ كان مظلوماً وباتَ عليلا

(١) المرجع السابق (ص ١٠٨ ـ ١١١) باختصار وانتقاء وتصرف.
(٢) نظمها قائلها: في تاريخ ٦/ ١١/ ١٩٩٧م وغاب عني اسم ناظمها، وقد اخترت بعضَ أبياتها.

تركوهُ في زمنِ الخَنى يشكو فلا ... أحَـدٌ يُحـاولُ أنْ يَـرِقَّ قَليـلا
فـالأَمْرُ للطـلاَّبِ هُـمْ حَكَـمٌ وهُـمْ ... شُهَـداءُ زُورٍ أَدْمنـوا التَّضليـلا
حـادُوا عـن الـدرْبِ المُعبَّد عندمـا ... جعلـوا الهـوى نِبْـراسَهُـم وسَبيـلا
لـم نَـرْضَ عـن خَطَـأ لَهُـمْ لكنَّنـا ... لـم نَسْتَطِـعْ كَبْحـاً ولا تَعـديـلا
ونـروحُ وأسَفـي نَلـومُ مُعلِّمـاً ... ونَهُـبُّ نبْحَـثُ نطلُـبُ التَّعْليـلا
والسِّـرُّ مَعـروفٌ لكـلِّ مُـراقـبٍ ... أخْـذَ القَـرائِـنَ مَنْهجـاً ودَليـلا
فـالعَيْبُ فـي الآبـاء ليسَ بغَيْرهـم ... فهـمُ الجُنـاةُ لمـنْ أرادَ حُلـولا

* * *

قالوا العِقابُ هُوَ الجَزاءُ لمنْ عَصى ... يَهْـدي ويـردَعُ يـافِعـاً ضلِّيـلا
لكنَّنـا لـم نتَّخِـذْ عِبَـرَ الأُلـى ... سَبَقـوا ومـا كـانَ الكـلامُ هَـزيـلا
نَحْـنُ الـذيـن جَنَـوْا علـى أبنـائِنـا ... لمَّـا انشَغَلْنـا فـي الحيـاةِ طـويـلا
نحْـنُ الـذيـن بـدونِ وَعْـيٍ دلَّلـوا ... أبنـاءَهُـم فتعَـوَّدوا التَّـدْليـلا
فـإذا تمـرَّدَ طـالـبٌ فـي فَصْلِـهِ ... جئْنـاهُ بـالحُسْنـى نَجُـرُّ ذُيـولا
لا لَـنْ أكـونَ لـهُ أبـاً ومُعلِّمـاً ... إنْ لـم أُقَلِّـمْ ظُفْـرَهُ المَسْلـولا
لابُـدَّ أُنْقِـذُهُ أَنـا مِـنْ نَفْسِـهِ ... خَـوْفـاً عليـه ولا أكـونُ خـذولا
لابُـدَ مِـنْ حَـزْمِ الأمـورِ بحِكْمـةٍ ... لنُعِـدَّ جيـلاً مُخْلِصـاً وفَعـولا
فَهُـمُ الشَّبـابُ هُـمُ البُنـاةُ لمـوْطني ... وهـمُ الحُمـاةُ بهِـمْ نَـرُدُّ دَخيـلا
فَلْنُعْـلِ مِـنْ شـأنِ المعلِّـم بَيْننـا ... ليقـودَ أبْطـالاً لنـاوفُحـولا
وَنُعيـد مجّـداً للْعُـروبـةِ زاهِـراً ... ونَـراهُ فَـوْقَ جبـاهِنـا مَحْمـولا

* * *

* إنَّ فيما أوردنا من نفثاتٍ وأنّاتٍ وشكاوى منَ المعلّمين الشّعراءِ أو شعراء المعلّمين ، لا يعني أنّنا ننظرُ إلى المعلّمِ والتَّعليم نظراتٍ ضبابيةً لا نتبيّنُ من خلالها الحقائقَ ، أو لا نعيرها أيّ اهتمام ، فهذا وذاكَ منَ الخطأ ، فكثيرٌ من المعلّمين ـ والحمدُ لله ـ لا يزالون بخيرٍ ، ويعطون ما عندهم للأطفالِ والنّاشئةِ وطلبةِ العِلْم ، وكثيرٌ من الطّلابِ يحبّون معلّميهم ويتأثّرونَ بهم ، ويقتفُون آثارهم.

* ولعلّي هنا أشيرُ إلى أنَّ مهنةَ التّعليمِ وشخصيةَ المعلّمِ قد أصبَحَتا غيرَ مرغوبٍ فيهما في معظمِ المجتمعاتِ عندنا ، وقد ساعدَ على ذلك كثيرٌ من الظُّروفِ التي يعيشُها النّاسُ في هذا الزّمانِ؛ وهذا ممّا حدا بكثيرٍ من المعلّمين أنْ يعرضوا عن الثّقافة وعنِ المُطالعةِ والتّزوّدِ من ألوانِ المعرفةِ بشتّى الوسائلِ المقروءةِ والمسموعةِ والمرئيةِ ، وعندها يصبحُ بعضُ المعلمين خالي الوفاض ، فارغاً لا يستطيعُ فائدة نفسِه ، فضلاً عن فائدةِ النّاشئةِ.

* ومن المثبّطاتِ التي جعلتْ سواعدَ المعلّمين ضعيفةً ، وثقافتهم تشكو وهْناً على وهْنٍ: سخريةُ المُجتمعِ من هذه المهنةِ ، ونظرتُهم غير اللائقة بها ، وتأليفُ النُّكات حولها ، وشدَّ منْ أزرِ هؤلاء السّاخرين الإعلامُ وخصوصاً بعض الأفلامِ القديم منها والحديث ، إذ تجعلُ منْ صورة المعلّمِ صورةً «كاريكاتيريّة» (Caricature) يتقعّرُ بالكَلامِ ، ويتحدّثُ بالفُصحى ، ولا يعرفُ شيئاً من أمورِ الحياةِ الاجتماعيّة ، وأحياناً تجعلُ هاتيكم الأفلام والتّمثيليات والمسرحيّات من المعلّمِ شخصيةً مغفّلةً لا تحسنُ غير تعليم «أبجد هوز حطّي كلمن. . . .» ، وتجعله أحياناً يقبلُ الرّشوةَ ، أو الأشياءَ الدّنيئةَ التي لا تتناسبُ مع وقارِ وهيبةِ العِلْم والمعلّم والتّعليم ، وربّما جاء هذا الاستهزاءُ بالمعلّمِ عن قَصْدٍ ، أو لإضحاكِ الجمهورِ إذا كان يشاهدُ مسرحيةً ، أو لإضحاكِ النّاسِ الذين يتابعون المُسلسلاتِ والأفلامَ والإعلامَ ، حتى إنَّ بعضَ المجلاّتِ والجرائد قد شاركتْ هي الأخرى في تثبيطِ شأْنِ المعلّمِ ، ورسْمِهِ رسوماتٍ مضحكةً في تعليقاتٍ ساخرةٍ.

* ومن الطَّرائفِ والنُّكاتِ التي سَرَتْ بين مجتمعاتِ النّاسِ هذه النُّكتةُ التي مفادُها ، بأنَّ معلّماً قد أصبحَ عانساً بزعمهم؟!! فقد ذهبَ ليخطبَ فتاةً ، فقال له أهلُها: ماذا تعملُ؟ وما وظيفتُك ، ومصدرُ رزقك؟

فقال: أعملُ معلّماً في المدرسةِ الفُلانية. .

فقالوا له: ليس عندنا بناتٌ للزّواجِ ، واذهبْ فالشُّغْلُ ليس عيباً!!

* وهذه قصَّةٌ أخرى رواها «يوسُف الشَّربيني» في كتابهِ «هزّ القُحوفِ في شرحِ قصيدة أبي شادوف» وفي قصّتهِ عن المعلّم يكشفُ الشَّربيني النِّقابَ عن شخصيّةِ المعلّمِ وصورتِه المترسّخةِ بالنُّفوسِ في عصرهِ ، علماً بأنَّ يوسفَ الشَّربيني قد عاش في القرنِ الحادي عشر الهجري بمصر ، وتوفي بعد سنة (١٠٧٥ هـ) وما علينا الآن سوى قراءة فِقْراتٍ له عن مؤدّبِ الأطفالِ فيقول: «ومثلُهُ في قلّةِ العَقْل: مؤدّبُ الأطفال ، فإنّه طولُ نهارِهِ رفيقُ الأطفالِ ، وطولُ ليلِهِ مع النِّساءِ ، ويدلُّ على قلّةِ عقْلِ مؤدّبِ الأطفالِ قبوله شهادة القاصرِ على البالغِ. . . وقد وُجِدَ عند مؤدّبِ أطفالٍ طبْلةٌ وزمارةٌ وسوطٌ ، فسُئِلَ عن ذلك فقال: أجمعُهم بالطَّبلة ، وأفرّقُهم بالزّمّارة ، وأضربُهم بالسَّوط».

* ويتابعُ يوسُف الشّربيني رحلةَ السّخرية هذه ، فيذكرُ حكايةَ معلّمِ أطفالٍ مع راهبِ ديرٍ ، فيقولُ ما مفاده وملخّصُه: «كان مؤدّبُ أطفالٍ يعلّمُ الأطفالَ القُرآنَ في غرفةٍ له ، فاتَّفقَ الأطفالُ على أنْ يبنوا حائطاً على بابِ الغرفةِ ، ويمنعوه من الدُّخولِ إليها؛ ففعلُوا ذلك ليلاً. ولما أصبحوا جاؤوا إلى المؤدّب وقالوا له: إنَّ الغرفةَ هربَتْ بالليلِ ، فشدَّ وسْطَه وعدا في طلبها ، وما زالَ في البرّيةِ يمشي ، حتى قاربَ الليل ، فلم يجدْ شيئاً ، فرأى صومعةً فيها راهبٌ ، فسألَه: هل رأيتَ غرفةً فيها ألواحٌ ودواةُ حبْرٍ؟ فقال الرّاهبُ في نفسِهِ: إنَّه أحمقُ لا عَقل له ، ثمّ قال له: نعَمْ ، إنَّ الغرفةَ مرَّتْ عليَّ الظُّهر ، وأنتَ لا تلحقُها ، ولكنْ نمْ عندي إلى السَّحرِ وأنتَ تلقاها. فقبلَ المعلّمُ منه ذلك ، وصَعِدَ عنده وقد هلكَ من الجوعِ والعطشِ والتَّعبِ ، فأطعَمَهُ ونامَ ، فقامَ الرّاهب وألبسهَ ثيابَ الرُّهبانِ ، وجرَّدَهُ من ملابسهِ التي كانتْ عليهِ ، وفي الصَّباحِ أيقظَهُ وقال له: ويحكَ إنَّ الغرفةَ رجعَتْ إلى البلدِ ، فقمْ وادخلِ البلدَ تجدها. فقام المعلّمُ ، ومضى إلى البلدِ فرحاً مسروراً ، فلمّا رآهُ النّاسُ قالوا له: أنتَ صِرْتَ راهباً؟! قال: لا واللهِ؛ إلاّ أني بِتُّ عند راهبٍ ، وقلت له: نبّهني وقتَ السَّحَر ، فأيقظَ نَفْسَه وتركَني. ثم إنَّه رجعَ إلى الصَّومعةِ ، وصار يقولُ للرَّاهب: باللهِ عليكَ ، نبّه نفسي حتّى أروّحَ البلد ، وخذْ نَفْسَكَ اجعلَها

مكانَها ، فصار الرّاهبُ يضحكُ عليه حتّى يئسَ منه وانصرفَ المعلّمُ راجعاً إلى البلدِ[(١)]».

* وقد ساعدت كتبُ الأدبِ والنَّوادرِ والأخبارِ قديماً على تشويهِ صورة المعلّم ، والتَّندُّر عليه ، ورسمتِ المعلّمَ بصورٍ مضحكةٍ ، ممّا جعلَ هذه المهنةَ ممتهنةً وغيرَ مرغوبٍ فيها عند كثيرين.

* وها نحنُ أولاء نسوقُ بعضَ تلكم الصُّور السَّاخرة ، التي أسهمتْ في تشويهِ صورةِ المعلّم ـ وإن قُصِدَ منها المتعةُ والتّرويحُ عن النفس ـ.

* قال بعضُهم: «مررتُ بسكّةٍ من سككِ البصرة ، وإذا معلّمٌ قد ضربَ صبيّاً ، وأقامَ الصِّبيانَ صفّاً وهو يقولُ لهم: اقرؤوا ، ثمَّ جاء إلى صبي بجنبِ الصَّبيّ الذي ضربه فقال: قُلْ لهذا يقرأ ، فإنّي لَسْتُ أكلّمه»[(٢)].

* وقال بعضُهم: «رأيتُ معلّماً وقد جاءه غلامان قد تعلّق أحدهما بالآخرِ ، وقال: يا معلّمُ هذا عضَّ أذني. فقال الآخر: واللهِ ما عضضتُها ، وإنّما هو عضَّ أذنَ نفسه.

فقال المعلّمُ: يابنَ الخبيثةِ صار جَمَلاً حتّى يعضَّ أذنَ نفسه[(٢)]»؟!؟

* وقال: «رأيتُ معلّماً بالكوفةِ وهو شيخٌ مخضوبُ الرّأسِ واللحيةِ ، وهو جالسٌ يبكي ، فوقفتُ عليه وقلتُ: يا عمّ مِمَّ تبكي؟ فقال: سرقَ الصّبيانُ خبزي[(٣)]..».

* وقال آخر: «رأيتُ بالبصرةِ معلّماً وقد جاء صبيٌّ فصفَعَهُ صفعةً محكمةً ، فقال له المعلّمُ: أيّما أصلبُ هذه أَمِ التي صفعتُك بالأمس؟».

---

(١) انظر: هزّ القحوف (ص ٧٤ و٧٥) أعده: محمد قنديل البقلي ، طبعة دار النهضة العربية بمصر. وأترك القصة دون تعليق كيما يفسرها القارىء الكريم كيفما يشاء.

(٢) انظر: التذكرة الحمدونية (٣/ ٢٨٤ و٢٨٥) ، ونثر الدر (٥/ ٣٢٦ و٣٢٧) ، وأخبار الحمقى والمغفلين (ص١٤٢) ، والمستطرف (٢/ ٢٤٢) مع الجمع والتصرف اليسير ، وانظر شرح مقامات الحريري (٥/ ٢١٢).

(٣) التذكرة الحمدونية (٣/ ٢٨٥ و٢٨٦) ومصادر الفقرة السابقة.

* وكان لأبي داود المعلّم ابنٌ فمرضَ ، فلمّا نزَعَ قال: اغسلوهُ. قالوا: لم يمتْ.

قال: إلى أنْ يُفرَغَ من غَسْله يكون قد مَات»[1].

* وقال بعضُهم: «مررتُ يوماً بمعلّمٍ؛ والصّبيانُ يحذفونَ عينَه بنوى العنبِ ، وهو ساكتٌ ، فقلتُ: ويحك أرى منكَ عجباً!! فقال: وما هو؟

قلتُ: أراكَ جالساً والصِّبيانُ يحذفونَ عينَك بالنَّوى!

فقال: اسكتْ ودعْهم ، فما واللهِ إلاّ أنْ يصيبَ عيني شيءٌ فأريكَ كيف أنتفُ لحى آبائِهم[1]!!».

* وقال معلّمٌ لغلامٍ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا﴾ [الشَّمس ٩ ـ ١٠] فقال الصَّبي: وقد داسَ مَنْ خبّاها؛ فلم يزلْ يكرّرُ ذلك عليه إلى أنْ أعيَتْه الحيلةُ ، فقال المعلّم: وقد داسَ مَنْ خبّاها. فقال الغلام: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا﴾[1].

* وذكر البيهقيّ في كتابه «المحاسن والمساوىء» نوادرَ مضحكةً عن المعلّمين ، وأوردَ قصصاً منها: «كان معلّم يصلي بالنَّاس في شَهْرِ رمضانَ ، وكان يقفُ على ما لا يُوقَفُ عليه ، فقرأ: واتّبعوا ما تتلو الشّـ؛ ثمّ قال: اللهُ أكبر ، فركعَ ، ثمّ قام في الثّانية ، فقلت: ما تراهُ يصنعُ؟!! فلمّا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، فقال: يا طينُ على مُلْكِ سُليمان»[2].

* وأوردَ طرفةً أخرى عن معلّم ذكرَهَا أحدهم قال: «سمعتُ معلّماً يقرأُ بالنّاسِ في شَهْرِ رمضانَ: «وإذ قالَ لقمانُ لابنهِ وهو يعظهُ يا بني لا تقصصْ

---

(١) التذكرة الحمدونية (٣/ ٢٨٥ و٢٨٦) ومصادر الفقرة السابقة.

(٢) انظر: المحاسن والمساوىء (ص ٦٤٣) طبعة دار إحياء العلوم ببيروت ١٩٨٨م والآية هي: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢].

رؤياكَ على إخوتكَ فيكيدوا لك كيداً وأكيدُ كيداً فمهلِ الكافرينَ أمهلمهم رويداً»[١]. ؟

* وذكر أيضاً هذه الطّرفة قال: «شهدَ رجلٌ عند سوارِ القاضي فقال: ما صناعتُك؟ قال معلّمٌ:

قال: فإنّا لا نجيزُ شهادتَك!

قال: ولمَ؟!

قال: لأنّك تأخذُ على التّعليم أجْراً.

قال: وأنت تأخذُ على القضاء بين المسلمين أجراً.

قال: أُكْرِهْتُ عليه.

قال: فَهَبْكَ أكرهتَ على القضاء فَمَنْ أكرهكَ على أخذكَ الأجْرَ؛ والرّزقُ على الله؟

فقال: هلمّ شهادتك، فأَجَازَهَا»[٢].

* وفي كتابهِ «المستطرف» أوردَ الأبشيهيُّ فصلاً في نوادرِ المعلّمين، وهذا الفَصْلُ يصِمُ المعلّمَ بالبلاهةِ والحمقِ والصَّفاقةِ، ومن ذلك ما ذكرهُ بأنَّ الجاحظَ حكىٰ هذه النّادرة فقال: «مررتُ على خربةٍ، فإذا بها معلّمٌ، وهو ينبحُ نَبْحَ الكلاب، فوقفتُ أنظرُ إليه، وإذا بصبي قد خرجَ من دار، فقبضَ عليه المعلّمُ، وجعل يلطمُهُ ويصفعُهُ، فقلت: عرفْنِي خبرَه.

فقال: هذه صبيٌ لئيمٌ يكرهُ التّعليمَ، ويهربُ ويدخلُ الدّار ولا يخرجُ، وله كلبٌ يلعبُ به، فإذا سمع صوتي ظنَّ أنّه صوتُ الكلبِ، فيخرجُ فأمسكُه»[٣].

---

(١) المحاسن والمساوىء (ص ٦٤٤) ورويت هذه الطرفة بأن معلم الصبيان قال: إن أبا الصبي يُدخل شهراً في شهر في شهر، وأنا أُدخل آية في آية في آية، فلا أنا آخذ أجراً ولا هو يستفيد (شرح المقامات الحريري ٥/ ٢٠٩ و٢١٠) بتصرف.

(٢) المصدر السابق (ص ٦٤٣).

(٣) المستطرف (٢/ ٢٤١) طبعة دار الفكر المصورة عن الطبعة الأولى بمصر.

* وروى بعضُهم هذه النَّادرة قال: «رأيتُ معلّماً يصلّي العَصْرَ ، فلما ركعَ أدخلَ رأسَه بين رجلَيْه ، ونظرَ إلى الصِّغارِ وهم يلعبون ، وقال: يا بن البقّال ، قد رأيتُ الذي عملتَ وسوفَ أكافئكَ إذا فرغتُ من الصَّلاة»(١).

* وقال الجاحظُ: «رأيتُ معلّماً في الكُتَّاب وحده ، فسألتُه عن الصِّبيانِ فقال: الصِّغارُ في داخلِ الدّرب يتصارعون!! فقلت: أحبُّ أنْ أراهم.

فقال: ما أشيرُ عليكَ بذلكَ.

فقلت: لابدَّ منْ ذلكَ.

قال: فإذا جئتَ إلى رأسِ الدَّربِ اكشفْ رأسَك لئلا يعتقدوكَ المعلّمَ فيصفعونَك حتّى تعمى»(٢).

* وحُكي عن الجاحظِ أنّه قال: «ألّفتُ كتاباً في نوادرِ المعلّمين وما هم عليهِ من التَّغفُّلِ ، ثم رجعتُ عن ذلكَ ، وعزمتُ على تقطيعِ ذلكَ الكتابِ. فدخلتُ يوماً مدينةً ، فوجدتُ فيها مُعلّماً في هيئةٍ حسنةٍ فسلّمتُ عليه ، فردَّ عليَّ أحسنَ ردٍّ ، ورحّبَ بي ، فجلستُ عنده ، وباحثتُه في القُرآنِ ، فإذا هو ماهرٌ فيه ، ثمّ فاتحتُه في الفقهِ والنّحوِ وعلمِ المعقولِ وأشعارِ العربِ فإذا هو كاملُ الآدابِ ، فقلتُ: هذا واللهِ ممّا هو يقوي عزمي على تقطيعِ الكتابِ. قال: فكنتُ أختلفُ إليهِ وأزورهُ ، فجئتُ يوماً لزيارتِه ، فإذا بالكُتَّابِ مغلَقٌ ولم أجدْهُ ، فسألُ عنه ، فقيل: مات له ميتٌ ، فحزنَ عليه ، وجلسَ في بيتِهِ للعزاء؛ فذهبتُ إلى بيته ، وطرقتُ البابَ ، فخرجتْ إليَّ جاريةٌ ، وقالت: ما تريدُ؟

قلت: سيّدك ، فدخلتْ وخرجَتْ وقالت: بسم الله.

فدخلتُ إليه ، وإذا به جالسٌ ، فقلتُ: عظّمَ الله أجركَ ، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؛ فعليكَ بالصَّبرِ ، ثم قلتُ له: هذا الذي توفي ولدُكَ؟

---

(١) المصدر السَّابق (٢/ ٢٤٢) ، وانظر شرح مقامات الحريري (٥/ ٢٠٩).
(٢) المصدر السابق نفسه.

قال: لا.

قلت: فوالدُكَ؟

قال: لا.

قلت: فأخوكَ؟

قال: لا.

قلت: فزوجتُكَ؟!

قال: لا.

فقلت: وما هو منك؟

قال: حبيبتي.

فقلتُ في نفسي: هذه أوّلُ المناحسِ.

ثم قلتُ: سبحان اللهِ، النّساءُ كثيرٌ، وستجدُ غيرَها.

فقال: أتظنُّ أنّي رأيتُها؟

قلت: وهذه منحسةٌ ثانيةٌ.

ثم قلت: وكيف عشقتَ مَنْ لم تَرَ؟

فقال: اعلمْ أنّي كنتُ جالساً في هذا المكانِ، وأنا أنظرُ من الطّاقِ، إذ رأيتُ رجلاً عليه بُرْدٌ وهو يقولُ ويترنَّمُ:

يـا أُمَّ عَمْـرٍو جَـزَاكِ اللهُ مَكْـرمـةً رُدّي علـيَّ فُـؤَادي أيْنَمـا كَـانـا

فقلتُ في نفسي: لولا أنَّ أمَّ عمرو هذه ما في الدّنيا أحسن منها، ما قيلَ فيها هذا الشِّعر، فعشقتُها، فلمّا كان منذُ يومَين، مرَّ ذلك الرَّجلُ بعينهِ، ويقول:

إذَا ذَهَـبَ الحِمَـارُ بـأمِّ عمـرٍو فـلا رجعَـتْ ولا رجَـعَ الحِمَـارُ

فعلمتُ أنَّها ماتَتْ، فحزنتُ عليها، وأغلقتُ المكتبَ، وجلستُ في الدّار.

فقلتُ: يا هذا؛ إنّي كنتُ أَلّفتُ كتاباً في نوادركم معشرَ المعلّمين ، وكنتُ حينَ صاحبتُكَ ، عزمتُ على تقطيعهِ ، والآن قد قويتَ عزمي على إبقائِهِ ، وأوّلُ ما أبدأُ ، أبدأُ بك إنْ شاء الله تعالى»[1].

* ومن النّكتِ والطّرائفِ التي تُزري بالمعلّمين ما حشَدَهُ أبو العبّاسِ الشّريشيّ في شَرحهِ لمقاماتِ الحريريّ ، ومنها ما افتتحَ به تلكم النّوادر قال: «فمّما يُحكى من حماقتِهم: كان حمزةُ المُعلّم متقَلْنِساً ـ يلبسُ القلنسوة ـ ، فأنشدَ فيه أبو جعفر الحاكم:

أرِي علىٰ حمـزةَ المُقْـرِي قلنسـوةً عَسَاكرُ القملِ تَجْري في حَواشيها
إنَّ المعلِّـم لا تخْفَـى حَمَـاقتُـه ولـو تَقَلْنَسَ بـالـدّنيا ومَـا فيهـا»[2]

* ونسَبَ الشّريشي إلى الجاحظِ أنّه قال: «عَقْلُ مئةِ معلّمٍ عقْلُ امرأةٍ ، وعقلُ مئة امرأةٍ عقْلُ حائك ، وعقلُ مئةِ حائك عقْلُ خصيّ ، وعقلُ مئة خصي عقْلُ صبيّ»[3].

* وقال الشّاعر:

مُعلّـمُ صِبْيـانٍ وصَـاحِـبُ درَّه ولَيْـسَ لَـهُ عقْـلٌ بمِقْـدار ذَرَّهْ

* وقال أبو طاهر: «عقلُ امرأتَيْن كاملتَيْن عقلُ رجل ، وعقلُ أربعةِ خصيان عقلُ امرأة ، وعقلُ أربعين حائكاً عقل خصي ، وعقْل أربعين معلّماً عقْل حائكٍ»[4].

* وأوردَ أبو بكر القبطيّ هذه النّادرةَ التي يظهرُ من خلالها غباء المعلّم الذي لا يعرفُ عِلْم القراءات القُرآنيّة ، ويدّعي أنّه حاذقٌ بها ، فيقول: «عبرتُ على

(١) انظر: المستطرف (٢/ ٢٤٢ و٢٤٣) وانظر كذلك: ثمرات الأوراق بهامش المستطرف (٢/ ١٨٠ و١٨١) وغيرهما من مصادر.
(٢) انظر: شرح مقامات الحريري (٥/ ٢٠٩) ومعنى: «علي حمز المقري»: أي: المقرىء معلم الصبيان ، خفف الهمزة لضرورة الشعر ، و«تقلنس»: لبس قلنسوة.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ولا يخفى على القارىء الحصيف أنَّ أمثال هذه الأقوال تُروى من باب التّندّر والتعريض.
(٤) شرح مقامات الحريري (٥/ ٢٠٩).

معلّمٍ وهو يملي على غلامٍ بين يديهِ: فريقٌ في الجنَّةِ وفريقُ في العِيْر؛ فقلت: يا هذا، ما قال اللهُ منْ هذا شيئاً. إنّما هو في السَّعير.

فقال: أنت تقرأُ على حرفِ أبي عاصم بنِ العلاء الكسائيّ، وأنا أقرأ على حرفِ أبي حمزةَ بنِ عاصم المدنيّ.

فقلت: معرفتُك بالقُرّاء أعجبُ إليّ. وانصرفتُ»[1].

* ومن النَّوادرِ التي تظهرُ ذكاءَ الأطفالِ في حضراتِ المعلّمين هذه النّادرة التي رواها الجاحظُ قال: «كان في المدينةِ رجلٌ معلّم صبيان، يفرطُ في ضربهم. فلاموهُ على ذلك. فساءني حالَه معهم، فاستَفْتَح صبيٌّ، وقال: يا معلّمُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] ما بعده؟ فقال: بل عليكَ وعلى والديك لعائِن الله تَترى»[1]!!

* وجاء صبيٌ آخر إلى المعلّم فقال له: «يا معلّم: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] ما بعده؟

قال: ذاك أبوك الكَشْخَان[2].

ثم إنَّ المعلّمَ قال: على هذا وأمثاله أضربُهم، أتعذرونني؟ قلتُ: نعم[3].

* وقال العُتْبيّ: «كان ببغدادَ معلّم يشتمُ الصِّبيانَ، فأخذتُ بيد المشايخِ فدخلنا عليه، فقلنا: يا شيخُ ما يحلُّ لكَ أن تشتمَ هؤلاء الصِّبيان؟

فقال: أنا مُبتلى بهم، ما أشتمُ إلاّ مَنْ يستحقُّ الشَّتم؛ فاحضُروا حتى تسمعوا بعضَ ما أنا فيهِ، فحضرنا معه، فقرأَ عليه صبيٌّ: عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادُ يعصونَ الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون. فقال: يا كذا... ليسَ هؤلاءِ ملائكةٌ، ولا أعرابٌ، ولا أكرادُ شهرزور.. فضحكْنا واللهِ ضِحْكاً شديداً حتى إنَّ أحدنا لم يملكْ نفسَه من شدّةِ الضَّحك. فكنتُ بعد ذلك أتركُ

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٢١٠).

(٢) «الكشخان»: الديوث.

(٣) شرح مقامات الحريري (٥/ ٢١٠) بتصرف يسير.

أشغالي ، وأجلسُ عنده أتعجّبُ ممّا يجري وأسمع»[1].

* ويتابعُ أبو العبّاس الشَّريشي ذِكْرَ نوادر المعلّمين وحماقاتهم ، فيذكرُ القصّة الآتية: قال أفْلَحُ التّركي: «خرجنا مرّةً إلىٰ حربٍ لنا ، ومعنا معلّمٌ كان يقول: أنا أتمنّى أنْ أرىٰ الحربَ كيف هي. فأخرجناهُ معنا ، فأوّلُ سهمٍ جاءَ وقعَ في رأسهِ ، فلمّا انصرفنا دعونا له مُعالجاً ، فنظرَ إليهِ ، وقال: إنْ خرجَ الزَّجُّ وفيه شيءٌ من دماغهِ ماتَ؛ وإنْ لم يخرجْ عليه شيءٌ من دماغهِ لم يكن عليه بأسٌ. فسبقَ إليهِ المعلّمُ ، فقبّلَ رأسَهُ ، وقال: بشّرَكَ اللهُ بخيرٍ ، انْزَعْهُ فما في رأسي دِماغ. فقال الطَّبيبُ: وكيفَ ذلك؟

قال: لأنّي معلّمُ كُتّاب؛ وما في رؤوس المعلّمين ذرّة من دماغ ، ولو كان فيهِ ذرّة من دماغٍ ما كنتُ ها هنا[2]»!!.

* وقال أحمدُ بنُ دليل: «مررتُ بمعلّم يضربُ صبيّاً ، ويقول: واللهِ لأضربنّكَ حتّى تقولَ لي: مَنْ حفَرَ البَحْرَ؟ فقلتُ: أعزّكَ الله ، واللهِ لا أدري أنا مَنْ حفَرَ البحرَ ، فقلْ لي حتى أتعلّمَ أنا!؟! فقال: حفَرَ البحر كردمْ أبو آدم عليه السّلام»[2].

* وقال أبو العنبس: «كان في دربنا معلّمٌ طويلُ اللحيةِ ، فكنتُ أجلسُ إليهِ كثيراً ، وأتلهَّىٰ به ، فجئتُه يوماً وبين يديه صبيٌّ يقولُ له: ويلك ، دجْلَةُ مَنْ حفَرَها؟

قال: عيسى بنُ مريم.

قال: فالجبَلُ مَنْ خلَقَه؟

قال: موسى بنُ عمران.

قال: فالبعرُ ، مَنْ دوَّرَهُ؟

قال: شيطان يُقال له الحيّ.

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٢١٠ و٢١١) باختصار وتصرف.

(٢) شرح مقامات الحريري (٥/ ٢١١).

قال: أحسنتَ ، فآدمُ مَنْ أبوه.

قال: نوحٌ.

قال: بخٍ بخٍ ، نجوتَ واللهِ!

فقلت: يا سبحانَ اللهِ! أليسَ آدمُ أبا البشَر؟!

قال: بلى.

قلت: فكيف يكون نوحٌ أباه؟!

قال: ويلك ، أتعرّفني بآدم ، وأنا أبو عبد الله المعلّم؛ يا صبيان ، كَرْفِسُوه، فكرفسوني، حتى صيّروني مقيّداً، فحلفْتُ ألا أقفَ على معلّم أبداً»[١].

* وقال الجاحظ: «أتت امرأةٌ إلى معلّمٍ بابنٍ لها ، وكان المعلّمُ طويلَ اللحيةِ؛ فقالت: إنَّ هذا الصَّبيَ عاقٌ لا يطيعُني ، فأحبُّ أنْ تفزِّعَه. فأخذَ المعلِّمُ لحيتَه وألقاهَا في فمهِ ، وحرَّك رأسَهُ ، وصاحَ صيحةً عظيمةً ، فخافتِ المرأة واضطربتْ من الفزعِ ، وقالت: إنّما قلتُ لك: فزِّعِ الصَّبي ، ليسَ إيّاي.

فقال لها: يا حمقاء ، إنَّ العذابَ إذا نزلَ هَلكَ الصَّالحُ والطَّالح»[٢]!؟!

* وقال الجاحظُ: «سرقَ صبيٌ عثمانيٌ مُصحفاً ، فقال له المعلّم: ماذا لَقِيتِ المصاحفُ منكم يا آل عثمان؟! أبوك أحرقَها ، وأنتَ تسرقها»[٣]!!؟!!

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٢١٢) بتصرف يسير جداً. و«كرفسوه»: قيّدوه.

(٢) شرح مقامات الحريري (٥/ ٢١٢) بتصرف يسير جداً.

(٣) المصدر السّابق (٥/ ٢١١) وهذه الطّرفة وأمثالُها فيها تعريضٌ بسيّدنا ذي النّورين عثمان بن عفان عليه سحائب الرّضوان ، فلا يحسُنُ التّعرض للسّادة الصّحابة ولا لغيرهم من التّابعين وأهل الفضل ، ولا جرم بأنّ ناسجَ هذه النّادرة أحد المجرمين الذين لم يوَفقوا لمعرفة أقدار أصحاب سيّدنا رسول الله الذينِ هم نجومُ الدّهر ، وضياءُ العصر وكلّ عصر ، وهم همو الذين: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البيّنة: ٨] ثم إنَّ معظم هذه النّوادر والقصص والطّرف قد نسجَها أناسٌ فكهون يحبّون النّوادر ، وربّما كان نسجُها من بابِ الكيد والحسَد بين البلاد المتجاورة ، فترى بعضهم يقول: رأيتُ معلماً بالبصرة؛ أو الكوفة ، أو بغداد ، أو ما شابه ذلك ، وهذا يصلح أن يكون للمعلّمين وغيرهم والله أعلم بحقيقة الصواب.

* إنَّ ما أوردناهُ من قصصٍ ونُكَاتٍ من مصادرَ متنوعةٍ أسهمَتْ في الغَضّ من قيمةِ المعلّمِ ، فإذا قيلتْ قديماً للتندّرِ والتّفكّهِ ، فإنّها الآن لا تقلُّ مكانةً عمّا قبل ، حيثُ إنَّ المعلّمَ أصبحَ هزيلاً في كلْ شيءٍ ، وخصوصاً أصبحَ تحصيله الثّقافيُ ضئيلاً ، وقد أثقلتْ كاهلَه همومُ الحياةِ ومتطلباتُها ، فغدا بعضُ المعلّمين إذا انتهى من دوامِ المدرسةِ ، التحقَ بعملٍ آخر ليوازنَ بين متطلّباتِ الحياةِ وبين ما تفرضُه عليه المسؤولياتُ البيتيةُ والأسريّةُ والاجتماعية؛ وبالتّالي اضمحلّتْ ثقافتُه ، واضْمحلَّ تحصيلُه العلميّ ، إلاّ مَنْ رحمَ اللهُ.

* وإذا عدنا إلى التّاريخ الإسلامي قديماً نجدْ أنَّ التَّعليمَ قام به كبارُ القوم حبّاً بالعلم لا للأجرةِ والانتفاع ، ويؤيد ما نقوله ما ذكره ابن خلدون في «مقدمته» قال: «. . . وإنَّ التَّعليمَ في صدر الإسلام والدّولتين لم يكن كذلك ، ولم يكنِ العِلْمُ بالجملةِ صناعة ، إنّما كان نقلاً لما سمع من الشَّارعِ ، وتعليماً لما جهلَ من الدِّين على جهة البلاغ ، فكان أهْلُ الأنسابِ والعصبيّة الذين قاموا بالملّة هم الذين يعلّمون كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنَّةَ نبيّهِ ﷺ على معنى التَّبليغ الخبري ، لا على وجه التَّعليم الصِّناعي».

* إذن كان المعلِّمُ من أهلِ العصبيّة أو من الهُواةِ ، غيرأنّه لم يبقَ على تلك الحالةِ ، بلِ استحالَ صناعة لابتغاء الرِّزق ، ولذلك أقبلَ عليهِ مَنْ كان في حاجةٍ إلى تحصيلِ معاشهِ ، وترفَّع عنه مَنْ لم يكنْ في حاجةٍ إلى المعاش. ومما يذكره ابن خلدون ما يأتي: «. . . وصار العِلْمُ ملكَةً يحتاجُ إلى التّعلُّم ، فأصبح من جملة الصَّنائع والحرف. . . واشتغلَ أهلُ العصبيّة بالقيام بالملكِ والسّلطان ، فدفع للعِلْمِ مَنْ قام بهِ منْ سواهم ، وأصبحَ حرفةً للمعاش ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السّلطان عن التَّصدّي للعلم ، واختصّ انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبيّة والملك. »[1].

* وكان شأنُ العربِ شأنَ بعضِ الأممِ الأخرى الفاتحة ، إذ اشتغلت بالشّؤون العسكريّة والإداريّة تاركةً مهنةَ التَّعليمِ والكتابة في الدَّواوين للموالي

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٠) بتصرف يسير (طبعة بيروت).

من الفرس والروم والأقباط.. وأضحى مقام المعلّمين الاجتماعي عند بعضِ العرب مقاماً هزيلاً ضعيفاً.

* ومن ها هنا تعدّدت الفكاهات، وكثُر الهزل والمزاح على حساب المعلّم العربي، ومن ألطف ما يُقال عنه ما يدور على الألسنة في الاستهزاء بِعدّةِ مِهَنٍ ومنها مهنةُ المُعَلّم:

وصَقَاعةٍ قد خُصِّصَتْ في ستَّةٍ ... في حائكٍ ومنجِّدٍ واسْكَافِ
ومعلّم الأولاد ضَعْه بينهم ... واتبعْهُ بالحلاّجِ والنّدّافِ

* ومن أمثال العامة عند الجاحظ: «أحمق من معلّم كتّاب»؛ وقال أحدهم:

وكيف يُرجى العقلُ والرّأي عند مَنْ ... يروحُ على أُنثى ويغدو على طفْلِ

* وفي قول الحكماء: «لا تستشيروا معلّماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النّساء»؛ وقد سمعنا قول بعضهم: «الحمقُ في الحاكة والمعلمين والغزّالين».

* وممّا جاء عن المعلمين في كتاب «محاضرات الأدباء» للرّاغب الأصبهاني:

كفى المرءُ نقصاً أنْ يُقالَ بأنّهُ ... معلّمُ صبيانٍ وإنْ كان فاضلا

* وجاء أيضاً:

إنَّ المعلم حيث كان معلّمٌ ... ولو ابتنى فوق السَّماء سماء

* وجاء فيه أيضاً أنّه «كلّفَ إسماعيل بن عليّ عبدَ الله بنَ المقفّع أن يجلسَ مع ابنه في كلّ أسبوع يوماً، فقال: أتريدُ أنْ أثبت في ديوان النّوكى؟». والنّوكى هم الحمقى فاسدوا الرّأي.

* ثمّ إذا راجعْنا الكتابَ الشّعبي المشهور عند الخاص والعام «ألف ليلة وليلة» وجدنا «حكاية قلّة عقل معلّم الصّبيان» التي ورد فيها هذا الكلام عن المعلّم: «... إنَّ هذا شيءٌ عجيبٌ من فقيهٍ يعلّم الصّبيان، مع أنَّ العقلاء اتّفقوا على نقصِ عقلِ معلّم الصّبيان».

* ومن المشهور تاريخياً أنَّ الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ عُيِّرَ بكونه معلّم

صبيان فقد ذكر المبرّد في «الكامل» ذلك وأورد هذه الأبيات:

فمـاذا تُـرى الحجّـاج يبلـغُ جهـده   إذا نحـنُ جـاوزْنَـا صغيـرَ زيـاد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسُفٍ   كمـا كـان عبـداً مـن عبيـدِ إيـادِ
زمـانَ هـو العبـدُ المُقِـرُّ بـذلّـةٍ   يُـراوح صبيـان القـرى ويُغـادي

* وصفوة القول: إنّه حُكمَ على المعلِّم بصقاعةِ اللحية وبالحماقة وبقلّة العقل؛ وبهذا الحكم وُضِعَ معلمو الصِّبيان في أحطّ مقام اجتماعي، إذْ أُدخلوا في صفوفِ النّوكى، ورعاةِ الغنم، وقليلي العقل. أما أسباب ذلك فلأنَّ العربَ كانت تحتقر المهن التي لا تظهرُ فيها أعمال الرّجولية التي تتجلّى في الحرب والغزو وركوب الخيل.. وليس بالمستغرب أنْ ينظرَ بعض العرب هذه النَّظرة إلى طائفةٍ صرفتْ معظم أوقاتها في صحبةِ الصِّبية وتحت سقوف البيوت، عوضاً عن معاشرة الرّجال وصرف السَّاعات الطوال على صهوات الصّافناتِ الجياد.

* إن ازدراء العامة كان منحصراً في معلّمِ الأولاد، وهو ذلك الرّجل غير المتضلّع من العلم والأدب، وهو الذي اتّخذ مهنة التّعليم لتحصيل قوته.

* أما الأفاضل من المعلمين والمدرسين، فكان لهم كرامة واحترام عند العامة والخاصة ومنهم: الغزاليُّ، والخليلُ بنُ أحمد، وإمامُ الحرمين وغيرهم. وفي عصرنا الحاضر يوجد عدد لا يُستهان به من الأفاضل.

* إنَّ شخصيةَ المعلّم كانت ولا تزالُ شخصيةً محترمةً، ومنه يستفيدُ الطّلابُ مهما قَسَتِ الظُّروف، ولعبتْ به الأحداثُ والمتغيّراتُ، وستبقى هناك ثلّةٌ من المُخلصين يؤثّرون في الأطفال تأثيراً طيّباً، حيث يرشدونهم إلى ينابيعِ الثّقافةِ المفيدةِ، ويعملون معاً على إحياءِ كلّ ما يفيدهم وما ينفعُهم في دنياهم وآخرتهم.

* وفي نهايةِ هذهِ الفقرةِ الماتعةِ الموحيةِ، أحبُّ أنْ أسجّلَ هذه التَّحية للمعلم من الشَّاعرة «وفاء حصرمة» التي رأتْ أن فضلَ المعلمِ باقٍ على مدى الأيّام والأجيالِ، فمع هذه النفحاتِ النّسوية وهذه القصيدة بعنوان «المعلّم»:

يمضي الزّمانُ وتنقضي الآجالُ ... وتظلُّ تذكرُ فضلَكَ الأجيالُ

لولاك لم تشرقْ شموسُ حضارةٍ ... يوماً ولم تتغيرِ الأحوالُ

مِنْ نبض قلبكَ تستمدُّ قلوبنا ... دفءَ الحنانِ فتحسنُ الأعمالُ

فُقْتَ الأنام وكلّ مَنْ أعطى فَفي ... فضْلِ المعلمِ تُضْرَبُ الأمثالُ

أنتَ الجوادُ بكلِ ميدانٍ وفي ... جودِ المعلمِ تعجزُ الأقوالُ

علمتَنا شتّى المعارفِ ، سُقْتَها ... عبرَ الدروسِ وكلّنا إقبالُ

ففتحتَ آفاقَ الحياةِ أمامنا ... وبذي المآثر تعظمُ الأفعالُ

يا من يصوغُ من الصُّمودِ ملاحماً ... تروي جميعَ فصولها الأطفالُ

نفسي فداؤك كم حملتَ من الضَّنَى ... حتّى ترعرعَ من بنيكَ رجالُ

فارفعْ جبينَكَ عالياً بين الورى ... فخراً فقد كبرتْ بك الآمالُ[1]

* * *

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ المجلد الثامن بتصرّف وانتقاء ـ العدد (٣٢) ص (٥٣) سنة ٢٠٠٢م ، والشاعرة وفاء حصرمة من شاعرات سورية .

الفصل الثالث
وسائل الإعلام وأثرُها الثّقافي

* وسيلةُ الإعلامِ (Advertisement) أداةٌ تثقيفيّةٌ قَديمةٌ قِدَمَ البشريّةِ فرسلُ الله قد بلّغُوا رسالاتِ ربّهم ، وأعلمُوا الأقوامَ الذين أُرسِلُوا إليهم وبلّغوهم العقائدَ والأحكامَ ، وذلكَ بالدّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بالإعلامِ والتّعريفِ والتّبليغِ .

* ولما خُتِمتِ الرِّسالاتُ بخاتمِ المُرسلين سيّدِ الأنبياءِ وختْمِهم ، قرأَ علىٰ النّاسِ قولَ ربّهِ عزّ وجلّ : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ . . . ﴾ [الأنعام : ١٩] .

* ومن هنا نعتبرُ أنَّ القرآنَ[١] العظيمَ هو الوسيلةُ الإعلاميّةُ الأولىٰ في عالَمِ الإعلامِ في عَصْر المبعثِ ؛ ويليه أحاديث النّبيّ ﷺ وخطبه ورسائله إلى الملوكِ والأمراءِ التي يدعوهم من خلالها إلى الإسلامِ ، ثمّ يلي ذلك الشِّعْرُ إذ كان لسانُ العربِ وبريدُهُم وبردتُهم الثّقافيةُ ، فللشِّعْرِ أثَرٌ وتأثيرٌ بارزٌ في الإعلامِ والتّثقيفِ للنّاسِ بكافةِ مراحلِ حياتِهم ، ليقوموا بدورهم في الإعلامِ والدَّعوةِ والتّبليغِ .

* ولعلّنا لا نبالغُ إذا قلنا : «إنَّ أمّة الإسلامِ أمّةُ محمّدٍ ﷺ هي أمةٌ لُحمتُها البلاغُ والتّبليغُ ، وسُداها البيان والتّبيين ، فهي أمةُ دعوةٍ وأمةُ علْمٍ ، وأمّةُ تبليغٍ لكلّ خيرٍ ، وأمّةُ اقرأ ، وقد حملَ القرآنُ الكريمُ ألويةَ الثّناء على مَنْ تحمّلَ تبليغَ

---

(١) من الفوائدِ المهمّةِ التي ينبغي أنْ يعرفَها الأطفال أنَّ لفظَ «القرآن» قد جاء (٥٨ مرة) في القرآن الكريم ، وجاء عشر مرات منصوباً بصيغة «قرآناً» ، وجاء مرة واحدة مضافاً إلى ضمير الغائب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧] .

دعوةِ اللهِ إلى الخيرِ ، فقال عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. كما نجدُ رسولَ الله ﷺ يدعو صحبَه الكرامَ إلى إعلامِ النّاس وتبليغهم ولو آية فقال: «بلّغوا عنّي ولو آية»[١].

* ونستدلُّ منْ هذا على أنَّ لوسائلِ الإعلامِ هذه كبير الأثرِ في نفوسِ النَّاسِ وتثقيفِهم ، ومنهم الأطفالُ ، فقد اهتدى كثيرٌ من الأطفالِ إلى ينابيعِ البيانِ والفصَاحةِ من خلالِ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المطهّرةِ.

* فالقرآنُ العظيمُ هو المنبعُ الأوّلُ والمصدرُ الأساسيُّ في تثقيفِ الأطفالِ المسلمين في جميعِ أقطارِهم وأمصارِهم ، وكان أطفالُ الصَّحابة يتسابقون لحفظِ القرآنِ الكريم وتلاوتهِ ، حتى إنَّ النّبيّ ﷺ قد دعا لابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ بأن يتعلّمَ القرآنَ الكريم ويفقهه فقال: «اللهم علّمْهُ الكتابَ»[٢].

* ونجدُ أنَّ الحديثَ الشَّريفَ رديفُ القرآنِ في تأثيرِه في بناءِ ثقافةِ الأطفالِ والنَّاشئةِ ، وقد استفادَ كثيرٌ من أطفالِ الصَّحابةِ منه ، ونقلُوا عن رسولِ اللهِ ﷺ ما حفظتْهُ لهم دواوينُ الحديثِ ، ومن هؤلاءِ الأعلامِ الحفظةِ الذين أسَّسوا ثقافتَهم على الحديثِ أيضاً: ابنُ عبّاسٍ ، وابنُ الزُّبيرِ ، وسهلُ بنُ سعد السَّاعديّ ، وعمرُ بنُ أبي سلمةَ ، والحسنُ بنُ عليّ ، ومحمودُ بنُ الرَّبيع ، ومسلمةُ بنُ مخلد ، والنّعمانُ بنُ بشيرٍ ، ونجدُ عدداً من بناتِ الصَّحابةِ[٣] أيضاً ومنهنّ: زينبُ بنتُ أبي سلمة ، وجميلةُ بنتُ سعدِ بنُ الرّبيع ، وأمُّ خالد بنتُ خالد وغيرهنّ ، رضي الله عنهم جميعاً.

* ومن وسائلِ التّأثيرِ الثَّقافي في نفوسِ الأطفالِ: الخطبُ التي كانت تُلقى في صلاةِ الجُمعةِ والعِيدَيْن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٥).

(٣) اقرأ موسوعتنا الجميلة «بنات الصّحابة» طبعة دار اليمامة ، ففيها خيرٌ كثيرٌ بإذن الله. واقرأ كذلك كتابنا «أبناء الصّحابة» الذي سيصدر قريباً بإذن الله عن دار اليمامة الغرّاء.

* كما أنَّ القصصَ والمغازي كانت رافداً مهمّاً من روافدِ الثَّقافةِ للأطفالِ ، وكان كثيرٌ من كبارِ الصَّحابةِ يعلّمون أطفالَهم السِّيرةَ النّبوية ، ومغازي النَّبيّ ﷺ كما يعلّمونهم السُّورةَ من القُرآنِ .

* ولم يكنِ الشّعرُ بأقلَّ تأثيراً في نفوسِ الأطفالِ وتثقيفهم ، فالشّعرُ وسيلةٌ شائقةٌ ميسرةٌ تصقلُ الشَّخصيّة الثّقافيةَ ، حيث إنَّ الشِّعْرَ يحفظُ ألسنتهم منَ الخطأ ، ويبثُّ في نفوسِهم الحماسَ ، ويحملُ لهم مآثرَ السَّابقين ، ولهذا فقد اهتمَّ بهِ الأعيانُ والخلفاءُ ، وأوصوا معلّمي أطفالهم أنْ يروّوهمْ منَ الشِّعرِ ما صَلُحَ وحَسُنَ فتصقل نُفوسَهم ويهذّبُها .

* كما كان لحلقاتِ التَّعليم العديدة كبير الأثرِ في تزويدِ الأطفالِ بالثَّقافةِ المتنوِّعةِ التي كانتْ تصدرُ عن العُلماءِ الذين يتحدّثون في حلَقِ العلْمِ التي تُقَامُ في المساجدِ وغيرها .

* وعندما ظهرتْ في العَصْرِ الحديثِ الطّباعةُ (Typing) المتطوِّرة ، انتشرتْ وسائلُ الثّقافةِ انتشاراً رائعاً ، وتوفّرَ الكِتَابُ بين أيدي النَّاسِ بسهولةٍ ، كما انتشرتِ الصُّحُف[١] والمجلاّتُ وغيرُ ذلك من وسائلِ الإعلامِ التي تزيدُ في الرَّصيدِ الثّقافي والمعرفي للأطفالِ ، ووسَّعَتْ هذهِ الوسائلُ آفاقَهم ومداركهم ، وجعلتهم يطّلعون على الثّقافةِ العالميةِ بشكلٍ أسرع وأكثرَ شموليّة من ذي قبل ، وخصوصاً البرامجُ التّربويةُ الثّقافيةُ الموجّهةُ إلى الأطفال التي تصقلُ بناءهم ومن ثم تكسبُهم الشّخصية المسلمةَ المثقّفة[٢] .

* * *

(١) سنتحدث في فقرة مستقلة عن صحافة الأطفال ـ بإذن الله ـ لما لها من أثر تثقيفي في العصر الحاضر .

(٢) أفردنا للتّلفزيون في نهاية هذا البحث فقرة مهمة جداً ، ننصح بالرجوع إليها ، واستيعابها والاستفادة من توجيهاتها لأنّنا كتبناها من القلب ، واستنبطنا أفكارها من صميم الواقع ، وذكرنا الآثار النّفسية التي تتدخّل في تربية الأطفال وتوجيههم .

الفصلُ الرابعُ
القراءةُ والكتبُ والصَّحافةُ ثراءٌ ثقافي

* القراءةُ نعمةٌ عظمى إذا استطاعَ الآباءُ والمربُّون أنْ يعوِّدوا الأطفالَ عليها ، لأنَّها الوسيلةُ الكبرىٰ لتلقّي ألوانَ الثَّقافةِ في مرحلةِ التَّأسيسِ المعرفي.

* ومن المُتعارفِ عليه بأنَّ القراءةَ عمليةٌ عقليّةٌ ، تشْمَلُ تفسيرَ الحروفِ المكتوبةِ ، وربطها بالمعاني ، وتفسير تلك المعاني وفقاً لخبراتِ القارىء الشّخصيّة.

* وإذا ما نظرنا إلى مفهوم القراءة من حيثُ الأداء ، وجدنا بأنّها تنضوي تحتَ نوعَين اثنين: قراءةٌ صامتةٌ (Silent reading) ، وقراءةٌ جَهْرِيّةٌ (Reading loud).

* فالقراءةُ الصَّامتةُ ـ وهي الأعمُّ والأكثرُ ـ تعتمدُ على شيئَين اثنين وهما: العينُ والعَقْلُ ، وتتميّزُ بسرعةِ استيعابِ المادّةِ المقروءةِ وفهمِها مع الدِّقةِ ، وهذه الطَّريقةُ تربّي في الأطفالِ القُدرةَ على الاستقلالِ بالقراءةِ ، والاعتماد على النَّفس ، والاستمتاع بالأحداث والقَصصِ.

* ومن هنا نلحظُ أهميّةَ القراءةِ للأطفالِ ، إذ إنَّ للقراءةِ دوراً مهمّاً وحيويّاً في حياتهم ، وما منْ شكٍّ في أنَّ القراءةَ الهادفةَ توسِّعُ من دائرةِ خبراتِ أطفالنا وآفاقهم ، وتفتحُ أمامهم أبوابَ الثَّقافاتِ العديدةِ ، وتحقّقُ لهم التّسليةَ والمتعةَ والفائدة ، وتساعدهم في كثيرٍ من الأحيانِ على حلِّ المُشكلاتِ ، وتهذيبِ مقاييسِ التّذوّقِ الأدبي ، كما أنّها تُسْهِمُ في الإعدادِ العلميّ للأطفالِ ، والتّوافق الاجتماعي والشَّخْصيّ والنَّفْسي لهم.

* ونحنُ نلاحظُ في هذه الأيَّامِ قلّةَ الشَّغف بالقراءة والاطِّلاع وطلب العلم ، ولكنَّ المربّين والآباءَ الواعين يدركون خَطَرَ هذا الجوّ الذي فَشَتْ فيه الأميّةُ بين فئةٍ من المسلمين ، وهذه الأمية تزحفُ نحو الأطفال إذ لم تتداركهم عناية الله عز وجل ، ثم ينتبه المربُّون والمسؤلون لذلك .

* ومن الطَّبيعي أنَّ الرّغبةَ في القراءةِ والمطالعةِ لا تُولَدُ مع الأطفالِ ، فالأطفالُ لا يتعلّمون حبَّ المطالعةِ والكتبِ بدافعٍ ذاتي ، ولا بدّ لهم من مُرَبٍّ أو أبٍ حصيفٍ يرشدُهُم إلى فوائدِ القراءةِ وحصائِلِها المفيدة .

* ويمكن للآباء والأمَّهات أنْ يبذروا حبَّ القراءةِ والمطالعةِ عند الأطفالِ عن طريقِ تأسيس مكتبة متنوّعة في المنزل ، ولفْتِ أنظار الأطفال إلى الوجبات الثَّقافية التي تحتويها هذه الكتب. ويحاول كلٌّ من الأب أو الأمّ أنْ يقرأ أمام الأطفال بصوتٍ عالٍ حتى يعتادوا على الإصغاء ، فالأطفال يحبّون أحياناً السَّماع وخاصة إذا كان الأب يلوّن في القراءة ، ويعطي كلّ موقفٍ حقّه من فنّ الإلقاء ، وفنّ التّعبير الكلامي ، كالتّعجُّب والاستفهام. . . . .

* إنَّ تعلُّمَ القراءةِ والكتابةِ هي البذرةُ الأولى لنموّ المعرفةِ في نفوسِ الأطفالِ ، وينبغي على المربّين أنْ يشجّعوهم على القراءةِ والمطالعةِ ويرغّبوهم من خلال وسائلَ تربويةٍ مفيدةٍ ومنها : المكافأةُ ، وبث الثّقة في النّفس وما شابه ذلك .

* ومن المفروضِ أنْ يُتاحَ للأطفالِ فرصةُ الاحتكاكِ بالكتبِ والمصادرِ والمعارفِ ، وأنْ يطّلعُوا عليها ليتعرَّفُوا شيئاً من الخبراتِ التي يعبِّرُ عنها الأدبُ وترسمُها المعرفةُ ، وليتّصلوا بحياةِ الآخرين من الكُتَّابِ والمفكّرين ، ويعيشونها بخيالهم ، ولكي يكتسبوا مجموعةً من القيمِ والفوائدِ تجعلُهم يستمتعون بما هو مكتوب أو مطبوع .

* إنَّ السَّبيلَ إلى إيجاد مجتمعٍ من القُرّاءِ ، لابدَّ أنْ ينطلقَ منَ الأطفالِ ، ويبدأَ منَ النّاشئةِ ، وذلك يجعلُهم يشغفُون بالقراءةِ من خلالِ اصطحابِهم إلى المكتباتِ العامّةِ والخاصّةِ ، وإيضاح محاسنِ الكتبِ وفوائدها على مرِّ الأيّامِ .

* ولكنْ ماذا يقرأُ أطفالُنا في هذا العَصْرِ الذي زاحمتِ المغرياتُ فيهِ القراءةَ والمطالعةَ؟!

* فَمِنَ المهامِ التي تتعلّقُ بأولياءِ الأمور ، توجيهُ الأطفالِ إلى الكتُبِ المفيدةِ والمناسبةِ لأعمارِهم ، وتعزيزُ العلائقِ بينَهم وبينَ الكُتُبِ بشتّى الوسائلِ ، لأنَّ وسائلَ التّرفيهِ من «تلفزيون ، وحاسب ، وألعاب متنوعة ، وإنترنت» كادتْ تطغىٰ على عمليّةِ القراءةِ ، فضلاً على اكتساحِها الكتاب ، أو محاصرتِه ، بل محاربتِهِ ، وهذه الوسائلُ ستجرُّ الويلاتِ على النّاشئةِ وعلى الأطفالِ في المستقبلِ ، لأنَّ مَلَكَةَ القراءةِ إذا تلاشتْ ، فسينهارُ كلُّ شيءٍ ، وستنهارُ أسوارُ المعرفةِ وحصونُ العِلْمِ والتّراث .

* ولكي نواكبَ الحضارةَ المعرفيّةَ ، ووسائلَ الإعلام المتطوِّرة ، وندركَ مَنْ سَبَقَنَا ، علينا أنْ نجعلَ من الأطفالِ ـ بالإضافة إلى تعليمهم كلّ وسائلِ التّطوّر ـ قرّاءَ من الصّنْفِ الممتازِ ، ونعملَ على تنميةِ ميولهم نحوَ القراءةِ ، والإقبالِ على الكُتُبِ بشغفٍ ، وذلك بتعويدهم على استخدامِ القراءةِ الصَّامتةِ في غالبِ مُطالعاتِهم ، وإرشادِهم إلى الكتبِ التي فيها بعضُ حلولِ أسئلتهم ، بالإضافةِ إلى إثارةِ رغبتهم في المطالعةِ ، وتشجيعهم على شراءِ ما يحبّون من الكتُبِ والمجلاّتِ المفيدةِ الهادفةِ التي تراعي طبيعتهم وحاجاتِهم وميولَهم .

* ومن الواضحِ لكلِّ ذي بَصرٍ وبصيرة ، أنَّ الرّاشدين من الآباءِ والأمّهات ، والمربّين والمدرسين ، على امتدادِ وطننا العربيّ الجميلِ ، قد أصبحوا يدركون ـ أكثرَ من ذي قبل ـ مطالبَ أطفالِنا فقد تنوَّعَتْ احتياجاتُهم العقليّةُ والفكريّةُ وحتّى العاطفيّة والنَّفسيَّة ، ولعلّ أصحَّ دليلٍ على هذا ، تلكم الظَّاهرة الكبيرةُ في الإقبالِ على شراءِ كُتُبِ الأطفالِ في الوطنِ العربيّ. وكتبُ الأطفالِ غَدا بعضُهم يعتبرُهَا بضاعةً رائجةً ، وتجارةً مضمونةَ الأرْبَاحِ ، وصار لا يهتمُّ فيها بجودةِ المضمونِ ، قَدْرَ اهتمامهِ بالشّكلِ الباهرِ الجذّابِ ، أو بقدرتها على جَذْبِ اهتمامِ الأطفالِ الصّغارِ؛ والنّاشئةِ من الذّكورِ والإناثِ .

* ومن المؤسفِ حقّاً ، أنَّ حاجاتِ الطّفولةِ المعاصرةِ قد حملَتْ عدداً من

دُورِ النَّشْرِ ، وبعضِ المؤسّسات على أنْ تقدّمَ للأطفالِ أنواعاً وألواناً مختلفةً من الكتبِ والمجلاتِ ، فيها أشياءُ مقتبسةٌ من آداب غير عربيّةٍ ، أو مترجمةٍ ، أو إنَّ شيئاً منها قد وُضِعَ دون خبرةٍ أو مهارةٍ كافيةٍ ومؤدّيةٍ للغرضِ ، فمن الملفتِ للنَّظر في أيّامنا هذه أنَّه قد توسَّعتِ الكتابةُ للأطفالِ ، وصار يدلي الدّلو مَنْ لا حِبَالَ عنده ولا يعرفُ الماءَ من السَّرابِ ، وصار المدّعون كثيرين يصولُون ويجولُون في الميدانِ يطلبون الطَّعْنَ وحدهم والنِّزال ، وكلٌّ يدّعي وصْلاً بليلىٰ ، وليلىٰ لا تقرُّ لهم بذلك ، وغدا هؤلاء يفرزون كِتاباتٍ هزيلةً مضطربةً تحتاجُ إلى مقوماتِ الأدبِ النَّاجحِ ، أو الحاجة التي يتطلّبُها أدبُ الأطفالِ في المجتمعِ العربي المسلمِ ذي القيمِ والفضَائلِ والمكارم النّابعة من تعاليم الدّين الحنيف.

* وقد تنبّه بعض تجّارِ النّاشرين إلى أنَّ بعضَ الكُتُبِ المؤلَّفةِ للأطفالِ غيرُ قائمةٍ على سُوقها ولا ناضجة ، فاتَّجهتْ أنظارهُم إلى مصادرَ أخرى تدرُّ عليهم الأرباحَ ، ترى ما المصادرُ التي تلقَّفها هؤلاء ولهثوا خلفها؟!

* يقولُ الأستاذ «يعقوب الشَّاروني» في الإجابةِ عن هذا التَّساؤلِ من مقالٍ له ما نصُّهُ: «ولما كانتِ الخبرةُ النَّاضجةُ بالكتابةِ للأطفالِ نادرةً وقليلةً في الوطنِ العربيّ ، فقد لجأ عددٌ كبيرٌ من النَّاشرين إلى البحث عن كتبٍ ومجلاتِ الأطفالِ الرَّائجةِ في العالَم الغربيّ ، يترجمونَها ، ويقدّمونَها بنفْسِ رسومها إلى أطفالنا ، بغير إدراكٍ لما تحتوي عليه منْ قيمٍ تربويّة غير ملائمة لنا ، أو مرفوضة حتّى في البلاد التي تصدر فيها تلك المطبوعات»(١).

* ومن الكتبِ التي انتقدها «يعقوب الشَّاروني» الكتب المترجمة للأطفالِ التي تَجِدُ رواجاً بين الأطفالِ العربِ ، تلك الكتب التي تتحدّثُ عن الرّجُل الخارقِ والخيالِ غيرِ المعقولِ.

* فأمّا شخصياتُ قَصصِ الرّجلِ الخارقِ للطَّبيعةِ ، من مثل قصص «سوبر

---

(١) انظر المقالة بعنوان: الآثار السَّلبية لكتب الأطفال المترجمة ، مجلة العربي الكويتية ، العدد (٣٥٩) عام ١٩٨٨م ، (ص ١٦٦).

مان» و«باتمان» الرّجلُ الوطواط و«الرجل الأخضر»؛ وغيرها . فهي تلجأُ أحياناً إلى تبسيطِ الشَّخصيات بحيث تجعلُ بعضَها مُمثِّلاً للخيرِ المُطْلَق ، وبعضَها ممثلاً للشّر المطلق ، على الرغمِ من مخالفةِ هذا وذاك لطبيعةِ البشَر ، ممّا يؤدّي إلى فَهم الأطفال لمجتمعهم ، والمجتمعاتِ الأخرى فَهْماً خاطئاً معوجّاً ومشوّشاً ، وقد يستثيرُ لديهم دوافعَ التّعصُّبِ والعدوانِ وحبِّ الشّرِّ وأذيةِ الآخرين ، ولا شكَّ في أنَّ لِكُلِّ إنسانٍ جانبان: جانبٌ طيّبٌ خيّرٌ ، وجانبٌ سيّئٌ خبيثٌ ، ولابدَّ أنْ يساعدَ أدبُ الأطفالِ بكلِّ جوانبه على أن يفهمَ أطفالُنا دوافعَ الإنسانِ ، وأسبابَ سلوكه . وذلك بطريقةٍ مبسَّطةٍ ، تناسبُ مراحلَ الطُّفولةِ التي نوجّه إليها ما نكتب[1] .

* ومن المؤكّد أنَّ القصصَ ذات الطّابعِ العنيفِ ، تؤثّرُ في سلوكِ أطفالنا ونفسيّاتهم . فالأطفالُ بعامةٍ يتأثّرونَ بالقدوةِ المتمثلةِ في أحداثِ القصّةِ ومواقفها الحسنةِ أو السَّيئةِ .

* بيْدَ أنّ كثيراً من قصصِ الرّجلِ الخارقِ للطبيعةِ ، تجعلُ هذا الرّجلَ هو الذي يحدّدُ ما هو الحسنُ أو السَّيِّء ، وهذا يؤدّي بالأطفالِ إلى الاستخفافِ بالقيمِ ، أو الأعراف الاجتماعية ، أو القانونِ . وبالتّالي تضطربُ الصُّورةُ الحقيقيّةُ أمامَ أعينهم ، ولا يقيمون للاحترام وزناً ولا قيمةً ، ولا يميّزون أبداً الثّوابَ أو العقابَ ، بلْ لا يزِنُون الفضائلَ بأي ميزان . وربّما تسيطرُ على حياتِهم ونفوسِهم صِفَةُ العنفِ من جراء تلك الكتُبِ والمجلاّتِ المترجمة .

* يقولُ الشّاروني مبيّناً خطرَ العُنفِ المتمثّلِ في كتبِ الأطفالِ المستوردة : «ولعلَّ من أخطر ما يقابلُنا في كُتُبِ الأطفالِ ومجلاّتهم المترجمة . تلك القصصُ التي تمجّدُ العنفَ كوسيلةٍ لحلّ المشاكلِ ، والتي تجعلُ القوّةَ البدنيّةَ هي العاملُ الأقوىٰ في حَسْمِ مختلفِ المواقفِ ، وهو أمرٌ نجده في كثيرٍ من

(١) المرجعُ السَّابق نفسه (ص ١٦٧) بتصرف .

قصصِ المغامراتِ وقصص الجاسوسيةِ ، وأيضاً في قصصِ سوبرمان وطرزان»[١].

* إنَّ هذه الكُتبَ والقصصَ المترجمةَ (Translated Stories) والمجلاتِ المتنوعةَ المصوَّرةَ والمبرمجةَ حسب طبيعةِ البلدِ التي تصدرُ عنه ، تؤدّي إلى تصويرِ العنفِ تصويراً مُبهِراً أمامَ الأطفالِ بحيث يؤثر في نفوسهم ، وبمرور الزّمنِ يصبحُ العنفُ عندهم شيئاً مُستساغاً ، وشيئاً سائغاً كأنّما فيه البلسمُ الشّافي لكلِّ المعضلات ، والحلُّ الأمثلُ لكلِّ المشكلات ، في حين أنَّ العقلَ هو الذي يحلُّ المسائل ، ويستعاضُ بهِ عن العنفِ والتّدميرِ وتخريبِ كلّ الوسائل.

* إنّنا مسؤولون عن تقديم ما هو صحيحٌ إلى الأطفالِ وذلك عن طريقِ الأناةِ والعقلِ ، ولكنْ «عندما نقدِّمُ للأطفالِ مثل هذه القَصَص في الكتبِ والمجلّاتِ والتّلفازِ ، فإنَّ الأطفالَ سيُسقِطون من سلوكهم كلَّ ما قدّمهُ لنا تاريخُ الحضارة من وجوب استخدامِ العقْلِ في حلِّ المشكلاتِ بدلاً من القوّة. إنَّ مثل هذه القصص تتنافى مع أهمِ أهدافِ التّربيةِ السُّلوكيّةِ للأطفالِ ، فأوّلُ ما يهتمُّ بغرسهِ في أطفالنا هو تدريبُهم على مواجهةِ المشكلات وحلّها بنجاحٍ عن طريقِ استخدامِ العقلِ ، مع استبعادِ القوةِ البدنيةِ بشكلٍ شبه كامل»[٢].

* ومن أخطرِ كتبِ الأطفالِ والقصصِ التي تُنْقَلُ لأطفالنا وتُترجَمُ لهم بعُجرها وبُجرها ، تلكم التي تدورُ حولَ منافسةٍ سخيفةٍ بين طرفَيْن ، وتجعلُ الصِّراعَ حتّى الموتِ هو الوسيلةُ الوحيدةُ لإنهاءِ التّنافس بين الأطرافِ المتنازعةِ ، وقد يكون التّنازعُ على شيءٍ تافه لا قيمة له ، وأحياناً لا وجود له.

* إنَّ هذه القصصَ المترجمةَ تُقَدَّمُ إلى أطفالنا بأسلوبٍ فيه كثيرٌ من الفُكاهةِ والطَّرافةِ الممزوجة بالسّموم ، كما تُقَدَّمُ عادةً في مُسلسلاتٍ شائقةٍ برسومٍ

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ١٦٨). أقول: «وقد ظهرتْ الآن أسماء جديدة أخطر من تلك وأشدُّ فتكاً في سلوك الأطفال ونفسيّاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد تطوّرت مع التقدّم العلميّ وظهور التّقنية السّريعة ، فاللهُ المستعان».

(٢) المرجع السابق عينه (ص ١٦٨).

متحرِّكةٍ وخصوصاً على شَاشاتِ التّلفزيون ، وأوضحُ مثال لهذا القَصَص التي تدورُ حولَ شخصيّاتِ الكرتون «توم وجيري» التي تحفل بها الفضائيات المتخصّصة الآن .

* والملفتُ للنَّظرِ لهذه الشّخصيّات هو المنافسةُ القاتلةُ المدمِّرةُ ، فكلُّ طرفٍ يدبّرُ للطَّرفِ الآخرِ أُسلوباً جارفاً من أساليبِ الأذى الممقوتِ المُهْلكِ. «وإذا كُنّا نضحَكُ ونحنُ نقرأُ هذه القَصص ونشاهدُ رسومَها ، فإنَّ الطفلَ الذي يطالعُها أسبوعاً بعد أسبوعٍ في مجلّته ، أو يقرؤها في كتبهِ التي يشتريها لِنَفْسهِ أو نشتريها له ، سيتذكّرُ في وعيهِ نمطٌ خاطىءٌ من السُّلوكِ ، من السَّهلِ تقليده والتّمثّل به ، لما فيه من تنميةٍ للإحساسِ بالتّفوّق على الآخرين ، برغم ما يسبّبه لهؤلاء الآخرين من أذى وأضْرار. إن كثيراً من قصصِ الأطفال المترجَمة ، بل إنَّ أكثر قصصِ الأطفال المترجمةِ رواجاً ، إنّما هي تعبيرٌ عن أوضاع مجتمعاتٍ تختلفُ كثيراً في أهدافِها عن مجتمعنا ، ولابد أنْ ننتبهَ لما تتضمَّنه هذه القصصُ منْ أخطارٍ ، على الرغمِ مما فيها من سهولةٍ وجاذبيّةٍ وتشويقٍ لأطفالنا. وإنَّ الموادَّ المترجمة للأطفالِ لابدَّ أنْ تخضعَ لتدقيقٍ حاسمٍ شديدٍ ، حتّى لا تفْسِدَ كثيراً ممّا نريدُ أنْ نغرسَه ، وننمّيه في أطفالنا»(١).

* ومن المُسلّماتِ التي لا يختلفُ فيها اثنان: أهميةُ الكتبِ ودورها في إثراءِ ثقافةِ الأطفالِ وإغناءِ بصائرهم بشتّى ألوانِ المعارفِ وأنواعِها.

* وعلى الرغمِ ممّا جادتْ به قريحةُ الحضارة من مخترعاتٍ وتقنياتٍ حديثةٍ وفي مقدمتها: الحواسبُ الآليةُ مع أقراصِها المثيرةِ التي تتَّسعُ لمئاتِ المجلَّداتِ وآلافِ المعلوماتِ المذهلةِ والمتنوِّعةِ إلاّ أنّه لا أحدَ يستطيعُ أنْ يلغيَ دورَ الكتابِ من حياتهِ المدرسيّة ، أو حياتِه الثّقافيّةِ ، إذ إنَّ الكتابَ هو نَبْعُ المعرفةِ الدّائمِ الثَّرّ الذي لا ينضبُ مهما كثرت الرَّوافدُ الثَّقافيةُ وتعدَّدتْ وسائلها ، ومهما تطوَّرت وتقدَّمت.

---

(١) المرجع السابق (ص ١٦٩). أقول: «هذه ناحيةٌ مهمةٌ تحتاجُ إلى مخلصين لكي يفرزوا هذه الأفلامَ والمسلسلاتِ الضّارة بحبّات القلوب ، ويختاروا ما يفيدهم في دينهم ودنياهم ، وما يتناسبُ مع بيئتهم ومجتمعهم».

* ومنَ الطَّبيعيّ أنْ يدركَ أهميّة الكتابِ ودورَهُ أولئكَ الذين يتّصلونَ بالثّقافةِ بكافّةِ ألوانِها ، من مثلٍ: الإذاعة ، التّلفزيون ، الفيديو ، الإنترنت ، وغير ذلك من الوسائلِ الأخرى؛ وعلى الرّغمِ منْ أنَّ هذه الوسائلَ الحديثةَ تنافسُ الكتابَ منافسةً شديدةً ، وتشكّلُ أمامَه جوّاً ضبابيّاً ـ أحياناً ـ إلاّ أنّ الكتابَ ما زالَ ولا يزالُ يُعتبَرُ من أهمِّ مصادرِ المعرفةِ ، فهو يمتازُ بمرونةٍ لا تتوافرُ في تلكَ الوسائلِ المُنافسةِ له ، فالكتابُ هو الحبْلُ السّرّيُّ الذي يغذّي الألبابَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وعن طريقِهِ السَّهْلِ المُيَسَّر يتعرَّفُ النّاسُ على القديم والحديثِ من الثّقافةِ بكافّةِ أشكالِها وألوانها.

* ومن منّا لا يتذكّرُ تلكمُ اللحظات التي تعرَّف خلالها على الكتابِ ، وهو في سِنيّ دراسته الأولىٰ في المرحلةِ الابتدائيةِ ، ومَنْ منّا لم تستقرَّ في ذاكرتهِ كثيرٌ من الصُّورِ والرُّسومِ التي اجتذَبَتْ شيئاً من انتباهِهِ ، واستقرّت في أعماقهِ ونفسهِ؟!.

* لا شكَّ ـ أحبّائي ـ أنَّ لتلكم العلاقةَ البريئةَ اللدنةَ بيننا وبينَ الكتابِ آثارُهَا الواضحةُ فينا اليوم ، فالكتابُ كان صديقاً وفيّاً دون أنْ نشعرَ ، وأليفاً حبيباً دون أنْ نعقدَ معه معاهدة على الحبِّ والمودّة.

* هذه حقيقةٌ لا يقدرُ أحدٌ على إنكارِها ، إلاّ الذين لم تكنْ لقاءاتُهم الأولى حميمةً مع الكتابِ ، حيث عافَتْهُ نفوسُهم منذُ الأيّام الأولى ، وانصرمَ حَبْلُ الوصالِ فيما بينهم..

* إنَّ كتبَ الأطفالِ تضعُ لهم خطواتِهم الأولىٰ على طريق معرفةِ النّاسِ ، وتفتحُ أذهانَهم على العالَم الخارجيّ وعلى الحضارةِ ، وتنمّي خيالَهم ، وتصقلُ مواهبَهم.

* يقولُ هادي الهَيْتيّ: «ومن خلالِ هذا أو ذاك يقفُ الطِّفلُ عند مواقفَ جديدةٍ غير التي يصادفُها في بيئتهِ كلّ يوم ، فتتنامىٰ رويداً رويداً حواسُّه ومداركُه ، وتتطوّرُ ملكَةُ تفكيرِهِ»[1].

(١) انظر: أدب الأطفال (ص ٢٧١).

* إنَّ الأطفالَ يستهلّون حياتهم بالتَّعرُّفِ على هذا العالمِ الذي جاؤوا إليهِ ، والتّعرُّفِ على أنفسِهم وعلاقتِهم بهذا العالم ، وكذلك تنمية قدراتهم على التّعلّمِ واستيعابِ الحقائقِ والأفكارِ ، والتّزوّد بالمعلوماتِ في مختلفِ العُلوم ، والفنونِ ، والآدابِ ، وذلك من خلالِ الكتبِ وأدواتِ المعرفة .

* ومن الملموسِ لدى المربّين والمهتمّين بتربيةِ الأطفالِ من خلالِ الكتبِ ، بأنّ كتبَ الأطفالِ الهادفةِ ، تقودهُم إلى التّفكيرِ ، وطرحِ الأسئلةِ على أنفسِهم وعلى الآخرين ، ومن ثمّ تسمو بهم إلى مرحلةٍ راقيةٍ تتناسبُ مع عمرِهم ونموِهم الجسديّ ، ويرى هؤلاء المربُّون أنَّ الأطفالَ ـ في العصر الرّاهنِ ـ يحتاجون بصورةٍ دائمةٍ إلى زيادةِ معلوماتِهم التي يمكنُ أنْ تلبّيها الكتبُ ، وتكسبُهم معارفَ جديدةً ومفيدةً .

* وللكتبِ تأثيرُها في الأطفالِ ، لما لها من خاصيّةٍ على تغذيةِ كثيرٍ من الصّفاتِ الإنسانيّةِ النّبيلةِ في نفوسِهم ، وتمكّنهم من تذوّقِ الجمالِ الأدبيّ وتقييمه ، وتعريفهم إلى كثيرٍ من المعارفِ والقيمِ ، إضافة إلى إمتاعِهم وإدخالِ السّرور إلى قلوبهم الصَّغيرةِ الصَّافيةِ .

* ولعلَّ قدرةَ كتبِ الطُّفوليّةِ الهادفةِ تنبعُ من كونها مناهلَ ثرّة لطيفة ، تقدّمُ الأفكارَ والقيمَ والمفاهيمَ والمعلوماتِ إلى الأطفالِ مثبتةً على الورقِ ، حيث يتيسرُ لهم أنْ يتعاملوا معها وقتاً طويلاً في أناةٍ وهدوءٍ ، وكذلك يمكنهم أنْ يتركوا الكتبَ وأن يعودُوا إليها في أي وقتٍ يريدون ، في الوقتِ الذي لا يتهيأُ لهم ذلك من خلالِ ينابيعَ ثقافيةٍ أخرى ، كالتّلفزيون والإذاعة والمسرح وما شابه ذلك ، إذ تغيبُ عن أذهانِهم كثيرٌ من الصُّورِ والقيمِ بعد مضي وقتٍ من الزَّمن(١) .

* كما أنَّ للكتبِ ميزةً متفرّدةً ، وهي ميزةُ المرافقةِ ، حيث يستطيعُ الأطفالُ مرافقةَ الكتبِ واصطحابها إلى أي مكانٍ يحبّونَه ، وفي أي وقتٍ يتسنّى لهم ،

---

(١) انظر : كتاب : أدب الأطفال (ص ٢٧٢ و٢٧٣) ، والأدب وبناء الإنسان (ص ٦٧) مع الجمع والتصرف .

فهي تُدخلُ في نفوسهم الأُنْسَ والسُّرورَ ، وتزودهم بشتّى أنواعِ المعرفةِ وألوانها؛ وبخاصّةِ اللون الأدبيّ الذي يثري عقولهم وينديّ أرواحهم ، أو اللون العلميّ الذي يزيدُ تجاربهم ويصقلها.

* ولذا فإنَّ للكتبِ أهميةً لا تزولُ ، ولها صِفَةُ الاستمرارِ والديمومةِ مهما تغيرَ الزَّمنُ أو الأشخاصُ «وإذا كانتِ الكتبُ في الماضي تتمتعُ بأهميةٍ خاصّة ، فإنَّ أهميتَها في العصرِ الحاضرِ مع ما صَاحَبَه من تقدّمٍ اجتماعي عظيمٍ واختراعاتٍ جبّارةٍ ، تصبحُ أشدّ ضرورة ليس من الممكنِ أنْ نعيشَ في مجتمعنا بدونها ، لذلك وجبَ أنْ ندركَ أنَّ مهمّةَ المسؤولين عن تنشئةِ أبناءِ الجيلِ وبناتِه لا تنحصرُ في تعليمِ الأطْفَالِ القراءةَ فحسب ، بل إنّها أهمُ من ذلك بكثيرٍ ، إذ تمتدُّ إلى إثارة اهتمامِهم ، وحثّهم على المُطالعةِ ، وغرسِ عادةِ القراءةِ عندهم منذ الصّغر. لذلك كان لزاماً بذل الجهود للعنايةِ بكتبِ الأطفال كمّاً وكيفاً»(١).

* ولقد دلّتِ التّجاربُ الطُّفوليّةُ على مدارِ تاريخِ القراءةِ أنَّ شريحةَ الأطفالِ هي شريحةٌ ممتازةٌ بين القرّاءِ ، والأطفالُ بعامّة نَهِمون يحبّون القراءةَ بدافعِ الرّغبةِ في الاستطلاع ، ويستمتعون استمتاعاً حقيقياً بالكتبِ التي يطالعونَها ، ومن ثمّ يكتشفون بها آفاقاً ومعارفَ جديدة.

* وهنا أودُّ الإشارةَ إلى ناحيةٍ مهمّةٍ ـ وقد تكون مؤلمةً كالجراحِ أو أشدّ إيلاماً ـ وهي سوءُ عنايةِ ورعايةِ البيتِ العربيّ (The Arabic home) والأسرةِ العربيّة (The Arabic Family) المُسلمةِ لكتُبِ الأطفالِ ، وحضّ الأطفال على المُطالعةِ ، ولا تخصّصُ الأسرةُ شيئاً من مصروفها للكتبِ ، في حين تبذّرُ في نواحٍ لا تسمنُ ولا تغني من جوع ، وربّما تشتري أشياء لا تحتاجُها في العمرِ مرّةً واحدةً ، وذلكَ من أجلِ المُباهاةِ أمامَ الآخرين ، في حين أنَّ المباهاةَ الحقيقيةَ تكمنُ وراءَ نبوغِ الأطفالِ ، وإبداعِهم ، وتفتّحِهم على العلومِ والتّقنيةِ والمعرفةِ.

---

(١) انظر: أدب الأطفال (ص ٤٤٦) لعبد الرزاق جعفر ، منشورات اتحاد كتاب العرب بدمشق عام ١٩٧٩م.

* ومن الواضحِ أنّ تقدُّمَ الطّباعةِ في العَصْرِ الرَّاهنِ قد سهَّلَ الطَّريقَ ومهَّدَهُ أمامَ ثقافةِ الأطفالِ وتربيتهم ، وساعدَ عدداً من المربّين في هذا الميدانِ المثمرِ ، لذا فعلى المهتمّين بكتبِ الأطفالِ ونشْرِها أنْ يبحثوا عمن يكتبُ للبراعمِ كتابةَ الخبيرِ بأحوالِهم ونفسيّاتهم ومتطلّباتهم ، وأنْ يكتبوا لهم ما يفيدهم ، ويجعلُهم يتطلّعون إلى الفضائلِ في جميعِ صورها ، وتأخذُ بأيديهم إلى ينابيعِ الخيرِ والإيثارِ والقدوةِ بالسَّلفِ الصَّالحِ والاهتمام بكلّ ما هو نافع ومفيد.

* ومن المبشّراتِ بالخيرِ أنَّ كثيراً من دُورِ النَّشْرِ في الوطنِ العربي ـ وإن كان هدفها الثّراء ـ ، قد استجابَتْ لرغباتِ الطُّفولةِ ومتطلّباتِ الحياةِ ، وراحتْ تسْهمُ في إثراءِ هذا الجانب ، وإغناءِ المكتبةِ الطُّفوليّةِ بما تحتاجهُ من سائرِ ألوانِ المعرفةِ ، وفي مقدمتها : العلومُ الدّينيّةُ.

* وكانت كثيرٌ من المكتباتِ ودورِ النَّشْرِ في سوريةَ، ومصرَ ، والسُّعوديةِ ، ولبنانَ ، وتونسَ ، وغيرِها من المؤسّساتِ الثَّقافيةِ في أرجاءِ الوطنِ العربيّ ، قد عملت على إنشاءِ ركْنٍ خاصٍ من رفوفِ مكتباتِها بالطِّفلِ ، أو إنشاءِ جناحٍ خاصٍ للمهتمّين بأدبِ الطّفلِ وتربيتهِ ، وقد لمسْتُ هذا في كثيرٍ من المكتباتِ الكبيرةِ في سوريةَ ومصرَ والسّعوديةِ وغيرِها.

* وخلالَ السَّنواتِ الأخيرةِ ، بدأَ الوعيُ يزهرُ ، ويجعلُ عدداً من المسؤولين يُولُوْنَ اهتماماً واسعاً بكتبِ الأطفالِ ، ويشيرون إلىٰ النّاشرين بأنْ يخرجُوا للنّاشئة كُتُباً مفيدةً ، ذات طباعةٍ أنيقةٍ ، ومواد جذّابةٍ مدروسةٍ تساعدُ على تغذيةِ عقولهم وقلوبهم ، وتقربهم من الحقائقِ ، وتربطهم بالإسلامِ الحنيفِ على الوجْهِ الصَّحيحِ؛ ولا أريدُ هنا أنْ أذكرَ اسمَ أحدٍ من هؤلاءِ الأخيارِ ـ رجالاً ونساء ـ فهم معرفون في الوسَط العلميّ والأدبيّ في بلادهم ، والله يجزي مَنْ أحسنَ عمَلاً.

* وأودُّ أنْ أشيرَ هنا إلى ناحيةٍ مهمّةٍ في كتُبِ الأطفال وهي شكلُ كتابِهم ومضمونه؛ فالأطفالُ بعامةٍ تستهويهم أغلفةُ الكُتُبِ وحجمُها وعنوانُها ، ومن ثمّ ألوانُها وورقُها ، وبعد إذ ينظرون إلى المضمونِ الذي يشوِّقهم ، وعندها

يحتضنون هذه الكتبَ برفقٍ وبراءةٍ. «وهذا يعني أنَّ الأطفالَ يريدون كتبَهم جميلةً ، ذات أحجامٍ مناسبةٍ ، وطباعةٍ أنيقةٍ ، وحروفٍ واضحةٍ ، وأغلفةٍ قادرةٍ على الاحتمالِ ، أيْ أنْ يكونَ إخراجُها جيّداً ، وتصنيعُها ممتازاً ، إضافةً إلى المضمونِ الجيّد»[1].

* كما أودُّ أنْ أقولَ بأنَّ الكبارَ هم الذين يصنعون كتبَ الأطفالِ ويضَعُون لهم أدبهم ، لكنَّ الأطفالَ هم الذين يرسمون له الخلود ، فليكنِ العملُ صادقاً ليكون الخلودُ موجوداً.

* أما الصَّحافةُ (News Paper) التي غدتْ مِنْ مميزاتِ هذا العصر وهذا الزّمنِ فإنَّه منَ الصَّعبِ أنْ ننفيَ أثر صحافةِ الأطفالِ في تكوين جزء مهمّ من شخصيّتهم التّربويةِ والثّقافيةِ ، ولا شكَّ في أنَّ كثيراً من الصُّحفِ والمجلاتِ قد أثّرت في كثيرٍ من الأطفالِ في عالمنا المعاصرِ ، وجعلتْهم يلتفتون إلى القراءة والمطالعة إلى حدٍّ ملحوظ ، فكم منْ طفلٍ بدأ نبوغه الأدبي من خلالِ ذلك.

* وقد بدأ المهتمّون بتربيةِ الأطفالِ يلحظون أثرَ الصُّحفِ والمجلاّتِ في توجيهِ سلوكِ الأطفالِ وتربيتهم ، فراحُوا يولُون هذه النّاحية جُلَّ اهتمامهم ، لأنّهم عرفوا أنَّ صحافةَ الأطفالِ هي أداةٌ مؤثّرةٌ وفاعلةٌ من أدواتِ تشكيلِ الطُّفولةِ وتهيئتها لتصبحَ طاقةً مفيدةً في حاضرِها ومستقبلها.

* ولصحفِ الطّفولةِ ومجلاّتِ الأطفالِ سماتٌ ومساراتٌ تشيرُ إليها ، وخصائصُ تدلُّ عليها ، ومنها: أنَّها تقومُ على فنِّ الكلمةِ المطبوعةِ أو المخطوطةِ ، والصُّورةِ والألوانِ ، وهذه الأشياءُ تعتمدُ على العينِ والبصرِ ، حيثُ يستطيع الأطفالُ أنْ يقرؤوها وأنْ يتمعَّنوا فيها في سائر الأوقاتِ والمناسباتِ ، خلاف برامجِ التّلفزيون التي لها أوقاتٌ محدّدةٌ ينتظرهَا الأطفالُ في ساعةٍ محددةٍ ليشاهدوها.

* ولصحافةِ الأطفالِ (Child newspaper) أسلوبٌ خاصٌ بها ، إذ يشعرُ الأطفالُ ـ وخصوصاً النّابهين منهم ـ بخفّتهِ وسهولتهِ وجمالهِ ، وقد توحي لهم

---

(١) أدب الأطفال لهادي الهيتي (ص ٢٩١ و٢٩٢).

الكلماتُ المطبوعةُ بالفكرةِ الماتعةِ المؤثّرةِ ، وقد تهذّبُ الصُّورُ ذوقَهم وتطلقُ خيالَهم ، وتأتي الألوانُ اللطيفةُ المعبرةُ لتغريَ أبصارهم وقلوبَهم وتؤثّر في نفسيّاتهم ، وعندها تكونُ هذه الصَّحافةُ حبيبةَ الأطفالِ ورفيقتهم ، لأنَّها تُقرّبُ لهم الحقائقَ نوعاً ما ، ومن المعلُومِ أنَّ صحفَ الأطفالِ تستعينُ بمختلفِ الفنونِ الأدبيةِ ووسائِلِها ، وأذواقِ الفنانين والرَّسامين لتبدو أمامَ عيونِ الأطفالِ وجبةً ثقافيةً مغريةً ومحبّبةً.

* يقولُ هادي نعمان الهيتي عن دور صحافةِ الأطفال في تنميةِ الطُّفولةِ: «ولصحافةِ الأطفالِ دورها البالغُ في تنميةِ الطُّفولةِ عقلياً وعاطفياً واجتماعياً وأدبياً ، لأنّها أداةُ توجيهٍ ، وإعلام ، وإمتاع ، وتنمية للذّوق الفنيّ ، وتكوينُ عاداتٍ ، ونقلُ قيمٍ ومعلوماتٍ وأفكارٍ وحقائقَ ، وإجابةٌ لأسئلةِ الأطفالِ ، وإشباعٌ لخيالاتهم ، وتنميةُ ميولهم القِرائية؛ وهي بهذا تؤلّفُ أبرزَ أدواتِ تشكيل ثقافةِ الطّفل ، في وقتٍ أصبحت الثّقافةُ فيه أبرزَ الخصائصِ التي تميز هذا الفردَ عن ذاك ، وهذا الشّعب عن ذاك»[1].

* ولصحافةِ الأطفال عدّةُ أشكالٍ وصورٍ تختلفُ عن بعضِها تبعاً لسنِّ الأطفالِ ، فمنها ما هو متخصّصٌ في مرحلةِ الطّفولةِ المبكّرةِ ، ومنها طفولةٌ متوسطةٌ وهي طفولةُ المرحلةِ الابتدائيةِ ، وقد نجدُ بعضَ هذه الصُّحفِ والمجلّاتِ تخصُّ البنَاتِ.

* وتحتوي صحفُ الأطفالِ النّاجحة معظمَ الموضوعاتِ والأبوابِ التي تثْري عقولَ الناشئةِ وتنمّي ذكاءهم ، حيث تنشرُ القَصَصَ النّافعةَ ، والمسلسلاتِ الهادفةَ التي تتوقّفُ عند عقدةٍ أو نقطةٍ مهمّةٍ ينتظرها الطّفلُ في العددِ القادمِ ، بالإضافةِ إلى المسابقاتِ والمعلوماتِ العامّةِ، والطَّرائقِ، وبعضِ الاستطلاعاتِ المناسبةِ لإدراكِ الأطفالِ ، وكذلك بعضُ الأخبارِ التّراثيةِ المفيدة من مثل: تعريفُ الأطفالِ بشخصيّاتٍ خالدةٍ في تاريخنا الإسلامي ؛ أو تعريفُهم بغزواتِ النّبيّ ﷺ ؛ أو أخبار أهلِ بيتهِ ، أو بعض معاركِ المسلمين الوضّاءة في

(١) انظر: أدب الأطفال (ص٢٣١) سلسلة الألف كتاب (الثاني) القاهرة ـ ١٩٧٧م.

التَّاريخ ، ويزيّنُ هذا كلّه باقةٌ من الرّسوماتِ والألوانِ المُغريةِ التي تجعلُ الأطفالَ يتسابقون لاحتضانها .

* وتعتمدُ الصَّحافةُ هذه على التَّنويع المعرفيّ والثّقافي والفنيّ والأدبيّ ، حتّى ينتقلَ الأطفالُ بين أفيائِها من غيرِ أنْ يتسربَ المللُ والسّأم إلى نفوسهم الغضَّةِ . ويتعمدُ مخرجو هذه الصُّحف أنْ يكونَ التّنويعُ شاملاً للمضمونِ والشّكلِ ليجتذبَ إليهِ عيونَ الأطفالِ وقلوبَهم ونفوسَهم ، وقد أدركَ المهتمّون بصحافةِ الأطفالِ بأنَّ نجاحَها يعتمدُ على التَّبسيطِ والتّطوُّرِ واللغةِ التي تتناسبُ مع عالَمِ الأطفالِ ، ولهذا كُتِبَ البقاءُ لكثيرٍ من مجلاّتِ الأطفالِ لأنَّها واكَبَتْ مسيرةَ التّطوُّرِ الملائمِ للطِّفْلِ وميولهِ وهواياتهِ .

* ومن المثيرِ حقّاً أنْ نجدَ بعضَ الكبارِ يقبلُ على قراءةِ مجلاّتِ الأطفالِ . ويجدُ بعضَ المتعةِ فيها ، ويستطيعُ من خلالِ قراءتها أنْ يوجِّهَ الأطفالَ إلى الإقبالِ على القراءةِ والاستفادةِ من المعلوماتِ التي تحتويها . وخصوصاً تلك المجلاّت التي تعتمدُ على الرُّسومِ والصُّورِ ، إذْ يضطرُ الكبارُ إلى صياغتها على شكلِ قصّةٍ ورواياتها للأطفال بطريقةٍ محببةٍ إلى نفوسهم .

* إنَّ في صحفِ الأطفالِ ومجلاّتهم فوائدَ مهمّة لفلذاتِ الأكبادِ ، ومُهَجِ الأفئدةِ ، وخصوصاً إذا أرادَ محرّروها وجْهَ اللهِ وفائدةَ النَّاشئةِ ، لا أن يكونَ هدفهُم الأوّلُ الرّبحَ الماديَ والسَّعيَ وراءَ الثَّراء السَّريع وجمع الأموالِ من خلالِ التّجارةِ بألبابِ الأطفالِ ونفسيّاتهم مِنْ على سطحِ ورقِ مجلاتهم وصحفِهم ، ونرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أن يلهمَ المُهتمّين بهذا المجالِ الإخلاص والوفاء للأطفالِ والطُّفولةِ ، حتى ينشأَ الجيلُ على القيم والأخلاقِ الفاضلةِ . وعلى مكارمِ المحاسنِ ومحاسنِ المكارمِ ، فهم في المستقبل هم قادةُ المجتمعِ وأفرادُه .

* إنَّ كثيراً من النَّاسِ في بلدان شتّى يعملون على غرسِ مفاهيم معيّنة في نفوسِ الأطفالِ ، ويحرصون على ذلك ولو تكبّدوا الخسائرَ الماديّةَ ، فهذا لا يهمُّ ما داموا يكسبون نفوسَ الأطفال وقلوبهم وعقولهم ؛ ويرسمون لهم ما يحبُّون . . . وقد لفَتَ نظري وأنا أصوغُ هذه الفِقْرةَ بضعةَ أسطرٍ لِنُعمان الهيتيّ

تحدَّثَ من خلالها عن أثرِ الصُّحفِ والمجلاّتِ في الغربِ بنفوسِ الأطفالِ ، فلنسمعْ إلى ما يوردُه في كتابه «أدب الأطفال ، فلسفته ، فنونه ، وسائطه» ؛ يقولُ الهيتي ما نصُّه ورسمُه : «ويجدُ الأطفالُ في أوربة وأمريكا مئاتِ الصُّحفِ الدّينيّةِ ، وتتولّى إصدارها في الغالبِ الطّوائفُ والمذاهبُ الدّينيةُ المتعددةُ ، فاليهودُ ، والكاثوليك، والبروتستانت ، وغيرُهم يصدرون صحفَ الأطفالِ ، مستهدفين غرسَ الوعيَ الدِّيني في نفوسِ الأطفال منذ نعومةِ أظفارِهم ، ويُلاحظُ أنَّ أغلبَ تلك الصّحف لا تعبأُ للخَسائرِ المادّيةِ التي تنفعُها ما دامت تعملُ بين جمهورِ الأطفالِ لوجهِ اللهِ!!!»[1]؟؟!!.

* * *

(١) انظر: أدب الأطفال (ص ٢٤٥) ولاحظ قوله: «ما دامت تعمل بين جمهور الأطفال لوجه الله»!؟! وسأترك التعليق للقارىء الكريم ليدرك مدى اهتمام غيرنا بالأطفال ليكسبوهم إلى صفّهم منذ نعومةِ أظفارهم ، ويسيطروا على عقولهم ونفوسهم.

الفصل الخامس

الرسمُ يرتقي بثقافةِ الأطفالِ

* منذُ فجرِ التَّاريخ وصبْحِهِ وضحاه ، كان الإنسانُ يسجّلُ الأحداثَ على الصَّخرِ ، ويرسمُ قصَّتَهُ مع الحياةِ والطَّبيعةِ في لِيْنها وشدّتها؛ وكأنَّ الإنسانَ بهذا قد عاشَ عَصْرَ الرّسومِ والفنونِ التّلقائيةِ قبل أنْ يعيشَ أي عصْرٍ آخرَ يتّسمُ بفنٍّ منَ الفُنونِ.

* وخلالَ دورةِ الأيَّامِ ومسيرةِ السّنين ، وتوالي الأحقابِ ظلتِ الرّسومُ هي لسانُ التّعبيرِ والتّعميرِ والتّصويرِ ، وعلى الرغمِ من الحضارةِ التي يحياها إنسانُ هذه الأيّام ، فلا تزالُ الإنسانيةُ تحيا فجرَ التَّاريخِ بممارسةِ الرُّسومِ.

* ومن خلالِ الدّراساتِ التّربوية التي قامَ بها متخصّصون من الشّرق والغربِ ، أَلْفَوا أنَّ الرسوماتِ مادةٌ مهمةٌ قد تفوقُ المادّةَ المكتوبَة بالأحرفِ والكلماتِ؛ والمادّة المنطوقة بالهمسِ والنَّغماتِ ، إذ إنَّ الرسومَ ـ في بعضِ الأحايين والأوقاتِ ـ قد تكون أكثر قدرةً على توضيحِ وإيضاحِ كثيرٍ من الوقائعِ والمفاهيمِ ، ولذلك كانت وسيلةَ اتّصالٍ ـ أحياناً ـ بين المربّين والأطفالِ في عهود قديمةٍ ، وبلغَ من اهتمامِهم بالرسومِ أنَّهم عبّروا عمّا يجولُ في خواطِرهم بالرُّسوماتِ على الرّملِ في التَّعليمِ والتَّوضيح والشَّرحِ.

* والذي يهمُّنا الآن بأنَّ الرسومَ (Drawings) تؤدّي دورَها الوظيفيّ للأطفالِ ، لا سيما إذا كان الرَّسامُ موهوباً مبدعاً ويستطيع أنْ يتعاملَ مع نفسيّةِ الأطفالِ ، وكم من قصَّةٍ قليلةِ الكلماتِ ، قد رافقَتْها رسومٌ هادفةٌ أَغْنَتِ الأطفالَ بمعلوماتٍ كافيةٍ ، لأنَّ الأطفالَ ـ بشكلٍ عامٍ ـ لا يفهمون المجرّداتِ فهماً

حقيقياً ، ولا يحبّون أنْ يخوضوا فيها ، بل يحبّون المعرفةَ التي تتعاملُ مع شيءٍ من أحاسيسِهم اللطيفةِ ، وبذلك تنمو معارفُهم من خلالِ التّربيةِ بالرُّسومِ التي تثيرهم وتدعوهم إلى التّفكيرِ السّليمِ الصَّحيحِ ، وتجعلُ عندهم القدرة الخلّاقة (Greative Power) ، والنّشاط الإبداعي (Creative Activity) في هذا المجال الجميل الذي ينفذون من خلاله إلى ساحة الحياة.

* وفي فقرةٍ مهمّةٍ عن التّربيةِ من خلالِ الرُّسوم يقولُ نعمان الهيتي: «والاستنادُ إلى الإحساسِ في التّربيةِ سواء أكانَ عن طريقِ الرسومِ أمْ غيرها ، هو مرحلةٌ من مراحلِ التّربيةِ ، ينتقلُ بعدها الطفلُ إلى التّعليمِ المجرّدِ عن المحسوساتِ ، لكنْ كُلّما كانت تربيةُ الطفلِ الحسّيّةِ قويةً ، كان تعليمُه المجردُ ـ فيما بعد ـ أسهلَ منالاً وأقربَ إلى النَّجاحِ»[1].

* وزعم بعضُ التّربويين المتخصّصين في مجالِ التَّربيةِ من خلالِ الرُّسومِ إلى أنَّ الرُّسومَ والصُّورَ تناسبُ الأطفالَ بعامَّة أكثر من اللغةِ المكتوبةِ ، أو حتّى الكلامِ المباشر ، لأنَّ الكلمةَ المكتوبةَ تستدعي جزءاً منَ الوقتِ والجهد ليقرأَها الأطفالُ ويفهموها ، في حين أنَّ الرّسوماتِ أو الصُّوَر لا تحتاجُ إلى جهدٍ ، بل إنَّ الأطفالَ يشعرون بالمتعةِ وهم ينظرون إلى الرُّسومِ والصُّور.

* ولعلَّ بعضَ الأساليبِ التّربويةِ التّجريبيةِ (Empiricism) قد تفيدنا في ربطِ الأطفالِ بالرَّسْمِ الهادفِ ، وقد لاحظَ بعضُ التَّربويين أنَّه بوسعِ كثيرٍ من الأطفال في مختلفِ أعمارِهم ، وخصوصاً في المرحلةِ الابتدائية الدُّنيا أنْ يفهمُوا معظمَ أحداثِ القَصَصِ المصوّرة ، على الرّغمِ من أنّهم لا يعرفون اللغةَ معرفةً تؤهّلُهم للقراءَةِ أو التّوضيح ، حيثُ إنَّ الرُّسوماتِ المعبرةَ النّاجحةَ ، تحملُ معانٍ وتعابيرَ وحركاتٍ توضِّحُ مضمونَها ، وعلى الأغلبِ تكونُ هذه الرُّسُوماتُ غيرَ معقّدةٍ ولا توجدُ فيها تفاصيلُ مُربكة ، وتتناسبُ مع خبرات الأطفالِ وقدراتهم ومعلوماتِهم المكتسبة من البيئةِ والمدرسةِ ، ومن الواضحِ أنَّ المعاني ليستْ في

---

(١) انظر: أدب الأطفال (ص ٢٦٣ و٢٦٤) نقلاً عن كتاب: «علم النفس ونتائجه التربوية» لحافظ الجمالي وسامي الدروبي ، طبعة دار اليقظة بدمشق عام ١٩٤٩ م.

الرُّسومِ والصُّورِ ذاتها ، وإنّما هي مثيرٌ يوحي بالمعاني والأحداث.

* وللرّسوماتِ الهادفةِ مكانةٌ تربويةٌ عند بعضِ علماءِ النَّفْسِ (١)، وربّما سمَّاها بعضُهم: «لُغَة غير لفظيّة» ، لأنَّ الرُّسومَ من العناصرِ البصريةِ التي يراها الإنسانُ ، تعتمدُ على نمو حاسَّةِ البصرِ عند الأطفالِ ؛ كما تعتمدُ ـ غالباً ـ على قدراتِ الأطفالِ العقليّةِ ، وثقافتِهم ، إذ إنَّ فهمَ الرُّسومِ يرتبطُ بثقافتهم ؛ شأنُهم في ذلكَ شأنَ اللغةِ اللفظيّةِ.

* إذن ، فالرسومُ والصُّورُ (Drawings and pictures) تعينُ خيالَ الأطفالِ (Child imagination) على الإبحارِ في عالَمٍ جميلٍ ، والانطلاقِ في فضاءِ الخيالِ الرَّحبِ ، وتتكونُ لديهم صورٌ ذهنيةٌ عن مواقفَ وأفكارٍ ، وعن تجاربَ وأحداثٍ؛ وهذه ناحيةٌ من غايةِ الأهميّةِ ، على المربّين ملاحظتُها ، وعليهم أنْ ينتبهوا إلى الرّسومِ التي يرسُمها الرَّسَّامون المتخصِّصُون المَهَرة ؛ لأنَّها تُسْهم في تنشيطِ خيالِ الأطفالِ ، وتكوينِ الرّوحِ والتّذوقِ الفني والجماليّ لديهم ، أمّا إذا كان الرَّسَّامون مبتدئون ، أو ليس لديهم روحُ الذَّوقِ الفني ؛ فإنّهم يهدمون بذلكَ خيالَ الأطفالِ ، ويحطمون الإبداعَ في أذهانِهم ، هذا ما لاحظَه أحدُ الفنّانين الرّسامين في تعليمهِ الأطفالَ فنَّ الرّسمِ ، وكان يحاولُ استثارةَ خيالِ طلابهِ ، حتّى توصّلَ إلى هذه النّتيجةِ الطيّبةِ ، وقد عرضَ عليَّ نماذجَ متعدّدة عن نجاح تجربتهِ هذه في عدّةِ مدارسَ؛ في بلدانٍ وعواصمَ ومدنٍ مختلفةٍ من حيثُ البيئة والطّبيعة ، إلاّ أنَّ نتائجَهُ كانت متقاربةً نوعاً ما.

* وأودُّ أنْ أشيرَ ها هنا إلى أنَّ الرُّسومَ الجميلةَ ذات الألوانِ الرّائقةِ ، تُسْهِم في تربيةِ ذوقِ الأطفالِ ، بل تذوّقهم الفنيّ والجماليّ ، وتلفتُ نظرهم إلى مواطنِ الإبداعِ فيها ، وإلى انسجامِ الألوانِ وحركتها ، ومن ناحيةٍ أخرى ندرك أنّها وسيلةٌ معينةٌ ناجحةٌ مئة بالمئة لتربيةِ حاسّةِ البَصَرِ ، لأنَّ البصرَ هو الذي ينقلُ

---

(١) من الواضحِ أنَّ النَّصَ الأدبيَ الجميلَ لا يتأتّىٰ بكَبْسةِ زرٍّ ، كذلك الرّسمُ الجميلُ المعبّرُ لا يأتي بسهولةٍ أو بعفويةٍ ؛ ولا يخفى ما للرّسْمِ من دورٍ في تثقيفِ الطِّفْل ، وبناء ذائقته الفنية ؛ لأنَّ الطِّفلَ متلقٍ للفنّ وليس بمبدع ؛ لذا على الرَّسَّام الحصيف أنْ يرتفع بمستوى الطفل إلى مكانٍ راقٍ ، لا أنْ يهبطَ به إلى عدم التّذوق الفني والجمالي.

إلى أذهانِ الأطفالِ جميعَ المؤثّراتِ الضَّوئيةِ وألوانِ الأشياءِ وأشكالها ، ناهيك بامتداداتها وأبعادِها وأحجامِها. «ولا شكَّ في أنَّ العينَ التي أحسنَ المربّي تمرينها على تلمّسِ جمالِ الألوانِ هي التي تستطيعُ أنْ تدركَ فروقاً لونيةً لا تدركُها العينُ غيرَ المدّربةِ ، وغيرَ المتمرّسةِ في ملاحظةِ انسجامِ الألوانِ»[1].

* وإذا ما انتقلنا إلى رسوماتِ الأطفالِ أنفسِهم ، ألفينا أنّها نوعٌ من التَّعبيرِ عمّا يجولُ في خاطرِهم وبيئتهم وبيوتهم ، وبالتّالي فإنَّهم يعبّرون ببراءةٍ وصدقٍ برسوماتٍ واقعيةٍ ، تحملُ روحَ السُّهولةِ والبَساطةِ.

* ذكر مؤلّفا كتاب «آباء وأبناء» واقعية صدقِ رسوماتِ الأطفالِ ، وميولهم إلى الرّسمِ وتعبيرهم من خلاله عن واقعه فقالا: «يؤكّدُ علماءُ النّفسِ والمربّون ، أنَّ الطِّفلَ يبدي ميلاً للرّسمِ منذ سنيّه الأُولى؛ فالرّسمُ قدرةٌ من قدراتِ الطِّفْلِ التّعبيريةِ ووسيلةٌ عظيمةٌ في تعليمهِ وتكوينهِ. وقد اهتدى كبارُ المربّين أمثال: «بستالوزي ، وفروبل ، ومتسوري ، وديكرولي» ، إلى أهميةِ الرّسمِ وتأثيرِه في الأطفالِ ، فجعلوه ركناً من أركانِ العملِ المدرسيّ في دورِ الحضانةِ والتّعليمِ الابتدائي ، فنجدُ هذه المؤسَّساتِ الحديثةَ مزودةً بجميعِ الوسائلِ والأدواتِ اللازمةِ للرّسمِ والتّلوينِ ، تاركةً الأطفالَ أحراراً في التَّعبيرِ والإفصاحِ عن أفكارِهم وعفوياتِهم المنطلقةِ»[2].

* إذن فَقُدرةُ الأطفالِ على التّعبيرِ عن أفكارِهم بالرّسمِ أقوى من التّعبير باللسانِ. ولعلَّ في هذه الحادثةِ مصداق ما ذكرناه. فقد وزّعَ بعضُ معلّمي المرحلةِ الابتدائيةِ أوراقاً خاصّةً بالرّسمِ على الأطفالِ ، وطلب منهم أنْ يرسمَ كلٌّ واحدٍ منهم شيئاً ممّا يراهُ أو يشاهدُهُ في أسرتهِ. فرسمَ الأطفالُ أشياءَ متعدّدةً ، ورسمَ طفْلٌ منهم امرأتَيْنِ ضَخمتَيْن جالستَيْنِ إلى مائدةٍ في المطبخِ ، وهما تلتهمان الطَّعامَ التهاماً ، وقد وقفتْ بقربهما امرأةٌ نحيلةٌ تنظرُ إليهما

(١) انظر: أدب الأطفال للهيتي (ص ٢٧٣) بتصرف.

(٢) انظر كتاب: آباء وأبناء (ص ٢٨٧) بتصرف يسير ، لخالد قوطرش وكامل بنقسلي ، منشورات رابطة الأسرة والمدرسة بدمشق دون تاريخ.

نظراتٍ ملؤها الاضطرابُ والخوفُ والمرارةُ والأسى. ولمّا سألَ المعلّمُ التّلميذَ عمّا رسمَه أجابَ التّلميذُ في حزنٍ وبراءة الأطفال في عينيه: بأنَّ المرأتَيْنِ الضَّخمتَيْن هما عمّتاه، وأمّا المرأةُ النّحيلةُ الحزينةُ هي أمُّه[1].

* وهنا يتبادرُ إلى ذهنِ المربّي سؤالٌ مفادهُ: «كيف أُنمّي في الأطفالِ النّاحيةَ الفنيةَ؟ وكيف أَستطيعُ أنْ أرقى بتقدُّمهم ومرونتهم على أنْ يعبّروا بالرّسمِ عن واقعِهم وأنْ يشعروا بسعادتِهم كالآخرين؟!».

* والجوابُ عن هذا السّؤالِ يكمنُ في شخصيّةِ الأطفالِ الحرة، فإذا كانتْ حياتُهم سعيدةً غير مكبوتةٍ، فإنَّ تعبيرهم الفنيّ سيكونُ حرّاً مَرِناً غير مكبوت، أمّا إذا كانت شخصيتُهم متوترةً مقيدةً مكبوتةً فإنَّ تعبيرهم الفنيَّ سَيُظهِرُ ما بداخلهم.

* إنَّ التعبيرَ الفنيّ للأطفالِ ما هو إلاّ تسجيلٌ صادقٌ وبريءٌ لشخصيّاتِهم وحياتِهم، فإذا أردنا ترقيةَ التَّعبيرِ الفنّي الحرّ لهم، ما علينا إلاّ أنْ نزوّدهم بطفولةٍ سعيدةٍ، في البيتِ، وفي المدرسةِ، ولدى المربّين، وأنْ نلفتَ نظرهم إلى تلمّسِ السَّعادةِ فيما حولهم من مشاهدِ الطَّبيعةِ، وأنْ نساعدهم على استيعابِ الأشياءِ التي تحيطُ بهم وتناسبُ مشاعرهم وتلبّي حاجتهم، وذلك حسب سنّهم ومراحل حياتهم، إذ إنَّ طفلَ الخامسةِ مثلاً تختلفُ حاجاتُه عن طفلِ العاشرةِ؛ ولكنْ كلا الطفلين يعبّرُ عمّا بداخلِه بالرسمِ الذي يشفُّ داخله.

---

(١) المرجع السابق عينه (ص ٢٧٧) بتصرف. وعلّق المؤلّفان على القصّة بقولهما: «لقد عبّر هذا الطفلُ بالرّسم عمّا يحدثُ في أسرته من أمور غير راضٍ عنها، وعما يعتلجُ في خلده من حبٍّ وبغض ونقمة تجاه أفراد أسرته، فالعمّتان تعيشان مع والد الطّفل وأمّه، ولهما حسب تقاليد الأسرة سلطة واسعة في تسيير أمور المنزل؛ فبدت أمّ الطّفل في الصّورةِ امرأةً نحيلة مضطهدة تدعو حالتها المحزنة للشّفقة والعطف، بينما بدت العمّتان ضخمتين أنانيتين؛ فكانت النّتيجةُ أن اتّصلَ المعلمُ ومديرُ المدرسة بوالد الطّفل، وشرحا له بصورة لبقة الدّلالة النّفسية التي عبّر عنها رسم ابنه: ونصحا بأنْ يحدَّ من سطوة العمّةِ في الأسرة، حتى تصبح الحياةُ عاديةً في نظرِ الطفل، فيكون قد أسدى خدمة لا تقدّر بثمن في سبيل تخليص ولده من وساوس نفسيّة قد تمتدّ جذورها إلى سنوات مديدة في حياته. وقد ظهرت آثار ذلك في تحسين سلوك الطفل واجتهاده وتفتحه» (آباء وأبناء، ص ٢٨٨).

* ولمَّا كان الأطفالُ جميعاً يعبّرون عن أنفسِهم بطرقٍ تختلفُ باختلافاتهم الفرديّة ، فلا بدَّ أن ندركَ أنَّ فنّهم ينمو طبيعيّاً ، ويسيرُ مع حياتِهم البيئيةِ ، إذا رافقَ ذلك كلّه التّوجيهُ السّليمُ والعنايةُ الكاملةُ من الوالدَيْن ، أو من المُعلّمِ.

* ويمكنُ أنْ نسجِّلَ هنا بعضَ النّقاط التي تفيدُ الأبوين أو المربّين تجاه الأطفالِ الذين يعبّرون بِحُريّةٍ عمَّا بداخلِهم ، ويحبّون أنْ تكونَ شخصيَّاتُهم بارزةً ، لها مكانةٌ في المجتمعِ ، وأُوْلى هذه النّقاط هي:

١ ـ اعتبرْ فَنَّ الأطفالِ سجلاً لشخصيَّتهم.

٢ ـ يكتسبُ الأطفالُ خبراتٍ هامةً لنموهم أثناءَ رسومهم.

٣ ـ اجعلِ الأطفالَ يشعرون بتقديركَ لهم في التَّعبيرِ عن خبرتهم وعلاقتهم مع بيئتهم.

٤ ـ اعلمْ أنَّ شعورَ الأطفالِ مختلفٌ عن شعورِك.

٥ ـ قدّرْ فنَّ الأطفالِ بما يستحقونه ، وشجّعْهم على احترامِ تعبيرِ بعضِهم بعضاً.

٦ ـ دعِ الأطفالَ ينمّون فنّهم الخاص بالتَّجريبِ(١).

* من هذهِ المنطلقاتِ تأتي أهميّةُ الرُّسوماتِ التي يمارسُها الأطفالُ ، وربّما تكون ذات أهميةٍ كبيرةٍ في حياتِهم الغضّةِ ، وقد تحدّدُ مسارَ حياتهم وحياةَ مسارهم إذا ما شبُّوا عن الطَّوق ، وغدو رجالَ المستقبلِ.

* ولما كان الأطفالُ في عالمنا يُولدون على الفطْرةِ ، وليس لهم فِكْرٌ ، أو لغةٌ ، ولا يستطيعون أنْ يميّزوا بينَ الأشياء ، وحواسّهم تنتظرُ تَلقّي الخِبْرات ، ومعارفهم لا تزالُ في مهدها ، وعضلاتُهم لم تتمرَّنْ ، ومشاعرهم لم تتوضّحْ ، فإنَّ ممارستَهم للتّعبيرِ الفنّي والرُّسوماتِ الحرّة يساعدهم على تشكيلِ عقولهم وعضلاتِهم ومشاعرِهم ووجدانهم.

---

(١) انظر كتاب: طفلك وفنه (١٠٥ ـ ١٠٧ باختصار وتصرف ، تأليف: فكتور لونيفلد ، وترجمة: سامي علي الجمال ، سلسلة الألف كتاب رقم (٣٧٥) عام ١٩٦١ م.

* فالأطفالُ يقومون بعمليّة الرُّسوماتِ قبلَ معرفتهم القراءة والكتابة ، وأحياناً قبل تعلُّمِهم الكلام ، ويمكن من خلالِ رسوماتهم أنْ نتفَهَّم طبيعتَهم وميولَهم.

* إنَّ المربّين وأولياءَ الأمورِ الذين يتيحون للأطفالِ فُرصَ التَّعبيرِ الفنّي ، إنّما يتحيّنونَ لهم الفرصةَ لكي يمرُّوا بالخبرةِ الابتكاريّة ، وعندما يتيحُ المربّون للأطفالِ فُرصَ التّعبيرِ عن أنفسِهم ، فلا بدّ أنْ يكونَ ذلك ضمنَ قدراتهم ووفقَ تصوّراتِهم ، ووفقَ ما يرونَه في حياتِهم.

* فالأطفالُ ـ على سبيلِ المثالِ ـ لا يرسمون ما يريدُ الكبارُ أنْ يرسمونَه ، لأنَّهم ـ بطبيعتهم الفطرية ـ لا يستطيعون أنْ يستوعبوا دوافعَ الكبار ، وخبراتِهم المتقدمة عنهم ، بل إنَّ الكبارَ بهذا سيقيّدون حريّةَ الأطفالِ في الابتكارِ إذا تدخّلُوا في أعمالِهم الفنيّة ولو كان تدخّلُهم بسيطاً.

* لذا فالواجبُ على المربّين وأولياءِ الأمور؛ أنْ يتركُوا لأطفالِهم حريّةَ التّعبيرِ عن خبراتِهم الذّاتية البسيطةِ ، بأي وسيلةٍ من وسائلِ التّعبيرِ الفنّي ، ليكونَ عملُهم طبيعيّاً يعبّرُ عنهم وحدهم دون تدخُّلٍ من الآخرين.

* إنَّ الأطفالَ يعبّرون في رسوماتِهم ، وتكويناتِهم وأشغالِهم الفنيّةِ عن موضوعاتٍ مختلفةٍ ، تعبّر عن مراحل نموهم ، حيث يعبّرون عن فرحتِهم وسعادتِهم ، وسخطِهم ومشكلاتِهم ، وإبداعهم واحتياجاتِهم ، وهذا الجانبُ في الفنِّ يعطي الأطفالَ حريّةَ الحركةِ ، ممّا يتيحُ لعضلاتِهم أنْ تنموَ ، ولحركاتِ عيونهم وأيديهم أن تتناسقَ وتكتسبَ المهاراتِ المطلوبة.

* وتدلُّ الدّراساتُ الحديثةُ (Modern Studies) لعددٍ من خبراءِ التّربيةِ في هذا المجالِ على أنَّ الطِّفل: «يعتمدُ في اكتشافِ خبراتِه الجديدةِ على حواسّه ؛ البصرِ ، والسَّمع ، واللمسِ ، والشّمِ ، وليسَ على التّفسيراتِ والتَّوضيحاتِ التي يقدمها له الآخرون ، فهو يكتسبُ خبراتِه الأوليةَ مِنَ الحياةِ عن طريقِ هذه الحواس ، ولكنْ من المُلاحظِ أنَّه بالرّغمِ من حُبِّ الأطفالِ لَمسَ الأشياءِ لِتَعرّفها ، فإنَّ الآباءَ يلاحقونَهم ويمنعونَهم من محاولاتهم تدريب حواسّهم

بلَمْسِ الأشياء ، أو باستعمالها ، فالطفلُ يجبُ أنْ يتعلَّمَ كيفَ يتصرَّفُ في حواسّهِ جميعاً ، وكيفَ يستخدمُ كلّ حاسّةٍ من حواسّهِ على حِدَةٍ في العملياتِ التي يقومُ بها أثناء ممارسةِ النشاطِ الفنّي . لذا يجبُ أنْ يوفّرَ الآباءُ للأطفالِ بعضَ الخاماتِ والأدواتِ التي تساعدُ الأطفالَ على ممارسةِ التّعبيرِ الفنّي ، والتي يمكنُ أنْ تساعدَ الأطفال على ابتكارِ الأشكالِ الفنيّةِ المختلفةِ»[١] .

* ويُطْرَحُ هاهنا سؤالٌ مفادهُ: «عندما يمارسُ الأطفالُ تعبيرهم الفنّي ورسوماتِهم الحرّة فما المشكلاتُ التي يواجهُها أولياءُ الأمورِ والمربّون؟».

* إنّ كثيراً منَ الآباءِ والأمّهاتِ والمربّين عندما يمارسُ الأطفالُ رسوماتِهم وتعبيرهم الفنّي تواجههم مشكلات تثيرُ لدى معظمهم عدداً من الأسئلة والمواقفِ ومنها: «هل نتدخّلُ في فنِّ الأطفالِ وكيف؟ وهَلْ نساعدهم في فنّهم؟ وكيف ننمّي فيهم النّاحيةَ الفنيّة؟ وكيف نساعدهم ليكونوا مبدعين؟! و. . . . و. . .».

* ويمكنُ أنْ نلخّصَ الإجابةَ عن هذهِ التّساؤلاتِ بأنْ نساعدَ أطفالنا على إثارةِ خيالهم ، وتنميةِ خبراتهم حتّى يتسنّى لهم أنْ يعبّروا عمّا في أنفسِهم من خلالِ الممارسةِ الفنيّةِ ، ويمكنُ أنْ يتمَّ ذلك من خلالِ مشاهدِ الطّبيعةِ وعناصرِها ، وتأمُّل تفاصيلها من حيواناتٍ وطيورٍ ، وسماءٍ ، وأرضٍ ، وجبالٍ وبحارٍ ، ومشاهدةِ عناصرِ البيئةِ المحيطةِ داخلَ المنزلِ وخارجه ، وتعزّز كلّ هذه الأشياء بزيارةِ المتاحفِ الفنيّةِ ، ومشاهدةِ المجلاّتِ والكتُبِ التي تهتمُّ بذلك. «ويجب على الآباءِ والأمّهاتِ والمربّين ألا يفرضُوا آراءهم الفنيّة على رسوماتِ الأطفالِ وتعبيراتهم ، وذلك حتّى يتسنى لهم حرية التعبيرِ ، وإنّما يشجّعوا الأطفالَ على المحاولاتِ ، ويفتحوا لهم مجالاتِ المشاهداتِ العاديةَ لعناصرِ الطَبيعةِ والبيئةِ المحيطةِ بِهم ، مع توفيرِ الخاماتِ والأدواتِ المتنوّعةِ التي تشجعُهم على التّعبيرِ الفنّي ، وتثيرُ خيالَهم ، وتشدُّ انتباههم»[٢] .

---

(١) انظر كتاب: كيف تستثمر وقت طفلك (ص ٥٦ و٥٧) بتصرف واختصار ، سلسلة سفير التربوية رقم ٣.

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ٦٨) بتصرف.

• وبهذا نجعلُ من الأطفالِ جماعةً مبتكرين إذا غرسنا في نفوسِهم الثّقةَ بقدارتهم ، وإعطائِهم الحريّةَ المناسبةَ في اكتشافِ عالَمِهم ، واتّخاذ قراراتهم بأنفسِهم دون أنْ يتدخّلَ ذووهم في شؤونهم ، وبالتَّالي تنمو لديهم قدرة الابتكارِ والإبداعِ الفنّي بالإضافةِ إلى اللمسَاتِ والحركاتِ الفنيّةِ (Art movements) من خلالِ رسوماتِهم.

* فمن المتعارفِ عليهِ بين النّاسِ أنَّ الرّسمَ من الأنشطةِ الفنيّةِ المحبّبةِ التي يمارسُها الأطفالُ باستمتاعٍ واستغراقٍ وحبٍّ ، ومن خلالِ هذه الهوايةِ يمكنُ تحديدُ سِماتِ شخصياتهم وميولهم واكتشافُ ما تكنُّه نفوسُهم الصّغيرةُ من إمكانياتٍ في الإبداعِ والخيالِ ، وإذا ما صُقِلَتْ هذه الموهبةُ لديهم فإنّهم سيكونون ـ ولا شك ـ من النّافعين لمجتمعهم وبلادهم وأمّتهم.

* وأخيراً: ينبغي أنْ يكونَ الرّسمُ للأطفالِ هادفاً ، ويجبُ أنْ تتوافرَ فيه خفّةُ الظِّلِّ والطّرافة ، ويجبُ أنْ يتوافرَ لفنّانِ الأطفالِ درجة من اللباقة تمكّنهُ منْ أنْ يصلَ إلى الغرضِ التّربويّ المقصودِ الذي يزيدُ منْ رصيدِ الأطفالِ الثّقافي ، ويربطَهم بملامحنا وقَسماتنا الإسلامية وخصوصيّتنا الذّاتية ، وألاّ يذوب فلذاتُ الأكبادِ في تيّارِ العَوْلَمةِ[1] التي تُدمّرُ الأخْضَرَ واليابسَ. وهذه الأشياءُ جميعُها تحتاجُ منَ الرّسّامِ إلى التّحلّي بالصّبرِ ، وإلى الثّقافةِ الواسعةِ الهادفةِ.

* * *

(١) يقول أحمد عمر مدير تحرير مجلّة «ماجد» التي تصدرُ في أبو ظبي: «في ظلِّ المُتغيّراتِ الدّوليةِ المتلاحقةِ ، وفي عصرٍ ما يسمّى بالعولمة ، أو بمعنى أصحّ عصر الهيمنةِ والسّيطرة ، يصبح الاهتمامُ بقضيةِ ثقافةِ الطّفل غاية في الأهمية ، خاصّة أنَّ تلك العولمة لن تقتصر على محاولة الاستيلاء على ثرواتِ العالم الثّالث فقط ، بل ستعملُ على الاستيلاء على عقله أيضاً ، وسوف يكونُ الأطفالُ العربُ مستهدفين في هذا الغزو بشكل أو بآخر وسوف تكون عقول الأطفال العرب الذين يشكّلون أكثر من نصفِ عدد السُّكّان في خطر حقيقي ، إن لم نتنبّه وندرس وننفّذ مخططاً قومياً يهدف إلى حماية عقلِ الطّفلِ العربي من الغزو ، وتسليحه بثقافة عربية إسلامية».

(ثقافة الطّفل العربي ص ١٧٦)

الفصلُ السادس

التلفزيون داءٌ أمْ دواء؟

* أودُّ مِنْ كُلِّ قارئٍ كريمٍ يحبُّ الحقَّ والحقيقةَ ، أنْ يقرأَ هذا الفَصْلَ بكامِلِه ، ويخصُّنِي بدعوة خالصةٍ منه بظهرِ الغيبِ إنْ وجدَ فائدةً ، وإن كانتِ الأخرى فَلْيَدْعُ بالإصلاحِ والسَّدادِ ، لأنَّ الطبيعةَ البشرية لا تخلو من النّقصِ ومن بعضِ العيوبِ التي يقعُ فيها بنو البشر . . .

* وهذا البابُ الذي أرسمُ كلماتِهِ منَ الأعماقِ على هذه الأوراقِ ؛ إنَّما هو خُلاصة تجاربَ وحقائقَ ودراساتٍ واستطلاعٍ كلّفَنِي منَ الوقتِ والجهدِ والمالِ والصَّبْرِ ما لا يعلمُه إلاّ العليمُ الخبيرُ ، وقصدتُ من خلالِ كتابتهِ مرضاةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثمَّ خدمةَ الأسرةِ المسلمةِ وأطفالِهَا ، وخدمةَ مَنْ يَودُّ أنْ يتعرفَ منابتَ الحقِّ ، ويتجنَّبَ مَسَارِبَ السُّوءِ.

* لا شكَّ في أنَّ ظاهرةَ انتشارِ جهازِ التّلفزيون (Television) في معظمِ بيوتِ المعمورةِ ظاهرةٌ تستحقُّ وقفةَ حقٍّ حاسمةٍ ، بعدَ أنْ غدا قوتاً يومياً ، وشراباً دائماً ، وزاداً نفسيّاً لكافّةِ النَّاسِ في مختلفِ الأعمارِ والألوانِ والأديانِ والبلدانِ؛ كما أنَّ برامجَه وما يبثُّه من موادَّ مختلفةٍ قد أصبحتْ تشغلُ جزءاً مهمّاً من أوقاتِ الناسِ وحياتهم ، وربّما قتلتْ أوقاتهم قتْلاً ، وشرَّدَتْ تفكيرهم تشريداً شنيعاً ، خصوصاً عندما تتعلّقُ قلوبُ كثيرينَ بموادَّ تافهةٍ ، أو مسلسلاتٍ فارغةٍ ، أو لقاءاتٍ ركيكة تفرِّغُ ما تبقّى منْ معلوماتٍ واهتماماتٍ ، وتخرّبُ ما بقيَ من قيَمٍ ، وتهدمُ كثيراً من الأواصرِ والائتلافِ.

* والتّلفزيونُ اجتذبَ أكثَرَ النَّاسِ بسببِ دخولهِ السَّهْل بيوتهم دون إذنٍ أو

حجابٍ أو احتجابٍ ، وانصرفَ إليه عددٌ كبيرٌ داخلَ البيتِ ـ إنْ لم يكن جميعُهم ـ مدفوعين إليه للاستماع أو الاستمتاع بعروضِهِ ومعروضاتِهِ ، أو لِقَتْلِ الوقتِ ودَفْنِ الزَّمن ، وارتبطتْ بهِ العيونُ والآذانُ . ـ وربمّا الآناف!!!!. . . ـ برباطٍ وثيقٍ متينٍ أحياناً ، وأحياناً برباطٍ واهٍ واهنٍ ، ومع هذا وذاكَ وتلكَ وذَيْنَكَ فهو أداةٌ ذاتُ تأثيرٍ بالألبابِ ، ويفعلُ ما تفعلُ القَهوةُ!!! .

* منذ عَصْرِ الأربعيناتِ منَ القرنِ العشرين ، ومنذ أنْ ظهرَ التّلفزيون على شاشة الحياةِ ومسرحها ، توجَّهتِ الأنظارُ والعقولُ إلى ظهورِ أحداثٍ جديدةٍ على خشبَةِ الحياةِ ، ولا جرمَ في أنَّ هذهِ الأحداثَ ذاتُ تأثيرٍ سلبيّ؛ ولها تأثيرٌ إيجابيٌ أيضاً. وقد سبقَ التّلفزيونَ أداةٌ إعلاميّةٌ هي السّينما المِصْريّةُ التي بدأتْ سنةَ ١٩٢٧ م وتركَتْ ما تركَتْ من آثارٍ وأشياء في المجتمعاتِ العربيّةِ معظمُها غيرُ مُرضيّ؛ بل مَرَضِي ، وبعضُها قتَّال فتَّان .

* غير أنَّ التّلفزيونَ يُعْدُّ من أقوى وسائلِ الإعلامِ ، فهو ينقلُ الصُّورَةَ والصَّوتَ في آنٍ واحدٍ إلى ملايين البشَرِ في بيوتهم وهم على الأرائك متكئون ، وفي نواديهم وهم في لهوهم ساهون دون الحاجةِ إلى الارتباطِ باستعداداتٍ خاصةٍ ومواعيد محددةٍ ، كالتّردُّدِ على السّينما ، أو المسرحِ .

* وتتوفَّرُ للتّلفزيونِ عناصرُ عديدةٌ ، تزيدُ في متانةِ العلاقةِ بينَهُ وبينَ عيونِ النَّاسِ وأذهانِهم ، فَصُورَهُ واضحةٌ جميلةٌ مغريةٌ ، ويسجّلُ مشاهدَ حيةً وينقلُها للمشاهدينَ بالوقت نفسه ، ويخاطبُ النَّاسَ جميعاً ، حتّى الأطفالَ من سنيِّهم الأولى إلى أن يبلغُوا أشدّهم ، وزيادة على هذا وذاك فإنّهُ يعرضُ على مساحةِ شاشتهِ الصَّغيرةِ المحدودةِ أفلاماً سينمائيةً غير محدودةٍ ، ويلتقي شخصياتٍ من مختلفِ الطبقاتِ ، ويقرّبُ البعيدَ ، ويوضّحُ الغامضَ ، ويفتحُ الأذهانَ على بعضِ ما يعرضُهَ من آثارٍ في أنحاءِ العالمِ ، وغيرِ ذلك كثير جداً ، وجميعُ هذهِ الخصائص جعلَتْهُ يرتقي مكانةً رفيعةً بين أجهزةِ الثّقافةِ المتنوّعةِ الأخرى كالرَّاديو وآلةِ التّسجيلِ . . .

* ومن البدهي أنَّ جهازَ التّلفزيون يعتمدُ على حاسَّتَيْن اثنتَيْن هما : السَّمْعُ

والبَصَرُ ، وهاتان الحاسّتان من أهمّ الحواسّ وهما تستقبلان الصّورةَ ، والحركةَ ، والصّوتَ؛ هذا ممّا يؤدّي إلى دعمِ الفكرةِ التي يتلقّاها المشاهدُ ، ويثبتُها في ذهنه لمدّة أطولَ وبمساحةٍ أكبر؛ وحين ترتبطُ الصّورةُ بالحركةِ والصّوتِ تستقرُّ أكثرَ في ذهنِ المشاهدِ وفي نفسِهِ.

* يستولي التّلفزيون بشكلٍ عامٍ على مشاعر مشاهديه وأحاسيسهم ، في الوقت الذي لا يتوفّرُ للرّاديو هذا الأمرُ المُغْري ، ولا يقدرُ أنْ يستحوذَ على مشاعرِ سامعيهِ لمدّةٍ طويلةٍ مهما طال بثُّه ونفثُهُ ، ومهما حَسُن سمينه وغثّه.

* كما أنَّ هذا الجهازَ الآسرَ السَّاحر الرَّهيب يستولي على قلوبِ الأطفالِ ومشاعِرهم ، بحيث إنّ كثيراً من الأمهات (الفاشلات) يضعْنَ أطفالَهنَّ أمامَ التّلفزيون ساعات ، حتى يلهوَ الطّفلُ بالمُشَاهدةِ ، ويخفّفَ عن أمّه الأعباءَ ، وبالتّالي هل يمكنُ لنا أنْ نعتبرَ التّلفزيون داء أو دواء؟ هذا ما ستشفُّ عنه السُّطورُ التاليات.

* عندما بدأتِ الحضارةُ الغربيةُ (Western civilization) تزحفُ نحو المشرقِ العربيّ بعجرها وبجرها ، بدأتِ المفاهيمُ تتطوّرُ معها ، وزادَ من صورِ التّطوُّر ذلك الجهازُ الآسرُ المؤثّرُ «التلفزيون»[1] الذي يحتلُّ مكانَ الصَّدارةِ في غرفِ الصَّالونِ أو النَّومِ أو الجلوسِ في أيِّ منزلٍ من الشَّرقِ أو الغربِ ، بل فُرِشتْ له المطارف والحشايا والمقاعد الأنيقة الجذابة و« الديكورات» الخلابة.

* إذا نظرنا إلى هذا الجهاز نظرةَ التَّجرُّدِ ، ألفينا أنَّه يحملُ إلينا ضروبَ المعرفةِ الإنسانيةِ على اختلافِ صورها وأشكالِها ووقائِعها ، وإذا أُحْسِنَ استعمالُه فيكون في كلّ منزلٍ مدرسةٌ عالميةٌ ، تُعلِّمُ أهلَهُ بعضَ اللغاتِ وشيئاً من العُلوم ، وتنقلُهم ـ وهم أمَامَهُ ـ على أجنحةِ الخيالِ الحسّيّ الملموسِ إلىٰ أغوارِ المجاهلِ في أَعماقِ البحارِ ، وذُرا الجبالِ ، وداخل الغاباتِ ، وأبعادِ

---

(١) «التّلفزيون» أو «التلفاز»: هذه التسمية وردت في مجلّة «العربي» التي تصدرُ في الكويت؛ وقد احتفظت تسمية التّلفاز بهذه الصّورة بالحروف الأجنبية في قالب وزن عربي قرضاب ، جلباب ، وبعضهم رأى تسيمة التلفزيون بلفظ «الرائي» أو «مرناة» والله أعلم بالصواب.

المدن ، ورحابِ القُرى ، وأعالي الفضاءِ . ولكلّ مكانٍ تجوسُ فيه عينُ الكاميرا التّلفزيونيةِ ، لتنقلَ للمشاهدِ ما اختزنَتْهُ في جولتها هنا وهناك . وفي هذا كلّه من الحسناتِ ما يجعلُ المربّي يعتبرُه من النّعمِ الرّبانيّةِ في مثلِ هذهِ الأيّامِ . وذلك إذا ارتبطَ ما يعرضُه بمحاسنِ العُلومِ ، وعلومِ المحاسنِ . ونافعِ الآدابِ ، وجليلِ الاختراعِ ، وكلّ ما يؤدّي إلىٰ خيرٍ.

* على أنَّ هذا الجهازَ ذا المنافعِ من هذه الجهاتِ المفيدةِ ، هوَ هوَ الذي يريدُ أنْ يخرجَنا مِنْ طاقاتِنَا الخُلُقِيَةِ بِسحْرِهِ ، تلكم الطّاقاتُ الخُلقيةُ النّبيلةُ التي وعتْها أمّتُنا وتلقَّتْها عن السّلَفِ ، فصارتْ لها نهجاً ومنهاجاً . فلم يَعُدِ التّلفزيون ـ كما عهدناه عند مرحلةِ طفولتِه ـ يعرضُ المفيدَ والجديدَ الممتع ، بل غدتْ شاشتُه ذات المساحةِ المحدودةِ تعرضُ من المُغرياتِ المذهِلَةِ ما ليسَ له حدودٌ . وتَنصُبُ للغافلين من حبائلِ الشّيطَانِ ما توقعُهم في شَرَكها ، وتقصدُ بغوائلِ حبائِلها الأطفالَ الصّغارَ . وأحياناً الكبارَ . وذلك بما تدسُّه من سمومٍ وهمومٍ في جسَدِ الثّقافةِ ، وروح القيمِ والأخلاقِ . وتعرضُ رونقَ الحضارةِ المجلوبةِ بأثوابٍ أنيقةٍ تحملُ بين طيّاتِها الداءَ والمرارةَ والشّقاءَ.

* وتحفلُ شاشات التّلفزيون بعددٍ لا يُستهانُ بهِ من الرّواياتِ والقصصِ والمسرحيّاتِ والتّمثيليّاتِ ، ومعظمُ هذه الأعمال الفنيّة لا يزيدُ على أن يكون علاقات غرامية تجذبُ إليها أعداداً هائلةً من المشاهدين وهم غيرُ منتبهين إلى ما فيها من الشّرِّ والإثم والبغي والفسوق والعصيان؛ أضفْ إلى ذلك كلّه تخلّل الدّعايات وتسلّلها بين البرامج لِتُظْهِرَ مفاتن المرأة ومحاسنها وتبذلها ، وتتضمّنُ معظم هذه الدّعايات مقطوعات موسيقية وغنائية تنبعثُ من خلالها بعض العبارات غير اللائقة مع مظهر التّبرّج والزّينة المحرّمة.

* وممّا يزيدُ الأمْرَ سوءاً ومصيبةً أنَّ معظمَ ما يُقَدَّمُ من مسرحيّات ومسلسلات تستخدمُ اللغةَ العاميّةَ المحليّةَ وخصوصاً اللهجة المصريّة التي أتت على الأخضر واليابس ، وأسهمتْ في تقويضِ جماليّةِ الفصحى . وهتكَتْ قواعدها ، ثم تَلَتْها لهجَاتٌ أخرى من الشَّرق والغرب تابعت مسيرة تشويهِ اللغة العربية الفصحى ، وتعزيز كثيرٍ من السُّلوكيّات غير المنضبطة.

* وإذا أردنا أنْ نقتربَ من واقع التّلفزيون ، ولا نظلمَ أحداً ، فإننا نجدُ أنَّ البرامجَ الهادفةَ والبرامجَ الدّينيةَ والمحاضرات الإسلاميّة لا تساوي عُشْر البرامجِ الأخرى ، بل أقل من العُشْرِ ، وفي بعضِ هذه البرامج بعضُ السُّموم وقَلْبٌ لعددٍ من الحقائقِ ، وإدخال عناصر نسائية ليتمّ عنصر التّشويق الفنّي ، وبالتّالي يتمُّ نجاح المسلسل.

* على أنّه ظهرتْ في الآونةِ الأخيرةِ بعض القنوات الفضائية التي تهتمُّ بعلوم القرآن الكريم وقراءته ، بالإضافة إلى علوم السُّنَّةِ المطهرة ، وسائر العلوم الدّينيَّة ، وهذا يبشّر بخير ونأمُلُ أنْ تكثر هذه المحطّات الفضائيَّة لينتشرَ نورُ الإسلام في سائرِ الدنيا.

* إذن ، فالتّلفزيونُ داءٌ ، وهو دواءٌ ، وقد شبَّهَهُ أحدُ المفكّرين بعفريتِ الجنِّ فقال ما مفادُه: «وما دامَ أنَّ التلفزيون كذلك ، فلماذا لا نستغلُّ هذا الماردَ العفريتَ في إنشاءِ الخيرِ وصنعهِ فنتجنَّبَ كلَّ ما مِنْ شأنْهِ أن يفسحَ المجالَ في نفوسِنا أَمامَ شرورِه؟! وإنّه لتساؤلٌ معقولٌ ، يذكّرنا بعملِ نبي الله سُليمان عليه السلام في تذليلِ مردةِ الجنّ ، إذ حجزهم عن الإفسادِ ، فصرّفهم في بناءِ القلاعِ والحصونِ ، وكلّ ما عجزَ عنه جنودُه من وسائلَ لتتمَّ مسيرة الحياةِ بما يرضي الله عزَّ وجلَّ»[1].

* ومن الطَريف أنَّ كثيراً من طلاّبِ العلْمِ قد استنكرَ ظهورَ جهازِ التّلفزيون ، وحرَّمه ، وتمتدُ يدُ الطَّرافةِ إلى بعضِهم لتشيرَ إلى أنَّه اعتبرَ التّلفزيون «مسيح دجّال العَصْر» ، وهذا المُتَفَلْسِفُ يدعمُ حجّته بحججٍ واهيةٍ لا تمتُّ إلى العِلْمِ بحجّةٍ ولا بِصِلَةٍ ، وإنّما ذلك أهواء وتخيلاتٌ واضطراب تفكير.

* أمّا حجّةُ الذين استنكروه ومقتوهُ وسلبوهُ كلَّ حَسَنةٍ ومنفعةٍ ، فقد اعتبروهُ معرضاً للصُّور ، والصّورُ محرّمةٌ في الإسلامِ ، ولكنّ هذه الصُّورَ التي تظهرُ

---

(١) ونقول:

متى يبلغُ البيانُ يوماً تمامُهُ ... إذا كُنْتَ تبْنيهِ وآخر يَهْدمُ؟!؟.

على صفحةِ التّلفزيون لا تُعَدُّ في زمرةِ الصورِ ، لأنها غيرُ ثابتةٍ ، وهي تظهرُ إذا ما كانَ التّيّارُ الكهربائيُّ موصولاً بالجهازِ ، فإذا انقطعَ انقطعتِ الصُّور وتلاشتِ المناظرُ.

* ولكنَّ المحرَّمَ بلا شكَّ من هذه الصُّورِ ما خالفَ شرعةَ الإسلامِ ومنهاجَهُ ، شَكْلاً ومضموناً وقلْباً وقالَباً ، ولا يزعُمُ أحدٌ بأنَّ عرضَ المفاتنِ وملحقاتِها جائزٌ ، بلِ ذلك حرامٌ وحرامٌ وحرامٌ ، وكلُّ ما كان على الشّاكلةِ نَفْسِها ، أو قريبة من نفْسِها.

* ولو أعادَ النَّظرَ هؤلاء الكارهون[1] للتّلفزيون ، لوجدوا أنّهم يقدرون على تحويل هذا الجهاز إلى أداةٍ فعّالةٍ إيجابيةٍ في الصَّلاحِ والإصلاحِ ، وذلك عندما تديرهُ أَيادٍ مؤمنةٌ تحبُّ الخيرَ ، وتريدُ الإصلاحَ ما استطاعتْ ، وتتوجّهُ من خلالهِ إلى التّذكيرِ بأوقاتِ الصَّلاة ، ومناسباتِ الإسلامِ كالصَّوم والحجِّ والعيدَيْن ، وتعليمِ بعضِ الأحكامِ التي قد تغيبُ عن كثيرين ، وتربيةِ النّشء على صالحِ الأعمالِ والأقوالِ ، وعندها يصلون إلى الهدفِ المنشود ، والظّل الممدود في ضوءِ الحقِ والحقيقةِ.

* والآن ؛ هل يمكن أنْ نقول: بأنَّ للتلفزيون مزايا مفيدة؟

* إن كثيراً من جيلِ الأمّهاتِ الواعيات في عصْرِنَا الحاضِر يشكينَ من بلاءِ التّلفزيون ، ويعتبرنَه عدواً لأبنائهنّ ، إذ اختطفَ الكتابَ من بين أيديهم ، وتقول إحداهنّ شاكيةً غاضبةً: «إنَّ طفلي لمْ يَعُدْ يقرأُ كتاباً في الشَّهْرِ بطولهِ منذ أَنِ اشترينا جهازَ التّلفزيون؛ وكان من قبلُ يقرأ أكثرَ من كتابٍ واحدٍ في الشَّهْر».

* ويُمكنُ أنْ يُقالَ لهذهِ الشّاكية: «لا تلومي جهازَ التّلفزيون إلاّ بعد أنْ تحدّدي كيف كان ابنُكِ سيقومُ بعملهِ دون هذا الجهاز».

---

(١) لا شكَّ أن هؤلاء الكارهين هدفهم الأول محاربة الفساد ، والغيرة على دين الله ومحارمه فجزاهم الله خيراً. لأنّهم يعلمون علم اليقين أنَّ اليهودَ وراء كلِّ فسادٍ وإفسادٍ ، وهم يقفون خلفَ كلّ رذيلةٍ وقبيحة ، فمن المعلوم أن اليهود يتحكّمون في أهمّ شركات التّلفزيون العالمية إما عن طريق الامتلاك، أو السَّيطرة على إدارتها ، وتوجيهها وجهة تخدم مصالحهم العالمية. (مسؤولية الأب المسلم ص٤٨٧) بتصرف.

* إن التَّلفزيونَ وجْهٌ من وجوهِ الحضارةِ الحديثةِ ، ولو استطاعتِ الأمّهاتُ أنْ يوجِّهنَ أطفالَهنَّ إلى البرامجِ التي تؤثّرُ في تربيتهم بشكلٍ مفيدٍ ومدروسٍ ، لكان الأمرُ يسيراً والنّتائج سهلةً ومثمرةً.

* ولكنّ كثيراً من الأمّهاتِ يصرفْنَ أولادهنَّ إلى شاشةِ التّلفزيون تخلُّصاً من عبثِهم وشغبِهم وصراخِهم وعنادِهم ، ومن ثمَّ يلتفتنَ إلى أحاديثهنَّ وثرثرتهنَّ التي قد تطولُ أكثرَ مِنْ المسلسلاتِ التي يحببْنَها ويتابعْنَها. وقد يمتدُّ حديثهنّ على الهاتف لساعاتٍ طويلةٍ قد تستغرق نصف النهار وشطراً من الليل في أحاديث فارغة لا تسمنُ ولا تغني ولا تجدي فتيلاً.

* إنَّ متابعةَ جهازِ التّلفزيون من قِبَلِ الأطفالِ ، والاستماع والاستمتاع ببرامجهِ قد أصبحَ جزءاً مهمّاً وأساسياً من حياتِهم اليوميّة ، ولا يحبّون أنْ يتخلّفوا عن رؤيةِ ما يعرضُه لحظةً واحدةً ، وهم يأملُون أنْ يظفروا بجديدٍ وطريفٍ.

* ويعتبرُ كثيرٌ من الآباءِ والأمّهاتِ أنَّ التّلفزيونَ ذو مزايا في غايةِ الأهمّيةِ ، وقد لا تقلُّ عن ضَررهِ ، ولنستمعْ إلى تحقيقِ هذه الفكرةِ من اختصاصيّتين في تربيةِ الأطفالِ وسلوكهم حيث قالتَا ما نصُّه ورسمُه: «وقد وجدَ الكثيرُ من الوالدَيْن أنَّ للتلفازِ مزايا لا تقلُّ عن نقائِصِه ، فهو بالإضافةِ إلى قيمتهِ التّربويّةِ؛ له قيمةٌ ترويحيّةٌ لا تُضاهى. وتعترفُ الكثيرُ من الأمهاتِ أنّه خيرُ ملهاةٍ للأطفالِ ولا سيّما في يومٍ ماطرٍ ، أو في السّاعةِ الخطيرةِ التي تسبقُ العشاء. ثم إنَّ الإخوةَ والأخواتِ الذين تتسبَّبُ كلّ نظرةٍ من واحد منهم إلى الآخرِ في خصامٍ لا يعرِفُ أحدٌ متى ينتهي ، وكيف ينتهي ، قد يجمعُ بينهم التّلفازُ ، ليمضوا بعضَ الوقتِ في سَلامٍ - إلا إذا تخاصموا بالنّسبةِ للبرنامجِ المُفَضَّلِ لكلٍّ منهم - وإذا كانت مشاهدُ التّلفاز تشغَلُ الكثيرَ من وقتِ الطّفل ، وتحلُّ محلَّ اللعبِ خارجَ البيتِ ، أو القيام بالفاعليّات المُبدعةِ ، اذكري أنّكِ صاحبةُ اليَدِ العُلْيا ، وحينئذ فإنَّ في إمكانكِ فرضَ بعضِ القواعد: خصّصي وقْتاً محدّداً لمشاهدةِ التّلفازِ أو حدّدي البرامجَ التي يُسْمَحُ بمشاهدتِها ، أو حتّى عدم السّماحِ بمشاهدةِ التّلفازِ قبل إنهاءِ الدُّروسِ وكتابة الوظائفِ ، وإذا ما حظرْتِ مشاهدة

التّلفاز ، فإنَّ الحظرَ يجبُ أنْ يشملَ جميعَ أفرادِ الأسرةِ بما في ذلك الأبوان وقد يكونُ من المناسبِ حظرُهُ لمدّةٍ من الزّمنِ ، حتّى يصفو الجو ، وحينئذ يمكنُ التّخطيطُ للمستقبلِ ، ويتقبّلُ الأطفالُ القواعدَ التي يضعُها الوالدان ويمكنُ ضبطَ كل شيء»[١].

* وهكذا نجدُ أنَّ التّلفزيونَ خادمٌ جيّدٌ ، كما أنّه سيّدٌ سيء ، ومع هذا فإنّه يغني معرفتنا بأشياءَ لا نعرفُها ، ويمدّنا بكثيرٍ من المعلوماتِ لم نطّلعْ عليها من قبْلُ.

* وعندما يأخذُ الناسُ في التّركيزِ على جوانبَ سيئةٍ للتّلفزيون ، ويتحدّثون عن مثالبِهِ ومساوئِهِ ، فإنّهم في هذه الغمرة ساهُون عن حاجةِ الأطفالِ إلى المعرفةِ ، وهم ينسونَ بأنَّ الأطفالَ يكتسبون معارفَ قيّمةً ممّا يشاهدونه على شاشةِ التّلفزيون ، حتّى لو لم تكنِ البرامجُ ثقافيةً تماماً ، أو موجّهةً إليهم بشكلٍ مباشرٍ ، فالتّلفزيون يتيحُ للأطفالِ وقتاً من نهارهم للاسترخاءِ هم بحاجةٍ إليه ، بشرطِ ألا تزيدَ مشاهدتهُ عن الحدِّ ، وعند ذلك ينقلبُ الدّواءُ إلى داءٍ ، ويستعصي الشّفاء.

* إنَّ المربّينَ النّاجحين يحتاجونَ إلى مواقفَ مَرِنَةٍ للتّلاؤمِ مع التّلفزيون في مشاهدةِ الأطفالِ له ، لأنَّ هذا الجهازَ في الأحوالِ العاديةِ هو مصدرٌ ممتازٌ للمعلوماتِ والأفكارِ ، ونافذةٌ مطلّةٌ على العالَمِ الواسعِ ، وعندما يمنعُ المربّونَ الأطفالَ من مشاهدتِهِ ، فإنّهم يحجبون عنهم معارفَ مفيدةٍ ، ويحدّونَ من معارفهم وعلاقاتِهم وخبراتهم.

* إنّ كثيراً من الآباءِ قد ساورهم الشّكُ وخامرتهم الأوهامُ ، واستبدَّ بهم القَلَقُ من المشْكلاتِ التي قد تنجمُ عن مشاهدةِ الأطفالِ للتّلفزيون ، وعندها اتّخذوا قراراً بعدمِ اقتناءِ هذا الجهازِ المريبِ؛ وبعد مضي مدّةٍ من الزَّمنِ اضطروا إلى أنْ يعيدوا النَّظرَ في قرارهم ، لأنَّ محيطَ الأطفالِ الاجتماعيّ قد

---

(١) انظر كتاب: سلوك الطفل (ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥) للدكتورة فرانسيس أيلغ ودكتورة لويز أيمز ، وترجمة د. فاخر عاقل ، طبعة دار طلاس الثانية عام ١٩٨٧ م.

فرض عليهم أنْ يتراجعُوا عمّا قرروه ، فقد أدلى بعضُهم بأنَّ أطفالَهُ يعانون من نقصٍ حادٍّ في المعلوماتِ العَامّةِ ، ومعرفةِ ما يجري مِنْ حولهم إلى حدٍّ يثيرُ القلقَ ، وخصوصاً عندما أخبرهُ أطفالُه أنَّ زملاءهم متفوِّقون عليهم في المدرسةِ بالمعلوماتِ العامةِ التي يستقونَها من التّلفزيون ، ومن دروسهِ التّربويّةِ!! .

* ويزعم هؤلاء أنَّه يمكنُ للتّلفزيون أنْ يكونَ مصدراً غنياً من مصادرِ المعرفةِ ، ومن البدهي أنَّ الآباءَ والمربّينَ قد يريدون للأطفال رؤيةَ البرامج ذات الصِّبغةِ الثّقافيةِ ، غير أنَّهم لا يكونون سعداءَ عندما يرون الأطفالَ يفضّلون البرامجَ والموادَّ التي لا تتّصِلُ بالثّقافةِ بوشائج المعرفةِ ، في حين أنَّ الأطفالَ أنفسَهم يزعمون أنَّهم استفادوا من هذهِ الموادِ والبرامجِ ، أكثرَ من تلكَ التي يرغّبُ فيها آباؤهم ومربّوهم .

* وللتّلفزيون حدودٌ بالطّبع ؛ فهو لا يفعلُ إلاّ القليل في مجالِ تشجيعِ الصّغارِ على التّركيز ، فالمادّةُ التّلفزيونيةُ تشجعُ على الانتباه القصير ، فهي تثيرُ وتسلّي بالمناظرِ القصيرةِ والمشاهدِ التي تتبدّلُ قبل أنْ يتمكّنِ الأطفالُ من تمثّلِ ما يجري أمامَهم تماماً؛ وبصفةٍ عامةٍ ، فمن الأفضلِ بالنّسبةِ للأطفالِ أنْ يشاهدوا التّلفزيون مع الأبوين ، وفي هذه الحالةِ يكونُ بوسعهما مشاركةُ الأطفالِ تجاربهم ، وتبيانُ كثيرٍ من الأمورِ ، وتعريفهم بأشياءَ قيّمةٍ قد لا ينتبهون لها ، لو كانوا يشاهدون التّلفزيون وحدهم؛ كما يجبُ على الأبوين ألاّ يعتمدوا على التّلفزيونِ وحدَهُ كمصدرٍ للمعلوماتِ عن العالَمِ الخارجِي ، أو عالَمِ المدرسةِ والبيتِ ، فالأبوان يشيران إلى ما هو مهمٌّ وماتِعٌ ، ويقدّمان معلوماتٍ مفيدةً عن خلفيّةِ الأحداثِ ، ويسالأنِ الأطفالَ حولَ ما يشاهدونه ، أو يلْفِتَان انتباههم إلى واقِعهم وما حولَهم بطريقةٍ ملموسةٍ ومفيدةٍ .

* ومن الوسائل النّاجعةِ لمشاهدةِ جهازِ التّلفزيون ، هي انتقاءُ البرامجِ المفيدةِ (Useful programs) للعائلةِ جميعها ، ويمكنُ للآباءِ والأبناءِ أنْ يتعاونوا على انتقاءِ البرامجِ والموادّ التي يشاهدونها حسب قائمةٍ يوميّةٍ ، أو أسبوعيّةٍ؛ وقد تكونُ هذه الطّريقةُ عمليّةٌ جيدةٌ في تشجيعِ الأطفالِ في صنْعِ القرارِ ، وتبادلِ الآراء .

* إنَّ هذهِ الطَّريقةَ تتيحُ للأبوين تقديم الشّروحِ ، والتّنويه بالأشياءِ ، ومساعدةِ الأطفالِ على رؤيةِ الجوانبِ الجميلةِ في الأشياء ، ويستطيعُ الأبوان أنْ يشجّعَا الأطفالَ على التّفكير بما يشاهدون ، والتّساؤلَ عمّا تطرحُه الشّخصيّاتُ التّلفزيونيّةُ من قيمٍ ومعاملاتٍ ، وهذا كلّه يشجّعُ الأطفالَ على التّفكيرِ بالمعلوماتِ التي يقدّمُها التّلفزيون ، وردِّ الفعلِ تجاهها ، بدلاً من تقبلها السَّلبي ، ويساعدُ الأطفال على الاستخدامِ الإيجابي البنّاء لهذا الجهاز.

* وأمامنا الآن بعضُ الأسئلةِ التي تتضمَّنُ إيجابياتُ التّلفزيونِ وسلبياتُه ، كذلك تتضمنُ رؤيةُ المتفائلين به والمتشائمين منه ، ومن الفضائيات الغزيرة[1].

* وفي الصَّفحاتِ التالياتِ نستعرضُ هذه الأسئلة والإجابات عنها.

أولاً: هل التّلفزيون صديقُ الأطفالِ؟

* هل التّلفزيونُ صديقٌ للأطفالِ؟ وهل هذا الصَّديقُ مِنَ المُخْلِصين أمْ مِنَ المُفسدين؟ وهل هذا الصّديقُ مخادعٌ ماكرٌ خبيثٌ ، أمْ طبيبٌ يجس نَبْضَ القُلوبِ برفقٍ وحنَانٍ؟! . هذا ما ستفصحُ عنه الفقراتُ التاليات. . . .

* كثيرٌ من المربّينَ ومن الخبراءِ والآباءِ وقفوا حيالَ هذا السُّؤالِ وهم في ريبٍ وشَكٍّ ، إلاّ أنَّ بعضَهم اعتبرَ جهازَ التّلفزيون صديق الأطفالِ ، وبعضَهم الآخر ـ وهو الأكثر ـ اعتبرهُ صديقاً مُخادعاً خبيثاً يتلوّنُ تلوّنَ الحرباءِ وقْتَ السِّلْمِ والخَطَرِ والإقامةِ والسَّفرِ . .

* وتَتَلخَّصُ حجّةُ الأكثرين بأنَّ حاجاتِ الأطفالِ الصِّغارِ تتطلّبُ فرصاً وزمَناً

---

(١) تقولُ بعضُ الإحصائياتِ المعاصرةِ عن الفضائياتِ والتّلفزيون:
١ ـ إنَّ الفضائياتِ قد أفسدت في مدّةِ خمس سنواتٍ ما لا يفسدُه التّلفزيون في مدّة ٣٠ سنة بل ٧٠ سنة ومعظمُ المدمنين على التلفزيون أعمارهم أقل من ٢٤ سنة.
٢ ـ في كلّ خمسِ دقائق يشاهدُ الأطفالُ مشهداً مخلاً بالآدابِ والأخلاقِ.
٣ ـ وفي كلّ عامٍ يشاهدون ٢٤ ألف مشهداً ألَا يتأثر المشاهدُ بواحد منها؟
٤ ـ إنَّ ٢٠٪ من الطلابِ يشاهدون الفضائيات و٢١٪ منهم يشاهدون البرامج الرياضية.
٥ ـ إذا عاشَ الإنسانُ ٧٠ سنة فإنَّه يصرفُ من عمره ١٢ سنة أمام التّلفزيون.

لتحقيقِ علاقاتٍ أسريّةٍ واجتماعيّةٍ تقوّي شخصيّاتِ الأطفالِ ، وتزرعُ الثّقة بنفوسِهم ، لكنَّ هذا الجهازَ الخبيثَ يسحبُ بساطَ الألفةِ من تحتِهم ، فإذا هم في وادٍ سحيقٍ ، وإذا هم لا يعرفون شيئاً من تلكم الفرصِ الأسريةِ التي تنمّي الأواصرَ فيما بينهم.

* والحقيقةُ ، إنَّ الأطفالَ يحتاجون إلى تنمية طاقتِهم على التوجيهِ الهادف كي يتخلَّصُوا من تبعيةِ جهازِ التّلفزيون ، ولكنَّ هذا الجهازَ السّاحر السَّحّارَ لا يتركُهم متحرّرين ، والأطفالُ يحتاجون أيضاً إلى اكتسابِ مهاراتِ الاتّصالِ الأساسيّةِ من تعلُّم القراءةِ ، والكتابةِ ، والتّعبير بمرونةٍ ، لكي يؤدّوا واجباتِهم في وسطِهم الاجتماعيّ ضمنَ طاقاتِهم وحدودِ معارفهم المكتسبةِ ، بيد أنَّ التّلفزيونَ بِسِحْرِهِ لا يعزّزُ النّمو اللفظيّ أو المعرفيّ الكتابيّ لدى الأطفالِ ، بل يطلبُ منهم الاستقبال السَّلبّي وحدَهُ. ويجعلُ من الطِّفلِ طفلاً غريبَ الأطوارِ داخلَ الجماعةِ.

* ويحتاجُ الأطفالُ كذلكَ إلى اكتشافِ نواحي القوّةِ والضَّعفِ الخاصّةِ من أجلِ تحقيقِ رغباتِهم كراشدين في العملِ واللعبِ على حدٍّ سواء ، بيد أنَّ المشاهدةَ التَّلفزيونية لا تفضي إلى اكتشافاتٍ كهذهِ ، بل تحدُّ من قدراتِ الأطفالِ في هذه النَّواحي.

* «إنَّ إشباعَ حاجةِ الأطفالِ إلى الخيالِ يتحقّقُ بصورة أفضل عن طريقِ أنواعِ النّشاطِ الذاتي ، لا عن طريقِ القَصصِ الخياليةِ التي يعدُّها الكبارُ ، ويقدمونها لهم في التّلفزيون»[١].

* فممّا لا مجادلةَ فيه أنَّ الأطفالَ يتحقّقُ عندهم التّنبّهُ العقليُّ والملاحظةُ والتّجريبُ ، حينما يمكنُهم أنْ يتعلّمُوا الأداءَ اليدويَّ ، واللمسَ والفعلَ ، وليس مجرّد المشاهدة السَّلبيةِ وتشيرُ كلُّ الدّلائلِ إلى أنَّ للتّلفزيون تأثيراً مدمراً في الحياةِ الأسريةِ ، حيثُ يقلّصُ من ثرائها وتنوعها ونشاطِها ، ولذا فلا يمكنُ الاعتمادُ من الآباءِ والمربّين على التّلفزيون كجليسٍ وصديقٍ للأطفالِ ، لأنّه

---

(١) انظر : الأطفالُ والادمانُ التّلفزيوني (ص ٢٠) بتصرف يسير.

فيما يبثُّه يجعلهم يزدادون عبوديةً له وهم قابعونَ داخلَ بيوتهم يشاهدونه ▪ وهذا الاستعبادُ غير المُباشرِ يحطّمُ كثيراً من طموحاتِهم ، ويخفّفُ من أحلامِهم البنّاءةِ ، إذ استغلَّ التّلفزيون الأطفالَ بشيء من النَّفعيّةِ الممزوجةِ بالاستهتارِ حيث يحتجزهُم ساعاتٍ أمامَهُ ، ولا يدعُهم يمرحون ويلعبون ويخرجون ، بل لا يؤدّي بعضُهم واجباتِهِ المدرسيّةِ ولا المنزليّة.

* إنَّ الإغراءَ التَّلفزيوني المثيرَ الذي يقدّمهُ للأطفالِ ، إنّما هو شَرَكٌ ردىءٌ يوقعُهم في حِبَالِهِ وأحابيلِه ليظلُّوا مشدودين إليه ▪ دون عملٍ مفيدٍ ، بل يغرسُ في نفوسِهم الصَّغيرةَ الانفعالَ الضّارَ ، والضَّجرَ والخمولَ ، وقد يسبّبون لأمّهاتهم الأمراضَ العصبيّةَ والنَّفسيّةَ ▪ وقد اتّصلَتْ سيّدةٌ عبر الهاتفِ أكّدتْ لي أنّها تزورُ الطَّبيبَ النَّفسيَ ليعالجها ، لأنَّ ابنهَا الوحيدَ الذي له أربعُ إخواتٍ قد دفعها نحو الجنون بسببِ ما يتلقّاه من جُرعاتِ المشَاهدةِ التّلفزيونيةِ التي تأكلُ عينَيْه وعقلَهُ ووقتَهُ ، وهو لا يزالُ في ربيعهِ الثَّاني عشر ! ! وكلّما أرادتْ أنْ تثنيَ عزمَهُ عن الاستغراقِ أمامَ التَّلفزيون ، استغرقَ هو في تهديدها بأشياءَ شاهدهَا في واحدٍ من أفلامِ الكرتونِ المخصَّصة للرُّعْبِ ، وربّما قال لها : إنّه سيطيرُ إلى الفضاءِ الخارجيّ ولا يعودُ إليها . . ! ! .

* إنَّ مثل هذا الطّفلَ قد استسلمَ لمخدّرِ المشاهدةِ التّلفزيونيةِ ، وحَسِبَ أنَّه مَلَكَ الخافقَيْن بما يراه في تلكَ السَّاعاتِ الطَّويلةِ أمامَ التّلفزيون ، ولم يَعُدْ يرى أمامه سوى هذه الأشياء التي جذبتْهُ واستعبدتْه ▪ وجعلتْهُ شبْه مُخَدَّرٍ أمام هذا الجهازِ السّحري السَّاحرِ «شيطان البيوت» ▪ ومثلُ هؤلاءِ الأطفالِ سيسبّبون في المُستقبلِ القريبِ مشكلاتٍ وعقباتٍ لأسرهم ومجتمعهم ، فهؤلاء موتى هذا الجهاز الأحياء ▪ فلا ينفعون ولا ينتفعون ، حيث أثبتتِ الوقائع مصداقَ ذلك.

* عبَّرت أمهاتٌ عن غيابِ وعي أطْفَالهنَّ عند مشاهدةِ جهازِ التّلفزيون وتلاشيهم فيه ▪ ومن ذلك أنَّ أحداهنَّ قالت : «عندما يعودُ طفلي من المدرسةِ ▪ يتّجهُ إلى حبيبهِ التّلفزيون ، ويشاهدهُ في غيابٍ حقيقي عن الوعيّ ▪ من شبهِ المستحيلِ أنْ يلفتَ أحدٌ انتباهَهُ الذي رُبِطَ بِحبلٍ سريّ بالتّلفزيون ، ويبدو كأنّه قد تسمَّرَ في مكانِهِ وهو مستغرقٌ تماماً أمامَ مشَاهدِهِ ▪ ومن العجيبِ

أنَّه لا يردُّ على الهاتفِ حين المشاهدةِ ،حتى لو كان يرنُّ بجوارِهِ عالياً ، فهو يبدو كأنّه لا يسمعُهُ ، ولا يردُّ عليَّ أيضاً ، وإذا أردتُ ذلك فإنّي أفصلُ تيّارَ الكهرباء عن التّلفزيون ، وعندئذ يصحو من غفوتِه التّلفزيونيةِ المخدِّرة ، ويصرخُ أنْ أعيدَ له فَتْحَ الجهاز . . » .

* إلى جانبِ أصواتِ الأمّهاتِ نسمعُ صرخاتٍ أبويةً مذهلة حولَ المشاهدةِ التّلفزيونيةِ لأطفالهم ، ونرى مشاعرَ القَلَقِ ترتسمُ على وجوه الآباء وهم يَرَونَ تَجارِبَ أطفالِهم التّلفزيونية التي سلبتْهم الإرادة .

* لاحظَ عددٌ من الآباءِ والمربّين أنَّ الأطفالَ يتدهور سلوكُهم بشكلٍ واضحٍ بُعيدَ الانتهاءِ من مشاهدةِ التّلفزيون ، وأكّدوا أنَّ سلوكَهم يسوءُ ، فهم يودّون استمرارَ المشاهدةِ ، وإلا غدوا ذوي طباعٍ سيئةٍ ، مُماحكينَ ، مُتعِبينَ ، فالتّلفزيون لا يصلحُ طباعَهم ، وهم عقبَ المشاهدةِ متذمّرون نزقُون مضطربون .

* ونسمعُ بعضَ الآباءِ والمربّين يقول بسخطٍ وتذمّرٍ وهو يتحدثُ على حالةِ الأطفالِ المُستَعبدين للتّلفزيون: «إنَّهم بعد المشاهدةِ غاضبون ومخدّرون ، ويتصاعدُ عجزهم بسرعةٍ عن السَّيطرةِ على أنفسِهم ، فيثيرون الضَّجيجَ حولَ أمورٍ تافهةٍ ، وبعد مرورِ شيءٍ من الوقتِ يميلون إلى الهدوءِ والحالةِ الطَّبيعيّةِ» .

* لا نريدُ الاسترسالَ في ذكرِ هذه الشّكاوى السَّلبية المريرة من الآباءِ والأمّهاتِ عن أطفالِهم ، إذ إنَّه من المؤكّد أنَّ كثيراً من الأطفالِ يعمدُ إلى إساءةِ السُّلوكِ ، والانفجارِ العصبيِّ لتحقيقِ بعضِ الغاياتِ التي يرغبونها ، ولإرغامِ أبويهم على الخضوعِ لنَيلِ مبتغاهم والخضوع لإرادتهم ، وهذا السُّلوك الذي يسلكُه الأطفالُ ـ عن وعي أو غير وعي ـ إشارة واضحة وعلامة جليّة للأبوين بأنَّ هؤلاء الأطفال قد أرهقُوا وهم بحاجةٍ إلى الرّاحةِ ، وهنا يحتاجُ الأبوان الحصيفان إلى الحكمةِ في مثلِ هذه المواقفِ المتكرّرةِ مع تكرُّرِ الأيّامِ وتكرُّر جلساتِ المشاهدةِ التّلفزيونيةِ ، وطبيعي أنْ يدركَ الأبوان طبيعةَ أطفالهما ، وبالتَّالي فإنّهما يضعان الحلَّ لكبْحِ مثل هذه الحالات .

* وإذا كان الأبوان من ذوي الحجّةِ والإقناع استطاعا أنْ يُبرْهِنَا على أنَّ التّلفزيونَ صديقٌ خبيثٌ(١) وشيطانٌ نفّاثٌ ، وأنّه شَرُّ جليسٍ في الزّمانِ ، وأنّه وأنَّه. . . ومن ثمّ يَدُسَّان البديلَ عنه بطريقةٍ ذكيةٍ تربويّةٍ ، وهذه الطّريقةُ تحتاجُ إلى إثارةٍ تشبهُ إثارةَ المُشاهدةِ ، وترجعُ إلى طريقةِ الأبوَيْن ، فهما الخبيران بنفسيّةِ أولادهما ، ولا بأس أنْ يستعينا بمربين متخصّصين في هذا المجالِ. ومن ثمّ تأخذُ مشكلات الأطفالِ بالاضمحلالِ والتّلاشي.

ثانياً: هل نتفاءلُ بصداقةِ التلفزيون للأطفالِ؟

* كثيرون هم الذين استولى التّلفزيون على مشاعرِهم بمشاهِدِهِ الجذّابةِ إلى حدٍّ كبيرٍ ، وجعلَ منهم هذا الاستيلاءُ يصرفون اهتمامَهم نحوه ، ويوجّهون أطفالَهم إلى عقْدِ صداقةٍ معه ، وإيجادِ عروةٍ وثْقى لا انفصامَ لها ، إذ رأوا فيهِ الثّقةَ بحيثُ يعرضُ الصّورةَ والمشهدَ والصّوتَ ، وهذه الأدواتُ قلّما يرقى إليها الشّكُّ ، أو تُساورُهَا الظُّنون.

* ولهذا فإنَّ كثيراً من المؤشّراتِ القويةِ تومىءُ إلى أثرِ جهازِ التّلفزيون في الكبارِ ، وتمدُّ إصبعَ الاتّهام لِتدلَّ أيضاً على أنَّ أثرَ التّلفزيون أشدُّ وأسرعُ من تأثيرِه في الكبار ، ولذا فإنّنا نلحظُ أنَّ الأطفالَ يهيمون به هيمان المجنونِ بلَيْلاَهُ ، فلذلكَ نراهم يتحلّقون ويتجمعون قبالَتَهُ تاركين أماكنهم عند عرضِ مادّةٍ مثيرة ، كي يربضوا ويرابطوا بالقربِ منه جلوساً على الأرض ، وكثيراً ما يمدّون بأعناقهم إليه كأنّهم يريدون أنْ يكونُوا أكثرَ قرباً من مشاهده ،

---

(١) شكا أحدُ الآباءِ بعبرةٍ وتجمّلٍ وأسىً وهو يقولُ: «كنتُ أنا القاتل مرّةً واحدةً عندما أدخلت الجهازَ الدخيلَ بيتنا ، ولما علمته جليسَ سوء حاولت إبعاده ، لكنّني فُوجئتُ بأنّي أُقتلُ مراراً فامرأتي ـ هداها الله ـ سفيهةُ الرّأي ، والأولادُ انضمّوا بأصواتِهم إليها ، وصاروا يتّهمونني بالرجعيةِ والتّأخرِ وعدم مواكبةِ الحضارةِ؛ واللهُ المستعانُ على ما يصفون».
إنَّ هذا الأبَ المسكينَ ليس وحيداً في مثل هذا الميدانِ ، بل هناك كثيرون يصولون في الميدان دون أنْ يجدوا مجيباً أو مناجزاً ، حتى إنَّ بعضَهم كلّما تذكر هذا الجهاز الخبيث وكيفية أثرِه عليه وعلى بيته ، كان يتمثل بقول الشاعر:
فمـــرةً كُنـــتُ أنـــا قـَــاتـــلاً   وأكثـــرُ المـــرّاتِ مقتُـــولا . .

وبالتّالي نرى معظمَهم يتجاوبُ مع حوادثه، ونراهم أيضاً يتقمّصون شخصيّاتِهِ، ويقلّدون كثيراً من الحركاتِ التي تأتي بها الشَّخصيات المؤثّرةُ الآسرةُ السَّاحرةُ بسحرِها الحلال[1].

* وتدلُّ الإحصائياتُ إلى أنَّ معظمَ أطفالِ العالَمِ يقبعون أمامَ جهازِ التّلفزيون قرابةَ خمس ساعات يومياً، ويقولُ عددٌ من المتفائلين بهِ: «إنَّ التّلفزيون يُسَهِّلُ للأطفالِ الاستيعابَ، بسببِ جَمْعِهِ بينَ الكلماتِ المسموعةِ والصُّورةِ المرئيةِ، ولما له منْ قدرةٍ على تحويلِ المُجَرَّدَاتِ إلى محسوساتٍ خاصّةٍ وأنَّ الأطفالَ أكثرُ قدرةً - أحياناً - على إدراكِ كثيرٍ من المحسوساتِ».

* وللمتفائلين المؤمنين بصداقةِ جهازِ التّلفزيون لأطفالهم آراء إيجابية، فهم يزعمون بأنَّ التّلفزيون يؤثّرُ تربويّاً في الأطفالِ بأكثرَ من طريقةٍ، وأكثرَ من ناحيةٍ، ويمكن أنْ نجملَ ذلك ببضعِ نقاط منها:

* إنَّ جهازَ التّلفزيون يسهمُ مع الأسرةِ والبيئةِ في إكسابِ الأطفالِ أنماطاً من السُّلوكِ الاجتماعي في حياتِهم وبيئتهم.

* إنَّ التلفزيون يسهمُ إلى حدٍّ كبيرٍ في تغيير الاتجاهاتِ وبلورتها، بإثارةِ ردودِ أفعالٍ عاطفيّة لدى الأطفالِ من خلالِ تقديم عملٍ ذكي يجذبُهم إليه.

* التّلفزيونُ منجمُ فوائد، يهيءُ للأطفالِ معرفة كثيرٍ من الأشياءِ منذُ صغرِهم، منها ما هي في محيطهم وبيئتهم، ومنها ما هي بعيدةٌ عنهم؛ فالأطفالُ الذين لم يروا الحيواناتِ في غابةٍ كثيفةٍ، أو سفينةٍ كبيرةٍ تمخرُ عبابَ الماءِ وتمتطي البحر، يمكنهم أنْ يشاهدوا ذلكَ من خلالِ جهازِ التّلفزيون الذي يقربُ البعيدَ ويدنيهِ ويوضّحه.

* الأطفالُ الذين يتابعون مشاهدةَ التّلفزيونِ يسبقون أترابَهم في أنْ يتعرفوا كثيراً من الحقائقِ والمعلوماتِ بما يوازي عاماً واحداً.

* التّلفزيون من خلالِ برامجهِ وأفلامهِ يزوّدُ الأطفالَ بخبراتٍ واقعيّةٍ،

---

(١) انظر: أدب الأطفال (ص ٣٥٤و ٣٥٥) بشيء من التصرف.

وأخرى خياليّة تشبعُ رغباتهم ، فهو ليس وسيلة تزوّدُ الأطفالَ بالمعلوماتِ والأفكارِ والقيم ، بل يسهمُ في تشكيل لونٍ من ألوانِ السّلوكِ ، ولذا يُقال عن أطفالِ اليوم: إنَّهم أوّلُ جيلٍ يربّيه ويبنيهِ وينشئه ثلاثةُ آباء وهم: الأبُ الحقيقيُّ ، والأمُّ الوالدةُ ، والتّلفزيون قسيمُ الأبويَنْ والأسرةِ والمجتمعِ ومَنْ له المحلُّ الأرفَعُ في صَدْرِ البيت!!!؟ وفي أغوار النفوس!!!......

* والمتفائلون ذوو آراء تحملُ بينَ طيّاتها تحيات الحُبّ لجهازِ التّلفزيون ، وتحملُ بين جوانِحها كلَّ الشّكْرِ الموصولِ بالإعجابِ ، وذلك على الرّغمِ من كلِّ آثارِ التّلفزيون وتأثيراته في مسيرةِ حياةِ المجتمعِ .

* لقد غيّرَ جهازُ التّلفزيون من حياةِ الأطفالِ وعاداتهم ، كما أنَّه أجهزَ على عاداتِ الأسرةِ معظمها وغيّرها ، وبدَّلَ ما تعوَّدَتْ عليهِ منْ دهرِها ، فقد بدأت تتلاشىٰ مغادرتُها للبيتِ ، وأخذَ جميعُ أفرادها يسهرون أكثرَ من ذي قبل ، وأمسى هذا الجهازُ الأليفُ وسيلةَ التّسليةِ التي لا تُبارى ، ووسيلةُ التّرويح التي لا تُجارى ، وجعل النَّاسَ سُكارىٰ ، وما هم بِسُكارىٰ ، وتركهم حيارىٰ لا يعرفون الدِّيك من الحُبَارىٰ .

* ومن المثير حقّاً والمستغربِ في هذا المجالِ أنَّ شَطْراً من المتفائلين والمحتَفِين بالتّلفزيون ، زعموا أنّه قد أثّر في حياةِ الأطفالِ المدرسيّةِ ، ودفعهم إلى الأمَامِ ، حيث إنَّ أكثرَ من ثلثَي التّلاميذ كانوا ينجزون واجباتِهم المدرسيّة قبل مشاهدة التّلفزيون[1] .

* وطار فريقٌ من المتفائلين فرحاً بنتائج مُرضيةٍ ، زعموا أنّهم أجروهَا في ميدانِ الطَّلبةِ وساحاتِ المدارس ، وجاؤوا بأشياءَ تعضدُ وتشدُّ أزرَ التّلفزيون ، فقد ذكروا أنَّ ربعَ التّلاميذِ اعترفوا بأنَّ جهازَ التّلفزيون كان يؤدّي بهم إلى إنجازِ معظمِ واجباتِهم حتى يستطيعوا مشاهدةَ برامجهم المفضّلة؛ أمّا بقيّةُ التّلاميذِ فقد زعموا أنَّ التّلفزيون لا يعطّلُهم بحالٍ من الأحوالِ. ووجدوا أنَّ ثلثَ التّلاميذِ تقريباً قد خففّوا مِن المطالعةِ وشراء الكتب ، بينما ذكر الثّلثان الآخران أنَّ عادةَ

---

(١) المرجعُ السَّابق نفسُه (ص ٣٥٦ ، ٣٥٧) بتصرّف واختصار .

القراءةِ لم تتأثّر قِيْدَ أنملةٍ بالتّلفزيون. وزادَ المتفائلون قصيدةَ بحثِهم شَطْراً وزعموا أنَّ التّلفزيون قد أثّرَ في كثيرٍ من التّلاميذِ في اختيارِ الكتبِ والمجلاّتِ التي يفضلونها ، وكانوا من قَبْلُ لا يعرفونها أو كانوا منصرفين عنها. كما دلّتْ أبحاثُ آخرين على أنَّ جهازَ التّلفزيون ـ بِحُسْنِ تفضُّلهِ على الأطفال ـ قد غرسَ هواياتٍ جديدةً ومفيدةً في ثلثِ عددِهم ، ومن ثمّ أدّى إلى تغييرٍ في هواياتِهم القديمةِ ، وأكّد بعضُهم أنهم قد درسُوا أشياء كثيرةً ، وعرفوا أموراً كثيرةً عن طريقِ التّلفزيون ، في حين أنّ نسبةً ضيئلةً منَ التّلاميذِ قد أجابتْ بأنَّ التّلفزيونَ قضى قضاءً مبرماً على هواياتِهم دون أنْ يوجّهَهم نحو هواياتٍ أخرى تقومُ مقامها.

* أمّا البناتُ فقد أجابَ معظمهنَّ إجاباتٍ تحملُ روحَ التّفاؤلِ بجهازِ التّلفزيون ، وزعمنَ أنهنَّ تعلمْنَ كثيراً من أمورِ الطّهي والاقتصادِ المنزليّ وما شابه ذلك.

* إنَّ المتفائلين بالتّلفزيون حريصون كلَّ الحرصِ على طرحِ آرائهم التي زعموا أنّها إيجابيةٌ ومنها: «أنَّ وجودَ التلفزيون بين يدي الأطفال بشكلٍ دائمٍ يسمحُ لهم بقَتْلِ الوقتِ ، ويحققُ المتعةَ الحاصلةَ من الاطّلاع على ا لأخبارِ. . ثمّ إنَّ الموضوعاتِ والبرامجَ المألوفةَ أو الاعتياديةَ تُطَمْئِنُ الأطفالَ وتمنحُهم الشّعورَ بنوعٍ من الاطمئنانِ والاستقرارِ، كما أنَّ التلفزيون يدخلُ التّغييرَ ويشوّق، ويظهرُ للأطفالِ شخصيات لطيفةً ومحببةً يشعرون معها بالتّعاطُفِ»(١).

* وفي غضونِ هذه الفكرةِ ، نطّلعُ على هذه الأبياتِ اللطيفةِ التي لم تبتعدْ كثيراً عمّا أشارتْ إليه ميولُ الذين تفاءلوا بهذا الجهازِ الصّامتِ المتكلّم ، والأعمى المبصر؛ والرائي «التلفزيون» الأخرس:

يا قارِئاً في الرّائي — أراكَ هَلْ تَراني
تُسْمِعُني الحِكَايَة — مِنْ غَابِرِ العُصُور
تظْهرُ في الرِّوايَة — كأنَّها تَدُور

(١) المرجع السابق (٣٦٠) باختصار وتصرف.

وأُبْصِـــــــرُ المَعـــــــارك	كـــــأنّنـــي هُنَـــالِـــك
مُـــــؤَيَـــــدٌ مُشَــــارك	للْقَـــائِـــدِ المنْصُـــور
يـــا قَـــارئـــاً فـــي الـــرّائـــي	أراكَ هَـــلْ تَـــرانِـــي
تصـــــوّرُ الأَخْبَـــــار	تنقُلُهـــا الأَقْمَـــار
وتعـــــرضُ الأَسْمَـــــار	ببهجـــةِ السُّـــرور
يـــا قـــارِئـــاً فـــي الـــرّائـــي	أراكَ هَـــلْ تَـــرانِـــي
تسلّـــــمُ علَيْنَـــــا	بـــأجْمَـــلِ الكَـــلام
وإنْ نحـــنُ رَدَدْنَـــا	لـــم تَسْمَـــعِ السَّـــلام[1]

* وهذه قصيدةُ أخرى بعنوان «التّلفزيون» للدّكتور محمّد رجب البيّوميّ ، من ديوانه «حصاد الدَّمع» وهي بمجملها مِنَ الهمساتِ الحرّى والتَّفجّع في رثاء زوجتِهِ ، ولكنَّا قد اخترنا منها ما يتناسبُ مع فكرةِ هذا الفَصْل ، يقول البيّوميّ :

منْطَفِئـــاً تـــركْتُـــهُ	فـــأظْلَمَـــتْ صفْحَتُـــه
يُـــريحنـــي منْـــزَويـــاً	وقـــد تـــلاشَـــى صَـــوتُـــه
أغفَلْتُـــه كـــأنّمـــا	تبـــدَّدت بَهْجَتُـــه
أراهُ يستـــدرجُنـــي	لِصَخـــبِ تـــركْتُـــه
هـــو الجمـــادُ مـــا درى	أيّ أســـىً حملْتُـــه
أرمقُـــهُ علـــى شجَـــىً	تـــأزّمَـــتْ غصّتُـــه
صـــارَ أثيمـــاً حيـــثُ لا	أفْهَـــمُ مـــا سَقْطَتُـــه
أذنَـــبَ وهْمـــاً دونَ أنْ	تظهـــرَ لـــي زلّتُـــه
نـــدمْـــتُ أقـــوى نـــدمٍ	لأنّنـــي اشتـــريتُـــه
كـــرهتُـــه حيـــثُ غـــدا	مصـــدرَ لهـــوٍ عفتُـــه
لكنّـــه كـــدأبِـــهِ	يلهـــو بمـــا أبغضتُـــه[2]

* إنَّ المتفائلين بالتلفزيون فئةٌ تمثّلُ شَطْرَ المجتمعِ في كلِّ مكانٍ وكلِّ

---

(١) معجم البابطين (٥/ ٢١٠)؛ ومعجم شعراء الطفولة (ص ٣٩٦).
(٢) حصاد الدمع (ص ٦٦ ، ٦٧) بتصرف وانتقاء. دار الأصالة ـ الرياض ـ ط ٢ ـ ١٩٨٤ م.

زمان ، وهم يرون أنَّ البرامجَ التّلفزيونيةَ بجملتها مفيدةٌ للأطفالِ ، وخصوصاً إذا دُرسَتْ دراسةً صحيحةً هادفةً.

* فهل البرامجُ التي تُخصَّصُ للكبارِ هم وحدهم الذين يشاهدونها؟! لا شكَّ بأنَّ كثيراً منَ الأطفالِ يتلقّونَها بعجرها وبجرِها ، فهل وُضِعَتْ حماياتٌ لهم؟! وماذا رأى جماعةُ المتفائلين في هذا؟!.

* يرى بعضُ هؤلاءِ المتفائلين أنَّ برامجَ الكبارِ يتابعها جمهورٌ غفيرٌ من الأطفالِ ، ولذا فلا بدَّ من تهذيبها حمايةً لهم[(١)].

* واقترحَ آخرون حلاً آخرَ مفادُه: بأنَّ الحلَّ الأمثلَ هو الاتساعُ في رقعةِ البرامجِ المخصَّصةِ للأطفال ، وإثرائها بموادَّ مشوقةٍ خصبةٍ ، والعملُ على اجتذابِ الأطفالِ إليها بشتّى السُّبلِ ، وإشباعهم بكلِّ الألوان المعرفية التي تتناسبُ مع نموهم كي تزيدَ من تعلّقهم ببرامجهم ، وتطفىء ظمأَهم إلى برامج الكبار.

* إنَّ أمامَ برامجِ الأطفالِ في التّلفزيون مجالاتٌ واسعةٌ قد تُغني الأطفالَ ثقافياً ومعرفياً ، وربّما تثري حياتهم بكثيرٍ من الأشياءِ المفيدةِ ، وتزيدُ من متعتِهم. فلا شكَّ أنَّ القَصصَ والتَّمثيليّاتِ والشِّعرَ والأخبارَ والمسابقاتِ وسيَرَ الأبطالِ والمبدعين والألعابَ الجماعيّةَ والهواياتِ ، كلّها تتيحُ لثقافاتِ الأطفالِ أنْ تزهرَ وتتفتحَ وتنموَ ، ومن ثمّ تُسْهِم في تنميةِ قدراتهم اللغويةِ ، والاجتماعيةِ والنّفسيّةِ ، وتشارك في تربيتهم الخلقيةِ ، وتشيع في نفوسهم البهجةَ ، وتدفعهم إلى التفكيرِ المفيدِ الذي يلائمُ سنّهم وطبيعتَهم[(٢)].

* ومما يدعمُ برامجَ الأطفالِ المثمرِ في آراءِ المتفائلين ، أنّه هو الذي يجعلُ منَ الأطفالِ عناصرَ متفاعلةً في البيئةِ ، وتجعلُهم أكثر إحاطةً في عالَمهم الذي

---

(١) كأنّنا نتذكر هنا قول القائل:

المستجيرُ بعَمْـروٍ عند كـربتـهِ كـالمستجيرِ مـن الرَّمضاءِ بـالنَّار!!!

(٢) انظر: أدب الأطفال (ص ٣٦٣) ، وسلوك الطفل (ص ٤٩٤) مع الجمع والتصرف.

يعيشون فيه ، وعلى مُعدّي البرنامج النّاجح الجيّد هذا أنْ يلتزموا به بأسسٍ مهمّةٍ منها :

أ ـ أن يستوعبَ البرنامجُ جميعَ ألوانِ أدبِ الأطفالِ وأشكاله . ويُراعَى فيه معظم الخصائص الفنية التي توائمُ نمو الطّفولةِ ، لا تُحْشَرُ أيةُ مادةٍ دون تخطيط مسبَقٍ لها .

ب ـ من أهمِ الأسسِ وأَعظمِها لدى مناصري جهازِ التّلفزيون وتوظيفه للأطفال أنّهم اشترطوا أنْ تُسْتخدَمَ اللغةُ العربيةُ الفصحى السَّهلةُ التي تناسبُ ثروةَ الأطفالِ اللغويةِ ، وألاّ تُستخدمَ اللهجاتُ المحليّةُ مطلقاً؛ وأنْ يتمَّ الابتعادُ ـ قَدْرَ الإمكانِ ـ عن الأسلوبِ الخطابي والتّقريري ، لأنَّ هذا يبعدُ الأطفالَ عن متابعةِ التّلفزيون .

ج ـ اختيارُ الموضوعاتِ الخياليّةِ بدقّةٍ لتنميةِ ملكَةِ الخيالِ التّكوينيّ لدى الأطفالِ ، لكيلا يميلوا إلى التّوهّمِ والخيالِ الهدّام؛ وتكوين مفاهيم صحيحة لديهم يتعرّفون من خلالها على الواقعِ المادّي والمحسوس ، وعلى الخيالِ والتّصوّر ، وبالتّالي نضمنُ للأطفالِ تفكيراً سويّاً ومقاييسَ صحيحةً .

د ـ يكونُ العاملون في ميادين برامجِ الأطفالِ من المتخصّصين سواء كانوا من الكُتّابِ أو من المُخرجين أو الممثّلينَ أو مقدّمي البرامج ويقتضي أن يكونوا على بيّنةٍ من معرفةِ حاجاتِ الطُّفولةِ ، ونفسيّاتِ الأطفالِ ، وما يتعلّقُ بهم من ثقافاتٍ تلائمهم .

هـ ـ ويجبُ ـ أخيراً ـ على مقدمي البرامج أنْ يكونوا على درجةٍ عاليةٍ من الثّقافةِ والقدرةِ على التّحدُّثِ بطلاقةٍ وسلاسةٍ وسلامةٍ . وأن تُبنى علاقاتٌ حميمةٌ أليفةٌ بينهم وبينَ الأطفالِ حتى يتمَّ التواصلُ وتستمرَّ المتابعةُ والمشاهدةُ! .

ثالثاً: هل الأطفال من ضحايا التّلفزيون؟

* كثيرةٌ هي الدّراساتُ والأبحاثُ التي أُجرِيَتْ في الشَّرقِ والغربِ عن أثرِ التّلفزيون على الأطفالِ والنّاشئةِ ، وكان كلُ فريقٍ من الباحثين والدّارسين هنا

وهناك يدلي دلْوَهُ ، ويطلع بآراءَ وأقوالٍ توافقُ الآخر ، وأحياناً تخالفُ ما جادتْ به قرائحُ آخرين.

* فقد رأى بعضُهم أنَّ التّلفزيون لم يكنْ محمود الأثرِ ، وخاصةً على الأطفالِ ، ذلك أنّهم قد عكفُوا على شاشةِ التّلفزيون في الوقتِ الذي يجبُ أنْ يمارسُوا فيه ألعابَهم ، وتكاسَلُوا عن واجباتِهم المدرسيّةِ والمنزليّةِ؛ وقد وصَلَ تخوّفُ بعض الباحثين إلى أنَّ الأخطارَ النَّاجمةَ عن مشاهدةِ التّلفزيون جسيمةٌ ، وقد تصلُ بالأطفالِ إلى درجةِ الكَسَلِ الذّهني ثمَّ البدنيّ ، وقد سادَ هذا الفريقُ نوعاً من الإحساسِ بمدى أهميّةِ الأثرِ السَّلبي الذي يفرزُهُ هذا الجهازُ على الأطفالِ الذين أصبحوا ضحيَّتَهُ.

* بينما اعتقدَ فريقٌ آخر من الباحثين أنَّ مشاهدةَ التلفزيون قد تكون عوناً للأطفالِ ، إذ تجعلُ منازلَهم أكثرَ جاذبيةً لهم في وجودِهِ بينهم صباحَ مساءَ ، وأنَّه يوسِّعُ آفاقَهم ويثيرُ فيهم اهتماماتٍ جديدةً ، وقد يُوجِدُ أساساً جديداً للاحتكاكِ بين الأجيالِ.

* هذا موجزٌ لآراءِ الفريقين؛ ولكنّا لا نستطيعُ الآن أن ننحازَ إلى أيٍّ منهما ، لأنَّ الأمرَ تابعٌ ونابعٌ إلى اتّجاهِ وميولِ كلّ فريق ، ولأنَّ هذهِ الدِّراساتِ والأبحاثَ لا تزالُ مبتورةً ولا تمثّلُ الحقيقةَ الجاثمةَ في البيوت.

* ولا أحد يستطيعُ الآن أنْ يعرفَ كم عدد أجهزةِ التّلفزيون في العالَمِ؛ إذ إنَّ هذا من المُستحيلِ ، لكنْ لا يكادُ يخلو بيتٌ منه في الكرةِ الأرضيّةِ ، فقد استطاعَ هذا الجهازُ أن يغزوَ البيوتَ على اختلافِ أشكالِها وألوانِها وأحجامها ، وأن يتصدَّرَ المجالسَ ، وأنْ يعلوَ على الآخرين ، ويجلسَ في مكانٍ أنيقٍ رقيقٍ تحوطُه وتحميهِ وسائلُ دفاعيةٌ جميلةٌ قد لا تتوفّر لأعزّ أفراد الأسرة.

* وما دامتْ هذه الأجهزةُ الأنيقةُ تُعَدُّ بالملايين بل أكثر ، وما دامتْ هذه الأجهزةُ تعملُ ليلَ نهارَ ، فلا أحد يستطيعُ حَصْر حَسَناتِها أو ضحاياها بشكلٍ صحيحٍ ، ولكنْ يمكنُ الاستئناسُ ببعضِ نتائجِ الدّراساتِ لتقديمِ فكرة عن الإيجابيةِ والسَّلبيةِ.

* ونحن نعلمُ أنَّ كلَّ وسيلةٍ من وسائلِ المخترعاتِ الحديثةِ ، قد أثارت وقْتَ ظهورِها ـ ولا تزالُ تثيرُ ـ نوعاً من البلبلةِ والخلْخلةِ والزّلزلةِ والقَلَقِ والنّقاشِ والحوارِ . وأعتقدُ بأنَّ التّلفزيون ـ هذا الجهاز العجيب ـ قد أثارَ الناسَ في الغربِ والشَّرقِ ، وسهرَ الخَلْقُ واختصموا فيه وهو نائمٌ ملءَ جفونهِ لا يهمُّه انتصارُ فريقٍ أو انهزامُ جماعةٍ في شأنهِ ، ما دامتِ الأعينُ على اختلافِ ألوانِها وأشكالِها ترنو إليهِ بالإعجابِ والإكْبارِ والاحترام ، وعلى الرغمِ من صمتهِ العميقِ وسكوتِه الأبدي ، فإنَّ العيونَ لاتغادرُ شاشَتَه طرفةَ عينٍ . ولا خفقةَ قلْبٍ ، ولا رفيفَ أملٍ . . في حين أنَّ عالماً جليلاً يمتلكُ ناصيةَ البيانِ ، وذروةَ الفصاحةِ . وحلاوةَ الصَّوتِ ، وزمامَ العلْمِ إذا تحدّثَ بينَ النَّاس . فإنَّ عدداً ـ لايحصر منهم ـ قد يتلهّى عنه ، ويتشاغلُ ، وتنصرفُ عيناه إلى أشياءَ وأشياءَ ، وعقلُه مبعثَرٌ هنا وهناك . والبقيةُ معلومةٌ لدى القارىءِ الكريم!!!!.

* إنَّ للتّلفزيون أثراً متفاوتاً على الأطفالِ . ولا نقدرُ أنْ نجزمَ بسببِ هذا التّفاوت . إذ إنَّ الأطفالَ يتباينون في الإحساسِ وردّ الفعل إزاء البرامج تبعاً لاحتياجاتهم الفطريّةِ ، واختلاف حياتهم الاجتماعيّةِ والطّبقيّةِ.

* ومن المعروفِ أنَّ أطفالَ الطَّبقةِ المتوسّطةِ يقضون أمامَ التّلفزيون وقتاً أقلّ منَ الطَّبقةِ الجيدةِ ، ولعلَّ مردَّ ذلكَ إلى رقابةِ الوالدين وتوجيههما واعتدالهما في المشاهدةِ . وتنظيمِ وقتِ الأطفالِ بشكْلٍ أفضل ، ولكنْ مع هذا وذاك ومع تلك المراقبةِ الأُسريةِ والتّوجيهاتِ من المربّين يبقى عددٌ كبيرٌ من الأطفالِ شِبْهَ ضحايا للتّلفزيون.

* ومن المؤكّد أنَّ هناك أسئلةً كثيرةً تتراءى أمامَ الأعينِ على شاشةِ الحياةِ ، وتحتاجُ إلى الإجابةِ ، ولا يمكنُ إغفال هذه الأسئلة أو التّساؤلات . إذ هي من الواقعِ ، ومن حياةِ الأطفال ، بل والكبار أحياناً.

* وأستطيعُ الآن أنْ أسوقَ لكَ نماذجَ من الأسئلةِ التي تقرعُ الآذان ، وتدقُّ القلوبَ . وتوقظُ من يودُّ أن يستجيبَ لنداءاتِ الواقعِ؛ ومن هذه الأسئلة :

* ما عددُ السّاعاتِ اليوميّةِ التي يخصّصُها الأطفالُ لمشاهدةِ برامجِ التّلفزيون؟

* هل يشاهدُ الأطفالُ البرامجَ المُعدّة للكبارِ؟

* ما نوعُ البرامجِ التي يفضّلُها الأطفالُ؟ وهل تمثّلُ أذواقَهم؟

* هل يمكنُ تطوير ذوقِ الأطفالِ عن طريقِ مشاهدةِ برامج التّلفزيون؟

* ممَ تنشأُ جاذبية التّلفزيون للأطفالِ ، وهل هذه النّاحيةُ تجعلُهم من ضحاياه؟

* ما مضمونُ البرامج التي يقدّمُها التّلفزيون للأطفال؟

* إلى أيّ مدىً تتشكّلُ النظرةُ العامّةُ للأطفالِ بما يرونه في التّلفزيون؟ وهل يقدّمُ لهم القيمَ الهادفةَ الطّيّبة؟

* ما الذي يثيرُ رعبَ الأطفالِ في مشاهدةِ التّلفزيون؟

* هل يشكّلُ التّلفزيون عُقَدَ اضطرابٍ بنفوسِ الأطفال؟

* هل تجعلُ برامج الرُّعبِ الأطفالَ متّسمين بصفَةِ الرّعب؟ وهل تشبعُ حاجةً ملحّةً لديهم؟ .

* هل يؤدّي التّلفزيون إلى تنميةِ المعلوماتِ العامّة؟ أم سيبقى لدى الأطفالِ وسيلة ترفيهية؟

* كيف يؤثّرُ التّلفزيون على دراسةِ الأطفالِ ومدارسِهم؟

* هل يؤدّي التّلفزيون إلى فتور همّةِ الأطفالِ ، وهل يقلّلُ من ميلِهم إلى المدرسةِ ، وإلى التّفكير؟

* هل يسيطرُ التّلفزيون على حياةِ الأطفالِ؟ وهل أثّر على القراءةِ والمطالعاتِ للكُتبِ؟ وهل سبَّبَ نقْصاً في معلوماتهم؟

* هل ينقصُ التلفزيون من العلاقاتِ الاجتماعيةِ خارج نطاقِ الأسرة؟ أم هل يؤدّي إلى جَمْعِ شَمْلِ الأسرة؟؟؟ أمْ هل يُسَبِّبُ الصّراعَ داخِلَ الأسرةِ؟! .

* هل يجعلُ التّلفزيون الأطفالَ سلبيّين؟ أم هل يثيرُ حوافزَهُم ويوسّعُ رقعةَ اهتماماتِهم؟

* هل يؤثّرُ التّلفزيون على النّومِ والبصرِ لدى الأطفالِ؟ وهل يشاهدُه الأطفالُ بطريقةٍ صحيحةٍ سليمةٍ؟!.

* وهناك أسئلةٌ كثيرةٌ من مثل هذه النماذج ، بيد أنَّ الإجابةَ عنها تجعلُنا نقفُ مرةً أخرى لنتساءَل: هل الأطفال ضحايا التّلفزيون؟ وهل هم أسرى لديه؟! في الفقراتِ التّالياتِ نتعرفُ الإجابَة الشّافية بإذن اللهِ ، وندرك هل التّلفزيون أداة طيّبة أمْ خبيثة؟!.

رابعاً: ما مقدار المشاهدةِ التلفزيونية للأطفالِ؟

* تثيرُ مشاهدةُ الأطفالِ للتّلفزيونِ تساؤلَ عددٍ من الاختصاصيين الإعلاميين ، كثيراً ما تقفُ الكلماتُ حبيسةَ أفكارِهم وألسنتِهم إزاءَ القوّةِ السّحريّةِ للتّلفزيون ، تلك القوّة التي اجتذبتِ الأطفالَ إليها ، بل إنَّ بعضَهم قال: «إنَّ القوّةَ السّحريّةَ للتّلفزيون تضفي إلى الأطفالِ سمةَ النّهم والشّراهةِ - ليس إلى الطّعامِ بل إلى التّلفزيون - فهم ينفقونَ كلَّ أوقاتِ فراغِهم وشيئاً من عملِهم ليجلسوا أمام جهاز التّلفزيون ، ويصعبُ ترويضهم على الخروجِ إلى اللعبِ والمرحِ ، أو تناولِ وجبَاتِ طعامِهم ، أو الذّهابِ إلى فُرُشِهم ليناموا»[1].

* إذن ، فما حقيقةُ مقدار الزّمنِ الغالي النّفيس الذي ينفقُهُ الأطفالُ في مشاهدةِ التّلفزيون؟! وهل يوازن بين المشاهدةِ وبين مُتطلّباتِ أُخَر تهمُّه في حياتِه؟

* لو قارنّا الزّمنَ الذي ينفقُه الأطفالُ أمامَ التّلفزيون مع الزّمن الذي يقضونه في أوجهِ النّشاطاتِ الأخرى ، لعلمنا أنَّ هذا الجهازَ يمزّقُ الزّمنَ ويبعثرُ عُمْرَ الأطفالِ وقدراتِهم ، ويقضي على وقتِ فراغِهم بالمحالِ ، حيث يتابعونه

---

(١) انظر: التلفزيون والطفل (ص ١٩١) بتصرف ، سلسلة الألف كتاب رقم (٦٤٩) طبعة عام ١٩٦٧ م.

ويتبعونَه ولا يفارقونَه إلاّ بعد أنْ يستولي عليهم سُلطانُ النّوم الذي لا يستطيعون دفْعَه بحيلةٍ ، ولو استطاعوا لآثروا متابعةَ التّلفزيون ومرافقته ليلَ نهارَ وسرّاً وعلانيةً . . .

* ولعلَّ سائلاً يقولُ: «كيف نحدُّ من مشاهدةِ الأطفالِ لجهازِ التّلفزيون؟! وهل يمسكُ الآباءُ والمربّون بزمامِ الأمْرِ ويحدّون من ساعاتِ مشاهدةِ الأطفالِ له؟ أمْ أنَّ الأطفالَ أنفسَهم يمكنُهم ذلك حتى لو عرضَ التّلفزيون أشياءَ لا تهمّهم؟!».

* لا شكَّ في أنَّ التّلفزيون ـ بِصِفةٍ عامة ـ قد احتلَّ وقتاً يفوق أي وقتٍ يحتلّهُ أي نشاطٍ آخر ، حيث إنَّ مشاهدةَ الأطفالِ له تستغرقُ وقتاً كبيراً بُعَيدَ انصرافهم من المدرسةِ إلى حين نومهم؛ ويدلُ على تعلّقهم به أنّ كثيراً منهم يؤثرون مشاهدتَه ، ولا يحبّون مزاولة أنشطةٍ تفيدهم من رسْمٍ أو قراءةٍ أو مراجعةِ دروسهم أو كتابةِ واجباتهم المدرسيّة. ومن العجيب أنّ كثيراً من الأطفالِ ينتظرُ بفارغ الصّبر عطلة نهاية الأسبوع ليلتصقَ بجهازِ التّلفزيون أكبرَ وقتٍ ممكنٍ ، ويشبعَ نهمَه وشغفَه به ، مع العلْمِ أنَّ ساعاتِ الإرسالِ قد أصبحت على مدارِ اليومِ والليلةِ في كثيرٍ من القنواتِ في معظمِ أنحاءِ العالَمِ[1].

* ومن الجَليّ إجمالاً ، أنّه على الرّغم من ضخامةِ القَدْرِ الذي يشاهدُه الأطفالُ في التّلفزيون ، فإنّه لا تُوجد وسيلةٌ بديلةٌ عنه تستقطبُ اهتمامَ الأطفالِ والنّاشئةِ ، وذلك على الرّغم من ظهورِ مخترعاتٍ ومسلّياتٍ كثيرة ، إلا أنَّ الأطفالَ ظَلُّوا منْجَذِبين إلى سحرِ التّلفزيون وهم مصابون بشراهةِ مشاهدته ، وخصوصاً أنَّ القنواتِ التي لا حصْرَ لها قد غدتْ تقدّمُ ألوانَ الإغراءاتِ ومُشَهّياتها التي يقعُ الأطفالُ تحتَ تأثيرها ، بل تحت سحرها. فالأطفالُ بعامة

---

(١) إنَّ معظمَ المشكلات التي تواجهُ الآباءَ والأمهاتِ والمربّين مع التّلفزيون لا تتصلُ مباشرةً بالتّلفزيون ذاته ، وإنّما بالسّيطرةِ عليه والتّعامُل معه بحيث لا يقضي على مستقبل الأطفالِ وحاضرهم بشتّى النّواحي ، ومنها: النّواحي الصّحيّة إذ لا يتعرضون للشّمس ولا للحركة ، وكذلك النّواحي النّفسية إذ بعد مدّة يصبح الأطفال منعزلين عن الناس جبناء لا يجيدون التّصرف مع غيرهم.

عاطفيّون ، لا يحسنونَ النَّقدَ ولا الاختيارَ المناسبَ للبرامجِ ، لذا فإنَّ معظمهم يستسلمُ للتّلفزيون أكثر من ستِّ ساعاتٍ يومياً ، عدا أيام العُطَلِ ، فإنَّ وقْتَهم سيكونُ أكْثر وأكثر.

* ترى هل ينتبهُ الآباء والمربّون والمشرفون على تربيةِ الأطفالِ إلى الزَّمنِ الذي يهدرُهُ التّلفزيون للأطفالِ خاصّة وللكبارِ عامّة؟! وهل يستطيعون إيقافَ هذا الزَّحف الخَطِر الذي يهدّدُ حياةَ البشرِ ، ويقضي على كثيرٍ من الهواياتِ وأمور الإبداع؟!.

* إنَّ هذا الجهازَ السَّاحِرَ ، الجهاز الضُّرّة ـ والضُّرَّةُ مُرَّةٌ كما تقولُ نساءُ العربِ ـ للوقتِ والزَّمنِ للأطفالِ والكبار ، يظلُّ يطنُّ في الآذانِ ، ويجهدُ العيونَ ، ويميتُ القلوب في كُلّ الأوقاتِ ، ولا يكادُ ينفلتُ من براثنهِ سوى فئةٍ قليلةٍ عرفَتْ مخاطرَهُ ، فابتعدتْ عنه ، وأبعدته عن بيوتها ، لأنّها علمتْ أنّه شرُّ جليسٍ ، وأسوأُ صاحبٍ إذا لم يحسنْ ترشيد مشاهدتِهِ؛ ولعلّنا لو نظرنا في هذَيْنِ البيتَيْن ، وقصدنا بهما ضررَ التّلفزيون ، لما ابتعدنا عن الصَّوابِ ، والبيتان هما لأحدهم يهجو بعضهم فيقول:

لَكَلْبُ النَّاسِ إنْ فكَّرتَ فيهِ أَضَرُّ عليكَ مِنْ كَلْبِ الكِلَابِ
لأنَّ الكَلْبَ لا يُؤذي جليساً وأنْتَ الدَّهْرَ مِنْ ذَا في عذابِ[١]

* نعم ، أنتَ طول الدهرِ ، وطيلة الحياةِ من ذا الجهازِ في عذابٍ ، إنْ لم يكن هناك ترشيدٌ في مشاهدته ، وتنسيقٌ في الزّمنِ لكيلا تضيعَ الحياةُ سدى.

خامساً: هل يستفيدُ الأطفالُ من المشاهدةِ؟

* ما دام أنَّ التلفزيون هو العدوُّ الصّديقُ ، وهو الطَّيِّبُ الشِّرّيرُ ، وهوَ هوَ الإيجابيُّ والسَّلبيُّ والدّاء والدّواء ، فلماذا لا نتعاملُ معه تعاملَ الحكمةِ والحنكةِ ، ولمَ لا نوجِّهُ الأطفالَ نحوه توجيهَ الاستفادةِ؟! خصوصاً ونحن الآن أمامَ ما يُسَمّى عصرَ التّلفزيون العالمي! فأنتَ والأطفالُ والنَّاسُ جميعاً تشاهدون أي بلدٍ في العالمِ بلحظةٍ ، وهذا يطيلُ عمر مشاهدةِ الأطفالِ

---

(١) ربيع الأبرار للزمخشري.

للتّلفزيون ، ويستدرجُهم من حيثُ لا يعلمون ، ومن حيثُ لا يحتسبون.

* إنَّ التّلفزيون نائمٌ يقِظٌ ، فهوَ الدّهرَ يقظانَ نائمٌ ، وهو عدوٌّ في ثيابِ صديقٍ يتربّصُ الدّوائرَ بالنَّاسِ ، ويغتالُ ما يقدرُ عليه من الأطفالِ من بيننا ، أسمعتم بالعدوِّ الصَّديقِ؟ والضّدِّ الرّفيقِ؟ حسناً فلنستمعْ إلى أبي الطَّيّب المتنبّي إذ يقول:

وَمِنْ نكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرى ... عَـدوّاً لَـهُ مَـا مِـنْ صَـدَاقَتِـهِ بُـدُّ
فَيَـا نكَـدَ الـدُّنيـا متـى أَنْـتَ مُقْصِـرٌ ... عَـنِ الحُـرِّ حَتَّـى لا يَكُـونَ لَـهُ ضِـدُّ
يَـروحُ ويَغْـدو كَـارِهـاً لِـوِصَـالِـهِ ... وتَضْطَـرُّهُ الأيَّـامُ وَالـزَّمَـنُ النَّكْـدُ[1]

* إنّ في أبياتِ المتنبي إجابةً صريحةً لتساؤلنا الآنفِ الذّكر ، فالتلفزيون عدوٌّ ماكرٌ يرتدي ثيابَ صديقٍ لطيفٍ ، بيد أنّه غدّار مِهْذَارٌ ثرثارٌ لا يعرفُ الليلَ منَ النَّهار ، فماذا إذن في هذا الذي يحيّر؟! وهل هناك وسيلةٌ ناجعةٌ حتَّى نتعاملَ معه ونأمنَ من غدراتِهِ وتربّصاتِهِ؟ ونحفظَ الأطفالَ من السُّقوطِ في مهاويه؟!.

* إنّ أَيَّ أبٍ أو مُربٍّ أو مجتمعٍ لا يرضَوْن أنْ يروا أطفالَهم يرتادون حاناتِ الخمرِ لكتابةِ تقريرٍ عن أحوالهم ، وسببِ جنوحهم ، واستسلامهم لأُمِّ الخبائث؟! ولكنَّ هؤلاء جميعاً: الأبُ والأمُ والمربّي والأسرةُ والمجتمعُ ـ دون قصد ـ يسمحون للأطفالِ أنْ يروا هذه المآسي على شاشات التّلفزيون ، من خلالِ المسرحيّاتِ العربيّةِ ، والغربيّةِ ، بل والأفلام العربيّةِ والغربيّةِ ، وكم من مسرحيّةٍ عربيةٍ ـ أليفةٍ إلى بعض النّفوس ـ نرى الممثل القريبَ إلى القلوب يحملُ كأسَ الخمرِ يقلدُ من خلالِ ذلك السُّكارى ومَنْ لعبتْ به الشُّمول ، فكيف رضي هؤلاء جميعاً بهذا؟! ودون رقيبٍ أو مراقبةٍ؟ بل كلُّهم يضحكُ لهذا الممثل الذي أجادَ دورَ السَّكرانِ على خشبةِ المسرحِ إجادةً رائعةً ، ثم نُقِلَ ذلك إلى شرائطَ لتُعْرضَ في جهاز التّلفزيون. إنّ هذا لَشيءٌ عجيبٌ حقّاً ؛ قلْ لي

---

(١) انظر: ديوان المتنبي (ص ٢٩٨) بشرح الواحدي ـ طبعة مصورة ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

بربِّك: أَلاَ يمكن أنْ نجدَ بعضَ الأطفالِ يحاكي هذا الممثلَ ويترنّحُ يميناً وشمالاً وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً؟ أليسَ هذا شَرٌّ يُراد؟! أليسَ التّلفزيون بعجره وبجرهِ يزاحمُ المربّين والآباءَ والمدارسَ في تربيةِ الأطفالِ وتوجيههم وفقَ اتّجاهاتٍ معينة؟ ألا نتوقّع أنْ يكون ـ في يومٍ من الأيام ـ ذا أثر كبيرٍ وخطير يفوقُ أثرَ الأبوين؟ فلماذا لا نحاصرُ هذا الخطرَ المتربص بنا والجاثمَ بالقربِ منّا نتصبَّحُ به وننامُ على صُورِهِ وصوتِهِ وسحْرِه ونفثِه.

* إذا أرادَ المربّونَ والآباءُ أنْ يستفيدَ أطفالُهم من مشاهدةِ التّلفزيون، فليرقبوا باهتمامٍ بالغٍ ما يشاهدهُ أطفالُهم في التّلفزيون قبل أنْ تتبلورَ شخصيّاتُهم وثقافاتُهم وفقَ ما يَرَوْنَهُ على شاشته، وإذا ما فلتَ الأمرُ منهم فمن الصَّعبِ ضبطه فيما بعد أو حصره.

* إنّه من الغفلةِ أنْ يتسامحَ الآباءُ والمربّون مع ما يعرضهُ التّلفزيون، وينظرون إليه نظرةَ العطفِ والتّساهلِ لأنّه وسيلةُ ترفيهٍ وتسليةٍ، إنَّ من «واجبِ الأبوين الصّالحين ألاّ يغيبَ عن بالِهما طبيعة مشكلةِ التّلفزيون سواء من ناحية الأبناء أو البيئة المنزليّةِ، أو المجتمعِ، أو من ناحيةِ خصائص التّلفزيون كوسيلةِ إعلامٍ، أو من ناحيةِ ما الواجبُ فِعْلُه ومَنْ يقومُ به. ولو أنَّ المهتمّين ومنهم الآباءُ والمربّون عقدوا النّدواتِ حولَ هذه الموضوعاتِ أو أثاروا في مجتمعاتهم ونواديهم هذه الأمورَ، لاستفادَ الأبناءُ التّوجيهَ الصّحيحَ»[1].

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ لوسائلِ الإعلامِ في عالمِنا المعاصرِ دوراً بارزاً في استقطابِ النّاشئةِ، ويأتي التّلفزيون في المقدمة، فإذا كانت الرّقابةُ الأبويةُ جيّدةً، أمِنَ النّاسُ خطَرهُ نوعاً ما، أمّا إذا غابتْ هذه الرقابةُ، فإنَّ الأطفالَ يغيبون في غياباتِ الجبِّ غيبةً تصعُبُ العودةُ منها.

* إنَّ الدراساتِ الجادةَ التي يقومُ بها تربويّون متخصّصون وتربويون يغارون على النّاشئةِ تدعو النّاس والمربّين في جميعِ بلدانِ العالَمِ، إلى التّعامُلِ السّليمِ والمدروسِ مع التلفزيون، إذ هو مرضٌ يجبُ الاحتراسُ منه، وهو مخدّرٌ

---

(١) طفلك والتلفزيون (ص ١٣٥) نقلاً عن كتاب: الناس والتلفزيون (ص ٧).

يجبُ تخليص الأطفالِ من مصادقتهِ ، وهو عدوٌّ يجبُ الحذرُ منه ، وهو شرٌّ يجب الاحتراس منه.

* نعم يجبُ الانتباه والاحتراس من هذا العدو الصّديق و:

هو بالفعلِ عدوّ — وهو بالقَولِ صديق
هو بالقربِ بَريق — وهو في البعدِ حريق

* إنَّ من أبرزِ الدِّراساتِ النَّافعةِ التي تحملُ طابع النَّصيحةِ ، هي تلكَ التي قدَّمَها فريقٌ من المربّين وتقول: سخّروا التّلفزيون لخدمةِ الآباءِ والمربين ، ومساعدتِهم في تربية الأطفالِ. . . «فترشيدُ استخدامِ التّلفزيون ، وتسخيرهُ لخدمةِ الآباءِ يكونُ بِجَعْلِ مدّةِ مشاهدةِ الطّفلِ للتّلفزيون على حسبِ البرامجِ المفيدةِ له ، ولا تتعدى ساعةً إلى ساعتَيْن في اليوم كحدٍّ أعلى ويمكنُ للأبِ أو المربّي أنْ يختارَ البرنامجَ الذي يستفيدُ منه طفله دينياً وخلقياً وفكريّاً وصحيّاً. . ثمّ إقفالُ التّلفزيون ليستفيدَ الأطفالُ من وقتهم وعمرهم بمزوالةِ نشاطاتٍ أخرى تنفعُهم دُنْيا وأخرى. . . وهذا التّصرفُ ممكنٌ بالإرادةِ والإيمانِ والوعي والقدوةِ الأبويّةِ الحسنةِ ، والحرصِ على سلامةِ الأطفالِ من جميعِ النّواحي الفكريّةِ والصّحيّةِ»(١).

* والأسرةُ الواعيةُ هي تلكَ التي تسخّرُ التّلفزيون من أجلِ فائدةِ أطفالِها ، فتعتني بالبرامجِ المفيدةِ ، وتجعلُ الأطفالَ يقضون الوقتَ المعقولَ في مشاهدةِ التّلفزيون ، وإذا ما جاءَ وقتُ النومِ أو وقتُ الواجباتِ ، انصرفَ الأطفالُ إلى ذلكَ ، وتركوا التّلفزيون بإشارةٍ من الوالدين أو المربّي.

* وإذا أرادَ الأبوان أنْ يخفِّفَ الأطفالُ من زمنِ المشاهدةِ التّلفزيونية ، فعليهما أنْ يكونا قدوة لهم ، فلا يجلسا وقتاً طويلاً أمام جهازِ التّلفزيون ، أو يستبدلا وقتَ المشاهدةِ بأنشطةٍ مفيدةٍ ، من مثلِ مطالعةِ كتابٍ مفيدٍ ، أو روايةِ قصّةٍ شائقةٍ ذات هدفٍ نبيلٍ ، أو ما شابه ذلك ، وبهذا يستطيعُ الأبوان أنْ يقللا من زمنِ المشاهدةِ التّلفزيونيّةِ للأطفالِ ، كما أنَّ عليهما أنْ يُفْهِما الأطفالَ

---

(١) المرجع السابق (ص ١٣٨ ، ١٣٩) بتصرف واختصار.

بالحجّةِ اللطيفةِ بآثارِ التّلفزيون السّيئةِ في النّواحي الصّحيةِ والنّفسيةِ والتّعليميةِ والسّلوكيّةِ والدّينيّةِ وإضاعةِ الوقتِ ، والتّفريط في أداءِ العبادات ، إذ نجدُ برنامجاً يستغرقُ ساعةً من الزّمن وربّما يؤذّنُ خلالَها لصلاةِ المغربِ ، فيبقى الأطفالُ منشغلين به ولا يجيبون داعي الصّلاة ، لأنَّ البرنامجَ سَحرهم واستلبَ إرادتهم ، وصدهم عن ذكرِ الله وإقامِ الصّلاة .

* إنَّ الآباءَ والمربّين مطالبون بوقايةِ أولادِهم وأهليهم من كلٍّ ما يؤذيهم ، أو يقودهم إلىٰ طريقِ البوارِ ، فلا بدَّ من توجيهِ الأطفالِ والنّاشئةِ إلى اغتنامِ الأوقاتِ بما هو مفيدٌ ، وألا تضيعَ أعمارهم وأوقاتُهم أمامَ هذا الجهازِ الذي يفلسُ مَنْ حولَه ومَنْ أمامَه إفلاساً لا فلاحَ بعده .

* لا شكَّ في أنَّ انتزاعَ هذا الجهاز من بين أيدي الأطفالِ أمرٌ صعبٌ في البداية ، لكنْ إذا وُجِدَتِ البدائلُ فالأمر هيّنٌ ، وخصوصاً إذا مارسَ الأطفالُ هواياتٍ نافعةً ووجدوا آثارها في نتائجهم مصحوبة بتشجيعِ الأبوين:

وينشأُ ناشىءُ الفتيانِ منّا ... على ما كانَ عوّدَهُ أبوه
وما دان الفتى بحجىً ولكن ... يعوّده التّديّنَ أقربوه[1]

سادساً: هل التلفزيون يَسْحَرُ الأطفالَ؟

* إذا استطعنا أنْ نقول: «إنَّ جهازَ التّلفزيون ساحرٌ محترفٌ يَسْحَرُ قلوبَ الأطفالِ ، وربّما الكبار ، فهل نستطيعُ أنْ نبرهنَ على صحةِ هذه المقولة؟!».

* حسناً ، فَلْنعشْ سوياً في ظلالِ هذه الصّفحاتِ ، نستروحُ عبيرَ الصِّدقِ والواقع من خلالها ، ونرى ـ من بعيدٍ ـ سحْرَ هذا الجهازِ الذي غلبَ الحُكماء ، ورافَقَ السُّفهاءَ ، وصارَ رفيقَ البيوتِ والنّاسِ على حدٍّ سواء .

* لقد استأثرَ هذا الجهازُ بقلوبِ النَّاس ونفوسِهم ، وانتشرَ في مختلفِ طبقاتِ المجتمعاتِ في مختلفِ دولِ العالم ، وصار من المُسلّماتِ التي لا جدالَ فيها وحولها ومعها ، وتسرَّبَ إلى أذهانِ كثيرين أنّه إكسير الحياةِ

---

(١) اللزوميات (٢/ ٦٠٠) دار صادر .

الاجتماعيةِ ، وأنّه جسْرُ عبورٍ فوق تيارِ نهرٍ جارفٍ ، وأنّه ـ ياسيّدي والظُّلم غير محبَّبٍ ـ لا يمكن أنْ نحيا دونه؛ وكثيرٌ من النَّاسِ تغافلَ عن أضرارِهِ وأحقادِهِ وسيئاته على أطفالِهم ، وقال: «خذْ جانبَ الخير منه ، ودعْ غيره ، فهو سلاحٌ ذو حدَّين ، أليستْ هناك مخترعاتٌ كثيرةٌ من حولنا ذات حدَّيْن؟!».

* يقول الأستاذُ عدنان الطّرشة في كتابه القيم «ولدك والتّلفزيون» ما مفاده: «إنّ كثيراً من الأهلِ والمرّبينَ مسرورون في كثيرٍ من الأوقاتِ ، لأنَّ الأطفالَ يقبعونَ في البيتِ ، فهم يخفّفون عنهم مشقّةً صعبةً وهي مراقبةُ اللاعبين ، والعدو خلفَهم هنا وهناك ، وتلقّي شكاويهم. السّاحاتُ الواسعةُ قد خلَتْ من صخبِ الأطفالِ وضجيجهم ومنازعاتهم. ولكنَّ الخاسرَ الأكبرَ هم الأطفالُ لأنَّهم لم يتحركوا التّحرك الضّروري ، ولم يستمتعوا بجمالِ الطّبيعةِ ، ولا بالانفتاحِ على الآخرين ، إنّها خسارةٌ لن تعوّضَ»[1].

* إذن فالأطفالُ لم يستطيعوا أنْ يتخلّصوا من سحرِ التّلفزيون حتّى في عبثهم ولهوهم ، وأنْ ينطلقُوا إلى الحياةِ بصحّةٍ وعافيةٍ دون أن يكونوا مثل رهينِ المحبسَيْن ، وإذا كان أبو العلاء المعريّ رهين المحبَسَين: العمى والبيت ، فإن هؤلاء الأطفالِ رهناء غرف التّلفزيون ، والتّلفزيون نفْسُه ، وأعتقدُ أنّه يحق لنا أنْ ننشدَ قائلين في سِحْرِ التّلفزيون:

هَـــذا جهَـــازٌ سَـــاحِـــرٌ ... بِبَثّـــه وعَـــرْضِـــهِ
﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾[2] ... بسِحْـــــرِهِ

* إنَّ الصرخاتِ والاستغاثاتِ من المربّين والاختصاصيين والعلماءِ ، بدأت تظهر وتتعالى من كلِّ مكانٍ تسترحمُ العالَمَ كي يحدَّ من هيمنة هذا الجهازِ الضّارِ ، الذي غدا يخرّبُ الأخلاقَ والنّفوسَ والصّحةَ ، ويؤثّرُ على عقولِ الأطفالِ ، ويهوي بهم إلى وادٍ سحيقٍ ، لا ماءَ فيهِ ولا زرعَ ولا حياة ، ويصنعُ بهم كما يصنعُ السَّاحرُ الماكرُ ، حيثُ يمنّيهم الأماني الخادعة ، ويعدُهم

---

(١) ولدك والتلفزيون (ص ١٥) بتصرف باختصار.
(٢) هذا اقتباس من سورة الأعراف الآية ١١٠ وتمامها: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٠].

وما يعدُهم إلاّ غروراً ، وزُخرفاً من الأقوالِ والأوهامِ . ويتوّجُ هذه المصائبَ بداءِ الكسلِ ، ثمّ داءِ السُّمْنَةِ المستشري بين جماعةٍ من الأطفالِ لا يُستهانُ بعددهم وأوزانهم.

* كان الأطفالُ فيما مضى ينشأ أحدهم على البطولةِ والشَّجاعةِ والحركةِ والنشاطِ ، ممّا دعا أحدهم أن يقولَ:

إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

* أما أطفالُ هذا الجيل التّلفزيوني ، فإنّهم يخرون أمام هذا الجهازِ مشدوهين حيارىٰ كسالَى سكارى وما هم بسكارى ، ولكنّه السّحرُ التّلفزيوني الذي استأثرَ بفلذاتِ الأكبادِ ، وجعلهم يحبّونَ الكسَلَ ويكرهون النّشاط . بل يكرهُ معظمهم اللعب مع أترابه ، فلا يكادُ يصرفُ عينيه عن الشّاشةِ السّاحرةِ التي تقدّمُ وجباتِ المغرياتِ طبقاً تلو الآخر ، وقد محت الزّمنَ ومحتْ بركتَه من حياةِ الأطفالِ وحتى الكبار.

* وفي ختامِ هذه الفقرةِ أودُّ تلخيصَ أضرارِ التّلفزيون[1] على الأطفال خاصّة ، وعلى الكبار عامة ، إذ إنَّ للتّلفزيون أخطاراً وأضراراً لا تُحمدُ عقباها إذا لم نأخُذِ الحيطةَ والحذر. ومن أبرزِ هذه الأضرار والأخطار :

١ ـ يتأثّرُ الأطفالُ تأثُّراً واضحاً بما يقدّمه التّلفزيون من موادّ متنوعة تبرزُ جانب العنف ، وخصوصاً في أفلام الكرتون.

٢ ـ يردّدُ الأطفالُ ما يسمعونه من عبارات وكلمات نابية وشتائم ولغة عامية عن طريق المسلسلات والبرامج التّلفزيونية الأخرى.

٣ ـ يزيدُ التلفزيون النّزعةَ السَّلبيّةَ عند الأطفال ، ويؤخّرُ موعد نومهم ممّا يجعلُهم يعيشون في اضطراب دائم ، ويعيشون أحلاماً مفزعة ، وخوفاً من أي شيء.

٤ ـ من المتوقّع أنْ يُسْهِمَ التّلفزيون في تشجيعِ الأطفالِ والنّاشئة على تعاطي

---

(١) هذه الأضرار مقتبسة وملخصة من عدة مراجع وفي مقدمتها كتاب: مسؤولية الأب المسلم (ص ٤٩٣ ـ ٤٩٥).

المخدرات والتّدخين وبعض المحرمات التي تودي إلى الهلاك والويلات.

٥ ـ تُغْفِلُ أفلام الكرتون الأجنبية قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الكون، وتتحدث معظم هذه الأفلام عن عقائدَ وثنيةٍ، وتصرفُ الأطفال عن عدوّهم الحقيقي وهو الشّيطان إلى أعداء وهميّين لا وجود لهم على أرضِ الواقعِ.

٦ ـ مغايرةُ معظمِ البرامجِ المخصّصة للأطفالِ لروحِ الإسلامِ وعقيدتِه، وإثارةُ مكامنِ الشّهوةِ الجنسيّةِ عندهم وإغراؤهم بالفاحشة وارتكاب الجرائم.

٧ ـ تعطي كثيرٌ من البرامج صورةً غير صحيحةٍ عن حياة بعض المشاهير، وتسعى لتسهيل عملياتِ العنفِ والسَّطو.

٨ ـ تتضمّنُ كثيرٌ من المسلسلات المتنوّعة، والمواد الإعلامية بعضَ الأفكار التي تخالفُ الدّين الإسلامي، وبالتّالي لا يستطيعُ الأطفال تمييز الخبيث من الطَّيِّب، ويقعون في شِراك هذه المسلسلات وشباكها وهم يحسبون أنّها صحيحة.

* * *

الفصل السَّابِع
نصائح ثقافيّةٌ للوالدين

* لا شكَّ في أنّنا نعيشُ الآنَ في عَصْرٍ متقدمٍ في التّقنياتِ العلْميّةِ ، عَصْرٍ محشودٍ بالنّظرياتِ التّربويةِ ، والآراءِ والتّجاربِ ، إلاّ إنّنا نحتاجُ إلى أسسٍ سليمةٍ لإعدادِ حياةٍ ناجحةٍ ، حياةٍ مفيدةٍ للأطفالِ ، ومفتاح هذه الحياةِ هما الوالدان ، فقد استلّتِ الحضارةُ عطْفَ الوَالديْنِ اللذين كانا من قَبْلُ يستغرقان مع الأطفالِ وقتاً كافياً ، أمّا الآن فقد انحسرتْ هذه الظّاهرةُ انحساراً واضحاً ، وقلَّ انتباهُ الأبوَيْنِ إلى أطفالِهما لأسبابٍ عديدةٍ منها: ظروفُ الحياةِ المعيشيةِ ؛ وهبوطُ الحضارةِ المفاجئةِ ، وظهور تكنولوجيا المعلومات الضّخْمةِ ، وكثرةُ المُغرياتِ المتنوعةِ والجذّابةِ. بيد أنَّ هذا كلّه لا يمنعُ منَ العنايةِ بالأطفالِ والانتباهِ لهم ، ورسْمِ عَلامَاتِ النّجاحِ أمامهم ليسيروا عليها وفقَ خطىً واضحة.

* وفي هذا الفصلِ حرصتُ على تلخيصِ خطواتِ نجاحِ الآباءِ في تربيةِ الأبناءِ في كافّةِ مجالاتِ الحياةِ ، وأوردتُ كثيراً من الأمورِ المهمّةِ التي جاءتْ في هذه الرّسالةِ ، ليطّلعَ عليها الآباءُ والأمهاتُ والمربّون ، والمهتمُّون بتربيةِ الأطفالِ وثقافتِهم في هذهِ الحياةِ ، لعلَّ ذلك يفيدُ بعضَهم ، فيستفيدُ الأطفالُ من هذهِ الخطواتِ التي صِيْغَتْ من أجلهم ، ومن أجلِ الطُّفولةِ وحدَها ، وليفيضَ الأمنُ والسّلامُ في دُنيا النّاسِ ، وتسري الثّقافةُ المفيدةُ بين جميعِ البشرِ.

■ والآن ، أستطيعُ أنْ أضعَ أمامَ المربّين والآباءِ هذه النّقاط المهمّة (Important Points) التي صُغْتُها صياغةً تربويةً وتوجيهيةً للآباء وِالأمّهاتِ خصوصاً ، ومن ثمّ لكلّ مَنْ يهتمُّ بأمرِ الطُّفولةِ والأطفالِ ونفسيَّاتِهم في عالمنا الرّحْبِ :

١ ـ ساعِدوا أطفالَكم فيما يحتاجُون إليهِ من مساعدةٍ ، ولكن لا تنجزوا لهم ما يقدرون على إنجازه فإنَّ ذلك يقلّلُ من خبراتهم ويحدُّ من تجاربهم وشجاعتهم .

٢ ـ شاركوا الأطفالَ في الألعابِ التي تنمّي لديهم مهاراتِ التّفكيرِ المنطقيّ والتّخطيطِ ، وأرشدوهم إلى مفتاحِ الاعتمادِ على النَّفسِ في ذلك ، وامنحوهم الثّقةَ بالنَّفس وعزّزوا مواقفهم بالتشجيع الهادف المثمر .

٣ ـ إذا لم يفلحْ أطفالُكم في الوصولِ إلى الحلولِ الصَّحيحةِ ساعدوهم بالكلماتِ الطّيبةِ والإرشادات اللطيفة الموحية ، ولا تلجؤوا إلى التّأنيبِ على النّتيجة .

٤ ـ لزيادةِ ثقافةِ أطفالكم ، اقرؤوا لهم قراءة جميلة معبّرة ، وعوّدوهم على المطالعةِ والاستماع والاستمتاع بها ، ثم أتيحوا الفُرصَ التي تجعلُهم مرتبطين بالقراءةِ والتعلّمِ باعتَبارِ ذلك جُزءاً من نشاطِهم اليومي والسّلوكي .

٥ ـ تظهرُ بعض الأخطاءِ الفادحةِ التي يرتكبُها بعضُ الآباءِ في حقّ أطفالهم ومنها : إلقاءُ المحاضراتِ وتكْرارها ، وكثرةُ إصدارِ الأحكام المتناقضة؛ وإعطاءُ التّعليماتِ المُبَسْترة ، ومهاجمتُهم أحياناً ، وتجنّبُهم أحياناً أخرى ، في حين أنَّ الأطفالَ بحاجةٍ دائمةٍ لوالديهم لمساعدتهم وتحقيق بعض رغباتهم .

٦ ـ علّموا الأطفالَ أنَّ الحياةَ تجَارِب ودروس ، وامدحوهُم على مجهودهم وإنْ كان ضَئيلاً ، فكم من طفلٍ ضئيلٍ غدا عظيماً يُشَارُ إليه بالبنانِ ، والتّاريخُ مملوءٌ بأمثالِ هؤلاء :

تَرى الرَّجُل النَّحيفَ فتزدريهِ وفي أثوابهِ أَسَدٌ هَصُورُ

٧ ـ استبدلوا السّلوكياتِ الهدّامةَ بسلوكيّاتٍ بنّاءةٍ صالحةٍ ، فالأطفالُ الذين

لا يتعرضون للسّخريةِ يكونون أكثرَ قدرةً على الاستجابةِ والتّواصلِ والتّفاعلِ مع الكبارِ ، ولا تستهينوا بهذا الأمرِ ، فكم من طفلٍ نبغَ ببناء شخصيّته بسلوكٍ طيّب وتعامل لطيف ، وتوجيه هادف ، وإيحاء حصيف.

٨ ـ أعطوا أطفالَكم الفرصَة ليتعلّموا من تجاربهم ، ومن ثمّ ليشعروا بالمسؤوليةِ ، والتّشجيعِ الحقيقيّ لهم سيجعلُ منهم أفراداً قادرين على فَهْم المعنى الحقيقيّ لتحمُّل المسؤوليّة ، فالتّجارِبُ نِعْمَ المعلّمُ والموجِّه.

٩ ـ علّموا أطفالكم أنّ الخطأَ واردٌ ، وهو ضرورةٌ من ضروريّاتِ التَّعلُّمِ السَّليمِ ، وبدلاً من سؤالهم: لماذا أخطأْتُم ولِمَ فعلتم؟ قولُوا لهم: ماذا تعلّمتم من أخطائِكم؟ وعاملوهم بِبَثّ الثّقةِ في نفوسهم مع إنجازاتهم بشكلٍ إيجابي من خلالِ أسلوبكم وتصرفاتكم.

١٠ ـ حاولوا أنْ تنمُّوا شعورَ أطفالِكم ، باحترامكم لهم ولقدراتِهم ، وتشجيعهم على احترامِ أنفسِهم واحترامِ الآخرين ، وكونوا قدوةً لهم في ذلك.

١١ ـ تعاملوا مع سوءِ سلوكهم باعتبارِ ذلك مشكلة ينبغي حلّها ، لا كموقفٍ توجّهون من خلاله اللومَ والعذلَ والعتابَ ، وهذا التّعامُل يحتاجُ إلى زمن كاف لتعديل سلوكهم.

١٢ ـ لا تجعلوا حبّكم للأطفالِ مقيّداً ومشروطاً بشيءٍ ، بل دعوهم يشعرون بحبّكم لهم بصرفِ النّظر عمّا يفعلُونه أو يحقّقونه ، فالحبُّ المشروط مع الأطفال نتيجتُه خاسرة.

١٣ ـ كونوا نموذجاً طيّباً وصادقاً للسُّلوكيّاتِ التي ترغبون في تعليمها أطفالكم ، وعَلِّمُوهم ـ مثلاً ـ احترامَ المواعيد ، الالتزامَ بقيمة الوقتِ واحترامَ مشاعر الآخرين في ذلك ، الوفاء ، الصّدق ، الإيثار.......

١٤ ـ اجعلُوا مختاراتِكم من برامجِ التّلفزيون والفضائياتِ مرآةً للقيمِ التي ترغبون أنْ تكونَ أسرتكم وأطفالكم عليها ، وساعدوهم في معرفةِ شجرةِ العائلةِ وتقاليدها ، فإنَّ ذلك يفسحُ المجالَ أمامَهم في الانطلاقِ والتّفاؤلِ والحبِّ ، واحترام كبار أفراد العائلة من الأقربين.

١٥ ـ راقبوا هواياتِ أطفالكم ، وشجعوهم على القراءةِ المتنوعةِ حَسْبَ ميولهم ، فالقراءةُ مفتاحُ المعرفةِ ، ودعوهم يرونكم تكتبون وتبحثون وتعدّون موضوعات ما ، فإنَّ ذلك يزرعُ بنفوسِهم الشَّجاعةَ على المعرفةِ والبحثِ عنها ، ثمّ اقرؤوا لهم بصوتِ عالٍ لتشجيعهم على القراءةِ بصوتِ عال ، فإنَّ ذلك يؤثّر في تنميةِ شخصياتهم وثقتهم بنفسِهم ، ويُثري لُغَتهم بشتى ألوان المعرفة .

١٦ ـ إذا أحببتم أن يكونَ أطفالُكم من ذوي العُقولِ والنَّباهةِ، فاجعلوا الكتبَ من أصحابهم وأصدقائهم ، واقتنوها لهم ، فإنّها تنمّي عندهم المعرفةَ والفضولَ والسّؤالَ ، وشجّعوهم على كتابةِ وصْفٍ بسيطٍ لأي مشهدٍ يرونه في التّلفزيونِ أو الشّارع أو المدرسةِ ، فإنَّ ذلك ينمّي لديهم مهاراتٍ متنوعةً منها: الحديثُ ومخاطَبةُ النّاس والحوار معهم ، وكذلك تنمو لديهم الشّجاعة الأدبيةُ والعلميّةُ.

١٧ ـ كونوا مستمعين جيّدين لأطفالِكم عندما يتحدّثون ، وأجيبوهم عن أسئلتهم بوضوحٍ وصدقٍ. وجّهوا لهم أسئلةً تعليميّةً مفيدةً ، وشجّعوهم على مناظرِ العلمِ والقراءةِ أكثر من مناظرِ التّلفزيون والفضائياتِ ، وادّخروا بعضَ الوقتِ لتتحدثوا معهم حولَ واجباتِهم وأعمالِهم في المدرسةِ والبيت .

١٨ ـ حدّثوا أطفالكم عن طفولتكم ، وعن حياتكم المدرسيّةِ وعن حياتِكم العائليّة، كيف نجحتُم في التّغلّبِ على الصِّعابِ التي واجهتكم، وكونوا هادئين في التّعامُلِ معهم إذا وقعُوا في خطأ، وعلّموهم الحلَّ، وأرشدوهم إلى الصَّواب .

١٩ ـ شاركوا أطفالكم في هواياتهم ، وشاركوهم في هواياتكم ، ونمّوا لديهم أيَّ موهبةٍ تصقلُ شخصيّاتهم ، وعلّموهم مهاراتٍ جديدةً ، واصبروا على هذه المهمةِ ، لأنّها تعرّفُهم على تجاربَ جديدة .

٢٠ ـ علّموهم أوّلاً وآخراً الآدابَ الإسلاميّةَ ، والأخلاقَ الفاضلةَ ، والقصص الهادفة ، واربطوا ذلك كلّه بدروسٍ مفيدةٍ من القرآن الكريمِ والسّيرة النّبويةِ المطهّرة ، وسير النّبلاء من الصَّحابةِ والتّابعين والأعلامِ في تاريخنا المُشْرقِ الزّاهر المونق ، والغني بكلّ خيرٍ ومكرمة .

* * *

الخَاتمة

* من خلالِ أبوابِ الرِّسالةِ وفصولها ، توصّلنا إلى نتائج مهمّةٍ وتوصياتٍ وتوجيهاتٍ تفيدُ الآباءَ والأمّهاتِ والمربّين في تأديبِ الأطفالِ وتثقيفهم ، وتنميةِ مواهبِهم وإبداعهم ، ومعرفة نفسيّاتهم وسلوكهم ، ومواكبةِ التّطوّراتِ الثقافيةِ المتنوّعةِ في العصرِ الحاضرِ.

* وفيما يلي نستعرضُ أهمَّ هذه النَّتائج والتَّوصيات :

أولاً: الاهتمامُ بأدبِ الأطفالِ وثقافتهم ونفسيّتهم ، وتدريسُ ذلك في المعاهدِ والجامعاتِ كمادةٍ مثلِ سائرِ الموادّ الأخرى ، له أسسُه ومزاياهُ وخصائصُهُ وفنونُهُ ، إذْ إنَّ أدبَ الأطفالِ غدا في الآونةِ الأخيرةِ من أبرزِ الآدابِ العربيّةِ والعالميةِ.

ثانياً: ينبغي الاهتمامُ بالأطفالِ ، وعدمِ الاستهانةِ بقدراتهم فهم قادرون على التّذوقِ الأدبيّ ، وعلى استيعابِ الأدبِ الرّاقي من خلالِ ما يتعلّمونه من زهْرِ الآدابِ وثمرِ الألبابِ؛ ولا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ الأطفالَ لا يستوعبون الأدبَ الرّاقي ، فهذا لا يتوافقُ مع منطقِ العقلِ وواقعِ الأطفالِ ، فكثيرٌ من الأطفالِ في المدارسِ يتعلّمون ويحفظون كثيراً منَ المقطوعاتِ الأدبيّةِ ـ الشِّعريةِ والنَّثريةِ ـ التي ترفلُ بحُلَلِ البلاغةِ والفصاحةِ ، ولا يجدون صعوبةً في حفظِها واستظهارها وفهمها وتحليلها.

ثالثاً: الأنفاسُ النّسويّةُ الشِّعريّةُ تجاهَ الأطفالِ والطُّفولةِ ذاتُ طابَعٍ متميزٍ ،

وحرارةٍ دافئةٍ ، ومشاعرَ صادقةٍ عميقةٍ نابعةٍ من حنايا القُلوبِ وأضالعها ، وكلمات معبّرة ، فالنِّسَاءُ أطولُ عِشْرةً للأطفالِ من الرّجالِ ، وأعرفُ بخبايا نفوسهم الصَّغيرةِ من غيرهم لذلك جاء أدبهم سَلِساً سَهْلَ المعنى ، لطيف المبنى ، خفيف الوزن ، هادفاً ، يصوّرُ مواقفَ مفيدة من حياةِ الأطفالِ ، ويكشفُ عن كثيرٍ من خبايا نفسيّاتهم الصَّغيرة تساعدُ في فَهمِ المربين للتّعامل معهم.

رابعاً: الأبوان لهما دورٌ كبير ومهمٌّ في تأديبِ الأطفالِ وتثقيفِهم الثَّقافةَ الماتعةَ التي تنبعُ من روحِ الإسلامِ وتعاليمِهِ ، فاللغةُ التي يستخدمُها الأبوان مع الأطفالِ تؤثّر ـ ولا شكَّ ـ على فِكْرِهم وخلُقِهم ونموهم العقليّ ، وهي الأداةُ التي تنقلُ الثَّقافاتِ والأدبيَّاتِ والتّصوُّراتِ من جيلٍ إلى جيلٍ ، لذا فإنّنا نرى أنْ يختارَ الأبوان والمربّون والمعلمون أفضلَ الألفاظِ ، وأرقى العباراتِ المهذّبةِ ، وأجملَ الآدابِ الماتعةِ الهادفةِ في التّعامل مع الأطفالِ ، فما أجملَ أنْ ينشأَ الأطفالُ نشأةً عربيةً على السَّليقةِ الصَّافيةِ يميزون طيّبَ الكلامِ من خبيثهِ ، وصالحه من رديئه ، وصحيحه من سقيمه!

خامساً: المعلّمون المخلصُون هم بناةُ الأجيالِ ، وهم الذين يَعْملونَ لصالحِ الأطفالِ أكثرَ ممّا يعملون لصالحِ أنفسهم ، فيجبُ أنْ يُعتنى بهم ، وأنْ يأخذوا مكانتهم الحقيقيةَ والصَّحيحةَ في كافّةِ نواحي الحياة وخصوصاً النّاحية المادية ، ليكونوا قادرين على إعطاءِ المزيدِ والمفيد للأطفالِ الذين هم أملُ المستقبل ، وزينةُ الحياةِ الدنيا وبهجتُها.

سادساً: وسائلُ الإعلامِ المعاصرةِ وفي مقدمتها: الإنترنت ، ثم التّلفزيون وملحقاته ، فالإذاعةُ ، فالصحافةُ والمجلاّتُ ، وما شابَهَ ذلك من أدواتٍ ثقافيةٍ ترتقي بأدبِ الأطفالِ عالياً إذا استغلّها المربّون والآباءُ استغلالاً حَسَناً يساعدُ على تعميقِ الثَّقافةِ في نفوسِ الأطفالِ النَّاشئةِ. أمّا إذا أُهمِلَ هذا الجانبُ ، فإنَّ هذه الوسائلَ تَتَخَطَّفُ الأطفالَ من أيدينا ، وتجتذبُهم إلى فَلِكها ، وبالتَّالي تصعبُ السَّيطرةُ عليهم ، والتّعاملُ معهم بشكلٍ سليمٍ ويشردون في كلّ وجه.

سابعاً: تعميقُ الصّلةِ بين الأطفالِ وبين اللغةِ العربيةِ ، وتحبيبهم بهذه اللغةِ

الجميلةِ التي اختارها اللهُ عزّ وجلّ لتكونَ لغةَ القُرآنِ الكريم ، ولغةَ أهلِ الجنّةِ ، ولغةَ نبيّه محمّدٍ ﷺ ، فهي الوسيلةُ التي يدخلون من أبوابها إلى ميادين السَّعادةِ الحقيقيّةِ في الدَّارَيْنِ.

ثامناً: اللغةُ العربيةُ وعاءٌ يحتوي جميعَ أنواعِ الثَّقافةِ الأدبيّةِ والعلميّةِ ، وبالتالي يجبُ تعويدُ الأطفالِ على التّحدُّثِ بهاَ ، والتّعامل معها معاملةً صحيحةً ، إذ إنَّ قوةَ الأمّةِ في قوةِ لغتها. وتعالوا نقرأ في ختام رحلتنا المونقة قول الله عزَّ وجلّ:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

* * *

فهرسُ المصادرِ والمراجعِ[1]

١ ـ القُرآنُ الكريمُ.

٢ ـ الصَّحيحان: البخاريُ ومسلم؛ وشروحهما.

٣ ـ السُّننُ الأربعةُ وشروحها.

٤ ـ المسَانيدُ.

٥ ـ كتبُ التَّفسيرِ وعلومُ الحديثِ: قديمها وحديثها.

٦ ـ آباءٌ وأبناء: لكامل بنقلسي وخالد قُوطرش ـ منشورات رابطة الأسرةِ والمدرسةِ ـ دمشق ـ دون تاريخ.

٧ ـ الآداب الشَّرعية: لابن مفلح المقدسيّ ـ تحقيق شُعيبَ الأرناؤوط وعمر القيَّام ـ مؤسسةُ الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.

٨ ـ أحْبَابِي: لميسون قصَّاص ـ دارُ رؤى ـ دمشق ـ وهي سلْسَلة شعرية. بعنوان: تعالوا نشدو.

٩ ـ أحجياتُ في أغاريدَ: لعبد الله روضة ـ بيتُ الحكمة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

---

(١) عدتُ في إعدادِ هذه الرسالةِ إلى مئاتِ المصادرِ والمراجعِ العربية والأجنبية، وإلى عددٍ كبيرٍ لا يُستهان به من دواوينِ الشّعراءِ القدماءِ والمحدثين، وكذلك إلى عددٍ ضخمٍ من المجلاتِ والأبحاثِ والدّراساتِ والدّورياتِ وغيرِ ذلك، وقد أوردتُ في هذا الفهرسِ بعضها، بينما تجدُ باقيها مضمناً في أردان الرسالةِ وثناياها.

١٠ ـ **الإحسانُ في القرآنِ الكريمِ**: د. أحمد خليل جُمعة ـ دار اليمامةِ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٤١٨ هـ.
١١ ـ **أحكامُ القُرآن**: لأبي بكر بن العربيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار المعرفةِ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٢ ـ **إحياءُ علومِ الدِّين**: للغزالي، مع شرحهِ: **إتحاف السَّادة المتقين**: للزَّبيدي ـ دارُ الكتبِ العلميّةِ ـ بيروت.
١٣ ـ **الأخلاق الإسلامية**: لعبد الرحمن الميداني ـ دار القلم، دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٣ م.
١٤ ـ **أدبُ الأطفالِ**: لعبدِ الرزّاقِ جعفر ـ منشوراتُ اتّحادِ كُتَّابِ العرب ـ دمشق ـ ١٩٧٩ م.
١٥ ـ **أدبُ الأطفال**: لهادي نعمان الهيتي ـ سلسلةُ الألفِ كتاب ـ الهيئةُ المصريّةُ العامّةُ للكتابِ ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ م.
١٦ ـ **أدبُ الإملاءِ والاستملاء**: للسَّمْعَاني ـ دار الكتبِ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨١ م.
١٧ ـ **الأدبُ وبناءُ الإنسانِ**: للدّكتور علي الحديدي ـ منشوراتُ الجامعةِ الليبية ـ ليبيا ـ كليةُ التّربيةِ ـ ١٩٧٣ م.
١٨ ـ **أدبُ الدُّنيا والدِّين**: للماوردي ـ تحقيق ياسين السَّوَّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
١٩ ـ **أدبُ المرأةِ في الجزيرةِ والخليجِ العربي**: لليلى محمّد صالح ـ منشوراتُ مكتبةُ ذاتِ السَّلاسلِ ـ الكويت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
٢٠ ـ **أساسُ البلاغةِ**: للزَّمخشري ـ طبعةُ دارِ الفكرِ ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م ـ دونَ ذكرِ رقم الطَّبعةِ.
٢١ ـ **الاستيعابُ**: لابن عبد البّر (بهامشِ الإصابةِ) تحقيق د. طه محمّد الزَّيني ـ مكتبةُ ابنِ تيميّةِ ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.
٢٢ ـ **الإصابةُ**: لابن حجر العَسْقَلاني ـ د. طه محمّد الزيني ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.

٢٣ ـ **أصول التّربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**: لعبد الرحمن النحلاوي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٣٩٩ هـ.

٢٤ ـ **أصولُ الفكرِ التّربويّ في الإسلام**: د. عباس محجوب ـ دارُ ابنِ كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.

٢٥ ـ **الأطفال والإدمان التليفزيوني**: لماري وين ـ عالم المعرفة ـ العدد (٢٤٧) الكويت ـ ١٩٩٩ م.

٢٦ ـ **الأعلامُ**: للزّركلي ـ دارُ العِلْمِ للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٤ م. وطبعةٌ أخرى مصوّرةٌ في بيروت في عشرةِ أجزاء.

٢٧ ـ **أعلام النساء**: لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٩ ـ ١٩٨٩ م.

٢٨ ـ **أغاني ترقيص الأطفالِ**: لأحمد أبو سعد ـ دار العلْمِ للملايينِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٤ م.

٢٩ ـ **ألف ليلة وليلة**: درا الشّعب بمصر ـ دون تاريخ ـ وطبعات أخرى في بيروت.

٣٠ ـ **أُمنيةٌ**: د. سعادُ الصَّباح (ديوان شعر) منشوراتُ ذات السَّلاسل ـ الكويت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

٣١ ـ **الأنا ـ الآخر**: د. صالح سعد ـ عالم المعرفة ـ العدد (٢٧٤) ـ الكويت ـ ٢٠٠١ م.

٣٢ ـ **أنباءُ نجباءِ الأبناءِ**: لمحمّد بنِ ظفْر الصّقلّي ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو رقم الطَّبعة.

٣٣ ـ **أنسابُ الأشرافِ**: للبلاذري ـ تحقيق محمّد حميد الله ـ دار المعارف ـ مصر ـ وطبعة دار الفكر ببيروت.

٣٤ ـ **البدايةُ والنِّهايةُ**: لابن كثير ـ طبعةٌ مصورةٌ بدارِ الفكرِ في بيروت عام ١٩٧٨ م.

٣٥ ـ **البصائرُ والذّخائرُ**: لأبي حيّان التّوحيدي ـ تحقيق د. إبراهيم الكيلاني ـ مكتبةُ أطلس ـ دمشق.

٣٦ ـ **بصائرُ ذوي التَّمييز**: للفيروز أبادي ـ طبعةٌ مصوّرةٌ في بيروت.

٣٧ ـ **البيانُ والتَّبيينُ**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعةُ لجنةِ التّأليفِ والتّرجمةِ والنَّشْرِ ـ القاهرة ـ ١٩٤٩ م.

٣٨ ـ **تحفة المودود بأحكام المولود**: لابن قيم الجوزية ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ـ دمشق ـ ١٩٧١ م.

٣٩ ـ **التّذكرةُ الحمدونيةُ**: للحمدوني ـ تحقيق ـ د. إحسان عبّاس وبكر عباس ـ دارُ صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٤٠ ـ **التّربيةُ الإسلاميّةُ والمشكلات المعاصرة**: لعبد الرّحمن النّحلاوي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٤٠٢ هـ.

٤١ ـ **تربيةُ الذّوق الجمالي**: د. محمود البسيوني ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ هـ.

٤٢ ـ **التّربية عند العرب**: لخليل طوطح ـ منشورات وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ الكتاب الشَّهري (١٨).

٤٣ ـ **التّربيةُ في الإسلامِ**: لأحمد فؤاد الأهواني ـ دارُ المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.

٤٤ ـ **تعليم المتعلّم**: لبرهان الدين الزّرنوجي ـ طبعات مختلفة ومنها طبعة دار ابن كثير بدمشق.

٤٥ ـ **تفسيرُ القُرطبيّ**: تحقيق سالم مصطفى البدري ـ دارُ الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠ م.

٤٦ ـ **تهذيبُ الأسماءِ واللغاتِ**: للنّوويّ ـ دارُ الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م وطبعةٌ أخرى مصوّرةٌ بدارِ الكتبِ العلميّةِ ببيروت ـ دون تاريخ.

٤٧ ـ **التّوكُّلُ (سبيلُه ـ تمرتُه ـ حقيقتُه)**: د. أحمد خليل جُمعَة ـ دارُ اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

٤٨ ـ **ثقافةُ الأطفالِ**: د. هادي نعمان الهيتي ـ سلسلةُ عالَم المعرفةِ ـ الكويت ـ العدد رقم ١٢٣ .
٤٩ ـ **ثقافة الطّفل العربيّ**: مجموعة من الكتّاب ـ كتاب العربي ـ رقم (٥٠) الكويت ـ ٢٠٠٢ م.
٥٠ ـ **ثمراتُ الأوراقِ**: للحمويّ ـ (بهامشِ المستطرف) طبعةُ دارِ الفكر المصوّرة ببيروت ـ دون تاريخ.
٥١ ـ **جامعُ بيانِ العلْم وفَضْلِه**: لابن عبد البرّ ـ دارُ الكتب الحديثة ـ القاهرة. وطبعة أخرى مصورة ببيروت.
٥٢ ـ **الجليسُ الصَّالح الكافي**: للنهراوني ـ تحقيق د: مرسي الخولي ود. إحسان عباس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.
٥٣ ـ **حصَادُ الدَّمع**: د. محمد رجب البيومي (ديوان شعر) ـ دارُ الأصالةِ ـ الرّياض ـ ط ٢ ـ ١٩٨٤ م.
٥٤ ـ **حليةُ الأولياءِ**: لأبي نُعيم الأصفهاني ـ دارُ الكتابِ العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٥٥ ـ **حماسةُ الظُّرفاءِ**: للعبد الكناني الزّوزني ـ دارُ الكتب العلميّةِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٢ م. وطبعة العراق.
٥٦ ـ **حياةُ الصَّحابة**: للكاندهلويّ ـ تحقيق نايف العبّاس ومحمّد دولة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٦ م.
٥٧ ـ **ديوانُ ابن الرُّومي**: لابن الرُّومي ـ دارُ الكتبِ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
٥٨ ـ **ديوانُ إبراهيم طُوقان**: لإبراهيم طوقان ـ دارُ العودةِ ـ بيروت ـ طبعةٌ مصوّرةٌ.
٥٩ ـ **ديوانُ إسماعيل صبري**: حقَّقه د. محمد القَصَّاص ورفيقاه ـ دارُ إحياءِ التّراثِ العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٦٠ ـ **ديوانُ بدوي الجبل**: لبدوي الجبَل ـ طبعةٌ مصورةٌ ببيروت.
٦١ ـ **ديوانُ جرير**: لجرير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٦٢ ـ **ديوانُ حصاد الظِّلالِ**: د. عبد الكريم اليافي ـ منشوراتُ وزارةِ الثَّقافةِ ـ دمشق ـ ٢٠٠١ م.

٦٣ ـ **ديوانُ رياح السِّنين**: لراضي صدّوق ـ دارُ كرمةَ للنَّشر ـ روما ـ ط ١ ـ ١٩٩٥ م.

٦٤ ـ **ديوانُ شموع الكهف**: لنصرة سعيد ـ مطبعةُ الضَّاد ـ سوريا ـ حَلَب ـ ١٩٥٩ م.

٦٥ ـ **ديوانُ عازفة القيثار**: لعفيفة الحصني ـ المطبعةُ التَّعاونية ـ دمشق ـ دون تاريخ.

٦٦ ـ **ديوان في موكبِ الضياء**: لأبو زيد إبراهيم سيّد ـ منشوراتُ نادي المدينة المنوّرة الأدبي ـ السُّعودية ـ دون تاريخ.

٦٧ ـ **ديوانُ المتنبّي**: بشرحِ البرقوقي ـ دار الكتبِ العلميّةِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠١ م.

٦٨ ـ **ديوانُ محمد العيد**: لمحمد العيد ـ الجزائر ـ الشركةُ الوطنيةُ للنشْرِ والتّوزيع ـ مطبعةُ أحمد زبانة ـ دون تاريخ.

٦٩ ـ **ديوانُ محمد الماحي**: لمحمد الماحي ـ مطبعةُ الإخاءِ ـ القاهرةِ ـ ١٩٣٤ م.

٧٠ ـ **ديوانُ النَّار والطّين**: لراضي صدّوق ـ دارُ الآداب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٦٦ م.

٧١ ـ **ديوانُ نازك الملائكة**: لنازك الملائكة ـ دارُ العودةِ ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.

٧٢ ـ **ديوانُ وحدي مع الأيامّ**: لفدوى طوقان ـ دارُ العودةِ ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٧٤ م.

٧٣ ـ **الذكاء العاطفي**: لدانييل جولمان ـ عالم المعرفة ـ العدد (٢٦٢) الكويت ـ ٢٠٠٠ م.

٧٤ ـ **رياحينُ القُلوب**: ليحيى حاج يحيى ـ دارُ ابنِ حزم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

٧٥ ـ **زهرُ الآدابِ**: للحصري ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دارُ إحياءِ الكتبِ العربيةِ ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠ م.
٧٦ ـ **سُبُل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد**: للصّالحيّ ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وعدد من العلماء ـ لجنة التّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ هـ.
٧٧ ـ **السّحابُ الأحمرُ**: لمصطفى صادق الرّافعيّ ـ دارُ الكتابِ العربي ـ بيروت ـ ط ٧ ـ ١٩٧٤ م.
٧٨ ـ **سلوكُ الطّفْلِ**: د. فرانسيس أيلغ ود. لويز أيمز ، ترجمة د. فاخر عاقل ـ دار طلاس ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.
٧٩ ـ **سيرُ أعلامِ النُّبلاء**: للذَّهبي ـ تحقيق مجموعةٍ من العلماء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.
٨٠ ـ **السِّيرةُ النبويةُ**: لابن هشام ـ تحقيق السَّقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٥٥ م.
٨١ ـ **سيكولوجية اللعب**: د. سوزانا ميلر ـ عالم المعرفة ـ العدد (١٢٠) الكويت ـ ١٩٨٧ م.
٨٢ ـ **شاعراتُ العربِ**: جمعُ وتحقيقُ عبد البديع صقر ـ المكتبُ الإسلامي ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.
٨٣ ـ **شَذَرَاتُ الذَّهبِ**: لابن العماد ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دارُ ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.
٨٤ ـ **شرحُ مقاماتِ الحريري**: للشَّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبةُ العصريةُ ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م.
٨٥ ـ **الشِّعرُ والشعراءُ في ليبيا**: لمحمد الصَّادق عفيفي ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.
٨٦ ـ **الشّعرُ المعاصر على ضوء النّقد الحديث**: لمصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ مطبوعات تهامة ـ جدة ـ السعودية ـ ط٢ ـ ١٩٨٤ م.
٨٧ ـ **الشَّوقياتُ**: لأحمد شوقي ـ دارُ الفكْرِ ـ بيروت ـ طبعةٌ مصورةٌ.
٨٨ ـ **الشوقياتُ المجهولةُ**: بقلم د. محمد صبري ـ مطبعةُ دارِ الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٢ م.

٨٩ ـ **صبحُ الأعشى**: للقلقشنديّ ـ طبعةُ وزارةِ الثَّقافةِ والإرشادِ القومي ـ مصر ـ دون تاريخ.

٩٠ ـ **الصَّبرُ والصَّابرون**: د. أحمد خليل جمعة ـ دارُ الكلمِ الطَّيِّب ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٤١٥ هـ.

٩١ ـ **الصِّحاح**: للجوهري ـ دار الفكرِ ـ بيروت ـ طبعةٌ محققةٌ بتحقيق شهابِ الدين أبو عَمرو ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٩٢ ـ **الصّدقُ والصَّادقونُ**: د. أحمد خليل جمعة ـ دارُ الكلم الطّيِّب ـ دمشقِ ـ ط ١ ـ ١٤١٥ هـ

٩٣ ـ **صيدُ الخاطرِ**: لابن الجوزيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م. وطبعات أخرى.

٩٤ ـ **الطَّبقاتُ الكبرى**: لابنِ سعد ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٩٥ ـ **طفلُكَ وفنُّه**: لفكتور لونيفلد ـ ترجمةُ علي الجمال ـ سلسلةُ الألف كتاب ـ رقم ٣٧٥ ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.

٩٦ ـ **الطّفلُ في الشَّريعةِ الإسلامية**: د. محمد أحمد الصَّالح ـ مطبعةُ نهضةِ مصر ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

٩٧ ـ **الطّفل في ضوء القرآن والسّنّة والأدب**: د. أحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠١ م.

٩٨ ـ **الطّفولةُ في الشِّعرِ العربي الحديث**: د. إبراهيم صبيح ـ دارُ الثَّقافةِ ـ قطر ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

٩٩ ـ **الطّفولةُ في الشِّعرِ العربيّ والعالميّ**: د. أحمد كنعان ـ دارُ الفكر ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٥ م.

١٠٠ ـ **عظماء في طفولتهم**: د. محمد المنسي قنديل ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ العدد (٥٦٢).

١٠١ ـ **العِقْدُ الفريدُ**: لابن عبد ربه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنةُ التَّأليف والتَّرجمةِ والنَّشر ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٢ م.

١٠٢ ـ **عيونُ الأخبارِ**: لابن قتيبة ـ طبعة مصوَّرة عن دارِ الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.

١٠٣ ـ **العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ**: لمحمد جلال عثمان ـ تحقيق عامر محمد بحيري ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ م.

١٠٤ ـ **غذاءُ الألبابِ**: للسَّفاريني ـ طبعة دارِ الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

١٠٥ ـ **الغيثُ المسجم في شرح لاميةِ العجم**: للصَّفدي ـ دارُ الكتبِ العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٠ م.

١٠٦ ـ **فتحُ الباري**: لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محبّ الدّين الخطيب ـ المكتبةُ السّلفية ـ القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٤٠٨ هـ.

١٠٧ ـ **فرسانٌ من عَصْرِ النّبوّةِ**: د. أحمد خليل جمعة ـ دارُ اليمامةِ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

١٠٨ ـ **قاموس الألفاظ الإسلامية (عربي ـ إنكليزي)**: لديب الخضرواي ـ دار اليمامة ـ دمشق ط٢ ـ ٢٠٠٢ م.

١٠٩ ـ **القاموس المحيط**: للفيروز أبادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.

١١٠ ـ **قصصُ الأنبياء**: لابن كثير ـ دارُ ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٩٥ م.

١١١ ـ **قصصُ العرب**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقهُ ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.

١١٢ ـ **قلائدُ الحكم**: لعبدِ الوهابِ صالح ـ دارُ عمار ـ الأردن ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

١١٣ ـ **الكاملُ في اللغةِ والأدب**: للمبرد تحقيق محمد أحمد الدالي ـ مؤسّسةُ الرّسالةِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.

١١٤ ـ **كتاب ألف باء**: للبلويّ: مصوّرة عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ الطبعة أو رقمها.

١١٥ ـ **كتابُ المعرفةِ (قصيدة وشعراء)**: إصدار مجلة المعرفة ـ السَّعودية ـ رقم الكتاب ٤ ـ سنة ١٤١٩ هـ.

١١٦ ـ **كيف تستثمرُ وقتَ طفلكَ**: سلسلةُ سفير التَّربوية ـ رقم الكتاب (٣).

١١٧ ـ **اللزوميات**: لأبي العلاء المعري ـ دار صادر ـ بيروت.

١١٨ ـ **لسانُ العرب**: لابن منظور ـ دارُ صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١١٩ ـ **مجمعُ الزوائد**: للهيثميّ ـ دارُ الكتابِ العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٢٠ ـ **مجملُ اللغةِ**: لابن فارس ـ حقَّقه شهابُ الدِّين أبو عمرو ـ دارُ الفِكْرِ ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

١٢١ ـ **المحاسنُ والأضدادُ**: للجاحظ ـ حقّقه محمد سُويد ـ دارُ أحياء العلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.

١٢٢ ـ **المحاسنُ والمساوىء**: للبيهقي ـ حققه محمد سويد ـ دارُ إحياءِ العلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.

١٢٣ ـ **محاضراتُ الأدباء**: للرّاغبِ الأصفهاني ـ دارُ مكتبةِ الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ ـ وطبعةٌ أخرى محققة ببيروت بتحقيق د. عمر الطباع.

١٢٤ ـ **مختصرُ تاريخِ مدينة دمشق لابن عساكر**: لابن منظور ـ تحقيق عدد من الأساتذة ـ دارُ الفكْرِ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١٢٥ ـ **المدرسة والأسرة والصّحّة النّفسيّة لأبنائنا**: د. كلير فهيم ـ كتاب الهلال ـ القاهرة ـ العدد (٣٩٦) عدد ديسمبر ١٩٨٣ م.

١٢٦ ـ **مروجُ الذَّهب**: للمسعودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٢٧ ـ **المُستدركُ على الصَّحيحين**: للحاكم النّيسابوري ـ مكتبُ المطبوعاتِ الإسلامية ـ حلب.

١٢٨ ـ **المستطرفُ**: للأبشيهي ـ مصورةُ دارِ الفكْرِ عن طبعة مصر عام ١٢٧٧ هـ.

١٢٩ ـ **مسندُ أبي يعلى**: لأبي يعلى الموصليّ ـ تحقيق حُسَين أسد ـ دارُ المأمونِ للتراثِ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.

١٣٠ ـ المسندُ: للإمامِ أحمد ـ طبعةُ دارِ الفكْرِ المحققة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧ م.
١٣١ ـ مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد: لعدنان باحارث ـ دار المجتمع ـ جدة ـ ط ٤ ـ ١٩٩٣ م.
١٣٢ ـ المصباحُ المنيرُ: للفيومي ـ طبعةٌ مصوّرةٌ ـ دون تاريخ ودون ذكر اسم دار النشر.
١٣٣ ـ المعارفُ: لابنِ قُتيبةَ ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٧٧ م.
١٣٤ ـ معجمُ البلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التّراثِ العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣٥ ـ معجمُ شعراءِ الطُّفولةِ: لأحمد فضل شبلول ـ دار المعراج الدّولية ـ الرياض ـ ط ١٩٩٨ م.
١٣٦ ـ المعجم الموسوعي في علم النَّفس: لنوربير سيلامي ـ ترجمةوجيه أسعد ـ وزارةالثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠١ م.
١٣٧ ـ المعجم الوسيط: أخرجه د. إبراهيم مصطفى ورفاقه ـ طبعة تركيا.
١٣٨ ـ المغازي: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣٩ ـ المغني: لابن قدامة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م.
١٤٠ ـ مقدمةُ ابن خلدون: لابن خلدون ـ دارُ القلم ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م، وطبعات أخرى.
١٤١ ـ المهذبُ من إحياءِ علوم الدين: للغزالي ـ إعدد صالح أحمد الشَّامي ـ دارُ القلم ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٩٨ م.
١٤٢ ـ المواهبُ اللدنية: للقسطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١ م.
١٤٣ ـ نهايةُ الأربِ: للنّويري ـ طبعةُ مصوّرةٌ عن طبعةِ دارِ الكتب ـ مصر دون تاريخ.

١٤٤ ـ **نوادرُ الخلفاءِ المسمّى (إعلام الناس)**: للأتليدي ـ تحقيق أيمن بحيري ـ دارُ الآفاقِ العربيةِ ـ القاهرةِ ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

١٤٥ ـ **الهجرة في القرآن**: لمحمد الدسوقي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.

١٤٦ ـ **هزُّ القحوف في شرحِ قصيدةِ أبي شادوف**: ليوسُف الشَّربيني ـ إعداد محمد قنديل النقلي ـ طبعة دار النهضة المصرية.

١٤٧ ـ **الوافي بالوفيَات**: للصَّفدي ـ دارُ إحياءِ التُّراث العربي ـ بيروت ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠ م.

١٤٨ ـ **وفاء الوفا**: للسّمهودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٤ م.

١٤٩ ـ **وفياتُ الأعيان**: لابن خلّكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ دارُ صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

ومصادرُ أخرى كثيرة جدّاً منثورةٌ في ثنايا الرّسالةِ بالإضافةِ إلى عددٍ كبير جداً من المجلاتِ والدّورياتِ قديمها وحديثها

والله الموفق

* * *

فهرس الموضوعات

الإهداء ٥

المقدمة وعرض الكتاب ٧

الباب الأول

الأطفال والطفولة في مرآة الأدب

الفصل الأوَّل: الأطفال في اللغة وعلم النَّفس ١٥

الفصل الثاني: الاهتمام بالأطفال تربيةً وسلوكاً ٢١

الفصل الثالث: علوُّ همّة الأطفال وأدبهم ٣٣

الفصل الرَّابع: الأطفال والتَّذوق الأدبي ٥١

الفصل الخامس: حروف اللغة العربية ثراء أدبي ٦٣

الفصل السَّادس: همساتُ القلوب إلى حبّات القلوب ٩٥

الفصل السَّابع: الأطفال في أدب الوالدين ١٠٩

الفصل الثَّامن: من أَدبيّاتِ رثاء الأطفال ١٣١

الباب الثاني

روافد ثقافية للأطفال والطفولة

الفصل الأول: فوائد من القرآن والسِّيرة ١٤١

الفصل الثاني : عبادات وسلوكيات في أهازيج ١٥٩
الفصل الثالث : تعليم الأطفال مكارم الأخلاق ١٧٧
الفصل الرابع : قصص الحيوان وثقافة الأطفال ١٩١
الفصل الخامس : أحجيات في أغاريد ١٩٩
الفصل السادس : المسرح وأثره في ثقافة الأطفال ٢١٣
الفصل السابع : القصة رافد لثقافة الأطفال ٢٣٣

الباب الثالث

عوامل في ارتقاء ثقافة الأطفال وأدبهم

الفصل الأول : ثقافة الأطفال ضرورة تربوية ٢٤٥
الفصل الثاني : مؤثرات في بناء ثقافة الأطفال ٢٤٩
أولاً : الأبوان والإخوة الكبار ٢٥٠
ثانياً : المسجدُ ورسالتُه الثَّقافية ٢٦١
ثالثاً : المدرسة والأسرة التعليمية ٢٧٧
رابعاً : المعلِّم وأثره الثَّقافي بنفوس الأطفال ٢٩٢
الفصل الثالث : وسائل الإعلام وأثرها الثَّقافي ٣٢١
الفصل الرابع : القراءة والكتب والصحافة ثراءٌ ثقافي ٣٢٥
الفصل الخامس : الرسم يرتقي بثقافة الأطفال ٣٤١
الفصل السادس : التلفزيون داء أم دواء ٣٥١
أولاً : هل التلفزيون صديق الأطفال؟ ٣٦٠
ثانياً : هل نتفاءل بصداقة التلفزيون للأطفال؟ ٣٦٤
ثالثاً : هل الأطفال من ضحايا التلفزيون؟ ٣٧٠
رابعاً : ما مقدار المشاهدة التلفزيونية للأطفال؟ ٣٧٤
خامساً : هل يستفيد الأطفال من المشاهدة؟ ٣٧٦
سادساً : هل التلفزيون يسحر الأطفال؟ ٣٨٠

الفصل السابع : نصائح ثقافية للوالدين ٣٨٥
الخاتمة ٣٨٩
فهرس المصادر والمراجع ٣٩٣
فهرس الموضوعات ٤٠٥